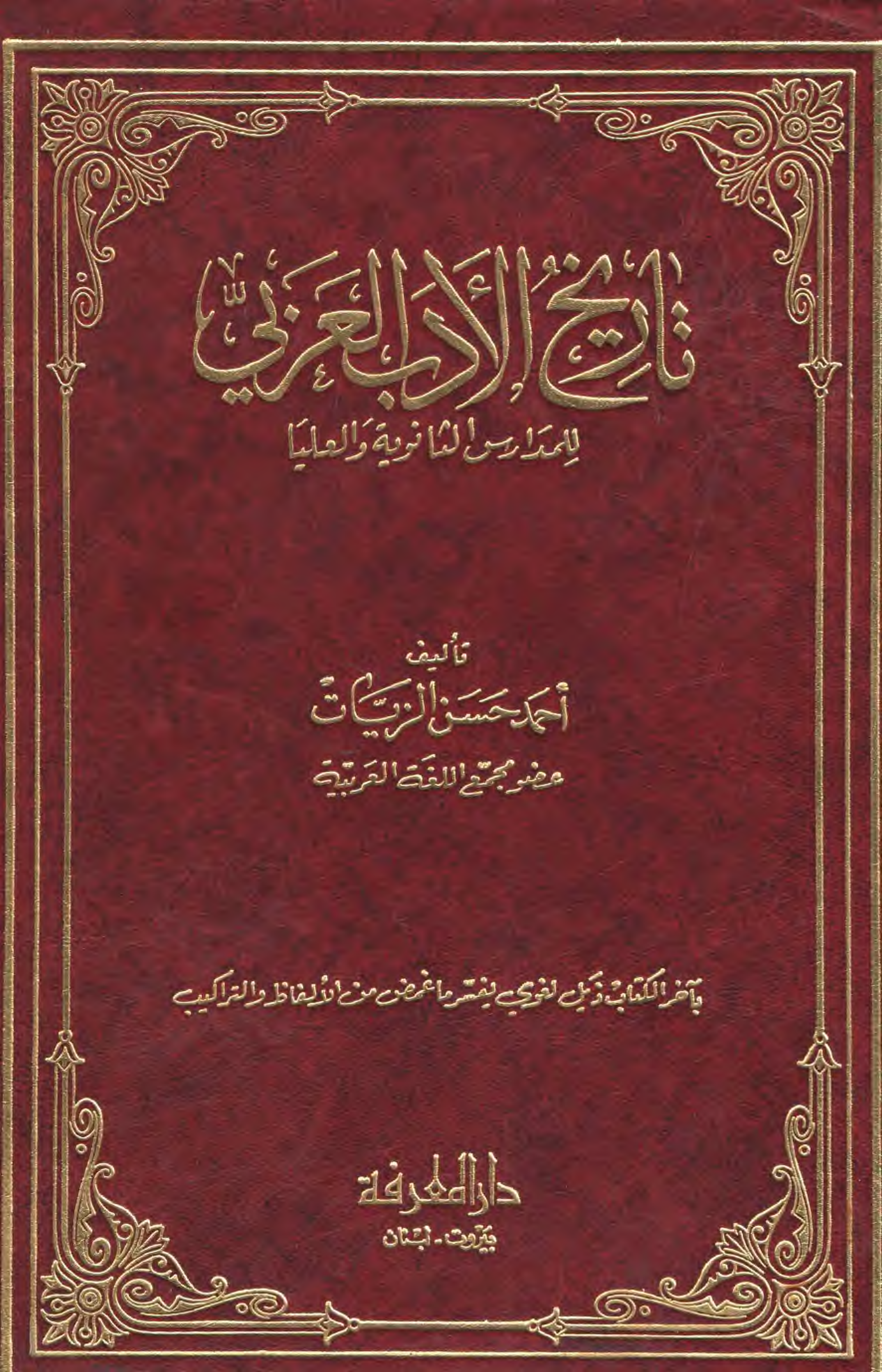
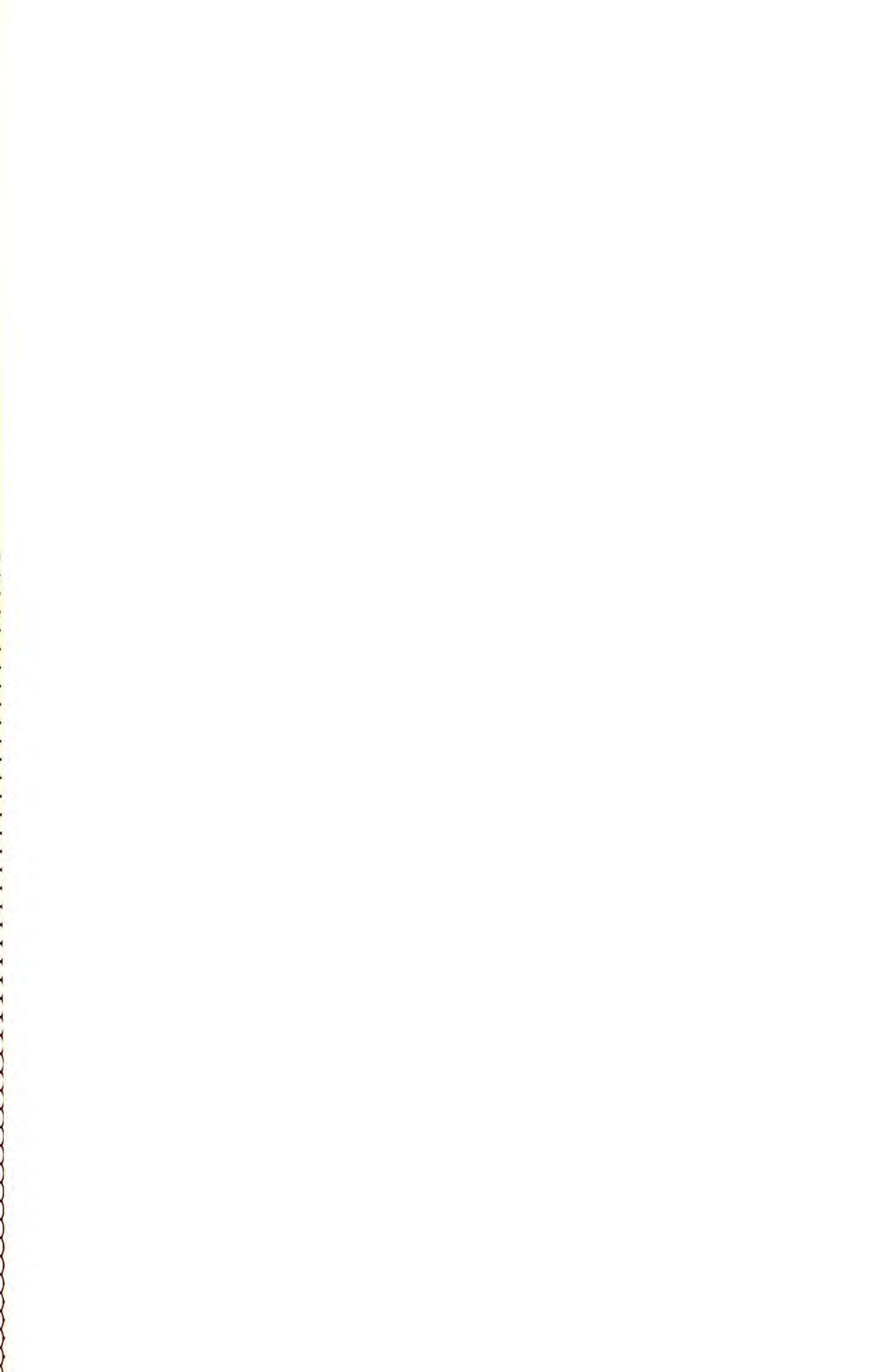


تاريخ الأدب العربي
للمدارس الثانوية والعليا
تأليف
أحمد حسن الزيات
عضو مجمع اللغة العربية
بآخر الكتاب ذيل لغوي يفسر ما غمض من الألفاظ والتراكيب
دار المعرفة
بيروت - لبنان


تاريخ الأدب العربي
للمدارس الثانوية والعليا





لِلمدارس الثانوية والعليا

تأليف

أحمد حسن الزيات

عضو مجمع اللغة العربية

بآخر الكتاب ذيل لغوي يفسّر ما غمض من الألفاظ والتراكيب

دار المعرفة

بيروت . لبنان

طبعة جديدة منقحة ومصححة
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع
Publishing & Distributing
DAR EL-MAREFAH



مستديرة المطار - شارع البرجاوي ص.ب ٧٨٧٦ تلفون: ٨٣٤٣٠١-٨٣٤٣٣٢ - برقياً معرفكار بيروت. لبنان



ترجمـــة المؤلـــف

أحمـد حسـن الزيـات

١٨٨٥ ـ ١٩٦٨ م

١٣٠٢ ـ ١٣٨٨ هـ

هو: صاحب «الرسالة» أديب من كبار الكتّاب مصري ولد بقرية كفر دميرة القديم، في طلخا، ودخل الأزهر قبل الثالثة عشرة، وفصل قبل إتمام دراسته. وعمل في التدريس الأهلي. فعلّم العربية في مدرسة «الفرير» نحو سبع سنوات. وتعلم مدة في مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة. ودرّس الأدب العربي في المدرسة الأميركية بالقاهرة (١٩٢٢) ثم في دار المعلمين ببغداد (١٩٢٩) وأقام ثلاث سنوات صنف فيها كتابه «العراق كما عرفته» وآحترق الكتاب قبل نشره. وعاد إلى القاهرة، فأصدر مجلة «الرسالة» سنة (١٩٣٣ ـ ٥٣) ثم إلى جانبها «الرواية» وأغلقهما. وآنتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة. وعين في المجلس الأعلى للآداب والفنون. وكان قبل ذلك من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. ونال جائزة الدولة التقديرية (سنة ٦٢) ثم أعاد الرسالة سنة (٦٣) فلم تكن لها مكانتها الأولى، فآحتجبت وآنقطع إلى تحرير «مجلة الأزهر» سنة ١٣٧٢ ـ ٧٤ هـ، وتوفي بالقاهرة. وحمل إلى قريته فدفن فيها. وأول ما علت به شهرته، كتاب «تاريخ الأدب العربي ـ ط» ثم كان من كتبه المطبوعة «دفاع عن البلاغة» و «حي الرسالة» أربعة أجزاء، و «في أصول الأدب» و «في ضوء الرسالة». وترجم عن الفرنسية «آلام فرتر ـ ط» لجوته، و « روفائيل ـ ط» للامارتين. وكان من أرق الناس طبعاً، ومن أنصع كتّاب العربية ديباجة وأسلوباً. وللسيد جمال الدين الألوسي كتاب «أدب الزيات في العراق ـ وهو مطبوع»[1].

---

(١) ـ انظر عن حياته: المجمعيون ص ٣٣ وعدنان الخطيب في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق: ٤٣/٦٧٦ والدكتور مهدي علام في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة: ٢٤/٢١٣ وفي بحثه أن ابناً للزيات أخبره نقلاً عن أبيه أن الصحيح في تاريخ ميلاده هو ١٨٨٣؟ والأدب العربي والنصوص: ٦/٦٨٠ وجريدة الأهرام ١٣/٦/٦٨ وانظر الدراسة: ٣/٥٠٧ نقلاً عن الأعلام للزركلي: ١/١١٤.



مقدمة

أدب اللغة

أدب اللغة ما أثِرَ عن شعرائها وكتّابها من بدائع القول المشتمل على تصور الأخيلة الدقيقة، وتصوير المعاني الرقيقة، مما يهذب النفس ويرقق الحس ويثقف اللسان. وقد يطلق الأدب على جميع ما صنف في كل لغة من البحوث العلمية والفنون الأدبية، فيشمل كل ما أنتجته خواطر العلماء وقرائح الكتاب والشعراء.

والآداب العربية أغنى الآداب جمعاء؛ لأنها آداب الخليقة منذ طفولة الإنسان إلى اضمحلال الحضارة العربية. فما كانت لغة مُضرَ بعد الإسلام لغة أمة واحدة، وإنما كانت لغة لجميع الشعوب التي دخلت في دين الله أو في كنفه، أودعوها معانيهم وتصوراتهم، وأفضوا إليها بأسرار لغاتهم، ثم جابت أقطار الأرض تحمل الدين والأدب والحضارة والعلم، فصرعت كل لغة نازلتها وَوَسِعَتْ علوم الأولين وآداب الأقدمين، من يونان وفُرس ويهود وهنود وأحباش، واستمسكت على عَرْكِ الخطوب تلك القرون الطويلة، فشهدت مصارع اللغات حولها وهي مرفوعة الرأس رابطة الجأش ترث نتاج القرائح وثمار العقول من كل أدب ونِحْلة، فكانت لغات الأمم على اختلافها كالجداول والأنهار، تتألف، ثم تتشعب، ثم تتجمع، ثم تصب في محيط واحد هو اللغة العربية.

تاريخ الأدب:

تاريخ الأدب علم يبحث عن أحوال اللغة وما أنتجته قرائح أبنائها من بليغ النظم والنثر في مختلف العصور، وعما عرض لهما من أسباب الصعود والهبوط والدثور، ويعنى بتاريخ النابهين من أهل الكتابة واللسَنِ ونقد مؤلفاتهم وبيان تأثير بعضهم في بعض بالفكرة والصناعة والأسلوب.

ذلك تعريف تاريخ الأدب بمعناه الأخص، أما تعريفه بمعناه الأعم فهو وصف مسلسل

مع الزمن لما دون في الكتب وسجل في الصحف ونقش في الأحجار تعبيراً عن عاطفة أو فكرة، أو تعليماً لعلم أو فن، أو تخليداً لحادثة أو واقعة. فيدخل فيه ذكر من نبغ من العلماء والحكماء والمؤلفين وبيان مشاربهم ومذاهبهم وتقدير مكانتهم في الفن الذي تعاطوه ليظهر من كل ذلك تقدم العلوم جميعاً أو تأخرها.

فائدة تاريخ الأدب:

لتاريخ الأدب الأثر البالغ في حياة الأمة. فإن المحافظة على اللغة وما فيها من ثمار العقل والقلب أحد الآساس التي يبني عليها الشعبُ وحدته ومجده وفخره. فإذا حرمتَ شعباً آدابه وعلومه الجليلة الموروثة فقطعتَ سياق تقاليده الأدبية والقومية حرمتَه قوام خصائصه ونظام وحدته، وقُدته إلى العبودية العقلية وهي شر من العبودية السياسية، لأن استعباد الجسم مرض يمكن دواؤه، ويرجى شفاؤه، أما استعباد الروح فموت للقومية التي لا يقدر على إحيائها طبيب.

تقسيم تاريخ الأدب:

التاريخ الأدبي وثيق الصلة بالتاريخ السياسي والاجتماعي لكل أمة، بل قل إن كليهما لازم للآخر مؤثر فيه ممهد له. غير أن الأول إنما يسبق الثاني كما تسبق الفكرة العمل والرأي العزيمة، فكل ثورة سياسية أو نهضة اجتماعية إنما تعدها وتمدها ثورة فكرية تظهر أولاً على ألسنة الشعراء وأقلام العلماء لقوة الحس فيهم، وصفاء النفس منهم؛ ثم ينتقل تأثرهم وتطورهم إلى سائر الناس بالخطابة والكتابة فتكون الثورة أو النهضة.

لذلك آثرنا أن نجاري كثرة كتابنا في تقسيم تاريخ ادابنا إلى خمسة أعصر على حسب ما نال الأمم العربية والإسلامية من التقلبات السياسية والاجتماعية وهي:

(١) ـ العصر الجاهلي، ويبتدىء باستقلال العدنانيين عن اليمنيين في منتصف القرن الخامس للميلاد، وينتهي بظهور الإسلام سنة ٦٢٢ م.

(٢) ـ عصر صدر الإسلام والدولة الأموية، ويبتدىء مع الإسلام وينتهي بقيام الدولة العباسيّة سنة ١٣٢ هـ.

(٣) ـ العصر العباسي، ومبدؤه قيام دولتهم ومنتهاه سقوط بغداد في أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ.

(٤) ـ العصر التركي، ويبتدىء بسقوط بغداد وينتهي عند النهضة الحديثة سنة ١٢٢٠ هـ.

(٥) ـ العصر الحديث، ويبتدىء باستيلاء محمد علي على مصر ولا يزال.

العرب ومواطنهم وطبقاتهم وقبائلهم المشهورة:

العرب أمة من الأمم التي اصطلح المؤرخون على أن يسموها سامية (نسبة إلى سام بن نوح) وهي البابلية والأشورية والعبرانية والفينيقية والآرامية والحبشية. امتهدت هذه الشعوب في الأصل مهداً واحداً نشأت فيه وتفرقت منه. وتعيين هذا المهد لا يزال موضع الخلاف وموضوع البحث: فبعض يقول إنه العراق، وبعض يرجح أنه جزيرة العرب، وآخرون يزعمون أنه الحبشة. ومهما يكن الخلاف في مهد الساميين فقد نزحوا منه في غابر الدهر، فسكن البابليون والأشوريون العراق، والفينيقيون سواحل سورية. والعبرانيون فلسطين، والأحباش الحبشة، والعرب شبه جزيرتهم. وهي واقعة إلى طرف الجنوب الغربي من آسيا. ويحدها من الشمال سورية، ومن الشرق الفرات وجهة من المحيط الهندي أيضاً، ومن الغرب البحر الأحمر. ثم يقسمها جبل السراة الممتد من اليمن إلى أطراف بادية الشام قسمين: غربياً وشرقياً؛ فالغربي يهبط من سفح ذلك الجبل إلى شاطىء البحر الأحمر فيسمى الغور لانخفاضه أو تهامة لحره والشرقي يصعد إلى أطراف العراق والسماوة فيسمى نجداً لارتفاعه، وما فصل بين الغور ونجد يدعونه الحجاز لحجزه بينهما. أما ما ينتهي به نجد في الشرق حتى يصل إلى الخليج العربي من بلاد اليمامة الكويت والبحرين وعمان فيسمى بالعروض لاعتراضه بين اليمن ونجد؛ وما يمتد وراء الحجاز إلى الجنوب يسمى اليمن إما لوقوعه على يمين الكعبة، وإما ليمنه.

وفي هذه الأقسام توزع الشعبان العربيان: شعب قحطان، وشعب عدنان. فأما القحطانيون فسكنوا اليمن وكانت لهم فيه عمارة عظيمة وحضارة زاهرة. فلما نَبَتْ بهم مرابعه تمزقوا في البلاد، فذهب من كهلان ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فغلب اليهود على يثرب، وكان من أعقابه الأوس والخزرج. ثم احتل حارثة بن عمرو وهو خزاعة، الحرم. ومال عمران بن عمرو نحو عمان، فبنوه أزد عمان. واستوطنت قبائل نصر بن الأزد تهامة وهم أزد شنوءة؛ ووقف زواد جفنة بن عمرو بالشام فأقام بها هو وبنوه فكان منهم الغساسنة. ونزل بنو لخم بالحيرة ومنهم نصر بن ربيعة أبو المناذرة. وأما العدنانيون فسكنوا الحجاز وما ياسره إلى ريف العراق، فأقامت بطون قريش في مكة وضواحيها، وبطون كنانة في تهامة، واحتلت ذبيان ما بين تيماء وحوران. وسكنت ثقيف الطائف، وهوازن شرقي مكة، ونزل بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة، وبنو تميم بادية البصرة. واستوطنت قبائل تغلب الجزيرة الفراتية. وحلت سائر بكر بن وائل طول الأرض من اليمامة إلى البحر، فأطراف سواد العراق فالأبلة، فهيت.

والمؤرخون يرجعون العرب إلى ثلاث طبقات:

بائدة: وهم الذين درست أخبارهم وطمست آثارهم، فلم يسجل لهم التاريخِ إلا

صفحات مشوهات لا تنفي ظناً ولا تثبت حقيقة. وأشهر قبائلهم: عاد وثمود وطَسمٌ وجدِيسُ. ﴿فأما ثمودُ فأُهْلكوا بالطاغية. وأما عادٌ فأهلكوا بريح صَرصر عاتية﴾[1] وأما طسم وجديس فتفانوا كما يزعمون في حادثة نسائية خرافية.

وعاربة: وهم اليمنيون المنتمون إلى يعرب بن قحطان المذكور في التوراة باسم يارح بن يقطان. ويزعم العرب أنه أصل لسانهم، ومصدر بيانهم وبذلك يفتخر حسان بن ثابت في قوله:

تعلمتُمُ من منطق الشيخ يَعْرُبِ ... أبينا فصرتم مُعربين ذوي نفْرِ
وكنتم قديماً مالكم غيرَ عُجمةٍ ... كلامٌ وكنتم كالبهائم في القفْرِ

ومن اليمنيين بطون حمير ـ وأشهرهم زَيد الجمهور وقضاعة والسكاسك. وبطون كهلان ـ وأشهرهم همدان وطيىء ومذحجُ وكندة ولخْم. ومن لخم بنو المنذر في الحيرة والأزْد. ومن الأزد الأوس والخزرج في المدينة والغساسنة في الشام. وكانت لحمير السيادة على اليمن فمنهم الملوك والأقيال.

ثم مستعربة: وهم ولد إسماعيل عليه السلام، نزل بالحجاز حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ثم صاهر ملوك جُرهم، فكان له بنون وأعقابٌ ضلوا في مجاهل الزمن فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق إلا عدنان، وإليه ينتهي عمود النسب العربي الصحيح. وأشهر قبائل هذه الطبقة ربيعة ومُضر وأنمار وأياد. فمن ربيعة عبد القيس، ومنها بكر وتغلب ابنا وائل. ومن مضر انشعبت قيس عيلان وبطون اليأس بن مضر. فأما قيس عيلان فأشهر بطونها هوازن وغطفان؛ ومن غطفان عبس وذبيان ابنا بغيض. وأما أولاد الياس فافترقوا، فمنهم بطون تميم بن مر، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد بن خزيمة، وبطون كنانة بن خزيمة، ومن كنانة قريش: ثم انقسمت إلى بطون شتى. فمنهم جُمحُ وسهم ومخزوم وعبد الدار وعبد مناف. ثم كان من عبد مناف عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم، ومن هاشم عبد المطلب: وبنوه عشرة منهم عبد الله أبو الرسول ﷺ، وأبو طالب والد علي رضي الله عنه ثم العباس. فالعلويون ينتسبون إلى علي، والعباسيون إلى العباس. وأما الأمويون فليسوا من بني هاشم وإنما هم من بني عبد شمس أخيه.

وإلى هذه الطبقة يرجع الفضل فيما نتكلم به من لغة، وما نتحمل به من بيان، وما ندرسه من أدب، وما نعتقده من دين.

أحوال العرب الاجتماعية والسياسية والدينية والعقلية في الجاهلية:

إن لجو الإقليم أثراً طبيعياً قوياً في حياة أهله، فهو الذي ينهج لهم سَنَنَ معاشهم ونظام

---

(١) سورة: الحاقة، الآيتان: ٥ ـ ٦.

اجتماعهم، ويكوِّن الكثير الغالب من أخلاقهم وطباعهم. والعربية شبه جزيرة جافة قاحلة قلما يَجُودها الغيث وتوانيها العيون؛ فهي لا تصلح للزروع الدورية، ولا تلائم الحياة الحضرية. ومن ثَمَّ كان أهلها بدواً بالفطرة يعيشون تحت الخيام على رعي الأنعام فيَطعمون من لحمها ولبنها، ويكتسون بصوفها ووبرها، ويتتبّعون بها مواقع القَطر ورياض الأرض يُسيمونها فيها. ويرددونها بين أوديتها وفيافيها؛ إلا قريشاً فتحضروا لقيامهم على البيت الحرام، وإيلافهم رحلة اليمن والشام؛ وإلا القحطانيين لحظ ديارهم من الخصب والمطر، ووفرة ما تُغله أرَضوهم من الحب والثمر. فإذا أخلَفَت السماء وأمحلت وجوه الأرض أكل بعضهم بعضاً بالإغارة والغزو. وجريرة ذلك عليهم فساد القلوب ودوام الحروب وذهاب الأمن وتشعُّث الألفة. ولم يُنكب الجاهليون بمثل الحرب والجدب، فهم لذلك يتمدحون بالبأس والسماحة، ويتبجحون باللّسن والفصاحة، ويؤثرون الذكر ويئدون الأنثى، ويتكاثرون بالنفر العديد، ويعتزون بالقرابة الواشجة.

ثم كان إلْفِهم حياة الظعن والتجوال؛ وتوزع همهم بين الجدال والقتال، أن غلبت عليهم الحرية والعصبية والوحشية، فلم تكن لهم مدنية اجتماعية ولا حكومة سياسية ولا أنظمة عسكرية ولا فلسفة دينية. وإنما كان مجتمعهم مجتمع القبيلة والخيمة، لا مجتمع الشعب والأمة؛ والحكومة كانت لرؤساء العشائر يملكون بالإرث ويحكمون بالعرف، فلم تكن الجرْشِيّة كحكومة الإغريق، ولا ملكية كحكومة المصريين والفرس، اللهم إلا في الحيرة والشام فقد كان لهم ملوك متوجون ولكنهم غير مستقلين: فاللخميون في الحيرة يتبعون الأكاسرة، والغسانيون في الشام يتبعون القياصرة. وإذن فمعاني الحضارة والرأي العام والأرستقراطية والديمقراطية والإقطاع لا ألفاظ لها عند العرب والساميين جميعاً. والنظام العسكري حتى بعد الإسلام كان غير ثابت ولا منظم، لأن المرءوسية والتجرد عن الشخصية ـ وهما الركنان الأساسيان في العسكرية ـ يضادان إعجاب العربي بنفسه واعتداده بشخصه والدين كان دين بساطة وسذاجة وتقشف، فلم يكن للعرب ما كان للاغريق من تعدد الآلهة وضخامة الهياكل وإقامة التماثيل ووفرة الأساطير وفلسفة العقائد، وإنما كان بقية أثرية من دين إبراهيم جاءتهم من وراء القرون عن طريق الوراثة مشوهة لتطاول العهد وتحكم الجهالة وعدم القرار، فحالت في نفوسهم إلى عبادة الأصنام وتعظيم الأوثان ونصها على الكعبة تقرباً بها إلى الله على زعمهم. وهذه الوثنية كانت دين الكثرة من العرب. أما القلة فكان بعضها على اليهودية في اليمن وفي يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء، وبعضها على النصرانية بنجران والحيرة وفي قبائل طيىء والغساسنة بالشام.

أما الأسرة وهي نواة القبيلة فقد كان حالها أشبه بحال الأسرة المصرية الريفية اليوم: تتألف من الأبوين والأولاد والحفدة والرقيق. وكان سلطان الأب مطلقاً على أهله: يملك

عليهم الموت والحياة والبيع والانتفاء، فربما وأد ابنته خوف الفقر، وانتفى من أمَتِه خوف العار. وكان للزوجة المكانة السامية الثانية في الأسرة، يجلّها الزوج في نفسه، ويشاركها في أمره، ويتغنى باسمها في شعره، ويفخر الابن بنسبته إلى أمه كما يفخر بنسبته إلى أبيه. وكان عقد الزواج هو الرباط الغالب بين الرجل والمرأة، وللرجل وحده حق الطلاق ما لم يشترط عند العقد خلاف ذلك. ثم كان لهم أنواع أخرى من الزواج هي أشبه شيء بالمسافحة لا يعقدها إلا أولو الدعارة من الشباب. ويقرب من هذه الأنواع زواج كانت تعقده السيوف والأسنة. وذلك أن أحدهما يلقي رجلاً معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من أحلافها، فيتقاتلان، فإذا قهره أخذها منه سبية واستحلها بذلك. وكانوا يعددون بين الزوجات إلى حد غير معروف، ويحلون التزوج من امرأة الأب ويحرمون البناء بالبنت والأخت والعمة والخالة. أما علاقة أبناء الأسرة بأبناء القبيلة فجماعها مدلول هذه الكلمة الجاهلية: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) على ما بين أبناء العم من تنافس وتباغض. ولكن الواحد للقبيلة والقبيلة للواحد.

وأما حالهم العقلية فقد كان التبابعة في اليمن والمناذرة والغساسنة في الشمال على حظ من العلوم يدل عليه ما أقاموه من السدود، وأحيوه من الأرض، وعمروه من المدن ولكن درجة رقيهم، وحقيقة علومهم، لا تزالان سراً مطوياً في جوف الأرض ربما كشف عنه التنقيب عن الآثار بعد قليل.

أما العدنانيون فقد كسبتهم قوة الملاحظة، وكثرة التجارب، واضطرار الحاجة، طائفةً من العلم المبني على التجربة والاستقراء والوهم. فعرفوا الطب والبيطرة والخيل لاتصالها بالحرب؛ ولاحظوا الأنواء والنجوم والرياح لعلاقتها بالكلأ والغيث، وليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر؛ وبرعوا في الأنساب والأخبار والأشعار، محافظة على عصبيتهم، وتحدثاً بمفاخرهم، وتخليداً لمآثرهم، ومهروا في الفراسة والقِيافة[1] ووصف الأرض، لكشف الدَّعي فيهم، وطلب الهارب منهم. ثم قادهم الجانب الروحي فيهم إلى الاعتقاد بالكِهانة والعرافة والزجر، ففزعوا إلى الكهان في أمراضهم، واستفتوا العرَّافين في أغراضهم، حتى ذهب الإسلام بكل ذلك.

وجملة القول أن المجتمع العربي خارج القبيلة كان مفككاً من الجهات السياسية والاقتصادية واللغوية، مرتبطاً من الجهات الخلقية والعقلية والأدبية. ولو ساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى لغتهم وأدبهم لوجدنا لهم نفوساً كبيرة وأذهاناً بصيرة وحنكة خبيرة ومعارف واسعة كَوَّنوا أكثرها من نتاج قرائحهم وثمار تجاربهم؛ فإن لغتهم وهي صورة

(١) القيافة: هى الاهتداء إلى الهارب بآثاره.

اجتماعهم لم تدع معنى من المعاني التي تتصل بالروح والفكر والجسم والجماعة والأرض والسماء وما بينها إلا استوعبت أسماءه ورتبت أجزاءه. ووضع اللفظ للشيء دليل على وجوده وعلمه. ولعمري ما يكون التمدن اللغوي إلا بعد تمدن اجتماعي راقٍ في حقيقته وإن لم يَرْق في شكله، عام في أثره وإن لم يعم في أهله.



الباب الأول

العصر الجاهلي

الفصل الأول

نشأة اللغة العربية

اللغة العربية إحدى اللغات السامية. انشعبت هي وهن من أرومة واحدة نبتت في أرض واحدة. فلما خرج الساميون من مهدهم لتكاثر عددهم آختلفت لغتهم الأولى بالاشتقاق والاختلاط، وزاد هذا الاختلاف آنقطاعُ الصلة وتأثير البيئة وتراخي الزمن حتى أصبحت كل لهجة منها لغة مستقلة.

ويقال إن أحبار اليهود هم أول من فطن إلى ما بين اللغات السامية من علاقة وتشابه في أثناء القرون الوسيطة، ولكن علماء المشرقيات من الأوروبيين هم الذين أثبتوا هذه العلاقة بالنصوص حتى جعلوها حقيقة علمية لا إبهام فيها ولا شك.

والعلماء يردون اللغات السامية إلى الآرامية والكنعانية والعربية، كما يردُّون اللغات الآرية إلى اللاتينية واليونانية والسنسكريتية. فالآرامية أصلِ الكلدانية والأشورية والسريانية، والكنعانية مصدر العبرانية والفينيقية، والعربية تشمل المضَرية الفصحى ولهجات مختلفة تكلمتها قبائل اليمن والحبشة. والراجح في الرأي أن العربية أقرب المصادر الثلاثة إلى اللغة الأم، لأنها بآنعزالها عن العالم سلمت مما أصاب غيرها من التطور والتغيّر تبعاً لأحوال العمران.

وليس في مقدور الباحث اليوم أن يكشف عن أطوار النشأة الأولى للغة العربية، لأن التاريخ لم يسايرها إلا وهي في وفرة الشباب والنماء. والنصوص الحجرية التي أخرجت من بطون الجزيرة لا تزال لندرتها قليلة الغناء؛ وحدوث هذه الأطوار التي أتت على اللغة فوحّدت لهجاتها وهذبت كلماتها معلوم بأدلة العقل والنقل، فإن العرب كانوا أميين لا تربطهم تجارة ولا إمارة ولا دين، فكان من الطبيعي أن ينشأ من ذلك ومن اختلاف الوضع والارتجال، ومن كثرة الحل والترحال، وتأثير الخلطة والاعتزال، اضطراب في اللغة كالترادف، واختلاف اللهجات في الإبدال والإعلال والبناء والإعراب، وهَنات المنطق

كعجعجة[١] قُضاعَة، وطمطمانيّة[٢] حِمْير، وفحفحة[٣] هذيل، وعنعنة[٤] تميم، وكشكشة[٥] أسد، وقطْعَةِ[٦] طيىء، وغير ذلك مما باعد بين الألسنة وأوشك أن يقسم اللغة إلى لغات لا يتفاهم أهلها ولا يتقارب أصلها.

ولغات العرب على تعددها واختلافها إنما ترجع إلى لغتين أصليتين: لغة الشمال ولغة الجنوب. وبين اللغتين بون بعيد في الإعراب والضمائر وأحوال الاشتقاق والتصريف، حتى قال أبو عمرو بن العلاء: «ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا». على أن اللغتين وإن اختلفتا لم تكن إحداهما بمعزل عن الأخرى، فإن القحطانيين جلوا عن ديارهم بعد سيل العرم ـ وقد حدث عام ٤٤٧ م كما حققه غلازر الألماني ـ وتفرقوا في شمال الجزيرة واستطاعوا بما لهم من قوة، وبما كانوا عليه من رقي، أن يخضعوا العدنانيين لسلطانهم في العراق والشام، كما أخضعوهم من قبل لسلطانهم في اليمن. فكان إذن بين الشعبين اتصال سياسي وتجاري يقرب بين اللغتين في الألفاظ، ويجانس بين اللهجتين في المنطق، دون أن تتغلّب إحداهما على الأخرى، لقوة القحطانيين من جهة، ولاعتصام العدنانيين بالصحراء من جهة أخرى. وتطاول الأمد على هذه الحال حتى القرن السادس للميلاد، فأخذت دولة الحميريين تزول وسلطانهم يزول بتغلب الأحباش على اليمن طوراً وتسلّط الفرس عليه طوراً آخر. وكان العدنانيون حينئذ على نقيض هؤلاء تتهيأ لهم أسباب النهضة والألفة والوحدة والاستقلال، بفضل الأسواق والحج، ومنافستهم للحميريين والفرس، واختلاطهم بالروم والحبشة من طريق الحرب والتجارة، ففرضوا لغتهم وأدبهم على حمير الذليلة المغلوبة، ثم جاء الإسلام فساعد العوامل المتقدمة على محو اللهجات الجنوبية وذهاب القومية اليمنية، فاندثرت لغة حِمير وآدابهم وأخبارهم حتى اليوم.

لم تتغلب لغات الشمال على لغات الجنوب فحسب، وإنما استطاعت كذلك أن تبرأ مما جنته عليها الأمية والهمجية والبداوة من اضطراب المنطق واختلاف الدلالة وتعدد الوضع، فتغلبت منها لغة قريش على سائر اللغات لأسباب دينية واقتصادية واجتماعية أهمها:

---

(١) العجعجة: وهي قلب الياء جيماً بعد العين وبعد الياء المشددة، مثل: راعي يقولون فيها: راعج. وفي كرسي كرسج.

(٢) الطمطمانية: هي جعل أم بدل أل في التعريف، فيقولون في البر: أمبر، وفي الصيام أمصيام.

(٣) الفحفحة: هي جعل الحاء عيناً، مثل: أحل إليه فيقولون أعل إليه.

(٤) العنعنة: هي إبدال العين في الهمزة إذا وقعت في أول الكلمة، فيقولون في أمان: عمان.

(٥) الكشكشة: جعل الكاف شيناً مثل: عليك فيقولونها: عليش.

(٦) القطعة: هي حذف آخر الكلمة، مثل قولهم: يا أبا الحسن، تصبح: يا أبا الحسا.

١ ـ الأسواق: وكان العرب يقيمونها في أشهر السنة للبياعات والتّسوُّق وينتقلون من بعضها إلى بعض، فتدعوهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول، والمفاوضة في الرأي، والمبادهة بالشعر، والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالمحامد وشرف الأصل فكان من ذلك للعرب معونة على توحيد اللسان والعادة والدين والخلق، إذ كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخى الألفاظ العامة والأساليب الشائعة قصداً إلى إفهام سامعيه، وطمعاً في تكثير مشايعيه. والرواة من ورائه يطيرون شعره هم القبائل وينشرونه في الأنحاء فتنتشر معه لهجته وطريقته وفكرته.

وأشهر هذه الأسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز. وأولاهن أشهر فضلاً وأقوى أثراً في تهذيب العربية. كانت تقوم هلال ذي القعدة وتستمر إلى العشرين منه، فتفد إليها زعماء العرب وأمراء القول للمتاجرة والمنافرة ومفاداة الأسرى وأداء الحج. وكان كل شريف إنما يحضر سوق ناحيته إلا عكاظ فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل فج، لأنها متوجَّهُهُم إلى الحج، ولأنها تقام في الأشهر الحرم، وذلك ولا ريب سر قوتها وسبب شهرتها. وكان مرجعهم في الفصل بينهم إلى محكمين اتفقوا عليهم وخضعوا لهم فكانوا يحكمون لمن وضح بيانه وفصح لسانه.

٢ ـ أثر مكة وعمل قريش: كان لموقع مكة أثر بالغ في وحدة اللغة ونهضة العرب، لأنها كانت في النصف الثاني من القرن السادس محطاً للقوافل الآتية من الجنوب تحمل السلع التواجر من الهند واليمن فيبتاعها المكّيون ويصرفونها في أسواق الشام ومصر. وكانت جواد مكة التجارية آمنة لحرمة البيت ومكانة قريش، فكان تجّارهم يخرجون بقوافلهم الموقرة وعِيرهم الدُّثْر آمنين، فينزلون الأسواق ويهبطون الآفاق فيستفيدون بسطة في العلم، وقوة في الفهم، وثروة في المال، وخبرة بأمور الحياة: وهي مع ذلك متجرة للعرب ومثابة للناس يأتون إليها من كل فج عميق رجالاً وعلى كل ضامر ليقضوا مناسكهم ويشتروا مرافقهم مما تنتجه أوتجلبه. ذلك إلى أن قريشاً أهلها وأمراءها كانوا لمكانتهم من الحضارة وزعامتهم في الحج، ورياستهم في عكاظ، وإيلافهم رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى حوران أشد الناس بالقبائل ارتباطاً، وأكثرهم بالشعوب اختلاطاً. كانوا يختلطون بالحبشة في الجنوب، وبالفرس في الشرق، وبالروم في الشمال. ثم كانوا على أثارة من العلم بالكتب المنزلة: باليهودية في يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء، وبالنصرانية في الشام ونجران والحيرة؛ فتهيأت لهم بذلك الوسائل لثقافة اللسان والفكر. ثم سمعوا المناطق المختلفة، وتدبروا المعاني الجديدة، ونقلوا الألفاظ المستحدثة، واختاروا لغتهم من أفصح اللغات، فكانت أعذبها لفظاً، وأبلغها أسلوباً، وأوسعها مادة، ثم أخذ الشعراء يؤثرونها وينشرونها حتى نزل بها القرآن الكريم فأتم لها الذيوع والغلبة.

الفصل الثاني

النثر

النثر أسبق أنواع الكلام في الوجود لقرب تناوله، وعدم تقيده، وضرورة استعماله. وهو نوعان: مسجَّع إن التزم في كل فقرتين أو أكثر قافية، ومرسل إن كان غير ذلك. وقد كان العرب ينطقون به معرباً غير ملحون لقوة السليقة، وفعل الوراثة، وقلة الاختلاط بالأعاجم. اللهم إلا هيئات المنطق فقد اختلفت لأسباب طبيعية في الترقيق والتفخيم والإبدال والإمالة. ولم يُعن الرواة من منثورهم على كثرته إلا بما علق بالذهن لنفاسته وبلاغته وإيجازه، كالأمثال والحكم والوصايا والخطب والوصف والأقاصيص.

فالمثل جملة مقتطعة من القول أو مرسلة بذاتها تنقل عمن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير. وهذا النوع خاص بالعرب لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية وحوادثهم الفردية، كقولهم: وافق شَنٌّ طبقةَ. ولأمر ما جدع قَصِيرُ أنفه. ويداك أوكتا وفوك نفخ. وقد تعاقب العلماء على جمعها وشرحها. وأشهر هؤلاء الميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ، فقد جمع كتابه: [مجمع الأمثال] من نحو خمسين كتاباً، وكاد يستوعب فيه المأثور من القديم والمشهور من الحديث ورتبه على حروف المعجم.

والحكمة قول رائع موافق للحق سالم من الحشو. وهي ثمرة الحُنكة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة، كقولهم: الخطأ زاد العَجول. من سلك الجَدد أمِن العثار. عِيٌّ صامت خير من عيّ ناطق.

والخطبة والوصية كلتاهما يراد بها الترغيب فيما ينفع وعما يضر، إلا أن الأولى تكون على ملأ من الناس في المجامع والمواسم. والأخرى تكون لقوم معينين في زمن معين، كوصية الرجل لأهله عند النقلة أو الموت.

مميزات النثر الجاهلي:

يمتاز النثر في الجاهلية بجريانه مع الطبع، فليس فيه تكلف ولا زُخْرُف ولا غُلُو. يسير مع أخلاق البدوي وبيئته، فهو قوي اللفظ، متين التركيب، قصير الجملة، موجز الأسلوب،

قريب الإشارة، قليل الاستعارة، سطحيُّ الفِكرة. وربما تساوَقت فيه الْحِكم وآطّردت الأمثال من غير مناسبة قوية ولا صلة متينة.

الخطابة:

الخطابة كالشعر لحمْتُهـا الخيال وسُـدَاها البـلاغة. وهي مـظهر من مـظاهر الحـرية والفروسية، وسبيل من سُبل التأثير والإقناع. تحتاج إلى ذَلاقة اللسان ونَصاعة البيان، وأناقةِ اللهجة، وطلاقة البديهة. والعرب ذوو نفوس حساسة وإباء، وأولو غيرة ونجدة. فكان لهم فيها القدم السابقة والْقِدْحُ الْمُعَلّي. وقد دعاهم إليها ما دعا الأمَم البدوية من الفخر بحسبها ونِجَارها، والذَّود عن شرفها وذمارها، وإصلاح ذات الْبين بين الحيّيْن، والسفارة بين رؤس القبائل وأقيـالهم، أو بين الملوك وعمالهم. وكـانوا يـدربون فتيـانهم عليها منـذ الحداثـة، ويحرصون على أن يكون لكل قبيلة خطيب يشد أزرها، وشاعر يرفع ذكرها. وربما آجتمع الصفتان في واحد.

أما أُسلوبها فكان رائع اللفظ، خلاب العبارة، واضح المنهج، قصير السجع، كثيـر الأمثال. وهم إلى قصارها أميل لتكون أعلق بالصدور وأذْيع.

ومن عاداتهم فيها الوقوف على نشز من الأرض أو القيام على ظهـر دابة، ورفـع اليد ووضعها، والاستعانـة على العبارة بـالإشارة، وآتخـاذ المخاصـر بأيـديهم؛ والاعتماد على الصفاح والرماح أو الإشارة بها.

وكانوا يحبون من الخطيب أن يكون حسن الشارة، جهيـر الصوت، سليم المنـطق، ثبتَ الجنان. وأشهر خطبائهم في هـذا العصر قسُّ بن سـاعدة الأيـادي، وعمرو بن كلثـوم التغلبي، وأكثم بن صيفي التميمي، والحـارث بن عباد البكـري، وقيس بن زهير العبسي، وعمرو بن معد يكرب الزُّبيدي، وحسبنا أن نترجم لخطيبين من أعلامهم وقوفاً بالطلب عند الغرض من هذا المختصر.

الخطبـاء

١ ـ قـس بن سـاعدة الإيـادي

٢٢٠ ≃ ٦٠٠ م

٤٠٣ ق هـ ≃ ٢٣ ق هـ

حياته: هو أسقف نجران وخطيب العرب وحكيمها وحَكَمُها. كان يؤمن باللّه ويـدعو

١ - انـظر ترجمتـه في: النوادر: ص ٢٦٢، والمحبـر: ص ١٣٦، ٢٣٨، وتاريـخ الـطبـري: ٢/ ٨٣٦، =

إليه بالحكمة والموعظة الحسنة. ويقال إنه أول من خطب على شرف، وآتكأ على سيف، وقال في خطبه أما بعد. سمعه النبي ﷺ في عكاظ فأثنى عليه. ويروى أنه قال فيه: «رحم الله قساً! إني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده». وكان يفد على قيصر من حين إلى حين فيكرمه. ولكنه صدف عن الدنيا وعاش على الكفاف يعبد الله ويعظ الناس حتى توفي سنة ٦٠٠ م، وقد عمَّر طويلاً.

أسلوبه: إن صح ما أثر عنه من النثر فقد كان أسلوبه مطبوعاً مسجوعاً، شديد الروعة، متخير اللفظ، قصير الفواصل. يعمد فيه إلى ضرب الأمثال واستنتاج العبر من مصارع الطغاة وظواهر الكون. وله شعر يجمع إلى الجزالة رقة التعبير وقوة التأثير كما يتجلى ذلك فيما سنورده من كلامه [1].

قال من خطبته في سوق عكاظ:

أيها الناس! اسمعوا وعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مُدْحاة، وأنهار مجراة. إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعِبرا. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ يا معشر إياد، أين الآباء والأجداد، وأين الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالاً وأطول آجالاً؟ طحنهم الدهر بكلكله، ومزقهم بتطاوله.

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليَّ ... ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائر

ومن حكمه: مَن عيَّرك شيئاً ففيه مثله. ومن ظلَمك وجد من يظلمه. وإذا نهيت عن الشيء فآبدأ بنفسك. وكن عفَّ العَيْلة مشترك الغنى. ولا تشاور مشغولاً وإن كان حازماً، ولا جائعاً وإن كان فهماً، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً. ومن شعره قوله يرثي أخوين له وقد وقف على قبريهما بدير سمعان:

خليليَّ هُبا طالما قد رقدتما ... أجدًّ كما لا تقضيان كراكما!

= والأغاني ١٥/٢٤٦ ـ ٢٥٠، ومعجم الشعراء: ص ٣٣٨، ومجمع الأمثال: ١/٩٧، والأعلام للزركلي: ٥/١٩٦.

(١) قيل: إنه توفي وله من العمر ثلاثمائة وثمانون سنة.

ألم تعلما أني بسمعان مفردٌ — ومالِيَ فيه من حبيب سواكما؟
أقيم على قبريكما لست بارحاً — طَوَّال الليالي أو يحيبَ صداكما
جرى الموت مجرى اللحم والعظم منكما — كأن الذي يسقي العقار سقاكما!
فلو جُعلت نفسٌ لنفس وقايةً — لجدتُ بنفسي أن تكون فداكما
سأبكيكما طول الليالي وما الذي — يرد على ذي عَولة إن بكاكما!

٢ ـ عمرو بن معد يكرب الزبيدي

٥٣٥ ـ ٦٤٣ م

٨٩ ق هـ ـ ٢١ هـ

حياته: عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارس اليمن وخطيب العرب وبطل القادسية، ينتهي نسبه إلى قحطان ويكنى أباثور. لقي النبي ﷺ لَدَى منصرفه من تَبُوك سنة تسع من الهجرة فأسلم هو وقومه، ولكن قلبا شاب في الجاهلية الجهلاء، ورتع في الدماء والأشلاء، وآستهتر في اللهو والصهباء، لا يقبل على الدين بإخلاص وصدق، فآرتد بعد إسلامه. ثم رجع إلى الحق وجاهد في سبيل الله حق جهاده. ثم شهد القادسية وعمره على ما قيل عشر سنين ومائة، فأبلى فيها بلاء حسناً. ثم توفي في أواخر خلافة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٣ م.

صفته ومنزلته: كان قوياً بديناً أكولاً، وكان سيداً مطاعاً وبطلاً شجاعاً وخطيباً شاعراً؛ يعد في الطبقة الثانية من الشعراء، وفي الأولى من الخطباء، ويغلب في شعره التحدث عن نفسه بالشجاعة. يقال إن النعمان بن المنذر أرسله فيمن أرسل من سَراة العرب إلى أُنوشِرْوان بالمدائن ليكون كلامهم بين يديه مصداقاً لدعواه في العرب وآفتخاره بهم وتفضيله إياهم فألقى هذه الخطبة:

إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فبلاغ المنطق السداد، ومِلاك النُّجعة الارتياد، وعفو الرأي خير من آستكراه الفكرة، وتوقيف الخبرة خير من آعتساف الحيرة. فآجتبذ طاعتنا بلفظك؛ وآكتظم بادرتنا بحلمك، وألن لنا كنفك يَلِن لك قيادُنا. فإنا أناس لم يُوَقِّصْ صَفَاتَنَا قِراعُ مناقير من أراد لنا قضماً، ولكن منعنا جماناً من كل من رام لنا هضماً.

---

٢ ـ انظر ترجمته في: جمهرة النسب، ترتيب كاسكال: ١٧٨/٢، وطبقات ابن سعد: ٣٨٣/٥، والأغاني: ٢٠٨/١٥ ـ ٢٤٤، والمؤتلف والمختلف: ص ١٥٦، وسمط اللآلي: ص ٦٤، والإصابة: ٣٣/٣ ـ ٣٩، وخزانة الأدب: ٤٢٥/١ ـ ٤٢٦، والأعلام للزركلي: ٢٦٠/٥ ـ ٢٦١.

وانظر ما كتبه بلاشير في كتابه: تاريخ الأدب العربي: Blachère, Histoire 283-284، **وما كتبه نالينو في كتابه: تاريخ الآداب العربية**: Nallino. Litt. ar. 76-77.

ومن شعره قوله في أُبيٍّ الْمُرادي وقد توعده:

أعاذلَ شِكتي بِدني ورمحي ... وكلُّ مُقلّصٍ سلس القياد
أعاذل إنما أفني شبابي ... وقرْح عاتقي ثقل النجاد
تمناني ليلقاني أُبيٌّ ... ودِدْت وأينما مني ودادي
ولو لاقيتني ومعي سلاحي ... تكشف شحم قلبك عن سواد
أريد حياته ويريد قتلي! ... عَذيرَكَ من خليلك من مُراد!

وقوله:

ليس الجمال بمئزر ... فاْعلم وإن ردِّبت بُردا
إن الجمال معادن ... ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان سا ... بغة وَعَدَّاءَ عَلَنْدى!
نهْداً وذا شُطَبٍ يَقُدّ ... البيض والأبدان قدا
كم من أخ لي صالح ... بوَّأته بيديَّ لحدا
ما إن جزعت ولا هَلعـ ... ـت ولا يرد بكاي رشْدا
ذهب الذين أحبهم ... وبقيت مثل السيف فردا

نماذج من النثر الجاهلي

من الأمثال:

قالت العرب في أمثالها:

(إذا سَلمتِ الجلة فالنِّيبُ هَدَرٌ) أي إذا سلم ما ينتفع به هان ما لا ينتفع به.

(إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً) يضرب للمدلِ بنفسه إذا مُني بمن هو أدهى منه.

(إنك لا تجني من الشوك العنب) أي لا تجد عند ذي المنبت السوء جميلاً.

(ذكرني فوك حمارَيْ أهلي) أصله أن رجلاً خرج يطلب حمارين ضلاَّ له، فرأى امرأة فأعجبته، فنسي الحمارين. فلما أسفرت عن وجهها رأى فمها قبيحاً فقال هذا المثل.

(تجَشَّأُ لقمان من غير شِبَع) يضرب لمن يدَّعي ما ليس يملك.

(رمتني بدائها وآنسلَّتْ) يضرب لمن يُعير الآخر بما يُعير هو به.

(ربَّ كلمة تقول لصاحبها دعني) يضرب في النهي عن الإكثار مخافة الإهجار.

(أسَرْ حَسْواً في ارتغاء) يضرب لمن يريك أنه يعينك وهو يجر النفع إلى نفسه. وأصله أن الرجل يؤتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة فيشربها وهو في ذلك ينال من اللبن.

(أوسعتهم سبًّا وأودَوْا بالإبل). أصله أن رجلاً أُغِيرَ على إبله فأُخذت، فلما توارى

المغيرون بها صعد أكَمَةً وجعل يسبهم، ثم رجع إلى قومه فسألوه عن إبله، فقال هذا المثل.

(أحَشَفاً وسوء كِيَلةٍ؟. .) يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين.

(قد يحمل العَير من ذعر على الأسد) يضرب لمن يأخذه الدهش والرَّوع فحمله على ما ليس من طبعه.

(قبل الرَّمْي يُراش السهم. .) يضرب للاستعداد للأمر قبل نزوله.

من الحكم:

ومن حكم العرب قولهم: مصارع الرجال تحت بروق الطمع. كلْم اللسان أنكى من كلم السنان. رب عَجلة تهب ريْثاً. العتاب قبل العقاب. التوبة تغسل الحوبة. من سلك الجدد أمن العثار. أول الحزم المشورة. رب قول أنفذ من صول. أنجز حر ما وعد. اترك الشر يتركك. من ضاق صدره آتسع لسانه. يدك منك وإن كانت شلاء. رب ملوم لا ذنب له. مِن مأمنه يؤتي الحذِر.

الخطب:

قال هانىء بن قبيصة الشيباني لقومه يحرضهم، وهو يدلك على مذهب الجاهليين في النثر من تفكك المعاني وضعف ارتباط الجمل:

يا معشر بكر! هالك معذور، خير من ناج فرور. إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر. المنية ولا الدنية. استقبال الموت خير من استدباره. الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور. يا آل بكر، قاتلوا فما من المنايا بد!.

وخطب عبد المطلب عند سيف بن ذي يزن بعد انتصاره على الحبشة قال: وإن اللّه تعالى أيها الملك أحلك محلاً رفيعاً، باذخاً شامخاً، وانبتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرثومته، ونبل أصله، وبسق فرعه، في أكرم معدن وأطيب موطن فأنت أبيت اللعن رأس العرب وربيعها الذي به تخصب، وملكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي إليه تلجأ العباد. سلفك خير سلف، وأنت لنا بعده خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه، ولن يخمل من أنت سلفه. نحن أيها الملك أهل حرم اللّه وذمته وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا بكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة، لا وفد المرزئة.

من الوصايا:

أوصى زهير بن جناب الكلبي بنيه قال:

يا بني كبرت سني، وبلغت حرصاً من دهري، فأحكمتني التجارب، والأمور تجربة

وآختيار. فآحفظوا عني ما أقول وعوه. إياكم والحور عند المصائب، والتواكل عند النوائب، فإن ذلك داعية للغم، وشماتة للعدو، وسوء ظن بالرب وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فإنه ما سخر قوم قط إلا آبتلوا، ولكن توقعوها، فإن الإنسان في الدنيا غرض تعاوره الرماة. فمقصر دونه، ومجاوز لموضعه، وواقع عن يمينه وشماله، ثم لا بد أن يصيبه.

وأوصت أعرابية ابنتها ليلة زفافها قالت:

أي بنية! إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك. ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل. ولو أن امرأة آستغنت عن الزوج لغني أبويها، وشدة حاجتهما إليها، لكنت أغنى الناس.

أي بنية إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه. فآحملي عني عشر خصال تكن لك ذخراً: آصحبيه بالقناعة، وعاشريه بحسن السمع والطاعة، وتعهدي موقع عينيه فلا تقع عينه منك على قبيح، ثم آعرفي وقت طعامه، وآهدئي عند منامه. فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مبغضة. ثم آتقي مع ذلك الفرح أمامه إن كان ترحاً، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشد الناس له إعظاماً، يكن أشدهم لك إكراماً. وآعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت أو كرهت. والله يخير لك.

وأوصت أعرابية ولدها قالت:

أي بني! إياكَ والنميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرقِ بين المحبين. وإياك والتعرض للعيوبِ فتتخذ غرضاً. وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام، وقلما آعتورت السهام غرضاً إلا كلَمته حتى يهى[1] ما آشتد من قوته. وإياكَ والجود بدينك والبخل بمالك. وإذا هززت فآهزز كريماً يلنْ لهزتك، ولا تهزز لئيماً فإن الصخرة لا ينفجر ماؤها. ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فآعمل به، وما آستقبحت من غيرك فآجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه. ومن كانت مودَّته بشرَه وخالفَ ذلك منهُ فِعلُهُ، كان صديقه منهُ على مثل الريح في تصرفها. والغَدْرُ أقبح ما تعامل به الناس بينهم. ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحُلة ربْطتها وسربالها[2].

---

(١) يهى: أي: يضعف.

(٢) السربال: وهو القميص. كل ثوب رقيق يشبه الملحفة.

الفصل الثالث

الشعر

تعريفه وأوليته :

الشعر هو الكلام الموزون المقفى المعبر عن الأخيلَةِ البديعة والصوُر المؤثرة البليغة. وقد يكون نثراً كما يكون نظماً. والشعر أقدم الآثار الأدبية عهداً لعلاقته بالشعور وصلته بالطبع، وعدم احتياجه إلى رقى في العقل، أو تعمق في العلم، أو تقدم في المدنية. ولكن أوليَّتَه عند العرب مجهولة، فلم يقع في سماع التاريخ إلا وهو محكم مُقَصَّد. وليس مما يَسوغ في العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الصورة الناصعة الرائعة في شعر المهلهل بن ربيعة وامرىء القيس، وإنما اختلفت عليه العُصُر وتقلبت به الحوادث وعملت فيه الألسنة حتى تهذب أسلوبه وتشعبت منَاحيه. والمظنون أن العرب خَطوْا من المرسل إلى السجع ومن السجع إلى الرجز، ثم تدرجوا من الرجز إلى القصيد. فالسجع هو الطور الأول من أطوار الشعر توخاه الكهان مناجاة للآلهة، وتقييداً للحكمة، وتعمية للجواب، وفتنة للسامع. وكهان العرب ككهان الإغريق هم الشعراء الأولون، زعموا أنهم مهبط الإلهام، وأنجياء الآلهة، فكانوا يسترحمونها بالأناشيد، ويستلهمونها بالأدعية، ويخبرون الناس بأسرار الغيب في حمل مقفاه موقعة أطلقوا عليها اسم السجع تشبيهاً لها بسجع الحمامة لما فيها من تلك النغمة الواحدة البسيطة.

فلما ارتقى فيهم ذوق الغناء، وانتقل الشعر من المعابد إلى الصحراء، ومن الدعاء إلى الحداء، اجتمع الوزن والقافية فكان الرجز.

ثم تعددت الأوزان بتعدد الألحان، فكان للحماسة وزن، وللغزل وزن، وللهزج وزن، وهكذا إلى سائر الأوزان التي حصرها الخليل بن أحمد في خمسة عشر وزناً سماها بحوراً.

فأنت ترى أن الشعر مصدره الغناء، وفي أخذهم السجع من هديل الحمامة، والرجز

من إيقاع مشي الناقة، ولفظ الشعر من (شير) العبرية بمعنى الترتيلة أو التسبيحة، وقولهم إلى الآن: أنشد الشعر بمعنى ألقاه، ما يؤيد ذلك.

الشعر والعرب:

العرب أشعر الساميين فطرة، وأبلغهم على الشعر قدرة، لاتساع لغتهم للقول، وملاءمة بيئتهم للخيال، وصفاء قريحتهم، وسذاجة معيشتهم، وقوة عصبيتهم وكمال حريتهم، وخلو جزيرتهم مما يصد الفكر عن التأمل، ويعوق الذهن عن التفكر، فهم بين الصحراء والسماء في فضاء من اللانهاية يملأ الذهن والنفس خيالاً وجلالاً وروعة. وهم فوق ذلك ذوو نفوس شاعرة، وطباع ثائرة، يستفزهم الرغبُ والرهبُ، ويزدهيهم الطرب والغضب، فلم يتركوا شيئاً يجول في النفس أو يقع تحت الحس إلا نظموه، فكان الشعر ديوان علومهم وحكمهم، وسجل وقائعهم وسيرهم، وشاهد صوابهم وخطأهم، ومادة حوارهم وسمرهم. وكانوا كلهم يروونه، وجلهم يقرضونه عفو البديهة وفيض الخاطر حتى روى عنهم من الشعر الوجداني ما لم يرو عن أمة من أمم الأرض مثله فلا بدع إذا كان الشاعر يغويهم ويرشدهم، والبيت الواحد يقيمهم ويقعدهم. والأمثال في التاريخ مستفيضة على تأثير الشعر في نفوسهم ومنزلة الشاعر من قلوبهم، كحديث الأعشى مع المحلّق وحسان مع بني عبد المدان، والحطيئة مع بني أنف الناقة.

أنواع الشعر وأغراضه:

أنواع الشعر ثلاثة: شعر غنائي أو وجداني Lyrique وهو أن يستمد الشاعر من طبعه وينقل عن قلبه ويعبر عن شعوره. وشعر قصصي Eptique وهو نظم الوقائع الحربية والمفاخر القومية في شكل قصة، كالإلياذة والشاهنامة. وشعر تمثيلي Dramatique وهو أن يعمد الشاعر إلى واقعة فيتصور الأشخاص الذين جرت على أيديهم وينطق كلا منهم بما يناسبه من الأقوال. وينسب إليهم ما يلائمه من الأفعال. والغنائي أسبق هذه الأنواع إلى الظهور؛ لأن الشعر أصله الغناء كما علمت. والإنسان إنما يشعر بنفسه قبل أن يشعر بغيره، ويتغنى بعواطفه قبل أن يتغنى بعواطف سواه.

ولما كان الشعر مادته الخيال، والخيال غذاؤه الحس؛ والعربي لا يرى من المناظر غير وجوه البادية، ولا يسمع من الأقاصيص إلا البطولة والحرب، ولا يعرف من الجمال إلا جمال المرأة، أبدع في وصف ما شاهده من حيوان وسهل وجبل، وأجاد التعبير عن عاطفة الحماسة يوم الخصومة والجدل، وتفنن ما شاء له الحب في التشبيب والغزل. فالشعر العربي غنائي محض، لا يعنى الشاعر فيه إلا بتصوير نفسه، والتعبير عن شعوره وحسه. والعواطف تتشابه في أكثر القلوب ويكاد التعبير عنها يتفق في أكثر الألسنة. ومن ثم نشأ فيه

التكرار، وتوارد الخواطر، والسرقة، ووحدة الأسلوب، وتشابه الأثر. وكان من الحق أن يقول زهير:

ما أرانا نقول إلا معارا أو معاداً من لفظنا مكروراً

أما الشعر القصصي والتمثيلي فلا أثر لهما فيه، لأن مزاولتهما تقتضي الروية والفكرة، والعرب أهل بديهة وارتجال؛ وتطلب الإلمام بطبائع الناس، وقد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم؛ وتفتقر إلى التحليل والتطويل، وهم أشد الناس اختصاراً للقول وأقلهم تعمقاً في البحث. وقد قل تعرضهم للأسفار البعيدة والأخطار الشديدة، وحرمتهم طبيعة أرضهم، وبساطة دينهم، وضيق خيالهم، واعتقادهم بوحدانية إلههم، كثرة الأساطير وهي من أغزر ينابيع الشعر القصصي، فزخرت بحور الشعر العربي بالفخر والحماسة والمدح والهجاء والرثاء والعتاب والغزل والوصف والاعتذار والحكمة، وخلا مع اتساعه وتشعب أغراضه من الملاحم المطولة التي تعلن المفاخر القومية وتشيد بذكر الأبطال والفروسية كالإلياذة لليونان، والإينياد للرومان ومهابهارته للهنود، والشاهنامة للفرس.

مميزات الشعر الجاهلي:

وعوثة الصحراء وخشونة العيش، وحرية الفكر، وطبيعة الجو، وسذاجة البدو، كل أولئك طبع الشعر الجاهلي بطابع خاص ومازه بسمة ظاهرة. فمن خصائصه الصدق في تصوير العاطفة، وتمثيل الطبيعة، فلا تجد فيه كلفاً بالزخرف ولا تكلفاً في الأداء؛ فكثر لذلك الإيجاز، وقل المجاز، وندرت المبالغة. وضعفت العناية بسياق الفكر على سنن المنطق واقتضاء الطبع: فعلائق المعاني واهنة واهية، ومساق الأبيات مفكك مضطرب. فإذا حذفت أو قدمت أو أخرت لا تشعر القصيدة بتشويه أو نقص، وذلك لأن البدو بطبيعتهم يعوزهم النظر الفلسفي فلا يرون الحوادث والأشياء إلا مجردة لا ينظمها سلك ولا تجمعها علاقة. ومن ثَمَّ كانت وحدة النقد عند أُدباء العرب البيت لا القصيدة. ومنها استعمال الغريب ومتانة التركيب وجزالة اللفظ؛ لتأثرهم بمظاهر الغلظة والقوة البادية في طباعهم ونظام اجتماعهم. والابتداء بذكر الأطلال والديار، لأنهم أهل خيام ومضارب، وألَّاف انتجاع وظعن، فلا يكاد الشاعر يمر بمكان حتى يذكر عهداً قضاه فيه، وأحبة ترحلوا عنه. فتهيجه الذكرى فيحييِّه ويبكيه والشعر الجاهلي على الجملة كثير التشابه قليل التنوع يجري في حَلْبة واحدة من السماع والتقليد.

الرواية والمعلقات:

المرويُّ من الشعر الجاهلي على قصر عهده المعروف يفوت الجمع وتضيق عنه الحافظة. على أن كثيرين من رواته ذهبت بهم حروب الفتح فذهب معهم شطر كبير منه.

قال أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله. ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير» ولكن هذه الكثرة متهمة وروايتها مُريبة، فإن الشعر لم يدَون إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة وإن في نقله على الألسنة، طوال هذه الأزمنة، مَظنة للتبديل والاختلاق والتزويد. وفيما رُوِي عن حماد الرواية وخلف الأحمر من عَبثِهما بالشعر وافتعالهما إياه مساغ لهذا الظن. ولعل القصائد التسع والأربعين التي جمعها أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب أصح الشعر القديم رواية وأصدقه تمثيلاً لأسلوبه ومنهاجه. وأبعد هذه القصائد مدى في الرواية، وأوفرها حظاً من الحفظ والعناية، المعلقات أو المذهّبات أو السُّموط. وهنّ على الرأي الغالب سبع قصائد يزعم جمهور المؤرخين أن العرب اختارتها فكتبتها بماء الذهب على القباطي، ثم علقتها بالكعبة اعجاباً بها وإشادة بذكرها. وقد بقي بعضها إلى يوم فتح مكة وذهب بالبعض الآخر حريق أصاب الكعبة قبل الإسلام: وأصحابها هم امرؤ القيس، وزهير بن أبي سُلمى، وطرفَة ابن العبد، ولبيد بن ربيعة، وعنترة بن شداد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة. ومن الناس من ينكر تعليقها على الكعبة بغير دليل قائم ولا حجة مقنعة. فمن المتقدمين أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ ومن المتأخرين المستشرق الألماني نولدكى Noeldeke على أن تعليق الصحائف الخطيرة على الكعبة كان سُنة في الجاهلية بقي أثرها في الإسلام. فمن ذلك تعليق قريش الصحيفة التي وكدوا فيهاعلى أنفسهم مقاطعة بني هاشم والمطلب لحمايتهم رسول الله ﷺ حين أجمع على الدعوة؛ وتعليق الرشيد عهدَه بالخلافة من بعده إلى ولديه الأمين فالمأمون فلم لا يكون الأمر كذلك في هذه القصائد مع ما علمت من تأثير الشعر فيهم ومكانة الشعراءِ منهم؟ على أن لهذا الأمر نظائر في أدب الإغريق، فإن القصيدة التي قالها بَنْدار زعيم الشعر الغنائي يمدح بها دياجوراس قد كتبوها بالذهب على جدران معبد أثينا في لمنوس.

نماذج من الشعر الجاهلي:

قال امرؤ القيس:

وقد أغتدي، والطيرُ في وُكناتها ... لِغيثٍ من الوَسْميّ رائده خال
تحاماهُ أطرافُ الرماح تحامِياً ... وجادَ عليه كلّ أسْحَمَ هطال
بعِجْلِزة قد أتْرَزَ الجريُ لحمَها ... كُمَيْتٍ كأنها هراوةُ منوال
ذَعرْت بها سِربا نقياً جلودُه ... وأكْرُعه وشيُ البرود من الخال
كأن الصُّوار إذْ تجاهدنَ غدوةً ... على جمزَى ـ خيل تجول بأجْلالِ
فجال الصوَّار، واتقَّين بقرْهَبِ ... طويل القرا والرَّوق أخنسَ ذيال
فعَاديْتُ منه بين ثور ونعْجةٍ ... وكان عِدائي إذا رَكِبتُ عَلَى بالي
كأني بفتخاء الجناحَين لَقوَةٍ ... على عجل منها أطأطِىء شملال

تـخـطفُ خِـزانَ الْأنيْـعَـم بـالـضحَى — وقـد حَجَـرتْ منـهـا ثـعـالِب أورَال
كـأنَّ قـلوبَ الـطيـرِ رطبـاً ويـابسـاً — لـدى وَكـرهـا ـ العُنَّابُ والحَشَفُ البـالي
فلو أنَّ مـا أسعـى لأدنى مـعيشـة — كفـاني ـ ولم أطلب ـ قليـلٌ مِن المـال
ولكـنـمـا أسعـى لـمـجـد مُؤثَّـل — وقـد يـدرك المجـدَ المؤثـلَ أمثـالي
ومـا المرءُ مـا دامت حُشـاشـةُ نفسِـه — بـمُـدرِك أطـرافِ الـخُـطوب ولا آل

وقال النابغة الذُّبياني من قصيدته التي يمدح بها النعمان ويعتذر إليه:

أتـاني ـ أبَيْتَ اللعَّنَ ـ أنَّـك لمتنى — وتلك التي تَسْتك منها المسـامع
مقالةَ أنْ قـد قلْت: سوفَ أنـالهُ، — وذلـكَ مـن تـلقـاءِ مِـثلك رائـعُ
لعمـري ـ ومـا عمـري عَليَّ بهيِّن ـ — لقـد نـطقت بُـطْلاً عَلَيَّ الأفـارعُ
أقـارعُ عـوْفٍ، لا أحـاول غيـرَهـا — وُجـوهُ قـرودٍ تبتـغي مَـنْ تجـادع
أتـاكَ امـرُؤٌ مستبـطنٌ لي بُغْضَـةَ — لـه من عـدوٍ مثـل ذلك شـافِـعُ
أتـاك بقـوْل هَلْهَـلِ النسج كـاذبِ — ولم يـأتِ بالحق الـذي هو نـاصعُ
أتـاكَ بـقـوْل لـم أكـن لأقـولـه — ولـو كُبلت في سـاعـديَّ الجوامع
حلفتُ فلم أتـرك لنفسـك ريبـةً — وهـل يَـأثمَنْ ذو أمة، وهـو طائع
بمصـطحباتٍ من لِصـافٍ وثَبْـرَةٍ — يـرونَ إلالاً، سَيـرُهنَّ التـدافـع
سماماً تُبارى الرِّيحَ خوصاً عيونُها — لَـهـنَّ رزَايـا بـالـطريـق ودائـعُ
عليهنَّ شعّت عـامـدون لحجِّهـمْ — فهُنَّ كـأطـراف الحَنيِّ خـواضـعُ
لَكلفتْني ذنب امـرِىء، وَتـركتَـه — كـذي الْعر يكـوَى غيرهُ وهـو راتـع
فـإن كنت لاذ والضِّغن عني مُكذِّبٌ — ولا حَـلِفي عَـلَى البـراءةِ نَـافـعُ
ولا أنـا مـأمـونٌ بشيىء أقـولـهُ — وأنت بـأمـرٍ ـ لا محـالـة ـ واقـعُ
فـإنـك كـالليـل الـذي هـومُدركي — وإن خِلتُ أنَّ المنتأى عنك واسع
خـطاطيفُ حُجْن في حبال متينـةٍ — تُـمـدُّ بـهـا أيـدٍ إليـك نـوازع
أتُـوعِـد عبْـداً لم يخنْك أمـانـةً — ويُتـرَك عبـدٌ ظـالمٌ وهـو ضـالـع
وأنت ربيـعٌ يُنْعِشُ النَّـاسَ سَيبُـه — وسَيفُ أُعِيـرَتْـهُ المنيـة قـاطـع
أبِىَ اللّه لـه إلا عـدلـهُ ووفـاءهُ — فلا النُّكْرُ معروفٌ ولا العُرف ضائع
وتُسقى إذا مـا شئْتَ غيـرَ مُصَـرَّدٍ — بـزوراءَ في حانـاتها المسكُ كانـع

وقال دُريد بن الصِّمة في رِثاء أخيه:

أرثَّ جـديـدُ الـحَبـل مـنْ أمِّ مَعْبَـدِ — بـعـاقـبـةٍ، أم أخـلفـتْ كـلَّ مـوعِـد
وكـانت، ولم أحْـمـدْ إليك نـوالـهَـا — ولـم تـرْجُ مـنَّـا ردَّةَ الـيـومِ أوغَـدِ
كـأنَّ حمُولَ الحيِّ إذ متَـع الـضحى — بـنـاصيـة الـشحـنـاء عَـصْبَـةُ مِـذوَدِ

أو الأثأبُ الْعَمُّ المحَرَّمُ سُوقهُ   بكابةَ لم يُخْبَط، ولم يتعَضدِ
فقلت لعارض وأصحاب عارض   ورهط بني السوداء والقومُ شُهَّدي
علانيةً. ظُنوا بألفى مُدَجَّج   سراتُهُمُ في الفارسيِّ المُسَرَّدِ
وقلت لهم: إنَّ الأحاليفَ هذه   مطنبةٌ بين الستّار وثهمدِ
ولما رأيت الخيْلَ قُبْلاً كأنها   جرادٌ يُباري وجْهَهُ الريح مُغتدي
أمرتُهمُ أمري بمُنعرَج اللِّوى   فلم يستبينوا الرُّشد إلا ضُحى الغد
فلما عَصوني كنت منهم وقد أرى   غَوايتهم أنني بهمْ غيرُ مُهتدي
وهل أنا إلا من غزِيّة؟ إن غوت   غَوَيتُ وإن ترشد غزيّةُ أرشدِ
دعاني أخي والخيل بيني وبينَه   فلما دَعاني لم يجدني بقُعْدُد
أخ أرضعتني أُمُّه مِنْ لِبانها   بِثَدْي صفاء بيننا لم يُجدد
فجئتُ إليه والرماحُ تَنُوشُه   كوقْع الصيَّاصي في النسيج الممُدّد
وكنْت كذاتِ البَوِّ رِيعتْ فأقبلت   إلى قِطَع من جلد بَوٍ مجَلدّ
فطاعنتُ عنه الخيل حتى تنهنهتْ   وحتى علانِي حالكُ اللون أسود
قِتالَ امرئٍ آسى أخاهُ بنفسِه   ويعلمُ أن المرء غيرُ مُخلد
تنادوْا فقالوا: أردتِ الخيلُ فارساً!   فقلتُ: أعَبدُ الله ذلكم الرَّدِي؟
فإن يكُ عبدُ الله خلّى مكانه   فما كان وقّافاً ولا طائش اليد
ولا برماً إمّا الرياحُ تناوحَتْ   برَطْبِ العِضاه والضَّريع المُنضَّدِ
وتخْرِج منه صِرّةُ القُرِّ جزأةً   وطُولُ السُّرى دُرِّيَّ عَضْبٍ مُهنَّد
كميشُ الإزارِ خارجٌ نصفُ ساقِه   صبورٌ على الضراء طلاّعُ أنْجُد
قليلُ تشكّيه المصيبات ذاكرٌ   فمن اليوم أعقابَ الأحاديث في غد
ذا هَبَط الأرضَ الفضاءَ تَزَيّنتْ   لِرُؤْيته كالمأتم المتلَبِّد
وكم غارةٍ بالليلِ واليوم قبلَه   تداركها منّي بسيد عمرَّدِ
سليم الشظى عَبْلُ الشّوى شنَجُ النَّسا   طويلُ القرَا نَهدٌ أسيلُ المُقلَّد
يفوتُ طويل القوم عَقْدُ عذَاره   مُنيفٌ كجذع النّخلة المتَجرِّد
وكنتُ كأني واثق بمُصدَّرٍ   يُمَشّي بأكنافِ الجُبَيْلِ فثهمَد
له كلُّ من يَلْقَى من الناس واحداً   وإن يَلْقَ مَثْنَى القَوْم يفْرَحَ ويَزْدَد
وهوَّن وجْدي أنني لم أقُل له: كذَبت ولم أبخل بما مَلكتْ يدي

وقال علقمة بن عَبَدَة التميمي :

طحا بك قَلْبٌ في الحسانِ طروبُ   بُعيدَ الشبَّابِ عَصْرَ حانَ مشيب
يكلفُني ليْلَى، وقد شطّ ولْيُها   وعادت عوادٍ بيننا وخُطوب
مُنعمَّةٌ، ما يُستطاع كلامها،   على بابها مِن أن تزارَ رَقيب

إذا غـاب عنهـا البَعْـلُ لـم تُفش سِـرَّهُ — وتُـرضـى إيـاب البـعـل حيـن يـؤُوب
فـلا تـعـدِلي بيـني وبيـن مغـمَّـر — سَقتكِ روايـا المُـزْنِ حيـن تصـوب
سـقـاكِ يـمـانٍ ذو حَبيٍّ وعـارض — تـروحُ بـه جُنْـحَ العـشيِّ جـنـوب
ومـا أنت؟ أم مـا ذكـرهـا؟ ربَعِيَّـةٌ — يُـخطُّ لـهـا مـن ثـرمـداء قـليـب
فـإن تـسـألـوني بـالـنسـاء فـإنـني — بـصـيـرٌ بـأدواءِ الـنسـاء طـبـيـب
إذا شـابَ رأسُ الـمـرء أو قـلَّ مـالـه — فـليس لـه مـن وُدِّهِـن نـصـيـب
يُـردْنَ ثـراءَ الـمـال حيـث عَلِمـنَـهُ — وشـرْخُ الشـبـاب عـنـدهُن عـجيـب
فـدعْـهـا وسـلِّ الهـمَّ عنـكَ بجسـرَةٍ — كـهـمِّـك فـيـهـا بـالـردافِ خـبـيـب
إلى الحـارثِ الـوهـاب أعملتُ نـاقتي — بـكـلـكـلـهـا والـقُـصْـرَيَيْـنِ وجيـب

وقال عبد يغوث الحارثي اليمني :

ألا لا تـلومـاني كـفـى الـلوم مـا بيـا — فـمـا لكَـمـا في الـلوم خيـرٌ ولا لـيـا
ألـم تـعلمـا أن الـمـلامـة نـفـعُـهـا — قليـل، ومـا لـومي أخي من شِمـاليـا
فـيـا راكـبـاً إمَّـا عـرضـتَ فـبَـلِّغَنْ — نـدامـاي مـن نـجـران أنْ لا تـلاقِـيـا
أبـا كـرِبٍ والأيْـهَـمَـيْـنَ كـليـهـمـا — وقيسـاً بـأعلى حضـر مَـوت اليمـانيـا
جـزى اللَّه قـومي بـالـكـلاب مـلامـة — صـريـحـهـمُ والآخـريـن الـمـواليـا
ولـو شئت نجتبي من الـخيـل نـهْـدَةً — تـرى خلفهـا الحُـوَّ الجيـادَ تـوَاليـا
ولـكـنـني أحـمـى ذِمـار أبـيـكُـم — وكـان الـرمـاح يختـطفن لمُحـاميـا
أقـول وقـد شـدُّوا لـسـاني بنِسْعَـةٍ — أمعشـر تَيْمٍ أطـلقـوا عـن لِسـانيـا
أمعشـر تـيم قـد مـلكتم فـأسْجِحُـوا — فـإن أخـاكـم لـم يـكـن مـن بـوَائـيـا
فـإن تـقـتلوني تـقـتـلوا بـيَ سـيِّـداً — وإن تُـطلِقـوني تحـربـوني بمـاليـا
أحـقـاً عبـادَ الـلَّهِ أن لـستُ سـامعـاً — نشيـد الـرِّعـاء المعـزبين المتـاليـا
وتـضحـك مـني شيـخـةٌ عبشـميـةٌ — كـأن لـم تـرى قبـلي أسيـراً يـمـانيـا
وقـد علـمت عِـرسي مـلَيْـكـة أنـني — أنـا الـلـيـثُ مـعـدُوًّا عَـلَـيَ وعَـاديـا
وقـد كنت نحَّارَ الحـزور، ومُعْمِـل الـ — مَطيِّ، وأمضي حيث لا حيَّ مـاضيـا
و أنـحـرُ للشَّرب الـكـريـم مـطيتي — واصـدعْ بـيـن الْـقَـيْـنَـتَـيْـنِ ردائـيـا
وكنتُ إذا مـا الخيـلُ شمَّصـهـا الْقـنـا — لـبيـقـاً بـتـصـريـف الـقـنـاة بـنـانـيـا
وعـاديـةٍ سَـوْمَ الـجـراد وَزعـتـهـا — بـكـفِّي وقـد أنـحـوْا إلـيّ العـواليـا
كـأنـيَ لـم أركـبْ جـواداً ولـم أقـل — لِخيْلِيَ: كـرِّي نفسي عـن رجـاليـا
ولـم أسبـأ الـزِّق الـرويِّ، ولـم أقـل — لأيْسـار صِدق أعـظمـوا ضـوء نـاريـا

وقال ذو الإصبع العدواني :

لـيَ ابـنُ عمّ على ماكـان مـن خُـلق — مـخـتـلفـان: فـأقـليـه، ويـقـليـني

أزرى بنا أَننا شالتْ نعامتنَا ... فخالني دُونه، وخلتُه دوني

يا عمرُو إلا تدعْ شتميَ ومنْقَصَتي ... أضربْكَ، حتى تقول الهامة: اسقوني

لاه ابن عمك! لا أفضلت في حسبٍ ... عني، ولا أنت ديَّاني فتخزوني

ولا تقوتُ عيالي يوم مسغبةٍ ... ولا بنفسك في العزَّاء تكفيني

إني لعمرك ما بأبي بذي غَلَق ... عن الصديق، ولا خيري بممنون

ولا لساني على الأدنى بمنطلق ... بالفاحشات، ولا فتكي بمأمون

عفٌّ يؤوس إذا ما خفتُ من بلدٍ ... هُوناً فلستُ بوقاف عَلَى الهُون

عني إليك، فما أُمِّي بَرَاعيةٍ ... ترعى المخاض، وما رأيي بمغبُون

كلّ امرىء راجعٍ يوماً لشيمته ... وإن تخلق أخلاقاً إلى حين

إني أبيٌّ أبيٍّ ذو محافظةٍ ... وابن أبيّ أبيّ مِنْ أبيين

وأنتمُ معشرٌ زيدٌ عَلَى مائة ... فأجمعوا أمركم كلّاً فكيدوني

فإن علمتمْ سبيل الرشد فانطلقوا ... وإن جهلتم سبيل الرشد فأتوني

ماذا عَلَيّ وإن كنتم ذوي رحمي ... ألا أحبكم إن لم تحبوني

لو تشربون دمي لم يرو شاربكم ... ولا دماؤكم جَمْعاً تُرَوِّيني

اللّهُ يَعملني، واللّه يَعلمكم ... واللّه يجزيكم عني، ويجزيني

قد كنت أوتيكم ثم نصحي، وأمنحكم ... وُدِّي على مُثبت في الصدر مَكنون

لا يُخرجُ الكره مني غيرَ مأبيةٍ ... ولا ألينُ لمن لا يبتغي ليني

وقال الأفوهُ الأوْدي:

البيت لا يُبتنى إلا له عَمد ... ولا عِماد إذا لم تُرسَ أوتادُ

فإنْ تَجمَّعَ أوتادٌ وأعمدةٌ ... وسَاكن بَلغوا الأمر الذي كادوا

لا يصلُحُ الناس فوضى لا سَرَاة لهم ... ولا سَراة إذا جهّالهم سادُوا

تهدى الأمُور بأهل الرأي ما صلحت ... فإنْ تولّت فبالأشرار تنقادُ

إذا تولىً سراة الناس أمرهم ... نمَا على ذاك أمر القوم فازدادوا

وقال ودَّاك بن ثميل المازني:

رويد بني شيبان بعضَ وعيدكم ... تُلاقوا غداً خيلي على سفوَان

تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى ... إذا ما غدتْ في المأزق المتداني

عليها الكماةُ الغرُّ من آل مازن ... ليوث طعان عند كل طعان

تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرُهم ... عَلَى ما جنتْ فيهم يد الحدثَان

مقاديم وصَّالون في الرّوع خطوهم ... بِكلِّ رَقيق الشفرتين يمان

إذا استُنجدُوا لم يسألوا منْ دعاهُم ... لأية حزب أمْ بِأيِّ مَكان

وقال زهير بن أبي سُلْمى يمدح هَرِم بن سنان:

وأبيضَ فيَّاض يَداهُ غمامة عَلَى مُعْتفيهِ مَا تُغِبُّ فواضلُه
أخي ثقةٍ لا يهلك الخمر مالَه ولكنه قد يهلك المال نائله
تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقال أيضاً!

وفيهم مقاماتٌ حِسانٌ وجوههم وأنديةٌ ينتابها القول والفعل
وإن جئتهم ألقيت حول بيوتهم مجالس قد يُشْفى بأحلامها الجهل
على مكثريهم رِزقُ من يَعتريهمُ وعند المقِلين السماحة والبذل
سعى بعدهم قوم لكي يدركُوهُم فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألوا
فما كان من خير أتوه فإنما تَوَارثهُ آباءُ آبائهم قبل
وهل يُنْبتُ الخُطيَّ إلا وشيجُهُ وتُغرَس إلا في منابتها النخل؟

وقال الأعشى يمدح المحلق:

لعمري لقد لاحت عيونُ كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرَّقُ
تشَبُّ لمقرورَيْن يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق
رضيعَيْ لبانٍ ثدي أم تقاسما بأسحم داج عَوْضُ لا نتفرق
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه كما زان متنَ الهِندُواني رونق
يداه يدا صدق فكفٌ مُبيدةُ وكفُ إذا ماضَنّ بالمال تُنفِقُ

وقال تأبط شراً يمدح ابن عم له وينعته بما يتمدح به الجاهليون من الصفات:

إني لَمُهدٍ من ثنائي فقاصدٌ به لابن عم الصدق شمس بن مالك
أهزُّ به في ندوة الحي عِطْفهُ كما هز عطفي بالهجان الأوارك
قليل التشكي للمهم يصيبه كثير الهوى شتى الثوى والمسالك
يظل بموماة ويمسى بغيرها جُحيشاً ويَعْرورِي ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحى بمنخرق من شدِّة المتدارك
إذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل له كالئ من قلب شيْحانَ فاتك
ويجعل عينيه ربيئة قلبه إلى سلَّةِ من حد أخلق صائك
إذا هزه في وجه قرن تهللت نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الإنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أمُّ النجوم الشوابك

وقال عمرو بن الهذيل العبدي:

ولا ترْج خيراً عند باب ابن مَسمعٍ إذا كنت من حيي حنيفة أو عِجْل
ونحن أفمنا أمر بكر بن وائل وأنت (بثاج) ما تمرُّ وما تَحْلى

وما تستوي أحساب قوم تُورِّثتْ قديماً وأحساب نبتنَ مع البقل

وقال لبيد بن ربيعة يرثي النعمان:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أتحْبٌ فيقضى أو ضلالٌ وباطل؟
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بلى، كلُّ ذي لبّ إلى اللّه واسل
ألا كلُّ شيىء ما خلا اللّه باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويْهيةٌ تصفر منها الأنامل
وكل امرىء يوماً سيعلم غَيْبه إذا حُصِّلت عند الإله الحصائل
إذا المرء أسرى ليلةً خال أنه قضى عاملاً، والمرء ما دام عامل
فقولا له إن كان يقسم أمره ألما يعظْك الدهر؟ أمك هابل
فتعلم أني لست مدرِك ما مضى ولا أنت مما تحذر النفس وائل
فإن أنت لم ينفعك علمك فانتسب لعلك تهديك القرون الأوائل
وإن لم تجد من دون عدنان والداً ودون مَعَدٍّ فلْتزعْك العواذل

وقال عَديّ بن زيد العبادِي:

أيها الشامت المعيِّر بالدهـ ـر أأنت المبرّأ الموفور؟
أم لديك العهد الوثيق من الأيا م أمْ أنت جاهل مغرور؟
من رأيت المنون خلدن أم منْ ذا عليه من أن يُضام خفير؟
أين كسرى كسرى الملوك أبوسا سان أم أين قبله سابور؟
وأبو الخضر إذ بناه وإذ دجْـ ـلة تجبى إليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلْـ ـساً فللطير في ذراه وكور
وتبين رب الخورْنق إذ أشـ ـرف يوماً وللهدى تفكير
سره خاله وكثرة ما يمـ ـلك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قَلبه فقال وما غبـ ـطة حي إلى الممات يصير؟
ثم بعد الفَلاح والملك والأمة م وارتهمُ هناك القبور
ثم أضحوا كأنهم ورق جفّ م فألْوَتْ به الصبَّا والدّبور

وقال امرؤ القيس في معلقته يصف الليل:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح، وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مُغار الفتل شدَّت بيذبل

وقال فيها يصف جواده:

وقد أغتدي والطير في وُكناتها ... بمنجَرد قيْدِ الأوابد هيكل

مِكر مِفَرٍّ مقبل مدبر معاً ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

له أيطلا ظبي وساقا نعامةٍ ... وإرخاء سرحان وتقريب تَتْفل

وقال طرفة بن العبد يصف السفينة:

كأن حَدوج المالكيةِ غدوة ... خلايا سفين بالنواصف من (دَدِ)

عَدْوَلية أو من سفين ابن يامنٍ ... يجور بها الملاحُ طوراً ويهتدي

يشق حَباب الماء حيزومُها بها ... كما قسم التُربَ المفايل باليد

وقال أبو صعترة البولاني:

فما نطفة عن حَبِّ مزن تقاذفت ... به جَنْبتا الجوديِّ والليل دامس

فلما أقرّته اللصاب تنفست ... شمالٌ لأعلى مائه فهو فارس

بأطيب مِن فيها وما ذقت طعمه، ... ولكنني فيما ترى العين فارس

وقال الأعشى:

ما روضةٌ من رياض الحَزن معشبة ... خضراء جاد عليها مسْبِل هطِل

يضاحك الشمس منها كوكب شرِق ... مؤزر بعميم النبت مكتهل

يوماً بأطيب منها نشرَ رائحة ... ولا بأحسن منها إذْ دنا الأصُل

وقال المتلمس جرير بن عبد العزّى من قصيدة:

وكنا إذا الجبار صعّر خدّه ... أقمنا له من خده فتقوّما

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا ... وما عُلِّم الإنسان إلا ليعلما

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي ... جعلت لهم فوق العرانين ميسما

وما كنت إلا مثلَ قاطع كفه ... بكف له أخرى فأصبح أجذما

فلما استقاد الكفّ بالكف لم يجد ... له درَكا في أن تبِينا فأحجما

يداه أصابت هذه حتف هذه ... فلم تجد الأخرى عليها مقدما

فأطرق إطراق الشجاع ولوْ يرى ... مساغاً لنابَيْه الشجاع لصمما

الفصل الرابع

الشعراء الجاهليون وطبقاتهم

كل قبيلة كانت تحرص على أن يكون لها شاعر وقائد وخطيب، ولكن الشاعر كان أكرم عليها وأحب إليها من هذين. فكانت إذا نبغ فيها شاعر تصنع الولائم وتقيم الأفراح وتهنئها القبائل. وذلك لأن الشعراء يقودون قومهم بقولهم، وينضحون عنهم يوم حفلهم، ويخلدون مآثرهم على الدهور، وينقشون مفاخرهم في الصدور، لا يبتغون على ذلك جزاء ولا صلة. على أن نفراً منهم نكبوا بالشعر فغض ذلك من أقدارهم، وإن لم يغض من أشعارهم، كالنابغة مع النعمان، وزهير مع هرم بن سنان، والأعشى مع الملوك والسوقة. وكان لكل شاعر راوية يلازمه ملازمة التلميذ لمعلمه. ينهج طريقه وينشر شعره ونابغو الشعراء قضوا عهد الثقافة والمرانة في الرواية، فكان امرؤ القيس راويةَ أبي دؤاد الإيادي، وزهير راوية أوس بن حجر، والأعشى راوية المسيب بن علس.

والشعراء بإعتبار الزمان أربع طبقات: جاهليون، وهم من عاشوا قبل الإسلام أو أدركوه ولم يقولوا فيه شيئا يذكر، كامرىء القيس وزهير وأمية بن أبي الصلت ولبيد. ومخضرمون، وهم الذين اشتهروا بالشعر في الجاهلية والإسلام، كالخنساء وحسان بن ثابت. وإسلاميون: وهم الناشئون في الإسلام الباقون على سليقتهم في العربية، وهم شعراء بني أمية. ومولدون: وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة وهم شعراء بني العباس.

وهم باعتبار الإجادة في رأي النقاد ثلاث طبقات: امرؤ القيس وزهير والنابغة، وهم رجال الطبقة الأولى. والأعشى ولبيد وطرفة، وهم رجال الطبقة الثانية؛ وعنترة ودريد بن الصمة وأمية بن أبي الصلت، وهم رجال الطبقة الثالثة. وهذا التقسيم لا يخلو من ضلال وتحكم، لاختلاف الذوق وجهل القدماء بقواعد النقد.

٣ ـ امرؤ القيس
٤٩٧ ≃ ٥٤٥ م
١٣٠ ق هـ ≃ ٨٠ ق هـ

نشأته وحياته:

هو الملك الضليل ذو القروح جندح بن حجر الكندي، ولد أثيلَ المنبت كريم الأبوة والأمومة: فأبوه سليل الملوك من كندة، وملك بني أسد. وأمه أخت كليب ومهلهل ابني ربيعة. فشب في حجر النعيم ودرج في مهد السراوة؛ إلا أنه نشأ نشأة الغواة يعاقر الراح ويغازل النساء ويعشق اللهو ويقول الشعر. ثم أطلق لنفسه العنان في المجون، وقعد عما تسمو إليه النفوس الكبيرة فطرده أبوه، وكان أصغر أولاده. فخرج في زمرة من أخلاط العرب وذؤبائهم يرتادون الرياض والغُدُر. فإذا صادفوا غديراً خيموا عليه وطفقوا يلعبون ويعاقرون ويصدون؛ حتى إذا نضب الماء وذوي العشب تحولوا عنه إلى غيره. ولم تزل تلك حاله حتى بلغ دمون من أرض اليمن. وهناك أتاه نعي أبيه وقد قتله بنو أسد غيلة لاستبداده بهم وسوء سيرته فيهم. فقال آمرؤ القيس: «ضيعني أبي صغيراً، وحمَّلني دمه كبيراً. لا صحو اليوم ولا سكر غداً. اليوم خمر، وغداً أمر» ثم آلى ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدَّهن بدهن حتى يقتل من بني أسد مائة ويجز نواصي مائة. فلما أجنه الليل شام برقاً فقال:

أرقت لبرق بليل أهل ... يضيء سناه بأعلى الجبل
أتاني حديث فكذبته ... بأمر تزعزع منه القُلل
بقتل بني أسد ربهم ... ألا كل شيء سواه جلل

فلما كان من الغد استنجد أخواله بكراً وتغلب وسار إلى بني أسد فأوقع بهم. ثم طلبوا أن يفدوه بمائة من وجوههم فأبوا؛ فتخاذلت عنه بكر وتغلب. وطلبه المنذر بن ماء السماء لموجدة كانت في نفسه على قومه، وأمده كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة فتفرقت جموعه خوفاً من المنذر. وسار هو في القبائل يطلب النصر حتى سدت عليه وجوهه. فلجأ إلى السموأل بن عاديا اليهودي فاستودعه دروعه وطلب منه كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر

---

٣ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ١٢، ١٣، ١٦، ٣٥، ٣٦، ٤١، ٤٦، ٥٥، وطبقات فحول الشعراء: ٣٤، ٣٥، ٤٣ ـ ٤٦، ٢٣٥، والمغتالين: ص ٢٠٩، والشعر والشعراء: ص: ٣٧ ـ ٥٦، والمؤتلف والمختلف: ص ٩، والأغاني: ٩/٧٧ ـ ١٧، ومعجم الشعراء: ص ٢٠٠، والموشح: ص ٢٧ ـ ٣٨، وسمط اللآلي: ص ٣٨ ـ ٤٠، والتهذيب، لابن عساكر: ٣/١٠٤ ـ ١١١، وخزانة الأدب ١/١٦٠ ـ ١٦٢، ٣/٦٠٩

الغساني ليوصله إلى قيصر. فلما بلغ قيصر الروم وهو يومئذ جستنيان أكرم وفادته وطمع أن يكون امرؤ القيس قوة له في العرب، يريض له الأمور ويضعف نفوذ الأكاسرة. فجهزه بجيش وسيره، ثم بدا له فأعاده. ونزلت بامرىء القيس علة جلدية فتقرح جسمه وتهرأ لحمه. والمؤرخون يزعمون أنه لما فصل بالجنود دخل الطماح الأسدي على قيصر فوشى به وحمله عليه انتقاماً منه لقتله أباه. فبعث إليه قيصر بحلة وشي مسمومة وقد بلغ أنقرة من بلاد الروم فأصابه ما أصابه. ويستدلون على ذلك بقوله:

لقد طمح الطماح من نحو أرضه	ليلبسني من دائه ما تلبسا
وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة	فيالك نعمى قد تحولت أبؤسا
فلو أنها نفس تموت سوية	ولكنها نفس تساقط أنفسا

ولما غشيته سكرة الموت قال: رب جفنة مثعنجرة، وطعنة مسحنفرة، وخطبة محبرة، تبقى غداً بأنقرة! ثم مات ودفن بجبل عسيب سنة ٥٦٠ م[١].

شعره:

نشأ امرؤ القيس نجدياً وإن كان يمنياً، فترعرع بين بني أسد في صميم العرب الخلَّص، فسمع الأشعار ورواها، وتطلعت نفسه إلى مساجلة الشعراء فقال الشعر على حداثة سنه. وكان جزل الألفاظ كثير الغريب جيد السبك سريع الخاطر بديع الخيال بليغ التشبيه وقد فتقت الأسفار والأخطار والمخالطة قريحته فاستنبط المعاني الجديدة، ونهج المذاهب الحديثة. وارتسمت في شعره محدثات عصره فنسبت إليه لنبوغه وتفوقه وجاهه، فقالوا إنه أول من وقف على الأطلال وبكى على الديار وشبَّب بالنساء، وشبههن بالمها والظباء، وأجاد وصف الليل والخيل لإدمان ركوبه وكثرة أسفاره. وإنك لتجد في شعره صورة كاملة من حياته وخلقه. ففيه عزة الملوك، وتبذل الصعلوك، وعربدة الماجن، وحمية الثائر، وشكوى الموتور، وذلة الشريد، وهو بإجماع الرواة زعيم الجاهليين للأسباب التي مرت بك.

نماذج من شعره:

من خير ما أثر عنه معلقته التي سارت في الناس مسير المثل نظمها في حادثة وقعت له مع ابنة عمه عنيزة، ثم استطرد إلى وصف الليل ونعت الفرس وذكر المجون والصيد. قال في مطلعها.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخول فحومَل

---

(١) والأصح أنه توفي سنة ٥٤٥ هـ.

وقد مر شيء منها في النماذج. ومنها في الغزل:

أفاطم مهلاً بعضَ هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت هجري فأجملي
أغرك مني أن حبَّك قاتلي ... وأنك مهما تأمري القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربي ... بسهميك في أعشار قلب مقتل
فإن كنت قد ساءتك مني خليقة ... فسُلّي ثيابي من ثيابك تنسل
تسلَّت عمايات الرجال عن الصبا ... وليس فؤادي عن هواها بمنسَل

وقال من قصيدة يذكر فيها رحلته مع عمرو بن قميئة إلى قيصر:

إذا قلت هذا صاحب قد رضيته ... وقرت بهِ العينان بُدلت آخرا
كذلك جَدّي لا أصاحب واحداً ... من الناس إلا خانني وتغيرا
تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت ... على جمل بنا الركاب وأعفرا
ولما بدت حوران والآل دونها ... نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا
تقَطَّع أسبابُ اللُّبانات والهوى ... عشية غادرنا حَماة وَشيزَرا
بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له: لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

٤ ـ النابغة الذبياني

... ≃ ٦٠٤ م

... ≃ ١٨ ق هـ

نشأته وحياته:

هو أبو أمامةَ زِياد بن معاوية، ولقب بالنابغة لأنه لم يقل الشعر حتى احتنك، ثم فجىء الناس بشعر يذِّبه الشعراء، وكان له منه مادة لا تنقطع فشبهوه بالماء النابغ. وهو أحد سَرَاةِ بني ذبيان ومن ذوي مثَالتهم، ولكن تكسبه بالشعر غض من قدره وطأطأ من إشرافه. اتصل

---

٤ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ١٢، ١٣، ١٦، ٣٥، ٣٦، ٤١، ٤٦، ٥٥، وطبقات فحول الشعراء: ٣٤، ٣٥، ٤٣، ٤٦، ٢٣٥، والمغتالين: ص ٢٠٩، والشعر والشعراء: ص ٢٠٠، والموشح: ص ٢٧ ـ ٣٨، وسمط اللآلىء: ص ٣٨ ـ ٤٠، والتهذيب، لابن عساكر: ٣/١٠٤ ـ ١١١، وخزانة الأدب ١/١٦٠ ـ ١٦٢، ٣/٦٠٩ وابن عساكر: ٥/٤٢٤ ـ ٤٢٩، وشواهد العيني: ١/٨٠، وخزانة الأدب: ١/٢٨٧ ـ ٢٨٩، ٤٢٧ ـ ٤٢٨، ٤/٩٦ ـ ٩٧، ومعجم المؤلفين: ٤/١٨٨.

بالنعمان بن المنذر فاستخلصه إليه وأسبغ نعمته عليه حتى أكل وشرب في آنية الذهب والفضة من جوائزه. وما زال النابغة يَتَبَسّط على النعيم، ويَتَفَيَّأُ ظلال الخفْض، حتى دَرج بالنميمة بينهما بعض حساده متذرعين إلى الوشاية بقصيدته في وصف المتجردة زوج النعمان. فوقَرَت السعاية في نفس الملك فتوعده، فنجا الشاعر بنفسه إلى الشام ولاذ بعمرو بن الحارث الأصغر الغساني، فنزل منه في جناب مريع وأمن شامل، فزاد ذلك في حقد النعمان عليه لالتجائه إلى أعدائه ومنافسيه. وما زال النابغة عند بني غسّان يصلهم بالدر ويصلونه بالذهب حتى بلغه أن النعمان عليل، فرجع يطلب الشفاعة إليه، ويرجو البراءة عنده، مقدماً بين يديه مع شفيعيه تلك القصائد الخالدة في الاعتذار، فاستلّت ما في نفس الملك وأحلّته منه في المكان الأول، وبقي في حال حسنة حتى أرعشه الكِبر وقيده الهرَم وسئم الحياة وقال:

المرء يأمل أن يعيـ ... ـش وطول عيش قد يضرُّه
تفْنى بشاشته ويبـ ... ـقى بعد حلو العيش مرُّه
وتخونه الأيام حتى ... لا يرى شيئًا يسره
كم شامت بي إن هلكْـ ... ـتُ وقائل: لله درُّه

وكانت وفاته في السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة.

شعره:

النابغة أحد فحول الشعراء الثلاثة الذين لا يشق غبارهم، ولا تلحق آثارهم، وهم امرؤ القيس وهو وزهير. ويمتاز من صاحبيه ببديع كنايته، ودقيق إشارته، وصفاء ديباجته، وقلة تكلفه، وموافقة شعره لهوى النفوس. ولهذا لم يغنّ الناس بشعر أحد في الجاهلية وصدر الإسلام بمثل ما غنوا به من شعره. وقد أجاد في وصف ليل الخائف، واعتذار الجاني، ومدح المنعم، إجادة لا يتعلق بها درَك، إلا أنه كان يُقوِي في شعره ويقول: إن في شعري عاهة لا أدريها؛ حتى سمع مغنيًا يغني بأبيات من شعره فيها إقواء، ففطن إلى ذلك ولم يعد إليه. وقد عرف شعراء العرب له تلك المكانة السامية في الشعر فقدموه في عكاظ واحتكموا إليه في الخصومات الأدبية فكان يقضي بينهم موفّقَ القضاء مطاع الحكم.

نموذج من شعره:

قال من قصيدته في مدح عمرو بن الحارث الغساني:

كليني لهمٍّ يا أُميمة ناصب ... وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكب
وصدر أراح الليل عازبَ همه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب
عليّ لعمرو نعمة بعد نعمةٍ ... لِوالدِهِ ليست بذات عقارب

وثقت لـه بـالنصـر إذْ قيـل قَـد غَـزتْ كـتـائـب مـن غسَّـان غـيـر أشـائـب
إذا مـا غَـزوا بـالـجيش حلق فـوقهم عـصـائب طيـر تهتـدي بعـصـائـب
فـهـم يَـتسـاقـوْن الـمنيـةَ بينـهـم بـأيـديـهـمُ بيضُ رقـاق الـمـضـارب
ولا عيـب فيـهـم غيـر أن سيـوفـهـم بـهـنَّ فـلـولٌ مـن قـراع الـكـتـائـب
لـهم شِيمـةٌ لـم يعـطهـا الله غيـرَهم مـن الجـود، والأحـلامُ غيـر عـوازب
رقـاق الـنعـال طـيـبُ حُـجـزاتـهـم يُحيّـون بـالـرّيحـانِ يـوم السبـاسب
ولا يـحسـبـون الـخيـر لا شـرَّ بعـده ولا يـحسـبـون الشـرَّ ضـرْبـةَ لازب

٥ ـ زهير بن ابي سلمى
۰۰۰ ـ ٦٠٩ م
۰۰۰ ـ ١٣ ق هـ

نشأته وحياته :

نشأ زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رباح المزَني في أقارب أبيه من بني غطفان، ولزم بشامة بن الغدير خال أبيه، وكان رجلاً مقعداً عقيماً حكيماً قد اشتهر بسداد الرأي وجودة الشعر ووفرة المال، فاغترف من شعره وتأثر بعلمه وحكمه، وظهر ذلك جليًا فيما رصع به شعره من درر الحكمة. ولما مشى الحارث بن عوف وهرم بن سنان المريان بالصلح بين عبس وذبيان وأطفآ نار الحرب بآحتمالهما ديات القتلى عن الحيَّين، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير، استفزته هذه الأريحية فمدحهما بمعلقته. ثم تابع مدحه لهرم بن سنان وأطنب في ذلك حتى أَقسم هرم ألا يمدحه زهير ولا يسأله ولا يسلم عليه إلا أعطاه عبداً أو وليدة أو فرسًا. فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه، وأصبح إذا رآه في ملأ من الناس قال عِمُوا صباحاً إلا هرمًا، وخيرَكم. استثنيت. وقال عمر بن الخطاب لبعض أولاد هرم: أنشدني بعض مدائح زهير في أبيك، فأنشده. فقال عمر: إنه كان ليحسن فيكم القول. فقال: والله ونحن كنا نحسن له العطاء. فقال عمر: قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم وكان زهير على جِدَته رحب الأناة راجح الحصاة سديد الرأي شديد الورع مؤثراً للسلم مؤمنا بالله واليوم الآخر. يشهد بذلك قوله في معلقته:

---

٥ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ١٤ ـ ١٧، ٣٤، ٤١، ٤٢، ٤٨، ٤٩، ٥٢، وطبقات فحول الشعراء: ص ٥٢ ـ ٥٤، والمُعَمَّرون، ص ٨٣، والأغاني: ١٠/٢٨٨ ـ ٣٢٤، والحصري: ص ٥١ ـ ٥٢، وسِمْط اللآلىء: ص ٢٦١، وشواهد العيني: ٢/٢٦٧ ـ ٢٧١، ومعاهد التنصيص: ١/٣٢٧، ومعجم المؤلفين: ٤/١٨٦، ومراجع: ٣/١٣٩ ـ ١٦٤.

فـلا تـكـتُـمـنَّ الله مـا فـي صـدوركـم   لـيـخـفـي ومـهـمـا يُـكْـتَـمِ الله يُـعْـلـمِ
يؤخَّـرْ فيـوضـع فـي كِتـاب فيـدَّخـر   لـيـوم حـسـاب أو يـعـجَّـل فـيُـنْـقَـم

وقد عمرَّ زهير حتى نيَّف على المائة كما يؤخذ من قوله :

بدا ليَ أني عشت تسعين حجـة   تبـاعًـا وعَشـراً عِشتها وثمـانيـا

وتوفي قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة وقد أسلم ولداه كعب وبجُير.

شعره :

بيت زهير عريق في الشاعرية : فأبوه وخاله، وأختاه سلمى والخنساء، وولداه كعب وبجيْره، من الشعراء المذكورين، وذلك ما لم يكن لغيره. وهو كما علمت أحد الثلاثة الفحول. وفي الناس من يفضله على امرىء القيس والنابغة، لأن شعره يمتاز بصدق اللهجة، وخلوه من الحوشِيِّ والتعقيد، وبعده عن سخف القول وهُجْر الحديث، وجمعه الكثير من المعاني في قليل من الألفاظ. وهو واحد من الشعراء في إجادة المدح وضرب المثل وإرسال الحكمة. وزهير من عبيد الشعر الذين تعملوه ونقحوه. وله قصائد تعرف بالحوليات يزعمون أنه كان ينظمها في أربعة أشهر ويهذبها في أربعة، ثم يعرضها على خاصة الشعراء في أربعة، فلا ينشدها الناسَ إلا بعد حول.

تحليل موجز لمعلقته :

موضوع معلقته كما علمت مدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان المرِّيين على سعيهما بالصلح بين عبسٍ وذبيان. ولكنه افتتحها على عادة الجاهليين بالوقوف على أطلال الأحبة وتحيتها ونعتها وتنسُّم الذكريات من خلال آثارها، فوقف على الدمن البكم الدوارس من ديار أمِّ أوْفى بعد أن أتى على عهده بها عشرون سنة فلم يعرفها إلا بعد مشقة :

فلما عـرفت الـدار قلت لـربعهـا   ألا عِمْ صباحا أيها الـربـع واسلم

ثم تمثلت في خاطره ظعائن الحبائب متحملات تغشيهن سدول صفيقة النسج، وكلّه وردية الحواشي، فيتبعهن ببصرة الحزين وقلبه الواله، فيصف ما سلكنه من طُرُق وما نزلنه من منازل حتى يبلغن المنزل الذي أردنه، وما أجمل أسلوبه في استحضار هذه الذكرى، حتى لكأنها ماثلة للعيون فلو تَبَصَّر صاحبه قليلاً لرآها :

تَبَصَّـرْ خليلي هـل تـرى مـن ظعـائـن   تحمَّلن (بـالعليـاء) من فـوق (جـرثم)
تـلَوْن بـأنـمـاط عِـتـاق وكـلَّة   وِرَاء حـواشـيـهـا مـشـاكـهـة الـدم
بـكـرْن بكـوراً واستـحـرن بسـحـرة   فـهن لـوادي الـرس كـاليـد في الفم
وفـيـهـن مَلهـى لـلصـديـق ومـنـظرٌ   أنـيق لـعـين الـنـاظـر الـمـتـوسـم

فلما وردن الماء زُرقا جِمامة وضعن عِصيَّ الحاضر المتخيم

ثم انتقل على طريقة الاقتضاب إلى الرجلين اللذين حقنا بالصلح دماء العشيرة فقال لهما:

يمينا لَنِعم السيدان وجدتما على كل حال من سَحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عِطر مَنْشم
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبح يجري فيهمُ من تلادكم مغانم شتى من إفال المزَتم

ثم قطع المدح مؤقتًا ليدعو الخصوم إلى السلم في لين ورفق، ولكنه ذكر الحرب فاشتد وأنكر ما تجر على الناس من أوزار وأضرار:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المُرَجَّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضرَ إذ ضربتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحا بثفالها وتلْقَحْ كِشافا ثم تحمل فتتئم
فَتُغْلِلْ لكم ما لا تُغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

ثم عاد إلى رجُليه فمضي في مدحهما على ما رأبا من صدع لم يحدثاه، ووصف همَّ ابن ضمضم بالجناية وعزمه عليها:

وكان طوي كشحاً على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتجمجم
وقال سأقضي حاجتي ثم أتقي عدوي بألف من ورائي مُلَجم
فشد ولم تفزع بيوت كثيرة لدي حيث ألقت رحلها أم قشعم
لدي أسد شاكي السلاح مُقذَفٍ له لِبَد أظفاره لم تُقَلَّم
رعوا ما رعوا من ظِمْئهم ثم أوردوا غماراً تسيل بالرماح وبالدم
فقضّوا منايا بينهم ثم أصدروا إلى كلإ مُسْتوْبِلٍ متوخَّم

ثم غلبت عليه نزعته الإنسانية وطبيعته الفلسفية فوقف موقف الحكيم يتبرم بالحياة ويفكر في الموت ويعظ بالتجارب:

رأيت المنايا خبْط عشواء من تصب تمته ومن تُخطىء يعمَّر فيهرم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو نال أسبابَ السماء يسلم
ومن يجعل المعروف من دونِ عرضه يفره، ومن لا يتَّق الشتم يشتم
ومن يجعل المعروف في غير أهله يعد حمده ذما عليه ويندم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم
وكائن تري من معجِب لك شخصه زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف، ونصفٌ فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وإن سفاه الشيخ لا حلْم بعده   وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

٦ ـ الأعشى
٠٠٠ ـ ٦٢٩ م
٠٠٠ ـ ٧ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو بصير ميْمون بن قيس بن جَنْدل أحد أمراءِ الشعر المتكسبين به القائلين في أكثر ضروبه. نشأ باليمامة في قرية تسمى منفوحة، وثَقِف الشعر من طريق الرواية على خاله المسيَّب بن علس، حتى إذا حصُف عقلُه وآرتاض لسانه، آنتجع أطراف البلاد وغشى أبواب الملوك يمدحهم ويستجديهم. وفد على بني عبد المدان ملوك نجران فأكرموا ثواءه وأجزلوا عطاءه، وآكتسب من خلاطهم إدمان العُقار، والتأثر ببعض الأفكار، فظهر شيء من ذلك في شعره ولا سيما وصف الخمر. وطال عمر الأعشى حتى آبيضت عيناه من الكبر. وسمع بأمر الرسول ﷺ فصنع في مدحه قصيدة وعزم الرحلة إليه بالحجاز، فأوجس القرشيون خيفة من إسلامه: وقال لهم أبو سفيان: والله لئن أتى محمداً أو آتبعه لَيَضَرِّمَنَّ عليكم نيران العرب بشعره، فأجمعوا له مائة من الإبل، ففعلوا، وأخذها الأعشى ورجع؛ حتى إذا دنا من اليمامة سقط من فوق ناقته فدقت عنقه.

شعره:

من الرواة وذوي البصر بالشعر من يجعل الأعشى رابعاً لامرىء القيس وزهير والنابغة. ويقولون: أشعر الناس آمرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهِب، والأعشى إذا طرب. وهذا وإن كان موضعاً للخلاف يدل على مكانة الرجل. وفي الحق أنك تجد في شعره ما لا تجد في شعر غيره من رونق الحسن، وطلاوة الأسلوب، والبراعة في وصف الخمر والإجادة مع الطول... وكان لشعره جَلَبَةٌ في السمع وروعة في النفس وأثر في الناس، فَسمي لذلك صَنَّاجة العرب. ولقد أعز بشعره وأذل؛ وقصته مع المحلق، وفَرَق القرشيين من إسلامه يدلان على ذلك.

---

٦ ـ انظر ترجمته في: النقائض: ص ٦٤٤، وفحولة الشعراء: ص ١٩، ٢١، ٣٦، ٤٢، ٤٨، ٥٢، والشعر والشعراء: ص ١٣٥ ـ ١٤٣ والمؤتلف والمختلف: ص ١٢، والعقد الفريد: ٣٦٣/٣، والأغاني: ١٠٨/٩ ـ ١٢٩، ومعجم الشعراء: ص ٤٠١، والموشح: ص ٤٩ ـ ٥٧، والمكاثرة: ص ٢، وسمط اللآلىء: ص ٨٣، ومعاهد التنصيص: ١٩٦/١ ـ ٢٠٢ وخزانة الأدب: ٨٤/١ ـ ٨٦.

نموذج من شعره:

ومن جيد شعره قصيدته اللامية التي عدها بعضهم من المعلقات ومطلعها:

ودّع هـريرة إن الـركب مـرتحـل	وهـل تطيق وداعـاً أيها الـرجل؟

ومنها:

أبلغ يـزيـد بني شيبـان مـألْكـة	أبـا ثبيْت أمـا تنفَـكُّ تـأتكـل
ألست منتـهيـاً عـن نحْت أثْلتنـا	ولست ضـائرهـا مـا أطّت الإبـل
كنـاطح صخـرة يـومـاً ليوهنها	فلم يَضرْهـا وأوهى قـرنـه الـوعَـل
لقـد زعمـتم بـأنـا لا نـقـاتكـم	إنـا لأمثـالكم يـا قـومنـا قُـتـل
قـالوا الـطراد، فقلنا تلك عـادتنـا،	أو تنـزلـون فـإنـا معشـر نُـزُل

ومن قصيدته التي أعدها لمدح الرسول قوله:

ألـم تـغْـتـمضْ عـينـاك أرمـدا	وبتّ كمـا بـات السليم مسهـدا
ومـا ذاك من عشق النسـاء وإنمـا	تنـاسيْت قبـل اليـوم خلة مهْـدَدا
ولكن أرى الـدهر الـذي هو خـائن	إذا أصلحت كفّـاي عـاد فـأفسـدا
شبـاب وشيـبٌ وآفـتـقـار وثـروة	فلله هـذا الـدهـر كيف تـردّدا!

ومنها:

فـآليت لا أرثي لهـا من كـلالـة	ولا من وجى حتى تـلاقي محمـدا
متى ما تنَاخِي عنـد باب ابن هـاشم	تُـراحي وتلقي من فـواضله نـدى
نـبيٌّ يـرى مـا لا يـرون وذكـره	أغـار لعمري في البـلاد وأنجـدا
لـه صدقـاتٌ مـا تغُبُّ ونـائـل	وليس عـطاء اليـوم يمنعـه غـدا

٧ ـ عنترة العبسي

٠٠٠ = ٦١٥ م

٠٠٠ = ٢٨ ق هـ

نشأته وحياته:

هو أبو المغلّس عنترة بن عمرو بن شداد العبسي، نَجَلَه أب شريف وأم حبشية تدعى

---

٧ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء ص: ٢٧، ٣٥، ٤٤، ٦٣، والمغتالين: ص ٢١٠ ـ ٢١١، والأغاني: ٢٣٧/٨ ـ ٢٤٦، والمؤتَلِف والمختَلِف: ص ١٥١، ومعجم الشعـراء: ص ٢٤٦، والـموشـح: ص ٨١، والشواهد: ٤٧٨/١ وخزانة الأدب: ٦٢/١.

زُبَيْبَة، فهو من هُجناء العرب وأغربتهم، فآنتفى منه أبوه منذ ولادته على عادتهم في أبناء الإماء، ولكنه نزع بنفسه عن حال العبودية، وأخذ يروض نفسه على الطراد والفروسية حتى غدا مِسْعر حرب وقائد كتيبة. وآتفق أن بعض أحياء العرب أغاروا على عبس فآستاقوا إبلهم، وتبعهم العبسيون وعنترة فيهم. فقال له أبوه: كرٍّ يا عنترة. فأجابه وهو يحقد عليه استعباده إياه: العبد لا يحسن الكرّ، وإنما يحسن الحلب والصَّرَّ. فقال: كرّ وأنت حرّ. فكرّ وقاتل قتالاً شديداً حتى هزم المغيرين وآسترجع الإبل، فآستلحقه أبوه. وأخذ آسمه منذ يومئذ يسير وذكره يطير حتى أصبح مضرب المثل في الإقدام والجرأة. وله في تعليل شهرته وشجاعته رأي حصيف لا بأس بذكره قال له قائل: أنت أشجع الناس وأشدهم، فقال له: لا. قال فبماذا شاع لك هذا في الناس؟ قال: كنت أُقدِمُ إذا رأيت الإقدام عزماً وأُحجم إذا رأيت الإحجام حزماً، ولا أدخل موضعاً لا أرى لي منه مخرجاً. وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله.

قاد عنترة كتائب عبس في حرب داحس والغبراء فأحسن القيادة، وبلغ أوج السيادة. ثم تنفس به العمر حتى وهن عظمه ورق جلده وقتل حوالي سنة ٦١٥ م.

شعره:

لم يرو عن عنترة في حال رقِّهِ من الشعر جيد ولا رديء. لأن العبودية ترين على القلوب وتطفىء ضرام العواطف، فلما آستلحقه أبوه وحالفه الفوز في حربه، وآستولى حب عبلة على قَلبه، جاش الشعر في صدره وجرى على لسانه في الفخر والحرب والحب، فجاء بالمعجب المطرب. تجد لشعره حلاوة الغزل ومتانة الفَخر، إلا أن أكثره مدخول النسب لا يمتُّ إليه إلا بتشابه الأسلوب والغرض. فمن شعره الذي لا دَخلَ في أصله معلقته الرقيقة الفخمة التي نظمها دفاعاً عن شاعريته وإثباتاً لفصاحته: فقد حدثوا أن رجلاً من عبس سابّه فذكر سواده وأمّه. فقال له عنترة: «إني لأحضُرُ البأس، وأوفي المغنم، وأعف عند المسألة، وأجود بما ملكت يدي، وأفضل الخطة الصماء». فقال له السابُ. أنا أشعر منك. فقال: ستعلم ذلك. ثم غدا على الناس بمذهّبته المشهورة فقطع خصمه ونقض حكمه.

نموذج من شعره:

قال من معلقته:

ولقد شربت من المدامة بعد ما	ركد الهواجر بالمشُوف المعلَم
فإذا سكرت فإنني مستهلك	مالي، وعرضي وافر لم يكلْم
وإذا صحوت فلا أقصِّر عن ندىً	وكما علمتِ شمائلي وتكرّمي
ومدجّج كره الكماة نزاله	لا مُمعنٍ هرباً ولا مستسلم

جادتْ يداي لـهُ بعاجـل طعنة ... بمثقّفٍ صـدق الكعـوب مقـوَّم
فشككت بـالرمـح الأصم ثيابـه ... ليس الكـريم على القنـا بمحـرَّم
فتـركتـه جـزَر السبـاع ينشنـه ... يقضمن حسن بنَـانـه والمعصـم
لمـا رأيتُ القـومَ أقبـل جَمعهم ... يَتَـذَامـرُونَ كـررتُ غيـرَ مـذمَّم
يـدعـون عنتـر والـرمـاح كأنهـا ... أشـطان بئـر في لَبـان الأدهـم
مـا زلـت أرميهم بثُغـرة نحـره ... ولَبـانـه حتى تسـربـل بـالـدم
فـازورَّ مـن وقـع القنـا بلَبـانـه ... وشـكـا إليّ بعبـرة وتَحَمْحُـم
لو كان يـدري ما المحاورةُ اشتكى ... ولكـان لـو علم الكـلام مكلمي
ولقـد شفى نفسي وأبـرأ سُقْمهـا ... قِيـلُ الفوارس ويْك عنتر أقـدِم!
والخيـل تقتحم الغبـار عـوابسـا ... مـا بين شَيْظمـةٍ وأجـرد شيْـظم

وقال أيضاً:

بكـرتْ تخـوفني الحتـوفَ كأنني ... أصبحت عن غَرَض الحتوف بمعزِل
فـأجبتـهـا إن المنيـة منهـل ... لا بـد أن أُسقَى بكـأس المنهـل
فـاْقْنَيْ حيـاءَك لا أبـالـك واْعلمي ... أني آمـرؤ سأمـوت إن لم أُقتـل
إن المنيـة لـو تمثـلُ مثلتْ ... مثـل إذا نـزلـوا بضنـك المنـزل
إني آمـرؤ من خيـر عبس منصبـاً ... شطري، وأحمي سائري بالمُنْصُـل
وإذا الكتيبـة أحجمت وتـلاحـظت ... أُلـفِيـت خيـراً مـن مُعِم مُخْـول
والخيـل تعلم والفـوارس أنني ... فـرقت جَمْعَهُم بضـربـة فيصـل
والخيـل ساهمـة الوجـوه كأنمـا ... تسقَى فـوارسهـا نقيـعَ الحنـظل
ولقـد أبيت على الطوى وأظلـه ... حتى أنـال بـه كـريـم المـأكـل

٨ ـ طرفة بن العبد

٥٣٨ ـ ٥٦٤ م

٨٦ ـ ٦٠ ق هـ

نشأته وحياته:

نشأ طرفة بن العبد بن سفيان البكري يتيماً من أبيه، فكفله أعمامه. فـأهملوا تربيته

٨ ـ انظر ترجمته في: فحولـة الشعراء: ص ٤٢، ٥٨، ٥٩، وطبقـات فحول الشعـراء، للجمحي، انظر: فهرسه، والمؤتلف والمختلف: ص ١٤٦، الأغاني (ليس لطرفة ترجمة مستقلة، انظر: فهرسه، وإنما =

وأساءوا أدبه. فشب ميالاً إلى الدعة والتبطل، عاكفاً على اللهو والخمر. مولعاً بالوقوع في أعراض الناس. وقد دعاه نزق الشباب أن يهجو الملك عمرو بن هند على اضطراره إلى رضائه، وآفتقاره إلى حبائه فآحتقدها عليه عمرو وأضمر له السوء. حتى إذا جاءه مع خاله المتلمس يستجديان فضله ـ وكان المتلمس قد هجاه أيضاً ـ هش للقائهما يريد أن يُؤَمنهما، وأمر لكل منهما بصلة وأحالهما بكتابين على عامله بالبحرين ليستوفياها منه. فلما كانا في طريقهما إلى العامل، داخل المتلمس من الصحيفة وسواس وهمٌّ، فآلتمس من يقرأها له فإذا فيها: «باسمك اللهم، من عمرو بن هند إلى المكعْبَر، إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فآقطع يديه ورجليه ثم آدفنه حيًّا» فألقى الصحيفة في النهر، ثم قال لطرفة: معك واللّه مثلها، فقال: كلا ما كان ليكتب لي مثل ذلك. وأخذ وجهه حتى أتى العامل بالبحرين فقتله وعمره ست وعشرون سنة.

شعره:

كان طرفة منذ الحداثة متوقد الذهن، مضطرم الشعور، حاد البادرة، فنبغ في الشعر وعُد من فحوله وهو دون العشرين. ولكنه كعمرو بن كلثوم لم يشتهر إلا بمعلقته. ولعله كان مكثراً وجهل الرواة أكثر شعره. يمتاز طرفة بصدق الوصف، والبعد عن الغلو فيه، إلا أنه كان معقد التراكيب مبهم المعنى غريب اللفظ، وتجد ذلك كله واضحاً في معلقته التي آبتدأها بالغزل، وآستطرد إلى وصف ناقته فوصفها بخمسة وثلاثين بيتاً من عيون الشعر ومبتكره، ثم أمعن بعد ذلك في الفخر بنفسه، وهي من أمتن الشعر وأبلغه، وهاك تحليلها بإيجاز.

تحليل موجز لمعلقته:

ابتدأها طرفة بذكر أُطلال (خولة) وتشبيهها ببقية الوشم في ظاهر اليد؛ ثم وقف بها وقفة قصيرة تخيل فيها قباب الحبيبة غداة ظعنها فوصفها وصفاً موجزاً، ثم نعتها هي نعتاً جميلاً هاج في صدره الهم فنجا من تذكاره وآحتضاره على ناقة وصف أعضاءها وأوضاعها في إسهاب وإغراب وإجادة:

وإني لأمضي الهم عند آحتضاره ... بهوجاء مرقال تروح وتغتدي
تُباري عتاقاً ناجياتٍ، وأتْبعتْ ... وظيفاً وظيفاً فوق مَوْر مُعَبَّد
صُهابيَّةُ العُثْنون مُوجَدةُ القرا ... بعيدة وخْد الرَّحل مَوَّارة اليد

= يأتي ذكره في إطار أخبار المُتَلَمِّس، في المرجع السابق)، ومعجم الشعراء: ص ٢٠١ ـ ٢٠٢، والموشح، للمرزباني، انظر: فهرسه، وكتاب من اسمه عمرو: لابن الجراح: ص ٤٨، ومعاهد التنصيص: ١/٣٦٤، وخزانة الأدب: ١/٤١٣ ـ ٤١٧. ومعجم المؤلفين: ٥/٤٠، والمراجع: ٣/٢٢١ ـ ٢٢٧.

وأتلعُ نهَّاضُ إذا صعَّدتْ به كسكَّان بُوصِيّ بدجلة مُصْعِدِ

ثم يفرغ لنفسه فيصفها باللهو في السلم وبالمخاطرة في الحرب فيقول:

إذا القوم قالوا: منْ فتى؟ خلت أنني عُنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ولست بحَلاَّل التلاع مخَافة ولكِنْ متى يسترفد القوم أرفد
فإن تبغني في حلقَة القوْم تلْقني وإنْ تلتمسني في الحَوَانيتِ تصطد
ومَا زالَ تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتْلدي
إلى أن تحَامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبَّد
رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطراف الممدَّد
ألا أيهذا الزاجري أحضرَ الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مُخْلدي؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ثم يعلن في صراحة وصدق أن غايته من الدنيا إنما هي الخمر والحب والنجدة؛ ولولا هذه اللذات الثلاث ما رغب الحياة ولا رهب الموت:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى لعمرك لم أحفل متى قام عُوَّدي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كُميْتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تزبد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد
وكرِّي إذا نادى المضاف مُجَنَّباً كسيد الغضى ذي السوَّرة المتورد

ثم يدعوه استعجاله اللذة ومبادرته اللهو وإتلافه المال وآقتحامه الخطر انتهازاً لفرصة الحياة وآستمتاعاً بقصر العمر إلى نوع من الفلسفة في البخل والموت فيقول:

أرَى قبرَ نحَّام بخيل بماله كقبر غويًّ في البطالة مفسد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدّد
أرى العيشِ كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيامُ والدَّهرُ ينفدِ
لعمرك إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى لكا الطِّوَل المُرْخي وثِنْيَاهُ باليد
متى مَا يشأ يوما يقده لحتفه ومَنْ يَكُ في حبل المنيَّة يَنقدِ

ويمضي الشاعر بعد ذلك زارياً على ابن عمه، شاكياً من ظلم قومه، مفتخراً بحسن بلائه وقوة عزمه:

فمالي أراني وابن عميَ مالكاً متى أدنُ منهُ يَنْأَ عني ويبعد
وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً عَلَى النفس من وقع الحسام المهند
أرَى الموت أعدادَ النفوس ولا أرَى بعيداً غداً، ما أقرب اليوم من غد!
أنا الرجل الضَّربُ الذي تعرفونه خشاشٌ كرأسِ الحية المتوقد
إذا آبتدر القوم السلاح وجدتني منيعاً إذا بَلَّتْ بقائمه يدي

فلو كنتُ وغلا في الرِّجال لضرَّني عداوةُ ذي الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عني الرِّجال جراءتي عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد

٩ ــ عمرو بن كلثوم

٠٠٠ ـ ٥٨٤ م

٠٠٠ ـ ٤٠ ق هـ

نشأته وحياته:

نشأ عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي بالجزيرة الفراتية بين ذوي الحسب اللباب من تغلب، وشبَّ على خلال العظماء عزيزَ النفس أبيَّ الضيم ذَرِبَ اللسان. وما كاد يناهز الخامسة عشرة من عمره حتى كان طريقة قومه وقائد قبيلته. وكان قطباً لرحا الحروب التي دارت بين بكر وتغلب من جرَّاء البسوس وأبلى فيها البلاء الحسن حتى تصالح الحيان لآخر مرة على يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر. على أن أَمَدَ ذلك الصلح لم يطل، فانشقت العصا بين وجوههم ونَزَتْ رؤسهم الحفيظة، وتلاحوا في مجلس عمرو بن هند، فقام الحارث ابن حِلزة شاعر بكر وألقى معلقته المشهورة فعطفت هوى الملك إلى قومه، وكانت ضِلعه مع التغلبيين. فانصرف ابن كلثوم موغر الصدر على ابن هند. وحدث بعد ذلك أن الملك قال لبعض خاصته. أتعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ فقالوا لا نعلمها إلاّ ليلى أم عمرو بن كلثوم، فإن أباها مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب وائل، وبعلها كلثوم بن عتَّاب فارس العرب، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزيرَ أمَّه أمَّه. فأقبل عمرو وأمه من الجزيرة في جماعة من تغلب. وأمر الملك برواقة فضرب ما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه مملكته فحضروا. وكان عمرو بن هند قد أغرى أمه أن تستخدم ليلى بنت مهلهل في قضاء أمر. فلما دخلت عليها الرواق وآطمأن بها المجلس، قالت لها: ناوليني الطبق. فأجابتها: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فلما ألحت صاحت ليلى: واذلاه! فسمعها ولدها فثار به الغضب وقتل ابن هند فى مجلسه. ثم عاد تواً إلى الجزيرة فأنشد قصيدته المعلقة. استهلها

---

٩ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ١٩، ٤٣، ٦٠، وطبقات فحول الشعراء: ص ١٢٧، والمعمَّرون: ص ٣٠٦، والشعر والشعراء: ص ١١٧ ـ ١٢٠، والأغاني: ٤٢/١١، وفي المرجع السابق: ص ٥٢ ـ ٦٠، والمؤتلف والمختلف: ص ١٥٥ ـ ١٥٦، ومعجم الشعراء: ص ٢٠٢ والموشح: ص ٨٠، وجمهرة أشعار العرب: ص ٣١، ٧٤، وسمط اللآلىء: ص ٦٣٥ ـ ٦٣٦، وخزانة الأدب: ٥١٩/١ ـ ٥٢١.

بذكر الخمر والغزل، ثم وصف فيها أمره مع عمرو بن هند، وآفتخر بنفسه وقومه. ولقد تجاوبتها المجامع وتناقلتها الألسنة وأكثر بنو تغلب من إنشادها وروايتها حتى قال فيهم الشاعر.

ألهى بني تغلب عن كل مكرُمة ... قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أوَّلُهم ... يا للرجال لشعر غير مسئُوم!

وكانت وفاته في أواخر القرن السادس للميلاد.

شعره:

عمرو بن كلثوم شاعر غَمْرُ البديهة، رائق الأسلوب، نبيل الغرض؛ إلا أنه مُقلٌّ. لم يتقلب في فنون الشعر فلم يُرخ العنان لسليقته، ولم يطع سلطان قريحته. وكل ما رُوي عنه معلقته وبعض مقطوعات لا تخرج عن موضوعها.

نموذج من شعره:

قال من معلقته:

أبا هند فلا تعجلْ علينا ... وأنْظِرْنا نخبِّرك اليقينا
بأنا نورد الراياتِ بيضا ... ونصدرهنّ حمراً قد رَوينا
ورثنا المجد عن عليّا معدّ ... فطاعن دونه حتى يبينا
كأن سيوفنا منا ومنهم ... مخاريقٌ بأيدي لا عبينا
ألا لا يَجْهلن أحد علينا ... فنجْهلَ فوق جهل الجاهلينا
بأي مشيئة عَمْرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا؟
فإن قناتنا يا عمرو أعْيتْ ... على الأعداء قبلك أن تلينا
وقد علم القبائل من مَعَدّ ... إذا قُببٌ بأبطحها بُنِينا
بأنا المطعمون إذا قدرنا ... وأنا المهلكون إذا آبتُلِينا
وأنا المانعون لما أردنا ... وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون إذا سخطْنا ... وأنا الآخذون إذا رضينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً ... ويشرب غيرنا كدراً وطينا
إذا ما المَلْك سام الناس خسفاً ... أبيْنا أن نقر الخسف فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملأه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ ... تخر له الجبابر ساجدينا

١٠ ـ الحارث بن حِلِزَةَ
٠٠٠ ـ ٥٧٠ م
٠٠٠ ـ ٥٠ ق هـ

نشأته وحياته:

هو أبو الظليم الحارث بن حِلِّزَةَ اليشكري البكري. كان في بني بكر مكان عمرو بن كلثوم في بني تغلب. وقد آشتهر مثله بمعلقته التي يقال إنه ارتجلها عَفْو الساعة في حضرة الملك عمرو بن هند يستدني بها عطفه، وينضح فيها عن قومه. وكان من أمرها أن بكراً وتغلب بعد أن وضعوا أسلحتهم أمام عمرو بن هند على أن يأخذ من الفريقين رهائن لِيَقيد منها للمبغى عليه من الباغي، تراشق الحيَّان بالتهم ورمت تغلب بكراً بالغدر، وتدافع الفريقان إلى عمرو بن هند وتلاحوا أمامه، وكان هواه مع التغلبيين. فآستفز ذلك الحارث بن حلزة ـ وكان حاضراً ـ فآبْتَدَه قصيدته ابتداهاً وأنشدها وهو متكىء على قوسه. فيقولون إن كفه آقتطعت وهو لا يشعر من الغضب. وقد أجاد في مدح الملك حتى آستولى على رأيه، ومال به إلى حزبه، وآستل من قلبه سخيمة غرسها تهور النعمان بن هرم زعيم قومه. وعُمِّر الحارث طويلاً حتى زعم الأصمعي أنه أنشد هذه القصيدة وله من العمر خمس وثلاثون ومائة سنة.

شعره:

كل ما بين أيدينا من شعره معلقته وبعض مقطوعات يسيرة لا تعلل شهرته ولا تعَيِّن طبقته. فهو في هذا كما قلنا أشبه بطرفة وعمرو بن كلثوم. على أن مطوّلته بلغت مكان الإعجاب لإحكام نسجها وتشعب فنونها، وآرتجالها في موقف واحد. وقد قال أبو عمرو الشيباني. «لو قالها في حول لم يلم» ويقولون: إنه أنشدها من وراء ستور لِبَرَصِه، فأمر الملك برفعها استحساناً لها وتكرمة له. بدأها بالغزل ثم وصف ناقته وعير التغلبيين مواقع ظهروا عليهم فيها، وأتى على كثير من أيام العرب، ومدح عمرو بن هند، وآفتخر بقومه وحسن بلائهم عنده.

---

١٠ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ١٩، ٥٩، وطبقات فحول الشعراء: ص ١٢٧ ـ ١٢٨، وشرح ابن الأنباري على المعلقات، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢، والمؤتلف والمختلف: ص ٩٠، والأغاني: ١١/٤٢ ـ ٥٠، ص ٧٧، وسمط اللآلىء: ص ٦٣٨ ـ ٦٣٩، والمزهر: ٢/٤٧٧، ٤٨٠، ٤٨٧. ومعاهد التنصيص: ١/٣١٠، وخزانة الأدب: ١/١٥٨.

نموذج من شعره:

قال من معلقته:

إن إخــوانــنــا الأراقــم يــغــلو ... ن علينا في قِيلهم إخفَاءُ
يخلطون البريءَ منَّا بذي الذَّنـ ... ـب ولا ينفع الخليّ الخلاء
أيها النَّاطق المرَقِّش عنَّا ... عند عمرو وهل لذاك بقاء؟
لا تخَلنا على غراتك إنا ... قبل ما قد وشى بقا الأعداء
فبقينا على الشنَّاءَةِ تنميـ ... ـنَا حصونٌ وعزَّةٌ قعساء
مَلِكٌ مُقسطٌ وأفضل مَنْ يمـ ... ـشي ومن دون ما لديه الثناء
أيما خُطةٍ أردتم فأدُّو ... ها إلينا تسعى بها الأملاء
فآتركوا الطيخ والتعاشي وإمَّا ... تتعاشوا ففي التعاشي الدَّاء
وآذكروا حِلفَ ذي المجاز وما قدّ ... م فِيه العهود والكُفلاء
وآعلموا أننا وإياكُم فيـ ... ـمَا آشترطنا يوم آختلفنَا سَواء
أعلَيْنا جناح كندة أن يغـ ... ـنمَ غازيهمُ ومنَّا الجزاء؟

ومنها في وصف التأهب للرحيل:

أجمعوا أمرهم عشاء فلمَّا ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصـ ... ـهال خيلٍ خلال ذاك رُغاء

ومنها:

لا يقيم العزيز بالبلد السهـ ... ـلِ ولا ينفع الذليل النَّجاء
ليس ينجي موائلاً من حذارٍ ... رأس طودٍ وحرَّةٌ رجْلاء

١١ ــ لبيد بن ربيعة

٥١٤ ≃ ٦٦١ م

١٠٤ ق هـ ≃ ٤١ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو عُقيل لَبيدُ بن ربيعة العامري. نشأ رَبِيب الندى والبأس. فأبوه ربيعةُ المعتَرّين،

١١ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٨، ٤٢، والنقائض: ص ٢٠١، ٣٨٧، ٦٦٨، والمؤتلف والمختلف: ص ١٧٤، والأغاني: ١٥/٣٦١ ـ ٣٧٩، والمكاثرة: ص ٢٣، وسِمْط اللآلىء: ص ١٣، وخزانة الأدب: ١/٣٣٧ ـ ٣٣٩، ٤/١٧١ ـ ١٧٥. ومعجم المؤلفين، لكحالة ٨/١٥٢ ـ ١٥٣.

وَعمه مُلاعب الأسنَّة فارس مضر. وسبب قوله الشعر أن الربيعة بن زياد أمير عبس، وهم أخواله، دخل على النعمان بن المنذر فذكر بالسوء بني عامر وهم قومه. فلما دخل العامريون على الملك وعلى رأسهم مُلاعب الأسنة غضَّ منهم، وذوى وجهه عنهم، فنال ذلك من بني عامر وشق عليهم. وكان لبيد يومئذ صغيراً فسألهم أن يشركوه في أمرهم فآستصغروه. ولما ألح في المسألة أجابوه. فوعدهم أن ينتقم لهم بهجاء الربيع حتى يحول بينه وبين منادمة الملك. فقالوا له: إنا نبلوك. فقال: وما ذاك؟ قالوا: تشتم هٰذه البقلة. وأمامهم بقلة دقيقة القضبان، قليلة الورق، لاصقة بالأرض، تُدعى الثَّرَبة. فقال: «هٰذه التربة لا تذكي ناراً ولا تؤهل داراً، ولا تسر جاراً؛ عودها ضئيل، وخيرها قليل، وفرعها كليل أقبح البقول مرعى، وأقصرها فرعا، وأشدها قلعاً» فأذنوا له فهجاه بأرجوزة مُقْذِعة أولها. مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه الخ.

فنفر منه الملك ومقته وطرده وأكرم العامريين وأدناهم. قالوا وكان هذا أول ما آشتهر به لبيد. ثم أخذ يقول الشعر قصاره وطواله، حتى ظهر الإسلام فأقبل على الرسول في وفد من قومه فأسلم، وحفظ القرآن وهجر الشعر، حتى زعموا أنه لم يقل بعد الإسلام إلا بيتاً واحداً وهو:

الحمد للّٰه إذْ لم يأتني أجلي ... حتى لبست من الإسلام سربالا

ولذلك عُدَّ جاهلياً وإن عمِّر في الإسلام طويلاً.

ولما مُصرت الكوفة ذهب إليها في خلافة عمر وأقام بها حتى توفي في أول خلافة معاوية سنة ٤١ من الهجرة. وقد عاش كما قيل خمساً وأربعين سنة ومائة حتى قال بحق:

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها ... وسؤالِ هذا الناس كيف لبيد

شعره:

كان لبيد ضافيَ الجود، وافر اللب، نبيل النفس، جم المروءة، مُشيَّع القلب. فسالت أخلاقه وعواطفه في شعره، وتمثلت معاني النُبل والكرم في فخره؛ وجاء نظمه فخم العبارة، منضد اللفظ، قليل الحشو، مزداناً بالحكمة العالية والموعظة الحسنة والكلم النوابغ. ولعله أحسن الجاهليين تصرفاً في الرثاء وأقدرهم على تصوير عواطف المحزون الصابر بلفظ رائق وأسلوب مؤثر.

وأما معلقته فهي قوية الألفاظ متينة الأسلوب، تصور حياة البادية وأخلاق البدو، وتصف هوى النفوس الماجنة ومطمح القلوب الكبيرة.

بدأها بوصف الطلول وذكرى الحبيبة، ثم أطال في وصف ناقته على نحو ما فعل طرفة، ثم مضى يصف حياته وملذاته وجوده وبأسه حتى انتهى إلى الفخر بقومه، وكل ذلك في صدق وإخلاص وقصد.

نموذج من شعره:

قال في معلقته:

إنـا إذا التقت المجامـع لم يـزل ... منّـا لِـزازُ عـظيمـة جشّـامُهـا

ومُقسّمٌ يعـطي العشيـرة حقهـا ... ومُغَـذْمِـرٌ لحقـوقهـا هضـامهـا

مـن معشـر سنّت لهـم آبـاؤهـم ... ولـكـل قـوم سُنّـةٌ وإمـامـهـا

لا يَـطْبعـون ولا يَبُـور فعـالهـم ... إذ لا تميـل مع الهـوى أحلامهـا

فـآقنع بمـا قسم المليك فـإنمـا ... قسم الـخـلائق بيننـا عـلاّمهـا

وإذا الأمـانَـةُ قُسِمت في معشـر ... أوفى بـأوفـر حـظنـا قسّـامهـا

فبنى لنـا بيتـاً رفيعـاً سَمكـه ... فسمـا إليـه كهلهـا وغـلامهـا

وهم السعـاة إذا العشيـرة أفْـظعَتْ ... وهمُ فـوارسهـا وهـم حكـامهـا

وهـم ربيـعٌ لـلمحـاور فيـهـمُ ... والمـرملاتِ إذا تـطاول عـامهـا

وقال يرثي أخاه إربِد:

بَلينا ومـا تَبْلى النجـوم الطوالـع ... وتبقى الـديـارُ بعـدنـا والمصـانـعُ

وقـد كنت في أكنـافِ جـار مَضِنَّة ... ففـارقني جـار بـأربَـدَ نـافـع

فـلا جـزع إن فـرق الـدهـر بيننـا ... فكل آمرىء يـومـاً بـه الدهـر فاجع

ومـا النـاس إلا كـالـديـار وأهلهـا ... بهـا يـوم حلّوهـا وراحـوا بـلاقـع

ومـا المـرء إلا كـالشهـاب وضـوئـه ... يَحُور رَماداً بعـدَ إذ هـو سـاطـع

ومـا المـال والأهلـون إلا ودائـع ... ولا بـد يـومـاً أن تـردَّ الـودائـع

ومـا النـاس إلا عـاملان فعـاملٌ ... يُتـبِّـرُ مـا يبنـي وآخـر رافـع

فـمنهم سعيـد آخـر بنصيبـه ... ومنهم شقيٍ بـالمعيشـة قـانـع

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجراتُ الطير ما اللّه صانـع

١٢ ـ حاتم الطائي

٠٠٠ ـ ٥٧٨ م

٠٠٠ ـ ٤٦ ق هـ

نشأته وحياته:

حاتم بن عبد اللّه بن سعد بن الحشرج الطائي توفي أبوه وهو وليد فنشّأته أمه وكانت

---

١٢ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٦، ٤٤، والكُنَى: ص ٢٨٩، والشعر والشعراء: ص ١٢٣ ـ ١٣٠، والموشح: ص ٨١، وسمط اللآلىء: ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧، وتهذيب ابن عساكر: =

كثيرة المال، نفّاحة اليدين بالنوال، لا تليق مما تملك شيئاً، فحجر عليها إخوتها وحبسوها سنة علها تذوق طعم البؤس، وتدرك فضل الغنى. فلما أطلقوها وملكوها قطعة من مالها أتتها آمرأة من هوازن مستجدية فمنحتها إياها وقالت: مسني من الجوع ما آليت معه ألا أمنع سائلاً شيئاً.

ربّته هذه الأم الوهوب، فورّثته هذا الخلق وغذته بلبانه، فشبَّ على الندى يهتزُّ له ويغلو فيه حتى بلغ منه حد السفه. فكان وهو غلام عند جده يُخرج طعامه، فإذا وجد من يؤاكله أكل وإلا طرحه. فساءه منه هذا التبذير فألحقه بالإبل، فمر به ذات يوم عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم والنابغة الذبياني وهم في طريقهم إلى النعمان فآستقروه، فنحر لكل منهم بعيراً وهو لا يعرفهم. فلما تسمَّوا له فرق فيهم الإبل وكانت قرابة ثلاثمائة! وجاء جدَّه مبتهجاً يقول له: «طوقتك مجد الدهر طوق الحمامة» وحدثه بما صنع، فقال له: إذن لا أساكنك. فقال: إذن لا أبالي. ثم قال من أبيات:

وإني لعفُّ الفقر مشترك الغنى	وتارك شكل لا يوافقه شكلي
وأجعل مالي دون عرضيَ جُنَّةً	لنفسي وأستغني بما كان من فضلي
وما ضرني أن سار سعدٌ بأهله	وأفردني في الدار ليس معي أهلي

وفشا ذكر حاتم في الجود، وجرت سماحته مجرى المثل، وروي عنه في ذلك الأعاجيب وأكثرها من صرف الحديث. وما سبيل الرواة في أخبار حاتم في الجود إلا سبيلهم في أشعار أمية في الدين، وعنترة في الحماسة، وأبي العتاهية في الزهد، وأبي نواس في المجون: يفتعلون الشيء من ذلك لغرض من الأغراض ثم يعزونه إلى من هو أشبه به من هؤلاء.

وكان حاتم كما قال ابن الأعرابي مظفّراً. إذا قاتل غلب؛ وإذا سابق سبق، وإذا ضرب بالقداح فاز. وكان إذا أهل الشهر الأصم (رجب) ـ وكانت مضر تعظمه في الجاهلية ـ نحر كل يوم عشراً من الإبل فأطعم الناس وآجتمعوا إليه.

ثم بنَى حاتم على النوار ثم على ماوية بنت عفزر إحدى بنات الملوك من اليمن، فولد له منهما عبد الله وسَفَّانة وعدي؛ وقد أدرك هذان الإسلام فأسلما.

ولم يزل حاتم على حاله في إطعام الطعام وإنهاب المال حتى مضى لسبيله سنة ٦٠٥ م[1].

٣/٤٢١ ـ ٤٢٩، وخزانة الأدب: ١/٤٩٤ ـ ٤٩٥، ٢/١٦٣ ـ ١٦٦، والأعلام. للزركلي: ٢/١٥١، ومعجم المؤلفين: ٣/١٧٣، والمراجع: ٣/١١ ـ ١٤.

(١) والأصح أنه توفي سنة ٥٧٨ هـ، لأن المؤرخين أرخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبي ﷺ. راجع المصادر التي أخذنا منها الترجمة.

أخلاقه:

كان حاتم على خلق عظيم قلَّ من أوتيه في الجاهلية: كان طويل الصمت رقيق القلب جم المروءة لم يقتل قط واحدَ أمه، ولم يظل ضعيفاً من بني عمه:

فــإنــي وحــدّي رُبَّ واحــدِ أمّــه ... أجـرتُ فـلا قتـلٌ عليـه ولا أسـر
ولا أظلم ابن العم إن كـان إخـوتي ... شهـوداً وقد أودى بـإخـوتـه الـدهـر

وقد وصفته سفَّانة ابنته يوم قامت بين يدي الرسول ﷺ ترجو أن يخلي عنها وهي سبيَّةٌ قالت: كان أبي يفك العاني ويحمي الذِمار ويقَري الضيف ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط. فقال لها الرسول ﷺ يا جارية هـذه صفة المؤمن، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه. خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق.

شـعره:

لا جرم أن اللسان ترجمان القلب، والشعر مرآة الشعور. وما قدمناه لـك من أخلاق حاتم تجده متمثلاً في شعره، مؤثراً في قَرْضه؛ فلفظه سهل رقيق، وأسلوبه به محكم وثيق، وغرضه سامٍ شريف، على غير ما نعهد في شعراء البادية. ولذلك قال ابن الأعرابي: «جوده يشبه شعره» ومعنى ما يقول أنه غزير البحر فياض بالأمثال والحكم الداخلة في بـاب الجود والعذل فيه، وجمال الذكر والحرص عليه. وما ترى من التفاوت في شعره إنما يـرجع إلى كثرة المدسوس عليه والمنسوب زوراً إليه، وهو من شعراء الطبقة الثانية. وقد جمع شعره في ديوان وطبع بليدن وبيروت.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة له:

أمــاويَّ إن الــمــال غــادٍ ورائــح ... ويبقى من المال الأحاديث والـذكر
أمــاويَّ إمــا مــانــعٌ فــمبــيَّــنٌ ... وإمــا عــطاء لا يُنَهْنهــه الــزجــر
أمــاويَّ مـا يغني الثـراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
أمــاويَّ إن يصبحْ صــداي بقفـرة ... من الأرض لا مـاءٌ لـدي ولا خمـر
تَـرَى أن مـا أنفقت لم يـك ضـرني ... وأن يـدي ممـا بخلت بـه صفـر
أمــاويَّ إن الــمــال إمّـا بـذلتـه ... فـأولـه شـكـر وآخـره ذكـر
وقـد يعلم الأقـوام لـو أن حـاتمـاً ... أراد ثـراء المـال كـان لـه وفـر

وقال أيضاً:

تَحلم عـن الأدنيـن وآستبْق ودّهـم ... ولن تستطيع الحلم حتى تَحلمـا

ونفسَـك أكـرمهـا فـإنـك إن تَهُن | عليـك فلن تلقى لها الـدهرَ مُكـرما
أهِنْ في الـذي تهوى التلادِ فـإنـه | يصيـر إذا مـامت نهْبـا مقسَّمـا
قليـلاً بـه مـا يحمـدنَّـك وارثٌ | إذا ساق مما كنت تجمـع مغنما
متى تـرْقِ أضغانِ العشيـرة بـالأدنى | وكف الأذى يحسم لك الداء محسما
وعوراءَ قد أعرضتُ عنْها فلم تضِـرْ | وذي أوَدٍ قـومتـه فـتـقـومـا
وأغفـر عـوراءَ الكـريـم ٱدِّخَـارَه | وأعـرض عن شتم اللئيم تكـرمـا
ولن يكسبَ الصعلوك مجداً ولا غنى | إذا هـو لـم يركب من الأمـر معظما
لحـا اللّه صعلوكـاً منـاه وهمُّـه | من العيش أن يلقي لبـوساً ومَـطْعما

ومن معانيه الجميلة قوله:

إذا كـان بعض المـال ربـا لأهله | فـإني بحمـد اللّه مـالي معبَّـد

١٣ ـ أميـة بن أبي الصلـت

٠٠٠ ـ ٦٢٦ م

٠٠٠ ـ ٥ هـ

نشأته وحياته:

أبو عثمان أمَيّة بن أبي الصلت الثقفي كان يمـارس التجارة طَـوَال عمره، فتـارة إلى الشام وتارة إلى اليمن. وكان مفطوراً على التدين، فلقي في بعض أسفاره بعض القسيسين والرهبان فسمع شيئاً من الأسفار الأولى فٱلتمس الدين ولبس المسوح وحرم الخمر وشك في الأوثان وطمع في النبوة، وقال في دين إبراهيم.

كـل دين يـوم القيـامـة عنـد اللـ | ـه إلا ديـنَ الـحـنـيـفـة زور

فلما بُعث الرسول ﷺ سُقِط في يده وكفر به حسداً وقال: إنما كنت أرجو أن أكونه. فنزل فيه قوله تعالى. **﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَٱنْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾**[1]. ثم أخذ يحرض على الرسول ويرثي قتلى أعدائه في واقعة بدر، فنهى عن رواية شعره في ذلك. وكان إذا سمع الرسول شعره في التوحيد يقول: آمَن لسانه وكفر قلبه. ثم فرّ أمية بٱبنته إلى أقصى اليمن وعاد إلى الطائف فعلقَتْه هناك أوْهاقُ المنية. وقد قال لما

---

١٣ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٣٣، وطبقات فحول الشعراء: ص ٢٢٠ ـ ٢٢٤، والكنى: ص ٢٨٩، والأغـانـي: ٤/١٢٠ ـ ١٣٣، ٨/٣٢٧ ـ ٣٣٣، وسمط اللآلىء: ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣، وتهذيب ابن عساكر: ٣/١١٥ ـ ١٢٨. والمراجع: ٢/٦٣ ـ ٦٧، ودائرة المعارف الإسلامية: ٤/١٠٨٠ ـ ١٠٨١.

(١) سورة: الأعراف، الآية: ١٧٥.

أخذته غشية الموت وأفاق منها: لبيكما لبيكما! هأنذا لـديكما لا مـال يفديني، ولا عشيـرة تنجيني! إن تغفر اللهم تغفر جماً، وأيُّ عبد لك لا ألما؟ ثم أقبل على من حضر وقال:

كـل عـيش وإن تـطاول دهـراً — مـنـتـهـى أمـره إلـى أن يـزولا
ليتني كنت قَبـل مـا قـد بـدا لي — في رؤس الجبـال أرعى الـوعـولا
اجعل الموتَ نصْب عينيك وآحذر — غَـوْلـة الـدهـر، إن للدهـر عـولا

وأكثر تاريخ هذا الشاعر من زور الحديث وتلفيق الرواة.

شعره:

انصرفت قريحة أمية إلى المعاني الدينية فآشتهر بها أمره، وآصطبغ بها شعره، فوصف اللّه وجلاله، وذكر الحشر وأهواله، ونعت الجنـة والنار والملائكة، ونـظم حوادث التـوراة كخراب سدوم وقصة اسحاق وإبراهيم، وأدخل في الشعر معاني وأساليب، وفي اللغة ألفاظاً وتراكيب، لم يألفها الشعراء ولم يعرفها العرب بعض ذلك من العبرية وبعضه من محدثـاته فكان يسمي اللّه عز اسمه فالسُّلَطيط والتغرور، والسماء بالصاقـورة والحاقـورة، ويزعم أن للقمر غلافاً يدخل فيه يوم الخسوف آسمه الساهور؛ ولذلـك كان اللغـويون لا يحتجـون بشعره.

ومذهب ابن أبي الصلت في شعره لم يعهد في عصره، فنحله العلماء ما جاء على شاكلته ولم يعرفوا قائله. ورواة الشعر يعدونه في الطبقة الأولى، ولكن ما بين أيدينا من شعره لا يؤيد هذا الرأي، فإن أكثره قلق اللفظ سخيف النسج نابي القافية، إلا أن يكون الزمان قد عفى على أجوده. فقد قال الحجاج على المنبر: «ذهب قوم يعـرفون شعـر أُميَّة، وكـذلك اندراس الكلام».

نموذج من شعره:

قال يعاتب ابناً له كان قد عقه:

غـذوتـك مـولـوداً ومُنْتُـك يـافعـاً — تُعَـل بمـا أجني عليـك وتنـهـل
إذا ليلة نـابَتْـك بـالشجـو لم أبت — لـشكـواك إلا سـاهـراً أتـملْـمـل
كأني أنا المطروق دونـك بـالـذي — طـرقت بـه دوني، فعيني تـهمـل
تخـاف الـردى نفسي عليك وإنني — لأعـلم أن المـوت حتم مؤجـل
فلمـا بلغتَ السنّ والغـايـة التي — إليها مـدى مـا كنت فيك أؤمـل
جعلتَ جـزائي غلْظة وفـظاظـة، — كـأنـك أنت المنعم المتفـضـل

ومن قوله:

الحمـد للّه مُمْسـانـا ومُصْبحنَـا — بـالحمد صبَّحنـا ربي ومسَّـانـا

رب الحنيفة لم تنفد خزائنه | مملوءة، طبَّق الآفاق سلطانا
ألا نبي لنا منا فيخبرَنا | ما بعد غايتنا من رأس محيانا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا | أنْ سوف يلحق أخْرانا بأولانا

نشأة الخط في بلاد العرب

الخط مظهر من مظاهر الحضارة، وأثر من آثار الاجتماع والتجارة. لذلك كان أسبقَ الأمم إليه المصريون والفينيقيون. وأجهل الناس به البدويون، فلم يعرفه العرب إلا في الجهة التي عرفتها الحضارة وآرتقت فيها العمارة وهي اليمن. كان اليمنيون يستعملون خطاً يسمونه المسند بآسم لغتهم، يكتبونه حروفاً منفصلة ويزعمون أن الوحي نزل على كاتب هود. ولكن المكتشفات الأثرية وعلم مقارنة اللغات أثبتت أن الخط الفينيقي مصدر الخطوط السامية، وأن الآرامي والمسند بأنواعه مشتقان منه، ومن الآرامي آشتق الخط النبطي في حوران، والسطر نحيلي السرياني في العراق، وهذان الخطان هما الأصلان للخط العربي، فمن الأول تولد الشكل النسخي، ومن الثاني تولد الشكل الكوفي، وكان يعرف قبل الإسلام بالحيرى نسبة إلى الحيرة. وقد تعلم عرب الشمال الأول أثناء رحلاتهم إلى الشام، وتعلموا الآخر من الأنبار: تعلمه بشْرُ بن عبد الملك الكندي أخو أكيْدِر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل؛ وخرج إلى مكة فصاهر حرب بن أمية جد معاوية، فعلمه جماعةً من القرشيين فكثر من يكتبه منهم. ولما مُصِّرت الكوفة وشاع آستعماله في الكتابة على مسجدها وقصورها ناله شيء من النظام والزخرف فسمي بالكوفي.

عربي حديث	حيري أو كوفي	نبطي	سطرنجيلي	فنيقي	آرامي	مصري العامة ديموطيقي	مصري الخاصة هيراطيقي	مصري مقدس هيروغليفي
ا								
ب								
ج								
د								
ه								
و								
ز								
ح								
ط								
ى								
ك								
ل								
م								
ن								
س								
ع								
ف								
ص								
ق								
ر								
ش								
ت								



الباب الثاني

عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

الأدب الإسلامي

عوامله، مصادره، أنواعه، طبائعه:

تركنا العصر الجاهلي والجزيرة العربية يهدر جوفُها من ضرم الحياة هدير الحميم المكظوم. ونريد بجوفها الحجازَ بعد ما خمد النشاط العربي في الجنوب باستيلاء الفرس على اليمن، وفي الشمال بإلغائهم إمارة اللخميين في العراق، فارتد تيار النهضة العربية إلى الحجاز وتدفق في مدنه، ولا سيما مكة؛ لأن مكة يومئذ كانت مثابة الشرب لوجود البيت، ومعقلَ العروبة لاعتصامها بالصحراء من النفوذ الأجنبي، ومجَمع الثروة لوقوعها في طريق القوافل الآتية من الجنوب تحمل متاجر الهند واليمن إلى الشام ومصر؛ فهي سوق تجارية ومَحَجَّة دينية يؤمها العرب من أطراف الجزيرة يشترون منها السلع الأهلية والأجنبية، ويقضون مناسك الحج، ويشهدون موسم عكاظ، ويتذوقونْ في ظلال الأشهر الحرم ـ وهي الهدنة العامة المقدسة ـ نعمةَ السلام ولذة الهدوء، ويصلون بينهم ما قطعته أسنة الرماح في الغارات والحروب. وكانت قريش قطب الرحا لهذه الحركة الدينية والاقتصادية والاجتماعية لولايتها على الكعبة، ورياستها في عكاظ، وزعامتها في التجارة، وغناها من الإيلاف، وتقلبها في البلاد، وتمرسها في الأمور، وصلتها بمختلف الشعوب، فأخضعت العرب لسلطانها بالدين والشرف والمال، وفرضت عليهم لغتها وأدبها، فكادت اللهجات بفضلها تتحد، والقلوب بدليلها تتجه نحو غاية واحدة، وكان اليهود في يثرب واليمن فوق نشاطهم الصناعي والزراعي يشيعون أكل الربا وينشرون تعاليم التوراة وأخبار النبوات. وكانت النساطرة واليعاقبة من المسيحيين يبشرون بالإنجيل، ويدعون إلى الحياة الأخرى، ويحملون معهم تأثير اليونان والرومان في الفلسفة والتشريع، ويهيئون الأذهان لكلمة الله. وكان الشعراء ينتقلون من سوق إلى سوق، ومن ماء إلى ماء، ينشدون أهازيج الحماسة على أوتار العصبية، فيؤرِّثون نار العداوة والخلاف بين القبائل من جهة، ويذيعون وحدة الخلق والعادة واللغة من جهة أخرى، ويمهدون للنفوس الرغيبة السجينة سبيل النهوض إلى الغاية

التي يدعوهم إليها الله، ثم كان الأعرابُ في قفار البادية يفتك بهم الجهل والجدب والحرب، ويعانون إلى ذلك عنت الكبراء. وأثرة الشيوخ، وفقد الأمن، وتوزع الثروة على مقتضي السيادة والقوة. ناهيك مما يقاسونه في أرزاقهم من فحش الربا وأكل السُّحت وتطفيف الكيل وكلَب الزمان. فكان من جرَّاء هذه المادِّية القبيحة، والطبيعة الشحيحة، والنظام الفاسد، أن تهيأت الطبائع السليمة إلى حياة أرقى ومَثل أعلى مما هم فيه. ولكن العرب كما قال ابن خلدون: «أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم. ومن أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوَّة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة». وكان ذلك فعلا طريق الإصلاح الذي خرج منه العرب إلى العالم ليبلغوه الرسالة ويحكموه، فقد كان ظهور الإسلام في ذلك الحين نتيجة محتومة لتلك الحال، ونقضاً صريحاً لتلك الحياة. تعرف ذلك جليًا من تسمية القرآن للدين بالإسلام ولما قبله بالجاهلية. ففي تلك التسمية كل الفروق بين الحياتين والعقليتين في المبدأ والغاية، إذ الجهل معناه السفه والحمية والأنفة - وهي ملاك الأخلاق في الجاهلية، والإسلام معناه السلام والتسامح والإنقياد إلى الله - وهي قوام الدين الجديد الذي يقول: **﴿وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوْناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾**[1] وبمعنى ذلك قول عمرو بن الأهتم يفاخر الأحنف بن قيس، وقد اجتمعا للرياسة بين يدي عمر بن الخطاب: «إنا كنا وأنتم في دار جاهلية، فكان الفضل فيها لمن جهل، فسفكنا دماءكم، وسبينا نساءكم؛ وإنا اليوم في دار الإسلام والفضل فيها لمن حلم. فغفر الله لنا ولك» فغلب على الأحنف.

فالإسلام إذن قد قلب العقلية العربية قلباً، وشن على الجاهلية حرباً، ورسم للاجتماع مثلاً أعلى يخالف ما ألفوه، ويناقض ما عرفوه:

فالشجاعة، والشهامة، والكرم الموفى إلى السرف والتلف، والتفاني في الإخلاص للقبيلة والقسوة في الانتقام، والثأر ممن تعدى على النفس أو على الأهل بالقول أو بالفعل، هي أصول الفضائل عند الجاهلية، أما الإسلام فقد جعل المثل الأعلى للإنسان الخضوع للّه والانقياد لأمره، والقناعة والتواضع، ومجانبة التكاثر والتفاخر، ثم الصبر. وقد قال الله تعالى: **﴿إنَّ أكرمَكم عِنْدَ اللّه أتْقَاكم﴾**[2] وقال الرسول ﷺ في خطبة الوداع: «إن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء كلكم لآدم؛ وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»[3] فماتت بذلك العصبية القومية والجنسية، وأصبحت

---

(١) سورة؛ الفرقان، الآية: ٦٣. (٢) سورة: الحجرات، الآية: ١٣.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (الحديث ٥١١٦) بنحوه، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل الشام واليمن (الحديث ٣٩٥٦) بنحوه.

السيادة للدين لا للنسب، والإخاء في الله لا في العصب. وهذا التغير في العقلية يستلزم حتماً تغير ما يصدر عنها من فكر وتصوير وقول: فالشاعر الذي كان يستلهم شيطانه قصائد المفاخرة والمنافرة والهجاء: والخطيب الذي كان يستقطر من لسانه سموم للعداوة والبغضاء؛ والفارس الذي كان يرتع ليله ونهاره في الدماء والأشلاء؛ والرئيس الذي كان يعيش على امتياز الرؤساء؛ والغني الذي كان يفجر ويثرى بدماء الفقراء، وقفوا جميعاً صامتين منصتين لدعوة الإسلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما يأمر به الله أو يقره الرسول. وأصبح القرآن والحديث دستور الأمة. ويسنان الشرائع، ويرسمان الآداب. ويهذبان الأخلاق ويقرّان في القلوب المشركة المجرمة كلمة التوحيد وحقيقة البر، ويضيفان نظماً جديدة للأسرة ولأمة تغاير ما كان عليه العرب من قبل، وتساير ما سيكونون عليه من بعد. فضاقت دائرة الشعر في عهد الرسول لموت العصبية وقوة الروح الدينية، وانضوت الخطابة تحت لواء القرآن تدعو إليه، وتقابل الوافدين عليه، وتسير على هديه وتقتبس من نوره. واقتضت الدعوة الكبرى نظام الرسائل فنشأت على نمط جديد، وقلّت الأمية لحاجة الدين إلى الكتابة وتشجيع النبي عليها بعد موقعة بدر، ونقل الدواوين كلها إلى العربية. وأخذ المعادون للدين يعارضون القرآن ويجادلونه، والموالون له يحفظونه ويدارسونه. ودعا اتساع رقعة الإسلام إلى استنباط أصول الأحكام من مصادر الدين، والاجتهاد بالرأي فيما لم يرد فيه نص. فتجلى صفاء العبقرية العربية ذات المنطق الموهوب فيما قضى به علي وعمر وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل؛ وازدادت هذه الروح الفقهية المنطقية صفاء وجلاء بعد ذلك فيما شجر من الخلاف بين العلويين والأمويين والخوارج على أثر الخصومة بين علي ومعاوية.

على أن من الغلو أن نقول إن تعاليم الإسلام قد بلغت إلى كل نفس وأثرت في كل قلب حتى يكون تغير العقلية العربية تاماً من كل وجه، فإن ذلك إن صدق على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين أسلموا قبل الفتح لا يصدق على من أسلم من بعده، ولا على الأعراب المتمردين بطبيعتهم على كل قيد من دين أو قانون أو سلطان، فكانوا لجفائهم وغلظ قلوبهم أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله. وكان من زعمائهم من يُقبل على الإسلام كقيس بن عاصم، لا على أنه الدين الحق، ولكن على أن يكون له الأمر بعد الرسول. وقال النبي ﷺ: «إنَّ مَثَلَ ما بعثني به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادبُ أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كَلأ»[1]. ومصداق هذا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم (الحديث ٥٩١٢)، وأخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: فضل من عَلِمَ وعَلَّمَ (الحديث ٧٩).

الحديث الكريم ثابت في بقاء البدو على نزعتهم الجاهلية من مهاجاة وحميَّة وشراب، وحدوث الرِّدة على أثر وفاة الرسول، وشيوع الغناء والشراب والغزل في مدن الحجاز، وانبعاث العصبية ونزاعها بين القحطانيين والعدنانيين، وبين الهاشميين والأمويين، واشتدادها في عهد بني أمية. وهذا يفسر لنا بقاء الشعر الأموي على نمط الشعر الجاهلي في طريقته وطبيعته دون أن يتأثر بروح الإسلام لا كثيراً ولا قليلاً، إذ كان جمهور الشعراء إنما يصدرون عن البادية ويعبرون عن نوازي العصبية في الأحزاب والقبائل.

***

لم يكن تأثير الإسلام في العقلية العربية والفنون الأدبية آتياً من جهة عقيدته وشريعته وروحه فحسب، وإنما أثر فيها كذلك من جهة ما نشأ عنه من الفتوح والنزاع على الإمامة، فمن أثر الفتوح خروج العرب من جزيرتهم إلى الجهاد، وانتشارهم في مختلف البلاد، واستيلاؤهم على ممالك كسرى وقيصر، وامتزاجهم بالأجناس المتعددة، وتأثرهم بالمدنيات والعقليات المختلفة؛ فقد فتحوا العراق وهو وارث حضارة قديمة وموطن أمم عظيمة ونِحَل كثيرة، ومصروا فيه البصرة والكوفة. وفتحوا فارس وهي إحدى الدولتين اللتين حكمتا العالم القديم يومئذ وأثرتا في عقله وأهله. وفتحوا الشام وقد سادت فيه الثقافة الرومانية والديانة النصرانية بعد ما خلف فيه الفينيقيون والكنعانيون والمصريون واليونان والغسانيون آثاراً ظاهرة في العادات والاعتقادات والنُظم؛ وفتحوا مصر وهي مهد المدنية والفن، ومجمع الحضارتين اليونانية والرومانية، ومُتلقى الفلسفتين الشرقية والغربية؛ وفتحوا بلاد المغرب إلى جبل طارق، ثم ما وراء النهر إلى كشغر. وسكان هذه المماليك يرجعون إلى أصول ساميَّة وحاميَّة وآرية، ويدينون بأديان سماوية وأرضية، ويتكلمون بلغات فارسية وقبطية وعبرية وسريانية ويونانية ولاتينية، فأخضعهم العرب إخضاعاً مادياً وأدبياً وروحياً من طريق الفتح واللغة والدين، وخضع العرب لهم خضوعاً عقلياً وجنسياً باقتباس مدنيتهم وعقليتهم وجنسيتهم من طريق المجاورة والمصاهرة والاسترقاق، وكان من ذلك التفاعل هذا الامتزاجُ العجيب الذي تولدت منه العلوم الشرعية والفنون الأدبية والحضارة الإسلامية التي طبقت الأرض ومهدت لرقي الإنسان الحديث.

هذا أثر الفتوح. وأما أثر الخصومة في الإمامة فذلك الجدل العنيف بين الفرق الأربع التي نجمت عن الخلاف في الخلافة بين علي ومعاوية، ذلك الجدل الذي اتسع به أفق الذهن العربي بالاحتجاج والاستنتاج، إذ كان اعتماده على تأويل القرآن، وافتعال الأحاديث، واستخدام الشعر في إثارة العصبية وتحبير الرسائل في القضايا السياسية والوصايا الدينية، وعقد المناظرات وإلقاء الخطب. ففي الحجاز حزب يؤيد ابن الزبير، وفي الشام حزب يعضد بني أمية، وفي العراق الشيعة يدعون إلى بيت الرسول، والخوارج ينكرون

ويكفرون هؤلاء جميعاً ولكل حزب من هذه الأحزاب كما قلت رأي في الخلافة، ونظر في الدين، وحجة من الكتاب والسنة. وعدة من الخطابة والشعر. وحسبك أن تقرأ بعض جدلهم في الطبري والعقد الفريد وشرح النهج لابن أبي الحديد والكامل للمبرد، لتعلم أثر هذا الخلاف في عقلية العرب، وأثر هذه العقلية في فنون الأدب.

نستخلص مما تقدم أن أهم العوامل المؤثرة في الأدب الإسلامي هي: خمود العصبية الجاهلية في عهد الرسول، ثم استعارها في عهد بني أمية، ونشوء الروح الدينية، وتغير العقلية العربية، وتحسن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وظهور الأحزاب السياسية، واتساع الفتوح الإسلامية وتأثير الأمم الأجنبية بلغاتها وعاداتها واعتقاداتها وأدبها. ثم أساليب القرآن والحديث، والمأثور الصحيح من الشعر الجاهلي والأمثال. وقد أجملت القول في آثار هذه العوامل اعتماداً على تفصيلها حينما تعرض لكل فن على حدة، فلندع ذلك الآن ولننتقل إلى مصادر الأدب الإسلامي.

مصَادرُ الأدب الإسلامي

نستطيع أن نحصر هذه المصادر في القرآن؛ والحديث، والأدب الجاهلي وما نقل من الأدب الأجنبي.

١ ـ القرآن الكريم

القرآن أول كتاب دوِّن في اللغة العربية؛ فدراسته ضرورية لتاريخ الأدب؛ لأنه مظهر الحياة العقلية والحياة الأدبية عند العرب في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للمسيح. وهو واضع النثر الفني ومنبع المعاني والأساليب والمعارف التي شاعت في أدب ذلك العصر. نزل بأسلوب بديع لا عهد للآذان ولا للأذهان بمثله؛ فلا هو موزون مقفى، ولا هو سجع يتجزأ فيه المعنى في عدد من الفقَر، ولا هو مرسَل يَطَّرد أسلوبه دون تقطيع ولا تسجيع؛ إنما هو آيات مفصلة متزاوجة يسكت عندها الصوت ويسكن الذهن لاستقلالها بالمعنى وانسجامها مع روح القارىء ووجدانه. فلما سمعه العرب وهم زعماء القريض وأمراء البيان أكبروه وأنكروه، وعجزوا عن أن يردوه إلى نوع من أنواع الكلام المعروفة؛ فقالوا مضطربين: إنه شعر شاعر أو فعل ساحر أو سجع كاهن. ووصفهم إياه بأنه نوع من هذه الأنواع التي تشترك في فتنة العقل دليل على فعله القوي في نفوسهم.

والقرآن باعتباره كتاباً أُحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير، لا يجرؤ النقد البياني على أن يطير في جنباته، وباعتباره معجزة الرسول تحدى به العرب أن يأتوا بسورة من مثله، تورع المسلمون عن أن يقلدوه فراراً من تهمة المعارضة، وتنزيهاً لكلام الخالق أن يتشبه به كلام المخلوق. ومما لا ريب فيه أن بعض المشركين والمتنبئين قد عارضوه إبطالاً لحجته، أو انتهاجاً لخطته، على نحو ما ورد عن مسيلمة: «يا ضفدعِ نقي ما تنقين، فلا الماء

تكدرين، ولا الشارب تمنعين»، ولكن الرواة أغفلوا ذلك إما تورعاً وإما ترفعاً، كما فعلوا بمعارضة ابن المقفع والمتنبي وأبي العلاء إن صح أنهم فعلوا ذلك. وهنا طائفة من متأخري الكتاب حاولوا الجري على أسلوب القرآن إعجاباً به فما حركوا في النفوس غير السخر والضجر لنزولهم عن رتبته وعجزهم عن لحاقه فكفوا. ولذلك لم يكن تأثير القرآن كبيراً من جهة إحداثه مذهباً كتابياً يتبعه الناس ويدور عليه النقد. أما تأثيره القوي فكان في نقله النثر من تلك الجمل القصيرة المسجوعة المفككة إلى تلك الصور الأنيقة التي تقرأها في أحاديث الرسول وخطبه وكتبه، وفي خطب الصحابة والتابعين ورسائلهم. جملٌ متزاوجة، متناسقة، متطابقة، متخيرة الألفاظ، حسنة التأليف، رائعة التشبيه، منطقية الغرض، تنفذ من العقل والقلب إلى الصميم. كذلك أثر في النثر بوضعه المُثُل لمعالجة القصص والوصف والاشتراع والجدل المنتج والموعظة الحسنة، واستحداثه ألفاظاً وتراكيب وموضوعات لا يعرفها العرب، فظلَّت آيُهُ على طوال القرون قوة للخطيب وحلية للمنشىء، يرصع بها كلامه فتتميز بطلاوتها ونفاستها كما تتميز اللؤلؤة الفريدة في عقد من الجِزْع.

أسلوبه:

نزل القرآن منَجَّما في نحو ثلاث وعشرين سنة على حسب ما يعرض من الحوادث؛ منها ثلاث عشرة سنة في مكة نزل في خلالها ثلاث وتسعون سورة، وعَشرة بالمدينة بعد الهجرة نزل فيها إحدى وعشرون. هذه السور الأربع عشرة ومائة تختلف في موضوعها وأسلوبها باختلاف الزمان والمكان والحادث، فكان من الحوادث والقضايا ما ينزل فيه الآية والآيات، ومنها ما ينزل فيه السورة. وكان الصحابة يحفظون أو يكتبون ما ينزل كلًّا على حدة، فلم يكن القرآن إذن خاضعاً لقانون التأليف من وحدةِ الموضوعِ ووحدة الأسلوب وعقد الأبواب على مقتضى الأغراض، وإنما تجمَّع على هذه الصورة ودُوِّن بعد وفاة الرسول تبعاً لما كان يجده الكاتبون أولاً فأولاً محفوظاً في الصدور أو مسطوراً في الصحف. ثم رتب بوجه التقريب على حسب الطول والقصر لا على حسب تنزيله ولا على حسب موضوعه، فتكررت بعض القصص لتأكيد الإنذار أو لتشابه الأسباب، وتَشَتَّتَتْ وحدة الموضوع والأسلوب لنزوله متفرقاً في مكانين مختلفين وأزمان متراخية وأغراض متجددة، وهو في ذلك يختلف عن التوراة والإنجيل.

تشتمل السور المكية ـ وهي ثلثا القرآن ـ على أصول الدين وتشتمل المدنية على أصول الأحكام. وأصول الدين جُمَّاعها الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر؛ وهي أمور تتصل بالعاطفة والوجدان؛ فالدعوة إليها والحث عليها يقتضيان الأسلوب الشعري القوي الموثَّق الفعال بالقلب بقصصه الواعظة، وحكمه البالغة، وأمثاله السامية، ووعده الخالب، ووعيده المخيف، ولذلك تجد أسلوبها قصير

الآي، كثير السجع، رائع التشبيه، قوي المجاز. وأما أصول الأحكام من عبادات ومعاملات فهي موضوع السور المدنية، والتعبير عنها يقتضي الأسلوب المحكم الجزل الهادىء؛ وهدوء البيان يستلزم طول الجمل، وتفصيل الآي، ووضوح الغرض. على أن القرآن لا يصطنع في التشريع أساليب الفقه ولا تعريفات القانون، وإنما يسوق الأحكام في معارض الدعاية والهداية، لأن قصده الأول إنما هو إعلان التوحيد وإظهار الدين، وتطهير القلوب من أوضار الضلالة والجلالة والشرك؛ ولأن الدولة الجديدة لم تكن في عهد الوحي من الاتساع وتشعب الاجتماع بحيث تطلب التشريع المفصل.

إعجازه:

تناصرت الأدلةُ وانعقد الإجماع على أن القرآن معجز، وإنما الخلاف في سبب إعجازه. فمن قائل إنه شرفُ الغرض، وتَنَوُّع القصد، والإخبار بالغيب. ومن قائل إنه الفصاحة الرائعة، والمذهب الواضح، والأسلوب الموثَّق ونحن إلى هذا الرأي أمْيَلُ. فإن القوم الذين تُحُدُّوا به لم يكونوا فلاسفة ولا فقهاء حتى يكون عجزهم عن الإتيان بمثله معجزة، إنما كانوا بُلَغاء مَصادعَ، وخطباء مصاقع، وشعراء فحولاً. وفي القرآن من دقة التشبيه والتمثيل، وبلاغة الإجمال والتفصيل، وروعة الأسلوب، وقوة الحِجاج، ما يُعجز طَوْقَ البشر، ويرمي المعارضين بالسّكات والحصْر.

لغته:

لغة قريش هي الأصل في لغة القرآن، لأن النبي ولد فيها وبُعث منها؛ ولأن لغتها تفضل سائر اللغات بحلاوة الجرْس ودقة الوضع وإحكام النظم، وقبيلتها تشرُف سائر القبائل بجوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد، ولكنه نزل كذلك بلغة بني سعد بن بكر؛ لأن الرسول ﷺ استرضع فيهم، وهي إحدى لغات العجز من هوزان وأفصحها، لقوله ﷺ: «أنا أفصح العرب بيَد أني من قريش، وأني نشأت في بني سعد بن بكر».

وجاء في القرآن بعض ألفاظ من لغات عربية أخرى كقوله تعالى ﴿لَا يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾[1] أي لا ينقصكم بلغة بني عبس، ثم وقع فيه من غير لسان العرب أكثر من مائة كلمة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والعبران والسريان والقبط، كالجبت والاستبرق والسندس والقسطاس والزنجبيل، وقد صقلها العرب على لسانهم، وأجروها على أوزانهم، فصارت بذلك عربية.

---

(١) سورة: الحجرات، الآية: ١٤.

أغراضه ومعانيه:

علمت أن من القرآن ما نزل بمكة ومنه ما نزل بالمدينة. فالمكي من سوره يشتمل على أهم ما جاء الرسول من أجله: ففيه توحيد اللّه بذكر صفاته وتمجيد آياته، وتأييد الرسول بتحدي المكابرين، وضرب الأمثال بأحوال الغابرين، ورفض الأوثان وما يتصل بها من عادات واعتقادات، وإثبات اليوم الآخر وما يتعلق به من جنة ونار وتبشير وإنذار، ثم الإذن لرسول اللّه أن يجاهد الشرك بالسيف.

وأما المدني منها فيمتاز بوصف المغازي وذكر أسبابها، وما يستفيده المؤمنون من نتائجها وأعقابها، وسن الشرائع الدينية كالصلاة والزكاة والصوم والحج، والاجتماعية كالأحوال الشخصية والمعاملات المدنية والحقوق الجنائية، وما تستتبعه من قصاص وحدود، وفي كل ذلك ترى الألفاظ مؤتلفة مع المعاني، والمعاني متفقة مع الأغراض، اتفاقاً دونه الفن والمنطق وليس فوقه إلا قدرة اللّه!

تأثيره:

شغل المسلمون بالقرآن وفرغوا له، فكان دعاءهم في المسجد، ونظامهم في البيت، ومنهاجَهم في العمل، ودستورهم في الحكومة. فسرى هَديُهُ فيهم مَسرى الرُّوح ونزل وحيُهُ منهم منزلة الطبع، وأثر في ألسنتهم وأفئدتهم وأنظمتهم ما لم يؤثره كتاب سماوي آخر في أهله. فأما تأثيره في اللغة وأدبها ـ وهو ما يعنينا الآن ذكرُه ـ فبأنه خالط من القوم قلوباً قاسية فألانها، وطباعاً جافية فأرقها، وأحلاماً طافية فأقرّها، فكسَبَ ذلك اللغة عذوبة في اللفظ، ورقة في التركيب، ودقة في الأداء، وقوة في المنطق، وثروة في المعاني، ووسع دائرة اللغة باستحداثه الألفاظ الدينية كالصلاة والزكاة والقيام والركوع والسجود والوضوء والمؤمن والكافر الخ، واقتضائه علوماً جديدة كالنحو والصرف والاشتقاق لدفع اللحن عنه، والمعاني والبيان والبديع لتقرير الإعجاز فيه، وعِلمي اللغة والأدب لتفسير غريبه وتوضيح مشكله، والحديث والأصول والفقه والتفسير لاستنباط أحكام الشرع منه. وهو الذي ضمن بقاءها تلك القرون العديدة، ونشرها في مجاهل الأصقاع البعيدة، مصداقاً لقول اللّه تعالى: **﴿إنَّا نحنُ نزّلنا الذكْرَ وإنا له لحَافِظون﴾**[1] وحفظ القرآن يستلزم حفظ لغته.

قراءاته:

لم يكن امتزاج اللغات ولا اتحاد اللهجات تاماً من كل وجه عند انبثاق نور الإسلام، وإنما بقي على نواحي الألسنة لُحون مختلفة كالفتح والإمالة، والإظهار والإدغام، والمد

---

(١) سورة: الحجر، الآية: ٩.

والقصر، وتحقيق الهمز وتخفيفه، وترقيق الحرف وتفخيمه، وضم الهاء والميم في نحو عليهُم وإليهُم. فلما نزل القرآن بلغة قريش ولهجتهم لم يستطع من عداهم من العرب أن يتغلبوا في الزمن اليسير على الفطرة اللغوية، واللهجة الأمية، فقرأوه بلحونهم وأقرهم الرسول على ذلك تيسيراً للقراءة وتسهيلاً على الناس.

فلما اختبلت الألسنة، واضطربت السلائق، وزاغت القلوب بعد اتساع الفتوح وانتشار العرب وانشعاب الفرق، نشأ من جهلهم بالهجاء، ومن شدة اختلافهم في المنطق والأداء ومن جرأة ذوي العلل والمراء، قراءات لم تظاهرها العربية ولا صحة السند ولا رسم المصحف، فتجرد قوم في المائة الأولى لضبط القراءات وحصر وجوهها وتبيين مذاهبها، وجعلوها علماً كما فعلوا يومئذ بالحديث والتفسير. واشتهر من هؤلاء ومن الطبقة التي وليتهم سبعة تنسب إليهم القراءات إلى اليوم وهم: عمرو بن العلاء (١٥٤) وعبد اللّه بن كثير (١٢٠) ونافع ابن نعيم (١٦٩) وعبد اللّه بن عامر (١١٨) وعاصم بن بهدلة الأسدي (١٢٨) وحمزة بن حبيب الزيات (١٥٦) وعلي بن حمزة الكسائي (١٨٩) وتلك هي سبع القراءات المتفق على صحتها إجماعاً وهناك ثلاث قراءات تليها في الصحة والتواتر وهي قراءة أبي جعفر المدني (١٣٢) وقراءة يعقوب بن إسحاق الحضرمي (١٨٥) وقراءة خلف بن هشام. وما سوى هذه العشر فشاذ.

جمعه وتدوينه:

نزل القرآن منجماً كما قلنا في ثلاث وعشرين سنة لوقائع موجبة وأحوال داعية. وأعلن ختامه في السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول بثلاثة أشهر، وبعد أن رتبت آيه وتمت سوره؛ إلا أنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته، وإنما توفي رسول اللّه والقرآن إما مسطور في العُسُب واللِّخاف والأكتاف، وإما مذكور على ألسنة الصحابة ولما قتل من قرائه سبعون في غزوة اليمامة، فزع المسلمون وأشفق عمر أن يذهب القرآن بذهاب حُفّاظه، فتقدم إلى أبي بكر في جمعه. فتردد الخليفة وقال: «كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول اللّه ولم يعهد إلينا فيه عهداً!» فما زال عمر يداوره حتى أقنعه. وعهد بذلك إلى زيد بن ثابت أحد كتبة الوحي وصاحب العرضة الأخيرة على الرسول، فجمعه من السطور والصدور. وكتبه صحفاً أودعت عند أبي بكر وعند عمر من بعده. ثم كانت هذه الصحف في خلافة عثمان عند حَفْصَة بنت عمر زوج النبي. فلما اتسعتْ رقعة الدولة وانتشر القراء في الأرض اختلفوا في قراءاتهم اختلافهم في لهجاتهم، وفخر بعضهم على بعض بحسن قراءته وصدق روايته؛ فخشي عثمان أن يختلفوا في دلالته كما اختلفوا في تلاوته، فأمر زيد بن ثابت وعبد اللّه بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمٰن بن الحارث ابن هشام، فنسخوا تلك الصحف في مصحف واحد ورتبوا سوَره على الطول والقصر، واقتصروا فيه على لغة قريش لنزول القرآن

بها، وأمر عثمان الناس أن يكتبوا مصاحف من هذا المصحف، وبعث في كل أفق بواحد منها، وكانت سبعة فأرسلها إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس بالمدينة واحداً، وهو مصحفه المسمى بالإمام، ثم أمر بجمع ما عدا ذلك فأحرق.

قبس من نوره

قال اللّه تعالى: ﴿أتأمُرُونَ ٱلنَّاسَ بالْبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ؟ وعَسَى أَنْ تَكرَهُوا شَيْئاً وَهُو خَيْرٌ لَكُمْ. كمْ مِنْ فِئَةٍ قَليلةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بإذْنِ ٱللّهِ وَٱللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذى. ومَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ٱبْتغاءَ مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَها وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. لَنْ تَنالُوا ٱلْبِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ. وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ. إنْ يَنْصُرْكُم ٱللّه فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَنْصُرُكُم مِنْ بَعْدِهِ. مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً. قُلْ لاَ يَسْتَوِي ٱلخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلو أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ. مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ. إنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شاكِلَتِهِ. لِله ٱلأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ. مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِه. وَلاَ يَحِيقُ ٱلمكْرُ السَّيِّءُ إلاَّ بِأَهْلِه إنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ؛ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفى بِما عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظيماً. وَلاَ تَسْتَوِي ٱلحسنَةَ وَلا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فإذا ٱلذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عداوَة كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْت. كلُّ نفس بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. وَإذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ، وَإنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خشُبٌ مُسَنَّدَةٌ، يَحْسَبُونَ كلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيراً يرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرَّةٍ شرًّا يرَهُ. وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلا إيَّاهُ وبالْوَالِدَيْنِ إحساناً؛ إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ ٱلْكِبَرَ أَحدُهُماً أَوْ كِلاهُمَا فلَا تقلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَولاً كرِيماً. وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيانِي صَغِيراً، رَبُّكَمْ أَعْلَمُ بمَا في نُفُوسِكُمْ إنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غفُوراً. وَآتِ ذَا ٱلقُرْبى حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً. إنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إخوانَ ٱلشَّيَاطِينِ وكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً. وَإمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً. وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً. إنَّ رَبكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خبِيراً بَصيراً. وَلا تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُم

وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً. وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَا إِنَّهُ كانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً. وَلَا تَقْتُلوا ٱلنَّفسَ الَّتي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِف فِي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً. وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيم إِلَّا بالتي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ، ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً. وَلَا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا، وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾.

٢ ـ الحديث

الحديث هو قول رسول اللّه أو حكاية فعله أو حديث الصحابة عنه. فهو في المنزلة الثانية من كتاب اللّه فيما يتعلق بالدين والثقافة، وأغزر ينابيع التشريع في العبادات والحقوق، وأقوم طريق يؤدِّي إلى فهم القرآن: يوضح إشكاله، ويفصِّل إجماله، ويقيد إطلاقه، ويخصص عمومه. والأحاديث التي صحت عن رسول اللّه قليلة، ولكنها موسومة بطابع البيان والإلهام والعبقرية، لنشأته في قريش، واسترضاعه في بني سعد وهي أفصح القبائل العربية، وتضلعة من لغة القرآن واطلاعه على لغة العرب، وقدرته الفطرية على ابتكار الأساليب العالية، ووضع الألفاظ الجديدة لما استحدث من المعاني الدينية والفقهية؛ ولكن قيمتها اللغوية ودلالتها التاريخية لا تسموان إلى مكان القرآن في ذلك، لأن القرآن كان يدوِّنه عند نزوله كتبةُ الوحي، وكونه كلامَ اللّه جعل الاحتفاظ بنصه فرضاً على المسلمين، **﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾**[1] أما الحديث فلم يدون إلا حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة، وكان قبل ذلك إنما يُروى من الذاكرة والذاكرة كثيرا ما تخون، فناله من تغيير الكلمات واختلاف الروايات أكثر مما نال الشعر الجاهلي. وزاد في ذلك أن العلماء أجازوا رواية الحديث بالمعنى لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله مشافهة طوال هذه السنتين. وقامت الخصومات السياسية، ونجمت الفرق الدينية، فاستجاز أولوا الأهواء الكذبَ على الرسول، فوضعوا ألوف الأحاديث تأييداً لدعوتهم وترجيحاً لنزعتهم. واستباح قوم وضع الأحاديث الموافقة لمبادىء الدين وقواعد الفضيلة. وحجتهم أن الناس لا يأخذون إلا بنص الكتاب أو مأثور السنة؛ فملأوا الكتب بأحاديث الترغيب والترهيب وتعدوا ذلك إلى وضعها في فضائل الأشخاص والمدن والسُّور لدعوة سياسية أو نزعة عصبية أو غاية دينية، كالأحاديث الموضوعة في فضل قريش على العرب، وفضل العرب على العجم، وتفضيل بعض الصحابة على بعض، والمنقولة في بعض التفاسير في فضائل السوَر ترغيباً للناس في

(١) سورة البقرة، آية: ١٨١.

دراسة القرآن حين لهوا عنه بالفقه والسير. ومن طريق الوضع أدخلوا في الحديث طائفة كبيرة من الحكم المأثورة عن العرب، والآراء المنقولة عن العجم، فأثرت في الخطابة والجدل والشعر تأثيراً غير قليل.

كان عمر وبعض الصحابة لا يرون التوسع في رواية الحديث اتقاء لخطر الوضع وحرصاً على كتاب اللّه أن يجر هذا الوضع إلى الاختلاف فيه أو الانشغال عنه. وقد قال عمر لقرطبة بن كعب ولمن حوله من الصحابة حين خرجوا إلى العراق: إنكم تأتون أهل قرية لهم دويّ بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم. جَوِّدوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول اللّه ﷺ. ونظن أن ذلك الخوف هو الذي صرفه أيضاً عن الإشارة بجمع الحديث كما أشار بجمع القرآن حتى لا يكون بجانب كتاب اللّه كتاب آخر يشاركه العناية؛ فقد رَوى الزهري عن عروه بن الزبير أن عمر أراد أن يكتب السنن واستشار أصحاب رسول اللّه ﷺ فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث شهراً يستخير اللّه في ذلك شاكا فيه. ثم أصبح يوماً وقد عزم اللّه له فقال: إني كنت قد ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم، ثم تذكرت فإذا ناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب اللّه كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب اللّه، وإني واللّه لا ألبِّس كتاب اللّه بشيء.

فكان من جرَّاء ذلك الخوف هذه الفوضى التي شوهت جمال الدين، وموَّهت حقائق التاريخ، وساعدت على نشر الفتنة، ولم يفطنوا إلى درئها إلا حين استفحل السر وانتشر الأمل وأصبح الطب لدائها مستحيلاً.

ليس من هَمِّ الأديب أن يعني عناية الفقيه واللغوي والنحوي والمؤرخ بما نال الحديث من اختلاف وتبديل، ولا بما نال المحدِّثين من جرح وتعديل، فإن الأدب إنما يعتبر الأحاديث صادقها وكاذبها مذهباً من مذاهب القول ومصدراً من مصادر المعنى لهما الأثر البالغ فيه. وليس من شك في أن الوضاعين كانوا يقلدون أسلوب الرسول ويتوخون استعمال كلماته واصطلاحاته، حتى لا تجد بين أكثر الأحاديث إلا فرق ما بين صدق النسبة إلى الرسول وكذبها. هذا من جهة الشكل، أما من جهة الموضوع فإن الأحاديث الصحيحة كانت طريق العلم والإرشاد، والأحاديث الموضوعة كانت طريق الرأي والاجتهاد؛ لأنها آراء فردية اجتهادية نسبها أصحابها إلى الرسول لتحل من قلوب الناس محل الثقة، فكانت طريقاً لبسط الفقه، وتهذيب الخلق، ونشر الثقافة، ونشوء الرأي المجتهد بجانب السنة الصحيحة في التشريع.

أسلوب الحديث:

الحديث كما يدل عليه اسمه لا يخرج عن هذا النوع العادي المألوف الذي يملأ كل مجلس ويتناول كل موضوع. ومن مستلزماته عدم التحضير وقلة التفكير واختلافه باختلاف

المقامات والأحوال؛ ولكن أحاديث الرسول وإن كانت فيض الخاطر وعفو البديهة، يبدو عليها أثر الإلهام وسمة العبقرية وطابع البلاغة. وأسلوبها أقرب إلى أسلوب عصر النبوة منه إلى أسلوب القرآن، وإنما يمتاز بإشراق ديباجته واتساق عبارته وتساوق ألفاظه وفِقَرِهِ لأداء معنى واضح معيّن، ومطابقة مدلوله لمقتضى الحال، وملاءمة لغته للغة المخاطب. وأشد ما يكون ذلك ظهوراً حين يخاطب الوفود، فالرسول يستعمل الغريب، ويلتزم السجع، ويذكر ألفاظاً من مهجور اللغات تبعاً لما جرى على لسان الوافدين عليه: من ذلك حديثه مع طهفة بن أبي زهير النهدي، ومع لقيط بن عامر بن المنتفق، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره.

أما أكثر الأحاديث فإن عليها رواء الطبع وجلال النبوة ورونق الفصاحة. وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار، وتلك ميزة الرسل من قبل ولا سيما المسيح، لأن المرسلين في مقام المعلمين، وأنجح ما يكون في التعليم طريقة التمثيل والمحاورة، كقوله عليه السلام: «إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. المؤمن هَينٌ لَيِّن كالجمل الأنف إن قيد انقاد، وإن أُنيخ على صخرة استناخ.أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم لو توكلتم على اللّه حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصاً وتروح. بِطانا مَثَل المؤمن كالنحلة، لا يأكل إلاّ طيباً ولا يطعم إلا طيباً. إنكم لن تسعوا الناسٍ بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم المؤمن آلف مألوف. ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. إنَّ أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، الموطأون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون. وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. إياكم وخضراء الدِّمن: المرأةَ الحسناء في المنبت السوء. المرأة كالضِّلع إن رُمْتَ قوامها كسرتها. الناس كلهم سواسية كأسنان المشط. جنة الرجل داره. إن قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له ما تصنع؟ قال هو مكاني أصنع فيه ما أشاء. فإن أخذوا على يده نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا».

وأثر الأسلوب النبوي فاش في كلام الصحابة وخطبهم، وعلى الأخص في أسلوب من اشتد خلاطهم به أو كثرت روايتهم عنه، كالإمام عليّ وأبي هريرة. فمن قول الإمام عليّ كرم اللّه وجه: «ألا وإن الخطايا خيل شُمُس حُمل عليها أهلها وخلعت لُجُمها فتقحمت بهم في النار. وإن التقوى مطايا ذُلُل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة. حق وباطل، ولكل أهل. شُغل مَن الجنة والنار أمامه. ساعٍ سريع نجا، وطالب بطيء رجا، ومقصر في النار هوى اليمين والشمال مَضَلة، والطريق الوسطى هي الجادَّة».

وأما أبو هريرة فأكثر الناس حديثاً عن الرسول حتى بلغ ما رواه أربعة وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف، أكثر لفظها وأسلوبها له وإن كانت جارية على أسلوب السنن. وقد ارتاب

بعض الصحابة في كثرة ما روى فقال: «إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول اللّه، واللّه الموعد. كنت رجلاً مسكيناً أخدم رسول اللّه على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصَّفْق في الأسواق، وكان الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، وكنت ألزم رسول اللّه فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا!».

٣ ـ الشعر الجاهلي

وجد النثر في القرآن الكريم والحديث الشريف خطة جديدة ومنبعاً فياضاً فجعلهما دليله ومدده، ومضى في طريق الاستقلال والاكتمال والتطور. وانتقل الشعر إلى الإسلام مع العرب فلم يجد منه قبولاً حسناً ولا صدراً رحيباً، مخافة من عصبيته وجاهليته على وحدة المسلمين وألفة العرب، فظل ينافق كالأعراب وهواه كله في البادية، ينتزع منها أخيلته وطرقه وصوره. وإذن لا نستطيع أن نفهم الشعر الإسلامي إلا بالرجوع إلى منبعه ومشرعه، وقد ألممنا بالشعر الجاهلي إلمامة تغنينا عن استئناف البحث فيه، فلننتقل إلى المصدر الرابع وهو:

٤ ـ الأدب الأجنبي

تقع جزيرة العرب بين مدنيتين من أعظم مدنيات العالم وهما: مدنية الفرس في شرقها، ومدنية الرومان في غربها، وبينها وبينهما اختلاط من قديم الزمن خلَّف بعض الآثار في اللغة والأدب من طريق التبادل المادي والمعنوي؛ ولكن هذا الاختلاط أصبح بعد أن فتحهما الإسلام امتزاجاً شديداً تداخلت به اللغات والأفكار والعقائد حتى صار مورداً فياضاً من موارد الأدب؛ فقد دخل القوم في دين اللّه، ودخل كثير من سباياهم في بيوت العرب، واضطروا إلى تعلم العربية والتكلم بها، ولكن هؤلاء وأمثالهم لم يغيروا إلا ألسنتهم، أما أخيلتهم وتصوراتهم وتعبيراتهم فقد ظلت على الجبلة الأولى: يفكرون بالفارسية أو الرومية، ويتكلمون أو يكتبون بالعربية، ولغاتهم مرسومة القواعد، وآدابهم واضحة المناهج، وحضاراتهم مشرقة الجوانب؛ فلم يكن بد من تأثر الآداب العربية بالآداب الأعجمية والعقلية الآرية، وأظهر ما يكون هذا التأثر في اللغة والتشريع والأخلاق والشعر والرسائل والقصص.

فاللغة قد اتسعت مادتها بما اقتبسته من الألفاظ الفارسية للتعبير عما لم يعرفه البدو في تدوين الدواوين، وتنظيم الحكومة، وسياسة الملك، ومقتضيات الحضارة، من أداة وطعام وزينة، ووضعت قواعدها على منهج النحو السرياني، وقام على ضبطها وبسطها الأعاجم. وقد عقد السيوطي في كتابه المزهر فصلاً لما أخذه العرب من الفارسية والرومانية والسريانية والقبطية، ولكن اللغويين خلطوا في ذلك لجهلهم بهذه اللغات، فنسبوا إلى بعضها ما ليس منها. وغالى الفرس في رد أكثر المعربات إلى لغتهم عصبية أو جهالة، حتى زعموا أن

الرسول تكلم بالفارسية، ورووا في ذلك حديثين أحدهما قوله: إن جابراً صنع لكم سوراً، أي ضيافة والآخر قوله: العنب دو، والتمريَك: أي في تناولهما مثنى وفرادى. وذلك في تحقيق العلماء لا أصل له. وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أن أهل المدينة عرفوا ألفاظاً من قوم من الفرس نزلوا فيهم، فيسمون البطيخ. خِربز، والسميط أي المنتوف الصوف: رُوذَق. وإن أهل الكوفة يسمون المسحاة بال، والسوق: بازار، وذلك كله فارسي. وقد حكى أبو مهدية الأعرابي بعض ألفاظ أعجمية كانت فاشية لعهده فأنكرها، وذكر منها على سبيل المثال قوله:

يقولون لي شنبذ وَلست مشنبذاً	طوال الليالي ما أقام ثبير
ولا قائلاً زودًا ليعجل صاحبي	ويشتان في قولي على كبير
ولا تاركاً لحني لأتبع لحنهم	ولو دار صرف الدهر حيث يدور

والتشريع تأثر في تفاصيله بفقه الرومان، والأخلاق اعتمدت كثيراً على ما نقل من حكم اليونان عن طريق السريان، والشعر والنثر قد أخذ يتعاطاهما جماعة من الموالي، كزياد الأعجم، وأبي العباس الأعمى، وموسى شهوات، وإسماعيل بن يسار من الشعراء؛ وسالم مولى هشام؛ وتلميذه عبد الحميد بن يحيى، وَصديقه ابن المقفع من الكتاب. وقد قال أبو هلال العسكري: «من تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى. وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحوَّلها إلى اللسان العربي».

وأما القصص، وهو هنا حكاية التفسير والأثر والخبر تعليماً وموعظة، فقد شابهُ شيء مما كانوا يسمونه العلم الأول. ويريدون به ما أخذوه من أخبار الأمم وأحوال الأنبياء، والنذر الأولى عمن أسلم من أهل الكتاب، كعبد اللَّه بن سلام الذي أسلم عند هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وكعب الأحبار الذي أسلم في خلافة عمر؛ أو من الموالي كوهب بن مُنَبِّه أحد الأبناء الذين عاشوا في اليمن فعرفوا أخبار اليهود، واتصلوا بالحبشة فعرفوا أخبار النصارى. وكان هو يعرف اليونانية. فاتسع بذلك علمه، وكان أول من صنّف قصص الأنبياء في الإسلام. ثم طاووس بن كيسان التابعي، وموسى بن سيار الأسواري. وقد قال الجاحظ في موسى هذا إنه من أعاجيب الدنيا: كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب اللَّه ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يُدرى بأي لسان هو أبين.

وتأثير أدب الموالي في أدب العرب أكبر وأظهر من تأثير أدب اليونان والرومان فيه؛ لأن اليونان والرومان لم يدخلوا في الدين ولا في العربية حتى يكون تأثيرهم مباشراً؛ بل ظلوا

مستقلين غير متصلين إلا بمقدار الصِّلات الاقتصادية. والعرب لقرب عهدهم بالبداوة وجهلهم باللغات، واشتغالهم بالفتوح والخصومات، وتعصبهم لآدابهم لم يفكروا في نقل شيء من أدب هؤلاء وأولئك. وأما الفرس فقد انتقلوا إلى العرب ذاتاً ومعنى ووطناً، فاندمجوا فيهم وامتزجوا بهم وأثروا بأنفسهم في دينهم ولغتهم من غير طلب ولا وساطة. وانصرف العرب إلى سياسة المُلْك وقيادة الجند وأقصوا عنهما الموالي، فعكف هؤلاء على تحصيل العلوم الشرعية واكتساب الفنون الأدبية، فكان منهم رواة الحديث، وحملة الفقه، وكتبة الدواوين، وقالة الشعر، وعلماء النحو واللغة، وبذلك اتصلوا بسببنا، وفنى أدبهم في أدبنا، كما تفنى شآبيب المطر في عباب المحيط.

أنواع الأدب الإسلامي

الشعر

الشعر في عهد الرسول:

ظهر الإسلام وقد تحكم في حياة العرب جاهلية قاسية وعقلية جافة وعصبية مفرِّقة فكان الشعر مظهر هذه الصفات وباعثها. فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدة العرب، كان من الطبيعي أن يُنغض الإسلام رأسه إليه، وألا يشجع الناس عليه؛ ففي القرآن: ﴿وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعهُمُ الْغَاوُون﴾[1] ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَه﴾[2]، وفي الحديث. «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يَرِيَه خيرٌ له من أن يمتلىء فمه شعرا»[3]، فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويثير دفائن القلوب. ثم شغل الإسلام العرب جميعاً بالدعوة العظمى: فمن مؤيد ومن معارض. واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش، فجردوا عليه الأسِنَّة والألسنة، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياد والتربص وينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية، وبين الديمقراطية والأرستقراطية، وبين محمد وقريش، فلم يغامر في الخصومة إلا الشعراء القرشيون، وقد كانوا قلالاً قبل الإسلام لشواغل الحضارة والتجارة، فصاروا كثاراً بعده لدواعي النزاع والمعارضة. بدأ هذه الحملة منهم عبد الله بن الزِّبَعْرى وعمرو بن العاص

---

(١) سورة: الشعراء، الآية: ٢٢٤.

(٢) سورة: يس، الآية: ٦٩.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في الشعر الحديث (الحديث ٥٠٠٩)، وأخرجه ابن ماجة في كتاب: الأدب، باب: ما يكره من الشعر (الحديث ٣٧٥٩).

وأبو سفيان، فآذوا الرسول وأتباعه بقوارص الهجاء، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودوا لو يأذن لهم الرسول بمساجلتهم؛ فما هو إلا أن قال لهم: «ماذا يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم؟» حتى نهض للقرشيين نفر من الصحابة، فيهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وشبوها حرباً كلامية جاهلية لم يهاجم المهاجمون فيها بفضائل الوثنية، ولم يدافع المدافعون بفضائل الإسلام، حتى نقول إن الشعر قد خطا في مذاهب الفن خطوة جديدة، بل كانوا يتهاجون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد. يدل على ذلك قول الرسول لحسان: «اذهب إلى أبي بكر فهو أعلم بمثالب القوم»، وقوله: «كيف تهجو قريشاً وأنا منها؟ فقال: «أسلك كما أسل الشعرة من العجين».

فليس من شك في أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهلياً. فلما خضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بعد لأي، خرست الألسنة اللاذعة وفر الشعر الجاهلي ثانية إلى البادية. وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية الحديث وجهاد الشرك، فَخَفَتَ صوت الشعر لقلة الدواعي إليه، فما كان يظهر إلا الحين بعد الحين في صادق المدح والرثاء. وتساهل الرسول في سماعه حتى أثاب عليه، وحتى قال فيه. «إن من البيان لسحراً وإن من من الشعر لحكمة».

الشعر في عهد الراشدين:

تلك كانت حالة الشعر في عهد النبوة، وأما حاله بعدها فأقل شأناً وأحط مكانة لذهاب المعارضة ولشدة الخلفاء في تأديب الشعراء، وانصراف همم العرب إلى الفتوح. ولكن الدين قد بدأ يفعل في النفوس، ومظاهر الحضارة قد أخذت تؤثر في الأذهان، فظهر أثر ذلك ضئيلاً في شعر المخضرمين ككعب بن زهير والحطيئة ومَعْن بن أوس والنابغة الجعدي، ولكنه أثر لا يتعدى بعض الألفاظ الإسلامية كالمعروف والمنكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار. ولذلك نرى من المبالغة جعل المخضرمين طبقة ممتازة؛ فإن شعرهم استمرار للمذهب الجاهلي لم يتأثر بالإسلام إلا تأثراً عرضياً كضعف الأسلوب في شعر حسان، أو قلة الإنتاج في قريحة لبيد، أو كثرته في الحطيئة والنابغة الجعدي مثلاً، والأشبه بالحق أن نقرر ما أشرنا إليه من قبل، وهو أن الشعر العربي ظل في الجاهلية والإسلام واحداً في مظهره وجوهره ونوعه حتى أواخر عهد بني أمية. والتأثير الذي ناله من الموالي والسياسة والحضارة والدين لم يعطفه إلى طرق جديدة وإنما وسع في معانيه ومناحيه، فقوّى بعض أغراضه كالهجاء، وميز بعضاً آخر كالغزل. وهل يمكن التجديد في الشعر وجل الشعراء إنما يأتون من البادية، والخلفاء يتعصبون البادية، والرواة والأدباء واللغويون يطلبون اللغة والشعر في البادية؟ فضلاً عن أن العرب بطبيعتهم يميلون إلى التقليد ويجلون القديم المأثور من

سؤدد وخلق وأدب: فليس من سبيلنا أن نتكلف البحث العقيم في القرن الأول عن مذهب شعري جديد يصح أن يكون أساساً لأدب عربي جديد، فإن مذهب عمر بن أبي ربيعة في الغـزل لا يختلف عن مذهب امرىء القيس إلا في المعاني الحضـريـة؛ ومـذهب جـريـر والفرزدق في الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيئة والشماخ إلا في المعـاني السياسيـة. فلنقصر الجهد إذن على تحليل نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بني أميـة وبيان خطرها وأثرها في الإنتاج العقلي للعرب.

* * *

كانت القحطانيـة والعدنـانية، والعلويـة والبكريـة، والهاشميـة والأمويـة، والعروبـة والشعـوبية، تضـطرم في نفوس المسلمين اضـطرام البركـان قبيل أن يثـور. ولكنها كـانت تضعف حيناً وتشتد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه؛ فالقبائل كانت تنزل منازلها في البلاد على هذه الفكرة، والبصرة والكوفة تخططان على هذه الفكرة، والخلاف ينجم في فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة، وكلها تدور على الزعامة والإمامـة، فمن كان سيداً في الجاهلية يريد أن يكون سيداً في الإسلام! كأن العرب لم يفهموا من الـدين الجديد إلا إنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى الغلبة والثروة والحكم ليس غير. ولعلك تذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس بن عاصم والأحنف بن قيس كانوا يعرضون على الرسول أن يدخلوا في دين الله لا على أنه الدين الحق، بل ليكون لهم الأمر من بعده!

ظلت هذه الروح العصبية مكظومة في عهد الشيخين لأخذهما الأمور بالحزم والعدل، ولانصراف العرب إلى المغنم عن طريق الجهاد والفتح. فلما وُلِّيَ الأمر عثمان وهنت اليد المصرفة فسندتها يد أخرى، وتشتت الرأي فلم يصدر عن الخليفة وحده، وحكم آله الناس بعصبيتهم الأمـوية لا بقـوميتهم العربيـة. وكان المسلمـون يومئـذ قد أفـاءت عليهم الفتوح والمغـانم الثراء إلى حـد البـطر؛ فـاستيقظت الفتنـة وقامت الثـورة وانتهت بمقتل عثمـان، وتجددت الخصومة على أثر ذلـك بين عليٍّ ومعاويـة. وقتل الإمـام فتحرج الأمـر وانشقت العصا. وانصرف العرب عن جهاد العدو إلى جهاد أنفسهم باللسان والسيف. وتفرقوا أحزاباً وشيعاً بعضها للدين وبعضها للدنيا. ففي الشام حزب يشـايع بني أميـة، يريض لهم الأمـر ويمكنهم في الملك. وفي الحجاز حزب يناصر ابن الـزبير، يؤيـده في دعواه وينصـره في دعوته. وفي العراق حزب يشايع أهل البيت ويطلب لهم بحقهم في الخلافة. وهنالك حزب ديمقراطي ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ويقول بالشورى في الخلافة. وفي هذه الأحـزاب الأربعة توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم إلا طائفة قليلة لزمت الحيـاد وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضـاء الله يوم الـدين وهم المرجِّئة. واتصلت بين الأحزاب الخصـومـة، وأعنف فيها الخصوم؛ ولكن معاوية بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضيه بالدهاء والعطاء والإغضاء والحزم، حتى استوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الخوارج. فلما مات أفاق

خصومه من خَدَر سياسته فزعزعوا عرشه؛ حتى إذا وَهيَ أدركه مروان وبنوه فسندوه واقتعدوه. وفي زمن عبد الملك اشتدت المعارضة واستعرت الحروب، وكثر المطالبون بالخلافة، وانبسط سلطان العرب، وزخرت موارد الفيء، واكتمل شباب الجيل الذي نشأ في الإسلام، واغتذى بثمر الفتوح، واستمتع بجمال الحضارة، واختلط بأنماط شتى من الناس، وساهم بيده ولسانه في هذه الفتن، فبلغ الأدب العربي غاية ما قدر له أن يبلغ. فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة، والعصبية الغالبة، والأحزاب المتحاربة، والأهواء المتضاربة. والشعر العربي ربيب الخصومة والجدل، تبعثه الحزبية ويقويه الهراش وتوحيه شياطين الفرقة؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الأحزاب، يصطنعونه كما نصطنع نحن الصحف اليوم، فيناضل عن زعمائه، ويدافع عن آرائه، ويصطبغ بصبغة العقيدة التي يدعو إليها وينافح عنها. وإذا علمت أن العرب جميعاً ساهموا في هذه الخصومات، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً في هذه الأزمات، وأن الأمويين استمالوا بالمال هوى الشعراء، وأوقدوا بينهم نار التنافس والهجاء، وأن الشعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس، أدركت سبب وفرة الشعر وكثرة الشعراء في عصر عبد الملك، إذ بلغ عدد الفحول المائة. وليس من شك في أن الشعر وإن حافظ على طريقته وطبيعته قد تأثر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً في معانيه وأغراضه، ولكن هذه الحياة لم تكن كلها نزاعاً سياسياً ولا جدلاً دينياً حتى يقف تأثره عند هذا الحد، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن أن نشير إليها قبل أن ندل على آثارها في الشعر.

نظرة عامة

في العراق:

كان من الطبيعي أن تختلف مظاهر هذه الحياة في العواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها. فالعراق كان منذ القدم منتجع الخواطر العربية لخطبه ونمائه، ووفرة ظله ومائه. وقد لاذ العرب قبل الإسلام بأطرافه وأريافه واللسان واليد فيه للفرس فأنشأوا إماه المناذرة. فلما فتحوه في عهد عمر نزحوا إليه وأنشأوا على حدود البادية البصرة والكوفة. وكان في العراق ميراث وفْرٌ من العلم والأدب والدين خلفته الأمم الغابرة، ولم يؤت العراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة، والنفوس على التنافر. وأتى إليه العرب بالعصبية اليمنية والنزارية، ووقعت فيه الأحداث الإسلامية الجُلّى كواقعة الجمل ومصرع الأئمة والقادة، وما نجم عن ذلك من قيام الشيعة والخوارج، واشتداد المعارضة لبني أمية، واستحكام الخلاف بين البصريين والكوفيين في السياسة والدين والعلم، فكانت البصرة عثمانية، والكوفة بعد استقرار الإمام علي بها علوية، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما

خارجية، لأنها مسكن ربيعة وهم كما قال الأصمعي رأس كـل فتنة. ومن ربيعـة بنو تغلب الذين قال فيهم الإمام علي: «يا خنازير العرب! والله لئن صار هذا الأمر إليَّ لأضعن عليكم الجزية». فكان الشعر العراقي صورة لهذه الحياة الثائرة المتنافرة، فهو قوي عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر، وتتلون فيه العصبية القبَلّية ألـوانـاً شتى من التحـزب للمكـان والعقيـدة والجنس، وتتغلب فيه النزعات الجاهلية على التعاليم الإسـلامية، وتغـذيه نفحـات بدويـة وصلات أموية، فيزدهر وينتشر حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويعبر عن كل مبدأ.

في الحجاز:

والحجاز منبع الإسلام كان أشبه بينابيع النهر: يفيض منـه الماء الصـافي في سكون ورفق، حتى إذا بعـد مجراه اعتـرضته الشـلالات وتقسمته التيـارات، فتكدر نميـزه واشتد هديره، وتوزعته الجداول والأقنية، فبعضه في سباخ الأرضْ، وبعضه في الريـاض، فروى بعضاً وأعرق بعضاً انتقلت منه الخلافة والمعارضة والعلم إلى العراق والشام وبقي هو كما كان وكما هو الآن يقبل المال والمعونة من كل قطر. واقتضت سيـاسة الأمويـيـن أن يعتقلوا فيه شباب الهاشميـين فلا يتركونـه إلا بإذن، وسلطوا عليهم التـرف، وشغلوهم بالمـال عن الملك، وخلوا بينهم وبين الفراغ، وقد ورثوا مع ذلك عن آبائهم المجاهدين مغـانم الفتح من أموال ورقيق، وفي أهل الحجاز ملاحة ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحـة لسان ومحبة لهو، فتبسطوا عَلَى النعيم، وعكفوا عَلَى اللذة، وقطعوا أيامهم بالمنادرة والمنادمـة، وذهبوا في حياة المجون كل مذهب. ووصل الحج بينهم وبين الحسان والقيان، واستهوت هذه الحال المغنين فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الـدولة حتى اجتمـع منهم في وقت واحد كما يقول أبو الفرج الأصبهاني «ابن سُرَيْج، والغَريض، ومَعْبَد وحنين، وابن محرز، وجميلة، وهِيْت، وطُوَيْس، والدلاَل، وبـرد الفؤاد، ونومـة الضحى، ورحمة، وهبـة اللّه، ومالك، وابن عائشة، وابن طنبورة، وعزة الميلاء وحَبَابة، وسلامـة، وبلبلة، ولذة العيش، وسعيدة، والزرقاء، وابن مِسْحح» وحتى غلب الغناء عَلَى أعمال الناس وميوله، فقد حدث الإمام مالك عن نفسه قال: «نشأت وأنا غلام أتتبع المغنين وآخذ عنهم، فقـالت لي أمي: يا بُنَيّ إن المغني إذا كان قبيح الوجه لا يُلتفت إلى غنائـه، فدَع الغنـاءَ واطلب الفقه فـإنه لا يضر معه قبح الوجه. فتركت المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ اللّه بي عز وجل ما ترى». من ذلـك شاع الحب في مـدن الحجاز ورقّتْ عـواطف بنَيه، فسلكـوا بالشعـر مسالـك الغزل الحضري الرقيق الصادق، حتى كاد هذا الفن لافتنانهم فيه يبتدىء بهم وينتهي إليهم.

في الشام:

وأما الشام فكان بنجوة من الثورات النفسية والأزمـات السياسيـة لخضوعـه لبني أمية

وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم، فلا هو مضطرم العواطف كالحجاز، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق، وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه لشأنه دون أن يثيروا عصبيته لخلاف، أو يهيجوا طماعيته لمغنم، فبقي الشعر من جراء ذلك راكداً في نفوس أهله لا يبعثه باعث، ولا يتوفر على دراسته وروايته باحث. وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يفد إليه من العراق والحجاز مع الشعراء الذين يجذبهم سخاء القصر أو دهاؤه، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء من البصرة كلما أعضلتهم مسألة في اللغة والنحو والأدب.

خصائص الشعر في العراق:

لعل الشعر العراقي الإسلامي أصدق ما يصور حياة البادية وأصح ما يعبر عن نفسية العرب؛ فإنه ـ وإن كان كما قلنا استمرار للشعر الجاهلي يصدر عن دوافعه وينبع من منابعه ـ أنقى جملة وأبين علة وأصلح نسبة، لقربه من عصر التدوين واتصاله بأسباب السياسة وأحداث التاريخ: وهو مظهر تلك الحياة المدنية الأولية التي هيَّأها الإسلام للعرب لأول مرة، فجعل من الأشتات وحدة ظاهرها الجماعة والألفة، وباطنها العداوة والفرقة؛ فهو مهاجاة بين الأفراد، ومساجلة بين الأحزاب، ومفاخرة بين القبائل، ومدح للزعماء والخلفاء. وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضي اللفظ الجزل والأسلوب الرصين والعروض الطويل والصور البدوية، وتعتمد في الهجاء على مثالب الآباء من جبن وبخل وقلة وذلة، وفي المدح والفخر على ذكر أيامهم الدامية الماضية وما ظفر فيها أسلافهم من السب والسلب. فالهجاء في هذا العهد بأنواعه الخاصة والعامة يكاد مظهره العراق، لتَكالب القبائل المتعادية عليه، وظهور المذاهب المتباينة فيه، وغلبة البداوة والأنفة والبط على أهله؛ فشعراؤه يبتدئون به ويفتنون فيه ويعيشون عليه، وهو ينتحل الأسباب المختلفة، ويرتدي الأثواب المتعددة، فيكون شخصياً وقَبَليًا ووطنيًا ودينيًا وسياسياً، ولكنه في الواقع إنما يصدر عن باعث واحد هو العصبية الموروثة والأحقاد القديمة.

وقد ينبت المرعى دِمِنَ الثرى   وتبقى حزازات النفوس كما هيا

الأخطل:

فقائل هذا البيت غياث بن غوث الأخطل صوت الجزيرة ولسان التغلبِيَّة، وأديب النصرانية وشاعر الأموية، كان أول ما غرزم به الشعر الهجاء. هجا امرأة أبيه وهو صغير، وهجا كعب بن جعيل شاعر تغلب فأهمله وهو يافع، وعَلق به لقب الأخطل منذ شبَّ لسفاهته، ثم مضى يقرض الشعر فيما يشجر من الخصومة بينه وبين الناس، أو بين قبيلته وبين القبائل، حتى كان بين يزيد بن معاوية وهو وَليّ العهد وبين عبد الرحمٰن بن حسان الأنصاري تَقاوُل وجدل، فطلب من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار، فتحرج أن يذمّ قوماً آووا رسول اللّه ونصروه، وقال له: أدلك على الشاعر الفاجر الماهر (يريد الأخطل) فهجا

الأخطل الأنصار بالفلاحة واللؤم والخمر، وفضل عليهم قريشاً في قصيدته الرائية، وكاد يُشفى من ذلك على الخطر لو لا عون يريد. وبالغ الأمويون في إيثاره وإكرامه، وأمعن هو في النفح عليهم، فناضل الزبيريين بعد الأنصار، ووقف للقبائل القيسية فهتك عنها حجاب الشرف قبيلة بقصيدته التي مطلعها:

ألا يا أسلمي يا هندُ هندَ بني بكر وإن كان حَيَّانا عِدى آخر الدهر

لمناصبتها الأمويين العداء من جهة، ولاقتحامها الجزيرة على قومه من جهة أخرى. ثم ختم حياته بممالأة الفرزدق ومهاجاة جرير. والأخطل وإن كان شديد التمسك بنصرانيته على وثيق صلاته بالخلفاء، لم يشذ عن طبيعة العرب في التدين؛ فقد قال الأب لامنس اليسوعي في فصل كتبه عنه: «إن أثر النصرانية في دين الأخطل ضئيل، ونصرانيته سطحية ككل العقائد الدينية عند البدو»، فهو يُدمن الخمر في حمى الدين، ويكثر الهجاء في حمى الخليفة، ويهاجم القبائل في حمى تَغلب؛ ولكن هجاءه كان عفيف اللفظ لا يركب فيه متن الشطط ولا يتجاوز به حدود الخلق.

الفرزدق:

وأبو فراس همام بن غالب الفرزدق الدارمي ثم التميمي نشأ كذلك بالبصرة على قول الهجاء مع شرف أسرته وغنى قبيلته وعزة نفسه؛ فكان يهجو بني قومه لحدة طبعه وشراسة خُلقه، فيشكونه إلى أبيه فيضربه. ثم لج في هجاء الناس حتى استعْدَوا عليه زياداً والي العرَاق لمعاوية، فطلبه ففرَّ منه في مدن العراق وقبائله ثم لجأ إلى المدنية أخيراً واستجار بواليها سعيد بن العاص من زياد فأجاره. فلما مات زياد عاد الشاعر إلى وطنه فشارك فيما وقع فيه من حروب وفتن بعد موت معاوية ويزيد، حتى مُنِيَ بمهاجاة جرير فشغلت فكره وملأت عمره وصقلت شعره. وظلت هذه المهاجاه أربعين سنة ونيفاً كان منها للناس مشغلة. وللسواس مهزلة. وللأدب العربي ثروة ضخمة من الشعر لا تخلو على سفاهتها وبذاءتها من جمال وحكمة.

جرير:

وكان جرير بن عطية الخطفَى التميمي قد قال الشعر كصاحبيه في الحداثة الباكرة، وقاله مثلهما في الهجاء، ولكنه بدأ بالرجز على نحو ما يكون من الرعاة وهو منهم. وكان خمول عشيرته وضعة أسرته وفقر أبيه وحدة خلقه من العوامل التي ساعدت الطبع على نبوغه في الشعر وتفوقه في الهجاء وكان أول من نازله وأفحمه غسان السّليطي حين هجا قومه، فاستغاث السليطي بالبعيث فأغاثه وهجا جريراً، فنقض جرير قوله بالهجاء اللاذع، فناضل عنه الفرزدق لموجدة في نفسه على جرير وتهاجى الشاعران التميميان من أجل ذلك. وفضّل

الأخطل والفرزدق على جرير إما لدفاعه عن قيس، وإما لرشوة محمد بن عمير إياه، فهجاه جرير. ثم نبحه الهجاء من كل مكان حتى نصب له من الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فإنهما ثبتا له ونازعاه العلبة وأنشعب الناس في أمر جرير والفرزدق شعبتين تناصر كل منهما أحد الشاعرين. وكان بين الفرزدقيين والجريريين ما بين العلويين والأمويين؛ يطلب كل منهم الغلبة لصاحبه بالدعاية والنكاية والرغبة والرهبة والحلف، يقوم الأولون بالمربد والآخرون بمقبرة بني حصن، وقد وقف الشاعران كل بين أتباعه وأشياعه ينشدهم شعره وهم يكتبونه، والرواة ينشرونه؛ والأدباء والأمراء يتناولون ما يروى بالموازنة والنقد والحكم، والأنصارُ يحاولون رشوة الشعراء واستمالة العلماء ليحكموا لصاحبهم على خصمه؛ فقد روى صاحب الأغاني أن أحدهم تبرع بأربعة آلاف درهم وبفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير. وليس أدل على اهتمام الناس بأمرهما واختلافهم في الحكم على شعرهما من أن يتهادن الجيشان المتقاتلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأدباء بين رجلين من رجال المهلب تنازعاً في أمر جرير والفرزدق. فقد ذكر ابن سلّام أن رجلين تنازعا في عسكر المهلب في جرير والفرزدق وهو بإزاء الخوارج، فصارا إليه فقال لا أقول فيهما شيئاً، وكره أن يعرض نفسه لشرهما، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما: عبيد بن هلال، وهو يومئذ في عسكر قَطَرى بن الفجاءة، فأتيا فوقفا حيال المعسكر فدعواه فخرج يجر رمحه، وظن أنه دُعِيَ إلى المبارزة، فقالا له: آلفرزدق أشعر أم جرير؟ فقال: عليكما وعليهما لعنة الله! فقالا: نحب أن تخبرنا ثم نصير إلى ما تريد. فقال من يقول:

وطوى القيادُ مع الطراد بطونها طي التِّجار بحضرموت برُودا

قالا: جرير. قال: هو أشعرهما.

وهناك طائفة أخرى من شعراء العراق كعبيد الراعي وأبي النجم العِجلي والراجز اتخذوا من الشعر ظُفُراً وناباً مزقوا بهما الأعراض وأشاعوا هُجر القول في الناس، ولكن أحدهم لم يبلغ من سطوة الشعر ونباهة الذكر ما بلغ جرير والفرزدق والأخطل، لأنهم كما قال أبو عبيدة: «أُعطوا حظاً من الشعر لم يعطَه أحد في الإسلام: مدحوا قوماً فرفعوهم، وذموا قوماً فوضعوهم، وهجاهم قوم فردوا عليهم فأنهضوهم، وهجاهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم فأسقطوهم».

مذهب الأخطل والفرزدق وجرير في الهجاء:

مذهبهم في الهجاء هو المذهب المتبع والطراز الغالب. على أنهم يتفاوتون فيه تفاوتهم في الطبقة والبيئة والطبع.

فالأخطل سيد في قومه، كريم في نسبه، نبيل في نفسه، يعاقر الخمر ويجالس الملوك ويحترم الدين ويحتمل في سبيله ضرب الأسقف وأذى السجن وإن كان لا يتعبد ولا يتزهد. ومن أجل ذلك كانت لغته في الهجاء كما ذكرنا من قبل لغة الخاصة، لا يسف إلى القبيح ولا يستعين بالمخازي، وإنما يهاجم القِرن في صفات الرجولة فينفي عنه الكرم والبأس والمجد والصدق كقول في تيم:

وكنت إذا لقيت عبيد تيمٍ ... وتيما قلت أيهما العبيد!
لئيم العالمين يسود تيماً ... وسيدهم وإن كرهوا مسود

وكقوله في كليب بن يربوع:

بئس الصحاب وبئس الشَّرب شربهم ... إذا جرى فيهم المزَّاء والسَّكر
قوم تناهت إليهم كل مخزية ... وكل فاحشة سُبَّت بها مضر
الآكلون خبيث الزاد وحدهُم ... والسائلون بظهر الغيب ما الخبر
وأقسم المجد حقاً لا يحالفهم ... حتى يحالف بطنَ الراحة الشعَر

ولعل أفحش هجائه قوله في قوم جرير:

قوم إذا استنبح الضيفانُ كلبهم ... قالوا لأمهمُ بُولي على النار
فتمنع البول شحاً أن تجود به ... ولا تجود به إلا بمقدار
والخبز كالعنبر الهندي عندهُم ... والقمح خمسون أردباً بدينار

فترى أنه حتى في إقذاعه وإيجاعه لا يتدلى إلى ذكر المثالب الخاصة والمعايب الفردية، وإنما يهاجم قبيلة الخصم كلها فيقايس بينها وبين قبيلته في السمو إلى المعالي والسبق إلى الغايات، وفي ذلك يحد بلاغه ومدده، فلا يضطر اضطرار جرير إلى ذكر الصغائر التماساً للغلبة الدنيئة من أقرب طريق. انظر إلى قوله لجرير:

يا ابن المراغة إن عَميَّ اللذا ... قتلا الملوك وفككا الأغلالا
وأخوهم السفاح ظمأ خيله ... حتى وردن جبيَّ الكلاب نهالا
فانعقْ بضأنك يا جرير فإنما ... منتك نفسك في الخلاء ضلالا
منتك نفسك أن تكون كدارم ... أو أن توازي حاجباً وعقالا

وإلى قوله له:

ولقد شددتَ على المراغة سرجها ... حتى نزعت وأنت غير مجيد
وعصرت نطفتها لتدرك دارماً ... هيهات من أمل عليك بعيد
وإذا تعاظمت الأمور لدارم ... طأطأت رأسك عن قبائل صِيد
وإذا عددت بيوت قومك لم تجد ... بيتاً كبيت عطارد ولبيد

فإذا نظرت إلى ذلك وجدت أن هجاءه أقرب ما يكون إلى المنافرة والفخر. ومن الواضح أن هذا الهجاء العفيف المترفع وإن أمضَّ لا يجري مع هجاء جرير في ميدان، ولا يستوي وإياه عند العامة في ميزان، فكيف إذا اجتمع إلى ذلك خمدو الشيخوخة في الأخطل وحدة الشبيبة في جرير؟ إن جريراً نفسه قد علل وناءَ خصمه عنه في آخر الشوط بكبر سنه، فقد قال: «أدركته وله ناب واحد، ولو أدركته وله نابان لأكلني». وقال في قصيدته النونية التي هجا بها الأخطل على أثر تفضيله الفرزدق عليه:

جاريت مُطّلع الرهان بنا بِهِ ... رَوْقُ شبيبته وعمرك فان

وإذا استثنينا هجاء الأخطل لجرير وجدنا أشهر أهاجيه إنما قالها في أغراض قومية أو سياسية. ومن تلك الأهاجي المأثورة قصيدتان تلخصان مذهبة وتصوران فنه: الأولى في هجاء القبائل القيسية ومطلعها:

ألا يا أسلمي يا هند هندَ بني بكر ... وإن كان حيَّانا عِدى آخر الدهر

والأخرى في مدح عبد الملك بن مروان وذم خصومه ومطلعها:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا ... وأزعجتهم نوى في صرفها غِيَرُ

ومنها:

بني أمية إني ناصح لكُم ... فلا يبيتَنّ منكم آمناً زُفر
فإن مشهده كفر وغائلة ... وما يُغَيَّب من أخلاقه وعَر
إن العداوة تلقاها وإن كنت ... كالعُر يكمن حيناً ثم ينتشر
بني أمية قد ناضلت دونكم ... أبناء قوم همُ آووا وهم نصروا
وقيسَ عيلان حتى أقبلوا رقُصاً ... فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا
ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم ... وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

والأخطل لنصرانيته لم يستطع أن يتخذ من الإسلام سبباً للفخر ولا مادة للهجاء، فاكتفى بذكر مناقب آبائه ومثالب أعدائه. على أنه يستغل أحياناً بعض ما أنكر الإسلام فيهجو به وإن كان هو يستبيحه؛ كقوله في الأنصار يرميهم بشرب الخمر:

قوم إذا هدر العصير رأيتهم ... حمراً عيونهُم من المسطار

وكقوله في كليب بن يربوع:

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم ... إذا جرت فيهُم المزّاء والسَّكَرَ

* * *

أما الفرزدق فهو كالأخطل في الذؤابة من قومه، إلا أنه كان صريح العداوة فلا يواري، فاحش الدعاية فلا يحتشم، شديد الدعارة فلا يتعفف، حاد البادرة فلا يتلطف؛ فهو في

هجائه يذكر العورات، ويعلن المخزيات، بألفاظها العارية وأسمائها الصريحة حتى ليستحي الشاب أن ينشدها، بَلْهَ الفتاة الخفِرة. وما أظن البداوة وضيق الخلق وسلاطة اللسان وفجور النفس هي كل الأسباب التي أوجدت هذا الهجاء السوقي الوقح، فإن الحطيئة ومن سبقه على اتصافهم بهذه الأوصاف لم يسِفوا هذا الإسفاف، فلا بد أن يكون لحياة العراق في ذلك العهد أثر قوي في ذلك. فالخلق العربي القوي قد وهت أواصره باتصال البدو بالحضر واختلاط العرب بالعجم؛ والوازع الديني قد ضعف بتغلب الأحزاب وضعف العصبية؛ والسلطان السياسي يغمض جفنيه، ويضحك مِلء شدقيه، من هذه المهازل التي يمثلها الشعراء والقبائل بالبصرة، أقول القبائل لأن القبيلة كانت من وراء شاعرها تحتال لانتصاره بالمال والقتال والرعاية، وربما يأتي كل رجل منهم بالبيتين والثلاثة فيرفد بها الشاعر كما فعلت تيم في مهاجاة شاعرها عمر بن لجأ لجرير. وكان أفحش الهجاء هجاء الفرزدق في جرير، فهو يرمي قومه بضعة النسب، وضعف الحيلة، واتخاذ الغنم، ورعي الإبل، وإتيان الأتن، ويفتنُّ في هذه المعاني افتناناً عجيباً: يرددها في كل قصيدة على صور مختلفة وأساليب شتى، ولا يتحرج أحياناً من افتعال الحوادث المضحكة إمعاناً في السخر من المهجو والنيل منه. وهذا غاية ما وصل إليه الهجاءون وأهل التنادر في عصور الترف والخلاعة. وأدهى من ذلك أن يقذف خصمه بنوع من السباب الدنيء الذي لا يعتقده هو ولا يصدقه الناس، إنما يعمد إليه مبالغة في التحقير والتشهير على نحو ما يعمل الرعاع في الطبقات الوضيعة، وذلك ما لم نعهده في الهجاء من قبل. إذ كان الشاعر يرى جهة المحاسن في المرء فيمدح، أو جهة المساوىء فيه فيذم، وهو في كلتا الحالين صادق.

وقد يتدلى الفرزدق في الهجاء إلى الدرك الذي لا تسيغه رجولة، فينقص رثاء جرير لامرأته بهجائها المقذع، دون أن يرعى للميت حرمة ولا للمرأة كرامة، كقوله:

كانت منافقة الحياة وموتها ... خزي علانية عليك وعار
فلئن بكيت على الأتان لقد بكى ... جزعاً غداة فراقها الأعيار
تبكي على امرأةٍ وعندك مثلها ... قعساءُ ليس لها عليك خِمار
وليكفينك فقدَ زوجتك التي ... هلكت موقعةُ الظهور قصار
إن الزيارة في الحياة ولا أرى ... ميتاً إذا دخل القبور يُزار

ورأيُ الفرزدق في المرأة يدل على جفاء طبع وسوء أنفة، وربما دل أيضاً على منزلتها في المجتمع العربي في ذلك العهد، ولا نستنبط ذلك من قوله في زوجة جرير فقد يكون للخصومة بعض الأثر في سوئه، وإنما نستنبطه من قوله في زوجته هو حين ماتت:

يقولون زُر حدراء والترب دونها ... وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولست وإن عزت عليَّ بزائر ... تراباً على مرموسه قد تضعضعا

وأهــون مفقــود إذا المــوت نــالــه ... على المرء في أصحابـه من تقنعـا
يقــول ابن خنـزيــر بكيْتَ ولـم تكن ... على امــرأة عيني إخـال لتــدمعـا
وأهــون رزء لامــرىء غيــر عــاجــز ... رزيــة مـرتــج الــروادف أفــرعــا

على أن طبيعة المهاجاة مع جرير، وشهوة الغلبة عند العامة، ونفاد المعاني في الهجاء على طول المدة، وبلادة الحس وهـوان النفس باعتياد الذم، قد دعت الفـرزدق كما دعت جريراً إلى التدرج في الإقذاع والبذاء، حتى خرج شعرهما في النقائض على قوته وجودتـه عن الحد المألوف بين السفلة. ولكن الفرزدق مع تبذله كان يصيخ أحياناً إلى وازع الدين لتشيعـه فيتوب عن قـرض الشعر، ويكف عن هجـاء الناس، ويقيـد نفسـه ليحفظ القـرآن ويقول:

ألـم تــرني عــاهــدت ربي وأنني ... لَـبَـيْـنَ رتــاج قــائـمــاً ومــقــام
على قسم لا أشتم الـدهـر مسلمـاً ... ولا خــارجــا من فيَّ ســوء كــلام

أو يستجيب إلى داعي الشرف لحسبه فيصدر في الهجاءِ عن طبع أبيّ ونفس كريمة، فتسمو معانيه وتعف ألفاظه، كقوله في معاوية وقد حبس عنده مالاً لأحد أعمامه بعد وفاته:

أبــوك وعمي يــا مـعــاويَ أورثــا ... تــراثــاً فيحتــاز التــراثَ أقــاربــه
فمـال بال ميـراث الحُتـاتِ أخـذتـه ... وميـراث حـرب جـامـد لــك ذائبـه
فلو كـان هـذا الأمـر في جـاهليـة ... علمتَ منَ المـرء القليـل حــلائبـه

إلى أن يقول:

ومــا ولــدت بــعــد النبي وأهـلـه ... كمثلي حصـانٌ في الرجـال يقاربـه
وكم من أب لي يـا معاويَ لم يـزل ... أغـر بباري الـريـح مـا ازورَّ جـانبـه
نَمَتْــهُ فــروع المــالكين ولم يكـن ... أبوك الذي من عبـد شمس يخاطبـه

***

أما الطامة الكبرى فهي جرير، لأنـه كان مـرسَل العنـان مطلق اللسـان لا يعوقـه قيد ولا تكبحـه شكيمة. فـلا هو صـاحب سياسـة كالأخـطل، ولا صـاحب نِحْلة كـالفـرزدق، ولا وارث مجَادة كالاثنين، وإنما كان سوقيًا تَرْعِيةً رزقه الله حدة الذهن ورقة الأسلوب وخبث اللسانِ، وزاده الهراش صلابة عود، وغزارة فكر، ومتانة شعر، وسهولة قافية، فبلغ بالهجاء الفردي والقبلي غايته في الإقذاع والإقناع والقوة. وربما كان أول من أكره الشعر على قبول الأساليب العامية المبتذلة في الهجاء كذكر العورات وهتك المحارم، فاضطر خصومه إلى أن يكلموه باصطلاحه، ويقاتلوه بسلاحه، وأصبح بعده الهجاء في العراق لا يفعل في النفوس إلا مشوبًا بهذا القدر. وما مهاجاة بشار وحماد إلا صورة من هجاء جرير والفرزدق.

كان جرير لعاميته وبيئته، ولـلأسباب التي ذكـرناهـا من قبل في معـرض الكلام عن الفرزدق، يصطنع في الهجاء أساليب الدهماء، فيعير الأخـطل بالقـاف والخنزيـر والسُّكر؛

ويقذف البعيث في أمه وهي أمةٌ سجستانية؛ ويهاجم الفرزدق في جدته فيتهمها بجبير القيْن، وفي أخته جعثن فيرميها بابتذال بني منقر إياها على إثر حادثته مع ظمياء بنت طلبة حفيدة قيس بن عاصم، ويشهر بقومه في إخفار عمرو بن جرموز لذمتهم في قتل الزبير، ثم يتسفط عيوبه الصغيرة وهفواته الدنيا فيجسمها بالمبالغة والتزيُّد، كضربته النابية للرومي، وزيجته القالية من نوار.

وكان الفرزدق يذهب في هجائه مذهب الفخر بآبائه، فيعدد أيامهم الظافرة، ويجدد مفاخرهم الغابرة، فلا يستطيع جرير مجاراته في هذا المضمار، فيعمد إلى نقض الفخر الصلِف بالسخرية اللاذعة والفحش الموجع. وإذا أخذ جرير هذا المأخذ لا يقام له. اقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التي مطلعها:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتًا دعائمه أعز وأطول

تجدِه يقول بعد هذا البيت:

بيتا زُرارة محتبٍ بفنائه ... ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
لا يحتبي بفناء بيتِك مثلهم ... أبداً إذا عُد الفَعال الأفضل

فيجيبه جرير في نقيضته لها:

أخزي الذي سمك السماء مجاشعًا ... وبنى بناءك في الحضيض الأسفل
بيتا يحمم قيْنكم بفنائهِ ... دنسا مقاعدُه خبيث المدخل
قُتل الزبير وأنت عاقدُ حبوةٍ ... تبّاً لحبوتك التي لم تحلل
وافاك غدركَ بالزبير على منًى ... ومَجَرُّ جعثِنكم بذات الحرمل
بات الفرزدق يستجير لنفسه ... وعِجان جعثن كالطريق المُعمِل

ويقول الفرزدق:

حلل الملوك لباسُنا في أهلنا ... والسابغاتِ إلى الوغى نتسرْبل

فيجيبه جرير:

لا تذكروا حلل الملوك فإنكم ... بعد الزبير كحائض لم تغْسِل

ويقول الفرزدق:

أحلامنا تزن الجبال رزانة ... وتخالنا جنا إذا ما نجهل
فادفع بكفك إن إردت بناءَنا ... ثهلانُ ذو الهضبات هل يتحلحل؟
خالي الذي غصب الملوك نفوسهم ... وإليه كان حِباءَ جفنةً ينقل
إنا لنضرب رأس كل قبيلة ... وأبوك خلف أتانه يتقمل

فيجيبه جرير:

كـان الفـرزدق إذ يعـوذ بخـالـه مثـل الـذليـل يعـوذ تحت القـرمـل
وافخـر بضبـة إن أمـك منهـمُ ليس ابن ضبـة بـالمعم المخـول
أبـلغ بـني وقبـان أن حـلومـهـم خفتْ فـلا يـزنـون حبـة خـردل
أذري بـحلمـهمُ الـفيـاش فـأنـتمُ مثـل الفَراش عشين نـار المصطلي

ويقول الفرزدق:

وهب القصـائدَ لي النـوابـغُ إذ مضـوا وأبـو يـزيـد وذو الـقـروح وجـرول

ثم يمضي يعدد الشعراء الفحول ويقول:

دفعـوا إليَّ كـتـابهـن وصيـة فـورثـتهـن كـأنهـنَّ الجنـدل

فيجيبه جرير:

أعـددت للشعـراء سمـا نـاقعـاً فسقيت آخـرهـم بكـأس الأول
لمـا وضعت على الفـرزدق ميسمي وصغي البَعيث جدعت أنف الأخطل
حسب الفـرزدق أن يسب مجاشـع ويـعـد شعـر مـرقش ومـهلهـل

فأنت تلاحظ أن جريراً يرغب في الطريق السهل، ويطفىءُ حرارة الجد ببرودة الهزل، ويقابل الكميّ الهاجم في سلاحه ولأمته، وهو في ثوب المهرج وبزِّته وضحكته.

ولجرير قدرة بارعة على تتبع الخصم في حياتيه الخاصة والعـامة، فيتسقط أخبـاره، ويتلقط حوادثه. ثم يعلنها في شعره تشهيراً به وفضيحة له:

يتزوج الفرزدق من حدراء بنت زيق بن بسطام على حكم أبيها؛ فيقول جرير:

يا زيق قـد كنت من شيبـان في حسب يـا زيـق ويحـك مـن أنكـحـت يا زيـق
أنـكحـت ويلك قَيـنـا فـي استـه حـمـم يا زيق ويحـك هـل بـارت بـك السوق
يـا رُب قـائلة بـعـد الـبـنـاء بـهـا: لا الصهـر راض ولا ابن القين معشـوق

فيقبل أهلها عليه ويقولون له ماتت، كراهة أن يهتك أعراضهم جرير، فيأبى جرير إلا أن يعلن الحقيقة في قوله:

وأقسم مـا مـاتت ولكـنـمـا الـتـوى بـحـدراء قـوم لـم يـروك لـهـا أهـلاً

ويعبث الفرزدق في المدينة عبث الشباب ويعترف بذلك في قوله:

هـمـا دلتـانـي مـن ثـمـانـين قـامـةً كمـا أنقض بـاز أقتم الـريش كـاسـرهُ

فيقول له جرير:

تـدليت تـزني من ثمـانين قـامـة وقصـرت من بـاع العـلا والمكـارم

ويضرب الروميّ في حضرة سليمان بن عبد الملك فينبو عنه سيفه فيقول له جرير:

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ومثل هذه الأخبار لطرافتها وجدَّتها تعلق بالنفوس وتسير على الألسنة، كصحف الأحزاب تجعل من حياة خصومها اليومية مادة لجدالها، وموضوعاً لنقدها ونضالها. وجرير لطول ما تمرس بالهجاء وغامر في الخصومة لاذع السخرية، فاحش الدعابة، مر التهكم، ومن ذلك كان يتضور الفرزدق ويمتقع لونه كلما وردت المربد قصيدة لجرير. وأي تهكم أمضّ وآلم من مثل قوله:

يا تَيْمُ إن بيوتكم تيمية قُعس العماد قصيرة الأطناب

قوم إذا حضر الملوكَ وفودُهم نُتِفت شواربهم على الأبواب

وقوله:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع!

وقوله:

والتغلبي إذا تنحنح للقِرى حك استه وتمثل الأمثالا

وقوله:

فَخلِّ الفخر يا ابن أبي خليد وأدِّ خراج رأسك كل عام

لقد علقت يمينك رأس ثور وما علقت يمينك باللجام

وكأن الهجاء كان في جرير غريزة يرمي الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير معرفة، فقد دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع العاملي، فقال له الخليفة: أتعرف هذا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فقال: هذا رجل من عاملة. قال جرير: التي يقول فيها الله: ﴿عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية﴾[1]، ثم قال بيتاً قبيحاً ورد عليه عديٌّ بمثله فهجاه جرير بقصيدة منها ذلك البيت المشهور:

وابن اللبون إذا ما لُزَّ في قَرَن لم يستطع صولةَ البُزْل القناعيس

ولعل ذلك راجع إلى ميل في طبع أمه إلى هذا الضرب من البذاء والإيذاء فاشتهت أن تراه فيه، حتى صُورت لها تلك الأمنية في الحلم، فرأت وهي حامل به أن حبلاً نزل منها فصار يثب على الناس فيخنقهم واحداً بعد واحد. فلما تأولت رؤياها قيل لها إنك تلدين ولداً يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس والشعراء، فسمته لذلك جريراً. وسواءاً أرأت أمه هذه الرؤيا أم افترتها، فقد كان لها ولا ريب أثر قوي في توجيه قريحته منذ طفولته.

---

(١) سورة: الغاشية، الآية: ٣ ـ ٤.

وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعد مستقاه فيه، وما استطاع الفرزدق أن يعجزه إلا في مشواره، فهو يقول له بحق:

غلبتك بالمفقّأ والمعنَى وبيت المحتبى والخافقات

يريد بالمفقأ أو المفقّىء قوله:

ولست ولو فقأت عينك واجداً أبَا لك إن عد المساعي كدارم

وبالمعنى قوله:

وإنك إن تسعى لتدرك دارماً لأنت المعنَى يا جرير المكلف

وبالمحتبى قوله:

بيتاً زرارة محتب بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وبالخافقات قوله:

وأين تُقضَّى المالكات أمورها بحق وأين الخافقات اللوامع

والفرزدق يريد بهذه الأبيات الإشارة إلى القصائد التي تضمنتها وهي من عيون شعره ومتين فخره.

وضعف جرير في الفخر إنما يرجع إلى الموضوع لا إلى الأسلوب، فإنه أجمل خصومه صياغة، وأوفرهم بلاغة، وأرقهم لفظاً، وألطفهم مدخلاً، وأكثرهم افتتانًا. ولسهولة شعره وقلة غريبه نفق عند العامة والشعراء، دون الرواة والعلماء.

وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعاني الجديدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع، لم يخرج عن سمت الهجائين الفحول كالمخبل الفريعي، وحسان بن ثابت، والحطيئة، في الابتداء بوصف الطلل والغزل، والاعتماد على المفاخرة والمنافرة، وتلمس العيوب من خبايا الماضي، والانتقال المقتضب من معنى إلى معنى. وأشد ما يعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار، فإن كلا الرجلين إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل، فلا تراه يعدل عنها، ولا يكاد يزيد عليها، وإنما يرددها في كل قصيدة أو نقيضة في أساليب شتى وقواف مختلفة. فإذا قرأنا لكل واحد منهما واحدة منهن لا يضيرنا بعدنا ألا نقرأ غيرها. كذلك إذا ألممنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير فقد ألممنا بسائر الهجاء في هذا الطور، لأنه مصوغ من مادته ومضروب على مثاله.

على أن أساليب شعراء العراق في الهجاء الحزبي تختلف عنها في الهجاء الفردي، فبينما هم في هذا لا يترفعون عن الهجو ولا يتورعون عن الكذب تراهم في ذلك يذهبون مذهب الجاهليين، فيفاخرون بالنسب، ويتكاثرون بالعدد والمال، ويؤثرون اللفظ الشريف

والأسلوب العف، بيد أنهم يغلون في الفخر حتى ليجعلونه في الدين والحكم والعلم والموطن.

قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث:

اكسع البصري إن لاقيته ... إنما يُكسع من قل وذل
واجعل الكوفي في الخيل ولا ... تجعل البصري إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا ... ما فعلنا بكُم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عُثنونه ... وفتى أبيض وضاح رِفْل
جاءنا يخطر في سابغة ... فذبحناه ضحًى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا ... وكفرتم نعمة الله الأجل

ومن هجائه السياسي الديني قوله مرتجزاً في الحجاج:

شطتْ نوى مَن داره بالإيوان ... إيوان كسرى ذي القِرَى والريحان
إن ثقيفاً منهُم الكذابان ... كذابها الماضي وكذابٌ ثان
أمكن ربي من ثقيف همدان ... إنا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الإيمان ... بالسيد الغِطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبي من قحطان ... فقل لحجاج وليِّ الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان ... فإنهم ساقوه كأس الذيفان
وملحقوه بقرى ابن مروان

وهذا النوع من الهجاء قليل النفوق والبقاء، كثير النفاق والرياء، لطمع الشعراء في حباء الخلفاء وإيثارهم في الغالب سلامة البدن على سلامة العقيدة. وليس الهجاء الحزبي إلا صورة من صور الشعر السياسي الذي نفق في هذا العصر. وما نزعم بهذه التسمية أن الإسلاميين قد وقعوا على مذهب في الشعر جديد القصد والغاية، فإن مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوفة في عصر الجهالة مشروعة في عهد النبوة؛ إنما نقصد بالشعر السياسي طائفة من المعاني الجديدة استوحتها خواطر الشعراء من اختلاف الأحزاب في الرأي، وتنازع الزعماء على الحكم. جاءت هذه المعاني الجديدة على النهج القديم في صور مختلفة، نستطيع أن نردها إلى أربع:

١ ـ في صورة المدح المشوب بالتحريض والتعويض كقول أبي العباس الأعمى:

أبني أمية لا أرى لكُم ... شبهاً إذا ما التفَّت الشيعُ
سعة وأحلاما إذا نزعت ... أهل الحلوم فضرَّها النزع
أبني أمية غير أنكُم، ... والناس فيما أطمعوا طمعوا
أطمعتمو فيكم عدوكمو ... فسما بهم في ذاكم الطمع

فلو أنكم كنتم لقومكم ... مثل الذي كانوا لكم رجعوا
عما كرهتم أو لَرَدهم ... حذرُ العقوبة، إنها تزع

وكقول الكميت:

بني هاشم رهط النبي فإنني ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم مني جناحيّ مودة ... إلى كنف عِطفاه أهلٌ ومرحب
وأرمِي وأرمَى بالعداوة أهلها ... وإني لأوذَى فيهمُ وأؤنَّبُ

وكفة الأمويين في هذا الباب أرجح، لما تجمع لهم من الترغيب في المال، والترهيب بالملك، والتمليق لهوى النفوس، فمدحهم ونصرهم أكثر الشعراء في عصرهم، إما دفعاً لشرهم، وإما طمعاً في خيرهم، حتى الذين شايعوا خصومهم من الزبيريين والعلويين لم يستطيعوا حبس لعابهم عن عطايا القصر.

٢ ـ وفي صورة الهجاء كمامر، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك:

آل الزبير من الخلافة كالتي ... عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت ... ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهمُ ... كم للغواة أطلتُم إمهالها
إن الخلافة فيكمو لا فيهمُ ... ما زلتُم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلاً مغلقاً ... فانهض بيُمنك فافتتح أقفالها

٣ ـ وفي صورة اقتراح لسياسة واستطلاع لرأي، كقول مسكين الدرامي، وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأي قومه في ذلك:

إليك أمير المؤمنين رحلتها ... تثير القطا ليلاً وهن هجود
ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلاً فإنما ... يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربُّه ... فإن أمير المؤمنين يزيد

فلما أتم إنشاده قال له معاوية: ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله.

ومثل ذلك حدث من عبد الملك، فقد أراد أن ينقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد، فأمر النابغة الشيباني أن يقترح ذلك في حضرة الناس فقال:

لابنك أولى بملك والده ... رنجم من قد عصاك مُطَّرح
داوُد عَدل فاحكم بسيرته ... تم ابن حَرْب فإنهم نصحوا
وهم خيار فاعمل بسنتهمْ ... واحيَ بخير واكدح كما كدحوا

فابتسم عبد الملك ولم يتكلم، فعلم الناس أن ذلك أمره.

٤ ـ ثم في صور جدل في رأي أو بيان لمذهب؛ فمن الجدل السياسي ما وقع بين كعب بن جعيل والنجاشي في المفاضلة بين علي ومعاوية، فقد قال كعب:

أرى الشام تكره ملك العرا ... ق وأهل العراق لهم كارهينا
وكل لصاحبه مبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا عليٌّ إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لهم ... فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
وكلٌّ يسر بما عنده ... يرى غث ما في يديه سمينا
وما في عليّ بمستعتب ... ينال سوى ضمه المحدثينا
وليس براض ولا ساخط ... ولا في النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا هو سرّ ... ولا بد من بعد ذا أن يكونا

فلما بلغ ذلك الإمام عليًا أمر النجاشي أن يجيبه فقال:

دَعَنَّ معاوي ما لم يكونا ... لقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم عليٌّ بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا؟
يرون الطعان خلال العجاج ... وضرب الفوارس في النقع دينا
همو هزموا الجمع جمع الزبير ... وطلحة والمعشر الناكثينا
فإن يكره القوم ملك العراق ... فقِدْماً رضينا الذى تكرهونا
فقولوا لكعب أخي وائل ... ومن جعل الغث يوماً سمينا:
جعلتم علياً وأشياعه ... نظير ابن هند ألا تستحونا؟

ومن البيان المذهبي قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة في الإمامة:

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاةَ الحق أربعة سواء:
عليٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبطٌ سبط إيمان وبر ... وسبطٌ غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخليل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء

وكقول ثابت قطنة، وهو من شعراء الأمويين، يفصل مذهب الإرجاء:

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا ... أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجي الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهمٍ ... والمشركون استبوا في دينهم قددا
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً ... في الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا

إلى أن قال:

كـل الـخـوارج مـخطٍ فـي مـقـالـتـه	ولـو تـعـبـد فـيـمـا قـال واجـتـهـدا
أمـا عـلـيٌ وعـثـمـان فـإنـهـمـا	عـبـدان لم يـشـركـا بـالله مـذ عـبـدا
الله أعـلـم مـا قـد يـحـضـران بـه	وكـل عـبـد سـيـلقى الله مـنـفـردا

هذه جملة المعاريض التي عرضت بها المعاني السياسية. ولعلك تلاحظ من هذه الأمثلة أنها في الغالب مهلهلة النسج، نابية القافية، بادية التكلف، تشبه من بعض الوجوه نظم المتون في الشعر التعليمي. وعلة ذلك أن اتصالها بالوجدان ضعيف، وأن أكثرها إنما يصدر عن طبع مكده، أو شعور ممالق، أو قريحة كابية. والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وجرير، وبين شعر هؤلاء الذين ذكرنا كالفرق بين من يعبر عن شعوره وحسه، ويدافع عن قبيله ونفسه، وبين من يتصل لسانه بقلب غير قلبه، ويدفعه طمعه إلى ممالأة حزب غير حزبه.

على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية، وعواطف نفسية، ونوازع عصبية، فكان لشعرهم جمال الإخلاص وروعة اليقين وقوة الحقيقة، أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج. فحق علينا ونحن في مقام البحث في شعراء العراق أن نديم النظر ساعة في أشعارهم، لنستشف من خلالها صور مذاهبهم وأفكارهم.

شعر الشيعة:

ورث عليّ بن أبي طالب بحكم مولده ومَرْباه مناقب النبوة، ومواهب الرسالة، وبلاغة الوحي، وصراحة المؤمن، وبسالة المجاهد، فأجمع الناس على إجلاله وكادوا يطبقون على حبه. حتى من كتب عنه من الأوربيين قد شاركوا المسلمين في هذه العاطفة؛ فقد قال فيه الكاتب الإنجليزي كارليل: «أما ذلك الفتى علي فلا يسعك إلا أن تحبه. ركب الله في طبعه النبل منذ الحداثة، وتجلى في خلاله الكرم طوال عمره، ثم طبعه على العمل ونفاذ الهمة وصراحة البأس، وآتاه سر الفروسية وجرأة الليث، وكل أولئك في رقة قلب وصدق إيمان وكرم فعال تليق بالفروسية المسيحية». ثم سار عليّ في خصومته وخلافته وسياسته عَلَى ضوء هذه الأخلاق، فما قارف الأثرة، ولا حاول الفرقة، ولا راقب الفرصة، ولا أثار العصبية، ولا استخدام المال، وإنما أخلص النية للعمرين، ومحض النصيحة لعثمان، وأعذر بالحجة لمعاوية. ولكن دنيا الفتوح كانت قد أخذت عَلَى عهده تتجاهل دين البساطة والزهد. ولم تعد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بمال معاوية في الشام، وثراء الرافدين في العراق، فانتشر أمره وانصعدت خلافته ثم قتل مظلومًا في محرابه؛ فكان محياه ومماته تاريخًا داميًا للفصيلة المعذبة والنفس المطمئنة الشهيدة. ثم وَرَّث بنيه وأهليه ذلك

العزم الثائر وهذا المجد الثائر، فدب الموت للحسن سرًا في كأس مذعوفة، وقتل الحسين قِتْلَةَ لا يزال يرعد من هولها الدهر.

وتلاحقت الفواجع الأموية فصرع زيد وقتل يحيى، وافتَنَّت المنايا الرواصد في اختلاج بني عليّ، وهم يقابلون هول الغوائل الظاهرة والباطنة بالشجاعة والصبر والاحتساب، حتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من التنزيه والتقديس وتخللت محبتهم قلوب المسلمين، ولا سيما الشيعة، فإن ندمهم على خذلانهم إياهم، وألمهم لما رأوا من اضطهادهم وأذاهم، رفعا في نفوسهم ذلك الحب حتى أشرفا به على مقام العبادة. ثم ظهر ذلك الحب في صور من العقائد: فقالوا بالوصية، وجعلوا الإمامة من أصول الدين، وحصروها في عليّ وبنيه، وطعنوا في إمامة الشيخين. ولم يتهيأ لهم السلطان، ولم تسعفهم القدرة، فاعتمدوا على استمالة القلوب وترقيقها بالبكاء والندب، وتصوير الآلام، وإعلان الفضائل، فاصطبغ شعرهم بالحزن العميق، والرثاء النائح، والمدح المبتهل، والعصبية الحاقدة. على أن هذه الخصائص لم تكن واضحة في شعر أوائل الشيعة وضوحَها في شعر الأواخر منهم؛ فإنّ تغلغل الفكرة في أصل العقيدة، وتنكيل الحاكمين بآل البيت، واضطهاد الولاة للشيعة، إنما تدرجت قسوةً وقوة مع الزمن، فضلاً عن قلة شعراء الشيعة في هذا العصر لإفساد الأمويين الضمائر بالحديد والذهب، فشعرهم بدأ ولاء صادقًا، ومدحاً خالصاً، وهجاء مراً، ثم اشتد فصار مفاضلة جريئة، ومعارضة شديدة، ومناقشة فقهية، ودعاية حزبية. ولعل ذلك يتجلى لك فيما ذكرناه وفيما سنذكره من الأمثلة. فمن التعبير عن العاطفة القوية الساذجة قول أبي الأسود الدؤلي:

يقول الأرذلون بنو قشير	طوال الدهر لا تنسى عليا!
بنو عبد النبي وأقربوه	أَحَبُّ الناس كلهم إليَّا
أحبهم كحب الله حتى	أجيء إذا بُعثت على هَوَيا
فإن يك حبهم رشداً أُصِبْهُ	ولست بمخطىء إن كان غيّا

ومن المدح والمفاضلة قول أيمن بن خزيم الأسدي:

نهاركمُ مكابدة وصوم	وليلكمُ صلاةٌ واقتراء
أأجمعكم وأقواماً سواءَ	وبينكُمُ وبينهمُ الهواء؟
وهم أرض لأرجلكم وأنتم	لِأَرْؤسهم وأعينهمْ سماء

ومن الهجاء قول ابن مفرغ الحميري:

ألا أبلغ معاوية بن صخر	مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ	وترضى أن يقال أبوك زاني؟
فأشهد إن رحمك من زياد	كرحم الفيل من ولد الأتان

والنار لم ينجُ من لهيبها أحد ... إلا المنيبُ بقلب المخلص الشاري
أو الذي سبقت من قبل مولده ... له السعادة من خلاقها الباري

وقوله:

وأمسي شهيدًا ثاوياً في عصابة ... يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم ... تُقى الله نزالون عند الزواحف
إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى ... وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

وكقول قَطَري بن الفجاءة في يوم دولاب:

فلم أرَ يوماً كان أكثر مَقْصعاً ... يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريماً على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطناً ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

وقليلاً ما يجادل الخوارج بالشعر ويقارعون بالهجاء، لاعتمادهم في الجدل على الخطابة، وفي القراع على السيف. ومن هذا القليل قول بعضهم في الجدل وقد هزم أربعون منهم ألفين لابن زياد:

أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويقتلكم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة ينصرونا

وقول عمران بن حطان في هجاء الإمام:

لله در المرادي الذي سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربته ... مما جناه من الآثام عُريانا

وما حمله على ذلك إلا أنه من القَعَدة لضعفه عن الحرب لكِبر سنه فجاهد بلسانه.

نماذج من الشعر الأموي

قال قَطَريُّ بن الفجاءة:

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويْحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجلِ الذي لك لم تُطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيلُ الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيُطْوَى عن أخي الخنَع اليراع

الخلفاء وعقائد الناس، فخطّأوا بعضاً وكفّروا بعضاً. ثم ذهبوا إلى أن الخلافة تصح في غير قريش وفي غير العرب، وأن العمل جزء من الإيمان، فحرصوا كل الحرص على أداء الشعائر واجتناب الكبائر، ولاذوا بكور الجبال يدعون جهراً إلى مذهبهم دون مواربة ولا تقية ولا هوادة؛ فكانوا في الدين كما قال صاحبهم أبو حمزة الشاري: «أنضاء عبادة وأطلاح سهر. قد أكلت الأرض أطرافهم، واستقلوا ذلك في جنب الله. فإذا كان الجهاد ورعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهم قدُماً حتى اختلفت رجلاه في عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فإذا أنفذه الرمح جعل يسعى إلى قاتله ويقول: «وعجلت إليكَ ربِّ لترضى»».

وكانوا مع هذا الورع الشديد والخشية البالغة يقسون على مخالفيهم، فلا يرحمون ضعف المرأة، ولا براءة الطفل، ولا شيخوخة الهرم، ولا وشائج الرحم؛ لأنهم ـ كما ظنوا ـ باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة، فقطعوا أسباب الحياة، وأماتوا عواطف الدنيا، وقاتلوا وقتلوا في سبيل هذا المذهب وتلك الغاية، وهم لصراحة بداوتهم، وشدة عصبيتهم، وخلوص عقيدتهم. وما تقتضيه دعوتهم من إدمان الحجاج والمناظرة أساس الناس منطقًا، وأروعهم كلامًا، وأمتنهم شعراً. ولكن الشعر كان عندهم في المحل الثاني من الخطابة، لقيام أمرهم على الإقناع والجدل بآيات الله وأحاديث الرسول؛ وغناء الشعر في ذلك قليل. فإذا ما برز الخارجي للخصم، أو هجم على الموت، أو وقع في الأسر، جاشت نفسه بمتين الرجز، أو رصين القصيد، يضمنه وصفه للحرب، وولهه للقتال، وزهده في الحياة، واستخفافه بالموت، وشوقه إلى الشهادة، وظمأه إلى الجنة، في لفظ جزل وأسلوب قوي، وقلما يدور شعرهم على غير ذلك. فمن الرجز قول ابن أم حكيم:

أحمل رأساً قد سئمت حمله ... وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله!

ومن القصيد قول معاذ بن جوين يحرض قومه وهو أسير:

ألا أيها الشارون قد حان لامرىء ... شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة ... وكل امرىء منكم يصاد ليُقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنها ... أقامتكمُ للذبح رأيا مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي ... إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فيا ليتني فيكم على ظهر سابح ... شديد القُصيرى دارعاً غير أعزلا
فيا رُب جمع قد فللت، وغارة ... شهت، وقِرْنٍ قد تركت مجندلا

وقول الطرماح بن حكيم:

لقد شقيْتُ شقاءً لا انقطاع له ... إن لم أفز فوزة تنجي من النار

والنار لم ينجُ من لهيبها أحد ... إلا المنيبُ بقلب المخلص الشاري
أو الذي سبقت من قبل مولده ... له السعادة من خلاقها الباري

وقوله :

وأمسي شهيدًا ثاوياً في عصابة ... يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم ... تُقى الله نزالون عند الزواحف
إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى ... وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

وكقول قَطَري بن الفجاءة في يوم دولاب :

فلم أرَ يوما كان أكثر مَقْصعاً ... يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريماً على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصبب بدولاب ولم تك موطناً ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

وقليلاً ما يجادل الخوارج بالشعر ويقارعون بالهجاء، لاعتمادهم في الجدل على الخطابة، وفي القراع على السيف. ومن هذا القليل قول بعضهم في الجدل وقد هزم أربعون منهم ألفين لابن زياد :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويقتلكم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة ينصرونا

وقول عمران بن حطان في هجاء الإمام :

لله در المرادي الذي سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربته ... مما جناه من الآثام عُريانا

وما حمله على ذلك إلا أنه من القَعَدة لضعفه عن الحرب لكِبر سنه فجاهد بلسانه.

نماذج من الشعر الأموي

قال قَطَريُّ بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويْحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجلِ الذي لك لم تُطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيلُ الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيُطْوَى عن أخي الخنْع اليراع

سبيـل المـوت غـايـةُ كـل حي | فـداعـيـه لأهـل الأرض داع
ومن لا يُعتَبطْ يسأم ويهرمْ | وتُسلمْه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خيرٌ في حياة | إذا ما عدّ من سَقَط المتاع

وقال عبد الله بن قيس الرُّقيات في قريش:

حبذا العيش حين قومي جميعُ | لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل في ملـ | ـك قريش وتشمت الأعداء
أيها المشتهي فناء قريش | بيد الله عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قريش | لا يكن بعدهم لحي بقاء

وقال الحطيئة يمدح بغيض بن لأي:

تزور امرأ يؤتي على الحمد مالَه | ومن يُؤت أثمان المحامد يُحمَد
يرى البخل لا يُبقي على المرء ماله | ويعلم أن البخل غيرُ مخلّد
كسوب ومِتلاف إذا ما سألته | تهلل فاهتز اهتزاز المهند
متى تأته تعشو إلى ضوء ناره | تجد خير نار عندها خيرَ مُوقِد

وقالت الخنساءُ:

دلّ على معروفه وجهه | بُورِك هذا هادياً من دليل
تحسبهُ غضبان من عزه | ذلك منه خُلق ما يحول
وَيْلُمِّه مسْعَرَ حرب إذا | أُلقي فيها وعليه الشليل!

وقال الكُمَيت الأسدي يمدح مسلمة بن عبد الملك:

فما غاب عن حِلم ولا شهد الخنا | ولا استعذب العوراء يوماً فقالها
وتَفْضُل أيمانَ الرجال شمالُه | كما فَضَلتْ يمنى يديه شمالَها
وما أجِمَ المعروف من كرِّه | وأمراً بأفعال الندى وافتعالَها
ويبتدل النفس المصونة نفسه | إذا ما رأى حقاً ابتذالها
بلوناك في أهل الندى ففضلتهم | وباعك في الأبواع قِدماً فطالها
فأنت الندي فيما ينوبك والسُّدَى | إذا الخود عدَّتْ عُقْبَة القِدر مالها

وقالت ليلى الأخيلية ترثي توبة:

لعمرك بالموت عارٌ على الفتى | إذا لم تصبه في الحياة المعاير
وما أحد حَيٌّ وإن عاش سالماً | بأخلد ممن غيبته المقابر
فلا الحي مما أحدث الدهرُ مُعْتَبٌ | ولا الميْت إن لم يصبر الحيُّ ناشر
وكل جديد أو شباب إلى بِلىً | وكل امرىء يوماً إلى الموت صائر
وكل قرينيْ ألفة لِتفرق | شتاتاً وإن ضنا وطال التعاشر
فلا يُبْعِدَنْكَ الله يا توب هالكاً | أخا الحرب إن دارت عليك الدوائر

فآليت لا أنفك أبكيك ما دعت على فننٍ ورقاءُ أو طار طائر

وقال أبو ذؤيب الهُذَلي يرثي بنيه الخمسة وقد هاجروا إلى مصر فهلكوا في عام واحد:

أمِن المنون وريبها تتوجعِ والدهر ليس بمعْتِب من يجزع؟
قالتْ أمامة ما لجسمك شاحباً منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
فأجبتها إرثي لجسمي إنه أودي بَنيَّ من البلاد فودعوا
أودى بَنيَّ فأعقبوني حسرة عند الرقاد وعَبرة لا تقلع
فالعين بعدهُم كأن حِداقها كحلت بشوك فهي عَورا تدمع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب وإخال أني لا حق مستتبع
سبقوا هَوَيَّ وأعنقوا لهواهمُ فتُخُرِّموا ولكل جنب مصرع
ولد حرصت بأن أدافع عنهمُ وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع
وتجلدي للشامتين أريهمُ أني لريب الدهر لا أتضعضع
حتى كأني للحوادث مَرْوَةٌ بصفا المشرق كل يوم تقرع

وقال جرير يرثي ابنه:

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت أشبالي
فارقتني حين كف الدهر من بصري وحين صرت كعظم الرمة البالي

وقال مالك بن أسماء في الهجاء:

لو كنت أحمل خمراً يوم زرتكم لم ينكر الكلب أني صاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك يَفْغمني وعنبر الهند أذكيه على النار
فأنكر الكلب ريحي حين أبصرني وكان يعرف ريح الزق والقار

وقال آخر.

أقول حين أرى كعباً ولحيتَه لا بارك اللّه في بضع وستين
من السنين تولاها بلا حسب ولا حياء ولا قدر ولا دين

وقال عبد الرحمٰن بن الحكم:

لحا اللّه قيساً قيسَ عيلان إنها أضاعت ثغور المسلمين وَوَلت
فشاولْ بقيس في الطعان ولا تكن أخاها إذا ما المشرفيةُ سُلَّت

وقال الطرِمَّاح يهجو بني تميم:

تميم بطرْق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سُبل المكارم ضلَّت
ولو أن برغوثاً عَلَى ظهر نملة يكر على صفي تميم لولت

وقال حندج بن حندح المري يصف ليل صول:

في ليل صُول تناهى العرض والطول كأنما ليلُه بالليل موصول

لا فارقَ الصبحَ كفي إن ظفرت به ... وإن بدت غُرَّةٌ منه وتحجيل
لِساهر طال في صول تململهُ ... كأنه حية بالسوط مقتول
متى أرى الصبحَ قد لاحت مخايلهُ ... والليلَ قد مُزِّقت عنه السراويل
ليل تحير ما ينحط في جهة ... كأنه فوق متن الأرض مشكول
نجومه رُكَّدٌ ليست بزائلة ... كأنما هن في الجو القناديل
ما أقدَرَ اللّه أنْ يدني عَلَى شَحَطٍ ... مَن دارُه الحَزنُ مُمن داره صول!
اللّه يطوي بساط الأرض بينهُمَا ... حتى يُرى الرُّبعُ منه وهو مأهُول

وقالت الخنساء تصف سباقاً كان بين أبيها وأخيها:

جارى أباه فأقبلا وهُما ... يتعاوَرَان مُلاءَة الحضْر
حتى إذا نزَت القلوب وقد ... لزت هناك العذر بالعذر
وعلا هتاف الناس أيهما؟ ... قال المجيب هناك لا أدري
برزتْ صحيفة وجه والده ... ومضى عَلَى غُلوائه يجري
أولى فأولى أن يساويه ... لولا جلال السن والكبر
وهما وقدْ برزا كأنهما ... صقران قدْ حطَّ إلى وكر

وقال الفرزدق يصف ذئبًا صادفه أثناء سفره فأطعمه من زاده:

وأطلسَ عسال وما كان صاحباً ... دعوت لناري مَوهِناً فأتاني
فلما أتى قلت أدن دونك إنني ... وإياك في زادي لمشتركان
فبت أقُدُّ الزاد بيني وبينه ... على ضوء نار مرّة ودخان
وقلت له لما تكشر ضاحكاً ... وقائم سيفي من يدي بمكان
تعشَّ فإن عاهدتني لا تخونني ... نكن مثل من يا ذِئبُ يصطحبان
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما ... أخيَّين كانا أُرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القِرى ... رماك بسهم أو شَبَاة سنان

وقال بعض الحجازيين يصف حال امرأته عندما علمت بزواجه من غيرها:

خبروها بأنني قد تزوجـ ... ـت فظلت تكاتم الغيظَ سرًّا
ثم قالت لأختها ولأخرى ... جزعاً: ليته تزوج عشرا!
وأشارت إلى نساء لديها ... لا ترى دونهن للسر ستراً:
ما لقلبي كأنه ليس مني ... وعظامي كأن فيهن فَتراً؟
من حديث نما إليَّ فظيعٍ ... خِلْتُ في القلب من تلظيه حمراً

وقال عروة بن أذينة في الغزل:

إن التي زعمت فؤادك ملَّها ... خلقت هواك كما خُلقت هويً لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بِلبَاقةٍ فأدقها وأجلَّها

حجبت تحيتهـا فقلت لصـاحبي: مـا كـان أكثـرهـا لنـا وأقلَّهـا!
وإذا وجـدت لهـا وسـاوس سلوة شفـع الضميـرُ إلى الفؤاد فسلَّهـا

وقال جميل بن معمر:

وإني لأرضى من بُثَيْنَـةَ بـالـذي لـو أبصـره الـواشي لقرتْ بـلابله
بـلا، وبـألا أستـطيع، وبـالمنى، وبـالأمـل المرجـوّ قـد خـاب آمله
وبالنظرة العَجْلى، وبالحول تنقضي أواخـره لا نـلتـقـي وأوائـله

وقال أيضاً:

مـا زُلتمُ يـا بثن حتى لـو أنني من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
إذا خَدِرتْ رجلي وقيلِ شفـاؤهـا دعـاء حبيب كنت أنت دعـائيـا
ومـا زادني النـأيُ المفـرِّق بعـدكم سلوًا ولا طـولُ التـلاقي تقـاليـا
ولا زادني الـواشـون إلا صبـابـة ولا كـثـرة النـاهـين إلا تـمـاديـا
لقـد خفت أن ألقى المنيـة بغتـة وفي النفس حاجات إليـك كما هيـا

وقال يزيد بن الطَّثَرِيَّة:

بنفسي مـن لـو مـر نـرَد بنـانـه على كبـدي كـانت شفـاءَ أنـامله
ومن هـابني في كـل أمـر وَهِبْتُـه فـلا هـو يعـطيني ولا أنـا سـائله

وقال قيس بن ذَريح:

فإن يحجبوهـا أو يَحُلْ دون وصلهـا مـقـالـة واش أو وعـيـد أمـيـر
فلم يمنعـوا عينيً من دائم البكـا ولم يـذهبـوا مـا قـد أجن ضميـري

وقال كُثيِّر من قصيدة يذكر فيها هجران عزة وسلوانه:

ومـا كنت أدري قبل عَـزَّة مـا البكـا ولا مـوجعـات القلب حتى تـولتِ
وكـانت لقـطع الحبـل بيني وبينهـا كـنـاذرةٍ نـذراً فـأوفت وحـلـت
ولم يلق إنسـان من الحب ميْعـةً نـعُـم ولا غـمـاء إلا تـجـلَّت
أريـد الـثّـواء عنـدهـا وأظنهـا إذا مـا أطلْنا عنـدهـا المكثَ ملت
فمـا أنصفت، أمـا النسـاء فبغَّضت إلـيَّ، وأمـا بـالنـوال فضـنـت
يكلفهـا الغَيْـرَانُ شتمي ومـا بهـا هـواني، ولكن للمليـك استـذلت
هنيئـاً مـريئـاً غيـرَ داءٍ مُخَـامـرٍ لعـزة من أعـراضنـا مـا استحلت
فـوالله مـا قـاربت إلا تبـاعـدتْ بـهـجـر ولا أكـثـرت إلا أقـلت
فـإن تكن العُتبى فـأهـلاً ومرحبـاً وحقَّت لهـا العتبى لـدينـا وقـلَّتِ
وإن تـكـن الأخـرى فـإن وراءنـا منـادحَ لـو سـارت بهـا العيسُ كَلتِ
أسيئي بنـا أو أحسـى لا مَلُومَـة لـدينـا ولا مَـقْـلَيـه إن تقـلَّت
فمـا أنـا بـالـداعي لعزة بـالجوى ولا شـامـت أن نعـلُ عـزة زلت

فلا يحسب الواشون أن صبابتي ... بعزة كانت غمرة فتجلت
فوالله ثم الله ما حل قبلها ... ولا بعدها من خُلَّةٍ حيث حلَّتِ
فيا عجبًا للقلب كيف اعترافه ... وللنفس لما وُطّنت كيف ذلت!
وإني وتَهيامي بعزةَ بعدما ... تَخَلّيْتُ مما بيننا وتخَلت
لكالمرتجى ظلَّ الغمامة كلما ... تبوأ منها للمقيل اضمحلتِ
فإن سأل الواشون فيمَ هجرتها ... فقالُ نفسُ حسر سُلّيَتْ فتسلت

وقال جرير على لسان يزيد:

فأنت أبي ما لم تكن لي حاجةٌ ... فإن عرضت أيقنت أن لا أبَاليا
وإني لمغرور أعلّلُ بالمنى ... ليالِيَ أرجو أن مالك ماليا
بأي نجادٍ تحمل السيف بعدما ... قطعت القوى من محمل كان باقيا؟
بأي سنان تطعن القوم بعدما ... نزعت سناناً من قناتك ماضيا؟

وقال مالك ابن أسماء يعتذر:

لكل جواد عثرة يستقيلها ... وعثرة مثلي لا تقال مدى الدهر
فهبنيَ يا حجاج أخطأت مرة ... وجُرت عن المثلى وغنيتُ بالشعر
فهل لي إذا ما تبت عندك توبة ... تدارِكُ ما قد فات في سالف العمر؟

وقال الحطيئة:

أتتني لسان فكذبتها ... وما كنت أحسبها أن تُقالا
بأن الوشاة بلا حُرمة ... أتوك فراموا لديك المحالا
فجئتك معتذراً راجياً ... لعفوك أرهب منك النكالا
فلا تسمعنْ بي مقال العدى ... ولا تؤكِلَني هُدِيتَ الرجالا
فإنك خير من الزبرقان ... أشد نكالاً وخير نوالا

وقال حسان بن ثابت:

المال يَغشى رجالاً لا طَبَاخ بهم ... كالسيل يغشى أصولَ الدندن البالي
أصون عرضي بمالي أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض في المال
أحتال للمال إن أوْدى فأجمعه ... ولست للعرض إن أودى بمحتال
الفقرُ يزْري بأقوام ذوى حسب ... ويقتدى بلئام الأصل أنذال

وقال كُثَيِّر:

ومن لا يُغَمِّض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يمتْ وهو عاتب
ومن يتتبَّعْ جاهداً كل عثرة ... يجدْها ولا يسلمْ الدهرَ صاحب

وقال كعب بن زهير:

لوْ كنت أعجب منْ شيىءٍ لأعجبني ... سَعيُ الفتى وهو مخبوء لهُ القَدَرُ

يسعى الفتى لأمور ليس يدركها والنفس واحدة والهمُّ منتشرُ
فالمرءُ ما عاشَ ممدودٌ له أَمَل لا ينتهي العمر حتى ينتهي الأثر

وقال النابغة الجعدي:

ولا خير في حِلم إذا لم تكن له بوادرُ تحمي صفوه أن يكدَّرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمرَ أصدرا

الشعراء وطبقاتهم

نبغ في هذا العصر على قِصره زُهاءُ مائة شاعر كان لهم السهم الربيح في نهضة العرب الدينية والسياسية والاجتماعية، لقوة الدِّعاية في الشعر، وتأثير الفصاحة في العرب، وشدة العصبية في الولاة. وشعرهم وإن سار على منهاج الجاهلية أسمى خيالاً وأقرب منالاً وأوثق مبنى وأغزر معنى من المتقدمين؛ لتأثرهم بالدين والحضارة كما علمت. وهم إما مخضرمون ككعب بن زهير والخنساء وحسان بن ثابت والحطيئة، وإما إسلاميون كعمر بن أبي ربيعة والأخطل وجرير والفرزدق والكُمَيت والطِرِمَّاح وكُثيِّر وذي الرُّمة. وكلهم صريح العربية، صحيح اللغة، فصيح اللهجة، في الشعر والنحو حُجَّة.

وأشهر هؤلاء الشعراء كما ذكرنا من قبل ثلاثة مُنُوا بداء السياسة، وشهوة المنافسة، فمزقوا ستائرهم وفرقوا عشائرهم، وأشاعوا هُجر القول في الناس، ولم يتعرض لهم أحد إلا افتُضح؛ وهم جرير والفرزدق والأخطل. وقد انقطعوا للشعر والتكسب به، والتف حول كل منهم طائفة تفتخر به وتنتصر له. ويكاد الناس لا يختلفون إلا فيهم، ولا يعقدون التفاضل إلا بينهم.

الشعراء المخضرمون

١٤ ـ كعب بن زهير
٠٠٠ ـ ٦٤٥ م
٠٠٠ ـ ٢٦ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو عقبة كعبُ بنُ زُهَيْر بن أبي سلمى المُزَني. نشَّأه أبوه على الأدب والحكمة

---

١٤ ـ انظر ترجمته في: السيرة، لابن هشام، والأغاني: ١٧/ ٨٢ ـ ٩١، ومعجم الشعراء: ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣، والموشح: ص ٤٦، ٨١، وسمط اللآلىء: ص ٤٢١، والإصابة: =

فشَبَّ فصيحاً شاعراً، ولما ظهر الإسلام خرج هو وأخوه بُجير إلى رسول اللّه ﷺ، ثم بدا له فتأخر وتقدم بُجير، فسمع كلام رسول اللّه وأسلم. فغضب كعب لإسلامه ونهاه، وهجاه وهجا رسول اللّه معه بأبيات يقول فيها:

ألا أبلغا عني بجيراً رسالةً   فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا؟
سفاك بها المأمون كأساً رَوِيَّةً   فأنهلك المأمون منها وعَلَّكا
ففارَقت أسباب الهدى واتبعته   على أيِّ شيىء وَيْبَ غَيرك دلكا
علي مذهب لم تُلِف أُمًّا ولا أَبا   عليه وَلم تعرف عليه أخا لكا
فإنْ أنتَ لم تفعلْ فلستَ بآسف   ولا قائل إما عثرتَ لَعاً لكا!

فأهدر الرسول دمه، وأرجف الناس بقتله. وأشفق عليه أخوه فنصحه بالإسلام والتوبة والمثول بين يدي الرسول يطلب رضاه وعفوه. فلما استيأس كعب من المجير والنصير جاء إلى المدينة، وتوسل بأبي بكر إلى الرسول. ودخل في الإسلام، ومدحه بلاميته المشهورة، فعفا عنه وأمَّنه وخلع عليه بُردَته؛ فما زالَتْ في أهله حتى اشتراها معاوية منهم بأربعين ألف درهم، وتوارثها الخلفاء الأمويون فالعباسيون حتى آلت مع الخلافة إلى بني عثمان.

شعره:

نشأ كعب في روضة الشعر وباحة القريض فرسخت فيه مَلَكته، وتجلت في صغره شاعريته. فأخذ يقرضه وهو دون المراهقة. فنهاه أبوه مخافة أن يروَى عنه ما لا خير فيه فيلزمه عاره. فكان كعب يأبى أن ينتهي، ويلح أبوه في منعه حتى امتحنه امتحاناً شديداً طمأنه على نضج قريحته وسلامة طبعه؛ فتركه لنفسه فتقحم أبوابه، وسلك شعابه، وأتى منه بالجيد الرصين والرائق المعجب. وأوشك أن يسامي أباه لو لا غرابة في ألفاظه، وتعقيد في تراكيبه، وقصور في مطوَّلاته؛ ومن كل ذلك بريء أبوه. ومما يدل على مكانه كعب وقيمة شعره أن الحطيئة وهو من نابهي الشعراء توسل إليه أن ينوِّه بذكره في شعره حتى يشتهر، فقال:

فَمنْ للقوافي شانها من يحوكها   إذا ما مضى كعب وفَوَّز جرْول
كفيتك لا تلقى من الناس واحداً   تَنَخَّل منها مثل ما نتَخَّل

نموذج من شعره:

من عيون شعره مشوبته التي مدح بها الرسول، ومطلعها:

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبُول   مُتَيَّمٌ إثْرها لم يُفْدَ مكبول

= ٣/٥٩٢ - ٥٩٥، وخزانة الأدب: ٤/١١ - ١٢، ومعجم المؤلفين: ٨/١٤٤، ودائرة المعارف الإسلامية، ١/٨٣٠، ٢/٦٢٤ - ٦٢٥.

ومنها:

وقال كلُّ خليل كنت آمله ... لا أُلهينك إني عنك مشغول

فقلت خلوا سبيلي لا أبالكمُ ... فكل ما قدَّر الرحمٰن مفعول

كل ابن أنثى وإن طالَتْ سلامتهُ ... يوماً على آلة حدباء محمول

أنبئت أن رسول اللّه أوعدني ... والوعد عند رسول اللّه مأمول

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الْـ ... قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وقد كَثُرت فيّ الأقاويل

ومن قوله:

السامع الذم شريك له ... وَمُطعم المأكول كالآكل

مقالة السوء إلى أهلها ... أسرع من منْحَدر سائل

ومَن دعا الناس إلى ذمه ... ذموه بالحقّ وبالباطل

١٥ ـ الخنساء

٠٠٠ ـ ٦٤٥ م

٠٠٠ ـ ٢٤ هـ

حياتها:

هي السيدة تُماضِر بنت عمرو بن الشريد السُّلمية. والخَنْسَاء لقب غلب عليها: نبتتْ في دوحة الشرف، وازدهرت في روضة الفضل، فكان أبوها وأخواها معاوية وصخر سادات سُليم من مضر. وكانت بارعة الجمال والأدب فخطبها دُريد بن الصِّمَة سيد هوازن وفارس جُشَم، فردته وآثرت التزوُّج في قومها، ولما قوَّض الدهر ركنيّ بيتها بموت أَخَويها معاوية وصخر جزَعَتْ عليهما أشد الجزع، وَبكتهما أحرَّ البكاء، ورثتهما بأبلغ الرثاء، ولا سيما صخر لما بلّتـه من كثرة إحسانه، وشدة حنانه، وقوة جَنانه. ثم وفدت في قومها على الرسول ﷺ فأسلَمت، وأنشدته فاهتز لشعرها واستزادها بقوله: هيه يا خُناس! وكان في الظن أن تُنَهْنِه الخنساءُ بعد إسلامها دموع الجزع على أبيها وأخويها تعزياً بالدين وعزوفاً عن سنة الجاهلية، إلا أن وجْدها على صخر كان وراء الصبر وفوق العزاء؛ فلم تزل تبكيه وترثيه حتى ابيضَّت عيناها من الحزن. وكانت تقول: كنت أبكي له من الثار، وأنا اليوم أبكي له من

---

١٥ ـ انظر ترجمتها في: فحولة الشعراء: ص ٣٧، ٤٥، ٦٢، وطبقات فحول الشعراء: ص ١٦٩، ١٧٤، والمغتالين: ص ٢١٨، والمؤتلف والمختلف: ص ١١٠، وسمط اللآلىء: ص ٧٨٢، والإصابة: ٤/٥٤٩ ـ ٥٥٢، وحسن الصحابة: ص ٩٤ ـ ٩٩، ومعجم المؤلفين: ٣/٩٢، والمراجع: ٣/٨٧ ـ ٩٢.

النار. على أن السن والزمن والدين ما زالت بهذه الكبد القريحة حتى اندملت؛ فوجدت الخنساء في شيخوختها آسياً من رَوْح اللّه ومواسياً من فضله؛ فتقبلت مصرع بنيها الأربعة صابرة محتسبة وقد حرضتهم على القتال في حرب القادسية فاستشهدوا جميعاً. فلم تزد على أن قالت. الحمد للّه الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته. ثم توفيت بالبادية عام ٢٤ هـ.

شعرها:

ليس في شواعر العرب قبل الإسلام وبعده من تفوقُ الخنساء في رصانة شعرها، ورقة لفظه، وحلاوة جَرْسه، ولربما ضارعت في هذه الصفات الشعراء الفحول. ويرى النابغة وجرير وبشار أنها أفضل من الرجال، لما في شعرها من قوة الرجولة ورقة الأنوثة. وقد غلب في شعرها الفخر والرثاء. أما الفخر فلأن أباها أَمْثَلُ قومه، وأخويها خيرا مضر؛ وأما الرثاء فلفجيعتها فيهم وطول وجْدها عليهم. والأسى يدُقّ الشعور، ويرق العاطفة، ويفتق القريحة في الرجل، فكيف به في المرأة؟ وكانت لا تقول إلا البيتين أو الثلاثة قبل مقتل أخويها، فلما قتلا فاض الدمع من عينها، والشعر من قبلها، فأتت في رثائها بالمعجب المعجز. وظلت الخنساء في شعرها بدوية جاهلية، فلم تتأثر بالإسلام كثيراً ولا قليلاً.

نموذج من شعرها:

قالت ترثي أخاها صخراً:

أعينيَّ جودا ولا تجمُدا ... ألا تبكيان لصخر الندى؟
ألا تبكيان الجرىء الجميل ... ألا تبكيان الفتى السيدا!
رفيعَ العماد طويل النِّجا ... دِ ساد عشيرتَه أمردا
إذ القومُ مدوا بأيديهمُ ... إلى المجد مد إليه يدا
فنال الذي فوق أيديهمُ ... من المجد ثم انتمى مُصعِدا
يحمله القوم ما عالهم ... وإن كان أصغرهم مولدا
وإن ذُكر المجد ألفيته ... تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقالت ترثيه أيضاً.

ألا يا صخرُ إن أبكيتَ عيني ... فقد أضحكتني زمناً طويلا
دَفعتُ بك الخطوبَ وأنت حي ... فمن ذا يدفع الخطب الجليلا؟
إذا قَبُح البكاء على قتيل ... رأيت بكاءك الحسنَ الجميلا

وقالت ترثي وتفتخر:

تَعَرَّقني الدهر نهساً وحزًّا ... وأوجعني الدهر قرعاً وغمزاً
وأفنى رجالي فبادوا معاً ... فأصبح قلبي بهم مستفزّا

كـأن لـم يكـونـوا حمىً يُتَّقى	إذا النـاسُ في ذاكَ مـن عـزَّ بـزّا
وخيـل تكَـدَّسُ بـالـدارعـين	وتحت العجـاجـة يجمـزن جَمْزا
ببيض الصفـاح وسُمـر الـرمـاح	فبـالبيض ضـربـاً وبـالسمـر وخْـزا
جـززنـا نـواصـيَ فـرسـانهـا	وكـانـوا يـظنـون ألّا تُـجَـزا
ومَنْ ظنَّ ممن يلاقي الحـروب	بـألا يُصـاب فقـد ظـن عجـزا
نـعـف ونـعـرف حق الـقِـرى	ونـتخـذ الحمـد ذخـراً وكـنـزا
ونلبس في الحرب نسج الحديد	وفـي السـلم نـلبس خـزًّا وبـزًّا

ومن قولها:

إن الـزمـان ومـا يفنى لـه عَجبٌ	أبقى لنـا ذنبـاً واستؤصـل الـراس
إن الجديدين في طـول اختلافهمـا	لا يفسـدان ولكن يفسـد النـاس

١٦ ــ حسانُ بنُ ثابت

٥٥٣ ـ ٦٧٤ م

٦٦ ق هـ ـ ٥٤ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصاري، ولد بالمدينة ونشأ في الجاهلية، وعاش في الشعر، فكان يمدح المناذرة والغساسنة ويتقبل صلاتهم. ولكنه بالغ في مدح آل جفنَة من ملوك غسان وأكثر من انتجاعهم فأغدقوا عليه العطايا، وملأوا يديه بالنعم، ولم ينكروه بعد إسلامه وتنصرهم، فجاءته رسلهم تترى بالهدايا من القسطنطينية. ولما هاجر رسول اللّٰه إلى المدينة أسلم حسان مع الأنصار وانقطع إلى مدحه والنصّح عنه. وذلك أن الرسول حينما اشتد عليه أذى قريش بالهجاء قال لأصحابه: ما يمنعُ الذين نصروا اللّٰه ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان: أنا لها؟ وضرب بلسانه الطويل أرنبة أنفه وقال: واللّٰه ما يسرني به مِقْوَلٌ ما بين بُصرى وصنعاء! واللّٰه لو وضعته على صخر لفَلقه، أو على شَعر لحلقه! فقال له النبي: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال: «أَسُلك منهم كما تسل الشعرة من العجين»: فقال؛ اهجُهم ومعك روح القدس. فهجاهم فآلمهم وأبكمهم ووقعت كلماتهُ

١٦ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٠، ٣٦ ـ ٣٨، وطبقات فحول الشعراء: ص ١٧٩ ـ ١٨٣، والشعر والشعراء: ص ١٧٠ ـ ١٧٣، والأغاني: ٣/١١ ـ ١٨، ٤/١٣٤ ـ ١٧٠، ١٥/١٥٧ ـ ١٧٣، وسمط اللآلىء: ص ١٧١ ـ ١٧٢، وتهذيب ابن عساكر: ٤/١٢٥ ـ ١٤٠، ونكت الهميان: ص ١٣٤ ـ ١٣٨، انظر أيضاً: الأعلام، للزركلي ٢/١٨٨، ومعجم المؤلفين: ٣/١٩١ ـ ١٩٢ والمراجع: ٣/٣١ ـ ٣٨.

منهم موقع السهام في غسق الظلام، فاشتهر بذلك ذكره، وارتفع قدره، وعاش ما عاش موفور الكرامة مَكْفِيَّ الحاجة من بيت المال، حتى توفي سنة ٥٤ للهجرة بالغاً من العمر مائة وعشرين سنة، وقد كف بصره في أعقاب أيامه.

شعره:

كان حسان في الجاهلية شاعر أهل المُدن، وفي البعثة شاعر النبوة، وفي الإسلام شاعر اليمانية. وكان يغلب في شعره الفخر والحماسة والمدح والهجاء، وكلها أغراض تقتضي اللفظ الفخم والأسلوب القوي، فبدا عليه أثر من الحوشية والوحشية ذهب بمجيء الإسلام. ثم سكنت عوامل الشعر في نفسه بسماحة الدين وموت الأحقاد وتقدم السن، فما كانت تتحرك إلا ذياداً عن النبي ودفاعاً عن الأنصار من حين إلى حين. ولكن كثيراً من شعره في هذا الطور كان خشبياً، فكثر به السقْط، وقلت فيه الجزالة، وغلبت عليه السهولة، فرأى الأصمعي أن شعره لم يقوَ إلا في الشر، فلما جاء الإسلام بالخير ضعف. وهو في شعره يضارع ابن كلثُوم في الفخر بقومه والمباهاة بنفسه، مع أنه كان جباناً مخلوع القلب.

نموذج من شعره:

قال في الهجاء:

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغَلغَلةً فقد بَرِح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند اللّه في ذاك الجزاء
أتهجوه ولستَ له بكفء؟ ... فشركما لخيركما الفداء
لنا في كل يوم من مَعَدٍ ... سبابٌ أو قتال أو هجاء
لساني صارمٌ لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدّلاء
فإنَّ أبي ووالدتي وعرضي ... لعرض محمد منكم وِقاء

وأقبل على الرسول وفد من تميم يفاخره وعليهم الزبرقان بن بدر، فلما أنشدوه أَمر حساناً أن يحييهم فقال:

إن الذوائب من فِهْرٍ وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تُتَّبع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير مُحْدَثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البِدَع
لا يرفع الناسُ ما أوهت أكفُّهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن كان في الناس سباقون بعدهُم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تَبَع
أعفة ذُكرت في الوحي عفتُهم ... لا يطبَعون ولا يزْرى بهم طمع
لا يفخرون إذا نالوا عدوهُم ... وإن أصيبوا فلا خوْر ولا جزع

وقال يمدح جَبَلة بن الأيهم:

لـلَّه درُّ عـصـابـة نـادمـتـهـم	يـومـاً بجِلّقَ فـي الـزمـان الأول
يمشون في الحُلل المضاعف نسجُها	مشي الجمال إلى الجمال البُـزَّل
والخـالـطون فقيـرهم بـغنيهـم	والمشفقـون على الضعيف المُرْمـل
أولاد جفنـة حـول قـبـر أبيـهـم	قبـر ابن مـاريـة الكـريم المفضـل
يَسْقـون مَن ورد البـريصَ عليهـمُ	بَـرَدَى يُصَفّق بـالـرحيق السلسـل
يَسْقـون دريـاق الـرحيق ولم تكن	تُـدعى ولائـدهم لنقف الحنـظل
بيض الـوجـوه كـريمـة أحسـابهم	شُـمُّ الأنـوف مـن الـطراز الأول
فـلبثـت أزمـانـاً طـوالاً فيـهـمُ	ثـم ادَّركـتُ كـأنـني لـم أفعـل

ومن قوله:

وإن امـرأ يُمسي ويصـحُ سـالمـاً	من النـاس إلا مـا جنى لـسعيـد

وقال أيضاً:

رُبَّ عـلم أضـاعـه عـدم المـا	ل وجـهـل غـطى عليـه الـنعيم
مـا أبـالـي أنبَّ بـالـحَـزْن تيسٌ	أم لـحـاني بـظهـر غـيـبٍ لئيـم

١٧ ــ الحطيئة

٠٠٠ ـ ٦٦٥ م

٠٠٠ ـ ٤٥ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو مليكـة جرْوَل بن أوس العبسي، وُلـد في بني عبس دَعِيا لا يُعـرف له نسب، ولا يصله بالشرف سبب. فشب محرومًا مظلومًا مذمومًا لا يجد مدداً من أهله، ولا سنداً من قومه؛ فاضطر إلى الشعر يجلب به القوت ويدفع به العُدوان وينتقم به لنفسه من بيئة ظلمته وطاردته. واصطلحت عليه عوامل الشر فحملت منه صورة للرذيلة فكان كما وصفه الأصمعي سيء الخلق، دنيء النفس، فاسد الدين، سئولا،مُلْحفـاً، جشعـاً، كثير الشر، قَليل الخير، بخيلاً، دميمًا، قصيراً، رث الهيئة، متدافع النسب في القبائل. وقد بلغ من لؤمه أن هجا أمه وامرأته وبنيه حتى نفسه. فلما جاء الإسلام أسلم ثم ارتد ثم عاد مزعزع العقيدة، فلم يستطع

١٧ ـ انظر ترجمته في: العققة: ص ٣٦٦، ٣٦٧، وفحولة الشعراء: ص ٣٦، ٣٧، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٦٤، وطبقـات فحول الشعـراء: ص ٩٣ ـ ١٠١، والشعر والشعـراء: ص ١٨٠ ـ ١٨٧، والأغاني: ٢/١٥٧ ـ ٢٠٢، والموشح للمرزباني، انظر: فهرسه، وسمط اللآلىء: ص ٨٠،

الدين أن يرفع هذه النفس الوضيعة، ولا أن يُفل هذا المقول الجريء البذيء فَمرَج لسانه في أعراض الناس واشتدت وقيعته فيهم. حتى الزبرقان بن بدر صاحب رسول الله وعامل عمر بن الخطاب لم يعصمه منه إكرامه جواره وإحسانه إليه، فمالأ بغيضَ بن عامر خصمه عليه، ومدح بني أنف الناقة وذم الزبرقان، فاستعدى عليه أمير المؤمنين عمر، فحبسه، واستشفع إليه بشعره فأطلقه وحذره هجاء الناس. فقال: إذن يموت عيالي جوعاً. هذا مكسبي ومنه معاشي. فاشترى منه الخليفة أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم. فكف حتى مات عمر ثم عاد إلى طبعه، ولبث على تلك الحال حتى أسكته الموت سنة ٥٩ هـ.

شعره:

الحطيئة شاعر متين الشعر، غزير البحر، رائق الأسلوب، شرود القافية، متصرف في فنون القول، من مديح وهجاء ونسب وفخر. ولولا خساسة طبعه، ودناءة طمعه، وقبح تبذله، لما فضله في المخضرمين أحد، فإنك لا تكاد تجد في شعره ما يكثر في شعر غيره من سخافة في النسج، أو ركاكة في اللفظ، أو نُبُو في القافية، ولكن شرف الكلام بشرف قائله.

والحطيئة كزهير معدود في عبيد الشعر الذين روَّوا فيه ونقحوه. وقد يؤثر عنه قوله. «خير الشعر الحوليّ المنقح المحكك». وقلما تجد في هجائه على مرارته فحشا أو هُجراً، حتى عمِّي على أمير المؤمنين عمر قوله في هجاء الزبرقان:

دَعِ المكارم لا ترحلْ لبُغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فلم يفطن إلى موضع الهجاء فيه لدقته حتى دل عليه حسان.

نموذج من شعره:

قال يهجو الزِّبرِقان بن بدر وقد زعم أنه أساء جواره فتحول عنه إلى بغيض:

والله ما معشرٌ لاموا امرَأً جُنباً ... في آل لأى بن شمَّاس بأكياس
ما كان ذنبَ بغيض لا أبالكم ... في بائس جاء يحدو آخر الناس!
وقد مدحتكُم عمداً لأرشدكم ... كما يكون لكم مَتحي وإمراسي
لما بدا ليَ منكم عيب أنفسكم ... ولم يكن لجروحي فيكم آسي
أزمعت يأساً مبيناً من نوالكم ... ولن يُرى طارداً للحر كالياس
جارٌ لقومٍ أطالوا هُونَ منزله ... وغادروه مقيما بين أرماس
ملوا قِراهُ وهرّته كلابهُمُ ... وجرّحوه بأنياب وأضراس
دع المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
من يفعل الخير لا يعدمْ جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال في المدح:

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها ... وإن غضبوا جاء الخفيظةُ والجد
أقلوا عليهم لا أبا لأبيكمُ ... من اللوم أو سُدُّوا المكان الذي سدوا
أولئك قوم إن بَنوا أحسنوا البِنَا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جَزَوْا بها ... وإن أنعموا لا كدَّروها ولا كدوا
مطاعينُ في الهيجا مكاشيف للدجى ... بنى لهمُ آباؤهم وبنى الجَد
ويعذلني أبناءُ سعدٍ عليهم ... وما قلت إلا بالذي علمت سعد

الشعراء الإسلاميون

١٨ ـ عمر بن أبي ربيعة
٦٤٤ ـ ٧١٢ م
٢٣ ـ ٩٣ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو الخطاب عمر بن أبي ربيعة القرشي المخزومي. ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب، فكان يقال، أي حق رُفع، وأي باطل وضع! ثم شبل في نعمة أبيه عبد الله عامل الرسول والخلفاء الثلاثة من بعده. وكان سَرِيًا غنيًا، فتقلب عمر في أعطاف النعيم، ورتع في رياض الترف، وخلا ذَرْعه من معالجة الأمور، ففرغ للشعر وقاله وهو صغير، فما أبهَ له أحد من فحوله كجرير والفرزدق. ومضي وهو يروض قوافيه ويستعطف أبيَّه حتى ارتاض له وأسلس. فقال جرير وقد سمع رائيته التي مطلعها:

أمِن آل نُعم أنت غادٍ فمبْكر ... غداة غدٍ أم رائح فَمُهَجِّر

«مال زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر». وسلك ابن أبي ربيعة إلى الشعر طريقاً غير مألوفة ولا معروفة؛ فقصره على وصف النساء وتزاورهن ومداعبة بعضهن لبعض بلفظ رشيق وأسلوب مبتكر، فأُولع به المغنون والظرفاء، وشغُف به القِيان والندماء، وكثر غناء الناس به وروايتهم له حتى ضج الْغُبرُ والزهاد وقال ابن جرَيج: «ما دخل العواتقَ في خدورهن شيء أضر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة». ولم يقف شرُّه عند ذاك، وإنما كان

---

١٨ ـ انظر ترجمته في: المردفات: ص ٧٢ ـ ٧٣، وطبقات فحول الشعراء: ص ٥٣٠، والشعر والشعراء: ص ٣٤٨ ـ ٣٥٢ ـ والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: ١/٦١ ـ ٢٤٨، والموشح: ص ٢٠١ ـ ٢٠٦، وخزانة الأدب: ١/٢٣٨ ـ ٢٤٠، ومعجم المؤلفين: ٦/٢٩٤، وطبقات الشعراء: ص ٢٢٨، ٢٥٥.

يتعرض للحواج فيشبب بالعقائل والأميرات، ويصفهن طائفاتٍ مُحرمات، فزهدت كرائم الأسَرِ في أداء الفريضة خشية منه. وأُلوا الأمر يتعمدون هذا الجهل بالحلم رعاية لأسرته، وفخراً بشاعريته، وترقبًا لتوبته. ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يسعه الصبر على تماديه في المجون، وإمعانه في الجهالة، فنفاه إلى دَهْلك إحدى جزُر البحر الأحمر بين بلاد اليمن والحبشة، وقد كانت منفى لبني أمية ولم يعد إلا بعد أن أقسم أنه يقلع عن صبوته، ويخلص إلى الله في توبته. ولعل بلوغه العمْرين قد أعانه على البر بقسمه، فزهد وتنسك. ومن الناس من يقول إن عمر كان عفيفًا يصف ولا يقف، ويحوم ولا يرد؛ ويذكرون أنه لما مرض مرضه الأخير جزع أخوه الحارث عليه جزعاً شديداً، فقال له عمر: أحسِبك إنما تجزع لما تظنه بي. والله ما أعلم أني ركبت فاحشة قط فقال: ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك، وقد سَرّيتَ عني.

شعره:

لشعر ابن أبي ربيعة نَوطةٌ في القلب، وروعة في النفس، لسهولته وأناقة لفظه، وحسن وصفه، وشدة أسْره، وقرب فهمه، وملاءمته لهوى النفوس في نعت الجمال ووصف المرأة. وقد ساعده نسبُه وَنشَبُه وترفُه على أن يقول في ذلك ما لم يجرؤ أحد على قوله: فسلك في الغزل مسلك القصص: يصف النساء ويحكي حديثهن ومداعبتهن ويذكر أمره معهن. فبهر الناس حتى حملهم على الإقرار لقريش بالشعر، وقد كانوا ينكرونه عليها. وبرع الشعراء حتى قال جرير: هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار! ». على أنك لا تجد في شعره ما تجد في شعر جميل وكُثَيِّر من الشعور العميق والوصف الدقيق للحب، وإنما هو تِبْع نساء يسره أن يخالطهن ويحادثهن ويتجمل لهن دون أن يفتح قلبه لواحدة منهن؛ اللهم إلا أمرَه مع الثريا بنت علي ابن عبد الله بن الحارث فإنه يشبه أن يكون حبًّا.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة في التشبيب:

نحنٌّ إلى نُعم فلا الشمل جامع ... ولا الحبل موصول ولا أنت مقصِر

قفي فانظري أسماء هل تعرفينه ... أهذا المغيريُّ الذي كان يذكر؟

أهذا الذي أطريت نعتاً فلم أكن ... وعيشك أنساه إلى يوم أُقبَر

لئن كان إياه لقد حال بعدنا ... عن العهد والإنسان قد يتغير!

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت ... فَيُضْحي وأمَّا بالعشي فَيَخْصر

أخا سفر جوَّابَ أرض تقاذفت ... به فلوات فهو أشعث اغبر

قليلاً على ظهر المطية ظلُّه ... سوى ما يقي منه الرداء المحبَّر

وأعجبها من عيشة ظلُّ غرفة / وريَّانُ ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شيءٍ يهمها / فليست لشيء آخر الليل تسهر
وليلة ذي دوران جشمني الكرى / وقد يجشم الهولَ المحبُّ المغرَّر
وبتّ رقيباً للرفاق على شفا / ولي مجلسٌ لولا اللبانة أوعر
فقلت أباديهم فإما أفوتهم / وإما ينال السيف ثأراً فيثأر
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت / مصابيح شُبَّتْ للعشاء وأنور
وغاب قمير كنت أرجو غيوبَه / وروّح رعيانٌ ونوّم سمَّر
ونفَّضت عني النوم أقبلت مِشيَة ال / حَبَاب وركني خيفةَ القوم أزْور
فحييت إذ فاجأتها فَتَوَلَّت / وكادت بمهجور التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان: فضحتني! / وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أرَيْتكَ أن هُنَّا عليك ألم تخف / رقيباً وحولي من عدوك حضر
فلما تقضى الليل إلا أقلَّه / وكادت تَوَالى نجمه تتغوّر
أشارت لأختيها أعينا على فتى / أتى زائراً والأمر للأمر يُقَدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا: / أقِلِّي عليك اللومَ فالخطب أيسر
يقوم فيمْشي بيننا متنكراً / فلا سرُّنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مَجنّي دون من كنت أتّقي / ثلاثُ شُخوص. كاعبان ومُعْصِر
فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي: / ألم تتق الأعداء والليل مقْمِر؟
وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً / أما تستحي أو ترعوي أو تفكر!
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا / لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر
هنئًا لبعل العامرية نَشْرها / اللذيذ وريَّاها الذي أتذكر

ومن قوله:

ألا ليت أني يوم تُقضى منيتي / لثمت الذي ما بين عينيك والفم!
وليت طَهوري كان ريقك كلّه / وليت حنوطي من مُشاشك والدم
ألا ليت أمَّ الفضل كانت قرينتي / هنا أو هنا في جنة أو جهنم

وكتب إلى الثريا وهي باليمن:

كتبت إليك من بلدي / كتابَ مُوَلَّه كمدِ
كئيب واكف العَيْنَيْـ / ـنِ بالحسَرات منفرد
يُؤَرقه لهيب الشو / ق بين السَّحْرِ والكبد
فيُمسك قلبَه بيد / ويمسح عينَه بيد

١٩ ـ الأخطل (١)

٦٤٠ ـ ٧١٢ م

١٩ ـ ٩٥ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو مالك غِيَاث بن غوث التغلبي: نشأ بالجزيرة الفراتية في قومه بني تغلب على النصرانية كأكثر أهل هذه القبيلة. وفجع في أمه وهو صغير، فربته زوجة أبيه فأساءت تربيته. فشب سليط اللسان خبيث النية مدمنًا للخمر وبدت بواكير شعره منذ الحداثة، فهاجَى كعب بن جُعَيل شاعر تغلب فأخمله وهبَّ ذِكره يسير. ولما طلب يزيد بن معاوية وهو وليّ العهد من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار لتعرض عبد الرحمن بن حسان لأخته في شعره، خشي الأنصارَ ودله على الأخطل رجاة أن يفتكو به، فكان ذلك سببًا في صعود نجمه وذيوع اسمه. فإنه اتصل بيزيد وهجا الأنصار فغضبوا، وشكوه إلى معاوية فحكّمهم فيه، فطلبوا قطع لسانه. ولكن يزيد ترضاهم فعفوا عنه. وعرف له خلفاء بني أمية هذه اليد فقدموه وأكرموه، وبخاصة عبد الملك بن مروان، لأنه استعان به على قبائل قيس وشعرائها لممالأتهم أعداءه من آل الزبير، فسهَّل عليه حجابه، ووطَّأ له جنابه وأغدق عليه عطاءه، وسماه شاعر الخليفة: وبلغ من دالة الأخطل على عبد الملك أنه كان يجيئه وعليه جبة خز وفي عنقه صليب ذهب ولحيته تنفض خمراً فيدخل عليه بغير إذن. أما دخوله في المهاجاة بين جرير والفرزدق، فسببه أنه عرَّض بتفضيل هذا حينما سئل أيهما أشعر. فلما بلغت حكومته جريراً غضب وهجا الأخطل بأبيات منها:

يا ذا الغباوة إن بِشراً قد قضى ألّا تجوز حكومة النشوان

فرد عليه الأخطل في شيء من الضعف لتقدم سنه وفتور طبعه. وقد اعترف بذلك جرير في قوله لابنه: أدركته وله ناب واحد، ولو أدركته وله نابان لأكلني» ومَا زال الأخطل أثيراً عند بني أمية حتى أقصاه عمر بن عبد العزيز.

وكان يعيش حينًا في دمشق وحينًا في بلاده الجزيرة، وتوفي في أول خلافة الوليد سنة ٩٥ بالغاً من العمر سبعين سنة.

---

١٩ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٣، ٢٤، ٣٧، والشعر والشعراء: ص ٣٠١ ـ ٣١٢، والمؤتلف والمختلف: ص ٢١، والموشح ص ١٣٢ ـ ١٤٢ وسمط اللآلىء: ص ٤٤ ـ ٤٥، الأعلام، للزركلي ٣١٨/٥ ومعجم المؤلفين: ٣٢/٨ ـ ٤٣، والمراجع: ١٣/٢ ـ ١٨، بروكلمان الأصل 52 - 1,49 والملحق 84 - 1,83.

(١) يقال لهؤلاء أيضاً عليا هوازن؛ وهم سعد بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف: وفيهم يقول أبو عمرو بن العلاء، أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم.

شعره:

الأخطل أحد الثلاثة السابقين المتقدمين في هذا العصر، وهم جرير والفرزدق وهو. وقد اتفق الناس على أنهم أجود معاصريهم شعراً وأسيَرهم ذِكراً، ولكن اختلفوا في أيهم أشعر إخوته. والحق أن لكل منهم مزية وميزة.

فالأخطل ممتاز بإجادة المدح، ونعت الخمر، وقلة البذاء في الهجاء، وسلامة قصائده الطوال من اللغط والسَّقط، ومرود طبعه على الروية والتنقيح: فقد يلبث في مدائحه سنة. وربما بلغت قصيدته تسعين بيتًا فيقتصر منها بعد التهذيب على الثلث. وأبتْ عليه طبيعته المرِحة أن يقول في الرثاء؛ فلم يؤثر عنه منه إلا أربعة أبيات في رثاء يزيد بن معاوية، وهو سبب شهرته وأصل نعمته. وكان فخوراً بنفسه، لا يرى فوقه أحداً إلا الأعشى، ولذلك كان يجري على أسلوبه.

نموذج من شعره:

قال يمدح عبد الملك بن مروان:

نفسي فداء أمير المؤمنين إذا ... أبدى النواجذ يوماً عارم ذكر
الخائض الغمرة الميمون طائرهُ ... خليفة الله يُستسقى به المطر
في نبعة من قريش يعصمون بها ... ما إن يوازَى بأعلى نبتها الشجر
حُشدٌ على الحق عيّافو الخنا أُنفٌ ... إذا أَلمَّتْ بهم مكروهة صَبروا
لا يستقلُّ ذوو الأضغان حربَهمُ ... ولا يُبَيَّنُ في عيدانهم خَوَر
شُمسُ العداوة حتى يستقَادَ لهم ... وأوسع الناس أحلاماً إذا قَدَروا
هم الذين يبارون الرياح إذا ... قلّ الطعام على العافين أو قتَروا
بني أمية نُعماكم مجلّلَةٌ ... تمت فلا منَةٌ فيها ولا كدر

وقال يهجو الأنصار:

وإذا نسبتَ ابن الفريعة خلتَه ... كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الإله من اليهود عصابةً ... بالجزع بين صُلَيْصِل وصرار
قوم إذا هدر العصير رأيتهم ... حمراً عُيونُهُم من المسطار
خلوا المكارم لستم من أهلها ... وخذوا مساحيكم بني النجار
ذهبت قريش بالمفاخر كلها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

ومن قوله:

والناس همهم الحياة ولا أرى ... طول الحياة يزيد غير خبال
وإذا إفتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخراً يكون كصالح الأعمال

٢٠ ـ الفرزدق
٦٣٣ ـ ٧٠٦ م
١٢ ـ ١١٠ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو فراس همام بن غالب التميمي. كانت ولادته ونشأته بالبصرة، فدرج في عش الأدب وشب في ربوع الفصاحة. وأخذ أبوه يروِّيه الشعر ويعلمه القريض حتى تفتقت عنه قريحته، وانطلق به لسانه؛ فقدمه ذات يوم إلى أمير المؤمنين عليّ بعد واقعة الجمل مفتخراً بجودة شعره على صغره. فقال عليه السلام أقرئه القرآن فهو خير له. فارتسمت هذه الكلمة في ذهن الفرزدق حتى كبر، فصمم على حفظ القرآن، فقيد نفسه وأقسم ألا يفَك حتى يحفظه؛ وبَرّ بيمينه. ثم اتصل بولاة المصرين فنالهم بالمدح والهجاء، وأجازوه بالإدناء والإقصاء. ومدح خلفاء الأمويين بالشام ولا سيما عبد الملك فوصلوه ولكنه لم ينفق عندهم لتشيعه لآل عليّ. وكان الفرزدق معاصراً لجرير وكان بينهما تنافس وتحاسد. فما كاد يحتدم الهجاء بين جرير وبين شاعر آخر اسمه البَعِيث حتى وقف الفرزدق في صف البعيث وآزره. فغاظ ذلك جريراً فهجا الفرزدق، ورد عليه هذا، فاستطار بينهما الهجاء عشر سنين، ففتق ذهنيهما، وأحدَّ لسانيهما، ونمى فيهما قوة المبادهة والمجادلة، وصدق النظر. وانشعب الناس في أمرهما شعبتين، تناصر كل منهما أحد الشاعرين. وجعل أحد أشياع الفرزدق أربعة آلاف درهم وفرساً لمن يغلبه على جرير، وكان الفرزدق فاجراً، فاحش النطق، خبيث الهجاء، ضعيف الدين، قاذفاً للمحصنَات، يأوي إلى ركن شديد من شرف حسبه، وكرم نسبه. فاستعان بكل رذائله وفضائله على جرير فما هزمه ولا أسقطه.

ثم كانت له مواقف محمودة في الذود عن آل عليّ تجلت فيها صراحته وشجاعته، كموقفه يوم التقى بهشام بن عبد الملك في الحج، وسمعه يقول حينما رأى علي بن الحسين في موضع التجلة من الناس: (من هذا؟) تجاهلاً لأمره، وغضا من قدره. فشق ذلك على الفرزدق، فأجابه بقصيدته التي مطلعها:

هـذا الذي تعـرف البطحـاء وطـأتـه والبيت يعـرفـه والحِـلُّ والحـرم

---

٢٠ ـ انظ رجمته في: النقائض: لأبي عبيدة، انظر فهرسه، وفحولة الشعراء: ص ٢٣، ٢٤، ٣٨، ٣٩، وطبقات فحول الشعراء: ص ٢٥٠، ٢٥١ ـ ٣١٤، وأسماء المغتالين: ص ١٨٢ ـ ١٨٣ والشعر والشعراء: ص ٢٨٩ ـ ٣٠١، والمؤتلف والمختلف: ص ١٦٦، والأغاني: ٩/٣٢٤ ـ ٣٤٥، ٢١/٢٧٦ ـ ٤٠٣، وسمط اللآلى: ص ٤٤، وإرشاد الأريب: ٧/٢٥٧ ـ ٢٦١، ووفيات الأعيان: ٢/٢٥٩ ـ ٢٦٧، وخزانة الأدب: ١/١٠٥ ـ ١٠٨، ومعجم المؤلفين: ١٣/١٥٢ ـ ١٥٣.

فحبسه هشام ثم أطلقه بعد هجائه إياه. وتوفي الفرزدق بالبصرة سنة ١١٠ هـ وقد شارف المائة.

شعره:

كان الفرزدق فخوراً بأصله مدِلًّا بأهله، ولوعاً بتعداد مآثر آبائه حتى أمام الخلفاء، فغلب شعره في الفخر؛ ولغة الفخر تقتضي الألفاظ الضخمة، والأساليب الفخمة، والكلم الغريت، وذكر أيام العرب وأنسابهم، واحتذاء البادين في أساليبهم. لذلك أعجب به الرواة، وفضلة النحاة، وقالوا: لولا شعر الفرَزدق لذهب ثلث العربية. على أنه طالما تألم من صلابة شعره؛ وتمنى أن تكون له رقة جرير لعُهْره، ولجرير صلابته لطهره. وفي ذلك تأييد منه لحكم الأخطل عليهما بقوله: الفرزدق ينحت من صخر، وجرير يغرف من بحر.

والفرزدق بعد ذلك في الهجاء مقذع، وفي الوصف مبدع، وفي المديح وسط، وفي الرثاء متخلف.

نموذج من شعره:

إذا اغبرَّ آفاقُ السماء وكشَّفت ... بيوتاً وراء الحيّ نكباءُ حَرجُف
وأصبح مُبْيَضُّ الصقيع كأنه ... على سَرَوَات النِّيب قطنٌ مندَّفُ
ترى جارنا فيه بخير وإن جنى ... فلا هو مما ينطف الجار ينطف
وكنا إذا نامت كليب عن القِرى ... إلى الضيف نمشي بالعبيط ونلحف
لنا العزة القعساءُ والعدد الذي ... عليه إذا عدَّ الحصى يتخلف
ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا ... وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
وإنك إذ تسعى لتدرك شأونا ... لأنت المعنيً يا جرير المكَّلُف

وقال أيضًا:

ومستمنح طاوى المصير كأنما ... يساوره من شدة الجوع أوْلق
دعوت بحمراء الفروع كأنها ... ذرَى راية في جانب الجو تخفق
وإني سفيه النار للمبتغي القِرى ... وإني حليم الكلب للضيف يطرق
إذا مت فابكيني بما أنا أهله ... فكل جميل قلتِ فيَّ يصدَّق
وكم قائل مات الفرزدق والندى! ... وقائلة مات الندى والفرزدق

ومن قوله في مدح على بن الحسين:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحِلُّ والحرم
هذا ابن خير عِباد الله كلِّهم ... هذا التقيُّ النقيُّ الطاهر العلم

وليس قولك (مَنْ هذا) بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يُغضِي حياء ويُغضَى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم
يكاد يمسكه عرفانَ راحته ... ركنُ الحطيم إذا ما جاءَ يستلم
ينشقُّ نور الهدى عن نور غرته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم
من معشر حبُّهم دين وبغضهمُ ... كفرٌ وقربهمُ منجى ومعتصَم

ومن أبياته السائرة قوله:

فيا عجباً حتى كليبٌ تسُبُّني ... كأن أباها نهشل أو مُجاشع

وقوله:

وكنا إذا الجبار صعّر خده ... ضرَبناه حتى تستقيم الأخادع

وقوله:

تُرَجي ربيع أن يجيء صغارها ... بخير وقد أعيا ربيعاً كبارُها

وقوله:

قوارص تأتيني وتحتقرونها ... وقد يملأ القطرُ الإناءَ فيُفْعِم

وقوله:

أحلامنا تزن الجبال رزانة ... وتخالنا جِنًّا إذا ما نجهلُ

وقوله:

ترى كل مظلوم إلينا فراره ... ويهرب منا جهدَهُ كلُّ ظالم

٢١ ـ جرير[1]

٦٤٠ ـ ٧٢٨ م

٢٨ ـ ١١٠ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو حزْرة جرير بن عطية الخَطفي التميمي. ولد باليمامة لسبعة أشهر، ونشأ

٢١ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٣، ٢٤، ٣٨، ٣٩، ٤٥، ٦٥، وطبقات فحول الشعراء: ص ٣١٥ ـ ٣٨٦، والمؤتلف والمختلف: ص ٧١ والموشح: ص ١١٨ ـ ١٣٢، وسمط اللآلىء: ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ووفيات الأعيان: ١/١٢٧ ـ ١٣٠، ومعاهد التنصيص: ٢/٢٦٢ ـ ٢٦٩ وخزانة الأدب: ١/٣٦ ـ ٣٧، ومعجم المؤلفين: ٣/١٢٩ ـ ١٣٠ والمراجع: ٢/١٤٨ ـ ١٥٦.

(١) راجع صفحة ١٢٠، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢.

بالبادية، فشبَّ فصيح اللسان صحيح الوجدان مطبوع القريحة على الشعر. ولما آنس في نفسه القدرة على قرضه، والجرأة على عرضه، ورد البصرة موطن الفرزدق ينتجع الكرماء، ويمتدح الكبراء، ويمتار لأهله. فازدهاه ما رأى على الفرزدق من حُلل النعمة ومظاهر الجاه بفضل الشعر، وهو تميمي مثله، فدب في قلبه دبيب الحسد له، واشتهى أن يساويه في حسن حاله، ووفرة ماله.

فتولدت من تنافسهما وتزاحمها أسباب المهاجاة بينهما. وأراد جرير أن يرامي قِرنه عن كَثَب، فترك البادية واستوطن البصرة وغشى المربد. ودخل في كنف الحجاج فحسن موقعه عنده، وطارت مدائحه فيه، حتى بلغت عبد الملك فَنفَسِه على الحجاج. وأحس الوالي رغبة الخليفة فأوفده مع ابنه محمد إلى دمشق، فلما دخل جرير على عبد الملك استأذنه فأبى، وقال له بلهجة العاتب الحنِق: إنما أنت للحجاج! فما زال يتوسل إليه، ويتحمل بالناس عليه حتى أنشده قصيدته التي مطلعها:

أتصحو أم فؤادك غير صاح   عشية هَمّ صحبك بالرواح؟

فلما وصل إلى قوله منها:

ألستم خيرَ من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح؟

تبسم عبد الملك وقال: كذلك نحن وما زلنا كذلك. وأجازه بمائة لقحة وثمانية رِعاء، وأصبح جرير بعد هذه القصيدة وهمود الأخطل آثرَ الشعراء عند الخلفاء ولا سيما عمر ابن عبد العزيز، ولكن زَلفاه لدى القصرِ أشعلت نار الغيرة في قلوب مناظريه، فشَنوا عليه حرب الهجاء وأرَّث هذه الحربَ أعراضُ السياسة، وتحريضُ الفرزدق، وضيق خلق جرير، وحب الناس لمشاهد الخصومة؛ فنصب لجرير من هؤلاء الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعًا إلا الفرزدق والأخطل فإنهما نازعاه الغلبة وثَبتا له. ودامت هذه المهاجاة سجالاً بينهم حتى توفي الأخطل، ففرغ جرير للفرزدق وكانت بينهما النقائض المشهورة التي لهج بها الناس، وشغل بها الشعراء، ثم بدا للفرزدق أن يكف، فكف وتنسك حتى مات. فمضى جرير لسبيله بعده ببضعة أشهر ودفن باليمامة سنة ١١٠ هـ.

شعره:

برىء جرير من خبث الأخطل وسُكره، ومن جفاء الفرزدق وفجره، وتجمل بصفاء الطبع، ورقة الشعور، ونقاء الجيب، وصحة الدين، وحسن الخلق، فظهر أثر ذلك كله في شعره، فامتاز بطلاوة الأسلوب، وحلاوة الغزل، ومرارة الهجاء، وإجادة الرثاء، وحسن التصرف في جميع فنون الشعر. فكان بذلك أظهر في سماء الشعر، وأقرب إلى صفة

الشاعر، وأكثر أشياعاً من الأخطل والفرزدق. فإن الأول لم يجد إلا في المدح والهجاء والخمر، والثاني لم ينبغ إلا في الفخر.

نموذج من شعره:

قال يهجو الفرزدق:

لقد ولدت أمُّ الفرزدق مقْرفاً ... فجاءت بوزَّار قصير القوادم
بوصِّل حَبْليْه إذا جَنَّ ليله ... ليرقى إلى جاراته بالسلالم
دلَّيْتَ تزني من ثمانين قامة ... وقصَّرْتَ عن باع العلى والمكارم
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا ... مداخل رجس بالخبيثات عالم
لقد كان إخراج الفرزدق عنكم ... ظهوراً لما بين المصلي وواقم

ومن جيد قوله فيها:

تعالوا نحاكمكم وفي الحق مقنع ... إلى الغُرِّ من أهل البطاح الأكارم
فإن قريش الحق لم تتْبع الهوى ... ولم يرهبوا في الله لومة لائم
أذكركم بالله مَنْ ينهل القنا ... ويضرب كبش الجحفل المتراكم؟
وكنتم لنا الأتباع في كل موقف ... وريش الذُّنابي تابع للقوادم
إذا عُدت الأيام أخزيت دارماً ... وتخزيك يا ابن القين أيامُ دارم
وما زادني بُعد المدى نَقْض مِرَّة ... ولا رقَّ عظمي مضرُّوس العواجم

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز:

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قَدَرا ... كما أتى ربَّه موسى على قدر
أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت ... أم تكتفي بالذي بلِّغت من خبري
ما زلت بعدك في دار تَعَرَّقني ... قد طال بعدك إصعادي ومُنْحدري
لا ينفع الحاضرُ المجهود بادِينا ... ولا يجود لنا بادٍ على حضر
كم بالمواسم من شعثاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به ... مسًّا من الجن أو رزءاً من البشر
ممن يعدُّكَ تكفي فَقدَ والده ... كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر

ومن أبياته التي تفرد بها قوله في الغزل:

إن العيون التى في طرفها حَوَر ... قَتلْننا ثم لم يحيين قَتْلانا
يصرعَنْ ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنساناً

وقوله في الفخر:

إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت الناسَ كلهمُ غِضابا

وفي الهجاء:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وفي التهكم:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ... أبشر بطول سلامة يا مربع؟

ومن جيد فخره قوله:

إن الذي حرم المكارم تغلبا ... جعل الخلافة والنبوة فينا

مُضَرٌ أبي وأبو الملوك، فهل لكم ... يا خزر تغلب من أب كأبينا؟

هذا ابن عمي في دمشق خليفة ... لو شئت ساقكمُ إليَّ قطينا

ويقال إن عبد الملك لما بلغته هذه الأبيات قال: ما زاد ابن المراغة على أن جعلني شُرَطيًا. أما إنه لو قال: لَوْ شاء ساقكم إليّ قطينًا، لسقتهم إليه!

٢٢ ـ الطِّرِمّاح بن حكيم

... ـ ٧٤٣ م

... ـ ١٠٠ هـ

نشأته وحياته:

نشأ الطِّرمَّاح بن حكيم الطائيّ بدمشق في النصف الأخير من القرن الأول. وظل في الشام غفْلا من الأغفال حتى بلغ حد الرجال فانتقل إلى الكوفة مع مَنْ وردها من جنود بني أمية، ونزل في تيم اللات بن ثعلبة. وكان فيهم شيخ من الشرَاة الأزارقة[1] له سمت وهيئة، فكان يجالسه ويلابسه؛ فوقفه على عقيدته ودعاه إلى طريقته، فقبلها واعتقدها أشد اعتقاد وأصحه حتى لقي الله عليها. ثم عرف الكمَيْت بن زيد الأسدي، فتساهما الوفاء، وتقاسما المحبة، وتمكنت بينهما الألفة على اختلاف ما بينهما في النسب والمذهب والبلد. فالطرماح قحطاني شامي خارجي، والكميت عدناني كوفي شيعي. وقد سأل بعض الناس الكميت عن سر هذا

---

٢٢ ـ انظر ترجمته في: الشعر والشعراء: ص ٣٧١ ـ ٣٧٤، والمؤتلف والمختلف: ص ١٤٨، والمكاثرة ص ٣٩ وإرشاد الأريب: ٣٦١/٢، ٨/٧، وتهذيب ابن عساكر: ٥٢/٧ ـ ٥٣ وخزانة الأدب: ٤١٨/٣، ومعجم المؤلفين: ٤٠/٥ ـ ٤١، والمراجع: ٢٢٧/٣ ـ ٢٣٠.

(١) وهي فرقة من فرق الخوارج.

الاتفاق مع شدة هذا الاختلاف فأجاب: «إنما اتفقنا على بغض العامة» وهذا الجواب تصديق أو تطبيق للمثل اللاتيني القائل: «كل الشعراء أرستقراطيون». وعاش الطرماح عيش الشعراء على فضل الأغنياء يمدح من يعطيه ويهجو من يمنعه، وهو مع ذلك عزيز النفس، شريف الطبع، بعيد الهمة لم يَقِفه المال على حبه إياه مواقف الضراعة والهوان. دخل هو والكميت على مخلد بن يزيد المهلبي، فجلس لهما ودعاهما، فتقدم الطرماح لينشد، فقال له: أنشدنا قائماً. فقال: «كلا والله: ما قَدْرُ الشعر أن أقوم له فيخط مني بمقامي وأحط منه بضراعتي، وهو عمود الفخر، وبيت الذكر لمآثر العرب «فقيل له: تَنحَّ ودع الكميت، فأنشد الكميت قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم، فلما خرج شاطرها الطرماح وقال له: أنت أبا ضبيبة أبعد همة، وأنا ألطف حيلة.

وكان الطرماح مع اعتداد بأمره وإعظامه لقدره، معجباً بشعره فخوراً به. سمع هو وصاحبه الكميت أبياتًا من ذي الرُّمة، وكان معاصراً لهما، فضرب الكميت صدر الطرماح وقال: «هذا والله الديباج لا نسجي ولا نسجك الكرابيس» فقال الطرماح: «لن أقول ذلك ولو أقررت بجودته».

وكال الطرماح رغيب العين يشره إلى المال، ويتشوف إلى الغنى ويقول:

أَمُختَرِمِي رَيْبُ المنون ولم أنَلْ ... من المال ما أعصي به وأطيع؟

فدأب في سبيله وجدَّ في تحصيله، ودعا الله ألا يموت حتف أنفه بل يموت ميتة الجاهدين أو المجاهدين، فيكون شهيد الدنيا أو شهيد الدين.

وفي ذلك قوله:

وإني لمقتاد جوادي وقاذِفٌ ... به وبنفسي العام شتى المقاذف
لأكسب مالاً أو أؤول إلى غنى ... من الله يكفيني عِدات الخلائف
فيا رب إن حانَتْ وفاتي فلا تكن ... على شَرْجَعٍ يُعلَى بخضر المطارف
ولكن قبري بطنُ نسر مقيلُه ... بجو السماء في نسور عواكف
وأمسي شهيداً ثاوياً في عصابة ... يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم ... تقى الله نزَّالون عند التراجف
إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى ... وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

ولكن الله لم يستجب دعاءه فمات على فرش وحمل في نعش.

شعره:

نشأ الطرماح نشأة حضرية، فما عرف البادية ولا لابس البدو. ولكنه عاش في الكوفة وألَمَّ بالبصرة فسمع الرواة والنحاة فيهما يؤثرون الأدب الجاهلي ويقدمون الشعر البدوي،

لأنه موضع الشاهد، وموطن الغريب، فولد ذلك فيه وفي الكميت حب الغريب وتكلف الحوشي؛ فكان يتسقطه من الأعراب ويتلقطه من الرُّجَّاز، ويستعمله فلا يقع به في مكانه. قال العجاج: كان الطرماح والكميت يسألانني عن الغريب فأخبرهما به ثم أراه في شعرهما وقد وضعاه في غير موضعه. فقيل له: ولم ذلك؟ فقال: لأنهما قرويان يصفان ما لم يريا. ومن ثمّ كان الأصمعي وأبو عُبيدة يعيبان شعرهما في الإسلاميين، كما عابا شعر عدي بن زيد وأمية بن أبي الصلت في الجاهليين. وإنك لترى أثر هذا الميل ظاهراً في شعره، فبينما يأتيك بالأبيات الرقيقة الأنيقة العذبة، إذا به يرميك بالأبيات الغريبة البعيدة الفجَّة، فيشوه شعره ويكدر بحره. وقد سئل ابن الأعرابي عن ثماني عشرة مسألة من شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة! على أنه معدود في الفحول من الشعراء الإسلاميين، وله مذهب معروف في الهجاء يركب له المبالغة في تصغير شأن المهجوِّ وتحقير أمره فكأنما يوحى إليه. وكان الكميت وهو معاصره ومعاشره يُقِرُّ له بالنبوغ في نواح كثيرة من نواحي الفضل، فقد أنشد يومًا قول الطرماح:

إذا قُبِضتْ نفس الطرماح أخلقتْ ... عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال: إي والله! وعنان الخطابة والروية والفصاحة والشجاعة.

نموذج من شعره:

الطرماح من أصحاب الملحمات، وملحمته تريك التفاوت بين السهل الطبيعي والوعر المتكلف، ومطلعها:

قلَّ في شطِّ نهروانَ اغتماضي ... ودعاني هوى العيون المراض
فَتَطَرَّبْتُ للصبا ثم أوقفـ ... ـت رضاً بالتقي وذو البر راضي
وأراني المليك رشدي وقد كنـ ... ـت أخا عنجهيَّةٍ واعتراض
غير ما ريبةٍ سوى ريِّق الغرة (م) ... ثم ارعويت بعد البياض

ومنها:

وجرى بالذي أخاف من البين (م) ... لعين تَنوض كلّ مناض
صَيْدحِيُّ الضحى كأن نَساه ... حيث تجتث رجله في أباض
سوف تدنيك من لميسَ سَبَنْتَا ... ةُ أمارت بالبول ماءَ الكُراض
فهي قوداء أنْفَجَتْ عضداها ... عن زحاليفِ صِفْصف ذي دحاض

ويقول في آخرها:

إننا معشر شمائلنا الصبْـ ... ـر إذا الخوف مال بالأخفاض
نُصُرٌ للذليل في ندوة الحي ... مرَائيب للثأي المنهاض

لم يَفُتْنَا بالوتر قَوْمٌ وللضَّـ يم رجالٌ يرضون بالإغماض
فسلي الناس إن جهلت وإن شئـ ت قضى بيننا وبينك قاضي

ومن قوله:

لقد زادني حبًا لنفسيَ أنني بغَيضٌ إلى كل امرىء غير طائل
وأني شقيٌّ باللئام ولا ترى شقياً بهم إلا كريم الشمائل

ومن قوله يهجو بني تميم:

لو حان وِرد تميمٍ ثم قيل لها حوض الرسول عليه الأزد لم تزد
أو أنزل اللّه وحياً أن يعذبها إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
لا عز نصر امرىء أضحى له فرس على تميم يريد النصر من أحد
لو كان يخفي عَلَى الرحمٰن خافية من خلقه خفيت عنه بنو أسد

النثر

الخطابة:

كان ظهور الإسلام بالدعوة العظمى من أهم الأسباب التي بلغت بالخطابة غاية كمالها، وجعلت الأمر في أيدي رجالها. فإن الدعوة إلى الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع الفتن، وردع البدع، وتحميس الجند، كل أولئك من أغراض الخطابة. وكان لها من آي القرآن وحججه مَعينٌ لا ينضب، ومدد لا ينفذ. ولما اختلف المسلمون بعد مقتل عثمان وتعددت الفِرَق رقت الخطابة رقيًا عظيماً، لاعتماد كل حزب عليها في نشر نحلته، وتأييد دعوته.

وأهم ما يميزها في هذا العصر عذوبة ألْفاظها، ومتانة أسلوبها، وقوة تأثيرها واقتباسها من القرآن وانتهاجها منهجه في الإرشاد والإقناع، وابتداؤها بحمد اللّه والصلاة على رسوله.

وظل العرب على ما ألفوه في الجاهلية من لَوْث العمامة واتخاذ المِخْصرة والوقوف على نشز من الأرض، والخطبة من قيام، إلا الوليد بن عبد الملك فإنه خطب وهو جالس.

وجملة القول أن ليس في عصور اللغة عصر زَها بالخطابة وحفِل بالخطباء كهذا العصر لانصراف العرب عن الشعر إليها، واعتمادهم في الدين والسياسة عليها.

أشهر خطبائه الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدون، وسَحبان وائل وزياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، وقطَرِيُّ بن الفُجاءة.

٢٣ ـ محمد رسول الله ﷺ
٥٧١ ـ ٦٣٣ م
٥٣ ق هـ ـ ١١ هـ

مولده ونشأته وبعثته:

وُلد سيدنا محمد بن عبد المطلب بن هاشم القرشي في مكة صباح اليوم التاسع أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، أو اليوم العشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ للميلاد، في مهد اليُتم والعُدْم، فقد استوفى أبوه ظِمْء حياته حين كان هو جنيناً. ولم يكد يحبو للسادسة من عمره حتى استأثر الله بأمه، فحضنه جده سنتين حضانة إعزاز ومحبة. ثم أوصى به قبل وفاته إلى أبي طالب شقيق أبيه، فكفله على رقة حاله وكثرة عياله. ولو جرى الأمر على منهاج الطبيعة لشب محمد على أخلاق اليتامى وعادِ الجاهلية، ولكن الله تولى تأديبه وتهذيبه، فكمله بالعقل الرجيح، والخلق السجيج، والنفس الرضية، والحياة الوقور، والحلم الرفيق، والصبر المطمئن، والصفح الجميل، واللسان الصادق، والذمة الوثيقة، والجأش القوي، والفؤاد الجميع، ثم طهره من أرجاس الوثنية، فلم يشرب الخمر، ولم يأكل مما ذبح على النُّصُب، ولم يشهد للأوثان عيداً ولا حفلاً، وسمت نفسه الكبيرة على حداثتها إلى ابتغاء الرزق بحيلته وكده، فتصرف في التجارة على عادة قومه حاسراً لها عن ساقه ويده. وشاعت له في الناس فضائل الصدق والحذق والأمانة، فطلبت إليه السيدة خديجة بنت خويلد إحدى عقائل القرشيين وغنياتهم أن يتجر في مالها، فسافر إلى الشام مع خادمها ميسرة فنجحت سفرته وربحت صفقته. ثم ارتد إلى مكة فهزّ من عطف السيدة ما رأت من جزالة الرِّبح وأمانة الرابح فخطبته إلى نفسها، وهي في سن الأربعين وهو في حدود الخامسة والعشرين، فرضي زواجها، وخطبها عمه إلى عمها، وكان لها من جليل الأثر في الإسلام سهم ربيح، ثم مضى الرسول يضرب في الآفاق إلى الأسواق يكسب لأهله، وينمي ثروة زوجه؛ ونفسه عازفة عن مُتَع الحياة، صادفة عن لذاذة العيش، فلم يطمع في ثراء ولم يطمح إلى منصب، بل كان يُخلي ذرعه من صوارف الدنيا الليالي الطوالِ فيعتكف في غار حراء يتعبد ويتأمل، ويتجه بروحه الصافي اللطيف إلى الملأ الأعلى حتى أُوحي إليه

---

٢٣ ـ انظر ترجمته في: كتب السيرة والتاريخ والحديث وغيرها. مثل: سيرة ابن هشام، لابن إسحاق، والروض الأنف، للسهيلي، وعيون الأثر، لابن سيد الناس، وإنسان العيون، المعروف بالسيرة الحلبية، وسبل الهدى والرشاد، المعروف بالسيرة الشامية، وتاريخ الإسلام للذهبي، والطبقات الكبرى، لابن سعد، والكامل في التاريخ، لابن الأثير، والبداية والنهاية، لابن كثير، وتاريخ الأمم والملوك، للطبري، ومشاهير ابن حبان والاكتفاء وغيرهم كثير.

في هذا الغار بالرسالة والمعجزة وعمره يومئذ أربعون سنة قمرية وستة أشهر. فانقلب إلى زوجه مضطرباً فطمأنته وقالت له: والذي نفس خديجة بيده لا يخزيك اللّه أبداً! إنك لتصل الرحم، وتصْدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. وفتر الوحي مدة، ثم نزل على قلبه الروح الأمين بقوله اللّه تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[1] فقام بأعباء الرسالة والتبليغ ثلاث حجج في طي الخفاء. ثم أمر أن يصدع بالدعوة، فعالن بها قريشاً وسفه أحلامها، وعاب أصنامها، فكاشفوه بالعداء، وقصدوه بالإيذاء. ونصبوا له الحبائل، وتربصوا به الدوائر، وهو يتلقى كل ذلك بجُنَّةِ الصبر وعدَّة الإيمان، ومن ورائه عمه أبو طالب يذود عنه ويحميه، وزوجه السيدة خديجة تواسيه وتقويه، حتى سلخ على هذه الحال الشديدة عشر سنين. وفي السنة العاشرة من رسالته فجعه الموت في ذلك العم النبيل، وفي تلك الزوجة الفاضلة في يومين متقاربين، فاشتد عليهما حزنه، وخرج بعدهما في مكة مقامه. فانتوى الهجرة بالمسلمين إلى المدينة ـ وقد أسلم فيها كثير من الأوس والخزرج ـ فأحس المشركون منه هذا العزم فأتمروا به ليقتلوه. ولكنه خرج ليلة اجتماعهم على قتله هو وصديقه أبو بكر إلى المدينة تكلؤهما عين لا تغفو وقوة لا يقام لها بسبيل. فبلغاها يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٣ من مولده، وهو يوافق اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢ م. فكانت هذه الهجرة المباركة مبدأ لعلو كلمته وانتشار دعوته وتمام نصرته. واستمر يجاهد المشركين. يجادلهم بالقرآن، ويجالدهم بالسيف، حتى انحسر العمى وانجاب الشرك، وعلمت شمس التوحيد في أفق الوجود.

وحينئذ نزل قول اللّه تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[2] (فلم يأت على نزول هذه الآية الكريمة ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول بالحمى ولحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى يوم الاثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هجرية، ٨ من يونيو سنة ٦٣٢ ميلادية.

صفته:

وصفه بعض من رآه قال: كان رسول اللّه ﷺ فخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطولَ من المربوع وأقصر من المشذَّب، عظيمَ الهامة، رجُلَ الشعر، إن انفرقت عقيقته فرق وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وَفره؛ أزهَر اللون، واسع الجبين، أزجَّ الحواجب سوابغَ من غير قَرن، بينهما عِرق يُدرَّه الغضب، أقنى العرنينِ له نور يعلوه،

---

(١) سورة: المدثر: الآية: ١ ـ ٣.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ٣.

ويحسبه من يتأمله أشمَّ؛ كثَّ اللحية، أدعجَ، سهلَ الخدين، ضليع الفم، أشنب مفَلجَ الأسنان، دقيق المَسْرُبة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة؛ معتدلَ الخلق بادناً متماسكاً سواءَ البطن والصدر، بعيدَما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أشعرَ الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحبَ الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائلَ الأطراف، سَبْطَ العصب، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء. إذ زال زال تَقَلّعاً، ويخطو تكفؤاً، ويمشي هوناً. ذريعَ المِشية، إذ مشى كأنما ينحط من صَبَب، وإذ التفت التفت جميعاً، خافضَ الطرف، نظره إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السماء. جُل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام. وكان ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم؛ دمثاً ليس بالجافي ولا المَهين. إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلَّبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح وإذا فرح غضَّ طرفه. جُلّ ضحكة التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

فصاحته:

تقلب رسول اللّه ﷺ في أخلص القبائل منطقاً أو عذبها بياناً؛ فوُلد في بني هاشم، ونشأ في قريش، واسترضع في بني سعد. فكان أفصح العرب لساناً بالفطرة. وقد حدَّث بذلك عن نفسه فلم يُزَيف حديثه ولم يُدفع قوله. وفصاحة الرسول أشبه بالإلهام والفيض، فلم يعانها ولم يتكلفها ولم يرتَض لها، وإنما أسلست له الألفاظ وأسمحت له المعاني فلم يَنُدّ في لسانه لفظ، ولم يضطرب في أسلوبه عبارة، ولم يعزب عن علمه لغة، ولم يَنْبُ عن خاطِره فكرة وكان كلامه كما قال الجاحظ: الكلامَ الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلَ عن الصنعة ونزه عن التكلف. استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السُوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة، وشُدّ بالتأييد ويسر بالتوفيق. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح من معناه، ولا أبْين عن فحواه، من كلامه ﷺ.

أثر الحديث في اللغة والأدب:

أما أثر هذه البلاغة الروحية والفصاحة النبوية في اللغة وآدابها فأبيْنُ من أن يُبيَّن، فإنه عليه الصلاة والسلام قد اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من قوة الطبع وصفاء الحس ومحض السليقة وثقوب الذهن وتمكن اللسان ومؤازرة الوحي، فكان يقتضب ويتجوز ويشتق، وينهج المذاهب البيانية، ويرتجل الأوضاع التركيبية، ويضع الألفاظ الاصطلاحية، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان، وسرًّا من أسرار اللسان، يزيد في ميراث اللغة،

ويرفع من قدر الأدب. كقوله عليه الصلاة والسلام: مات حَتْف أنفه. الآن حمي الوطيس. هُدنة على دَخَن. يا خيل اللّه اركبي. لا ينتطح فيها عنزان. وقوله لحادي النساء رويدك! رفقاً بالقوارير. وقوله في يوم بدر: هذا يوم له ما بعده. ناهيك بما استحدثه عليه الصلاة والسلام من أساليب الدين وألفاظ الشريعة مما لم يأت به الكِتاب.

٢٤ ـ عمر بن الخطاب
٥٨٤ ـ ٦٤٤ م
٤٠ ق هـ ـ ٢٣ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو حفص عمر الفاروق بن الخطاب القرشي بعد مولد الرسول ﷺ بثلاث عشرة سنة، ونشأ نشأة الفتيان من قريش، فرعى الماشية صغيراً، ومارس التجارة والحرب كبيراً، ثم أخذ نَفسه بثقافة الأشراف من قومه، فتعلم الكتابة، وتقلب في التجارات بين اليمن والحبشة جنوباً، والشام والعراق شمالاً حتى فخم أمره وعظم قدره. واشتهر في الناس ببلاغة اللسان، وثبات الجنان، وقوة الشكيمة، ومضاء العزيمة، فجلعت له قريش السفارة بينهم وبين قبائلِ العربِ في السلم والحرب. ولما جاء الإسلام عارضه وناهضه ولجَّ في الخصومة والإنكار على متّبعيه، والمسلمون يومئذ لا يزيدون على خمسة وأربعين رجلا وثلاث عشرة امرأة يجتمعون سراً في دار الأرقم المخزومي، فكان الرسول ﷺ يدعو اللّه أن يعز الإسلام به أو بأبي جهل، فآختاره اللّه لهذه السعادة، وشرح صدره للشهادة. وذلك أنه دخل على خَتَنِه يؤنبه ويعذبه على إسلامه. فَلَحَتْه أخته وأخرجت له صحيفة فيها آيات من سورة طه، فلما قرأها تعظمتْ في صدره وقال: أمِن هذا فَرَّت قريش؟ ثم سأل أين الرسول؟ فقيل له في دار الأرقم. قال عمر: «فأتيت فضربت الباب فاستجمع القوم. فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا عمر! قال: وعمر! افتحوا له فإن أقبل قبلنا منه، وإن أدبر قتلناه. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فخرج، فتشهدت، فكبَّر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل مكة. قلت يا رسول اللّه ألسنا على الحق؟ قال: بلى! قلت: ففيم الاختفاء؟ فخرجنا صفين أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد. فنظرت قريش إليّ وإلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة. فسماني رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ».

---

٢٤ ـ انظر ترجمته في: الإصابة: ترجمة ٥٧٣٨، وحلية الأولياء: ١/٣٨، وصفة الصفوة: ١/١٠١، وأخبار القضاة: ١/١٠٥، والكامل في التاريخ: ٣/١٩، والبدء والتاريخ: ٥/٨٨، والخميس: ١/٢٥٩ و ٢/٢٣٩، واليعقوبي: ٢/١١٧، والأعلام للزركلي: ٥/٤٦.

كـان ذلك وسنّـه ست وعشرون سنة والأذى قد اشتـد بلاؤه بـالمسلمين فاحتمـل منه نصيبه، وعادى في اللّه صديقه ونسيبه، حتى تسلَّل المؤمنون لِـواذاً إلى المدينـة فارِّين من العذاب والفتنة. فلم يشأ عمر الجريء الباسل أن يخفي هجرته، وإنما تقلد سيفـه وتنكّب قوسه وأتى الكعبة، وأشراف قريش بفنائها، فطاف وصلّى، ثم أقبل عليهم وقال: «شـاهت الوجوه! من أراد أن تَثْكله أمه ويَيْتَم ولده وترملْ زوجته فلْيلْقني وراء هذا الوادي!» فلم يتبعه أحد.

ولم يزل مع رسول اللّه الصاحبَ الأمين يؤيده بسنانه ولسانه، ويرى لـه الرأي فيقـره القرآن في بعض الحوادث، حتى قبض الرسول واختلف الأنصار والمهاجـرون فيمن يكون الخليفة، فأيد هو أبا بكر حتى تمت له البيعة. وقام منه في خلافته مقام المستشار المؤتمن والقاضي العدل، حتى حضر الموتُ أبا بكر فلم يجد غيره من عهد إليه بالخلافة فتولاها بقوة المؤمن المخلص، وعـزمه القـوي الشجاع، وحنكـة الشيخ المجـرب، وحكمـة العبقـري الأريب، ووضـع يده على ملكـوت كسرى وقيصـر، وطفق وحده وهـو في قلب الصحـراء الجديبة يدبره ويسوسه. فيـولي الولاة، ويختـار القضاة ويُنَصِّب القـواد، ويحرك الأجنـاد، ويبعث الأمـداد، ويـرسم الخـطط، ويخـطط المـدن، ويسن السُنن، ويقسم الْفيء ويقيم الحدود، مما ينوء بالحكومات ويلتوي على المجالس. وكل ذلك في سداد رأي وثقوب ذهن وبعد نظر ومضاء عزم. وكل ذلك وهو مفترش الغبراء، ويعايش الـدهماء، ويتـدثر بـالثوب الخَلَق، ويأتدم بالخل والزيت ولا تزيد نفقته من بيت المال على درهمين في اليوم. ولا تزال خلافته مثل من المُثل العليا في النظام والعدل والأمن. ولكن عمر الذي أرضى اللّه والناس بعـدله وفضله، لم يُـرْض عبداً مجـوسيـاً اسمـه لؤلؤة، إذ نصـح لـه أن يحسن إلى مـولاه المغيرة بن شعْبة، وألّا يستكثر عليه درهمين في اليوم يؤديهما إليه، وهو نجار ونقاش وحداد، فاحتقد عليه هذه النصيحة، ودبّ إليه في الغلس وهو قائم يصلي بالناس في الفجر فطعنـه بخنجر ذي نصلين طعناتٍ كانت سبب موته. وذلك ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ.

صفاته ومواهبه:

كان أمير المؤمنين عمر طويلاً جسيماً، أبيضَ شديد الحمـرة، أصلعَ أشيبَ، خفيف شعر العارضين، أصهب طرف السبال كبيرَه. وكان رفيقاً رقيقاً إلا إذا وجب الحق فلا تأخذه فيه هَوادة. وقَلَّ مَن سلم من كبار الصحابة وأشراف القبائل من دِرَّته (عصاه). وكان مُحْصَدَ الرأي، محْكَم الحيلة، مُوثَّق الحجة، شديد الورع، طاهر اليد، واسع العلم، حافل الخاطر بالحكمة، بارع الفقه في الدين، إذا ذكرتَ علياً ببلاغه اللسان ذكـرته هـو ببلاغـه العقل. وحسبك أن تقرأ له عهوده وكتبه للقضاة والولاة والقادة فترى منه الفقيه المجتهد، والإداري

الحازم والسياسي المحنك، وكل ذلك دون تلقين ولا وحي ولا اقتداء، وإنما هو فضل اللّه يؤتيه من يشاء.

نموذج من عهوده وخطبه:

ذلك عهده إلى أبي موسى الأشعري حين ولاه القضاء، وقد اعتبره جمهور من القضاة أساساً للنظام وقاعدة للأحكام وما أجدره بذلك!

بسم اللّه الرحمن الرحيم. من عبد اللّه عمر أمير المؤمنين إلى عبد اللّه بن قيس، سلامٌ عليك. أما بعد فإن القضاء فريضةٌ محكمة وسنة متبعَة. فافهم إذا أُدلي إليك فإنه لا ينفع تكلمٌ بحق لا نفاذ له. آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيْفك، ولا ييأسَ ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرم حلالاً. لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة. ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها عند اللّه وأشبهها بالحق. واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه. فإن أحضر بيِّنته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد، أو مُجرَّباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو نسب، فإن اللّه تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان، وإياك والغلق والضجرَ والتأذّي بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يُعظِم اللّه به الأجرَ ويحسن به الذخر؛ فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه اللّه ما بينه وبين الناس. ومن تخلق للناس بما يعلم اللّه أنه ليس من نفسه شانه اللّه، فما ظنك بثواب غير اللّه في عاجل رزقه وخزائن رحمته؟ والسلام.

ومن خطبة له رضي اللّه عنه:

أيها الناسُ! إنه أتى عليّ حينٌ وأنا أحْسِبُ أنَّ مَن قرأ القرآنَ إنما يريد اللّه وما عندَه. ألا وإنهُ قد خُيِّل إليَّ أن أقواماً يقرؤن القرآن يريدون ما عندَ الناس. ألا فأريدوا اللّه بقراءتِكم وأريدُوه بأعمالِكم، فإنما كنَّا نعرِفُكم إذ الوحيُ ينزلُ، وإذا النبي ﷺ بينَ أظهُرِنا، فقد رُفِع الوحيُ وذهبَ النبيُّ عليه السلام، فإنما أعرِفكم بما أقولُ لكم: ألَا فَمن أظْهر لنا خيراً، ظننا به خيراً وأثنيْنا به عليه، ومن أظهرَ لنا شراً ظَنَنَّا به شراً وأبغضناه عليه.

اقْدَعوا هذه النفوسَ عن شهواتِها فإنها طُلعة. وإياكم ألَّا تقدَعوها تنْزِعُ بكم إلى شرٍّ غايةٍ إنَّ هذا الحقَّ ثقيلٌ مريءٌ، وإنَّ الباطلَ خفيفٌ وبيءٌ، وترْكُ الخطيئةِ خيرٌ من معالجةِ التوبةِ.

٢٥ ـ علي بن أبي طالب
٦٠٠ ـ ٦٦١ م
٢٣ ق هـ ـ ٤٠ هـ

نشأته وحياته:

ولد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة، ورُبِّيَ مع الرسول في بيته تخفيفاً عن أبيه. ولما بعث النبي ﷺ بالرسالة كان عليٌّ مراهقاً، فآمن به وشب على حبه، وتغلغلت أصول الدين في قلبه، وخاطر بنفسه في سبيل الرسول ليلة هجرته، وأبلى البلاء الحسن في تأييده ونصرته، وشهد الغزوات كلها إلا تَبوك فقد خلَّفَه النبي فيها على أهله. فلما لحق الرسول بربه كان عليٌّ يرى أنه أحق بخلافته لمكانته من شرف القرابة والصهر. فلما بايع المسلمون أبا بكر وقام بعهده من بعده عمر، وأخطأته الشورى إلى عثمان، ناوص الجرةَ ثم سالمها، متحاملاً في كل ذلك على نفسه. وقُتل عثمان فبايعه الناس في الحجاز، وامتنع معاوية وأهل الشام معه غضباً لمقتل عثمان وقعود عليٍّ عن القتلة. وكان ما كان من الفتنة التي حلّت العُقَد، وأوهنت العُرى، وقسمت المسلمين إلى طائفتين تعادتا واقتتلتا حيناً من الدهر. ثم قرت السيوف في الأغماد دون أن يستوثق الأمر لأحد الرجلين. وائتمر ثلاثة من الخوارج بزعماء هذه الفتنة الثلاثة: معاوية وعمرو بن العاص وعلي. فكان أمير المؤمنين نصيب ابن ملجَم، فقتله غيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ وقد مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياماً.

أخلاقه ومواهبه:

كان عليّ كرم اللَّه وجهه قوي العضل صادق البأس شجاع القلب لا يبالي أوَقع على الموت أو وقع الموت عليه. وكان حُجة في الفقه، قُدوة في الورع، شديد الشكيمة في الحق، قوي الثقة بالنفس، لا يعرف الهوادة في الدين ولا المرونة في الدنيا؛ فكانت هذه الخلال الكريمة من أنصار معاوية الداهية في الخلاف عليه. ولا نعلم بعد رسول اللَّه فيمن سلف وخلف أفصح من علي في المنطق، ولا أبلّ ريقاً في الخطابة. كان حكيماً تتفجر الحكمة من بيانه، وخطيبًا تتدفق البلاغة على لسانه، وواعظاً ملء السمع والقلب، ومترسلاً بعيد غور الحجة، ومتكلماً يضع لسانه حيث شاء. وهو بالإجماع أخطب المسلمين وإمام

---

٢٥ ـ انظر ترجمته في: تاريخ الأمم والملوك: ٨٣/٦، وصفة الصفوة: ١١٨/١، والبدء والتاريخ: ٧٣/٥، وتقاتل الطالبين: ص ١٤، وحلية الأولياء: ٦١/١، وشرح نهج البلاغة: ٥٧٩/٢، ومنهاج السنة: ٢/٣، وتاريخ الخميس: ٢٧٦/٢، والإسلام والحضارة العربية: ١٤١/٢.

المنشئين، وخطبه في الحث على الجهاد، ورسائله إلى معاوية، ووصفه الطاووس والخفاش والدنيا، وعهده للأشتر النخعي إن صح ذلك، تعد من معجزات اللسان العربي، وبدائع العقل البشري. وما نظن ذلك قد تهيأ له إلا لشدة خلاطه للرسول ومِرَانته منذ الحداثة على الخطابة له والخطابة في سبيله.

نموذج من كلامه:

كلام أمير المؤمنين يدور على أقطاب ثلاثة. الخطب والأوامر، والكتب والرسائل، والحكم والمواعظ. وقد جمعها على هذا النسق الشريفُ الرَّضِيّ في كتاب سماه (نهج البلاغة) لأنه كما قال بحق: «يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرب عليها طِلابها، فيه حاجة العالم والمتعلم، وبغية البليغ والزاهد، ويضيء في أثنائه من الكلام في التوحيد والعدل ما هو بلال كل غلة، وجلاء كل شبهة» والصحيح أن أكثر ما في هذا الكتاب منحول مدخول.

فمن خطبه عليه السلام وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد. فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال: هذا جزاء من ترك العقدة! أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم، وإن اعوججتم قوَّمكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكانت الوثقى. ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن أُداوَى بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضَلْعها معها. اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدَوِيّ، وكلت النَّزَعَةُ بأشطان الرَّكِيّ! أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فوَلِهوا وَله اللقاح إلى أولادها، وسلَبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زَحْفاً زَحْفاً، وصفًا صفًا، بعض هلك، وبعض نجا، لا يُبَشَّرون بالأحياء، ولا يعزَّوْن بالموتى. مُرْه العيون من البكاء، خُمْص البطون من الصيام، ذُبْل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غَبرة الخاشعين. أولئك إخواني الذاهبون! فحق لنا أن نظمأ إليهم ونَعض الأيدي على فراقهم.

إن الشيطان يُسْنِّي لكم طُرقه، ويريد أن يحلَّ دينكم عقدة عقدة، ويعطيكم بالجماعة الفرقة. فاصدفوا عن نزغاته ونفَثاته، واقبلوا النصيحةَ ممن أهداها إليكم وأعقِلوها على أنفسكم.

ومن كلام له عليه السلام:

إلا وإن الخطايا خيل شمْسٌ حُمِل عليها أهلها، وخُلعت لجمها فتقحَّمت بهم في النار. وإن التقوى مطايا ذُلُل حُمِل عليها أهلها، وأُعطوا أزمَّتها فأوردتهم الجنة. حقٌّ وباطل، ولكلٍّ أهل. فلئن أمر الباطل فقديماً فعل، ولئن قلّ الحق فلربما ولعل، ولقلَّما أدبر شيء فأقبل. شُغل مَنِ الجنة والنار أمامه. ساع سريعٌ نجا، وطالبٌ بطيء رجا، ومقصر في النار

هَوى، اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الجادّة، عليها باقي الكتاب وآثار النبوة، ومنها منفذ السنة، وإليها مصير العاقبة.

٢٦ ــ سحبان وائل
٠٠٠ ـ ٦٧٤ م
٠٠٠ ـ ٥٤ م

نشأته وحياته:

نشأ سحبان بن زفَر بن إياد في الجاهلية بين قبيلة وائل من ربيعة، ثم دخل في الإسلام عند ظهوره، واتصل بمعاوية، فحسن موقعه لديه، واعتمد في يوم الكلام عليه. وكان سحبان خطيباً غَمْر البديهة، قوي العارضة، متصرماً في فنون الكلام، كأنما يتلو عن ظهر قلبه. وبه يُضرب المثل في كل ذلك.

قدم على معاوية وفد من خراسان فطلب سحبان فلم يجده في منزله، فاقتضب من حيث كان وأُدخل عليه. فقال له معاوية: تكلم. فقال: أحضروا إليَّ عصا. قالوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه. فضحك معاوية وأمر له بها. فلما جاءته ركلها ولم ترق في نظره، فجاءوه بعصاه، وخطب من صلاة الظهر إلى أن حان وقت العصر ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولا تلكأ ولا ابتدأ في معنى وخرج منه وقد بقي فيه شيء. فما زالت تلك حاله حتى دهش منه الحاضرون. فأشار إليه معاوية بيده فأشار إليه سحبان: لا تقطع عليَّ كلامي! فقال معاوية: الصلاة! قال هي أمامك! نحن في صلاة وتحميد، ووعد ووعيد. فقال معاوية! أنت أخطب العرب، قال سحبان: والعجم والجن والإنس. وهذه الحادثة تدل على قوته وجُرأته وغزارة بحره، ومعرفته لقدره. ولكن المأثور من خطبه قليل في جانب شهرته. ولعل خلوه من الجاه والرياسة، وبعده عن الأحزاب والسياسة، وطول خطبه ووحدة موضوعها صرف الرواة عنه. كانت وفاته في خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ.

نموذج من خطبه:

إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار. أيها الناس فخذوا من دار مَمَرِّكم، إلى دار مقركم، ولا تهتكوا أستاركم، عند من لا تخفى عليه أسراركم؛ وأخرجوا من الدنيا قلوبكم،

---

٢٦ ـ انظر ترجمته في: بلوغ الأرب: ١٥٦/٣، وشرح المقامات للشرشي: ٢٥٣/١، وتهذيب ابن عساكر: ٦٥/٦، وخزانة الأدب: ٣٤٧/٤، ومجمع الأمثال: ١٦٧/١، والأعلام للزركلي: ٧٩/٣.

قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها حييتم، ولغيرها خلقتم، إن الرجل إذا هلك، قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدم؟ فقدموا بعضاً يكون لكم، ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم.

٢٧ ـ زياد ابن أبيه
٦٢٢ ـ ٦٧٣ م
١ ـ ٥٣ هـ

نشأته وحياته:

كان للحارث بن كَلدة الثقفي طبيب العرب أَمَةٌ بَغِيٌّ تُدعى سمَيَّة، وعبد رومي يسمى عُبْيداً. فزوَّج العبد من الأمَة. فولدت على فراشه زياداً في السنة الأولى من الهجرة! وقد ضرَبَتْ فيه بِعرق أشِبٍ فنشأ أريباً أديباً. ولم يكد أمر المسلمين يتسع ويتسق حتى دلت عليه كفايته، فاستكتبه أبو موسى الأشعري والي البصرة من قِبَل عمر، فتجلى نبوغه وظهر حذقه. ثم تقلبت به الأمور في عهد عمر حتى شاء أن يعزله عن عمله «لا لخيانة ولا لعجز، وإنما كره أن يحمل على الناس فضل عقله» على أن عمر كان يستكفيه المهم من أموره فيكفيه غيرَ عاجز ولا مقصر. وخطب بين يديه يوماً في حضرة المهاجرين والأنصار خطبة لم يسمعوا مثلها. فقال عمرو بن العاص: للّه در هذا الغلام! لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه. وبلغ من إعجاب أبي سفيان به أن اعترف بعد إسلامه لعلية قريش وفيهم عليٌّ أنَّ زياداً ابنه، اشتملت عليه أمه منه وهو مشرك، ولكن خوفه من عمر منعه أن يلحقه بنسبه. ولما تولى الخلافة أمير المؤمنين عليّ وجد في زياد اليد المصرِّفة، والرأي الجميع، واللسان الذرب، فاستعمله، فراض له الأمور، وسد الثغور، وأحكم الساسة. وحاول معاوية أن يستميله إليه فأعياه حتى قتل عليّ، فرأى أن يستخلص مودته باستلحاقه بنسب أبيه وادعائه أخاً له، فصار يدعى بعد ذلك زياد بن أبي سفيان. ولكن كثيراً من الناس لا يعترف له بهذا النسب، ثم ولاه معاوية المصرين، وهو أول من جمعا له فكان يقيم في البصرة ستة أشهر وفي الكوفة مثلها. كانت وفاته بالطاعون سنة ٥٣ هـ.

أخلاقه ومواهبه:

كان زياد من ذوي الأحلام الوافرة والأذهان الحاضرة واللسان الفتيق، قال فيه

---

٢٧ ـ أنظر ترجمته في: تاريخ الطبري: ١/٢٤٦٥ ـ ٢٤٦٦، ٢/٦٦ ـ ٨٧، ٥٨/٣ ومروج الذهب: ١٥/٥ والأغاني: ١٢/٧٣ ـ ٧٥، ١٦/٣ ـ ٩، ٢١/٢١ ـ ٤٠ ومعجم البلدان: ٩٠٥/١ ومقدمة ابن خلدون: ٥/٣ ـ ١٥ وابن خلدون: البدء والتاريخ ٢/٦، وخزانة الأدب: ٥١٧/٢، ودائرة المعارف الإسلامية ١٣٣٤/٤ ـ ١٣٣٥، والأعلام للزركلي: ٥٣/٣.

الشعبي: ما سمت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً؛ فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً».

وزياد من أقوى العمدَ التي قام عليها عرش بني أمية. رمى به معاويةُ وجوه الفتن فلمّ الشعث وشدّ السلطان، واشتد في العقوبة! فأخذ بالظِّنة، وعاقب على الشبهة، وقتل المعلن، واستصلح السِرَّ، وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً، وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل والمرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، ولا يغلق أحد بابه. وهو أول من أعلن الحكم العرفي في الإسلام بخطبته المعروفة بالبتراء وهي التي خطبها حين قدم البصرة.

نموذج من كلامه: خطبته البتراء

أما بعد: فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغيَّ المُوفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور التي يَنْبُتُ فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب اللّه، ولم تسمعوا ما أعد اللّه من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول. إنه ليس منكم إلا من طرفتْ عينه الدنيا. وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تُسبقوا إليه، مِن تركِكم الضعيف كقهر، والضعيفة المسلوبة بالنهار لا تُنصر، والعدو غير قليل، والجمع غير مفترق. ألم يكن منكم نُهاةٌ يمنعون الغُواة عن دلَجِ الليلِ وغارة النهار؟ أقربتم القرابة، وباعدتم الدين. تعتذرون بغير العذر، وتغضون على النُكر، كل امرىء منكم يرد من سفيهه صنْعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً! ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كُنُوساً في مكانس الريبِ، حرام عليَّ الطعام والشراب حتى أسوّيها بالأرض هدماً وإحراقاً. إن رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني لأقسم باللّه لآخذنّ الولي بالمَوْلى والمقيم بالظاعن، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول: انْجُ سعدُ فقد هلك سُعيد، أو تستقيم قناتكم. إن كِذْبة الأمير بَلْقاء مشهورة، فإذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي. فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيّ واعلموا أن عندي أمثالها، من نقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله. فإياي ودلَج الليل فإني لا أوتَى بمدلج إلا سفكت دمه. وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة. فمن أغرق قوماً أغرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه. ومن نقب قلباً نقبنا عن قلبه. ومن نبش قبراً دفناه فيه حيًّا. فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدي ولساني. ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامّتكم إلا

ضربت عنقه. وقد كان بيني وبين قوم إِحَنٌ فجعلت ذلك دَبْرَ أذني وتحت قدمي. إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلُّ من بُغضي لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل ذلك لم أناظره. فاستأنفوا أموركم. وأعينوا على أنفسكم، فرُبَّ مبتئس بقدومنا سيُسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس! إنا قد أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا. ولكم علينا العدل فيما وَلينا. فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا. وأيم الله إن لي فيكم لصَرْعى كثيرة، فليحذر كل منكم أن يكون من صَرْعَاي!

٢٨ ـ الحجَّاج بن يوسف
٦٦١ - ٧١٤ م
٤١ ـ ٩٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٤١ في مهد الخمول والفقر. فزاول مع أبيه تعليم الصبية بالطائف؛ إلا أن نفسه الرغيبة الطامحة ربأت به عن الضعَّة فلفت إليه بذكائه رَوْحَ بن زنْباع الجذامي أحد أعوان عبد الملك بن مروان فجعله في شُرْطته. ورأى الخليفة انحلال عسكره فشكا ذلك إلى رَوح بن زنباع فدله على الحجاج، فقلده إمرة الجند فسلكهم في النظام وردهم إلى الطاعة. ثم اشتهر أمره ونبه ذكره بقيادة الجنود إلى عبد الله بن الزبير، وقد دعا إلى نفسه بالحجاز، فحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه. فثبتت كفايته وسمت مكانته في نفس عبد الملك، فولاه العراق وهو يضطرب بفتنة الشيعة، ويضطرم بثورة الخوارج، فعسفهم عسفاً شديداً أذل أعناقهم، وطأطأ إشرافهم، وعاد بهم إلى حظيرة الجماعة يتعثر في أشلائهم، ويخوض بهم في دمائهم.

وبقي طول حياته بالعراق دِعامةً لمُلك عبد الملك وابنه الوليد يضبطه ويبسطه حتى طبق ما بين الشام والصين. ثم مات بواسط سنة ٩٥هـ.

---

٢٨ ـ انظر ترجمته في: البدء والتاريخ: ٢٧/٦، والجرح والتعديل: ١٦٨/٣، وتعجيل المنفعة: ص ٨٧ وتاريخ البخاري: ٣٧٢/٢، والمعارف: ص ٣٩٥، ٥٤٨، ومروج الذهب: ٣٦٥/٣، والبدء والتاريخ: ٢٧/٦، ومعجم البلدان: ٣٨٢/٨، وشذرات الذهب: ١٠٦/١، والأعلام للزركلي: ١٦٨/٢.

أخلاقه ومواهبه:

كان الحجاج طماحاً إلى السلطان والمجد، فسلك إليهما سبيل الظلم والقسوة، وتذرع لنيلهما بالفصاحة والقوة، ورزقه اللّه من طلاوة اللسان وقوة الجنان القسط الأوفر، فانتهى أمره إلى السلطان القاهر والكلمة النافذة. قال له عبد الملك يوماً: كل امرىء يعرف عيوب نفسه، فصفْ نفسك ولا تخْف عني شيئاً. فقال: «أنا لجوج حقود حسود. ومتى كانت هذا الصفات في متسلط أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا» وكان فصيحاً قوي الحجة لا يكاد يعدله في ذلك أحد من أهل زمنه. قال مالك بن دينار: «ما رأيت أحداً أبْين من الحجاج: إنه كان لَيرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين». مع أنه قتل منهم بالصبر مائة وعشرين ألفاً، وتُوفي وفي سجونه منهم خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة.

نموذج من خطبه:

لما قدم الحجاج أميراً على العراق دخل المسجد مُعْتَمًّا بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، وصعد المنبر وهو متقلد سيفه مُتنكب قوسَه، ومكث ساعة لا يتكلم. فقال الناس بعضهم لبعض: قبح اللّه بني أمية إذ تستعمل مثل هذا على العراق! وَهمَّ عُمَير بن ضابىء البُرجمي أن يرجمه، فمنعه الناس حتى يروا عاقبة أمره، فلما رأى الحجاج عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا ... متى أَضعِ العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة! إني لأرَى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها! وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللّحى!

هذا أوان الشد فاشتدّي زِيَم ... قد لفَّها الليلُ بسوَّاق حُطَم
ليس براعي إبل ولا غنم ... ولا بجزَّار على ظهر وَضم
قد لفها الليل بعَصْلَبيّ ... أروَع خَرّاج من الدوِّيّ
مهاجر ليس بأعرابي
قد شمرَّت عن ساقها فشدُّوا ... وجدَّت الحربُ بكم فجدُّوا
والقوسُ فيها وَترٌ عُرُدُّ ... مثلُ ذِراع البكر أو أشدّ
لا بدّ مما ليس منه بُد!

إني واللّه يا أهلِ العراق ما يُقعقَعُ لي بالشنان، ولا يُغمزُ جانبي كتَغْماز التنين. ولقد فُررتُ عن ذكاء، وفُتشْتُ عن تجربة. وإن أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه، نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرَّها عوداً وأصلَبها مكسِراً فرماكم بي. لأنكم طالما أوضَعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال.

واللّه لأحزمنكم حزْم السَّلَمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل؛ فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم اللّه فأذاقها اللّه لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. وإني واللّه ما أقول إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فرَيْت. وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أُعْطياتِكم وأن أوجهكم إلى محاربة عدوكم مع المهلّب بن أبي صفرة. وإني أقسم باللّه لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه.

الكتـابـة

كان أولياء العرب في الصدر الأول كتَّاباً بالطبع يُملون أو يكتبون ما يريدون بأسلوب مُوجز ولفظ فصيح. فلما امتدَّت ظلال الخلافة وفاضت موارد الفيْء اضطرهم ضبط ذلك إلى إنشاء الدواوين فدوَّنها عمر. ثم عهد الخلفاء بالكتابة فيها إلى العرب والموالي والمتعربين. وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل المصر: ففي العراق وفارس بالفارسيّة، وفي الشام بالرومية، وفي مصر بالقبطية حتى حذقها من العرب طائفة صالحة سدوا حاجة الدواوين فحوِّلت كلها إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد.

ثم ثقلت أعباء الدولة على الخلفاء فاتخذوا نواميس من كتاب العرب وأدباء الموالي، وفي هؤلاء مَنْ وقف على أنظمة الفرس والروم فوضعوا للرسائل قيوداً وحدوداً أوشكت أن تصير بها صناعة.

أما أسلوبها فكان جزلَ الألفاظ، فخم التراكيب، واقفاً عند الغرض، خالياً من التطويل والتجميل والمبالغة، جارية فيه الضمائر على قانون الوضع، فلا تستعمل ضمائر الجمع في كلام المتكلم وخطاب الواحد وكانت تُبدأ بالبَسْملة وقولهم: من فلان إلى فلان، أما بعد. أو إني أحمد إليك اللّه الذي لا إله إلا هو. وتختم بالسلام، أو بقولهم: والسلام على من اتَّبع الهدى. فلما وُلِّيَ الخلافة الوليد بن عبد الملك أمر بتجويد القراطيس، وتفخيم الخطاب، وألا يكاتَبَ بمثل ما تكاتب به السوقة. وجرى العمل على ذلك من بعده، حتى استُخلف عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، فحملهما الورع ومَقْتُ البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف.

على أن نظام الكون وطبيعة الناس في هذا العهد أَبَيَا هذا الجمود، فجاء عبد الحميد الكاتب فأسهب في الرسائل ونمقها ورققها وأطال التحميدات في أولها وتبعه في ذلك سائر الكتاب. وجملة القول أن النثر في أربعين سنة خطا في سبيل الكمال بفضل الدين والفتوح خطوة واسعة، فانتقل من السجعات القصيرة المفككة، والمعاني العامة المجملة، إلى هذا

الأسلوب المحكم الفقِر، المطرد السياق، المختلف الغرض، العميق الأثر، كما ترى في رسائل الإمام عليّ وخطبه وهو تقدم سريع لم يظفر بمثله الشعر.

الكُتَّاب

٢٩ ـ عبد الحميد بن يحيى

٠٠٠ ـ ٧٥٠ م

٠٠٠ ـ ١٣٢ هـ

نشأته وحياته:

نشأ أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بالشام من سلالة غير عربية، ونُسب إلى بني عامر نسبة وَلائية. ثقَفَ الكتابة على سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب سره ثم أخذ يمارس تعليم الصبية يجوب إلى ذلك البلد بعد البلد حتى علم بمكانته مروان بن محمد فاستكتبه أيام ولاية على أرمينية فكتب له ونفق عنده وتأكدت بينهما المودة. فلما جاء البشير بمبايعة أهل الشام لمروان بالخلافة سجد للّه شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد. فقال له مروان. لم لا تسجد؟ فقال: ولم أسجد؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا؟ فقال: إذن تطير معي. فقال: الآن طالب السجود. وسجد. فاتخذه مروان كاتب دولته. ولما هاله خفوق الألوية السود ودنُوُّ أبي مسلم وتتَابع الفشل قال لعبد الحميد: قد احتجت أن تصير مع عدوي، وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك، وحاجتهم إلى كتابتك، تحوجهم إلى حسن الظن بك. فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرَمي بعد مماتي. فقال له عبد الحميد: إن الذي أشرت به عليّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، ما عندي إلا الصبر حتى يفتح اللّه عليك أو أقتل معك، وأنشد:

أسِـرُّ وفـاء ثـم أظـهـر غَـدرة فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره؟

ومكث معه حتى قتل مروان بمصر، فلجأ إلى صديقه عبد اللّه بن المقفع بالبحرين ففاجأه الطلب وهو في بيته. فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل منهم: أنا. مخافة على صاحبه. وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع لو لا أن صاح بهم عبد الحميد قائلاً: ترفقوا بنا فإن لكل منا علامات، فوكِّلوا بنا بعضكم وليْمض البعض الآخر إلى من وجهَّكم فيذكر له تلك العلامات، ففعلوا وأخذ عبد الحميد فقتل سنة ١٣٢ هـ.

---

٢٩ ـ انظر ترجمته في: مروج الذهب: ٢٦٣/٣، وثمار القلوب: ص ١٩٦، وأمراء البيان: ٣٨/١ ـ ٩٨، والشرشي: ٢٥٣/٢، وصبح الأعشى: ١٩٥/١٠، والوزراء والكتاب: ٧٢ ـ ٨٣، والصناعتين: ص ٦٩، وعيون الأخبار: ٢٦/١، والبيان والتبيين: ٩/٣، والأعلام للزركلي: ٢٨٩/٣.

أثره في الكتابة:

كانت الكتابة قبل عبد الحميد حديثاً مكتوباً لا ترجع إلى نظام ولا تحور إلى فن ولا تعد في الصناعات الشريفة. فلما تقلدها كانت الحال داعية والنفوس مهيأة إلى فن من الكتابة جديد، فإن تشعُّب أطراف الدولة، وبدوَّ ثمار الحضارة، وزهوَّ النثر والخطابة ودنوَّ العربية من الفارسية وتخرُّجَ عبد الحميد على سالم مولى هشام، وصلته الوثيقة بابن المقفع، كانت سبباً في ظهور هذا النمط الجديد في أسلوب عبد الحميد. فقد نوع الخطاب موافقة لحال المخاطب، وأوجز وأطنب مراعاة لمقتضى الحال، وتفنن في البدء والختام مطابقة للغرض، وأطال التحميدات في صدور الرسائل، وسار على أثره المترسلون فأصبحت الكتابة صناعة محررة الأصول مميزة الفصول مبيَّنة القواعد.

أسلوبه:

أسلوب عبد الحميد عذب المورد صافي الديباجة، يسبي المشاعر ويفعل بالألباب فعل السحر. وقد عرف الناس له ذلك حتى إن أبا مسلم الخراساني أبى أن يقرأ الكتاب الذي كتبه إليه عن لسان مروان يستجلبه به ويستميله، ثم أحرقه إشفاقاً على نفسه من تأثيره؛ وكتب على جُذَاذة منه إلى مروان:

محا السيفُ أسطارَ البلاغةَ وانتحى　　　عليك ليوثُ الغاب من كل جانب

نموذج من نثره:

كتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان:

أما بعد، فإن اللّٰه تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها، وقد كانت أذاقتنا أفاويقَ استحليناها ثم جمحت بنا نافرة، ورمحَتنا موليّة، فَمَلُحَ عذبها، وخشن لينها، فأبعدتنا عن الأوطان، وفرَّقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة، والطير بارحة. وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم وجداً؛ فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا. وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار عدونا نرجع إليكم بذل الإسار، والذل شر جار. نسأل اللّٰه تعالى الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة، في دار آمنة، تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين.

وقال من وصيته للكتَّاب، وفيها دلالة على أن الكتابة صارت صناعة، وأن الكتَّاب أصبحوا جماعة.

.... وإياكم والكِبْرَ والسُّخف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إِحْنَةٍ، وتحابُّوا في اللّٰه عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالتي هي أليق لأهل الفضل

والعدل والنبل من سلفكم. وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره. وإن أقعد أحداً منكم الكبرُ عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظّموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته.

وكتب في التوصية بشخص: حقّ موصل كتابي عليك كحقه عليّ، إذ جعلك موضعاً لأمله، ورآني أهلاً لحاجته. وقد أنجزت حاجته، فصدّق أمله.

نماذج من النثر

الحِكَمُ:

من حِكَم أبي بكر رضي اللّه عنه قوله:

صنائع المعروف تقي مصارع السوء. الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله. ثلاث من كنَّ فيه كنَّ عليه: البغي والنكث والمكر.

ولعمر رضي اللّه عنه: من كتم سره كان الخيار في يده. مُرْ ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا. أشكوا إلى اللّه ضعف الأمين وخيانة القويّ.

وقال علي كرم اللّه وجهه: رأي الشيخ خير من جَلَد الغلام. الناس أعداء ما جهلوا. قيمة كل امرىء ما يحسن.

الخطب:

خطب الرسول ﷺ ذات يوم فحمد اللّه بما هو أهله ثم أقبل على الناس فقال:

أيها الناس! إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم. وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم؛ فإن العبد بين مخافتين: أجَل قد مضى فلا يدري ما اللّه فاعلٌ به، وأجَل باق لا يدري ما اللّه قاض فيه. فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات. فوالذي نفس مُحمد بيده، ما بعد الموت من مستَعْتَب، ولا بعد الدنيا من دار، إلا الجنة والنار.

وقام أبو بكر يوم السقيفة وقد اختلف المهاجرون والأنصار في أمر الخلافة فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس! نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثرهم ولادة في العرب. وأمسُّهم رحماً برسول اللّه ﷺ. أسلمنا قبلكم، وقُدِّمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿والسَّابِقُونَ الأوَّلون مِنَ المهاجرينَ

﴿والأنْصَارِ والذينَ آتبَعوهم بإحْسانٍ﴾[1] فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدو. آويتم وواسيتم فجزاكم اللّه خيراً، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش. فلا تنَفَسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم اللّه من فضله.

وصعد معاوية منبر المدينة فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال:

يا أهل المدينة! إني لا أحب أن تكونوا خلْقاً كخلْق العراق: يَعيبون الشيء وهم فيه. كل امرىء منهم شيعة نفسه. فاقبلونا بما فينا. فإن ما وراءنا شرّ لكم، وإن معروف زماننا هذا منكرُ زمان مضى، ومنكرُ زماننا معروف زمان لم يأت. ولو قد أتى فالرَّتْقُ خير من الفتق، وفي كلٍّ بلاغ، ولا مقام على الرزية.

وخطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجماجم قال:

يا أهل العراق! إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدمٍ والعصب والمسامع والأطراف والشغاف، ثم مضى إلى الأمخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشَّش، ثم باض وفرَّخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً. وقد اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤمّراً تستشيرونه. فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وَقْعة، أو يحجزكم إسلام، أو يردكم إيمان؟ ألستم أصحابي بالأهواز، حيث رُمتم المكر وسعيتم بالغدر، وظننتم أن اللّه يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرْفي وأنتم تتسللون لِوَاذا، وتنهزمون سراعاً. ويوم الزاوية! وما يوم الزاوية! بها كان فشلكم وتنازعكم وبراءة اللّه منكم ونكوص وليه عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء منكم عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حتى عضكم السلاح، وقصمتكم الرماح! ويوم دير الجماجم! وما دير الجماجم؟ بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله. يا أهل العراق! أهل الكفرات والغَدرات، والثورة بعد الثورات! إن أبْعثكم إلى ثغوركم عللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون خشية، ولا تشكرون نعمة. هل استخفكم ناكث واستغواكم غاوٍ واستنصركم ظالم واستعضدكم خالع إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه ورضيتموه؟ هل شغب شاغب أو نعب ناعب إلا كنتم أشياعه وأنصاره؟ ألم تنهكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام! إنما أنا لكم كالظليم الذابّ عن فراخه، ينفي عنه المدَر، ويبعد عنها الحجر، ويكنها من المطر. يا أهل الشام أنتم الجُنة والرداء، وأنتم العدة والغطاء!

---

(١) سورة: التوبة، الآية: ١٠٠.

الرسائل:

كتب أبو عُبَيْدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ينصحانه:

من أبي عُبَيْدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، سلام عليك، فإنا نحمد إليك اللّه الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مُهم، فأصبحت وقد وليتَ أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الصديق والعدو، والشريف والوضيع، ولكل حصة من العدل. فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك. وإنا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه، وتجبُ له القلوب، وتنقطع فيه الحجج، بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق داخرون له، يَرجون رحمتَه ويخافون عقابه. وإنا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها أن يكون إخوانُ العلانية أعداء السريرة. وإنا نعوذ باللّه أن تُنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإنا إنما كتبنا إليك نصيحة لك والسلام.

وكتب عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر إلى بعض إخوانه يعاتبه:

أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك. وذلك أنك آبتدأتني بلطف من غير خبرة، ثم أعقبتني جفاء من غير جريرة، فأطمعني أوَّلك في إخائك، وأيأسني آخرُك من وفائك. فلا أنا في اليوم مجمعٌ لك أطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة. فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك، فاجتمعنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام.

الوصايا:

أوصى عليّ بن أبي طالب ولده الحسن قال:

احفظ عني أربعاً وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن: أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشه العُجب، وأكرم الحسب حُسْن الخُلق. يا بني! إياك ومصادقة الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، وإياك ومصادقة البخيل، فإنه يبعد عنك أحوجَ ما تكون إليه. وإياك ومصادقة الفاجر، فإنه يبيعك بالتافه. وإياك ومصادقة الكذاب، فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد، ويبعد عنك القريب.

وأوصى قيس بن عاصم المنْقَري بنيه عند احتضاره قال:

يا بنيَّ احفظوا عني ثلاثاً، فلا أحد أنصح لكم مني: إذا أنا مت فسوِّدوا كباركم، ولا تسوِّدوا صغاركم، فيحقر الناس كبارَكم وتهونوا عليهم. وعليكم بحفظ المال، فإنه منْبهة للكريم، ويُستغني به عن اللئيم، وإياكم والمسألة فإنه أخس كسب الرجل.

اللحن ونشوء العامية:

كان من أثر الأسواق والحج وزعامة قريش أن توحّدت في الجاهلية لغات العرب، وتمثلت لهجاتها في لغة قريش؛ فلم يبق إلا بيض اللحون على أطراف المنطق. فلما جاء الإسلام، ونزل بها القرآن، وكان من بنيها النبيُّ الكريم والقائمون بالأمر بعده، تمت لها الغلبة. فخضعت لها الألسنة، وهويت إليها الأفئدة، وأصبحت لسانَ النبوة والملك، ولغة الحضارة والعلم، في أقطار المسلمين كافة. ولما كان الإسلام انقلاباً عظيماً له تأثيره في الأخلاق والطباع، وتغييره في السياسة والاجتماع، لم يكن للغة بُدٌّ من الخضوع له والتأثر به، فآتسعت مادتها وتشعبت أغراضها بالتعبير عن عقائد الدين، وأنظمه الملك، ومقتضيات الحضارة، ومصطلحات العلوم. وتهذبت ألفاظها ورقت أساليبها بما أثر في طباع القوم من بلاغة القرآن، وبشاشة الإسلام، وجمال المدنية، وتنوُّع المناظر الحضرية.

ثم كان من أثر الإسلام في حياة العرب أيضاً أن محا العصبية، وأزال الفوارق الاجتماعية وغيَّر مقاييس السيادة فجعلها بالتقوى والعبادة، وجمع شتات القبائل على عقيدة واحدة، وضم نَشَرَهم تحت راية جامعة. ثم خرج بهم من شبه الجزيرة إلى جهاد الشرك بالقرآن والسيف، فأوطأهم ديار كسرى وقيصر، وأوغل بهم في الأرض نصراً وفتحاً حتى ركزوا أعلامهم في أقصى الشرق وأدنى الغرب. ومنذ يومئذ لم تعد العربية لغة إقليم واحد ولا لسان شعب واحد، وإنما انحدرت مع الإسلام من بوادي الحجاز ونجد إلى حواضر البصرة والكوفة ودمشق وبغداد وقرطبة ومصر. واستفاضت على ألسنة المسلمين أحمرهم وأسودهم، والمتعرِّبين أدناهم وأبعدهم، وليس في مقدور هؤلاء بطبيعة الخَلق، أن ينطقوا بها كأهلها، فآرتضخوا أنواعاً من اللكنة، وأحدثوا أوضاعاً من الخطأ، علقت بألسنة المستضعفين من العرب والناشئين منهم بين الموالي. ولذلك ظهر اللحن في الحواضر والمدن دون البادية، فقد بقيت اللغة على خلوصها فيها حتى آخر القرن الرابع بدتِ أعراض هذا الداء منذ زمن الرسول ﷺ. ثم أخذ يستفحل كلما توفرت أسبابه حتى فشا في الدولة الأموية فشوّاً تناول الخلفاء والخاصة. وخيف منه على القرآن فوضعوا له النحو والشكل والإعجام والنقط. على أن كل ذلك لم يعصم اللغة ولم يصدُ عنها عادية اللحن، فأمعن العامة في التصحيف والتحريف حتى جعلوا اللغة لغتين: لغة الكتابة ولغة المحادثة كما هي الآن.

النحو:

يروي المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ هو واضع مبادىء النحو، وأن السبب الذي حداه إلى التفكير فيه هو نشوء اللحن وهجوم العجمة. وذكروا في ذلك أنه دخل يوماً على زياد بن أبيه وهو والي العراقين، فقال له: «أصلح اللّه الأمير! إني أرى

العرب قد خالطت هذه الأعاجم ففسدت ألسنتهم. أفتأذن لي أن أضع لهم ما يقيمون به كلامهم؟ «فأبى عليه ذلك زياد ثم عاد فأمره بما نهاه عنه، لأنه سمع اللحن بأذنه من رجل دخل عليه يقول: «أصلح اللّه الأمير. تُوفي أبانا وترك بنون. . .» فوضع أبو الأسود باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول، وأخذ كلما سمع لحنة وضع القاعدة التي تصلحها. ثم تناوله منه أدباء البصرة والكوفة فكملوه وفصَّلوه كما سنذكر ذلك بعد. والغالب في ظننا أن أبا الأسود لم يضع النحو والنقط من ذات نفسه وإنشائه، وإنما يرجع أنه ألمَّ بالسريانية (وقد وُضع نَحْوُها قبل العربية) أو اتصل بقساوستها وأحبارها فساعده ذلك على وضع ما وضع. وعلى أية حال فإن أولية النحو لا تزال مجهولة.

العلم في العصر الأموي:

لم تكن نفوس العرب مهيَّأة بعد إلى العلم، ولا عقولهم ناضجة للبحث فيه؛ وإنما توزعتهم عواطف الدين وشواغل الفتح ونوازع الأدب، فاكتفوا منه بالضروري الموروث كالطب والنجوم. حتى إذا هالهم اللحن ودهمتهم العجمة، وتشعبت عليهم الأقضية، وضعوا النحو لضبط القرآن، والتفسير لحل مشكلة، والفقه لاستنباط الأحكام منه، ودونوا الحديث خوفاً من ضياعه أو افتعاله.

واقتضت حُنكة معاوية وحكمة خلفائه أن يستعينوا في تأييد ملكهم وتثبيت حكمهم بتجارب الماضين وأخبارهم، فألف عبَيْد بن شَرْيَةَ كتاب الملوك وأخبار الماضين لمعاوية، وربما كتب غيرُه غيرَه، ولكن شيئاً من ذلك لم يأتنا علمه. أما ترجمة العلوم الأجنبية فلم تُعِنْ أحداً في هذا العصر، اللهم إلا خالد بن يزيد حفيد معاوية، فقد قيل إنه انصرف إلى العلم بعد فشله في المُلك، واستقدم جماعة من مدرسة الإسكندرية علموه الكيمياء وترجموا له شيئاً منها.

وجملة القول في هذا العصر أن كان فيه نُضج الآداب الجاهلية، ونشوء العلوم الإسلامية، وبداية النقل من العلوم الأجنبية.

الخط بعد الإسلام:

جاء الإسلام وما يكتب من العرب غير بضعة عشر رجلاً من قريش وبعض أهل المدينة وتجار اليهود. فلما كتب اللّه النصر للمسلمين على قريش في يوم بدر وأخِذَ بعض كتابهم أسرى، قَبل الرسول ﷺ من هؤلاء أن يفتدي كل منهم نفسه بتعليم عشرة من أطفال المسلمين الكتابة، فكثر سواد الكاتبين من أهل المدينة. وشاعت الكتابة بعد ذلك في العرب إطاعةً لأمر الرسول، ورغبة في كتابة القرآن، وطمعاً في دخول الدواوين، وانتشرت معهم في الأقطار المفتوحة.

وكان الخط في أول أمره خالياً من الإعجام والشكل، حتى فشا اللحن وخيف منه على القرآن، فضبط أبو الأسود الدؤلي في زمان معاوية أواخرَ الكلم في المصاحف بالنقط. فجعل علامة الفتحة نقطعة من فوق الحرف، وعلامة الكسرة نقطة من أسفله، وعلامة الضمة نقطة بين يديه واستعمل الناس هذه النقط وكتبوها بمداد مخالف. فلما تغايرت أشكال الخط، وتشابهت أوضاع الحروف، فالتبست الجيم بالحاء، والدال بالذال، والسين والشين، أمر الحجاج نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذي أبي الأسود فوضعا الإعجام بالمداد الذي تكتب به الكلمة تميزاً للحرف بعضها من بعض. ثم جاء بعد ذلك الخليل بن أحمد ووضع الشكل على هذا النمط المعروف، فحل نقط أبي الأسود.

وفي العصر العباسي ناله ما نال كل شيء فيه من النمو والتقدم. فقد تنافس الكتّاب في تجويده، وتفننوا في تنويعه، وخالفوا بين أوضاعه في بغداد وأوضاعه في الكوفة، باختراع الأقلام المختلفة كالقلم المرصع، وقلم النساخ، والقلم الرياسي (نسبة إلى مخترعه ذي الرياستين الفضل بن سهل). ثم تعددت تلك الأقلام وتنوعت حتى نيِّفت أشكال الكوفي على عشرين شكلاً. أما الخط النسخي فقد كان مستعملاً بين الناس في غير الكتابة الرسمية حتى جاء أبو علي محمد بن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ فجوَّد هذا الخط ونمَّقه حتى تميز من أصله بالحسن والجودة، واستعمل في كتابة المصاحف وأدخل في الدواوين، وجاء بعده علي بن هلال المتوفى سنة ٤١٣ فزاد في تهذيبه وتحسينه حتى حل محل الكوفي. ثم تنوع الخط النسخي إلى عدة أقلام (كالطومار) وعرض قَطِّته أربع وعشرون شعرة من شعر البرذون. أو ثلاثة ملليمترات، (والثلثين) وعرضه ملليمتران، (والنصف) وقياسه ملليمتر ونصف (والثلث) وعرضه ملليمتر واحد. ثم تتدرج الأقلام في الدقة، فيجيء خفيف الثلث، فاللؤلؤ، فالتوقيع، فالرقاع، فالمحقق، فالغبار، وهو أدقها، وبه كانت تكتب بطائق الحمام الزاجل ونحوها، ولا يزال الخط العربي يتنوع ويتفرع خضوعاً لنظم الطبيعة في النشوء والرقيّ. وكثير من الأمم التي استضاءت بنور الإسلام واستعزت بلغته يكتب به، كالفارسية والأفغانية والأردية واللغات الإفريقية.

على أن اقتصار العرب في خطهم على رسم الحروف الساكنة دون الصوتية قد أوقع القارىء في لبس شديد، فإن الكتاب قد برموا بالشكل وضاقوا به فتركوه فأصبح القارىء إذا رأى أمامه لفظ (علم) مكتوبة مثلاً لا يدري كيف يقرأه إلا إذا فهم المقصود منه في سياق الكلام. فهو يقرأ: عَلِمَ أو عُلِم أو عَلم أو عُلَم أو عَلَم أو عِلْم. ولذلك يدعو كثير من المصلحين اليوم إلى إصلاح الخط العربي، حتى غلا بعضهم فدعا إلى اتخاذ الحروف اللاتينة كما فعلت تركيا بعد سقوط الخلافة. وقد رصد مجمع اللغة العربية بالقاهرة جائزة قدرها ألف جنيه لمن يبتكر طريقة للخط العربي تكمل نقصه وترفع قصوره. فجاءته من أكثر البلدان الشرقية والغربية طرق شتى نيفت على الألف، ولكنها لم تصب الغرض الذي نصبه

المجمع، فألف في عام ١٩٥٩ لجنة من بعض أعضائه ومن ذوي الاختصاص بوزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة فلبت الأمر على جميع وجوهه ثم اتفقت على بقاء الخط كما هو وأوصت باتباع الشكل كاملاً في كتب التعليم الابتدائي ثم يقل بالتدريج في المراحل المتعاقبة حتى يقتصر منه على شكل ما يشكل من الكلمات، وبرأيها أخذ المجمع.



الباب الثالث

العصر العباسي

خطره وأثره ومميزاته

عصر الدولة العباسية هو عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ولا من بعدُ. أثمرت فيه الفنون الإسلامية، وزَهت الآداب العربية، ونُقلت العلومُ الأجنبية، ونضج العقل العربي فوجد سبيلاً إلى البحث ومجالاً للتفكير. وملوك هذه الدولة يُنْموْنَ، إلى العباس عم النبي ﷺ، وانتزعوا الخلافة قَسْراً من يد الأمويين بمعونة الفُرس، وأقاموا عرشها بالعراق، وتبوأه منهم سبعة وثلاثون خليفة في خمسة قرون وبعض القرن، حتى ثلَّ ذلك العرشَ هَلاكو سنة ست وخمسين وستمائة، وما زالت حضارة الدولة وآدابها تهبط بهبوطها، حتى سقطت بسقوطها.

وتختلف هذه الدولة عن الدولة الأموية بأحوال سياسة وعمرانية كان لها الأثرُ الظاهر في أدب اللغة: فالدولة الأموية كانت عربية خالصة، تعصبت للعرب ولغتهم وآدابهم، وجعلت قاعدتَها دمشق على حدود باديتهم. وكان جنودها وقوادها وكتابها وسائر عمالها من العرب، فلم يحدث في أدب اللغة تأثير إلا ما اقتضاه التحضُّر واتساع العمران.

أما الدولة العباسية فقد اصطبغت بصبغة فارسية، لأن الفرس هم الذين أوجدوها وأيدوها، فاتخذت قصبتها بغداد أقرب الأمصار إلى بلادهم، وأطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة فاستقلوا بشؤونها، واستبدوا بأمورها، وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعاً بصاع. فضعفت العصبية العربية، وعلا صوت الشعوبية، ونتج من ذلك دخول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية في تكوين الدولة، وتمازجهُم بالتزواج والتناسل، واختلاط المدنية الآريَّة بالمدينة الساميَّة، ولكل منهما لغة وأخلاق وعادات واعتقادات أثرت في الأخرى. ناهيك بما امتازت به هذه الدولة من إطلاق الحرية في الدين، وتعدد الفرَق وشيوع المقالات المختلفة في الإلحاد والسياسة، وتكاثر الجواري والغلمان، والاسترسال في الخلاعة والمُجُون، والتأنق في الطعام واللباس، والتنافس في البناء والرياش. وكل ذلك له أثر بينٌ في اللغة وآدابها سنجمله فيما يلي من هذه السطور.

الفصل الأول

اللغة وأثر الفتوح والسياسة والحضارة فيها

فتح العرب في أواخر الدولة الأموية أكثر المعروف حينئذ من الدنيا القديمة، فامتد ملكهم من الهند والصين شرقاً، إلى جبال بيرانس غرباً، وانبسط سلطانهم على تلك الشعوب، واستولى دينهم على الأفئدة، ولغتهم على الألسنة، فتعربت هذه الأمم المختلفة، وامتزجت تلك العناصر المتباينة، وسارعوا إلى تعلم اللغة والتكلم بها تقرباً من الفاتح، واستدراراً للرزق، وتفقها في الدين، فكثر اللحن وسرت عداوة إلى البادية وقد كان قاصراً على الحاضرة. وبقي داء العجمة يستفحل بين العامة والصناع بالرغم من محاربة الأئمة وأولي الأمر لهذا الوباء بتدوين علوم اللسان وتقبيح العامية ومقت المتكلمين بها، حتى نشأ في كل إقليم لغة عامية مؤلفة من الهربية ومن لغة الإقليم الوطنية.

وقد اتسعت دائرة اللغة بما اقتضاه تمدن الدولة ونقل العلوم عن الفارسية والهندية واليونانية من المصطلحات العلمية والألفاظ الإدارية والسياسية والاقتصادية والمنزلية. وكان لدار الحكمة التي أنشأها المأمون الفضل الأكبر في تهذيب الكتب المترجمة وتوحيد الأسماء المعربة. ثم رقّت الألفاظ لانغماس القوم في الحضارة، وإخلادِهم إلى الترف، وإيثار الموالي للكلم السهل والأسلوب البيّن، لأنهم حذقوا اللغة بالدراسة والصنعة، لا بالتلقين والطبع.

واقتبست العربية من الفارسية غير الألفاظ كثيراً من الأساليب، كالتبجيل في الخطاب، والاحتشام مع المخاطب، وإسنادِ الشيء إلى الحضرة والجناب والمجلس، وإحداث الألقاب والنعوت للخلفاء والوزراء والكتاب والقواد، كالسفاح والمنصور والرشيد وذي الرياستين وركن الدولة إلخ، والإسهاب في العهود والرسائل، وتأديةِ المعنى الواحد بألفاظ كثيرة وجمل مترادفة، وغير ذلك مما زان اللغة من جهة وشانها من جهة أخرى.

وما زالت اللغة تتسع وتنمو باتساع الملك وتقدم العلم ونمو الحضارة، وتنتشر وتسمو في حمى الدين وظل الخلافة وسلطان العرب، حتى خلافة المتوكل على الله سنة ٢٣٢ إذ

استفحل أمر الأتراك الذين جلبهم المعتصم من التركستان فأخذوا يغالبون العرب، ويواثبون الفرس، ويغتصبون السلطان. وكان الأمر للموالي بعد غلبة المأمون وهم شيعة فجاء المتوكل فعضد الأتراك ونصر السنة. فتقاتل العنصران، وتناضل المذهبان، وابتغى كل منها الفلَج والفوز يقهر العرب وكبْت الخلفاء، حتى ذهب جلال الخلافة من النفوس، وزالت هيبتها من القلوب، فاستشرف ولاة الأطراف إلى الاستقلال، وبدأ بَنُو بويه فوضعوا أيديهم سنة ٣٣٤ هـ على شؤون الدولة في بغداد. وامتد نفوذُهم إلى جُل المماليك الشرقية الإسلامية، فأخذ سلطان العرب والعربية يتراجع في الشرق، وهبَّ أحفاد الأكاسرة وأبناء الدقاهين يستردون مجد أجدادهم، ويطاردون اللغة ونفوذها من بلادهم. وطلبوا إلى شعرائهم من أمثال الدقيقي والفردوسي أن يجددوا مفاخر الأسلاف بتأليف المنظومات القصصية والأناشيد القومية. ومن العجيب أن تم لهم ذلك سريعاً، فإن المتنبي، وهو من رجال القرن الرابع يقول وقد زار شعب بوان من بلاد الفرس:

معاني الشعب طيباً في المعاني	بمنزلة الربيع من الزمان
ولكنَّ الفتى العربيّ فيها	غريبُ الوجه واليد واللسان
ملاعب جِنَّة لو سار فيها	سليمان لسار بترجمان

ثم اقتدى بالفُرس في ذلك الأتراك والأكراد. ولكن العربية بقيت في حِمَى القرآن تدافع سيل الفارسية والتركية الجارف، وقد عز النصير من أهلها، حتى غلب التتار على بغداد فغُلبت على أمرها وخضعت لقانون الطبيعة القاهر، بعد ما خلفت في تلك البلاد شرائع وعلوماً وآداباً لم تقو على محوها الأيام.

الفصل الثاني

النثر

الكتابة

الإنشاء مَظهر العقل، ومرآة الخاطر، يتأثر بما ينال المداركَ والمشاعر من عوامل الحضارة، ونتائج العلم، وظواهر العمران.

ولقد كان لذلك الانقلاب العباسي أثرٌ عظيم في العقول والمُيول ظهر على أقلام الكاتبين وألسنتهم. فقد استنبطوا عيون المعاني. وتخيروا شريف الألفاظ، مما لم يكن حوشيًا ولا سُوقيًا، وفتحوا أبواب البديع، وعُنُوا بالتنميق والتنسيق.

ولما استبحر العمران، وطما بحر الخراج، واتسع نطاق الدولة، ولم تعد الكتابة مقصورة على الدواوين وإنشاء الرسائل كما كانت في الدولة الأموية، بل تعهدتها إلى أغراض شتى، كالتصنيف والترجمة. والمقالات والمقامات، والعهود، والوصف، والمناظرة، وإنشاء الكتب في الإهداء والاستهداء، والتعارف قبل اللقاء، والشكر والعتاب والتعازي والتهاني والاستعطاف، وغير ذلك من المعاني الحضرية التي لم يعهد أكثرها من قبل.

وحلت الكتابة محل الخطابة في قمع الأهواء، وردع الأعداء، وإطفاء الفتن، وتأليف القلوب. ثم تنوع الكُتَّاب بتنوع الدواوين: فكان منهم كتَّاب الخراج والنفقات، وكتَّاب المظالم والقضاء، وكتَّاب الجيش والشرطة، وكتَّاب الضياع والإقطاع، وكتَّاب الرسائل، وهؤلاء هم أساطين البلاغة واساتذوا البيان، وموضوع أدب اللغة؛ لأن كتابة غيرهم لا تعتمد على فن ولا تقوم على ذوق.

وظلت الكتابة في أول العصر العباسي على أسلوب عبد الحميد من الميل إلى الإيجاز والقصد في الغلو والتنميق، ولا سيما في الرسائل والتوقيعات، فإن النظر فيها أكثر ما يكون للخلفاء والوزراء، عنهم تصدر، وإليهم ترد. وكان جعفر بن يحيى يقول في إيثار الإيجاز: «إن إستطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا».

فلما نزع العرب إلى الترف، وزاد اختلاطهم بالفرس، أخذوا يتأنقون ويطيلون. وازداد ذلك بتراخي الزمن حتى خرجوا عن أساليب القدماء، وعاقبوا الجملَ على المعنى الواحد، ورأوا ذلك التكرار أبلغَ للمعنى، وأوقع في النفس. وانتقدوا مذهب الإيجاز في صدر الإسلام وبعده كقول يزيد لمروان وإن وقد تلكأ في بيعته: «أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئتَ» فقال ابن قتيبة في أدب الكاتب. «إن هذا لو قيل الآن لم يأت بالتأثير المطلوب. والصواب أن يطيل ويكرر، ويُعيد ويُبدىء، ويحذر وينذر». ثم مالوا إلى الازدواج والسجع، وتضمين الأشعار والأمثال. وكل ذلك جار مجرى الطبع لحسن التصرف في المعنى وقلة التكلف في اللفظ.

فلما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله، سَرى الضعف إلى الكتابة، فجهل أربابها الغرض منها، ومالوا إلى زخرف القول وتدبيج اللفظ بأنواع البديع، وأوغلوا في ذلك حتى سمحت مبانيهم وفسدت معانيهم، فكانت مموّهة الظاهر مشوّهة الباطن، كسيف من الخشب في غمد من الذهب. وليتهم وقفوا بهذا الأسلوب عند الرسائل والعهود، بل خرجوا به إلى تصنيف الكتب وتدوين العلوم، كتاريخ العُتْبي والفتح القدسي.

وكتَّاب هذا العصر أربع طبقات نبغَتْ كل طبقة في عصر من عصوره الأربعة:

فالطبقة الأولى: إمامها ابن المقفع. وطريقته تنويع العبارة، وتقطيع الجملة، والمزاوجة بين الكلمات، وتوخي السهولة، والعناية بالمعنى، والزهد في السجع. وقد حدَّ البلاغة فقال: «هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها». وقال لبعض الكتاب: «إياك وتَتَبُّع الوحشيِّ من الكلام طمعًا في نيل البلاغة فإن ذلك هو العِيُّ الأكبر». وقال لآخر: «عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة». ومن رجال هذه الطبقة يعقوب بن داود، وجعفر بن يحيى، والحسن بن سهل، وعمرو بن مسعدة، وسهل بن هرون، والحسن بن وهب.

والطبقة الثانية: إمامها الجاحظ. وطريقته أشبه بالطريقة الأولى في سهولة العبارة وجزالتها، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفَّاة أو مرسلة، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل، والاستطراد، ومزج الجد بالهزل لدفع سآمة القارىء، وتحليل للمعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدعائية. ومن رجال هذه الطبقة ابن قتيبة والمبرد والصولي.

والطبقة الثالثة: إمامها ابن العميد وطريقته أعلق بالنفس وأملك للوجدان لأنها شعر لا يعوزه إلا الوزن. وهي أشبه بالطريقة الإتباعية عند الفرنج. لتقيدها بقيود لا بدَّ من مراعاتها وتغلبها على سائر الأساليب.

فمن قيودها السجع القصير، والجناس، وتضمين المُلَح من التاريخ والعلوم، والاستشهاد بالنظم في غضون النثر، والتوسع في الخيال والتشبيه؛ مع إجادة المعنى وسلامته. ومن رجالها الصاحب بن عباد، والوزير المهلبي، والخوارزمي، والبديع، والصابي، والثعالبي. ومن آثار هذه الطبقة المقامات.

والطبقة الرابعة: إمامها القاضي الفاضلي. وطريقته مؤسسة على أصول الطريقة الثالثة من توخي السجع والبديع، إلا أنه غالى في التورية والجناس حتى أصبحت الكتابة في عهده صناعية محضاً: ألفاظ منمقة تحتها معنى غثّ وخيال ضئيل. ومن رجالها ابن الأثير صاحب المثل السائر، والكاتب الأصبهاني.

على أنَّ عقيدة الكتَّاب أن استظهار المأثور من المنثور هو عُدَّة الثقافة وسبيل التفوق كانت تخالف بين الأقلام، وتباعد بين الأساليب، فتعدّدت مذاهب الكتابة في العصر الواحد، فتجد في عصر الجاحظ من يقلد ابن المقفع كابن عبد ربه. وفي عصر ابن العميد من يقلد الإمام علياً كالشريف الرضي. ولكن المعاصرين بالرغم من ذلك يخضعون لأحوالهم السياسية والاجتماعية، فيكون لإنشائهم طابع خاص يميزهم من باقي العصور.

الخطابة

كان للخطابة في صدر هذا العصر مكانةٌ في النفوس وسلطان على القلوب؛ لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك، وتحميس الجند؛ واستقبال الوفود. وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع والشأو البعيد، كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وداود بن علي وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبة.

فلما استوثق الأمر لبني العباس وقام الموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش، وقلّ النضال بالسنان واللسان، ضعفت الخطابة لضعف القدرة عليها، وقلة الدواعي إليها، وحلت الرسائل والمنشورات محلها في دفع العظائم وسل السخائم. وقصُرت على خطب الجُمَع والعيدين والزواج. على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمونهم إلى عهد الخليفة الراضي. فلما غل بنو بويه أيديَهم وحصروهم في دورهم عهدوا بالخطابة والإمامة إلى الكفاة من العلماء؛ فنبغ في آخر هذا العصر طائفة من الأدباء شُهروا بهذا النوع من الخطابة: كالخطيب البغدادي والخطيب التبريزي. ولما استعجم المسلمون وملَك العِيُّ ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة، عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباتة المصري، وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها، ولا علم بمغزاها. ودرجوا على هذه الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتى أدركتها عوامل النهضة المضرية الحديثة فرقاها قسم الوعظ والإرشاد بالجامعة الأزهرية.

نماذج النثر

التوقيعات:

التوقيعات هي ما يعلقه الخليفة أو الأمير أو الوزير أو الرئيس على ما يقدم إليه من الكتب في شكوى حال أو طلب نوال. وميزتها الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة. وقد تكون آية أو مثلاً أو بيت شعر. مثالها:

وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر وهو يحارب ابن هُبَيْرَة بواسط: إن حلمك أفسد علمك، وتراخيَك أثر في طاعتك. فخذلي منك، ولك من نفسك.

وقع أبو جعفر المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان: شكوت فأشكيناك، وعتبت فأعتبناك، ثم خرجت على العامة، فتأهب لفراق السلامة. ووقع إلى صاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل: طهِّر عسكرك من الفساد، يعطك النيل القياد. ووقع في كتاب أتاه من صاحب الهند يخبره أن جنداً شغبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال: لو عدلت لم يشغبوا، ولو وفيت لم ينهبوا.

وقع هارون الرشيد إلى صاحب خراسان: داو جُرحك لا يتسع. ووقع في نكبة جعفر بن يحيى: أنبتته الطاعة وحصدته المعصية.

وقع المأمون إلى الرستمي في قصة من تظلم منه: ليس من المروءة أن تكون آنيتك من ذهب وفضة، وغريمك خاو، وجارك طاو. ووقع في قصة متظلم من أبي عيسى أخيه: **﴿فإذا نفخ في الصُّور فلا أنسَابَ بينهُمْ يومئذ وَلا يتساءلون﴾**. وكتب إليه إبراهيم بن المهدي: إن غفرت فبفضلك، وَإن أخذتَ فبعدلك. فوقع في كتابه: القدرة تذهب الحفيظة، والندم جزء من التوبة، وبينهما عفو الله. ووقع في رقعة مَوْلى طلب الكسوة: لو أردت الكسوة للزمت الخدمة، ولكنك آثرت الرقاد فحظك الرؤيا.

وقع جعفر بن يحيى في قصة محبوس: العدل أُوثقه، والتوبة تطلقه، وَوقع في كتاب رجل شكا إليه بعض عماله: قد كثر شاكوك، وقلَّ شاكروك، فإما اعتدلْت، وإما اعتزلْت.

ووقعَ في قصة مستمنح قد أعطاه مراراً: دَعِ الضرع يدر لعيرك كما دَرَّ لك.

الخطب:

خطب المنصور بعد قتل أبي مسلم قال:

أيها الناس: لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تُسرُّوا غش الأئمة؛ فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثار يده، أو فلتات لسانه، وأبداها الله لإمامه،

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ١٠١.

لإعزاز دينه وإعلاء حقه. إنا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقه. إن من نازعنا عروة هذا القميص أجْزَزْناه خبىء هذا الغمد. إن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أن من نكث فقد أباح دمه، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه.

ومن خطبة لعبد الملك بن صالح الهاشمي بعد أن خرج من السجن يذكر فيها ظلم الرشيد أباه:

والله إن الملك لشيء ما نويته ولا تمنيته، ولا قصدت إليه ولا ابتغيته ولو أردته لكان أسرعَ إليَّ من السيل الحَدور، ومن النار إلى يابس العَرْفَج. وإني لمأخوذ بما لم أجْنِ، ومسئول عما لا أعرف. ولكنه والله حين رآني للملك قمناً، وللخلافة خطراً، ورأى لي يداً تنالها إذا مُدت، وتبلغها إذا بسطت، ونفساً تكمل لخصالها، وتستحقها بخلالها - وإن كنت لم أختر تلك الخصال، ولا اصطنعت تلك الخلال، ولم أرشح لها في سر، ولا أشرت إليها في جهر، ورآها تَحِنُّ إليَّ حنين الوالدة، وتميل إليَّ ميل الهلوك، وخاف أن تنزع إلى أفضل منزع، وترغب في خير مرغب، عاقبني عقاب من قد سهر في طلبها، ونصب في التماسها. وتفرد لها بجهده وتهيأ لها بكل وسعه، فإن كان إنما حبسني على أني أصلح لها وتصلح لي، وأليق بها وتليق بي، فليس ذلك بذنب فأتوب منه، ولا تطاولت إليه فأحط نفسي عنه. وإن زعم إنه لا صَرْف لعقابه، ولا نجاة من عذابه، إلا بأن أخرج له من الحكم والعلم، والحزم والعزم، فكما لا يستطيع المضيع أن يكون حافظًا، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلاً، وسَواء عليه أعاقبني على عقلي أم عاقبني على طاعة الناس لي. ولو أردتها لأعجلته عن التفكير، وشغلته عن التدبير، ولم يكن لما كان من الخطب إلا اليسير. ومن المجهود إلا القليل!

وخطب داود بنُ عليٍّ يوم بيعة أبي العباس على منبر الكوفة قال:

شكراً شكراً! إنا والله ما خرجنا لنَحْفُر فيكم نهراً، ولا لنبني فيكم قصراً. أظنَّ عدوُّ الله أن لن نقدر عليه أن رُوحي له من خطامه، حتى عثر في فضل زمامه؟ فالآن حيث أخذ القوس باريها، وعاد القوسَ إلى النزَعة، ورجع الملك إلى نصابه في أهل بيت النبوّة والرحمة، أمِنَ الأسودُ والأحمر. ولكم ذمة الله. لكم ذمة رسول الله ﷺ. لكم ذمة العباس لا وربِّ هذه البَنيَّة - وأومأ بيده إلى الكعبة - لا نهبج منكم أحداً.

وخطب شبيب بن شيبة يعزي المهدي يوم توفيت آبنته قال:

أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رُزئتَ أجراً، وأعقبك صبراً، ولا أجهد الله بلاءك

بنقمَة، ولا نزع منك نعمة. ثواب الله خير لك منها. ورحمة الله خير لها منك، وأحقُّ ما صبر عليه ما لا سبيل إلى رده!

الرسائل:

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلها:

بلغني استقلالك لما ألطَفتْك. والذي نحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك في البر، فأهدينا هدية من لا يحتشم، إلى من لا يغتنم.

وكتب في تهنئته بابلاله من مرض:

قد أذهبَ الله وصَب العلة ونصبها؛ ووفر أجرها وثوابها، وجعل فيها من ارغام العدوّ بعُقباها، أضعافَ ما كان عنده من السرور بأولاها.

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات على لسان الخليفة لأحد العمال:

أما بعد: فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا تخلو من إحدى منزلتين ليس في واحدة منهما عُذر يوجب حجة، ولا يزيل الأئمة: إما تقصير في عملك دعاك إلى الإخلال بالحزم والتفريط في الواجب، وإما مظاهرة لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب. وأية هاتين كانت منك، مُحِلة للنُّكْر بك، وموجبة للعقاب عَليك، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأَناة والنَّظِرَة والأخذ بالحجة، والتقدم في الإعذار والإنذار، وعلى حسب ما أقِلْتَ من عظم العَثرة يجب اجتهادك في تلافي التقصير والإضافة. والسلام.

وكَتب أبو الفضل ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري:

كتابي وأنا بحال لَوْ لم ينّغصْ منها الشوقُ إليك، ولم يُرَفّقْ صفوَهَا النزوعُ نحوك، لَعدَدتُها مِن الأحوال الجميلة، وأعددتُ حَظِّي منها في النِّعَم الجليلة، فقد جمعت فيها بين سلامة عامة، وحَظيتُ مِنها في جسمي بصلاح، وفي سَعْيي بنجاح؛ لكنْ، ما بَقِي أن يَصفوا عَيشٌ مع بُعدي عنك ويخلو ذَرْعي مع خلوِّي منك، ويسوغ لي مطعمٌ ومشربٌ مع انفرادِي دونَك، وكيف أطمعُ في ذلك وأنت جزءٌ من نفسي، وناظمٌ لشَمل أنسي. وقد حُرِمْتُ رؤْيتك، وعدمت مشاهدتك. وهل تسكُنُ نفْسٌ مُتَشعِّبَةٌ ذات انقسام، وينفعُ أنسُ بَيْت بلا نظام، قرأْت كِتابك ـ جعلنِي الله تعالى فداءك ـ فامتلأتُ سروراً بملاحظة خطِّكَ، وتأمُّلِ تصرُّفك في لفْظك. وما أُمرِّظُهما، فكل خصالك مقرَّظ عندي. وما أمدَحهما، فكل أمرك ممدوحٌ في ضميري وعقْدي. وأرجو أن تكونَ حقيقة أَمْرِكَ موافِقةً لتقْديري فيك، فإنْ كانَ كذلك وإلا فقد غَطى هَواكَ وما ألْقَى عَلَى بَصري.

المقامات

المقامة الحرزية لبديع الزمان الهمذاني

حدثنا عيسى بنُ هشام قال: لما بلغتْ بي الغربةُ بابَ الأبواب، ورضيتُ من الغنيمة بالإياب، ودونه من البحر وثّابٌ بغاربه، ومن السفن عسّاف براكبه، استخرتُ الله في القُفول، وقعدت من الفلك، بمثابة الهُلك. ولما ملكنَا البحرُ وجن علينا الليل، غشيتنا سحابة تمد من الأمطار حبالاً، وتحوذُ من الغيم جبالاً بريح ترسل الأمواج أزواجًا، والأمطار أفواجاً، وبقينا في يد الْحَينِ، بين البحرين، لا تملك عُدَّة غير الدعاء، ولا حيلة إلا البكاء. ولا عصمة غير الرجاء. وطويناها ليلة نابغية، وأصبحنا نتباكى ونتشاكى، وفينا رجل لا يخضلُّ جفنه، ولا تبتل عينه، رخيُّ الصدر منشرحه، نشيط القلب فرحُه. فعجبنا والله كل العجب. وقلنا له: ما الذي آمنك من العطب؟ فقال: حرز لا يغرق صاحبه. ولو شئت أن أمنح كلاً منكم حرزاً لفعلت. فكلٌّ رغب إليه، وألح في المسألة عليه. فقال لن أفعل ذلك حتى يعطيني كل واحد منكم ديناراً الآن ويعدني ديناراً إذا سلم. قال عيسى بن هشام: فنقدناه ما طلب، ووعدناه ما خطب، وآبت يده إلى جيبه فأخرج قطعة ديباج، فيها حُقة عاج، قد ضمَّن صدرها رقاعاً وحذف كل واحد منا بواحدة منها. فلما سلمت السفينة، وأحلّتْنا المدينة، اقتضى الناس ما وعدوه، فنقدوه. وانتهى الأمر إليَّ فقال دعوه فقلت لك ذلك، بعد أن تعلمني سرَّ حالك. قال: أنا من بلاد الاسكندرية. فقلت: كيف نصرك الصبر وخَذَلنا؟ فأنشأ يقول:

ويْك لولا الصبر ما كُنْـ	ـت ملأتُ الكيس تبرا
لن ينال المجدَ من ضا	ق بما يخشاه صدرا
ثم ما أعقبني السا	عة ما أُعطيتُ ضُرا
بل به أشتد أزراً	وبه أجبر كسرا
ولو أني اليوم في الغر	قى لما كلفت عذرا

ومن المقامة البغدادية للحريري على لسان عجوز مستجدية:

إعلموا يا آمال، وثمال الأرامل، أنى من سَرَوات القبائل، وسَريَّات العقائل، لم يزَل أهلي وبعلي يحلون الصَّدر، ويسيرون القلب، ويُمْضون الظهر، ويولون اليد. فلما أردى الدهرُ الأعضاد، وفَجَعَ بالجوارح الأكباد، وانقلب ظهراً لبطن، نبا الناظر، وجفا الحاجب، وذهَبَتِ العين، وفقدت الراحة، وصَلَد الزند، ووَهَنَتِ اليمين. وضاع اليسار، وبانت المرافق، ولم يبق لنا ثنية ولا ناب. فمذ اغبرَّ العيش الأخضر، وازورَّ المحبوب الأصفر اسودَّ يومي الأبيض، وابيض فَوْدي الأسود؛ حتى رثى لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر!

الفصل الثالث

الكُتَّاب

٣٠ ــ ابن المقفع
٧٢٤ ـ ٧٥٩ م
١٠٦ ـ ١٤٢ هـ

نشأته وحياته:

عبد الله بن المقفع كاتب فارسي الأصل عربي النشأة. ولد حوالي سنة ست ومائة للهجرة، ونشأ بالبصرة على ما ينشأ عليه أبناء اليسار، وكان والده داذويه المجوسي يتولى خراج فارس للحجاج بن يوسف، فاحتجن من مال السلطان شيئًا، فضربه الحجاج حتى تقفعت يده فلقب بالمقفع. وربيَ عبد الله منذ طفولته على النمط الإسلامي وأولع بالعلم وهو فارغ القلب من هموم العيش، فنبغ وهو يافع في الكتابة باللغتين الفارسية والعربية، فاستكتبه في عهد بني أمية داود بن هُبيرة، وفي عهد بني العباس عيسى بن علي عم المنصور، وعلى يديه أسلم. قال له ذات يوم: «قد دخل الإسلام في قلبي وأريد أن أسلم على يدك»، فطلب إليه عيسى أن يغدو عليه بين القواد ورؤوس الأجناد ليكون إسلامه مشهوداً. ثم حضر معه المائدة عشية ذلك اليوم فجعل يأكل ويزمزم على عادة المجوس. فلما كلمه عيسى في ذلك قال «كرهت أن أبيت على غير دين» ثم غدا عليه فأعلن إسلامه، وتسمى عبد الله واكتنى أبا محمد، وقد كان اسمه من قبل روزبة.

---

٣٠ ـ انظر ترجمته في: أخبار الحكماء: ص ١٤٨، وأمراء البيان: ص ٩٩ ـ ١٥٨، وأمالي المرتضى: ٩٤/١، وتاريخ اليعقوبي: ١٠٤/٣، وتاريخ الطبري: ١٨٢/٩، وخزانة الأدب: ٤٥٩/٣ ـ ٤٦٠، ومعجم المطبوعات: ٢٤٩، والبداية والنهاية: ٩٦/١٠، وسير أعلام النبلاء: ٢٠٨/٦، والأعلام للزركلي: ١٤٠/٤

وقد قيل إنه أسلم ابتغاء عرض الدنيا. ورُمي بالإلحاد لمعارضته القرآن، وترجمته كتب الزنادقة، وتمثُّلِه حينما مر على بيت نارٍ للمجوس ببيتي الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتَعزَّلُ حذر العدى وبه الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدودَ وإنني قسما إليك مع الصدود لأمْيَل

وبقي ابن المقفع في خدمة عَمَّيْ المنصور عيسى وسليمان حتى كانت حادثة الأمان الذي كلف أن يكتبه عن لسان المنصور لعمه عبد الله، فإنه تشدد فيه على الخليفة بمثل قوله: «ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق، ودوابه حُبَّسٌ، وعبيده أحرار، والمسلمون في حِلّ من بيعته» فوجِد المنصور عليه وأوعز بقتله إلى سفيان بن معاوية المهلبي أمير البصرة، وكان يضطغن على ابن المقفع لسخره منه واستخفافه به في حضرة وجوه البصرة. فقد قالوا إنه كان كبير الأنف، فكان كلما دخل عليه ابن المقفع قال: (السلام عليكما) يعني سفيان وأنفه. فاهتبل الأمير هذه الفرصة وقتله حرقًا بالنار بالغًا من العمر ستًا وثلاثين سنة.

أخلاقه وعلمه:

كان ابن المقفع ذكي القلب فصيح المنطق ضليعًا في أدب العرب والفرس «مقدَّمًا في بلاغة اللسان والقلم ووالترجمة واختراع المعاني وابتداع السِّير. وكان يتعاطى الكلام ولا يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً».

وقد قيل: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع. وقد اجتمع هذان الصديقان لأول مرة. فمكثا يتحدثان ثلاثة أيام ثم افترقا فقيل للخليل كيف رأيت عبد الله؟ فقال ما شئت من علم وأدب! إلا أن علمه أكثر من عقله. وقيل لعبد الله كيف رأيت الخليل؟ فقال ما شئت من علم وأدب! إلا أن عقله أكثر من علمه. وقد سئل ابن المقفع: من أدَّبك؟ فقال نفسي: كنت إذا رأيت من غيري حسناً أتيتُه، وإن رأيت قبيحاً أبيتُه. وكان في سائر أحواله عفيفًا أديبًا وفيًا لأصحابه. وأمره مع عبد الحميد الكاتب شهيد بذلك.

نثره وشعره:

ابن المقفع إمام الطبقة الأولى من الكتّاب. وقد استخلص من الأسلوب الفارسي والعربي طريقة في الكتابة عُرفت به وأخذت عنه. وقد فصلنا ذلك في أثناء كلامنا عن النثر في هذا العصر فارجع إليه. أما شعره فقليل جيد، روى صاحب الحماسة منه في قوله في رثاء يحيى بن زياد:

رُزِئْنا أبا عمرو ولا حيَّ مثلهُ فلله رَيْبُ الحادثات بمن وقع!

فإن تَكُ قد فارقتنا وتركتنا ذوي خلةٍ في انسدادٍ لها طمع
فقد جرَّ نفعاً فقدُنا لك أننا أمِنّا على كل الرزايا من الجزع

مترجماته ومؤلفاته:

ابن المقفع مترجم قدير لا تلمح في ترجمته أثر العجمة، وتكاد لا تفرق بين نقله ووضعه. وكتابه كليلة ودمنة إذا صح أنه مترجَم لا يزال مثالاً للترجمة الصحيحة البليغة. وهو كما قال القفطي أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور، فترجم كتب أرسطو الثلاثة في المنطق. وكتاب إيساغوجي لفرفوريوس الصوري؛ نقلها عن ترجمة بالفارسية لأنه لم يعرف غيرها على الأرجح: ونقل كتاب التاج في سيرة أنوشروان. وألف كتابَيْ الأدب الصغير والكبير في الأخلاق، وكتاب اليتيمة في طاعة السلطان.

نموذج من نثره:

قال: لا يؤمننَّك شرَّ الجاهل قرابةٌ ولا جوارٌ ولا إلف، فإن أخوفَ ما يكون الإنسان لحريق النار أقربَ ما يكونُ منها. وكذلك الجاهلُ إن جاورك أنصبك، وإن ناسبك جنى عليك، وإن ألِفَك حمل عليك ما لا تطيق، وإن عاشرك آذاك وأخافك؛ مع أنه عند الجوع سَبُعٌ ضارٍ، وعند الشبَع ملك فظ، وعند الموافقة في الدِّين قائدٌ إلى جهنم: فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سم الأساوِد، والحريق المُخوف، والدِّين الفادح، والداء العَياء».

وقال أيضًا: «إن استطعت أن تُنْزِل نفسَك دون غايتك في كل مجلس ومقام ومقال ورأي وفعل فافعل. فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحطُّ إليها نفسَك، وتقريبَهم إياك في المجلس الذي تباعدت عنه، وتعظيمَهم من أمرك ما لم تعظمِ، وتزيينهم من كلامك ما لم تزين، هو الجمال».

وقال أيضًا: كان لي أخ أعظم الناس في عيني. وكان رأسَ ما عظمه في عيني صغرُ الدنيا في عينه. كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد. وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يُماري فيما علم. وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعه. وكان أكثر دهره صامتًا، فإذا قال بذَّ القائلين. وكان ضعيفًا مستضعفًا، فإذا جد الجِدَّ فهو الليث عاديًا وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مِراء، ولا يُدلي بحُجة حتى يرى قاضيًا فَهْماً وشهوداً عُدولاً وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذرُ في مثله حتى يعلم ما عذرُه. وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرْء، ولا يستشير صاحبًا إلا أن يرجوَ منه النصيحة. وكان لا يتبرَّم ولا يتسخَّط ولا يتشهى،

ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الـولي، ولا يخص نفسه بشيء دون إخـوانه من اهتمـامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها، وإن تطيق. ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

٣١ ـ الجاحـظ
٧٨٠ ـ ٨٦٩ م
١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو عثمان عمرو بن الجاحظ بالبصـرة ونشأ بهـا وهي يومئـذ مهد العلم ومنتـدى الأدب، فأكبَّ على الدرس وجد في التحصيل وأخذ عن جهابذة اللغة والرواية كالأصمعي وأبي عبيدة. وتخرج في علم الكلام على أبي إسحق النظام أحد المعتزلة فأخذ بمقـالتـه، ونصر الاعتزال بكتابته. وصاحب فئة من كتاب العرب ومترجمي الفرس فنقل عنهم واستفاد منهم، وأُغْرِمَ بالمطالعة إغرامًا شديداً فلم يقع في يده كتـاب إلا استتم قراءتـه، واستوعب مادته. وكان يكتري حوانيت الورَّاقين ويعتكف فيها للدرس والمطالعة حتى أحصى مسائـل العلوم، واستبطن دخائل الفنون، وأصبح في الأدب منقطع القرين.

قضى أكثر عمره في مسقط رأسه عاكفًا على التأليف مرعيَّ الجانب، مكفيَّ الحاجة، أثيراً لدى الولاة، مكَرَّماً عند الوجوه، بما يؤلف من الرسـائل ويصنف من الكتب. ثم كـان ينتجع بغداد في عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل؛ وانقطع بعد ذلك إلى محمد بن عبد الملك الزيات طول وزاراته الثلاث؛ ثم استقر بالبصرة بعد نكبة الوزير. وأصيب بالفالج النصفي في عاقبة عمره. وطال عليه المرض وتبلغت به العلة حتى قبضه الله إليه سنة خمسة وخمسين ومائتين وقد شارف المائة.

صفاته وأخلاقه:

كان أبو عثمان دميمَ الخلقة جَهْم الوجه جاحظ العينين «ومن ذلك لَقَبُه»؛ حتى قيل إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم فآستقدمه إليه بسُرَّ مَنْ رأى ليؤدب ولده. فلما

---

٣١ ـ انـظر ترجمتـه في: إرشاد الأريب: ٥٦/٦ ـ ٨٠، والفهـرست: ص ٢٠٨، ٢١٢، وسـرح العيـون: ص ١٣٦، وأمراء البيان: ص ٣١١ ـ ٤٨٧، وميزان الاعتدال: ٢٤٧/٣، وتاريخ بغداد: ٢١٢/١٢، وتـذكرة النـوادر: ص ١٠٨، والفهرس التمهيـدي: ص ٥٥٠، ووفيـات الأعيـان: ٤٧٠/٣، ٤٧٥، وآداب اللغة: ١٦٧/٢.

رآه استبشع منظره وصرفه بعشرة آلاف درهم. وكان في الجاحظ دُعابة وَمجَانـة واستخفاف بالعادات المرعية والآداب الوضيعة، ولكنه كان لـطيف الروح ذكي الفؤاد فكهَ المحاضـرة صادق المواساة.

علمه وأدبه:

ليس في مقدور هذا القلم العاجز الموجز أن يصف للقارىء ما لنـابغة العرب وڤولتير الشرق من الأثر في الأدب. ويحَسْبنا أن نقول إنه تميز من أنداده بغزارة العلم، وقوة الحجة، واستقصاء البحث، وشدة المعـارضة، وبـلاغة القـول، وإنه تبحـر في علم الكلام وخلطه بفلسفة يونان، وانفرد دون المتكلمين بمـذهب في التوحيـد شايعـه عليه كثيـر منهم فسُمّوا بالجاحظية. وشارك في سائر العلوم وكتب فيها كتابة محقق ضليـع. وهو أول عـالم عربي جمع بين الجد والهـزل، وتوسـع في المحاضـرات وأكثر من التصنيف وكتب في الحيـوان والنبات والأخلاق والاجتماع.

نثره وشعره:

نقـل الجاحظ الكتـابة إلى طـور جديـد في الأسلوب والغـرض، ونهـج للمتـرسلين والمصنفين طريقة في الإنشاء ذكرناها في معرض الكلام عن الكتابة فلا نعيد فيهـا القول. وقد قال فيه البديع: إن كلامه بعيد الإشارة، قريب العبارة، قليل الاستعـارة. وهذا الحكم وإن كان شديداً يطابق الحق أحيانًا. أما شعره فلا روعة له ولا جمال فيه. وقد نزع في نظمه إلى الاتبـاع لا إلى الابتداع وهـو قليل منثـور في ثنـايـا الـرسـائـل والكتب كقـولـه للوزيـر ابن عبد الملك:

بـدا حيـن أثـرى لإخـوانـه	فـفـلّلَ مـنـهـم شـبَـاةَ الـعَـدَمْ
وأبصـر كيف انتقـالُ الـزمـان	فبـادر بـالعُـرْفِ قبـل النـدم

وقوله:

لئن قُـدِّمتْ قبلي رجـالُ فـطالمـا	مشيت على رِسْلِي فكنتُ المقـدمـا
ولكنَّ هـذا الـدهـر تـأتي صـروفـه	فتبـرم منقـوضـاً وتنقض مُبـرَمـا

مؤلفاته:

كُتب الجاحظ تربى على مائتي كتاب، وهي كما قال الأستاذ ابن العميد؛ «تعلم العقل أولاً والأدب ثانيًا» ولم ينشـر منها إلا كتـاب البيان والتبيين في الأدب والإنشـاء والخطابـة، وكتاب الحيوان وهو أقدم كتاب عربي في موضوعه، وكتاب المحـاسن والأضداد، وكتـاب البخلاء، وديوان رسائله.

مثال من نثره:

قال يعاتب صديقًا له: «والله يا قُليب لـولا أن كبدي في هـواك مقروحـة وروحي بك مجروحة، لساجلتك هذه القطيعة، وماددتك حبل المصارمة، وأرجو الله أن يديلَ صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي وأنفُ القِلَى راغم؛ فقد طال العهد بالاجتماع، حتى كدْنا نتناكر عند اللقاء».

وقال في رسالة التربيع والتدوير وهي من أبلغ رسائله:

قد اعتدنا في معصيتك والخلاف على محبتك، مرة بالمزاح، ومرة بـالنسيان، ومـرة بالاتكال على عفـوك. وعلى ما هـو أولى بك. والجملة أنّـا لو اعتمـدنا، ثم أصـررنا، ثم أنكرنا، لكان في فضلك ما يتغمده، وفي كرمك ما يوجب التغافل عنه فكيف وإنما سهونا ثم تذكرنا، واعتذرنا ثم أطنبنا؟ فإن تقبلْ فحظّك أصبت، ولنفسك نظرت. وإن لم تقبل فاجهَدْ جهـدك، ولا أبقى الله عليك إن أبقيت، ولا عفـا عنك إن عفـوت. وأقول كمـا قـال أخـو بني مِنْقر:

فمـا بُقْيَـا عَلَيَّ تــركتمـانـي ولكن خـفـتمـا صـدَر النبـال

والله لئن رميتني ببجيلة لأَرْمِيَنَّـكَ بكنانــة. ولئن نهضت بصالـح بن عليّ لأنهضنَّ بإسماعيل بن عليّ. ولئن صُلْت عليّ بسليمان بن وهب لأدمغتك بالحسن بـن وهب. وأنـا أرى لك أن تقبل العافية، وترغب إلى الله تعالى في السلامة. واحـذر البغيّ فإن مصـرَعه وخيم، واتق الظلم فإن مرعاه وبيل. وإياك أن تتعرض لجرير إذا هجا، وللفرزدق إذا فخر، ولهرثمة إذا دبر، ولقيس بن زهير إذا مكَرَ، وللأغلب إذا كرَّ، ولطاهِر إذا صال. ومن عرف قدره عرف قدر خصمه، ومن جهل نفسه لم يعرف قدر غيره. وعليك بالجادَّة ودع البُنَيَّاتِ. فإن ذلك أمثل لك. وأنت والله تعلم علم الاضطرار، وعلم الاختيار، وعلم الأخبـار، أني أظهر منك حربًا، وألطف كيداً، وأكثر علماً، وأوزن حلماً، وأخف روحاً، وأكرم عيناً، وأقل غشاً، وأحسن قداً، وأبعد غوراً، وأجمل وجهًا، وأنصع ظَرْفًا، وأكثر مُلحاً وأنطق لسـانًا، وأحسن بيانًا، وأجهر جهارة، وأحسن شارة، وأنت رجل تشذُّ من العلم، وتَنْتَف من الأخبار، وتموِّه نفسك، وتُعزُّ من قدرك، وتتهيأ بالثياب، وتتنبَّل بالمراكب، وتتحبب بحسن اللقـاء؛ ليس عنـدك إلا ذاك. فلِم تزاحمُ البحـر بالجـداول، والأجسام بـالأعراض، ومـا لا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ؟ ومن يَعدلُ بين القناة والكُرَة؟ وبين رحَى الطحان وبين سيف يمان؟ وإنما يكون التمثيل بين أتم الخيرين، وأنقص الشرّين، وبين المتقاربين دون المتفـاوتين. فأما الخل والعسل، والحصاة والجبل، والسم والغذاء، والفقر والغنى، فهذا مما لا يخطىء فيه الذهن، ولا يكذب فيه الحِسّ.

٣٢ ـ ابن العميد
٨٩٢ ـ ٩٧٠ م
٢٩٧ ـ ٣٦٠ هـ

نشأته وحياته :

أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد فارسي الأصل من أهل مدينة (قم). كان أبوه مترسلاً بليغاً يتولى الكتابة لنوح بن نصر الساماني ملك بخارى، فنشأه على الأدب ودرّبه في الكتابة، وغذاه بالعلم، فبرع في الإنشاء والترسل، وتوسع في الفلسفة والنجوم، حتى سمي بالأستاذ ولقب بالجاحظ الثاني.

ولما استكملت عُدَّته، واستحصدت قوته، غادر بخارى إلى بلاد الجبل من ملك آل بويه؛ فتقلد الأعمال في دولتهم. وما زال يتنقل في مدارج الرقى، ويتوقل في معارج الشرف، حتى وزَرَ لركن الدولة بن بويه سنة ثماني وعشرين وثلثمائة، فاضطلع بأعباء الوزارة، وقام بشؤون الدولة، وجرى على منهاج بني برمك في الجود، فانتجعه الشعراء وقصده العلماء من بغداد والشام ومصر فكان هو والصاحب بن عباد والوزير المهلبي روحاً لنهضة العلم وقطباً لدائرة الأدب في ذلك العصر. وقد كان المتنبي على مكانته يجله ويتهيّبه، وله فيه مدائح مشهورة منها قصيدته التي مطلعها:

بادٍ هواك صبَرت أم لم تصبرا ... وبُكاك إن لم يجر دمعُك أو جرى

ويقول فيها:

مَنْ مُبلغُ الأعراب أني بعدها ... شاهدت رَسْطاليس والإسكندرا

وَمللت نحر عِشارها فأضافني ... من ينحر البَدرَ النُضارَ لمن قرَى

وسمعت بطليموس دارس كتبه ... متملكًا متبدِّياً متحضرا

ولقيت كلَّ الفاضلين كأنما ... ردَّ الإله نفوسهم والأعصرا

ولكن ابن العميد كان قليل الحظ من العافية ألحَّت عليه الأوصاب وتناوبه القُولنج والنِّقْرسِ حتى استعز الله به سنة ستين وثلثمائة.

---

٣٢ ـ انظر ترجمته في: الإمتاع والمؤانسة: ٦٦/١، وتجارب الأمم: ٢٧٤/٦ ـ ٢٨٢، ومعاهد النصيص: ١١٥/٢، ويتيمة الدهر: ١٥٤/٣ ـ ١٨٨، والكامل في التاريخ، في حوادث سنة ٣٥٩، ووفيات الأعيان: ١٠٣/٥ ـ ١١٣، وشذرات الذهب: ٣١/٣ ـ ٣٤، وطبقات أعلام الشيعة: ص ٢٦٩، والأعلام: ٩٨/٦.

نثره وشعره:

عصر ابن العميد عصر تأنق وزخرف، وعهد خيال وشعر، فهداه طبعه إلى استحداث أسلوب جديد متناسب الفِقَر أنيق الديباجة، بُديع الوشي، طبع على غِراره مشايعوه لموافقته ذوق العصر. ولمكانة الوزير من الفضل. إلا أنه كان أرقى معاصريه طبعًا، وأقلهم سجعًا، وأكثرهم نثراً للشعر وتلميحاً للأمثال، وتضميناً للحكم، ولا يضارعه في أكثر ذلك على ما رأى إلا البديع، وكان ابن العميد متفنناً في فنون الكتابة، متفوقًا في ضروب الرسائل، حتى شاعت فيه الكلمة المأثورة: «بُدئت الكتابة بعبد الحميد، وخُتمت بابن العميد».

أما شعره فيغلب فيه الحسن ويرويه ماء الطبع؛ إلا أنه على الجملة أخف وزناً من نثره.

مختار من كلامه:

قال من رسالته إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة:

كتابي وأنا مُترجح بين طمع فيك ويأس منك، وإقبال عليك وإعراض عنك. فإنك تدِل بسابق حُرْمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية: وأدنى ذلك يحبِط أعمالك، ويمحق كل ما يُرْعى لك. ولا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك، أقدم رجلاً لصدمك، وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأثْني ثانية لاستبْقائك واستطلاحك، فقد يَغرُب العقل ثم يؤوب، ويعزُب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويُضاع الرأي ثم يُستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو.

ومنها: وزعمت أنك في طرَف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها. وإذ كنت كذلك فقد عرفتَ حاليها، وحلبت شطريها؛ فنشدْتُك اللَّه إلا ما صَدقتني عما سألتك كيف وجدت ما زلت منه، وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بَليل، وهواء غذِيّ وماء رَوِيّ، ومهاد وطيّ، وكنّ كنين، ومكان مكين، وحصن حَصين، عزِزتَ به بعد الذلة، وكثرت بعد القلة، وارتفعت بعد الضعَّة، وأيسرت بعد المعسرة، وأثربت بعد المتْربة؟ . . . ففيمَ الآن أنت من الأمر؟ وما العوضُ عما عددت، والخَلفَ مما وصفت؟ وما استفدتَ حين أخرجت من الطاعة نفسك، ونفضت منها كفك، وغمست في خلافها يدَك؟ وما الذي أظلّك بعد انحسار ظلها عندك؟ أظلٌّ ذو ثلاث شُعَب، لا ظليل ولا يُغْنِي من اللهب؟ قل نعم كذلك.

ومنها: تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها. والمس جسدك وانظر هل يُحسُّ؟ واجسُسْ عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك؟

وهل حليَ بصدرك أن تظفر بِفوْت سريح، أو موت مريح؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوله.

ومن شعره قوله لبعض إخوانه:

قد ذبتُ غيرَ حشَاشَة وذماء … ما بين حرٍّ هوى وحر هواءِ
لا أستفيق من الغرام ولا أرى … خلوا من فلأشجان والبُرَحاء
وصروف أيام أقمَن قيامتي … بنَوى الخليط وفرقة القرناء
وجفاء خِل كنت أحسب أنه … عوني على السراء والضراء
أبكي ويُضحكه الفراق ولن ترى … عجباً كحاضر ضحكه وبكائي

ومنها:

من يشف من داء بآخرَ مثله … أثرَتْ جوانحه من الأدواء
لا تغتنم إغضاءتي فلعلها … كالعين تغضبها على الأقذاء
واستبق بعض حشاشتي فلعلني … يوماً أقيك بها من الأسواء
فلئن أرحت إليّ عازب بلوتي … ووجدت في نفسي نسيم عزاء
لأجهِّزنَّ إليك قبجَ تشكر … ولأنثرنّ عليك سوءَ ثناء
ولأعْضلنّ مودتي من بعدها … حتى أزوجها من الأكْفاء

٣٣ ـ الصاحب بن عباد
٩٣٨ ـ ٩٩٥ م
٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ

نشأته وحياته:

وُلد كافي الكفاة أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عبَّاد بطالقان من أعمال قزوين، ودرس على ابن فارس اللغوي، واتصل بابن العميد شابًّا فأخذ عنه؛ واشتدت صحبتُه له فلقب من أجل ذلك بالصاحب. ثم وزَرَ لمؤيد الدولة ابن بُويه بعد أن قُتل أبو الفتح بنُ العميد وزيره، فدبر أموره وسدَّ ثغوره. ولما ملك فخر الدولة بعد أخيه استعفى الصاحب،

---

٣٣ ـ انظر ترجمته في: البداية والنهاية: ١١/٣١٤ ـ ٣١٦، ولسان الميزان: ١/٤١٣ ـ ٤١٦، ومعجم الأدباء: ٦/١٦٨ ـ ٣١٧، ووفيات الأعيان: ١/٢٢٨ ـ ٢٣٣، والنجوم الزاهرة: ٤/١٦٩ ـ ١٧١، ومعاهد التنصيص: ٤/١١، وابن الوردي: ١/٣١٢، والمنتظم: ٧/١٧٩ ـ ١٨١، ونزهة الجليس: ٢/٢٨٤، والأعلام: ١/٣١٦.

فقال له: «لك في هذه الدولة من إرث الوزارة، ما لنا فيها من إرث الإمارة. فسبيل كل منا أنْ يحتفظ بحقه.

فاتسع سلطان الصاحب وعم إحسانه، وغرس للأدب جناناً ناضرة، وشار للعلم ربوعاً عامرة. وقصد حضرته الأدباء والعلماء والمتكلمون والمصنفون يتعرضون لمنحه، ويتنافسون في مدحه، وهو يرشدهم بنقده، ويعينهم برفده، حتى أزدهر الأدب في عهد بني بويه بفضله ازدهاراً قلَّ أن يصادفه في عهد آخر.

وكان للصاحب وَلَعٌ بجمع الكتب وشغف بمطالعتها. وكان مجلسه لا يخلو من أديب يحاضر، ومتكلم يناظر، وناشىء يروي ويستفيد. وعاش الصاحب ما عاش مبجلاً مفضلاً نافذ الأمر مطاع الإشارة. فلما مات أغلقت له أبواب الري واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون جنازته وفيهم فخر الدولة وقوادُهُ في خير ملابسهم. فلما خرج نعشه من الباب صاحوا بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض. ودفن بأصبهان.

نثره:

سار الصاحب على نهج ابن العميد وأربى عليه في الحِلْية اللفظية ولا سيما في السجع والجناس، حتى قيل فيه: «لو رأى سجعه تنحلُّ بموقعها عروة الملك، ويضطرب بها حبل الدولة، لما هان عليه أن يتخلى عنها» ومنزلته بعد البديع وقبل الخوارزمي. وله ذوق سليم في صوغ الشعر ونظر صادق في نقده. ولم تعقه تكاليف الوزارة ولا مظاهر الإمارة عن التأليف، فصنف في اللغة كتاب المحيط في سبعة مجلدات، وكتاب الإمالة، والكشف عن مساوىء المتنبي، وغير ذلك: وأكثر فضله في تشجيع الأدباء وتنشيط العلماء وإذكاء شُعلة الأدب.

نموذج من كلامه:

كتب إلى القاضي أبي بشر الجرجاني حين وروده باب الرّي وافداً عليه:

تحدثت الركابُ بسيْر أروى ... إلى بلد حططتُ به خيامي

فكدتُ أطير من شوق إليها ... بقادمة كقادمة الحمام

أحقٌّ ما قيل أمرُ القادم، أم ظنٌّ كأماني الحالم؟ لا واللّه بل هو درك العيان، وإنه ونيل المنى سيَّان. فمرحباً أيها القاضي براحلتك ورحْلِك، بل أهلاً بك وبكافة أهلك، ويا سرعة ما فاح نسيم مسراك! ووجدنا ريح يوسف من ريَّاك؟ فحثَّ المطيَّ تُزل غُلتي بسقياك، وتزح عِلتي بلقياك. وقص عليَّ يوم الوصول لنجعله عيداً مشرّفاً، ونتخذه موسماً ومعرَّفاً ورُدّ الغلام، أسرع من رجْع الكلام، فقد أمرته أن يطير على جنَاح نسر، وأن يترك الصبَّا في عقال وأسْر.

سقى اللّه دارات مررتَ بأرضها   فأدّتك نحوي يا زيادُ بن عامر
أصائلَ قُربٍ أرتجي أن أنالها   بلقياك قد زحزحن حرَّ الهواجر

٣٤ ـ الخوارزمي
٩١٥ ـ ٩٩٣ م
٣٠٣ ـ ٣٨٣ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو بكر محمد بن عباس الخوارزمي، أصل آبائه من طبرستان وولد بخوارزم، ثم فارقها وهو فتيُّ السن ابتغاء للعلم والتماساً للرزق، فجاب الأقطار وتقلب في خدمة كثير من الملوك والأمراء. ولقي سيف الدولة وخدمه بالشام ثم مضى على غلوائه في الاضطراب والاغتراب: فورد بخارى ونيسابور وسيجستان حتى وافى الصاحب بن عباد بأصبهان، فأكرم مثواه ثم زوده بكتاب إلى عضد الدولة بشيراز فنجحت سفَرته، وربحت تجارته، وصدر عنه بمال جم وخير كثير فاستوطن نيسابور واقتنى بها ضياعاً وعقاراً، وعاش قرير العين ناعم البال بين مجالس الدرس ومجالس الأنس حتى مُنِيَ في آخر زمانه بمساجلة البديع الهمذاني ومناظرته. فانخذل انخذالاً شديداً، ونالت منه هذه النكبة فاعتلت صحته، وخمدت شهرته، ولم يحل عليه الحول حتى علقه حمامة سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة.

منزلته في الأدب والكتابة:

رُوي عن الخوارزمي ما رُوي عن أنداده من سرعة الحافظة وقوة الذاكرة، وشُهر بذلك حتى قيل: إنه قصد الصاحب بن عباد بأرَّجان، فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال: إن بالباب أديباً يستأذن في الدخول. فقال الوزير قل له: قد ألزمت نفسي ألا يدخل عليّ إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب «فقال أبو بكر للحاجب: آرجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فلما أُخبر بذلك الصاحب قال: هذا أبو بكر الخوارزمي.

وكان الخوارزمي مع ذلك إماماً في اللغة والأنساب، عالماً بأشعار العرب وأخبارها، واقفاً على أسرار اللسان وخواص التراكيب. وهو في النثر من طبقة ابن العميد. وكثير

٣٤ ـ انظر ترجمته في: يتيمة الدهر: ٤/١٩٤ ـ ٢٤١، والأنساب: ٨/٢٠٢ ـ ٢٠٣، واللباب: ٢/٢٧٣، وبغية الوعاة: ١/١٢٥، ووفيات الأعيان: ٤/٤٠٠ ـ ٤٠٣، وشذرات الذهب: ٣/١٠٥ ـ ١٠٦ ومعجم الأدباء: ١/١٠١، والأعلام للزركلي: ٦/١٨٣، وسير أعلام النبلاء: ١٦/٥٢٦.

من الناس يفضله على الصاحب. ولكنه يتخلف أحياناً فلا يحور إلى ذوق، ولا يرجع إلى سليقة. أما شعره فبين الرديء والجيد.

مختار من كلامه:

من فصوله المختارة قوله: الرجال حصون يبنيها الإحسان، ويهدمها الحرمان، وتبلغ بثمرها البرَّ واليُسر، ويمحقها الحفاء والكِبر. وإنه لا مال إلا برجال، ولا صلح إلا بعد قتال. والجبان مقتول بالخوف. قبل أن يُقتل بالسيف، والشجاع حي وإن خانه العمر، وحاضر وإن غيَّبه القبر ومن طلب المَنية هربت منه كل الهرب، ومن هرب منها طلبته أشد الطلب. وقال:

أكبر من الأسير من أسره ثم أعتقه، وأشجع من الأسد من قيده ثم أطلقه. وأكرم من النبت الزكي من زرَعه، وأكرم من الكريم من اصطنعه. لا صيدَ أعظمُ من إنسان، ولا شَبكة أَصْيَدُ من انسان، وشتان بين من اقتنص وحشياً بحبالته، وبين من اقتنص إنسياً بمقالته!

ومن أجود شعره قوله:

مضت الشبيبة والحبيبة فالتقى ... دمعان في الأجفان يزدحمان
ما أنصفتني الحادثات، رمينني ... بمودعين وليس لي قلبان

وقوله:

قلت للعين حين شامت جمالاً ... في وجوه كواذب الإيماض
لا يَغُرَّنْك هذه الأوجه الغرُّ (م) ... فيا رُبَّ حية في رياض

وقد ذم أحد خلفاء بني العباس قال:

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا ... من الكُنَى ومن الألقاب أبوابا؟
ولقبوا رجلاً لو عاش أوَّلهم ... ما كان يرضى بِه للقصرِ بوَّابا
قلَّ الدراهمُ في كفيْ خليفتنا ... هذا فأنْفَقَ في الأقوام ألقابا

وقال في الحِكَم:

لا تصحب الكسلان في حالاته ... كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوَى البليد إلى الجليد سريعةٌ ... والجمر يوضع في الرَّماد فيخمد

وقال يرثي ركن الدولة:

ألست ترى السيفَ كيف انْثَلم ... وركن الخلافة كيف انهدم؟
طوى الحسن بن بُوَيه الردى ... أيدري الرَّدى أيَّ جيش هزم
فصيح اللسان بديع البيان ... رفيع السنان سريع القلم
إذ تم شيءٌ بدا نقصُه ... توقع زَوالا إذ قِيلَ تمّ

٣٥ ـ بديع الزمان الهمذاني
٩٦٩ ـ ١٠٠٨ م
٣٥٨ ـ ٣٩٨ هـ

نشأته وحياته:

أبو الفضل أحمد بن الحسين ولد بهمذان ونشأ بها. وتعلم العلم باللغتين الفارسية والعربية، ولم يترك أديباً في همذان إلا استنفذ ما عنده. ثم غادرها إلى الصاحب ابن عباد فازداد من معارفه وعوارفه. وقصد جرجان فأقام في أكناف الإسماعيلية واختص بأبي سعيد محمد بن منصور. وفي سنة ٣٨٢ يمم نيسابور فتجلت فيها عبقريته، وذاعت بين الناس شهرته، وأملى بها أربعمائة مقامة. ثم تصدى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي، وكان أسنَّ منه وأشهر. وجرت بينهما مكاتبات أفضت إلى مناظرات. وغلّب هذا قوم وذاك آخرون. وساعد البديعَ شبابُه ولسانه وحاجتُه إلى الظهور، فظهر على الخوارزمي ظهوراً أطار ذكره ورفع قدره عند الملوك والرؤساء. وأجاب قرنه داعيَ ربه، فخلا له الجو، وابتسم له الدهر، وتنقل في حواضر فارس منتجعاً أمراءها، حتى ألقى عصاه بهَرَات وصاهر أحد وجهائها وعلمائها، وعاش بها رَخيَّ البال متسق الحال إلى أن ناداه ربه فلباه سنة ٣٩٨.

واختُلف في موته فقيل مات مسموماً، وقيل مات بالسكتة وعُجِّل بدفنه فأفاق في جَدَثه، وسُمع صوته بالليل فنبشوا عليه فوجدوه قد مات قابضاً على لحيته من هول القبر.

أخلاقه ومواهبه:

كان البديع مقبول الصورة، خفيف الروح، ناصع الظرف، ذكي القلب، قوي الحافظة حدَّث التاريخ عنه أنه كان ينظر في أوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة ثم يؤدي ما فيها لا يخرم منه حرفاً. وأنه كان يقترح عليه إنشاء رسالة في معنى غريب فيخرج منها عفو الساعة والجواب عنها فيها. وربما ابتدأ بآخر سطر من الرسالة وانتهى بها إلى أولها فيخرجها بلفظ مرتبط ومعنى متَسِق. وكان يترجم ما يُقترح عليه من الشعر الفارسي إلى الشعر العربي فيجمع بين الإبداع والإسراع.

---

٣٥ ـ انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات: ٦/٣٥٥ ـ ٣٥٨، وأعيان الشيعة: ٨/٣٠٦ ـ ٣٥٥، ويتيمة الدهر: ٤/٢٥٦ ـ ٣٥١، ومعجم الأدباء: ٢/١٦١ ـ ٢٠٢، ومعاهد: ٣/١١٣، والنويري: ٣/١١٠، والنجوم الزاهرة: ٤/٢١٨، ٢١٩، والكامل في التاريخ: ٩/٢٠٩، والأعلام للزركلي: ١/١١٦، ودائرة المعارف الإسلامية: ٣/٤٧١.

نثره وشعره:

نثْر البديع يستهوي القلوب ويملك الشعور، وكله من قبيل الشعر المنثور، وللصناعة تأثير فيه؛ إلا أنه مع ذلك جار مجرى الطبع، لم يفسده تكلف، ولم يبهمه تعمق. وقد جمع كلامه بين متانة اللفظ ورشاقة المعنى وجمال العبارة ودقة التخيُّل. وقد تصرف هذا الكاتب في فنون الترسل، وتفنن في ضروب الرسائل حتى كان بحَقٍّ فارس الطريقة العميدية وابن بَجْدَتها.

وله شعر رقيق لم يبلغ من الجودة مبلغ نثره، لأن الجمع بين حسن النظم وحسن النثر قلما يتفق لأحد.

مقاماته:

المقامات حكايات قصيرة تشتمل كل واحدة منها على حادثة لا تَسْتَغْرِق غالباً أكثر من مقامة (جلسة) وتنتهي بعظة أو مُلْحة. ولحسن الديباجة وأناقة الأسلوب فيها المحل الأول. والبديع أول من أجاد هذا النوع. والمظنون أنه حاكى بالمقامات الأحاديث الأربعين لابن دريد المتوفى سنة ٣١٠. وقد كتب أربعمائة مقامة في الكدْية وغيرها، نحلها أبا الفتح الإسكندري على لسان عيسى بن هشام. ولم يعثروا منها إلا ثلاث وخمسين مقامة شرحها الأستاذ محمد عبده. أسلوباً طلي شهي، إلا أن قِصَرَ حكاياتها وتقارب الخيال فيها يبعدها عن الكمال. وللبديع غير المقامات ديوان رسائل ومجموعة شعر وكلاهما مطبوع.

مختار من كلامه:

قال من رسالة: واللّه لو لا يدٌ تحت الحجر. وكبدٌ تحت الخنجر، وطفل كفرخ يومين قد حَبَّبَ إليَّ العيش، وسلب من رأسي الطيش، لشمخت بأنفي عند هذا المُقام. ولكن صبراً جميلاً واللّه المستعان.

وقال من رسالة أخرى: وجدتك تعجب أن يجحد لئيم فضل صنيعك. فخفض عليك يرحمك اللّه! إن الذي تعجب منه يسير، في جنب ما يجحد من الناس كثير. إن اللّه خلق أقواماً وشقّ لهم أبصاراً وآتاهم بصائر، فغاصوا بها على عرق الذهب ففصدوه، ولم يزالوا بالنجم حتى رصدوه، واحتالوا للطائر فأنزلوه من جو السماء، وللحوت فأخرجوه من الماء، ثم جحدوا مع هذه الأفكار الغائصة والأذهان النافذة صانعهم: فقالوا أين وكيف؟ حتى رأوا السيف. فلِمَ تعجب إن جحدوا فضلاً ليست الأرض بساطه ولا الجبال سماطه، ولا السماء فسطاطه، ولا الليل رباطه، ولا النهار صراطه، ولا النجوم أشراطه، ولا النار سياطه...؟

وكتب إلى بعض أصدقائه يحذره:

لعلك يا سيدي لم تسمع بيتي الناصح حيث قال:

اسمع نصيحة ناصح جمع النصيحه والمِقَة
إياك واحذر أن تكو ن من الثقات على ثقة

صدق واللّه وأجاد. فللثقات، خيانةٌ في بعض الأوقات. هذه العين تريك السراب شراباً، وهذه الأذن تسمعك الخطأ صواباً، فلست بمعذور، إن وثقت بمحذور، وهذه حال السامع من أذنه، الواثق بعينه. وأرى فلاناً يكثر غِشْيانك وهو الدنيءُ دِخْلته، الرديء نحلته، السيىء وصلته، الخبيث جملته. وقد قاسمته في أَزْرك، وجعلته موضع سرك. فأرني موضع غلطك فيه، حتى أريك موضع تلافيه. ما أبعدَ غلطَك عن غلط إبراهيم عليه السلام! إنه رأى كوكباً، ورأيتَ تَوْلباً. وأبصر القمر، وأبصرت القدر. وغلط في الشمس، وغلطت في الرمس! أظاهرُه غرك، أم باطنه سرك؟

ومن قولهِ في أبي القاسم ناصر الدولة:

غضّي جفونك يا ريا ض فقد فتنت الحورَ غمزا
واقْنَيْ حياءك يا ريا ح فقد كَدرْتِ الغصنَ هزا
وارفق بجفنك يا غما م فقد خدشت الورد وخزا
خلع الربيع على الرُّبى وربوعها خزًّا وبزّا
ومَطارفاً قد نقشت فيها يدُ الأمطار طرزا

ومنها:

وكأن أمطار الربيع إلى ندى كفيك تُعزَى
يا أيها الملك الذي بعساكر الآمال يُغزَى
خلقت يداك على العِدى سيفاً وللعافين كنزا
لا زلت يا كنف الأمير لنا من الأحداث حرزا

٣٦ ـ الحريري
١٠٥٤ ـ ١١٢٢ م
٤٤٦ ـ ٥١٦ هـ

نشأته وحياته:

محمد القاسم بن علي البصري عربي صميم من بني حرام. ولد بقرية يقال لها

---

٣٦ ـ انظر ترجمته في: معاهد التنصيص: ٣/٢٧٠ ـ ٢٧٧، وكشف الظنون: ٥٠٧ ـ ٧٨٩، ومرآت الجنان: ٣/٢١٣ ـ ٢٢١، وتلخيص ابن مكتوم: ص ١٩٤، ومختصر دول الإسلام: ٢/٣٠، والفلاكة =

المشان، ونشأ بالبصرة وتخرج على فضلائها. وكان في أول أمره يبيع الحرير أو يصنعه فلقب بالحريري. وصرفه عن ذلك شغفه بالعلم وولوعه بالأدب، فجد في الدرس والتحصيل حتى سمت منزلته واستطارت شهرته في وقوفه على أساليب العرب وحفظه لأخبارهم وأشعارهم فقربه الأمراء وأمّه الأدباء يستفيدون من علمه ويستزيدون من أدبه.

صفاته وأخلاقه:

كان الحريري دميماً قصيراً بخيلاً قذر الثوب مولعاً بنتف لحيته عند التفكير. فعاضه اللّه من ذلك برائع أدبه، ورقيق ملحه، وسعة صدره، واعترافه بالحق لأهله. ولذلك كان الحديث عنه خيراً من النظر إليه. سمع بشهرته رجل غريب فجاءه يتلقى عنه الأدب، فلما رآه استزرى شكله، وفهم الحريري منه ذلك. فلما التمس منه أن يملي عليه قال له اكتب:

ما أنت أولُ سار غرّه قمرٌ ورائدٌ أعجبته خُضْرة الدمن
فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المعيديّ فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل وانصرف.

نثره وشعره:

الحريري كاتب مكثر وشاعر مقل كالبديع. وهو من ساقة أتباع ابن العميد ومن الممهدين لظهور الطريقة الفاضليَّة بالقصد إلى البديع، والبالغة في الصنعة، والإفراط في تدبيج اللفظ، والتفريط في جانب المعنى، حتى تراءت معانيه من خلال ألفاظه عليلة ضئيلة كالعروس المسلولة جمَّلوها بالأصباغ وأثقلوها بالغلائل والحلى. وشعره كنثره في الكلَف بالبديع والعناية باللفظ. وضع منه كثيراً في ثنايا المقامات وجُمع في ديوان خاص.

مؤلفاته:

له من المؤلفات كتاب درة الغواص في أوهام الخواص، انتقد فيه أهل عصره في خروجهم عن حدود العربية في بعض الألفاظ والتراكيب. وكتاب ملحة الإعراب في النحو، وديوان رسائل، ثم المقامات وهي أجود آثاره.

مقاماته:

له خمسون مقامة نحلها أبا زيد السُّروجيّ على لسان الحارث بن همام ونسجها على منوال البديع، جمع فيها من اللغة والأمثال والأحاجي مالا غاية بعده. فهي ديوان مُمْتعٌ

= والمفلوكون: ص ١١٨ ـ ١١٩، وخزانة البغدادي: ١١٧/٣، ومطالع البدور: ٩/١، والأعلام للزركلي: ١٧٨/٥.

للألفاظ العربية، والنوادر اللغوية؛ والصناعة اللفظية، ولعل ذلك هو السبب في عناية الأدباء من العرب والفرنج بها وانتشارها بينهم. فقد ترجمها أكثر من عشرين مستشرقاً من الفرنسيين والألمان والإنجليز. وطبعت بالإنجليزية في لندن سنة ١٨٥٠، وباللاتينية في هيسبرج سنة ١٨٣٢، ونقلت إلى الفارسية سنة ١٢٩٣، ثم إلى التركية وطبعت بالآستانة. ولا تزال تدرس في بعض جامعات أوروبا بالشرح الذي وضعه لها رأس المستشرقين سلفستر دساسي سنة ١٨٢٢.

عيوبها:

ينتقدها أدباء الفرنج في قصرها، ووحدة مغزاها، وأن المؤلف لم يُعن فيها بتصوير الحكايات على نحو ما ألِفه الفرنج واليونان قديماً، وإنما صرف همه إلى تحسين اللفظ وتزيينه. وأدباء العرب يقولون إنها تكاد لا تخرج عن خيال متكرر في صور مختلفة، وإن إنشائها تكلفاً لا تسمح به طبيعة البدوي الذي قيلت على لسانه.

سبب وضعها:

سبب وضع المقامات أن الحريري كان جالساً بمسجد بني حرام بالبصرة، فدخل المسجد شيخ ذو طمْرَيْن عليه أُهبة السفر، ورث الحال، فصيح المقال. فسأله الحاضرون: من أين الشيخ؟ فقال: من سروج. فاستخبروه عن كنيته، فقال أبو زيد. فأنشأ الحريري المقامة الحرامية وعزاها إلى أبي زيد وجعل الراوي فيها الحارث بن همام مريداً نفسه. أخذاً بالحديث المأثور: كلكلم حارث وكلكم همام. واشتهرت تلك المقامة حتى بلغ خبرها شرف الدين وزير المسترشد بالله، فأعجب بها وأشار على الحريري أن يضم إليها سواها فأتمها خمسين.

مختار من كلامه:

قال يشكر أحد الوزراء: دعاء العبد للوزير دامت جدوده سعيدة، وسعوده جديدة، وعلياؤه محسودة، وأعداؤه محصودة، دعاءُ من يقترب بإصداره، على بعد داره، ويقصر عليه ساعاته، مع قصور مسعاته. وشكره للأنعام الذي أوصله إلى التجميل والتأميل، وجمع له بين التنويه والتنويل، شكْر من أُطلق من أسره، وأذيق طعم اليسر بعد عسره. ولو نهضت به القدمان، وأسعده عون الزمان، لقدم اعتمار الباب المعمور، وأسرع إليه إسراع العبد المأمور، ليؤدي بعض حقوق الإحسان، ويقرأ صحف الشكر باللسان. ولكن أنى ينهض المُقعدَ؟ ومَنْ له بأن يصعد فيسعد؟

ومن شعره في الحكم قوله:

لا تزرْ من تحب في كل شهر غير يوم ولا تزده عليه

فاجتلاء الهلال في الشهر يوم ثم لا تنظر العيون إليه

وقال أيضاً:

لا تقعدن على ضر وَمَسْغَبَة لكي يقالَ عزيزُ النفس مصطبر
وانظر بعينيك هل أرض مُعَطلةٌ من النبات كأرض حفَّها الشجر؟
فعدّ عما تشير الأغبياءُ به فأيُّ فضل لعود ما له ثمر؟
وارحل ركابك عن رَبع ظمئت به إلى الجناب الذي يَهمى به المطر
واستنزل الرِّيَّ من دَرِّ السحاب فإن بُلّت يداك به فليهنك الظفَر

٣٧ ـ القاضي الفاضل

١١٣٥ ـ ١٢٠٠ م

٥٢٩ ـ ٦٩٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو علي عبد الرحيم البَيساني بمدينة عسقلان من بلاد فلسطين، وأخذ العلم عن أبيه بهاء الدين عليّ قاضي عسقلان. ثم ورد مصر في أواخر الدولة الفاطمية ليتعلم الكتابة في الديوان، وذهب إلى الإسكندرية فدخل ديوان ابن حديد قاضيها. وما لبث أن ظهر فضله ودل عليه نبوغه، فقدم القاهرة وكتب في ديوان الظافر. ولما قامت الدولة الأيوبية استوزره صلاح الدين بن أيوب فساس ملكه خير سياسة. ثم وزر من بعده لولده العزيز ثم لأخيه الملك الأفضل. وتوفي سنة ٦٩٥ بالقاهرة.

منزلته في الكتابة:

كان من طبيعة منصب القاضي الفاضل أن يخالط الكتّاب في الأصقاع المختلفة ويقف على المذاهب الكتابية المتباينة في الشام والعراق ومصر. فجرته المحاكاة والمفاضلة وقوة الشخصية إلى استحداث طريقة جديدة بناها على أصول طريقة ابن العميد ومازها بالإغراق في التورية وَالجناس، حتى أصبحت الكتابة في عهده كما ذكرنا من قبلُ طلاء خدّاعاً من زخرف اللفظ على هيكل بالٍ من المعنى السقيم. بهرت هذه الطريقة العقيمة العيون الكليلة والقرائح الناضبة فاقتفاها عُبّاد الصنعة من أشباه الكتّاب، ووَرّطوا أنفسهم فيما لا غناء

---

٣٧ ـ انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة: ١٥٦/٦، وخطط مبارك: ١٢/٦، وكتاب: الروضتين: ٢٤١/٢، والكتبخانة: ٢٩٠/٤، وفريدة القصر: قسم شعراء مصر ٣٥/١، وكشف الظنون: ١٠١٦/٢، والنعيمي: ٩٠/١، والنويري: ٨/١ ـ ٥١، والأعلام للزركلي: ٣٤٦/٣.

فيه ولا رجْع منه. وظل هذا المذهب غاشياً على العيون، رائناً على القلوب، حتى عصرنا الحديث فزال على التدريج بتأثير ابن خلدون وتقليد الآداب الفرنجية.

نموذج من كلامه:

كتب هذه الرسالة إلى صلاح الدين يشفع لخطيب عَيْذَاب في توليته خطابة الكرك وهي:

أدام اللّه السلطان الملكَ الناصر وثبَّته، وتقبَّلَ عمَله بقبول صالح وأثبته، وأخذ عدوَّه قائلاً أو بيّته، وأرغم أنفه بسيفه وكبَته.

خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيْذَاب. ولما نبا به المنزل عنها، وقلّ عليه المرفق منها، وسمع هذه الفتوحات التي طبَّق الأرض ذكرها، ووجب على أهلها شكرُها، هاجر من هجير عيْذاب ومِلْحها، سارياً في ليلة أمل كلها نهارٌ فلاَ يسأل صبحها. وقد رغب في خطابة الكَرك وهو خطيب، وتوسل بالملوك في هذا الملتَمس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام وعن عيْذاب إلى الكرك وهذا عجيب. والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف، ولطف اللّه بالخلق بوجود مولانا لطيف، والسلام.

الفصل الرابع

الشعر وأثر السياسة والحضارة فيه

لقد كان أثر هذا الانتقال الإجتماعي في خواطر الشعراء أَبلغَ منه في نفوس الكتاب؛ فإن أولئك بالخلفاء ألصقُ، ونفوسهم بالترف والمدنية أعلقُ. وهم المنادمون على الشراب، والمفاكهون في السمر ضاق مضطربُهم في السعي فاتسع متقلبَّهُم في الخيال، وغلّت أيديهم بالكسل عن العمل فاشتغلت أفئدتهم بالفكر وانطلقت ألسنتهم بالقول ولم يجدوا العيش ميسوراً بالتأليف لصعوبة النسخ والنشر فتفرغوا لصوغ الشعر في ضروبه المختلفة. ووجدوا من الخلفاء والأمراء مؤازراً، ومن الحضارة والطبيعة ناصراً، ومن القريحة والسليقة مؤاتاةً، فجالوا في الشعر جولة لم تتوافر أسبابها لأسلافهم، ونقلوه من البوادي المجدبة، والأخبيَة المطنَّبة إلى الرياض الناضرة، والقصور الشاهقة، والمناظر المونقة. على يد زعيم المولدين بشار.

ولقد عرضت للشعر عوارض أثرت في أسلوبه ومعانيه وأغراضه وأوزانه.

فأما التأثير في أسلوبه، فهجر الكلمات الغريبة، وعذوبة التركيب ووضوحه، واستحداث البديع والاستكثار منه، وتركِ الابتداء بذكر الأطلال إلى وصف القصور والخمور والغزل، والإغراق في المدح والهجاء، والإكثار من التشبيه والاستعارة، والحرص على التناسب بين أجزاء القصيدة، ومراعاة الترتيب في التركيب.

وأما في معانيه فبتوليد المعاني الحضرية، واقتباس الأفكار الفلسفية، إذ أكثر شعراء هذا العصر ولِدان جنسيتين، ورضّاع لغتين وأدبين، وربائب حضارتين مختلفتين. ولهذا اللقاح من الأثر في الفكر والعقل ما يعلل لك وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي. ثم نقل العرب علوم اليونان وغيرهم فكان لهذا النقل فضل على الشعر في معانيه لا في فنونه، لأنهم لم يترجموا إلا كتب العلم والحكمة، ولم يحفلوا بشعر اليونان وقصصهم. ولا بشعر اللاتين وخطبهم؛ تعصباً لأدبهم وإيثاراً لشعرهم؛ فلم تؤثر الترجمة في الشعر إلا بما دخله من الخواطر الفلسفية والسياسية والآراء العلمية في شعر أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء وأضرابهم.

وأما في أغراضه فبالمبالغة في نعت الخمر ومجالسها، ووصف الرياض والصيد، وغزل المذكر، والمجون، والوعظ، والزهد، والأخلاق، والفلسفة، وضبط العلوم كالنحو وغيره.

وأما في أوزانه، فبالإكثار من النظم في البحور القصيرة، وابتداع أوزان أخرى، كالمستطيل والممتد وهما عَكس الطويل والمديد، والموشح والزجل، والدوبيت والمواليا. وكذلك في القافية كالمُسَمَّطِ والمُزْدَوج.

ولما انفرط عقد الخلافة، وتعددت حواضر الدولة، باستقلال الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب، وجد الشعر في غير بغداد ملاذاً وحِمى؛ فانتقل إلى تلك الأمصار فصادف من أمثال بني بويه وآل حمدان أكفاً سمْحة، وصدوراً رحْبة، وربوعاً خصبة، فازداد ابتكاراً وانتشاراً وكثرة ولنَظْرةٌ عَجْلى في فهرس اليتيمة للثعالبي تكفيك لتعلم أثر ذلك التشعب السياسي في نهضة الشعر، إذ كان الأمراء يتقيلون الخلفاء في تقريب الشعراء وتعضيد الأدباء والشعر والعلم كما رأيت لا يزهون إلا في ظل ملك أو أمير.

وما زال الشعر على حاله من العناية بالألفاظ، والإصابة للغرض، والافتنان في المعنى، حتى تجرّم القرن الخامس للهجرة، فذهب معه جمال الشعر العربي من الشرق، وفقد تأثيره في النفوس، لذهاب المعضدين له من بني بويه، وقلة الراغبين فيه من آل سلجوق، واستشعار النفوس لذل الغلبة والقهر بتوالي الفتن والمحن، فانصرفت الخواطر إلى التصوف والأدعية، وعَيَّت القرائح عن التوليد والابتداع، فجلا الشعراء معاني الأقدمين في حلل مُهلهلة النسج مُنَمَّقة الوشْي، وأخذوا يتعلقون بالبديع، ويُغلون في المجاز والكناية، ويقلدون العجم في إغراقهم ومهاواتهم الملوك والأمراء. ولا سيما المتأخرون منهم، حتى أصبح غرض الشعر عندهم إنما هو الكذب والاستجداء فقالوا: «أعذب الشعر أكذبه». ثم كان مآل الشعر في هذا العصر كمآل النثر فيه سواء بسواء.

وأنت إذا أخذت الشعر العربي كله بنظرة واحدة فعرضت تاريخه كما تعرض تاريخ الكائن الحي وجدته قد تطور في موضوعه تطور الأمة العربية، وقطع معها مراحل الحياة الإنسانية؛ فهو في الجاهلية أنغام صبي، وحماسة فتوة وعواطف أثرة، وفي الإسلام أناشيد جهاد، وثوران عصبية، وأطماع حياة. ثم استحار شبابه واكتمل في صدر الدولة العباسية، فظهر في شعر بشار وأبي نواس وأضرابهما عبث شباب، وأغاني طرب، ومظاهر ترف. ثم عض على نواجذ الحلم واكتهل في أوساطها فبدا في شعر ابن الرومي وأبي تمام والمتنبي وأمثالهم دروس تجربة، ونتائج حكمة، وخواطر فلسفة. ثم أدركه الهرم في أواخرها فظهر في شعر المتأخرين تمويه صنعة، وخرف شيخوخة، ومعالجة روح. أما ولادته وطفولته فلم يدركهما التاريخ ولم يدخلا في علمه.

نماذج من الشعر العباسي

الحماسة:

قال أبو فراس الحمداني:

ولما ثار سيف الدين ثُرنا ... كما هيجت آساداً غضابا
أسنته إذا لاقى طعانا ... صوارمه إذا لاقى ضرابا
دعانا والأسنة مُشْرعَاتٌ ... فكنا عند دعوته الجوابا
صنائع فاق صانعها ففاقت ... وغرس طاب غارسه فطابا
وكنا كالسهام إذا أصابت ... مراميها فراميها أصابا
فلما اشتدت الهيجاء كنا ... أشدّ مخالباً وأحَدَّ نابا
وأمنع جانباً وأعزّ جاراً ... وأوْفى ذِمة وأقلَّ عابا
إذا ما أرسل الأمراء جيشاً ... إلى الأعداء أرسلنا الكتابا

وقال أبو الطيب المتنبي:

عش عزيزاً أو مُتْ وَأنت كريمٌ ... بين طعن القنا وخَفْق البنود
فرؤوس الرماح أذْهَب للغيـ ... ـظ وأشفي لِغلٍّ صدر الحقود
لا كما قد حييتَ غيرَ حميدٍ ... وإذا متَّ مُت غيرَ فقيد
فاطلب العز في لظىً ودع الذلّ (م) ... ولو كان في جنان الخلود

المدح:

قال أبو تمام:

بمهديّ بن أصرم عاد عُودي ... إلى إيراقه وامتد باعي
سعى فاستنزل الشرف اقتساراً ... ولولا السعي لم تكن المساعي
ونغمة مُعْتَفٍ يرجوه أحلى ... على أذنيه من نغم السماع
جعلت الجود لألاء المساعي ... وهل شمسٌ تكون بلا شعاع؟
ولم يحفظ مُضاعَ المجد شيء ... من الأشياء كالمال المضاع
ولو صورت نفسك لم تزدها ... على ما فيك من كرم الطباع

وقال المتنبي:

قور بلوغ الغلام عندهُم ... طعنُ نحور الكُماة لا الحلم
كأنما يولد الندى معهم ... لا صغرٌ عاذرٌ ولا هرَم
إذا تولوا عداوة كشفوا ... وإن تولوا صنيعة كتموا

تـظن مـن كثـرة اعتـذارهُـمْ ... أنـهـم أنـعـمـوا ومـا عـلـمـوا
إن بَـرقـوا فـالحتـوفُ حـاضـرةٌ ... أو نـطقـوا فـالصـوابُ والحِكَم
تـشـرق أعـراضهـم وأوجُهـهـم ... كـأنـهـا في نـفـوسهـم شيَـم
أعيـذكـم من صُروف دهر كمـو ... فـإنـهُ في الكـرام مُـتـهـم

وقال ابن الرومي:

كـأن مـواهبـهُ في المحـو ... ل آراؤه عـنـد ضيـق الحـيَـلْ
فـلو كـان غيـثـاً لعـمَّ البـلادَ ... ولـو كـان سيفـاً لكـان الأجـل
ولـو كـان يعطى على قـدره ... لأغنى النفـوس وأفـنى الأمـل

الرثاء:

قال الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة:

الـمَّـا على مَـعـن وقُـولا لـقـبـره ... سقتـكَ الغَـوادي مـربْعـاً ثم مَـربعـا
فـيـا قبـر مَـعْنٍ أنـت أوّلُ حُفْـرة ... من الأرض خُطَّت للسماحة مضجعا
ويـا قبـر معنٍ كيف واريتَ جُـودَه ... وقـد كان منـه البر والبحـر مترعـا!
بلى قد وسعتَ الجود والجـودُ ميتٌ ... ولو كان حَيًّـا ضقْتَ حتى تَصَّدعـا!
فتًى عيشَ في معـروفـه بعـدَ مـوتـه ... كمـا كان بعـد السيل مَجْـراه مَرْتعـا
ولما مضى معنٌ مضى الجود وانقضى ... وأصبح عـرْنينُ المكـارم أَجْدَعـا

وقال محمد بن عبد الملك الزيات يرثي زوجته:

ألا مَنْ رأى الطفـل المفـارق أمّـه ... بُعيـد الكـرى عينـاه تتسكبـان؟
رأى كـل أم وابـنـهَـا غـيـر أمـه ... يـبيتـان تحت الليـل ينتجيـان
وبـات وحيـداً في الفـراش تجُنُّـه ... بـلابـلُ قلب دائـم الخـفـقـان
فـلا تلحيـاني إن بكيت فـإنمـا ... أداوي بهـذا الـدمـع مـا تـريـان
فهبني عـزمت الصبـر عنهـا لأنني ... جليـد، فمن بـالصبـر لابن ثمـان؟
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حِسبة ... ولا يـأتسي بـالنـاس في الحدَثـان
فلم أر كـالأقـدار كيـف تصيبـني ... ولا مثـل هـذا الـدهـر كيف رماني
أعينيَّ إن لم تسعـدا اليـوم عبـرتي ... فبئس إذَنْ مـا في غـد تـعـداني

وقال المتنبي يرثي أخت سيف الدولة:

طوى الجـزيـرَة حتى جاءني خبـرٌ ... فـزعت فيـه بـآمـالي إلى الكـذبِ
حتى إذا لم يَـدَعْ لي صـدقُـه أمـلا ... شرِقْتَ بالـدمع حتى كـاد يشْرَق بي

الهجاء:

قال مسلم بن الوليد:

أما الهجاء فدق عرضك دونه ... والمدح عنك كما علمت جليل

فاذهب فأنت طليق عرضك إنه ... عرض عززت به وأنت ذليل

وقال أبو تمام:

كم نعمة لله كانت عنده ... فكأنها في غربة وإسار

كسِيت سبائب لؤمه فتضاءلت ... كتضاؤل الحسناء في الأطمار

وقال ابنِ الرومي:

يقتّر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد

فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من مِنخر واحد

وقال المتنبي في كافور الإخشيدي:

أكلما أغتال عبدُ السوء سَيدَةَ ... أو خانه فله في مصر تمهيد؟

صار الخصيُّ إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبد والعبد معبود!

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... حتى بشمن وما تفنى العناقيد

العبد ليس لحر صالح بأخ ... لو أنه في ثياب الحر مولود

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد

من علم الأسودَ المخصيَّ مكرُمة؟ ... أقومهُ البيض أم آباؤه الصِّيدُ؟

أم أذنه في يد النخاس داميةً ... أم قدره وهو بالمفلسين مردود؟

وذاك أن الفحول البيض عاجزة ... عن الجميل فكيف الخصية السود؟

وقال ابن لنكك:

وعصبةٍ لما توسطهم ... صارت عليَّ الأرض كالخاتم

كأنهم من سوء أفهامهم ... لم يخرجوا بعدُ إلى العالم

يضحك إبليسُ سروراً بهم ... لأنهم عارٌ على آدم

الوصف:

قال البحتري من قصيدته في وصف إيوان كسرى:

صنْت نفسي عما يدَنِّس نفسي ... وترَفعْتُ عن جَدَا كل جِبس

وتمَاسَكْتُ حيْنَ زَعْزَعني آلدّهـ ... ـرُ التماساً منه لتَعسي ونكسي

بُلغٌ منْ صبابة العيش عنْدي ... طفَّفتها الأيام تطفيف نجس

وكأن الزمان أصبح محمو ... لا هواه مع الأخسِّ الأخس

واشتــرائي الـعــراق خُـطة غبْنٍ ... بعــد بيعي الـشــآم بيعــة وكس

ولـقــد رابنـي نبّــو ابن عـمـي ... بعـد لين من جـانبيـه وأنس

وإذا مـا جُـفيت كـنـت حَـريـاً ... أن أرى غيـر مُصبـح حيث أمسي

حضـرت رحْلي الهمـوم فـوجهـ ... ـت إلى أبيض الـمـدائن عَنسي

أتـسلى عــن الـحظوظ وآسـى ... لـمحـلٍ من آل ساسـان دَرّس

ذكّـرتـنيـهمُ الـخـطوب التـوالي ... ولقــد تُـذكـر الخـطوب وتُنسي

وهُمُ خـافضـون في ظـل عـال ... مشـرف يُحْسـرُ العيـون ويخسي

مُغلق بـابـهُ على جبـل الْقبـ ... ـق إلى دارتـيْ خِـلاط ومـكس

حِلَلٌ لم تكن كـأطـلال سُعْـدى ... في قفـار من البسـابس مُلْس

ومسَـاع لـوْلا المُحَـابـاة مني ... لم تـطِقهـا مَسْعـاة عنس وعبس

نقـل الـدهـرُ عهـدهن عن الجـ ... ـدّة حتى غـدون أنضـاءَ لُبس

فكـأن الجـرمـاز من عـدم الأنـ ... ـس وإخـلاقـه بَـنـيَّـة رمس

لـو تـراه عـلمت أنّ الـليـالي ... جعلت فيـه مأتمـاً بعـد عـرس

وهـو ينبيـك عن عجـائب قـوم ... لا يُشـاب البيـان فيـهم بلبس

وإذا مـا رأيـت صـورة أنـطا ... كّيـة ارتـعت بيـن روم وفـرس

والـمنـايـا مـوائـل وأنـو شـر ... وان يزجي الصفوف تحت الـدرَفس

وعـراك الـرّجـال بَـين يَـديـهِ ... في خفوت منهم وإغماض جَـرس

من مشيـح يهوي بعـامـلِ رمـح ... ومُليـح مـن الـسنـان بتـرس

تـصف العيـنُ أنهـم جِـدُّ أحيـا ... ءٍ لـهـم بـينـهـم إشـارة خـرس

يـغتـلي فيـهـمُ ارتيـابيَ حتـى ... تـتـقـراهُـم يَـدي بـلمس

قـد سقـاني ولم يُصَـرِّد أبـو الغـو ... ث علي العسكـرين شـربـة خَلس

من مُـدَامٍ تَقُـولُهـا هي نجْـمٌ ... أضْـوأَ الليـلَ أوْ مُجاجـة شمْس

وتـراهـا إذا أجـدّت سـرُوراً ... وارتيـاحـاً للشـارب المَتحسي

أفـرغت في الـزجـاج كلِّ قلبٍ ... فـهْي محبـوبَـةٌ إلى كـلِّ نـفس

وتـوهـمـت أن كـسـرَى أبـرْويـ ... ـز معـاطيَّ والبـلْهَـبَـذَ أنسـي

حُلمٌ مطبقي على الشـكّ عيني ... أم أمـانٍ غيـرْن ظني وحـدسي

وكـأنّ الإيـوان من عجب الصنـ ... ـعة جَـوْبٌ في جنب أرْعن جَلْس

يتـظَنى مـن الكـآبـة إن يـبْـ ... ـدُ لـعينـيْ مُـصبِّـح أو مُـمَسِّي

مـزعَجـاً بـالفـراق عن أنس إلف ... عـز أو مُـرْهَقـاً بتـطليق عِـرس

عكست حـظّه الليـالي وبَـات الْـ ... ـمُشتري فيه وهـو كـوكب نَحس

فـهـوَ يُبْـدِي تـجلداً وعـليـهِ ... كلْكَلٌ من كلاكِـل الـدهـر مُرسي

لم يَعِبْـه أن بُـزّ من بُسط الـديـ باج واستُلّ من ستـور الـدمَقْس
مـشـمـخـرٌ تعلـو لـه شُـرُفـات رفعت في رءوس رَضْـوى وقُـدس
لابسـات من الـبيـاض فـمـاتُبْـ صـرُ منهـا إلا غـلائـل بُـرس
لـيس يُـدْرى أصنـع إنس لـجنِ سـكـنـوه أم صـنـع جن لإنس
غـيـر أنـي أراه يـشـهـد أن لـم يـك بـانـيـه في الـملوك بِنكس
فـكـأني أرَى الـمـراتـب والـقـوْ مَ إذا مـا بـلغـت آخـر حـسـي
وكـأن الـوفـودَ ضـاحين حَسـرى من وقـوف خلْفَ الـزحـام وخُنس
وكـأن الـقيـان وسط المقـاصيـ ـر يُرَجِّعن بَـيـن حـو ولُـعس
وكـأن الـلقـاء أوّل مـن أمـ س ووشْـكَ الـفـراق أوّل أمس
عُمِّـرت للسـرور دهـراً فصـارَت لـلتـعـزِّي ربـاعـهـم والـتـأسـي
فـلهـا أن أعـيـنـهـا بـدُمـوع مـوقفـات على الصبـابـة خُبْس
ذاك عنـدي وليست الـدار داري باقتراب منهـا ولا الجنس جنسي
غيـر نُعمى لأهلهـا عنـد أهـلي غـرسـوا من زكـائهـا خيـر غـرس
أيـدوا مـلكـنـا وشـدُّوا قـواه بكمُـاة تـحـت الـسَّنَـوّر حُمْس
وأعـانـوا عـلى كتـائـب أريـا ط بـطعـنٍ على الـنحـور ودَعْس
وأراني مـن بـعـد أكـلَف بالأشـ ـراف طراً مـن كـل سِنـخ وأسّ

وقالت إحدى شواعر الأندلس تصف وادي آش:

وقـانـا لـفحـةَ الـرمـاد واد سقـاه مضـاعـف الغـيثِ العميمِ
حـللنـا دوْحـه فـحـنـا عـلينـا حنـوَّ الـمـرضعـات على الفـطيم
وأرشـفـنـا عـلى ظـمـأ زلالا ألـذَّ مـن الـمـدامـة لـلنـديـم
تـروع حصـاه حـاليـة العـذارى فتلمس جـانب العـقـد العـظيم
يَصـدُّ الـشمس أنى واجـهـتنـا فـيـحـجبـهـا ويـأذن لـلنسـيـم

الحكم والأمثال:

قال بشار بن برد:

إذا كنت في كـل الأمور معـاتبـاً صـديقـك لم تلق الـذي لا تعـاتبـه
فعِشْ واحـداً أو صِلْ أخاك فـإنـه مُقَـارف ذنـب مـرة ومـجـانـبـه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت، وأي النـاس تصفو مشـاربه

وقال مسلم بن الوليد:

حسبي بمـا أبـدت الآيـام تجـربـةً سَعى عليّ بكـأسيْهـا الجـديـدان
دلت على عيبهـا الـدنيـا وصـدقهـا ما استرجع الدهر مما كـان أعطاني

ما كنت أذَّخر الشكوى لحادثة حتى ابتلى الدهر أسراري فأشكاني

وقال أبو العتاهية:

الصمت أجمل بالفتى من منطق في غير حِينه
لا خير في حشو الكلا م إذ اهتديت إلى عيونه
كل امرىء في نفسه أعلى وأشرف من قرينه

وقال أبو تمام:

مَن لي بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلمَ ردُّ جوابه
وإذا طربت إلى المدام شربت من أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بقلبه وبسمعه ولعله أدرى به!

وقال البحتري:

وتِرتُ القوم ثم ظننت فيهم ظنوناً لست فيها بالحكيم
فما خُرْقُ السفيه وإن تعدَّى بأبلغ فيك من حقد الحليم
متى أحْرَجْتَ ذا كرم تخطى إليك ببعض أخلاق اللئيم

وقال ابن الرومي:

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرنَّ من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يحول من الطعام أو الشراب
وما اللجَجُ المِلاَحُ بُمرْويات وتلقى الرِّيَّ في النُّطَف العذاب

وقال المتنبي:

إنا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال
لو لا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والأقدام قتال
وإنما يبلغ الإنسان طاقته ما كل ماشية بالرحل شِملال
ذكر الفتى عمره الثاني، وحاجته ماقاته، وفضول العيش أشغال

الاعتذار والاستعطاف:

قال علي بن الجهم يعتذر للمتوكل:

عفا الله عنك ألا حرمةٌ تجود بعفوك أن أبعدا
لئن جلّ ذنب ولم أعتمد لأنت أجل وأعلى يدا
أم تر عبداً عدا طَوره ومولى عفا ورشيداً هدى؟
ومفسد أمر تلافيته فعاد فأصلح ما أفسدا
أقِلني أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى

وقال البحتري:

فَدَيناك من أي خطب عَرى ونائبة أوشكت أن تنوبا
وإن كان رأيك قد خال فيَّ وأوليتني بعد بشر قطوبا
أكذِّبُ نفسي بأن قد سخطت وما كنت أعهد ظني كذوبا
ولو لم تكن ساخطاً لم أكن أذم الزمان وأشكو الخطوبا
أيصبح وِردِيَ في ساحتيك طَرْقاً وَمرعَايَ مَحْلاً جديبا!
ومَا كان سخطك إلا الفراق أفاض الدموع وأشجى القلوبا
ولو كنت أعرف ذنباً لما كا نَ خالجني الشكّ في أن أتوبا
سَأصبرُ حتى ألاقي رِضا كَ إمَّا بَعيداً وَإمَّا قريبا
أرَاقِبُ رأيك حَتى يَصحّ وأنظر عطفك حتى يَثوبا

وقال سعيد بن حميد:

لم آت ذنباً، فإنْ زعمت بأن أتيت ذنباً، فغير مُعتمد
قد تطرف الكفُّ عين صاحبها فلا يرى قطعها من الرُّشد

ومن قصيدة للمتنبي يستعطف بها سيف الدولة لبني كلاب بعد أن ظفر بهم:

طَلبتهُم على الأمْواء حَتى تخَوف أن تفتشه السحاب
يهز الجيش حولكَ جانبيه كما نفضَتْ جناحيْها العُقَاب
وكيف يتمُّ بأسك في أناس تُصيبُهُم فيؤلمكَ المصاب؟
ترَفّقْ أيها المولي عليهم فإنْ الرِّفق بالجانِي عتاب
وإنهمُ عبيدكَ حيثُ كانوا إذَا تدعو لحادثة أجابوا
وعينُ المخطئين همُ وليسوا بِأوّل مَعشر خَطئوا فتَابوا
ومَا جهلت أياديكَ البَوادي ولكن ربما خفيَ الصَّواب
وكم ذنب مُوَلّدُهُ دلال وكم بَعد مُولَدُهُ اقتراب
وجُرم جَرهُ سفهاءُ قوْم وحلَّ بغير جارمه العِقَاب

الفصل الخامس

الشعراء المولدون

كان الشاعر في الجاهلية لسان دفاع، وحامي ذمار، ومسجل محامد؛ وفي الدولة الأموية كان داعية دين، ودعامة مُلك، وناصر مذهب، ومؤيد فرقة؛ وفي الدولة العباسية كان نديم خليفة، وسمير أمير، وأليف كأس، وصريع غانية. وكان أكثر شعراء بغداد في صدْر هذا العصر من الموالي الذين أطاعوا العرب كرهاً، واعتقدوا الإسلام رياء، فهاجموا الأخلاق بالخلاعة والمجون، وأذاعوا في الناس الزندقة والشك، ولكنهم أذاعوا كذلك الآراء الحرة، والمعاني المبتكرة، والأخيلة البديعة، والأوصاف الدقيقة، والمذاهب الجديدة، والعبقريات المأثورة، كمطيع بن إياس، وحماد عجْرد، وحسين بن الضحاك، وبشار بن برْد، ووالبة بن الحباب، وأبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأبان بن عبد الحميد، وأبي العتاهية، وأبي دلامة، ومروان بن أبي حفصة، وعباس بن الأحنف، وعلي بن الجهم، ودعبل الخزاعي، والعَسكوَك.

شعراء بغداد

٣٨ ـ بشار بن برد
٧١٤ ـ ٧٨٤ م
٩٥ ـ ١٦٧ هـ

نشأته وحياته:

هو بشار بن بُرْد بن يرجوخ العقَيلي بالولاء كنيته أبو معاذ ولقبه المرَعَّث لأنه كان في

---

٣٨ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٤٧، ٤٨، والشعر والشعراء: ص ٤٧٦ ـ ٤٧٩، وطبقات الشعراء: ص ٢ ـ ٦، (طبعة ثانية) ص ٢١ ـ ٣١، والأغاني: ٣/١٣٥ ـ ٢٥٠، وزهر الآداب، =

أُذنيه رُعثة، «والرعثة القرط». أصل أبيه من فرس طخارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة، وهبه لامرأة من بني عقيل فتزوجته ونسب إليها. ولد بشار بالبصرة ونشأ في بني عقيل مولعاً بالاختلاف إلى الأعراب المخيمين ببادية البصرة، حتى شب فصيح اللسان صحيح البيان من اللكنة والخطأ، ولذا كان آخر من يحتج النحاة بشعرهم من الشعراء. فلما بلغ مبلغ الرجال انتجع الخلفاء والأمراء بالمدح، وكاد يعيش في ظلال الشعر وادع النفس رغد العيش لو لا تعديه بالهجاء، وتعرضه للنساء، وهتكه ستر الحشمة، حتى نقم الناس ذلك منه، وتمنوا موته صوناً للعذارى وغيرة على المخدرات. قال مالك بن دينار. «ما شيء أدْعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى الملحد»، ودخل فريق من الغُيُرِ على المهدي فأسمعوه قصيدة من غزله، فقال: «بمثل هذا الشعر تميل القلوب ويلين الصعب» وأمر به، فلما جاء قال له: «واللّه لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في تشبيب لآتينّ على روحك»، فكان بشار بعد ذلك إذا أراد الغزل ذكره أن الخليفة منعه من كيت وكيت ويذكر ما يريد من اللهو وحديث النساء.

ولما توقح بشار وتهتك، ولم يردعه تهديد المهدي له، ولا زراية الناس عليه، سُعِيَ به ثانية إلى الخليفة ورُمي عنده بكل نقيصة. وصادف ذلك أن بشاراً مدح المهدي فلم يجزه لميله عنه وتغيره عليه، فهجاه بأبيات منها:

بني أُمية هبُّوا أطال نومكم ... إن الخليفة يعقوبُ بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة اللّه بين الزقّ والعود

وبلغ الخليفة ذلك، فدعا صاحب شرطته وأمره أن يضربه بالسوط، فضربه حتى مات سنة ١٦٧، وقد أوفى على السبعين.

صفته وأخلاقه:

ولد بشار أكْمَهَ فما رأى الدنيا قط. على أنه كان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر عليه البصراء، كقوله:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليلٌ تَهاوى كواكبُه

وكان ضخم الجثة، مفرط الطول، مجدور الوجه، جاحظ الحدقين، قد تغشاهما لحم أحمر؛ فكان أقبح الناس عَمى وأفظعهم منظراً. قالت له امرأة ذات يوم: لا أدري لِمَ يهابك

للحصري، انظر فهرسه، والموشح: ص ٢٤٦ ـ ٢٥٠ وسمط اللآلىء: ص ١٩٦، ١٩٧، ونكت الهميان، ص ١٢٥ ـ ١٣٠ وخزانة الأدب: ٩٦/١ ـ ٩٧، والأعلام، للزركلي ٥٢/٢، ومعجم المؤلفين: ٤٤/٣ ـ ٤٥.

الناس مع قبح صورتك فأجابها: ليس من حسنه يُهاب الأسد. ودخل عليه أحد الأدباء يوماً وهو نائم في دهليزه كأنه جاموس، فقال له: يا أبا معاذ، من القائل:

إن في بردِيَّ جسماً ناحلا   لو توكأت عليه لانْهَدَمْ

قال: أنا. قال: من القائل أيضاً:

في حُلتي جسم فتى ناحل   لو هبت الريح به طاحا

قال: أنا، قال: ما حملك على هذا الكذب؟ والله إني لأرى أن لو بعث الله الرياح التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك!

وكان بشار متوقد الذكاء، حاضر الجواب، صادق الحسن، بذيء اللسان، كثير المجون، مغموز الدين، يؤمن بالرجعة ويصوِّب رأي إبليس في تقديم النار على الطين وإبائه السجود لآدم في مثل قوله:

الأرض مظلمة والنار مشرقة   والنار معبودة مذ كانت النار

وكان إذا أراد الإنشاد صفق بيديه وتنحنح وبصق يميناً وشمالاً ثم ينشد!

شعره:

قال بشار الشعر وهو ابن عشر سنين، فما بلغ الحلم إلا وهو طائر الصيت فيه. وقد أدرك جريراً وهجاه وقال هجوت جريراً فاستصغرني وأعرض عني، ولو رد علي لكنت أشعر الناس. وأول ما تكلم فيه من أنواع الشعر الهجاء لأن سوقه كانت نافقة أيام ولد. وطرق كل باب من أبواب الشعر التي فتحت قبله ثم زاد عليها. ورواة الشعر ونقدته متفقون على أنه زعيم طبقة المولدين، وأسبقهم إلى المجون البذيء والغزل الرقيق، وأول من جمع شعره بين جزالة البدو ورقة الحضر، وأن شعره هو الحد الأوسط بين الشعر القديم والحديث. فهو في المولدين كامرىء القيس في الجاهليين، والبارودي في المحدثين، وكان الأصمعي يشبهه بالأعشى والنابغة لسلامة شعره من الخلل وخلوه من الحوشي والتعقيد. وقد شهد له الجاحظ بالتبريز في سائر مناحي القول وفنون الكلام فقال: «كان بشار خطيباً صاحب منظوم ومنثور ومُزدوج وسجع ورسائل. وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والإختراع المتفننين في الشعر، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه».

ولسلامة شعر بشار وطلاوته أولع به شبان البصرة وخلعاؤها، وافتن به نساؤها؛ فكن يذهبن إليه، وينعمن بحديثه، ويتغنين بشعره. فهوى جارية منهن تسمى عَبْدَة، شهرها بشعره حتى صار له معها أخبار طائرة وأشعار سائرة.

عيوب شعره:

لا يسن لباحث أن يعرف ما ينتقد به عليه؛ لأن شعره لم يدون فذهب به الزمان، ولم

يبق من اثنى عشر ألف قصيد إلا قطع مختارة منتشرة في الكتب وكل ما يعلم من عيوبه خروجه في شعره عن الحد المألوف من المجون، وتكميله القافية إذا أعوزته بألفاظ لا حقيقة لها، وتبذله في شعره أحياناً فيميل عن الشعر الجزل إلى الركيك السهل كقوله في جاريته:

رَبابة ربة البيت ... تصب الخل في الزَّيتْ
لها عشر دجاجات ... وديك حسن الصوت

وقوله:

إن سلمى خلقت من قصب ... قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصلا ... غلب المسك عَلَى ريح البصل

ولكنه كان يعتذر عن مثل الأول بأن له حالاً تقتضيه، وعن مثل الثاني بأنه قاله في صباه.

نموذج من شعره

من قوله في الغزل:

يزهدني في حب عبْدَة مغشرٌ ... قلوبُهمُ فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما آختار وآرتضى ... فبالْقلب لا بالْعين يبصر ذو الحبِ

وقوله:

يا قوم أُذْني لبعض الحي عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذي؟ فقلت لهم ... الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وقوله:

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ... ونفى عني الكَرَى طيف ألم
نفسي يا عبد عني واعلمي ... أنني يا عبدَ من لحم ودم
إن في بردِيَّ جِسماً ناحلاً ... لو توكأت عليه لآنهَدَمِ

ومن أبياته السائرة قوله:

هل تعلمين وراء الحب منزلة ... تدني إليك، فإن الحب أقصاني

وقوله:

أنا واللَّه أَشْتَهي سحر عيني ... ك وأخشى مصارع العشاق

وقال وهو يدل على اعتقاده بالجبر:

طبعت عَلَى ما فيَّ غيرَ مخَيَّر ... هوايَ، ولو خُيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى، أعطي ولم أرد ... وقصّر علمي أن أنال المغيبا

ومن قوله في الوصف والحماسة:

إذا الملكُ الجبارُ صعّر خدّهُ ... مَشَيْنا إليه بالسيوف نعاتبه

وأرْعَنَ يغشى الشّمسَ لونُ حديده ... وتحبسُ أبصارَ الكماة كتائبهُ

تغصُّ به الأرضُ الفضاءُ إذا غدا ... تزاحِمُ أركانَ الجبال مَناكبُه

ركبنَا له جَهْراً بكلِّ مثقف ... وأبيض تستسقي الدِّماء مضاربه

كأن مثار النِّقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

٣٩ ـ أبو العتاهية

٧٤٨ ـ ٨٢٦ م

١٣٠ ـ ٢١١ هـ

نشأته وحياته:

هو إسماعيل بن القاسم بن سُويد وكنيته أبو إسحاق ولقبه أبو العتاهية ولد بعين التمر قرية بالحجاز ونشأ في الكوفة على صناعة أهله، وكانوا باعة جِرَار. فجعل يصطنعها ويحملها في قفص على ظهره متنقلاً في شوارع الكوفة يبيعها. إلا أنه مع ذلك كان ولوعاً بالقريض، نزوعاً إلى الأدب، يقول الشعر على سجيته من غير أن يجهد نفسه فيه وربما حدَّث ببعض الحديث فيأتي موزوناً مقفى فيظنه الناس نثراً وهو شعر. ومنشأ ذلك تمكن الشاعرية منه ورسوخها فيه، حتى إنه كان يقول عن نفسه «لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت».

ومما يؤيد أن الشعر كان فيه سليقة لا صناعة، أنه كان يجهل العروض جهلاً تاماً؛ وله أوزان لا تدخل فيه، ولا تجري في مجاريه ولما سمع به متأدبو الكوفة وفتيانها كانوا يذهبون إليه في مصنعه ويستنشدونه فينشدهم أشعاره، فيأخذون ما تكسر من الخَزَف فيكتبونها فيه. وهكذا بدأ أبو العتاهية يصنع الشعر في أتونِه خَزَفاً، ثم ما لبث أن صنعه دراً تقلدته الأمراء والكبراء، وجرى ذكره مجرى المثل، فانتقل الخزاف من بين الطين والماء، إلى مجالس الشعراء ودواوين الخلفاء.

وفد إلى بغداد حاضرة العلم والأدب في أول خلافة المهدي ومدحه فحظي لديه واختلط ببعض جواريه فعشق منهن جارية تسمى عُتبة، أكثر فيها الغزل حتى هَمَّ المهدي أن

---

٣٩ ـ انظر ترجمته في: طبقات الشعراء: طبعة أولى ص ١٠٥ ـ ١٠٨، وطبعة ثانية ص ٢٢٨ ـ ٢٣٤، ومروج الذهب: ٨٢/٧ ـ ٨٣، والأغاني: ١/٤ ـ ١١٢، ووفيات الأعيان: ٨٩/١ ـ ٩٢، وتاريخ بغداد: ٢٥٠/٦ ـ ٢٦٠، ولسان الميزان: ٤٢٦/١ ـ ٤٢٩، وأعيان الشيعة للعاملي ٨٠/١٢ ـ ١١٠.

يهبها إياه لو لا ضراعتها وكراهتها له. فألهاه عن ذكرها بالمال الكثير، فكان يأخذ المال ولا يفتر عن ذكرَها في شعره حتى في مدائحه له. وكل ذلك كما قيل تصنع وتخلق ليُذكر بذلك. فلما توفي المهدي واستخلف الهادي، تغيرت أخلاق الشاعر فلها عن ذكر عتبة، وأخذ في التزهد والتخشن، وأقبل على درس مذاهب المتكلمين وبعض الفِرق، فكان يأخذ بكلٍ وقتاً ثم ينصرف عنه إذا سمع طاعناً عليه. ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على التزهيد في الدنيا والتذكير بالموت. ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر ألبَتَة. فأرغمه الرشيد عليه فأبى، فضربه ستين عصا وسجنه ولم يطلقه حتى رجع إلى قول الشعر. وكان بعد ذلك لا يفارقه في حضر ولا سفر، وأجرى عليه وظيفة مقدارها خمسون ألف درهم غير الجوائز منه ومن أمرائه. واتصلت شهرته بالآفاق وتَغَنَّى بشعره المغنون وتناجى به الزهاد وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم، وعنى العلماء والرواة بجمع شعره، ولم تزل تلك حاله مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون حتى مات سنة ٢١١.

صفته وأخلاقه:

كان أبو العتاهية أبيض اللون أسود الشعر له وفْرة جعْدةِ وهيئة حسنة. وكان لبِق اللسان مذبذب الرأي مفككاً معتل العقيدة لاضطرابه في الآراء وتلونه في النِّحل، مقتراً على نفسه وأهله مع وفرة ماله وحسن حاله. وكان بعض الناس ينسبه إلى إنكار البعث محتجاً بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والنفاد دون ذكر النشور والمعاد. وعلى الجملة فالدارس لحياة الرجل يراه مضطرب المزاج غريب الأخلاق مذبذباً في نسبه وحبه وعلمه وعقيدته.

شعره:

كان هذا الشاعر غزير البحر، لطيف المعاني، سهل الألفاظ، كثير الافتتان قليل التكلف، إلا أن شعره كثير الساقط المرذول. وأجوده ما قاله في الزهد والأمثال. ولقد قال الأصمعي: «إن شعر أبي العتاهية كساحة الملوك، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والنوى» وذلك حق؛ لأنه كان يرسل الشعر ارسالاً على البديهة من غير تعمُّل ولا تنقيح. على أنه في الطبقة الأولى من المولدين كبشار وأبي نواس، وهذا كان يفضله على نفسه ويمتاز أبو العتاهية بقلة تكلفه وسهولة ألفاظه حتى كادت تخرج إلى حد الابتذال. وحجته في ذلك أنه يرمي إلى العظة والزهد فينبغي أن يكون شعره مفهوماً لدى الناس على السواء. وهو الذي نهج للشعراء مناهج الزهد والعظات فاقتفوا أثره فيها. ولقد طرق أبواب الشعر فأجاد، إلا أن تفوقه ونبوغه إنما هو في الحِكَم وضرب الأمثال. وله أرجوزة جمعت أكثر من أربعة آلاف مثل. أما غزله فخيره ما قال في عتبة وأحسن مدائحه ما قاله في المهدي والرشيد. ولقد صان لسانه عن الهجاء إلا ما كان بينه وبين عبد الله بن معن، فإنه قال فيه من غير فحش ولا هُجر:

فصغ ما كنت حليت ... به سيفك خلخالا

ومـا تـصنـع بـالسـيـف إذ لـم تـكُ قـتـالاً؟
ولـو مَـدّ إلـى أذنـيـ ـهِ كـفـيـه لـمـا نـالا
أرىَ قـومـكَ أبـطالاً وقـد أصـبـحـتَ بَـطالا

درر من قلائده:

من قوله في الغزل:

عيـني عـلى عـتـبـة مُنْهـلّةٌ بـدمعهـا المنسكب السـائـل
كـأنـهـا مـن حـسـنـهـا درَّة أخـرجهـا اليمُّ إلى السـاحـل
كـأن في فيهـا وفي طـرفـهـا سـواحـراً أقبلن مـن بـابـل
بسـطت كفي نحوكم سـائـلاً مـاذا تـردون على السـائـل؟
إن لـم تـنـيلوهُ فـقـولـوا لـهُ قـولاً جميـلاً بـدل الـنـائـل
لم يُبـق مني حبهـا مـا خـلا حُشـاشـةً في بـدنِ نـاحِـل
يـا من رأى قبلي قتيـلاً بكى من شـدة الوجـد على القـاتـل!

وقال للمهدي وقد توفيت ابنته:

مـا للجـديـدين لا يَبْلَى اختـلافهـمـا وكـلّ غـصن جـديـد فيهـمـا بـالي؟
يـا من سـلا عن حبيب بعـدَ ميتتـه كم بعد مـوتـك أيضـاً عنـك من سـالي!
كـأنَّ كـلّ نـعـيـم أنـتَ ذائـقـه مـن لـذَّةِ العيش يحكي لـمـعَـة الآل
لا تَـلْعَبَنَّ بـك الـدُّنيـا وأنـتَ تـرى مـا شئـت مـن عـبـر فـيـهـا وأمـثـال
مـا حيلة الـمـوت إلا كـل صـالحـة أو لاَ ، فـمـا حيلة فيـهِ لـمـحـتـال

ومن قوله للرشيد وقد سجنه لاضرابه عن الغزل:

تـذكـر أمينَ الله حقي وحـرمتـي ومـا كنت تـوليني لعـلكَ تـذكـر
ليـاليَ تدني منك بالقرب مجلسي ووجهـك من مـاء البشـاشـة يقـطر
فمنْ لي بـالعين التي كـنت مـرَّةً إليَّ بهـا في سـالف الـدهـر تنـظر

ومن قوله يعظ الرشيد:

لا تـأمن الموت في طـرف ولا نفسٍ وَلـوْ تستـرت بـالأبـوابِ والحـرَس
واعلم بـأن سهـام المـوت قـاصـدةٌ لـكـلِّ مـدرَّع مـنّـا ومـتـرس
تـرجو النجـاة وَلم تسلك مسـالكهـا إن السفينـةَ لا تجـري على اليبس

وقال:

لـدوا لـلمـوت وابنـوا لـلخـرَب فَـكـلـكـم يـصـيـرُ إلى ذَهَـاب
ألاَ يـا مـوت لـم أرَ منـكَ بـدًّا أتـيت وَمـا تـحيف ومـا تحابي
كـأنـك قـد هجمت على مشيبي كمـا هجَم المشيب على الشبابِ

٤٠ ـ أبو نواس
٧٦٢ ـ ٨١٥ م
١٤٥ ـ ١٩٩ هـ

نشأته وحياته:

هو الحسن بن هانىء بن عبد الأول الحكمي. يكنى بأبي نواس لأن خلفا الأحمر كان له ولاء باليمن، وكان من أميل الناس إلى أبي نوَاس فقال له: أنت من أشراف اليمن فتَكَنَّ بأسماء الذوين (وهم الملوك الذين تبتدأ أسماؤهم بذو) ثم أحصى أسماءهم فقال: ذو جدن وذو يزن وذونواس فآختار ذاتوس فكناه بها، فغلبت على كنيته الأولى وهي أبو علي وُلِدَ بقرية من قرى الأهواز ونقل إلى البصرة ونشأ بها. ثم انتقل إلى بغداد وتوفي فيها. كان أبوه من جند مزوان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. ولما توفي لم يجد أبو نواس من يعوله، فآلتجأ إلى عطار يشتغل عنده. ولكنه كان مولعاً بالعلم مشغوفاً بالأشعار والأخبار، فكان كثيراً ما يغشى أندية العلماء، ويحضر حوار الشعراء، ويترنم بالنظم. وقد سمع بذكر والبة بن الحباب وشهرته في الشعر فكان يود لو يتصل به ليأخذ عنه. فآتفق أن مر والبة هذا بالعطار الذي كان يعمل عنده أبو نواس فتوسم فيه الذكاء والفطنة وتوقد الذهن. فقال له إني أرى فيك مخايل أرى ألا تضيعها، وستقول الشعر فآصحبني أخَرّجك، فقال له ومن أنت؟ قال: أنا والبة بن الحباب. فقال له. نعم أنا واللّه في طلبك، ولقد أردت الخروج إلى الكوفة لآخذ عنك. فسار أبو نواس معه، وقدم بغداد وقد أربى على الثلاثين، وهناك صحب الشعراء ودرس على العلماء حتى أصبح من أشعر أهل عصره وأغزرهم علماً وأنبههم اسماً. وتأدى خبره إلى الرشيد فأذن له في مدحه فمدحه وآتصل به ونفق عنده. وبلغ من دالة أبي نواس عليه أنه كان يمر به بنو هاشم والقوّاد والكتاب فيحيونه وهو متكىء ممدود الرجل فلا يتحرك لأحد منهم. وكان يقصد عمال الولايات فيمدحهم ومن هؤلاء الخصيب عامل مصر، فقد مدحه بقصائد رواها عنه المصريون دون العراقيين. ثم انقطع بعد ذلك إلى محمد الأمين فنادمه ومدحه، وثبت عنده ما يوجب سجنه فسجنه مدة ولم يلبث بعد إطلاقه أن مات سنة ١٩٩ ببغداد.

صفاته وأخلاقه:

كان أبو نواس جميل الصورة، خفيف الروح، حلو الحديث، حاضر البديهة فصيح

---

٤٠ ـ انظر ترجمته في: الشعر والشعراء: ص ٥٠١ ـ ٥٢٥ وتاريخ الطبري: ٣/٧٠٤، ٩٥٨ ـ ٩٦٧، ٩٧٢ ـ ٩٧٣، وأخبار الشعراء: ص ٣٣، ٣٩ وأشعار أولاد الخلفاء: ص ١٤٤، والموشح: ص ٢٦٣ ـ ٢٨٩ وشعراء الشيعة: ص ١١٣، والبداية والنهاية: ٢٠/٢٢٧ ـ ٢٣٥، وتاريخ بغداد: =

اللسان، مدمناً للخمر، كثير الهزل والمجون، جامعاً لأشتات الصفات التي يجب أن تكون في النـديم، مستخفاً بـأمور الـدين. وله مـع الشعراء منـاقضات كثيـرة. ونوادره المجـونية مجموعة في كتاب خاص غير ديوانه طبع منه جزؤه الأول في القاهرة؛ إلا أن أكثر هذه النوادر وتلك الأشعار المجونية مدسوس عليه؛ لأن جل أشعاره في ذكر اللهو ووصف الخمر وما يتبع ذلك، وليس هذا مذهب المعاصرين له ولا المتأخرين عنـه، فألحق النـاس بشعره كـل ما وجدوه من جنسه ولم يعرفوا قائله. وأكثر أخباره مع جـارية شـاعرة تسمى جنـان قد هـويها وكلف بها.

منزلته في الشعر:

كان أبو نواس ضليعاً في اللغة راوياً للشعر والأخبار حتى قيل إنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة خلاف الرجال. وقد قال فيه الجاحظ ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة استكراه. ولج أبواب الشعر كلها، إلا أنه آمتاز من كل الشعراء بفحش مجونه، وصراحة قوله، وصدقه في تصوير خليقتـه وبيئته، ووصفه الخمر وصفاً «لو سمعه الحَسَنان لهاجَـرا إليها وعكفا عليها» وأقل شعـره مدائحـه، وأكثرها في الرشيد وولده الأمين. ويعد أبو نواس ثاني بشار في منزعه لفظاً ومعنى، وكثيراً ما ضرب على وتره، حتى قال الجاحظ: «بشار وأبو نواس معناهما واحد والعِدة اثنان: بشـار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قولاً ولا تعب في عمل شعر، وأبـو نواس حـل من الطبـع بحيث يصل شعره إلى القلب بغير إذن».

وكان أبو نواس مشهوراً بالتنقيح، يعمل القصيدة ويتركها ليلة ثم ينـظر فيها فيحـذف أكثرها ويقتصر على الجيد منهـا، ولهذا قصـر أكثر قصـائده وهـو على رقته ومجـونه جـزل الألفاظ، فخم الأسلوب، كثير الغريب ولقد ابتدع في الشعر أشياء أنكرهـا عليه العقـلاء، وأخذها عنه الشعراء، كاستهتـاره في الفجور، وآستـرسالـه في المجون، ونقله الغـزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر. ولا ريب أن هذه الطريقـة التي شرعهـا هذا الشـاعر الماجن كانت جناية على الأدب ووصمة في تاريخ شعر العرب.

درر من قلائده:

قال في الخمر:

ما زلت أستلُّ رُوح الـدَّنِ في لطَفٍ   وأستقي دَمــه من جـوف مجـروح
حتى انثنيت ولي روحان في جسدي   والــدَّن منـطرح جسمــاً بــلا روح

وقال أيضاً:

مُعَتَّقــة صــاغ المــزاجُ لــرأسهــا   أكــاليـلَ دِرّ مــا لمنـظومهـا سلك

= ٧/٤٣٦ ـ ٤٤٩، ووفيـات الأعيـان: ١/١٦٨ ـ ١٧٢، وأعيـان الشيعـة: ٢٤/٣ ـ ٢٤٩، والأعـلام، للزركلي ٢/٢٢٥ ومعجم المؤلفين: ٣/٣٠٠ ـ ٣٠١.

جرت حركات الدهر فوق سكونها ... فذابت كذوب التِّبْرُ أَخْلصه السبك
وقد خفيت من لطفها فكأنها ... بقايا يقين كاد يذهبها الشك

قال في وصف شاربها:

ومستطيل على الصهباء باكرَها ... في فتْية بآصطباح الراح حُذَّاق
فكل شيء رآه ظنه قدحاً ... وكل شخص رآه ظنه الساقي

وقال في وصف الكأس:

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارس
مساحب من جرِّ الزقاق على الثرى ... وأضغاثُ رَيحان جنيٌّ ويابس
حبسْت بها صحْبي فجددتُ عهدهم ... وإني على أمثال تلك لحابس
تدارَ علينا الراحُ في عسجديةٍ ... حبتها بألوان التصاوير فارس
قراراتها كسرى، وفي جنباتها ... مَهاً تدَّرِيها بالقسي الفوارس
فللخمر ما زَرَّت عليه جيوبُها ... وللماء ما دارت عليه القلانس

وقال في عاقبة الجهالة:

ولقد نهزْتُ معَ الغُواة بدلْوهم ... وأسمْتُ سَرْح اللهو حيث أسلمو
وبلغت ما بلغ آمروٌ بشبابه ... فإذا عُصارة كلّ ذاك أثامُ

وقال في مدح الخصيب أمير مصر:

تقول التي من بيتها خفَّ محملي ... عزيز علينا أن نراك تسيرُ
أمَا دون مصر للغنى مُتَطَلبٌ ... بلى إنّ أسباب الغنى لكثير
فقلت لها وآستعجلتها بوادر ... جرت فجرى في إثرهن عبيرُ
دعيني أكَثّر حاسديك برحلة ... إلى بلد فيه الخصيب أمير
فتى يشتري حسن الثناء بماله ... ويعلم أن الدائرات تدور
فما جازه جود ولا حل دونه ... ولكن يسير الجود حيث يسير

وقال في وصف الدنيا:

ألا كل حي هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت ... له من عدو في ثياب صديق

ومن أبياته التي يتمثل بها:

قوله:

لا أذود الطيرَ عن شجر ... قد بلوتُ المرَّ من ثمره

وقوله:

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

وقوله:

صار جدا ما مزحت به رُبَّ جد ساقه اللعب

٤١ ـ ابن الرومي
٨٣٦ - ٨٩٧ م
٢٢١ - ٢٨٤ هـ

نشأته وحياته:

أبو الحسن علي بن العباس بن جرجيس مولى عبيد اللّٰه بن علي رومي الأصل. ولد ببغداد وفيها نشأ وتأدب حتى شعر ونبغ. ثم قضى حياته كأكثر الشعراء في انتجاع السراة والولاة. وقد حمل الناسَ بلسانه على بره وتكرمته، إما رغبة وإما رهبة.

كان ابن الرومي شرهاً كما يظهر من غضون شعره. وله أشعار كثيرة في الطعام والشراب. وكان شديد الطِّيَرةِ يغلو فيها ويحتج لها ويقول: إن النبي ﷺ كان يحب الفأل ويكره الطيرة، وأنه مر برجل وهو يَرْحَل ناقة له ويقول: (يا ملعونة)، فقال لا يصحبنا ملعون. وأن علياً رضي اللّٰه عنه كان لا يغزو غزاة والقمر في العقرب. وكان يزعم أن الطيرة موجودة في الطباعِ، وهي في بعضهم أظهر، وأن الأكثر في الناس إذا لقي ما يكرهه قال: على وجه مَنْ أصبحتُ اليوم؟ قال علي بن المسيب: دخل علينا ابن الرومي يوم مهرجان سنة ٢٧٨ وقد أهْدى إليّ عدة من الجواري القيان؛ وكانت فيهن صبية حولاء وعجوز في إحدى عينيها نكتة. فتطيَّر من ذلك ولم يظهر لي أمره، وأقام باقي يومه لا يخرج. فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لي من بعض السطوح، وجفاه القاسم ابن عبيد اللّٰه فجعل القينتين سبب ذلك وكتب إليَّ يقول:

أيها المُتْحفي بحول وعُور أين كانت عنك الوجوه الحسان؟
قد لعمري ركبت أمراً مهيناً ساءني فيك أيها الخُلْصان
فتحك المهرجانَ بالحول والعو ر أرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقْدُك ابنتك الحرّ ة مصبوغةً بها الأكفان
وتجافى مؤمَّل لي جليل لجَّ فيه الجفاء والهجران

---

٤١ ـ انظر ترجمته في: أخبار أبي تمام: ص ٢٥، ٦٧، والأغاني: ١٠/٥٩، طبعة ثانية ٢٠/٧٢، والموشح: ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨، وسمط اللآلىء: ص ١٦٠ ـ ١٦١، والمنتظم: ١٦٥/٥ ـ ١٦٨، وإرشاد الأريب: ٢٢٤/١ ـ ٢٢٧، ومعاهد التنصيص: ١٠٨/١ ـ ١١٨.

قف إذا طِيرة تلقتك وآنظر | وآستمع ثمَّ ما يقول الزمان
خبَّر اللَّه أن مشأمة كا | نت لقوم وخبَّر القرآن

وبلغ من تطير ابن الرومي أنه كان يقيم الأيام لا يخرج من داره إذا قرعت أذنه صبيحةَ اليوم كلمةٌ سيئة. وله في ذلك أخبار غريبة مع الأخفش. وكان هذا الشاعر فاحش الهجو شديده حتى خشيه الكبراء والوزراء لذلك. وكان أبو الحسن القاسم بن عبيد اللَّه وزير المعتضد لا يفتأ حَذِراً منه خائفاً من هجائه، ولا يكاد يصدق أنه يسلم من لسانه. وكان هذا الوزير شريراً سفاكاً للدماء، فدس عليه من سمه في أكلة وهو حاضر. فلما أحس ابن الرومي بالسم قام، فقال له الوزير: إلى أين؟ فقال إلى الموضع الذي بعثت بي إليه! فقال له سلم على والدي. فقال ليس طريقي على النار. ولحق بمنزله فأقام به أياماً وكان الطبيب يتردد عليه فزعم أنه غلط في بعض العقاقير، فقال وقد سأله نفطويه النحوي وهو يجود بنفسه:

غلط الطبيب عليّ غَلطة مُوردِ | عجزت مواردُه عن الإصدار
والناس يَلْحَون الطبيب وإنما | غلط الطبيب إصابة الأقدار

شعره:

كان في الناس من يعير ابن الرومي جنسيته، وينتقص لأجلها شاعريته كما يؤخذ من قوله:

كم عائب كل شيء | وكلُّ ما فيه عيب
قد تُحْسِنُ الروم شعراً | ما أحسنته العُرَيبُ
يا منكر المجد فيهم | أليس منهم صهَيب؟

ولكن هذه الجنسية كان لها الأثر الأظهر والفضل الأكبر في نبوغه، فإنه جمع إلى تعمق الآريين في الفكر، تفوّق الساميين في الخيال؛ وضم إلى دقة الروم في التصوُّر، قوة العرب في التصوير. فآمتاز بتوليد المعنى وآستقصائه حتى لا يترك فيه بقية لغيره. ومن ثم طالت قصائده من غير تكرير ولا سقط. وقلما رأينا شاعراً يسلم على الطول وتتساوى أجزاء قصيدته في الحسن والقوة. ولابن الرومي براعة نادرة في وصف الشيء وتشبيهه، وقدرة غريبة على العتاب والهجاء، لما كان يُمْنَى به من جفاء الأصدقاء، وإعراض الكبراء، لحدة طبعه وضيق خلقه. وهو في منزلة أبي تمام والبحتري، وربما فضَلهما أحياناً؛ لأنه قال في كل فنون الشعر المعروفة (وزاد عليها زيادة لو وزعت على عشرة شعراء لأحلتهم منازل الفحول).

على أنه يسفُّ أحياناً فيطلب صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هُجنة اللفظ وخشونته. ولو أنه نشأ نشأة عبد اللَّه بن المعتز لما كان له معه ذكر في باب التشبيه والملح؛ فإن ابن الرومي أعلى كعباً منه في الشعر، ولكن علمه بالمشبهات دون علم الملوك وقد قال

له بعض معاصريه يلومه: لِمَ لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز؟ فقال له: أنشدني من قوله الذي آستَعْجَزْتني عن مثله. فأنشده قوله في الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر؟

فقال له زدني. فأنشده قوله في الآذريون، وهو زهر أصفر في سوطه خمل أسود:

كأن آذريونَها ... غبٌّ سماء هَاميَه
مداهنٌ من ذهب ... فيها بقايا غالِيَهْ

فصاح واغوثاه! لا يكلف اللّه نفساً إلا وسعها. ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس. فهل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام:

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً ... من الجود كناً والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر ... على أحمر في أصفر إثْرَ مُبْيَض
كأذيال خَوْدٍ أقبلت في غلائل ... مُصَبَّغة والبعض أقصر من بعض

وقولي في صانع الرقاق:

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به ... يدْحو الرقاقة مثل اللمح للبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرَةً ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... في لجة الماء فيه بالحجر

نموذج من شعره:

من قوله، وقال ما سبقني أحد إلى هذا المعنى:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم ... في الحادثات إذا دجَوْن نجوم
منها معالم للهدى، ومصالح ... تجلو الدجى، والأخريات رجوم

ومن معانيه المخترعة قوله:

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدر فيه بُعْدَ المستقَى ... عند الورود لما أطال رِشاءَه

وكان هو يطيل

وقوله:

تودَّدتُ حتى لم أجدُ مِتَوَدَّدا ... وأفنيت أقلامي عتاباً مُردّدا
كأني أستدني بك ابن حَنِيَّة ... إذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

ومن بدائع قوله في الشباب:

رأيتُ سواد الرأس واللهو تحته ... كليل وحُلم بات رائيه ينعم

فلمـا اضمحـل الليـل زال نعيمـه ... فـلم يبـقَ إلا عـهـده المـتـوهَّـم

وقوله في قصيدة يصف الشمس في الأصيل:

وقـد رنّقت شمس الأصيل ونفّضت ... على الأفق الغـربيّ وَرْساً مـزَعـزعـا
ووَدعت الـدنيـا لتقضيَ نـحبهـا ... وشـوَّل بـاقي عمـرهـا فتشعشعـا
ولاحـظت النُّـوّار وهي مـريضـة ... وقد وضعت خدًّا إلى الأرض أضْرَعا
كمـا لاحظت عـوّادَه عينُ مـدْنف ... تـوجَّـعَ مِن أوصـابـه مـا تـوَجعـا
وظلّت عيون النّور تخضـلُ بالنـدى ... كما آغرورقت عين الشجّي لتـدمعا
يـراعينهـا صُـوراً إليـهـا روَانيـا ... ويلحظن الحاظاً من الشجو خُشَّعاً
وبيِّن إغـضـاءُ الفـراق عليهـمـا ... كـأنهمـا خِـلاً صـفـاءِ تـودَّعـا
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة ... من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا
وأذكى نسيمَ الـروض ريعـان ظله ... وغنى مغني الـطيـر فيـهِ وسجّعـا
وغـرّد رَيـعيٌّ الـذُّبـاب خـلالَـهُ ... كما حَثْحَثَ النشوان صنْجاً مشرّعا
فكـانت أرانينُ الـذُّباب هنا كمـو ... على شـدوات الطيـر ضربـاً مـوقعـاً

٤٢ ــ ابن المعتز
٨٦٣ ـ ٩٠٩ م
٢٤٩ ـ ٢٩٦ هـ

نشأته وحياته:

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد اللّه بن الخليفة المعتز، ولد في بيت الملك وموئل الخلافة، وربيَ في باحة النعيم وموطن الجلالة، فنشأ نبيل النفس دقيق الحس، قوي الشعور بالجمال، ولوعاً بالأدب والموسيقى. تأدب على شيوخ الأدب في عصره كالمبرّد وثعلب، وشارك في أكثر العلوم النقلية والعقلية وشغله الأدب والطرب واللعب عن دسائس القصر ومطامع الخلافة فكان كما وصف نفسه:

قـليـلٍ هـمـوم الـقـلب إلا لـلذّة ... يُـنَعَّـم نفسـاً آذنـتْ بـالـتـنـقـل
فـإن تَـطِلْبُـه تقتنصـه بـحـانـة ... وإلا بـبـسـتـان وكـرم مـظلَّل
ولست تـراه سـائـلاً عن خليفـة ... ولا قـائـلاً من يعـزلـون ومن يلي

---

٤٢ ـ انظر ترجمته في: أشعار أولاد الخلفاء: ص ١٠٧ ـ ١١٧، ومروج الذهب: ٨/٢٤٩ ـ ٢٥٤، والأغاني: ١٠/٢٧٤ ـ ٢٨٦، والفهرست: ص ١١٦، وتاريخ بغداد: ١٠/٩٥ ـ ١٠١، ووفيات الأعيان: ١/٣٢٣ ـ ٣٢٦ وفوات الوفيات: ١/٥٠٥ ـ ٥١١، ومعاهد التنصيص: ٢/٣٨ ـ ٤٧، ومعجم المؤلفين: ٦/١٥٤ ـ ١٥٥.

ولا صائحاً كالعيْر في يوم لذة ... يناظر في تفضيل عثمان أو علي

إلا أن جماعة من شيعته لما رأوا ضعف المقتدر وآستبداد المماليك وسوء سياستهم خلعوه وبايعوا ابن المعتز فما تبوأ العرش إلا يوماً وليلة، لأن أنصار المقتدر لم يشاؤوا التسليم راضين. فتحزّبوا وحاربوا أعوان ابن المعتز فشتتوهم، وأعادوا المقتدر إلى دسته. وآختفى الخليفة الشاعر في دار الجصاص الجوهري، فتقحموا عليه الدار وآعتقلوه. ودفعه المقتدر إلى مؤنس الخادم فخنقه وسلمه إلى أهله ملفوفاً في كساء.

شعره:

لنشأة ابن المعتز أثر ظاهر في شعره. فهو رقيق اللفظ، سهل العبارة، صافي الأسلوب، لرقة طبعه وسهولة خلقه، وصفاء خاطره. وهو بليغ الاستعارة رائع التشبيه، دقيق الوصف، لدقة حسه، ولطف شعوره، وآمتلأ ذهنه بروائع الجمال وبدائع الخيال ورونق الحضارة. وكان يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويراً لحسه، فبرىء من كذب المدح ولؤم الهجاء، وآنصرف إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس ومطاردة الصيد ومراسلة الإخوان. وله ولع بالبديع في حسن صَوْغ وقلة تكلف. ونثره لا يقل عن شعره في نقاء الأسلوب وجودة اللفظ ودقة التخيل.

مؤلفاته:

لابن المعتز كتاب البديع، وهو أول مصنف في هذا الفن، جمع فيه سبعة عشر نوعاً منه. وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر، وكتاب الجوارح والصيد، وكتاب أشعار الملوك، وكتاب طبقات الشعراء، وكتاب الزهر والرياض، وتصانيف أخرى أغلبها مفقود. وقد طبع ديوانه بالقاهرة في جزأين.

نموذج من شعره:

كن جاهلاً أو فتَجاهل تفُزْ ... للجهل في ذا الدهرِ جاهٌ عريض
والعقل محروم يرى ما يرى ... كما ترى الوارثَ عينُ المريض

وقال:

آقتلا همي بصِرْف عُقارِ ... وآتركا الدهرَ فما شاء كانا
إن للمكروه لذعة هَمْ ... فإذا دام على المرء هانا

وقال:

ونسيم يبشر الأرض بالقَطـ ... ـر كذيل الغِلالة المبلول
ووجوه البلاد تنتظر الغيـ ... ـث انتظار المحب رَجْع الرسول

وقال:

أعاذلَ قد كبرت على العتاب   وقد ضحك المشيب على الشباب
رددت إلى التقى نفسي فقرّتْ   كما رُدَّ الحسامُ إلى القِراب

وقال في مقبره:

وسكان دار لا تزاور بينهم   على قرب بعض في المحَلة من بعض
كأن خواتيماً من الطين فوقهم   فليس لهم حتى القيامة من فضّ

وقال:

كم حاسد حَنِق عليّ بلا   جُرْم فلم يضْرُرْني الحنَقُ
متضاحك نحوي كما ضحكت   نار الذُبالة وهي تحترق

وقال:

انظر إلى حُسن هلال بد   يهتك من أنواره الحِندِسا
كمنجل قد صِيغَ من فضة   يحصِد من زهر الدجى نرجسا

وقال:

قلبيَ وثّاب إلى ذا وذا   ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحُسن كما ينبغي   ويرحم القُبح فيهواه

وقال:

من لي بقلب صيغَ من صخرة   في جسد من لؤلؤ رطَبِ
جرحتُ خديه بلحظى فما   برحت حتى آقتصَّ من قلبي

وقال:

ولقد قضت نفسي مآربها   وقضيتُ غيّاً مرة وَرَشَد
ونهار شيب الرأس يوقظ من   قد كان في ليل الشباب رقد

وقال:

وإني على إشفاق عيني من البكا   لتجمح مني نظرة ثم أُطرق
كما حلئتْ عن ماء برد طريدة   تمد إليه جيدَها وهي تفْرَق

وقال أيضاً وإشارته إلى الديك:

صفق إما ارتياحة لِسنَا الفجـ   ـر وإما على الدجى أسفا

ويقال إن له هذا الموشح المشهور، ولا ندري إن كان ابتدعه أم آتبع فيه الأندلسيين:

أيها الساقي إليك المشتكى!   قد دعوناك وإن لم تسمع

* * *

ونـديـم هـمـت فـي غـرتـه
ويـشـرب الـرّاح مـن راحـتـه
كـلـمـا اسـتـيـقظ مـن سـكـرتـه
جـذب الـكـأس إليـه وآتّـكى وسـقـانـي أربـعـاً فـي أربـع

***

مـا لـعـيـنـي عـشِـيـت بـالـنـظر!
أنـكـرت بـعـدك ضـوءَ الـقـمـر
وإذا مـا شئت، فـآسـمـع خبـري:
عشيت عينـاي من طـول البكـا وبكى بعضي على بعضي معي!

***

غـصـن بـان مـال مـن حـيـث الـتـوى
مـات مـن بـهـواه مـن فـرط الـجـوى
خـفِـقَ الأحـشـاء مـوهـون الـقـوى
كـلمـا فـكـر فـي الـبيـن بَـكَـى ويـحُـه! يبـكي لـمـا لم يـقـعِ!

***

لـيـس لـي صـبـر، ولا لـي جَـلـد
يـا لَـقـومـي عـذلُـوا وآجـتـهـدوا!
أنـكـروا شـكـواي مـمـا أجـد
مثـل حـالي حقـه أن يشتكي؟ كـمـد الـيـأس وذل الـطمـع!
كبـد حَرّي، ودمـع يكِفُ
يذرف الدمـع ولا ينذرف
أيها المـعـرض عمـا أصف!
قـد نـمـا حبي بـقـلـبي وزكـا لا تـقـل في الحبِّ إنـي مُـدَّعي

٤٣ ــ الشريـف الرَّضـيّ

٩٧٠ - ١٠١٣ م

٣٥٩ - ٤٠٤ هـ

نشأته وحياته:

وُلِدَ أبو الحسن محمد بن الحسين المُوسوي ببغداد، ونشأ في حجر والـده، ودرَس

---

٤٣ - انظر ترجمته في الرجـال: ص ٣١٠ - ٣١١ وتـاريـخ بغداد: ٢/٢٤٦ - ٢٤٧، والمحمـدون: =

العلم في طفولته؛ فبرَع في الفقه والفرائض؛ وفاق في العلم والأدب، وقال الشعر وعمره لا يزيد على عشر سنين. فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره خلف أباه في نقابة الطالبيين سنة ٣٨٨، ثم إليه مع النقابة سائر الأعمال التي كان يليها أبوه، وهي النظر في المظالم والحج بالناس.

وبقي في هذه الأعمال حيناً من الدهر حتى تغير عليه الخليفة القادر لاتهامه عنده بالميل إلى العلويين الفاطميين بمصر فصرفه عنها، فعاش عيش القانع الشريف حتى قبضه اللّه إليه في المحرم من سنة ٤٠٤ ودفن بداره في الكوخ.

صفته وأخلاقه:

كان الشريف أبِيّ النفس عالي الهمة، سمَت به عزيمته إلى معالي الأمور فلم يجد من الأيام معيناً عليها وكان عفيفاً لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة؛ حتى بلغ من تشدده في العفة أن رد ما كان جارياً على أبيه من صلات الملوك والأمراء، وآجتهد بنو بويه أن يحملوه على قبولِ صلاتهم فما آستطاعوا.

شعره:

نهج الرَّضيّ في شعره منهج الأقدمين من الشعراء في جزالة اللفظ وفخامة المعنى. وشعره أشبه بشعر البحتري إلا أنه غلب في الفخر والحماسة، وتنزه عن عبث الوليد ومجونه. قال الثعالبي: «وهو أشعر الطالبين من مضى منهم ومن غَبر على كثرة شعوائهم المفلقين. ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق» ثم قال بعد ذلك: «ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه». وكان على مكانته في الشعر راسخ القدم في الكتابة، بعيد الشأو في الترسل. ولو كان حقاً ما يقال من أن له يداً في نهج البلاغة لما تردد منصف في الحكم بأنه أكتب الكتّاب في العربية؛ لأن نهج البلاغة هو في المحل الثاني من كتاب اللّه وحديث رسوله بلاغة وبينا.

مؤلفاته:

ألف هذا الشاعر في معاني القرآن كتاباً يدل على تضلعه في النحو واللغة وأصول الدين، وكتاباً آخر في مجازات القرآن. وله مجموعة رسائل وديوان شعر؛ ثم كتاب نهج البلاغة وهو ما جمعه من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. ومن الناس من يميل إلى

= ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ وإنباه الرواة: ٣/١١٤ ـ ١١٥ ووفيات الأعيان: ٢/٢ ـ ٥، والوافي بالوفيات: ٢/٣٧٤ ـ ٣٧٩، الأعلام، للزركلي ٦/٣٢٩، ومعجم المؤلفين: ١١/٢٦١ ـ ٢٦٢، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ٣/١٩٠ ـ ١٩٥.

أن أكثر هذا الكتاب من صنع الشريف؛ لما فيه من التعرض للصحابة بالأذى والهُجر؛ ولأن ما فيه من فلسفة الأخلاق، وقواعد الاجتماع، ودقة الوصف، وتكلف الصنعة، ليس في إمكان ذلك العصر ولا في طبعه. والظاهر أن الشريف جمع كل ما نسب إلى الإمام وفيه الصحيح والمَشوب.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة له في مدح القادر بالله واستعطافه وقد ترسم فيها خُطى البحتري في مدح المتوكل:

للّه يوم اطلعتك به العلا	عَلَماً يُزاوَل بالعيون ويُرشَقُ
لما سمت بك عزة موموقة	كالشمس تبْهرَ بالضياء وتومق
وبرزت في بُرد النبي وللهدى	نورٌ على أسرار وجهك مشرق
وكأن دارك جنةٌ حصباؤها الجا	ديُّ أو أنماطها الاستبرق
في موقف تغضي العيون جلالةً	فيه ويعثر بالكلام المنطق
وكأنما فوق السرير وقد سما	أسدٌ على نشزَات غاب مطرق
والناس إما راجع متهيب	مما رأى، أو طالع متشوق
مالوا إليك محبة فتجمعوا	ورأوا عليك مهابة فتفرقوا
وطعنت في غِرر الكلام بفيصل	لا يستقل به السنن الأزرق
وغرست في حَب القلوب مودة	تزكو على مرٍّ الزمان وتورق
وأنا القريب إليك فيه ودونه	لِيدَى عدوك طود عز أعنَق
عطفاً أمير المؤمنين فإننا	في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت	أبداً، كِلانا في المعالي مُعْرِق
إلا الخلافة ميزتك فإنني	أنا عاطل منها وأنك مطوَّق

٤٤ ـ الطغرائي

١٠٦٣ ـ ١١٢٠ م

٤٥٥ ـ ٥١٣ هـ

نشأته وحياته:

هو العميد أبو إسماعيل الحسين بن علي المعروف بالطغرائي نسبة إلى مهنته أول

---

٤٤ ـ انظر ترجمته في: النزهة: ٧٣/٢، وفوات الوفيات: ١٥٩/١، وكشف الظنون: ٦٨، والفهرس التمهيدي: ص ٥١٤، ٥١٥، والأعلام للزركلي: ٢٤٦/٢.

حياته. فقد كان يكتب الطغراءَ (الطرة) في أعلى الكتب بخط خاص فيها نعوت السلطان وألقابه. ولد بأصبهان من أسرة فارسية ثم تقلب في ظل آل سلجوق حتى وزر للسلطان مسعود السلجوقي بالموصل، وصار ينعت بالأستاذ ويلقب بالمنشيء. فلما نشبت الحرب بين السلطان مسعود وبين أخيه السلطان محمود بالقرب من همذان وكانت النصرة لثانيهما أخذ الطغرائي أسيراً، ثم أغراه وزيره نظام الدين بقتله، ومالأه عليه بعض حسدته من رؤوس الكتاب فرماه عنده بالإلحاد فقتل ظلماً سنة ٥١٣.

شعره:

شعر الطغرائي عامر الأبيات، متين القافية، مختار اللفظ، يغلب فيه الفخر والحكمة. ونثره من طبقة شعره في إحكام الصنعة ورصانة الأسلوب. وله ديوان شعر كبير أكثره في مدح السلطان سعيد بن ملك شاه ونظام الملك. وخير ما فيه قصيدته اللامية المشهورة بلامية العجم، وهي من عيون الشعر ومختاره. قالها ببغداد يندب الزمان ويشكو الإخوان أثناء عطلة له من العمل. وقد أفردها العلماء بالشروح ما بين كبير وصغير. قال في مطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل ... وحلية الفضل زانتني لدى العطل
مجدي أخيراً ومجدي أولا شرَعٌ ... والشمس رأد الضحى كالشمس في الطَّفل

ومنها:

حب السلامة يثنى همَّ صاحبه ... عن المعالي ويغري المرءَ بالكسل
فإن جنحت إليه فآتخِذْ نفقاً ... في الأرض أو سُلّما في الجوِّ فآعتزِل
ودَعْ غِمار العُلا للمُقْدمين هلى ... ركوبها وآقتنع منهن بالبلل
رضا الذليل بخفض العيش مسكنه ... والعِزُّ تحت رسيم الأيْنُقِ الذلل

وقال وقد رُزق مولوداً على كِبَر:

هذا الصغير الذي وافى على كِبَرٍ ... أقَرَّ عيني ولكن زاد في فِكري
سبع وخمسون ولو مرَّت على حجر ... لبَان تأثيرها في صفحة الحجر

ومن قوله في الفخر:

أبى اللّه أن أسمو بغير فضائلي ... إذا ما سما بالمال كلُّ مسوَّد
وإن كَرُمت قبلي أوائل أسرتي ... فإني بحمد اللّه مبدأ سؤددي
وما المال إلا عارة مستردَّة ... فهلا بفضلي كاثروني ومحتدي
إذا لم يكن لي في الولاية بسطة ... يطول بها باعي وتسطو بها يدي
ولا كان لي حكمٌ مُطاع أجيزه ... فأرغم أعدائي وأكبت حُسَّدي
فأعذرُ أن قصَّرت في حق مجْتَد ... وآمن أن يعتادني كَيَدٌ معتدي
أأُكفى ولا أكفي؟ وتلك غضاضة ... أرى دونها وقع الحسام المهند

من الحزم ألا يضجر المرء بالذي يعانيه من مكروهةٍ فكأنْ قد
إذا جلدي في الأمر حان ولم يُعن مريرة عزمي ناب عنه تجلدي
ومن يستعِن بالصبر نال مراده ولو بعد حين إنه خير مسعد

الشعر والشعراء في الشام

كانت دمشق في عهد الأمويين حاضرة الخلافة، وقاعدة الملك، ومقر الجند، ومعقل الإسلام، ومناط الأمل. فشغلها أدب السيف عن أدب القلم، وألهاها عن حمل الكتاب حملُ العَلَم وخَلَجَتها خوالج الرياسة والسياسة عن رواية الأدب وقرض الشعر، فتخلت عنهما للعراق والحجاز، فزخرت مدنهما بالشعراء، وغصت مجالسهما بالأدباء. وقد علمتَ كيف كان أثر معاوية وأخلاقه في إذكاء هذه النهضة.

فلما أدال اللّه العباسيين من الأمويين والفرسَ من العرب، وبغداد من دمشق، فترت حركة الأدب في الشام، فما كان يصدر عنها ولا يرد إليها، حتى تملك بنو حمدان في القرن الرابع على حلب، وهم كما قال الثعالبي: «ملوك وأمراء ألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلادتهم»وهو أديب بارع وشاعر مطبوع وملك مُمدَّح؛ فوطّأ كنفه للأدباء والشعراء والعلماء، حتى (ليقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما آجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها).

والطريقة الغالبة على أهل الشام في الشعر هي طريقة البحتري في إيثار اللفظ الجزل، والأسلوب الفصيح السهل، دون تعمق في المعنى، ولا إفراط في الإيجاز. وقد سمع الثعالبي عن الصاحب بن عباد أنه كان يُعجب بها، وينهل من أدبها. وَرَوى هو أيضاً عن الخوارزمي أنه قال: «ما فتق قلبي، وشحذ فهمي، وصقل ذهني وأرهف حد لساني، وبلغ بي هذا المبلغ إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية، التي علقت بحفظي، وآمتزجت بأجزاء نفسي، وغصن الشباب رطيب».

وكفى الشام فخراً أن أعادت إلى العرب في العرب في أبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي فراس وأبي العلاء سبق الشعر بعد أن غلبهم عليه متعربو الفرس وأبناء الموالي في صدر هذا العصر.

وسنقتصر على الترجمة بهؤلاء النابهين منهم، فإن الإحاطة بهم، والكشف عن مناحي أدبهم، لا يتسع لهما صدر هذا المختصر.

٤٥ ـ أبو تمام
٨٠٤ ـ ٨٤٦ م
١٨٨ ـ ٢٣١ هـ

نشأته وحياته:

ولد حبيب بن أوس الطائي بقرية يقال لها جاسم من أعمال دمشق. ثم انتقل أبوه إلى دمشق يحترف الحياكة وهو معه في خدمته. فلما ترعرع غادرها إلى مصر فكان يسقي الماء بجامع عمرو ويستقي من أدب علمائه ولم يزل يحفظ الأشعار ويحاكي الشعراء فيصادفه التوفيق مرة ويخطئه أخرى؛ حتى بلغ من الشعر مبلغاً لم يزاحمه فيه أحد من أهل عصره. وقد سار به شعره إلى أسواق الأدب في أنحاء البلاد، فغادر مصر يغشى منازل الكرماء ويتفيأ ظل النعمة. فأقبل عليه عشاق الأدب والمدح إقبالاً لم يُبق لغيره مجالاً، حتى لم يستطع أحد من الشعراء أن يكسب درهماً بالشعر في حياته. ثم اتصل بأحمد بن المعتصم ومدحه فأجازه بولاية بريد الموصل فوليه عامين ثم مضى لسبيله قبل أن يتم الأربعين.

صفاته وأخلاقه:

كان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة فصيحاً حلو الكلام فيه تمْتَمة يسيرة. وكان ذكي الطَبع حاضر البديهة قوي الذاكرة قيل: إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطوعات. وكتابا الحماسة وفحول الشعراء ناطقان بذلك. ويدل على فطنته وسرعة خاطره أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التي يقول في مطلعها:

ما في وقوفك ساعة من باس ... تقضي ذمام الأربُعَ الأدراس

ووصل إلى قوله فيها:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال أبو يوسف الكندي الفيلسوف وكان حاضراً: الأمير فوق من وصفت. وما زدت على أن شبهته بأجلاف العرب. فأطرق أبو تمام قليلاً ثم قال على البديهة:

لا تنكروا ضربي له مَن دونه ... مثلاً شرورا في الندى والبأس

---

٤٥ ـ انظر ترجمته في: طبقات الشعراء: طبعة أولى ص ١٣٣ ـ ١٣٥ وطبعة ثانية ص ٢٨٣ ـ ٢٨٧ ومروج الذهب: ٧/١٥١ ـ ١٦٦ ونزهة الألباء: ص ٢١٣ ـ ٢١٦ والموشح: ص ٣٠٣ ـ ٣٢٩ والرجال: ص ١٠٨ ـ ١٠٩ وسمط اللآلىء: ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦، وتهذيب ابن عساكر: ٤/١٨ ـ ٢٦، ومعجم المؤلفين: ٣/١٨٣ ـ ١٨٤.

فـالله قـد ضـرَب الأقـلَّ لـنـوره   مـثـلاً مـن الـمـشـكـاة والـنِّـبـراس

ولمـا أخذت منـه القصيدة لم يجـدوا فيها هـذين البيتين فعجبـوا. وقـال الفيلسـوف للخليفة: منهما يطلب فأعطه، فإن فكـره يأكـل جسمه كمـا يأكـل السيف المهند غمـده، ولا يعيش كثيراً: فولاه بريد الموصل.

شعره:

أبو تمام رأس الطبقة الثانية من المولدين. جمع بين معاني المتقدمين والمتأخـرين، وظهر والحضارة راقيـة، والعلوم مترجمـة، فحصف عقله ولطف خيـاله بـالاطلاع عليهـا. واستنبط من ذلك طريقته التي آثر فيها تجويد المعنى على تسهيل العبارة فكان أول من أكثر من الاستدلال بـالأدِلَّةِ العقلية والكنايات الخفية ولو أفضى ذلك إلى التعقيد. وكأنه لما رأى أن سلاسة اللفظ فاتته أراد أن يجبر ذلك الكسر فتوخى الجناس والمطابقة والاستعارة، فسلم له بعض واعتل عليه بعض، فصار كالكَلف في صفحة البدر. ومع هذا قد سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها السابقون وقصر عنها اللاحقون: معان مبتكرة، وألفاظ متخيرة، ضمنها من الأمثال والحكَم ما زاد في ثروة الأدب العربي، ومهد لمن خَلفه الطريق فسلكها المتنبي وأبو العلاء إلى حكمهم وأمثالهم. ولغلبة الحكمة عليه قيل: «أبو تمـام والمتنبي حكيمان، والشاعر البحتري»، وقد كثر اختلاف النـاس فيه؛ فمنهم من تعصب لـه وأفرط حتى فضله على كـل سلف وخلف. ومنهم من عمد إلى جيـده فطواه، وإلى رديئـه فرواه ولكن لسـان المـدح كان أغلب، فقـد فضله من الرؤسـاء والعظمـاء ما لا قبَـل للطاعنين عليه بهم. قال محمد بن عبد الملك الزيات وقد مدحه بقصيدة شاعرة: يا أبا تمام إنك لَتُحَلي شعـرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسنا على بهيِّ الجواهر في أجياد الكواعب. وما يُدخر لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازنة».

وقد جمع شعره في ديوان طبع مراراً. وله غيره كتابا الحماسة وفحول الشعراء جمـع فيهما عيون الشعر وغرره في الجاهليةَ والإسلام. وقد أحسن في الاختيار جد الإحسان حتى قيل إنه في اختياره أبلغ منه في شعره.

نموذج من شعره:

من أبدع قصائده قوله:

غـدت تستجير الـدمـر خـوف نـوى غـد   وعـاد قـتـاداً عـنـدهـا كـلُّ مـرقـد

وأنـقـذهـا مـن غـمـرة الـمـوت أنـه   صـدود فـراق لا صـدود تـعـمـد

فـأجـرى لـهـا الإشفـاق دمـعـاً ووَرَّداً   مـن الـدم يـجـري فـوق خـد مـورد

ويقول فيها في الحث على الاغتراب، ولو تأملت وجدته يتوخى الطباق في كل بيت:

ولكنني لم أحْوِ وفراً مجمَّعاً ... ففزت به إلا بشَمل مبدَّد
ولم تعطني الأيام نوماً مسكناً ... ألَذْ به إلا بنوم مشرد
وطول مقام المرء في الحي مُخْلِقٌ ... لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبةً ... على الناس أن ليست عليهم بسَرمَد

ومن قوله:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأوَّل
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

وقال في رثاء محمد بن حميد الطوسي:

كذا فليجلَّ الخطب وليْفْدَح الأمر ... فليس لعين لم يَفِض ماؤها عذرُ
تُوفيت الآمالُ بعد محمد ... وأصبح في شغل عن السفَر السَّفْر
ألا في سبيل الله مَنْ عطّلت له ... فِجَاجُ سبيل الله وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة ... دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه ... ففي بأسه شطر وفي وجوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب موتةً ... تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضربُ سيفه ... من الضرب واعتلت علينا القَنا السُمر
تردىً ثيابَ الموت حُمْراً فما دجا ... لها الليلُ إلا وهي من سُندس خضْرُ

وقال في المدح:

حُوّلٌ، لا فعاله مرْتَعُ الذّم(م) ... ولا عرضه مَرَاحُ العيوب
سرُحُ قوله إذا ما استمرتْ ... عقدةُ العِيّ في لسان الخطيب
لا مُعَنى بكل شيء ولا كلُّ(م) ... عجيب في عينه بعجيب
ليس يَعْرَى عن حُلةٍ من طراز الـ ... ـمدح من راجز بها مُستثيب
وإذا كفُّ راغبٍ سلبتْه ... راح طَلْقاً كالكوكب المشبوب
ما مَهاةُ الحِجَالِ مسلوبة أظـ ... ـرفُ حسناً من ماجد مسلوب
واجدٌ بالخليل من بُرَحاء الشـ ... ـوق وجْدانَ غيره بالحبيب
كلُّ شعب كنتم به آل وهب ... فهو شعبي وشعب كل أديب
إن قلبي لكم لكا لكبد الحرّ ... ي وقلبي لغيركم كالقلوب

وقال أيضًا:

إذا حركته هِزَّة المجد غيرت ... عطاياه أسماء الأماني الكواذب
يرى أقبحِ الأشياء أوبة آمل ... كسته يدُ المأمول حلة خائب

وأحسنَ من نَـورٍ تفتحـه الـصَّبـا بيـاض العطايـا في سواد المـطالب

٤٦ ـ البحتري
٨٢١ ـ ٨٩٧ م
٢٠٦ ـ ٢٨٤ هـ

نشأته وحياته:

أبو عبادة الوليد بنُ عبيد الله الطائي عربي صميم ولد بمنبج (بين حلب والفرات) سنة ٢٠٦ ونشأ في البادية بين قبائل طيئٍ وغيرها فغلبت عليه فصاحة العرب. ثم خرج إلى بغداد فلقي أبا تمام ولزمه حتى تخرج عليه واقتبس طريقته في البديع. وروى عن كثير من العلماء كأبي العباس المبـرد وظل صنيعـة لأبي تمام يـردد صداه، ويتـرسم خطاه، وحبيب يـرشده ويعضده لأنه طائي مثله، حتى قال له يومـاً. «أنت والله يا بني أميـر الشعراء غـداً بعدي»، فصدق الله نبوءته. وأصبح البحتري بعد وفاة أبي تمام سائر الشعر طائر الذكر إمامًا في الأدب والقريض. وأقام في العراق في خدمة المتوكـل والفتح بن خـاقان وزيـره إلى أن قتلا على مشهد منه، فرجع بعدئذ إلى منبج. وكان يختلف أحيـانًا إلى سـراة بغداد «وسُـرَّ من رأى» فيمدحهم حتى مات سنة ٢٨٤.

صفاته وأخلاقه:

كان البحتري على أدبـه وفضله ورقته من أوسـخ خلق الله ثـوبـاً وأبخلهم على نفسه وغيره. وكان من أبغض الناس إنشاداً: يتشادق ويتزاور في مشيته جانبًا أو القهقرى، ويهـز رأسه مرة ومنكبيه أخرى، ويشير بكمه عنـد كل بيت ويقـول: أحسنت والله! ثم يقبل على المستمعين قائلاً: ما لكم لا تقولون أحسنت؟ وهذا والله مـا لا يحسن أحد أن يقـول مثله. ولكنه كان منصفًا يعترف بالفضل لأهله ولا يدعي ما ليس له. قال له بعض الناس وقـد سمع شعره: أنت أشعر من أبي تمام. فقال: ما ينفعني هذا القول ولا يضر أبا تمام. والله ما أكلت الخبز إلا به، ولوددت أن الأمر كما قالوا، ولكني والله تابعٌ له، آخـذٌ منه لائـذٌ به، نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه!

---

٤٦ ـ انظر ترجمته في: طبقات الشعراء: طبعة أولى ص ١٨٦ ـ ١٨٧، وطبعة ثانية ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥، أخبار أبي تمـام: ص ٦٦ ـ ٦٧، ١٠٥ ـ ١٠٦ وأخبـار الشعـراء: ص ٨١، والمـوشـح: ص ٣٣٠ ـ ٣٤٣، وسمط الـلآلـىء: ص ٢٧٩، ٤٢٧، وأمـالي المـرتضى: ٥٩٣/١ ـ ٥٩٥، ومعـاهـد التنصيص: ٢٣٤/١ ـ ٢٤٦.

شعره:

ترَسَّمَ البحتري خطو أبي تمام في الشعر ومضى على أثره في البديع، إلا أنه أجاد في سبك اللفظ على المعنى «وأراد أن يشعر فغَنى» كما قال فيه ابن الأثير واستمد معانيه من وحي الخيال وجمال الطبيعة لا من قضايا العلم والمنطق، فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته وروعته، وإلى ذلك أشار المتنبي بقوله: «أنا وأبو تمام حكيمان، والشاعر البحتري»، ثم صارت له طريقة خاصة في الجزالة والعذوبة والفصاحة امتاز بها من أستاذه ومدربه، نهجها معاصروه ومن جاء بعدهم من الشعراء وعرفت بطريقة أهل الشام. وقد تصرف أبو عبادة في فنون الشعر إلا في الهجاء، فإن بضاعته فيه نزرة وجيده منه قليل. ويقال إنه أحرق هذا النوع قبل موته وهو الأرجح ولم يسلم شعره من الساقط الغث لكثرته، وإنما يمتاز بالإجادة في المدح والقصد فيه، والقدرة على تصوير أخلاق الممدوح، والإبداع في وصف القصور الفخمة والأبنية العجيبة، كوصف إيوان كسرى وبركة المتوكل، وقصر المعتز بالله. وقصائده تكاد لا تخلو من افتتاح بالغزل. وقد جمع شعره أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف. وله غيره كتاب معاني الشعر وحماسة البحتري. وهي كحماسة أبي تمام، إلا أنها تمتاز بكثرة أبوابها وخلوها مما تنبو الأسماع عنه؛ وطبعت في بيروت.

نموذج من شعره:

من قوله في وصف بركة المتوكل:

تَنْصَبُّ فيها وفودُ الماء مُعجَلة ... كالخيل خارجة من حبل مُجريها

كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجري في مجاريها

إذا عَلتها الصّبا أبدت لها حُبكا ... مثلَ الجواشن مصقولا حواشيها

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ... وريِّق الغيث أحياناً يباكيها

إذ النجوم تراءت في جوانبها ... ليلاً حسبت سماء رُكّبت فيها

وقال يمدح الخليفة المتوكل ويهنئه بعيد الفطر:

بالبِرّ صمت وأنت أفضل صائم ... وبسنة الله الرضيَّة تفطر

فانعمْ بيوم الفطر عينا إنه ... يوم أغر من الزمان مُشَهَّر

أظهرت عزّ الملك فيه بجحفل ... لجِبٍ يحَاطُ الدين فيه ويُنصر

فالخيل تصهل والفوارس تدَّعي ... والبِيض تلمع والأسنة تزهر

والأرض خاشعة تميد بثقلها ... والجو معتكِرُ الجوانب أغبر

والشمس طالعة توقّدُ في الضحى ... طوراً ويطفئها العَجاج الأكدر

حتى طلعت بنور وجهك فانجلى ... ذاك الدجى وانجاب ذاك العِثْيرُ

فافتنّ فيك الناظرون فإصبعٌ ... يوْمَى إليك بها وعين تنظر

كروا بطلعتك النبيَّ فهللوا   لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المُصَلى لابسا   نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع   لله لا يُزْهي ولا يتكبر
فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما   في وُسعه لسعى إليك المنبر
أبديت من فصل الخطاب بحكمة   تنبي عن الحق المبين وتخبر
ووقفت في بُرْدِ النبي مذكراً   بالله تنذر تارة وتبشر

ومن قوله في الطيف:

إذا ما الكَرى أهدى إليَّ خياله   شفى قربهُ التبريح أو نقعَ الصدَى
إذا انتزعته من يدَيَّ انتباهة   حسبت حبيبا راح منىَ أو غدا
ولم أر مثلَيْنَا ولا مثل شأننا   نُعَذَّبُ أيقاظا وننعم هُجّدا

٤٧ ـ المتنبي
٩١٥ ـ ٩٦٥ م
٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ

نشأته وحياته:

سقاءً

أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي ولد بالكوفة من أبوين فقيرين. كان أبوه سقاه بالكوفة، ثم سافر به صغير إلى الشام متنقلاً من الباديه إلى الحاضرة يسلمه إلى المكاتب، ويردده في القبائل، ومخايله نواطق بفضله، ضوامن لنُجحه، حتى توفي أبوه وقد ترعرع الشاعر ونال حظه من علوم اللغة والأدب فأخذ يضرب في الأرض ابتغاء للرزق واكتساباً للمجد.

وكان المتنبي منذ نشأته كبير النفس عالي الهمة طموحاًإلى المجد: بلغ من كبر نفسه أن دعا إلى بيعته بالخلافة وهو لَدْن العود حديث السن. وحين كاد يتم له الأمر تأدى خبره إلى والي البلدة فأمر بحبسه. فكتب إليه من السجن قصيدة منها:

أمالِكَ رقي وَمن شأنه   هباتُ اللُّجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا   ء والموت مني كحبل الوريد

---

٤٧ ـ انظر ترجمته في: يتيمة الدهر: ١/١٢٦ ـ ٢٤٠ والفهرست، لابن النديم ص ١٦٩ وتاريخ بغداد: ١٠٢/٤ ـ ١٠٥ ونزهة الألباء: ص ٣٦٦ ـ ٣٧٤، ووفيات الأعيان: ١/٤٤ ـ ٤٦، ودائرة المعارف الإسلامية، ٣/٨٤٤ ـ ٨٤٧.

دعـوتـك لـمـا بـراني البلى وأوهن رجليَّ ثـقـلُ الحـديـد
تـعَجّل فـيَّ وجوبَ الحـدود وحـدّي قبـل وجـوب السجـود

فأطلقه. ولكن حب الرياسة لم يزل متمكنًا من قلبه إلى أن أخلق بُرد شبابه وتضاعفت عقود عمره. وفي سنة ٣٢٣ ادَّعَى النبوة في الشام وفتن شرذمة من الناس بقوة أدبه وسحر بيانه. ولما سئل عن النبي ﷺ قال: إنه بشَّر بمجيئي وأخبر بنبوتي فقال: لا نبيٌّ بعدي، وأنا اسمي في السماء (لا). وضف كلاما عارض به القرآن. فلما اشتهر أمره قبض عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأخشيدية، فأوثقه ثم أطلقه بعد أن استتابه وتفرق عنه أصحابه. فطفق يتجشم أسفاراً أبعد من آماله، ولا زاد إلا صبره، ولا عدة إلا بأسه، كما يتجلى ذلك في مثل قوله:

وحـيـد مـن الـخـلان فـي كـل بـلدة إذا عـظم الـمـطلوب قـل المـسـاعـد

وقوله:

ضـاق صـدري وطـال فـي طلب الـرز ق قـيـامـي وقـل عـنـه قـعـودي
أبـداً أقـطع الـبـلاد ونـجـمـي فـي نـحـوس وهـمـتـي فـي سـعـود

ولم يزل هكذا حتى اتصل بأبي العشائر والي أنطاكية من قِبلَ سيف الدولة وامتدحه، فأكرم مثواه وقدمه إلى سيف الدولة وعرفه بمنزلته من الشعر والأدب فضمه الأمير إليه وحسن موقعه عنده، فسلمه إلى الرواض فعلموه الفروسية والطراد حتى لا يفارقه في الحرب ولا في السلم. وأفعم وطابه ودرَّت له أخلافُ الدنيا على يده، حتى كان من قوله فيه:

تـركت السُّرى خلفي لمن قـل مـالـه وأنـعلت أفـراسـي بـنعـمـاك عـسـجـدا
وقـيـدت نـفـسي فـي هـواك مـحـبـة ومـن وجـد الإحـسـان قـيـداً تـقـيـدا

ولم يزل معه في حال حسنة حتى حدثت بينهما جفوة ففارقه إلى مصر في سنة ٣٤٦. ومدح كافوراً الإخشيدي وأبا شجاع. وأقام في مصر ردحاً من الزمن يرقب الفرصة من كافور فيصعد المجد على كاهله. فما هو إلا أن قال:

أبـا المسك، هـل في الكأس فضـلُ أنالـه فـإنـي أغـنـي مـنـذ حـيـن وتـشـرب

وقال:

وهـل نـافعي أن تـرفـع الحجب بيننـا ودون الـذي أمَّـلت مـنـك حـجـاب
وفي الـنـفس حـاجـات وفيـك فـطانـة سـكـوتي بـيـان عـنـدهـا وخـطاب

حتى أوجس كافور منـه خيفة، لتعـاليه في شعـره وطموحـه إلى الملك، فزوى عنـه وجهه، فهجاه وقصد بغداد. ولم يمدح الوزير المهلبي لأنه كان يترفع عن مدح غير الملوك، فشق ذلك على الوزير فأشْلى عليـه شعراء بغـداد فنالـوا من عرضـه ومن شعره. ولكنـه لم يجبهم، وذهب قاصداً أرّجان لزيارة الفضل بن العميد فكتب إليه الوزير الصاحب بن عباد

يستزيره بأصبهان طامعاً أن يمدحه فلم يقم له وزنًا وأمّ عضد الدولة بشيراز. فأوغر عليه قلب الصاحب وأخذ يتتبع هفواته، وهو أعلم الناس بحسناته ـ وشن عليه هو وأشياعه حربًا قلمية، وألفوا الكتب في نقده ورموه بالسرقة والخروج عن الأساليب العربية، وهو لا يأبه لهم ذهابًا بنفسه وإعجاباً بشعره.

***

ولما حصل عند عضد الدولة أسبغ عليه نعمته ووصله بثلاثة آلاف دينار وخيول وثياب؛ ثم دس عليه من يسأله: أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال له: هذا أجزل إلا أنه متكلف، وسيف الدولة كان يعطي طبعاً فغضب عضد الدولة من ذلك. ويقال إنه جهز عليه فاتكاً الأسدي في قوم من بنى ضبة، فعرض له بالصافية من سواد واقتتلا. فلما رأى الدائرة عليه هم بالفرار. فقال له غلامه: يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقاتل حتى قتل هو وولده وغلامه في أواخر رمضان من سنة ٣٥٤ هـ.

شعره:

المتنبي شاعر من شعراء المعاني، وفق بين الشعر والفلسفة؛ وجعل أكثر عنايته بالمعنى؛ وأطلق الشعر من القيود التي قيده بها أبو تمام وشيعته، وخرج به عن أساليب العرب التقليدية. فهو إمام الطريقة الابتداعية في الشعر العربي. ولقد حظي في شعره بالحكم والأمثال، واختص بالإبداع في وصف القتال، والتشبيب بالأعرابيات، وإجادة التشبيه، وإرسال المثلين في بيت واحد، وحسن التخلص، وصحة التقسيم، وإيداع المديح، وإيجاع الهجاء، وأخص ما يميز المتنبي بروز شخصيته في شعره، وصدق إيمانه برأيه، وقوة اعتداده بنفسه، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاغل الناس وأهواء القلوب وحقائق الوجود وأغراض الحياة لذلك كان شعره في كل عصر مدداً لكل كاتب، ومثلا لكل خاطب.

عيوب شعره:

بيت المتنبي يضيق أحياناً بمعناه فيعسر فهمه وتبعد غايته منه فيطيش سهمه وقد بلغ من إهماله اللفظ أن وقع بعض المساوىء، كاستكراه اللفظ، وتعقيد المعنى، واستعمال الغريب، وقبح الطالع، ومخلفة القياس، وكثرة التفاوت في شعره، والخروج في المبالغة إلى الإحالة، كقوله:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفَه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وقوله:

أنى يكون أبا البرايا آدم — وأبوك والثقلان أنت محمد

وقوله:

لو لم تكن من ذا الورى الّذ منكَ هو — عقمت بمولد نسلها حواء

والاستشهاد على كل ذلك يخرج بنا إلى التطويل فارجع إلى يتيمة الدهر للثعالبي.

نموذج من شعره:

قال يشكو الزمان:

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي — شيئًا تتيمه عَيْنٌ ولا جيد
يا ساقِيَيَّ أخمرٌ في كؤوسكما — أم في كؤوسكا هَمٌّ وتسهيد؟
أصخرة أنا؟ مالي لا تغيرني — هذي المدام ولا تلك الأناشيد؟
إذا أردت كمَيْتَ الخمر صافية — وجدتها وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا؟ وأعجبُها — أني بما أنا باكٍ منه محسود

وقال بتفلسف:

ننحن بنو الموت فما بالنا — نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا — على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوّهِ — وهذه الأجسام من تربه
لو فكر العاشق في منتهى — حسن الذي يَسبيه لم يَسبِهِ
لم يُرَ قرنُ الشمس في شرقه — فشكت الأنفسُ في غربه
يموت راعي الضأن في جهله — موتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره — وزاد في الأمن على سِر به
وغاية المفرط في سلمه — كغاية المفرط في حربه

وقال:

نصيبك في حياتك من حبيب — نصيبك في منامك من خيال
رماني الدهرُ بالأرزاء حتى — فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام — تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالي بالرزايا — لأنى ما انتفعت بأن أبالي

وقال:

صحب الناسُ قبلنا ذا الزمانا — وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منـ — ـه وإن سرّ بعضهم أحيانا

ربما تحسن الصنيع لياليـ ـه ولكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم يَرْضَ فينا بريب الدهـ ـر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبَتَ الزمان قناة ركَّب المرء في القناة سنانا
ومُراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى
غيرَ أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا
ولو الحياة تبقى لحي لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تموت جبانا

وقال أيضاً:

زودينا من حسن وجهك ما دا م فحسن الوجوه حالٌ تحول
وصلينا نصلْك في هذه الدنـ ـيا فإن المُقام فيها قليل

٤٨ ـ أبو فراس الحمداني
٩٣٢ ـ ٩٦٨ م
٣٢٠ ـ ٣٥٧ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو الحارث بن أبي العلاء ابن عم سيف الدولة. ولد بمنبج ورُبي في حجر النعيم بين أبّهة الملك وعزة السلطان. فنشأ على خلال العظماء شجاعًا أبِيَّ النفس سليم الطبع، كريم الخلق، جامعاً بين أدبي السيف والقلم. وكان سيف الدولة معجبًا بمحاسنه مؤثراً له على سائر قومه، فاصطنعه لنفسه، واصطحبه في غزواته، واستخلفه في أعماله؛ فكان الدرَّة الفريدة في تاج سيف الدولة، يقود جيوشه في الحرب، ويرأس كتابه في السلم. وكان النصر حليفه في كل وقائعه، فمالت إليه القلوب ولهجت بذكره الألسن، وانطلق لسانه برائع الشعر في الفخر والحماسة ووصف الحروب، حتى خانه الفوز فأسره الروم في بعض المواقع وهو جريح قد أصابه سهم بقي نصله في فخذه، فسجنوه بخرشنة، ثم نقلوه إلى القسطنطينية. وتعذرت المفاداة فلبث في الأسر أربع سنين ظهرت فيها أشعاره الروميات ملأى بعواطف الحب والحنين إلى أهله وأحبابه، مُمَثِّلةً ما يكن صدره من لواعج الشوق لأمه العجوز وابنته

---

٤٨ ـ انظر ترجمته في: يتيمة الدهر: ١/٤٨ ـ ١٠٣، وتهذيب ابن عساكر: ٣/٤٣٩ ـ ٤٤٢، وزبدة الحلب: ١/١٥٦ ـ ١٥٧ ووفيات الأعيان: ١/١٥٨ ـ ١٥٩ وسامى الدهان، مقدمة الديوان: ١/١٧ ـ ٢٥، ومعجم المؤلفين: ٣/١٧٥ ـ ١٧٦، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ١/٢٢٧ ـ ٢٣٢.

الوحيدة، وعوامل الحب لسيف الدولة. ولم يزل أبو فراس يعالج مرارة الأسر وجرارة الشوق حتى تنوظر في الهدنة والأسرى فأطلقه الروم بعد أن أكرموه وبجلوه.

«ولما خرج قمر البيان من سِراره، وأطلق أسد الحرب من إساره»، لم تمهله المنية أن يسترد ما ذهب من شبابه أيام عذابه. فتوفي سيف الدولة وخلفه ولده أبو المعالي ابن أخت أبي فراس؛ فأراد الأمير الشاعر أن يضم إليه مدينة حمص فأبى عليه أبو المعالي، وجرت بينهما معركة قتل فيها أبو فراس وهو لدْن العود غض الإهاب.

صفاته وأخلاقه:

كان أبو فراس كما قدمنا بطلاً أبيًا سخيًا معجبًا بشعره، وبنفسه، كثير الفخر بأصله وقومه، عزوفًا عن الشراب والمجون، فبرىء شعره من كل ذلك وانطبعت أخلاقه. وهو القائل:

لئن خلق الأنام لحِسْو كأس ... ومزمار وطُنبور وعود
فلم يُخلق بنو حمدان إلا ... لمجد أو لبأس أو لجود

شعره:

شعر أبي فراس على مثال الشعر القديم متانة وأسلوبًا، إلا أن عليه رُواء الطبع، وسمة الظرف، وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز. وكان الصاحب بن عباد يقول. «بُدِئَ الشعر بملك وختم بملك» يعني امرأ القيس وأبا فراس. وقد تصرف هذا الشاعر في أغلب فنون الشعر فأجاد، إلا أن منزلته في الفخر والاستعطاف والعتاب أعلى، ورومياته أجل وأدل على فضله، فإن مثله لا يزكو به أن يمدح أميراً، أو يهجو صغيراً، أو يذيل مصون شعره بين الشراب والمجون، فقد علمنا كيف نشأ وأين درج. وله غزل رقيق تتضاءل فيه عزة الملك أمام سلطان الحب، فيكون أنم جلالاً وأشد روعة. وزعم الثعالبي أن المتنبي كان يشهد له بالتبريز ويتجافى جانبه (فلا ينبري لمباراته، ولا يجتري على مجاراته، إنما لم يمدحه ومدح غيره من آل حمدان تهيبًا له وإجلالاً لا إغفالا) وهو زعم لا يطمئن عليه القلب، ولا يقول به من عرف المتنبي.

نموذج من شعره:

قال وقد سمع حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه بالقسطنطينية:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة ... أيا جارتا لو تشعرين بحالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ... ولا خطرت منك الهموم ببال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا ... تعالي أقاسمْك الهموم تعالى
تعاليْ تَريْ روحًا لديَّ ضعيفة ... تردّدُ فيي جسم يعذب بالي

أيـحـمـل مـحـزونَ الـفـؤاد قـوادمٌ ... على غُصُـن نـائي المسـافـة عـالـي!
أيضحـك مـأسـور وتـبـكي طـليـقـة ... ويـسـكـت مـحـزون ويـنـدب سـالـي
لقـد كنت أولى منـك بـالـدمـع مقلة ... ولـكـن دمـعي في الحـوادث غـالـي

ومن قصيدة له إلى سيف الدولة يستعطفه:

بـمـن يـثـق الإنـسـان فيـمـا يـنـوبـه ... ومـن أين لـلحـر الكـريـم صـحـاب؟
وقـد صـار هـذا الـنـاسُ إلا أقـلّهـم ... ذئـابـاً عـلـى أجـسـادهـن ثـيـاب
تـغـابـيت عـن قـوم فـظـنـوا غـبـاوة ... بـمـفْـرق أغـبـانـاً حـصـى وتـراب
إلـى الله أشـكـو أنـنـا بـمـنـازل ... نـحـكّـم فـي آسـادهـن كـلاب
تـمـر الليـالـي ليس لـلنـفـع مـوضـع ... لـديّ ولا لـلـمـعـتـفـيـن جـنـاب
ولا شُـد لـي سـرْج على متن سـابـح ... ولا ضُـربـت لـي بـالْـعَـراء قِـبـاب
سـتـذكـر أيـامـي نـمـيـر وعـامـر ... وكـعـب عـلـى عـلاتـهـا وكـلاب
أنـا الـجـار لا زادي بـطـيء عـلـيـهـم ... ولا دون مـالـي في الـحـوادث بـاب

ومنها:

ومـا زلـت أرضى بـالـتـقـلـيـل محـبـة ... لـديـه ومـا دون الـكـثـيـر حـجـابُ
وأطـلـب إبـقـاء عـلى الـود أرضَـه ... وذكـرى مـنـي فـي غـيـرهـا وطِـلاب
كـذاك الـودادُ المحض لا يُـرتـجى لـه ... ثـوابٌ ولا يُـخـشـى عـلـيـه عـقـاب
وقـد كنت أخشى الهجر والشمـل جامـع ... وفـي كـل يـوم لـقـيـةٌ وخـطـاب
فـكـيـف وفـيـمـا بـيـنـنـا مُلك قـيـصـر ... ولـلـبـحـر حـولـي زخـرةٌ وعُـبـاب!
أمن بعـد بـذل النفس فيمـا تـريـده ... أثـاب بـمُـرّ العـتـب حـيـن أثـاب؟
فـليـتـك تـحـلو والـحـيـاة مـريـرة ... ولـيـتـك تـرضـى والأنـام غـضـاب!
وليـت الـذي بـيـنـي وبـيـنـك عـامـر ... وبـيـنـي وبـيـن الـعـالـمـيـن خـراب!
إذا صـح الـود مـنـك فـالـكـل هـيـن ... وكـل الـذي فـوقَ الـتـراب تـراب

٤٩ ـ أبو العلاء المعري

٩٧٣ - ١٠٥٧ م

٣٦٣ - ٤٤٩ هـ

نشأته وحياته:

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخيّ نسبة إلى تنوخ إحدى قبائل اليمن ولد هذا

---

٤٩ ـ انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ١/٣٣، ومعجم الأدباء: ١/١٨١، وفهرست ابن خليفة:

الفيلسوف الحكيم بالمعرة من أبوين شريفين. فقد كان أبوه من أفاضل العلماء وجده قاضيًا بالمعرة. فلما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدري فذهب بيسرى عينيه وابيضت اليمنى؛ فنشأ ضريراً لا يعرف من الألوان إلا الحمرة لأنهم ألبسوه ثوبًا معصفراً وهو مريض فكان هذا اللون أول ما عرف وآخر ما رأى ولما أدرك سن التعلم أخذ أبوه يلقنه علوم اللسان العربي فتعلمها. وتلمذ بعد ذلك لنفر من علماء بلده فضم إلى صدره ما حوته صدورهم. ولم ير بعد ذلك فيمن حوله من سبقه إلى علم، أو اختص دونه بفهم، فانثنى إلى بيته وقد ناهز العشرين من عمره وأخذ يدرس اللغة والأدب وينقب عن دقائق اللسان وخواص التركيب حتى تفوق في ذلك وبلغ منه ما لم يبلغه أحد. وفي سنة ٣٩٢ هـ غادر المعرة إلى بلاد الشام، فزار مكتبة طرابلس، وعاج على اللاذقية، وكان بها دير للرهبان فنزل به وأقام بين أهله حتى درس العهدين القديم والجديد. وبعد أن طوف في بلاد الشام عزم الرحلة إلى بغداد مبعث العلم ومستقر العلماء ليدرس الحكمة اليونانية والفلسفة الهندية. وما أحس بمقدمه البغداديون حتى تقاطروا لقائه ظماء إلى أدبه. فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والآداب ويبحث هو في علوم الفلسفة حتى جرى فيها شوطاً بعيداً. ووجد أبو العلاء في بغداد بيئة صالحة وأرضاً زكية لبحث المسائل وغرس المبادىء. فأخذت آراؤه تظهر وتذيع. واتصلت أسبابه هناك بجماعة من الفلاسفة الأحرار كانوا يجتمعون كل جمعة في دار أبي أحمد عبد السلام بن الحسن البصري أحدهم فأثر خلاطها في عقله وأدبه. وما كادت علائقه تتوثق بالبغداديين حتى فوجىء على بعد المزار بنعي أمه، وكان أبوه قد توفي قبلها، فوَجدَ عليها وجداً شديداً، ونالت منه هذه النازلة. وكان الأمراء والدهماء قد أخذوا يرتابون في عقيدته ويشكون في أمره، فاضطربت حياته، واختلفت أطواره وأعوزه المشفق والنصير. فنظر إلى العالم بمنظار أسود، وقرر في نفسه العزلة والخروج عن الدنيا وعاد إلى المعرة سنة ٤٠٠ فاعتقل عن الناس إلا عن تلاميذه. وسمى نفسه رهن المحبسْين: العمى والمنزل. وظل عاكفاً على التعليم والتأليف عن ملذات الحياة لا يأكل الحيوان ولا ما ينتج منه، قانعًا من الطعام والحلوى بالعدس والتين ومن المال بثلاثين ديناراً موقوفة عليه في كل عام، راضيًا من اللباس والفراش بغليظ القطن وحصير البردى. وحرم على نفسه الزواج ضنا بنسله على لؤم الناس وبؤس الحياة. ولم تزل تلك حاله حتى استأثر به الله سنة ٤٤٩، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت:

هـذا جـنـاه أبـي عـلـيَّ (م) ومـا جـنـيـت عـلى أحـد

ص ٣٤٣، ولسان الميزان: ١/ ٢٠٣، وإنباه اللرواة: ١/ ٤٦، وتتمة اليتيمة: ص ٩، ودائرة المعارف الإسلامية: ١/ ٣٧٩، وابن الوردي: ١/ ٣٥٧، والأعلام للزركلي: ١/ ١٥٧.

ولما مات وقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون.

مواهبه وعقيدته:

كان أبو العلاء إنسيَّ الولادة وحشيَّ الغريزة كما وصف نفسه، رقيق القلب سخيًا وفيًا، قامعًا لشهواته، سيِّء الظن بالناس، شديد الحذر منهم، قوي الذاكرة، سريع الحفظ، وقد رووا عنه في ذلك الأعاجيب؛ فزعموا أنه كان يحفظ ما يفهم وما لا يفهم، وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة. ولم يمنعه ذهاب بصره من إجادة التشبيه ومشاركة المبصرين في ألعابهم. فقد كان يجيد لعب النرْد والشطرنج ويدخل في كل باب من أبواب الهزل والجد.

وقد اختلف الناس في عقيدته، فمنهم من قال إنه ملحد يرى رأى البراهمة. وغيرهم يقول: إن شعره ككلام الصوفية له باطن وظاهر. وبعضهم يقول: إن هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه. وأكثر الناس يرجح أنه كان شاكًا، فتارة يثبت وأُخرى ينفي، ولذلك كثر التناقض في شعره.

شعره:

ينقسم شعر أَبي العلاء إلى قسمين: شعر الشباب ويجمعه سقط الزند؛ وشعر الكهولة وقد وعته اللزوميات فأما شعره في الشبيبة فكثير المبالغة، واضح التقليد بَين التكلف، قلد فيه المتنبي واستمد منه أكثر معانيه، واستخف بقواعد اللغة، وجارى شعراء عصره في البديع. بيد أنه استعمل الغريب وأكثر في شعره من اصطلاحات العلوم، وقال في أكثر أغراض الشعر إلا في الخمر والمجون والصيد والهجاء، وقد سلم له في هذا الطور جملة من القصائد المختارة في الرثاء والمدح والفخر.

وأما شعره في الكهولة فقليل المبالغة والتكلف؛ قد عارض فيه المتقدمين من العرب، فآثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوي، وركب القوافي الصعبة. والتزم ما لا يلزم، وتشدد في اتباع القياس، وأكثر من البديع والجناس، وأودع شعره في هذا الطور فلسفته وآراءه. ولكنه حشاه بالألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة كأنما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فحاطها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد إليها بنان ولا يتذوقها لسان. وقد ابتدع في شعره مناجاة الحيوان كمحاورة الديك والحمامة، ومناظرة الذئب والشاة. وهو أحكم الناس بعد أبي الطيب. ويختص دونه بالخيال الدقيق، وتصريف القول في الفلسفة والاجتماع وأخلاق البشر وأنظمة الحكومات والقوانين والأديان وهو واحد الشعراء في هذا السبيل.

نثره:

نثر أبي العلاء كشعره، يختلف في كهولته عنه في شبيبته. فقد كان كثير المبالغة،

مفعماً بالغريب، متكلف السجع، كثير الاصطلاحات العلمية. ثم حكم فلسفته في نثره فقلت المبالغة، وفاضت الجمل بالمعاني. ولم تخل كتابته من غموض يُعَنّي القارىء وتطويل يمله؛ فربما كتب الرسالة إلى أصدقائه فيمعن فيها ويستطرد حتى تكون كتاباً ضخماً غريب المسائل كثير الفوائد.

مؤلفاته:

أكثر مؤلفاته ذهبت بها ريح الحروب الصليبية، فلم يبق إلا سقط الزند، واللزوميات، والدرعيات، والفصول والغايات، وديوان رسائله، ورسالة الملائكة ورسالة الغفران، وهي شديدة الشبه بالملهاة الإلهية لدانتي، والفردوس المفقود لملتن لأنه تخيل رجلاً صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك، وآنتقد فيها الشعراء والرواة والنحاة بأسلوب روائي بديع، ثم عبث الوليد. وهو شرح ديوان البحتري وقد طبع في دمشق. وقد فقد كتاب الأيْكِ والغصون في مائة مجلد، وهو دائرة معارف في العلم والأدب، ومعجز أحمد، وهو شرح ديوان المتنبي؛ وذكرى حبيب، وهو شرح ديوان أبي تمام، وغير ذلك كثير.

نموذج من شعره:

قال ينعي على الحكام استبدادهم بالرعية وعبثهم بمصالحها:

مُلَّ المُقام فكم أعاشر أُمة	أمرت بغير صلاحها أُمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها	وغدَوا مصالحها وهم أُجراؤها

وقال في أحكام الحظ وأوهام الحياة:

تباركتَ أنهارُ البلاد سوائح	بعذب وخَصّت بالملوجة زمزم!
هو الحظ عيْرُ البيدِ سافٍ بأنفه	خزامى وأنف العود بالذل يخزم
توهمت خيراً في الزمان وأهله	وكان خيالاً لا يصح التوهم
فما النُّور نوَّار ولا الفجر جدول	ولا الشمس دينار ولا البدر درهم

ومن قصيدة له في الرثاء:

صاحِ! هذي قبورُنا تملأ الرُّحـ	ـبَ فأين القبورُ من عهد عاد!
خفف الوطء ما أظن أديم الـ	أرض إلا من هذة الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن بَعُد العهـ	ـد هوَانُ الآباءِ والأجداد
سر إن آستطعت في الهواء رُوَيْداً	لا آختيالا على رُفات العباد
رُبَّ لحد قد صار لحداً مراراً	ضاحكاً من تزاحم الأضداد
فآسأل الفرقدين عمن أحَسَّا	من قبيلٍ وآنسا من البلاد
كم أقاما على زوال نهار	وأنارا لِمُدلج في سواد

تـعـبٌ كـلهـا الـحـيـاة فـمـا أعـ ـجب إلا مـن راغـب فـي آزديـاد
إن حـزنـاً في سـاعـة الـموت أضعـا فُ سـرور في سـاعـة الميـلاد

وقال ينعي على المتزهدين المرائين من أهل الدين:

رُوَيـدك قـد غُـرِرتَ وأنـت حـر بـصـاحـب حيـلة يـعظ الـنسـاء
يُحـرِّم فيكم الـصهـبـاء صُبحـاً ويـشـربهـا عـلى عَمْـدٍ مـسـاءْ
يقـول لكـم غـدوت بـلا كسـاءِ وفـي لـذاتـهـا رهَـنَ الـكـسـاءَ
إذا فـعـل الفـتى مـا عـنـه يِنْهي فـمـن جهـتيـن لا جـهـة أسـاءَ

وقال:

يـحـسـن مـرأى لـبـنـي آدم وكـلـهم فـي الـذوق لا يعـذبُ
مـا فيـهـم بَـرٌّ ولا نـاسـكٌ إلا إلـى نـفـع لـه يـجـذب
أفـضـل من أفـضلهـم صخـرة لا تـظلم الـنـاس ولا تكـذب

وقال:

خفْ دَنيّاً كـمـا تخـاف سَـريّاً صـال ليث الشرى بـظفـر ونـاب
والـصِّـلالُ التـي تـخـاف رداهـا شـرُّهـا في الـرؤوس والأذنـاب

وقال:

عجبي للطبيب يُلحـد في الـخـا لق من بعـد درسـه التـشـريحـا
رُبَّ روح كـطـائـر الـقفص الـمسـ ـجون ترْجو بموتها التسريحـا

الشعـر والشعـراء في الأندلـس

أفلت صقر قريش من شرَك السفاح ونجا بنفسه وأهله إلى الأندلس. وكان المُلك فيها يومئذ يضطرب بالخلاف بين المضرية واليمنية؛ والبلاد تنتظر من يلمُّها من شتات، ويحييها من مَوات، ويجمعها من فرقة؛ فكان عبد الرحمن الداخل هو الرجل الموعود والإمام المنتظر. فآستولى عليها سنة ١٣٨ هـ بمعونة اليمنية. ونشر عَلَم بني أمية في قرطبة بعد ما طوته المسوَدّة في دمشق. وتعاقب على عرشها من أولاده وحفَدته تسعة عشر خليفة في أربعة وثمانين ومائتي عام، حتى أصابهم داء الأمم فتفرقوا وتمزقوا، وآنحل ملكهم إلى دويلات صغيرة عرف أصحابها بملوك الطوائف، كبني جهور في قرطبة، وابن عباد في أشبيلية، وابن الأفطس في بطليوس.

وكانت سياسة الأمويين في الغرب غير سياستهم في الشرق، فقد كانوا في دولتهم الأولى يترفعون عن خلاط الموالي، ويعتزون بعصبية الجنس، فأصبحوا في هذه الدولة مدنيين، يمدون إلى القوط أسباب الاتصال بهم. ويمهدون لهم سبل الاندماج فيهم، صُنع

بني العباس في أبناء الفرس. فكان من نتيجة هذا الارتباط وأثر هذا الاختلاط أن حدث في الأندلس ما حدث في العراق من امتزاج الجنسية السامية بالجنسية الآرية، ونضج العقلية العربية، وآستعار النهضة الأدبية، وآزدهار الأندلس بحضارة إسلامية مادتها من الشرق وبناتها من العرب، لأن أوروبا يومئذ كانت تخبط في دياجير الجهالة، وترسف في أغلال الأمية، فآقتبس الأسبان ثقافة العرب فآعتقدوا دينهم، وتكلموا لغتهم، وتعلموا أدبهم. وهجروا اللاتينية وآدابها حتى أنْسوها، وحتى جأر بالشكوى من هذه الحال كاهن قرطبة ولكن القسيسين أنفسهم لم يستطيعوا الوقوف بنجوة من هذا السيل فجرفهم جرفاً حتى آضطرهم إلى نقل كتب الدين إلى اللغة العربية.

وكان الأمويون وعرب الأندلس لا ينفكون ملتفتين إلى الشرق موطن الجنس والدين واللغة والأدب والحضارة فيسيرون على ضيائه، ويستمدون من زعمائه وعلمائه، ويحذون في سياستهم وإدارتهم حذو العباسيين؛ فشيدوا المدارس الجامعة، وأنشأوا المكاتب العامة، ونشطوا حركة التأليف، وأذكوا نهضة الأدب ورفعوا مجد الفنون، وعقدوا مجالس المناظرة والمسامرة والغناء. بلغت الأندلس من ذلك كله الحظ الموفور في عهد عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ) وبلغت أوج سلطانها وغاية عمرانها وتمام بنيانها في عصر أمير المؤمنين عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) وابنه الحكم، وهو عصرها الذهبي الذي بلغت فيه من السطوة والقوة والثروة والوحدة والحضارة والعمارة والفن والأدب ما كادت تضارع به بغداد، وما أدهشت به المؤرخ دوزي حتى قال: «إن عبد الرحمن الناصر أولى أن يكون من ملوك العصر الحديث لا من ملوك القرون الوسطى». وهكذا كانت حضارة الإسلام تشع في بغداد وقرطبة في وقت واحد فتبدد دياجير الشرق وتكشف مجاهيل الغرب. ولكن تمام الشيء مبدأ نقصانه. فلم تكد خلافة الحكم ابن الناصر تنتهي حتى دبّ في خلافة بني مروان دبيب البلى والهرم، وآل سلطانها إلى ملوك الطوائف فآضطلعوا به قليلاً ثم أوهن كواهلهم داء الانقسام وفساد النظام وغاداهم المرابطون من البربر فقوضوا أركانهم، ونازعوهم سلطانهم، وراوحهم الفرنج متكاتفين فآستلبوا الملك من أيديهم مدينة بعد مدينة، حتى تمت الهزيمة وعم الجلاء بقرار أبي عبد الله محمد بن علي من غرناطة سنة ٨٩٨ هـ وكان ذلك آخر عهد العرب والعربية بالجزيرة.

ذلك مجمل من القول في حال العرب بالأندلس سقناه إليك تمهيداً لما سنلُم به إلماماً من وصف شعرهم وذكر نفر من شعرائهم.

وليس من غرضنا أن نعرض هنا لدراسة الشعر الأندلسي فنفصله ونحلله، وإنما هي لمحة وجيزة تكشف عن مناهجه ومناحيه، وتبين تأثير البيئة والطبيعة فيه. فقد وجد الشعراء العرب في أوروبا ما لم يجدوه في آسيا من الحياة المتنوعة، والجواء المتغيرة، والمناظر

المختلفة، والأمطار المتصلة، والخمائل الجميلة، والأدواح الظليلة، والأنهار الروية، والسهول الغنية، والجبال المؤزرة بعميم النبت، والمروج المطرزة بألوان الزهر؛ فصفت أذهانهم، وسما وجدانهم، وعذب بيانهم، ووسعوا دائرة الأدب، وهذبوا الشعر فتأنقوا في ألفاظه وتنوَّقوا في معانيه، ونوعوا في قوافيه، وتفننوا في خياله، وذبحوه تدبيج الزهر، وسلسلوه سلسلة النهر، وأكثروا من نظمة في البحور الخفيفة القصيرة، حتى ضاقت أوزان العروض عما تقتضيه رقة الحضارة ورقي الغناء. فاستحدثوا الموشح باللغة الفصحى، ثم تطور عند انحطاط الأدب وآضمحلال أمر العرب إلى الزجل باللغة العامية.

وصرَّفوا الشعر في أغراض شتى كالمدح والغزل والرثاء والدعاء والزهد والتصوف والفلسفة والمزاح والمجون وعالجوا سياسة الاجتماع، ونظموا حوادث التاريخ، وأبدعوا ما شاء الإبداع في الوصف: فوصفوا الأبنية والتماثيل والقصور والبرك والنوافير والنواعير والحدائق والمروج والأدوية والأديرة والأنهار والأشجار والرياح ومجالس الطرب؛ وكل ذلك في حلاوة لفظ ورقة أسلوب ودقة صنعة. إلا أن شعرهم على الجملة جار مجرى الشعر الشرقي، فلم يتعد حدوده ولم يكسر قيوده إلا بمقدار ما ذكرناه لك من آبتداع الموشح وتنويع القافية؛ وذلك لاعتقادهم أنه هو الأصل الذي يُرجع إليه، والقالب الذي يضرب عليه.

ولئن صح من بعض الوجوه ما يتقول به أدباء الفرنج من أن الشعر العربي تصنُّع في اللفظ، وتعمُّلٌ في الشكل، وليس فيه خيال رائق، ولا شعور صادق فلن يصح هذا القول بحال في شعراء الأندلس. فإنهم عبروا عن عواطفهم، وترجموا عن مشاعرهم، بلفظ جيد وأسلوب أنيق، فطافوا على قرّائهم بأكواب من ذهب فيها ما تشتهيه الأنفس. وإنك لترى في وصفهم مناظر الطبيعة وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة لأشعار الفرنج ولقد أخذ الفرنسيون والأسبان عن عرب الأندلس غير العلم والموسيقى وفن العمارة، ضروباً شتى من الشعر، كالمدح والهجاء والغزل، كما أخذوا عنهم القافية وكانوا من قبل يكتفون باتحاد الحروف الصوتية الأخيرة (assonance) غير ناظرين إلى ما بعدها.

ولو طال عَلى الأندلسيين الأمد في الحضارة، وتعاقبت أطوار الرقي على اللغة وآدابها لأتوا بأبلغ مما جاء به روسو وهوجو ولامرتين وأضرابهم ولكن فاجأهم الانقسام، وداهمهم الخصام، فآنشقت عصاهم، وآنفصمت عراهم، ونضبت قرائحهم وأمحَلت عقولهم، وذهبوا كأمس الدائر، سنة اللّه في خلقه. ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً.

نماذج من الشعر الأندلسي

قال أبو الفضل بن شرف القيرواني:

مطَلَ الليل بوعدِ الفَلق	وتشكّى النجمُ طولَ الأرق
ضربت ريح الصَّبا مسك الدجى	فآستفاد الروض طيب العبق

وألاح الـفـجـرُ خـدٌّ خَـجِـلا جـالَ من رَشح الـنـدى في عـرق
جـاوز الـلـيـل إلـى أنـجـمـه فـتـسـاقـطن سـقـوط الـورق
وآستفـاض الصبـح فيهـا فيضـة أيقـن الـنـجـم لـهـا بـالـغـرق
فـآنـجلى ذاك الـسَنـا عـن حـلك وآنمحـى ذاك الـدجى عـن شفـق
يـأبى بعـد الكـرى طيفُ سـرى طـارقـاً عـن سكـن لـم يُـطرِق
زارنـي والـلـيـل نـاع سـدْفَـه وهـو مـطلوب بـبـاقـي الـرمـق
ودمـوع الـطل تمـريهـا الصَّبـا وجفـون الـروض غـرْقى الحـدق
فـتـأبـى فـي إزار ثـابـت وتـثـنـى فـي وشـاح قـلِق
وتـجـلي وجـهـه عـن شـعـره فـتـجـلى فَـلَقٌ عـن غـسـق
نـهب الـصبـح دجـى لـيـلتـه فحـبـا الـخـدّ بـبعض الـشـفـق
سلبت عيـنـاه حـدَّيْ سـيـفـه وتـجـلى خـدُّه بـالـرونـق

وقال ابن حمديس الصقلي يصف ديراً وراهبة تبيع الخمر:

وراهـبـة أغـلـقـت ديـرهـا فكـنـا مـع الـلـيـل زوارهـا
هـدانـا إليهـا شـذى قـهـوة تـذيـع لأنـفـك أسـرارهـا
طـرحـت بمـيـزانهـا درهـمي فـأجـرت من الـدَّن دينـارهـا
تـفـرس في شمسـه طيبهـا مجيـدُ الفراسـة فآختـارهـا
فتى دارس الـخمـر حتى درى عصيـر الخمـور وأعصـارهـا
يَـعـدُّ لمـا شئـت مـن قـهـوة سنيهـا ويـعـرف خمـارهـا
وعـدنـا إلى هـالـك أطلعت على قضْب البـان أقمـارهـا
يـرى ملك اللهـو فيهـا الهموم تـثـور فـيـقـتـل ثـوارهـا
وقـد سكَّنت حـركـات الأسى قـيـانٌ تـحـرك أوتـارهـا
فـهـذي تعـانـق لـي عـودهـا وتـلـك تـقـبـل مـزمـارهـا
وراقـصـة لـقـطت رجـلَهـا حسـابَ يـد نقـرت طـارهـا
وقُضب مـن الشمـع مصغـرة تـريـك مـن الـنـار نـوارهـا
كـأنً لـهـا عـمـداً صفـقت وقـد وزن الـعـدل أقـطارهـا

إلى أن قال:

ذكـرت صـقـلِّيَّـةَ والأسـى يـهـيِّـج لـلنفس تـذكـارهـا
ومـنـزلـة لـلتـصـابي خَـلت وكـان بنـو الـظرف عمَّـادهـا
فـإن كنت أخـرجتُ من جنـة فـإنـي أحـدث أخـبـارهـا
ولـولا مـلوحـة مـاء الـبـكـا ء حسبت دمـوعيَ أنـهـارهـا

وقال ابن هانىء يصف أكولاً:

يا ليت شعري، إذا أومى إلى فمه ... أحلقه لَهَوات أم ميادين؟
كأنها ـ وخبيث الزاد يضرمها ـ ... جهنم، قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ما أمضى أسنَته ... كأنما كل فك منه طاحون
كأن بيت سلاح فيه مختَزَنٌ ... مما أعدته للرسل الفراعين
أين الأسنة أم أين الصوارم أم ... أين الخناجر أم أين السكاكين
كأنما الحمل المشوي في يده ... ذو النون في الماء لما عضه النون
لف الجِداءُ بأيديها وأرجلها ... كأنما افترستهن السراحين
وغادر البط من مثنى وواحدة ... كأنما اختطفتهن الشواهين
يخَفض الرز من قرن إلى قدم ... وللبلاعيم تطريب وتلحين
كأنما كل ركن من طبائعه ... نار، وفي كل عضو منه كانون!
كأنما في الحشا من حمل معدته ... قرنفل وجراريش وكمون
قوموا بنا فلقد رِيعت خواطرنا ... وجاذبتنا أعنتها البراذين
نصحتكم، فخذوا من شدقه وزراً ... أولاً، فأنتم سَويق فيه مطحون

وقال المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية وقد دخل عليه في سجنه بناته يوم عيد في أطمار بالية بعد أن سلمه ابن تاشفين ملكه وسجنه بأغمات:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد في أغماتَ مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرت في العيدلا عادت إساءته ... فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك إنْ تأمرْه ممتثلاً ... فردك الدهر منهيًّا ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسَرُّ به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا

وقال ابن دراج القسطلي من قصيدة يصف وداعه لزوجه وولده الصغير:

ولما تدانت للوداع وقد هفا ... بصبري منه أنة وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى ... وفي المهد مبغوم النداء صغير
عييٌّ بمروج الجواب، ولفظه ... بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومُهدت ... له أذرع محفوفة ونحور
وطار جناح البين بي وهفت بها ... جوانح من ذعر الفراق تطير
ولو شاهدتني والهواجر تلتظي ... عليّ ورقراق الشراب يمور
أسلط حر الهاجرات إذا سطا ... على حر وجهي والأصيل هجير
وأستنشق النكباء وهي لوافح ... وآستوطىء الرمضاء وهي تفور

وللمـوت في عين الـجبـان تـلون	وللذعـر في سمـع الجـريء صفيـر
لبـان لهـا أني من الـبيـن جـازع	وأني على مضر الخـطوب صبـور

وقال الوزير ابن زيدون وهو سجين:

مـا عـلى ظـنـي بـاس	يـجـرح الـدهـر ويـاسـو
رُبـمـا أشـرف بـالـمـر	ء عـلى الأمـال يـاس
ولـقـد يـنـجيـك إغـفـا	لٌ ويُـرديـك احـتـراس
والـمـحـاذيـر سـهـام	والـمـقـاديـر قـيـاس
وَلـكـمْ أجـدى قـعـودٌ	ولَـكـمْ أكـدى الـتمـاس!
وكـذ الـحكـم: إذا مـا	عـز نـاسٍ ذل نـاس
وبـنـو الأيـام أخـيـا	فُ سَـرَاةً وخِـسـاس
نـلبس الـدنيـا، ولـكـن	مُـتـعـةً ذاك الـلبـاس
يـاأبـا حـفص ومـا سـا	واك فـي فـهـم إيـاس
من سنا رأيك لي في (م) غَسق الخطب اقتباس
لا يـكـنْ عـهـدك وَرْداً	إن عـهـدي لـك آس
وآدر ذكـرى كـأسـاً	مـا آمتـطت كفّـك كـاس
وآغـتـنم صفـو الـليـالي	إنـمـا الـعيـش آختـلاس
مـا تـرى في معشـر حـا	لـوا عن العهـد وخـاسـوا؟
أذْؤُبٌ هـامـت بـلحـمـي	فـآنـتـهـابٌ وآنـتـهـاس
كـلهـم يـسـأل عـن حـا	لـي، ولـلذئـب آعتـسـاس
إن قـسـا الـدهـر فـللمـا	ء من الصخـر آنبجـاس
ولئـن أمسـيت مـحبـو	سـاً فـللغيـث آحتـبـاس
ويفُتّ الـمسـك في الـتـر	ب فـيـوطـأ ويُـداس

ومن أجود موشحاتهم قول ابن بقي:

خـذ حـديث الشـوق عن نَفسي	وعـن الـدمـع الـذي هـمـعـا
مـا تـرى شـوقـيَ قـد وقـدا
وهـمـا دمـعـيَ وآطـردا
وآغـتـدى قـلبـي عـليـك سـدى!
آه مـن مـاء ومـن قـبس	بين طـرفي والحـشـا جُـمعـا!

***

بـأبـي ريـم إذا سـفـرا
أطـعـت أزرارُه قـمـراً
فـآحـذروه كلمـا نـظرا
فبـألـحـاظ الـجـفـون قِـسـى أنـا منـهـا بـعض من صُـرِعـا

وقال بعضهم:

مـا لـلـمـلـمـوَلَّة مـن سـكـره لا يـفـيـق
يـا لـه سـكـرانـا!
مـن غـيـر خـمـر. مـا لـلكئيـب الـمَـمـشـوق
يـنـدب الأوطـانـا
هـل تـسـتـعـاد، أيـامـنـا بـالـخـلـيـج
وليـاليـنـا
أو يـسـتـفـاد، مـن الـنـسـيـم الأريج
مـسـك داريـنـا
وادٍ يـكـاد، حـسـن الـمـكـان الـبـهـيـج
أن يـحـيـيـنـا
ونـهـر أظـلّـهُ دوح عـلـيـه أنـيـق
مـورق فـيـنـان
والـمـسـاء يـجـرى وعـائـم وغـريـقْ
من جَـنَـى الـريـحـان

ومن موشح ابن سهل الإسرائيلي:

هـل درَ ظـبـي الـحـمـى أن قـد حـمـى قـلـبَ صـب حـلـه عـن مـكـنِس
فـهـو فـي حـر وخـفـق مـثـل مـا لـعـبـت الـصَّـبـا بـالـقـبَس

***

يـا بـدوراً أطـلـعـت يـوم الـنـوى غـرراً فـي نـهـج الـغـرر
مـا لـقـلـبي في الـهـوى ذنـب سـوى مـنـكـم الـحـسـنُ ومـن عـيـني الـنـظرْ
أجـتـنـي الـلـذات مـكـلـومَ الـجـوى والـتـذاذي من حـبـيـبـي بـالـفِـكـر
كـلـمـا أشـكـوه وَجـداً بَـسـمـا كـالـرُّبـى بـالـعـارض الـمُـنْـبَـجس
إذ يـقـيـم الـقَـطرُ فـيـه مـأتـمـا وهـي من بـهـجـتـهـا فـي عُـرسُ

***

غـالـبٌ لي غـالـبٌ بـالتُّـؤده		بـأبـي أفـديـه من جـاف رقـيـق
مـا رأيـنـا مـثـل ثـغـر نَـضَّـدَه		أقحـوانـاً عُصِـرت مـنـه رحيـق
أخـذت عينـاه منـه العـربـدة		وفـؤادي سكـرُه مـا إن يُـفـيـق
فـاحم الجمَّـة معسـول اللمَى		أكحـل اللحظ شـهـيَ الـلَّعَس
وجـهـه يتـلو الضحى مبتسـمـا		وهـو مـن إعْـرَاضـه في عـبس

شعـراء الأندلـس

٥٠ ـ ابـن عبـد ربـه

٨٦٠ ـ ٩٤٠ م

٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو عمر أحمد بن محمد عبد ربه الأموي بالولاء، لأن جده كان مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل ثاني خلفاء الأمويين بالأندلس. ولد هذا الكاتب الشاعر بقرطبة ونشأ بها، ثم تخرج على علماء الأندلس وأدبائها وآمتاز بسعة الاطلاع في العلم والرواية، وطول الباع في الشعر والكتابة. قال ياقوت في معجمه: «وكان لأبي عمر بالعلم جلالة وبالأدب رياسة وشهرة مع ديانة وصيانة، وآتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق، فساد بعد الخمول، وأثرى بعد الفقر، وأُشيرَ إليه بالتفضيل إلا أنه غلب عليه الشعر» ثم أصيب في أعقاب عمره بالفالج وتوفي سنة ٣٢٨ هجرية.

شعره:

أكثر شعر ابن عبد ربه وأجمله في الوصف والغزل. وهو أشبه بشعر ابن زيدون في الجمع بين روعة الشرقيين وجزالتهم، ورقة الغربيين وسلاستهم. وهو أكثر ترديداً لأخبار المشارقة وأصح تقليداً لأشعارهم. وقد آتصلت شهرته بهؤلاء فرووا شعره، ورددوا ذكره، وشهدوا له بالتقدم والإجادة. روى ابن الخطيب أن الوليد الأندلسي لما حج عرَّج في منصَرَفه على مصر، فلقي بها أبا الطيب المتنبي في جامع عمرو بن العاص، فأفاضا في الحديث ملياً، ثم قال المتنبي: ألا تنشدني لمليح الأندلس؟

---

٥٠ ـ انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: ص ٩٤ ـ ٩٦ والمُطْرِب: ص ١٥١ ـ ١٥٦ ومطمح الأنفس: ص ٥١ ـ ٥٣، وبُغية الملتمِس: ص ١٣٧ ـ ١٤٠ وتاريخ علماء الأندلس، ص ٤٩ ـ ٥٠: وإرشاد الأريب: ٢/٦٧ ـ ٧٢، ووفيات الأعيان: ١/٣٩ ـ ٤١، والوافي بالوفيات: ٨/١٠ ـ ١٤، ومعجم المؤلفين: ٢/١١٥ ـ ١١٦، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ١/١٠٦ ـ ١٠٩.

يعني ابن عبد ربه. فأنشده الوليد شيئاً من شعره، فصفق له وآستعاده ثم قال «يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوا!» وكفى بشهادة المتنبي دليلاً على فضل الرجل وعلو كعبه. وابن عبد ربه من الشعراء المكثرين فقد رأى الحميدي من شعره عشرين جزءاً ونيفاً من جملة ما جمع للحكم بن عبد الرحمن الناصر أكثرها بخطه. وقد زين كتابه العقد الفريد بكثير منه في كل معنى. وقال في مقدمته: وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها، وتوافقها في مذاهبها. وقرنت منها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته، وبلدنا على آنقطاعه. حظاً من المنظوم والمنثور».

وهو من السابقين إلى آختراع الموشحات، وله طبع في الشعر القصصي وهو قليل في العربية. من ذلك أرجوزته في تاريخ عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس في عصره، ولكنها إلى الشعر التعليمي Didactique أقرب منها إلى الشعر القصصي (Epique) لجفافها وضعف خيالها وبعدها عن قواعد الملحمة، وهي منشورة في الجزء الثاني من العقد الفريد.

ولما تناهت به السن وأرعشه الكبر، أقلع عن صبوته، وأخلص للّه في توبته، ونظم أشعاراً كثيرة سماها بالممحصات لأنه نقض كل قطعة قالها في الغزل واللهو، بقطعة من بحرها ورويها في الموعظة والزهد ولم يكتف ابن عبد ربه بنبوغه في الشعر وتفوقه في النثر، فأراد أن يدل على براعته في التأليف أيضاً، فصنف كتاباً في الأدب سماه العقد الفريد.

العقد الفريد:

وهو كتاب من أمهات كتب الأدب، جامع لتشتيت الفوائد ومنثور المسائل في الأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض حتى الطب والموسيقى. وقد آستوعب خلاصة ما دُوِّن من كتب الأصمعي وأبي عبيدة والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم. ولم يقتصر على المأثور عن العرب بل وشَّى كتابه بما ترجم عن اليونان والفرس والهنود من ضروب الحكمة والموعظة والملح. وقد تأنق في تبويبه وتفنن في ترتيبه، فقسمه إلى خمسة وعشرين كتاباً في موضوعات شتى بدأ كلا منها بمقدمة بليغة من إنشائه تبين الغرض منه؛ وسَمَّى كل كتاب بجوهرة من جواهر العقد كاللؤلؤة والفريدة والزبرجدة والجمانة والمرجانة والياقوتة والجوهرة الخ.

ومن الغريب أن المؤلف وهو أندلسي لم يشر إلى الأندلس ولا إلى أهلها بكلمة، اللهم إلا إلى نفسه! حتى إن الصاحب بن عباد لما سمع بهذا الكتاب حرص حتى حصل عليه. فلما تصفحه قال: «هذه بضاعتنا ردت إلينا. ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، فإذا به يشتمل على أخبار بلادنا. لا حاجة لنا به، ثم رده». والكتاب في ثلاثة مجلدات تزيد صفحاتها على ألف صفحة وقد طبع بالقاهرة أخيراً في خمسة مجلدات.

نمـوذج من شعـره:

قال في الغزل:

يـا لـؤلؤاً يـسبي العـقـول أنيقـا ... وَرَشـاً بتقـطيـع القـولب رقيقـاً
مـا إن رأيـت ولا سمـعت بـمثـله ... دراً يـعـود من الـحيـاء عـقيـقـاً
وإذا نـظرت إلى محـاسن وجهـه ... أبصـرت وجهـك في سناه غـريقاً
يـا مـن تقـطع خـصـرُه من رقـة ... مـا بـال قلبـك لا يكـون رقيقـاً؟

وقال في موقف الوداع:

ودّعـتـنـي بـزورة وآعـتـنـاق ... ثم نـادت متى يكـون التـلاقي!
وبـدت لي فـأشرق الصبح منهـا ... بيـن تلك الـجيـوب والأطـواق
يـا سقيم الجفـون من غيـر سقم ... بين عـينيـك مصـرعُ العشـاق
إن يـوم الـفـراق أفـظع يـوم ... ليتني متّ قبـل يـوم الفـراق!

وقال في وصف رمح وسيف:

بـكـلِّ رَدْيِيٍّ كـأن سـنـانـه ... شهـاب بدا في ظلمـة الليل ساطع
تقـاصـرت الآجـال في طـول متنـه ... وعـادت بـه الآمـال وهي فجائـع
وذى شُـطب تقضي المنايا لحكمه ... وليس لمـا تقضـي المنيـة دافـع
يـسلل أرواح الـكمـاة آنـسلالُـه ... ويـرتاع منـه الموت والمـوت رائـع

وآخر شعر قاله قوله:

بليت وأبلتني الليـالي بكَـرِّهـا ... وصـرفـان لـلأيـام مـعـتـوران
ومـالي لا أبلى لـسبعين حِجَّـةً ... وعشـر أتت من بعـدهـا سنتـان
ولست أبـالي من تباريـح علتي ... إذا كـان عقلي بـاقيـاً ولسَـانـي

٥١ ـ ابن هانـىء الأندلسي

٩٣٨ ـ ٩٧٤ م

٣٢٦ ـ ٣٦٣ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدي الأندلسي بأشبيلية في زهرة العهد الأموي وفي

---

٥١ ـ انـظر تـرجمتـه في: جـذوة المقتبس: ص ٨٩ ـ ٩٠، والمـطرب: ١٩٢ ـ ١٩٥، وتكملة الصلة: ١/٣٦٨، ومطمح الأنفس: ص ٧٤، والخريدة، ٤: مصر ١، القاهرة ١٩٥١، ٢٤٨ ـ ٢٨١، وإرشاد =

أوج عصره الذهبي، وفي حكم الملك الناصر. وكانت أشبيلية إذ ذاك أخصب بلاد الأندلس علماً وأدباً، فنشأ بها ودرس الأدب العربي على النمط المألوف. يومئذ من السماع والحفظ والإنشاد والمحاكاة، وأبوه هانىء يعضده ويرشده لأنه هو نفسه أديب يعيش على الأدب ويتكسب بالشعر. وآستهوى شاعرنا ما عليه طائفة الشعراء من النعمة والثراء فسلك سبيلهم وتبع دليلهم، حتى آتصل بصاحب أشبيلية فنال حظوته وكسب محبته. وكانت ثمار الحضارة الأندلسية من السرف والترف واللهو قد بدت في ذلك الحين، فقطف ابن هانىء منها باليدين ولم يجد له رادعاً من خلق ولا وازعاً من دين. وأخذ بشيء من مذاهب الفلاسفة والأندلسيون على نقيض الشرقيين يمقتون البدعة وينصرون السنة وينكرون الفلسفة ويصدرون عن البحث في الدين، فتألب أهل أشبيلية عليه، وكادوا يصلون بالأذى إليه. وآتهموا الملك بمشايعته على رأيه، فأشار عليه أن يغيب ريثما تهدأ ثائرة القوم وينسونه. فرحل إلى عدوة المغرب وعمره ست وعشرون سنة، فلقي القائد جوهراً فاتح مصر للمعز فمدحه. وأخصب زرع آماله فوصله الجد الميمون بالمعز لدين اللّٰه العبيدي فآصطفاه إليه وأغدق إحسانه عليه. ولما خرج المعز يريد مصر بعد أن فتحها جوهر وراض له الأمر فيها شيعة ابن هانىء وتخلف عنه ليأخذ عياله وماله ثم يلحق به إلى مصر. فلما كان في طريقه إليها عرج على برقة ونزل في ضيافة رجل من أهلها، فأقام عنده يقصف ويلهو، حتى أمعن ذات يوم في الشراب فسكر سكرة أفضت به إلى سكرة الموت. فقيل إن ندماه من أهل ضيافته عربدوا عليه وقتلوه، أو إنه خرج من الدار وهو سكران طافح فصرعته الخمر في الطريق فمات، وعمره ست وثلاثون سنة. فلما بلغ المعز وفاته أسف عليه وقال: «هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يُقدَّر لنا ذلك».

أخلاقه:

كان ابن هانىء ماجناً خليع العذار صاحب لهو وخمر. وكان ذكي الفؤاد فكه الأخلاق جم الأدب صريح القول والفعل لا يبالي أين يقع ذلك من الناس ومصداق تلك الصفات فيه مجاهرته بآراء تنكرها بيئته، وترفضها طبقته، ومبالغته في شعره إلى حد الكفر، والشاعر دون الفيلسوف أحرص الناس على رضا الناس. ناهيك بميتته الداعرة التي قل أن ماتها رجل.

شعره:

ابن هانىء على رأي الجمهور أمير شعراء الأندلس غير مدافع. وفي هذا الرأي على إطلاقه إجحاف بأمثال ابن زيدون. على أن شعره من الطبقة العالية التي تجمع بين سلاسة

= الأريب: ٧/١٢٦ ـ ١٣٣، وابن خلكان: ٢/٥ ـ ٧، ونفح الطيب، ٢/٤٤٤ ـ ٤٥٠، ومعجم المؤلفين: ١٢/٨٨ ـ ٨٩، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ١/١٣١ ـ ١٣٤.

التفكير، وسلامة التعبير، ومعالجة كثير من مسائل الحياة وأحوال الاجتماع وخوالج النفس. وقد اطلع على شعر المتنبي وهو معاصر فأعجب بأسلوبه ومذهبه وسار على منهاجه وآتتم بهديه: فهو مثله يذهب في الشعر مذهب الفلاسفة، وينثر في ثناياه مدحه الحكم والأمثال، ويتخذ من حياته الخاصة مورداً لشعره، ويكثر من ذكر الحرب والقوة والغلب، ويجيد وصف ما يراه ويسمعه إجادة نادرة، ولذلك سموه متنبي الغرب على عادة المغاربة من حب التشبه بفحول المشارقة. ولكن بين الرجلين من التفاوت والبعد ما بين الوجه والبدر، والعزيمة والدهر، والكرم والبحر، في هذه التشابيه المعروفة. فشتان بين ما يصدر عن طبع وبين ما يصدر عن تقليد. وكأن هذه الموازنة أثارت سخط أبي العلاء، وعصبيته للمتنبي شديدة كما تعرف، فقال في ابن هانىء: «ما أشبهه إلا برحا تطحن قروناً لأجل القعقعة التي في ألفاظه» ومن يدري؟ فلو أن اللّٰه نسأ في أجل ابن هانىء فلم تأخذه المنون عَبْطةً لأحكمته السن وصقلت شعره التجارب وكان للتاريخ فيه رأي آخر.

أما الأغراض التي قال فيها فالمدح وهو معظم شعره، والغزل ولا يقوله إلا ابتداء لقصيد أو ابتغاء لتقليد؛ والرثاء والوصف وهو فيهما مقل مجيد. وقد شغله ما شغل المتنبي عن الطبيعة وأسرارها ومناظرها فلم يكن لها في شعره غير حظ ضئيل.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة في الرثاء وهي من أجود شعره:

إنا وفي آمال أنفسنا	طول وفي أعمارنا قِصَرُ
لنرى بأعيننا مصارعنا	لو كانت الألباب تعتبر
مما دهانا أن حاضرَنا	أجفاننا والغائبَ الفكر
وإذا تدبرنا جوارحنا	فأكلهُنَّ العينُ والنظر
لو كان للألباب ممتحن	ما عُدَّ منها السمعُ والبصر
أيُّ الحياة ألذَّ عيشتها	من بعد علمي أنني بشر
خرست لعمر اللّٰه ألسُنُنَا	لما تكلم فوقنا القدَر

ومنها:

وإذا صحبت العيش أوله	صفواً، فهيْنٌ بعده الكدَرُ
وإذا انتهيت إلى مدى أمل	دركا، فيومٌ واحد عُمُر
ولَخَيْرُ عيش أنت لابسه	عيشٌ جنى ثمراته الكبَر
ولكل حَلَبة سابق أمدٌ	ولكل نُهْلَةٍ واردِ صَدَر
وحدود تعمير المعمَّر أن	يسمو صعوداً ثم ينحدر
والسيف يبلى وهو صاعقة	وتنال منه الهام والقصر

والمرء كالظل المديد ضُحًى والفيْء يحسره فينحسر

ويقول في ختامها:

غرض ترامى في الخطوب، فذا قوس، وذا سهم، وذا وتر
فجزعت حتى ليس بي جزع وحذرت، حتى ليس بي حذر

وقال في الغزل:

أمسحوا عن ناظري كُحْل السهادِ وآنفضوا عن مضجعي شوك القتادِ
أو خذوا منيَ ما أعطيتمُ لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تجيرون محباً من هوًى؟ أو تفكون أسيراً من صفاد؟
أَسُلُوا منكم من هجركم قلما يسلو عن الماء الصوادي!
إنما كانت خطوب قيِّضت فعدتنا عنكمُ إحدى العوادي
فعلى الأيام من بعدكمُ ما على الظلماء من لبس الحداد
لا مَزَارٌ منكم يدنو سوى بأن أرى أعلام هضب أو نجاد
قَلَ تنويل خيال منكم يَطَّبي بين جفون ومهاد
لم يزدنا القرب إلا هجرة فرضينا بالتنائي والعباد
وإذا شاء زمان رابنا برقيب أو حسود أو مُعادي

ومن قصيدة له يمدح جوهراً ويصف جيشه وهو ذاهب إلى فتح مصر:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمعُ وقد راعني يوم من الحشر أروعُ
غداةَ كأن الأفقَ سُدَّ بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدْر إذا سلَّمتُ كيف أشيِّعُ ولم أدر شيِّعت كيف أُوَدِّعُ
وكيف أخوض الجيش والجيش لجّة وإني بمن قاد الجيوش لمولعُ
فلا عسكرٌ من قبل عسكر جوهرٍ تخبُّ المطايا فيه عشراً وتُوضعُ

وقال في المدح:

أبنَى العوالي السمهرية والسيو ف المشرفية والعديد الأكثر
مَن منكم الملك المطاع كأنه تحت السوابغ تُبَّعٌ في حِمْير
القائد الخيلَ العتاقَ شوازياً خُزراً إلى لحظ السنان الأخزر
شعث النواصي حشرة آذانها قبُّ الأياطل، داميات الأنسر
تنبو سنابكهن عن عفْر الثرى فيطأن في خد العزيز الأصعر
جيش تَقَدمه الليوث وفوقه كالغيل من قصب الوشيج الأسمر
ويقوده الليث الغضنفر مُعلماً في كل شثن اللبدتين غضنفر
في فتية صدأ الدرع عبيرهم وخلوقهم علق النجيع الأحمر

لا يـأكـل السـرحـان شِلْوَ طيعنهم ... ممـا عليـه من القنـا المتكسـر
قـوم يبيت على الحشـايـا غيـرهم ... ومَبيتهـم فـوق الجيـاد الضمَّـر
وتـظل تسبح في الـدمـاء قبـابهم ... فكـأنهـن سفـائنٌ في أبحـر
فحياضهم من كـل مهجـة خـالـع ... وخيـامهم من كـل لِبْـدَة قسـور
حـيٌّ مـن الأعـراب إلاّ أنـهـم ... يَـردون مـاء الأمـن غَيـر مُكـدَّر

وقوله في وصف الخيل:

وصـواهل، لا الهضب يـوم مُغارهـا ... هضب، ولا البيـد الحـزون حـزون
عُـرفت بسـاعـة سبقهـا، لا أنهـا ... عَلقت بهـا يـوم الـرهـان عيـون
وأجـل علم البـرق عـنهـا أنـهـا ... مـرت بجـانحتيـه وهـي ظنـون

٥٢ ــ ابن زيدون

١٠٠٤ ـ ١٠٧٠ م

٣٩٤ ـ ٤٦٢ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو الوليد أحمد بن عبد اللّه بن زيدون بقرطبـة سنة ٣٩٤. وكـان أبوه من وجـوه الفقهاء وعيون الأدباء، فدرس عليه وعلى غيره الأدب والعلوم. ورُزق في الإنشـاء قريحـة طيعة وطبعاً سليماً. وسمت به كفايته ومكانته إلى أن وزَر لأبي الحزم بن جهْور أحـد ملوك الطوائف بالأندلس، فاشتهر أمره وارتفع قدره. وألقى إليه مقاليـد الأمور فـدبرهـا وساسهـا بحذق وكياسة. وكثيراً ما سفر بين مولاه وملوك الأندلس فأحسن السفارة وفض المشكل. ثم دبت بينهما عقارب السعـاية، فنقم عليـه ابن جهور وسجنـه، ولم يشفع لـه سالف خـدمته ولا سابق حرمته. فكتب إليه رسالة فريدة يستمطر بها رحمته، ويستدفع نقمته، فلم يلن لها ذلك القلب الجماد، ففر من سجنه واختفى بقرطبة حتى استشفع بأبي الوليد ابن جهور إلى أبيه فشفّعه. وظل في حماية هذا الأمير حتى آل الملك إلى بعد أبيه فاستصحبه وقرَّبه. ولكن صلاته السياسية بصاحب مالقة أحفظت عليه ابن جهور فنفاه فلجأ إلى المعتضد عباد صاحب أشبيلية سنة ٤٤١ فاستخلصه إليه، وعول في أموره عليه. ثم وزر لابنه المعتمد وقضى في أشبيلية بقية عمره.

---

٥٢ ـ انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: ص ١٣٠ ـ ١٣١، وقـلائد العقيـان: ص ٧٩، والمغرب في حلي المغـرب: ١/٦٣ ـ ٦٩، وكنوز الأجـداد: ٢٥١ ـ ٢٦٠، وتتمة المختصـر: ١/٥٦٣ ـ ٥٦٤، وبغيـة الملتمس: ص ١٨٦ ـ ١٨٧، والخـريدة: ٢/٤٨ ـ ٧١، والـوافي بـالـوفيـات: ٧/٨٧ ـ ٩٤، ونفـح الطيب: ١/٦٢٧.

فأنت ترى من هذا المجمل أن حياة ابن زيدون العامة كانت مضطربة شاقة ولم تكن حياته الخاصة بأقل منها اضطراباً ولا مشقة. فقد آبْتُلِيَ وهو في قرطبة بحب ولادة بنت المستكفي أحد خلفاء بني أمية، وكانت شهيرة بالجمال والأدب شاعرة، سافرة، تساجل الشعراء وتجادل العلماء وكانت دارها نادياً من أندية قرطبة يغشاه الأمراء والوزراء والأدباء والقادة، وفي هؤلاء ابن زيدون، وكانت فيه خفة روح وحسن دعابة وبراعة أدب، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله. وبادلته هي هذا الحب، فأذكى هذا الفوز نار الحسد في قلوب منافسيه ومزاحميه، فسعوا في إفساد ذات بينهما، واشتهر منهم الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو عظيم الحول والطول، فتزلف إلى ولادة في ساعة من ساعات مللها من ابن زيدون فظفر برضاها: ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرجعت إلى ابن زيدون، فكتب إلى ابن عبدوس رسالة هزلية ضافية الذيل عن لسان ولادة أشبعه فيها تقريعاً وسخرية، وضمنها كثيراً من المَلح في الأدب والتاريخ.

شعره:

شعر ابن زيدون هو الصورة الصحيحة لشِعر الأندلس، لانبجاسه من أعماق فؤاده، وانبعاثه من طبيعة بلاده. فلا يجر جريان ابن هانىء وراء شعراء المشرق يحاكيهم ويحتذيهم. لأنه لم يتخذ الشعر وسيلة من وسائل الرزق، ولا سبيلاً من سبل الشهرة، وإنما كان يشعر لنفسه، ويعبر عن نزوات حسه. وهو آخر شعراء بني مخزوم وأول معاصريه رقة ودقة. تقرأ في شعره أجود ما خَصت به الطبيعة الأندلسيين من وصف المناظر، وشرح العواطف، وسمو الخيال، وصفا الديباجة. وقد تظهر أحياناً على فخره ومدحه علائم الضعف، إلا أنك لا تجد ذلك إذا تغزل أو تشوق أو استعطف، فإن طبعه في هذه الأغراض فياض، وقلمه لشرحها مجيد. وسبب ذلك ما قاساه من ظلم ابن جهور له. وما عاناه من نفور ولادة منه وبعدها عنه.

وقد تضلع ابن زيدون من أشعار العرب وأساليبهم في الكتابة والخطاب حتى قيل إنه أصيب في بعض حرمه فقعد للعزاء عنها، وأقبل الناس على اختلاف طبقاتهم يعزونه، فما أجاب أحداً بما أجاب به غيره لسعة ميدانه وحضور جنانه. وإنك لتجد أثر هذا الإطلاع بادياً فيما يضمنه نثره وشعره من الأمثال والتشابيه والملح.

نثره:

لابن زيدون نثر أنيق الوشي، دقيق النسج، قليل التكلف والسجع، كثير الإزدواج والإطناب، شديدة الشبه بطريقة الجاحظ ولا سيما في التنويع بحروف الجر، وله من طريقة ابن العميد تضمين الأمثال والملح، والتمثل بالشعر في غضون النثر. ومن أجود آثاره رسالتان جدية وهزلية، بعث بالأولى إلى ابن جهور يستعطفه بها وهو سجين، وبالأخرى إلى

ابن عبدوس عن لسان ولادة، وهي التي سبق ذكرها. وقد حرص الأدباء على حفظهما وعُنِيَ العلماء بشرحهما.

نموذج من كلامه:

قال مخاطباً بني جهور:

بني جهور أحرقتم بجفائكم ... فؤادي فما بال المدائح تعبَق
تعدونني كالعنبر الورد إنما ... تفوح لكم أنفاسه وهو يحرق

وقال يتشوق إلى ولادة وهي بقرطبة وهو بأشبيلية:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لُقيانا تجافينا
بِنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحُنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لو لا تأسّينا
حالت لبُعدكُم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
ليُسَق عهدكُم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
مَنْ مُبلغ الملبسينا بانتزاحهمُ ... حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذي ما زال يضحكنا ... أنساً بقربكم قد عاد يبكينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا ... بأن نغصّ فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد تكون وما يُخشى تفرقنا ... فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا
لا تحسبوا نأيَكم عنا يغيرنا ... إن طال غيَّر النأيُ المحبينا
واللّه ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا ساري البرق غادِ القصر فاسق به ... مَن كان صِرفَ الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبَّا بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حيّا كان يحيينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... ورداً جناه الصبا غضاً ونسرينا
ويا حياةً تملينا بزهرتها ... مُنى ضروباً ولذات أفانينا
لسنا نُسَمِّيك إجلالاً وتكرمة ... فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
كأننا لم نبتْ والوصل ثالثنا ... والسعد قد غض من أجفان واشينا
سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
يا جنة الخلد أبدِ لنا بسلسلها ... والكوثر العذب زقوماً وَغِسْلِينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً ... مكتوبة وأخذنا الصبر تلْقيناً

وقال يودعه:

ودعَ الصبرَ محبٌّ ودعك ... ذائعٌ من سره ما استودعك

يقرع السنَّ على أن لم يكن زاد في تلك الخُطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناءً وسنىً رحِم اللّه زماناً أطلعك!
إن يطل بعدك ليلى فلكَمْ بتُّ أشكو قِصر الليل معك

وقال أيضاً:

أما رجا قلبي فأنت جميعه يا ليتني أصبحتُ بعضَ رجاك
يدنو بوصلك حين شط مزارهُ وهمُ أكاد به أقبِّل فاكِ

نموذج من نثره:

قال من رسالته الجدية:

يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به، وامتداي منه، ومن أبقاه اللّه ماضيَ حدِّ العزم، وارَى زَند الأمل، ثابت عهد النعمة سلبتني أعزك اللّه لباس نعمائك، وعطلتني من حلى أيناسك، وأظمأتني إلى ورد إسعافك، ونفضت بي كيف حياطتك، وغضضت عني طرْف حمايتك بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحس الجماد باستحمادي لك. فلا غرو قد يغص الماء شاربه، ويقتل الدواء المستشفي به، ويؤتى الحذر من مأمنه، وتكون منية المتمني في أمنيته. والحيْن قد يسبق جهد الحريص:

كل المصائب قد تمر على الفتى فتهون غير شماتة الحساد

وإني لأتجلد، وأرى الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع. فأقول: هل أنا لابد أدماها سوارها، وجبين عض به إكليله، ومشرفي ألصقه بالأرض صاقله وسمهري عرضه على النار مُثَقِّفة، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول:

فقسا ليزدجروا ومن بك حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحم

ومنها: . . . وأعود فأقول: ما هذا الذنب لم يسعه عفوك؟ والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك؛ والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك، والتحامل الذي لم يف به احتمالك. ولا أخلو أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مسيئاً فأين الفضل؟.

إن لا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع

وكلها على هذا الأسلوب الرائق، والديباجة المشرقة والتضمين المحكم، والافتنان الرائع.

وقال في رسالته الهزلية:

أما بعد أيها المصاب بعقله، والمورَّط بجهله، البيِّن سقطه، الفاحش غلطه العاثر في

ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش على الشهاب فإن العجبَ أكْذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب. وأنت راسلني مستهدياً من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك، مرسلاً خليلتك مرتادة، مستعملاً عشيقتك قوادة، كاباً نفسك أنك ستنزل عنها إليَّ، وتخاف بعدها عَلَي:

ولستَ بأول ذي هِمَّة   دَعتْه لِمَا ليس بالنَّائل

ومنها:

هجين القذال، أرعن السبال، طويل العنق والعِلاوة، مفرط الحمق والغباوة. بغيض الهيئة، سخيف الذهاب والجيئة، ظاهر الوسواس، منتن الأنفاس، كلامك نمنمة وحديثك غمغمة، وبيانك فهفهة، وضحكك قهقهة، ومشيتك هرولة، وغناك مسألة، ودينك زندقة، وعلمك مخرقة.

مساوٍ لو قُسمنَ على الغواني   لمَا أُمهرن إلا بالطلاق

وكلها على هذا النحو من الإقذاع والفحش والتهكم.

٥٣ ـ ابن حمديس الصقلي
١٠٥٥ ـ ١١٣٣ م
٤٧٧ ـ ٥٣٧ هـ

نشأته وحياته:

ولد عبد الجبار بن حمديس بجزيرة صقلية وعرف في بيئته منذ حداثته بمعالجة القريض؛ ولكنه ظل مجهول الذكر في أسواق الأدب فلا يسير شعره ولا يُعرف قدره. حتى استولى النرْمنْدِيون على وطنه وهو في ميعة الشباب، فرأى بعينه وسمع بأذنه كيف سام الغاصب قومه سوء العذاب، وكيف جر على بلده شر الخراب، فهاجر إلى اسبانيا عام ٤٧١، ونزل بأشبيلية يمتاح فضل المعتمد بن عباد، فحجبه مدة لا يلتفت إليه ولا يعبأ به، حتى قال ابن حمديس: «قنطت لخيبتي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقبي فإني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذ بغلام معه شمعة ومركب، فقال لي: أجب السلطان! فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني على مرتبة من فرو الفنَك، وقال لي افْتَحْ الطاق

---

٥٣ ـ انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ٣٠٢/١، والتكملة: ص ٦٣٧، ومطالع البدور: ٣٦/١، ودائرة المعارف الإسلامية: ١٤٥/١، وانظر الأعلام للزركلي: ٢٧٤/٣.

التي تليك، ففتحتها وإذا بكور من الزجاج على بعد والنار تلوح من بابيه، وواقده يفتحهما تارة ويسدهما أخرى، ثم أدام سد أحدهما وفتح الآخر، فحين تأملتها قال لي:

أجز: أنظرهما في الظلام قد نجما   فقلت: كما رنا في الدُّجْنة الأسد
فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها   فقلت: فعلَ امرىء في جفونه رمد
فقال: فابتزه الدهر نور واحدة   فقلت: وهل نجا من صروفه أحد؟

فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنية وألزمني خدمته.

وظل الشاعر يتقلب في نعم الملك حقبة من الدهر حتى أنزله ابن تاشفين عن دسته، ونفاه من ملكه، فتبعه ابن حمديس إلى منفاه فمات الملك بعد أربع سنين من نكبته، وأقام الشاعر في المهدية قاعدة أفريقية، ثم انتقل إلى ميورقة فتوفي بها معوَجَّ القناة مكفوف البصر.

أخلاقه

كان ابن حمديس صحيح العقيدة، وقور النفس، رقيق الشعور، قوي الملاحظة ظاهر الجد، كثير الانقباض. شديد التشاؤم؛ ولكنه كان سمح الأخلاق، حلو المعاشرة، يحضر مجالس الطرب، ويخالط أصحاب اللهو، في عفة نفس وكرم وخلق وسلامة عرض، ويبلغ من وصف ذلك مبلغ الإجادة والإبداع. وهو القائل:

أصف الراح ولا أشربها   وهي بالشّد وعَلَى الشّرْب تدور
كالذي يأمر بالكرِّ ولا   يصطلي نار الوغى حيث تفور

وهذه الصفات التي ذكرناها إنما استنتجناها من شعره، ولا ندري أهي فيه من طبيعة ميلاده. أم هي أثر من آثار نكبته في بلاده.

شعره:

شعره مرآة صافية تجلت فيها أخلاقه: فهو عفيف اللفظ، نبيل الفكرة، لا يسف إلى المجون، ولا يتورط في الغي. وقد دعاه ظلم الزمان ولؤم الإنسان وعلو السن إلى التبرم بالحياة، والشكوى من الناس، والثورة على النفس، وسلوك مذهب أبي العتاهية في الوعظ والتزهيد والتصوف بلغته الواضحة وأسلوبه المُشرق. ثم تأتلق نفسه وينشرح صدره أحياناً فتتفتح مشارعه لجمال الطبيعة، ولذات الحياة، وعجائب الكون، فيصف النهر والزهر والصيد والخيل والليل وقصور الترف، ومجالس الطرب؛ يرسم كل أولئك بلفظ أنيق، وتصوير دقيق وعبارة بينة. ولعلك تلمس ذلك فيما نختاره لك من شعره، وكله مجموع مطبوع في بالرم سنة ١٨٧٣ وفي رومية سنة ١٨٩٧ م.

نموذج من شعره:

قال في وصف نهر:

ومُطَّرد الأجزاءَ يصقل متنه ... صباً أعلنت للعين ما في ضميره

جريح بأطراس الحصا كلما جرى ... عليها شكا أوجاعه بخريره

وقال يصف بركة في قصر ابتناه المنصور بن أعلى الناس ببجاية، عليها أشجار من الذهب والفضة وأسود من المرمر، والماء يخرُج من أطراف تلك وأفواه هذه:

وضراغم سكنت عرين رَآسة ... تركت خرير الماء فيه زئيراً

فكأنما غشَّى النضار جسومَهَا ... وأذاب في أفواهها البلورا

أسدٌ كأن سكونها متحرِّكٌ ... في النفس لو وجدت هناك مثيراً

وتذكَّرت فتكاتها فكأنما ... أقْعِت عَلَى أدبارها لتثورا

وتخالها والشمس تجلو لونها ... ناراً وألسنها اللواحس نوراً

فكأنما سلَّتْ سيوف جداول ... ذابت بلا نار قُعدنَ غديراً

وكأنما نسج النسيمُ لمائه ... دِرعاً فقدَّر سَردَّها تقديراً

وبديعة الثمرات تعبر نحوها ... عيناي بحر عجائب مسحوراً

شجريَّةٌ ذهبية نزعت إلى ... سِحْر يؤثِّر في النهى تأثيراً

قد سُرِّجت أغصانها فكأنما ... قبضت بهنَّ من القضاء طيوراً

وكأنما تأبى لوْقِّع طيرها ... أن يستقل بنهضها وتطيرا

من كلِّ واقعةٍ نرى منقارها ... ماء كسلسال اللجيْن نميراً

خرس تُعَدُّ من الفصاح فإن شدت ... جعلت تُغَرِّد بالمياه صفيراً

وكأنما في كل غصن فضة ... لانت فأرسل خيطها مجروراً

وتربك في الصهريج موقع قَطْرها ... فوق الزَّبرجد لؤلؤ منثوراً

ضحَكت محاسنه إليك كأنما ... جُعِلت لها زُهر النجوم ثغوراً

وقال يبكي ذنوبه ويستغفر ربه:

يا ذنوبي ثقَلْتِ والله ظهري ... بان عذري فكيف يقبل عذري

كلما تبت ساعة عدت أخرى ... لضروب من سوء فعلي وهُجري

ثقلت خطوتي وفودي تعرّى ... غيهب الليل فيه عن نور فجري

دبَّ موت السكون في حركاتي ... وخبا في رماده حرُّ جمري

وأنا حيث سرت آكل رزقي ... غير أن الزمان ـ أكل عمري

كلما مرَّ منهُ وقتُ بربح ... من حياتي وجدت في الربح خسري

يا رفيقاً بعبده ومحيطاً ... علمه باختلاف سري وجهري

مِل بقلبي إلى صلاح فسادي ... منه واجبُر برأفة منه كسري

وأجرني بما جناه لساني ... وتناجت به وساوس فكري

وقال من قصيدة يندب الزمن ويشكو الإخوان:

أتحسبني أنسى وما زلت ذاكراً ... خيانة دهري أو خيانة صاحبي؟
تغذي بأخلاقي صغيراً ولم تكن ... ضرائبهُ إلا خِلافَ ضرائبي
ويا رُبَّ نبت تعتريه مرارة ... وقد كان يُسقى عذب ماء السحائب
علمت بتجريبي أموراً جهلتها ... وقد تجهل الأشياء قبل التجارب
ومن ظن أمواه الخضارم عذبة ... قضى بخلاف الظن عند المشارب
ركبت النوى في رحل كل نجيبه ... تواصل أسبابي يقطع السباسب
ولما رأيت الناس يُرهب شرهم ... تجنبتهم واخترت وحدة راهب

وقال في الغزل:

عذَّبت رقة قلبي ... ظلماً بقسوة قلبك
وسُمْتِ جسميَ سقماً ... وما شفيت بطبك
من لي بصبر جميل ... عَلَى رياضة صعبك؟
فيا تشوق بعدى! ... إلى تَنسُّم قربك!
ووجنة غمستها ... في الورد صنعة ربك
لقد جنحت لسلمى ... كما جنحت لحربك
فالبدلال الذي زا ... د في ملاحه عُجبك
فكي من الأسر قلباً ... عليه طابَعُ حبك
ونعمِيني بِعتْبي ... فقد شقيت بعتبك

٥٤ ـ ابن خفاجة الأندلسي

١٠٥٨ ـ ١١٣٨ م

٤٥٠ ـ ٥٣٣ هـ

نشأته وحياته:

أبو إسحق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي وُلد بمدينة شَقَر أو جزيرة شقَر كما يسميها العرب والظاهر من شعره أنه عاش معيشة الفنانين خليع العذار طليق الإسار فلم يَسْم إلى

---

٥٤ ـ انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ١/١٤، وبغية الملتمس: ص ٢٠٢، وصفة جزيرة الأندلس: ص ١٠٣، ومذكرات العناني: ص ٦٤، وانظر الأعلام للزركلي: ١/٥٧.

معالي الأمور، ولم يتول عملاً من الأعمال العامة، ولم يتعرض لاستماحة ملوك الطوائف مع تهافتهم الشديد عَلَى أمثاله. وإنما أخلى ذرعه من مشاغل الحياة ووهب نفسه للجمال وفكره للخيال وحسه للذة، وكله للطبيعة. فهو يتنقل بين رباها وخمائلها، ويجول بين مروجها وجداولها، فيقف عند كل رائعة، ويصف كل واقعة، ثم يعود إلى كأس روية فيحتسيها، أو صورة فاتنة فيجتليها، أو ثمرة محرمة فيجتنبها. وتنفّس به العمر عَلَى تلك الحال حتى أتاه اليقين في مسقط رأسه سنة ٥٣٣.

شعره:

ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومصورها. قد امتلأت نفسه وعينه من جمال الحياة وجمال الطبيعة، فراح يبرز هذا الجمال المعنوي في صور مختلفة من الجمال اللفظي؛ فانتقى الأساليب الصافية، والألوان الزاهية، ودبجها بزخرف البديع، ووشاها بكثير من المجاز والتشبيه، واستطاع بافتنانه أن يقيك الملل من كثرة تكراره، ووقوفه عند المناظر الحسية في استيحاء أشعاره. أما طلاب الآراء النضيجة والمعاني العميقة، والأفكار الفلسفية، فما أظنهم يرجعون من قراءته بطائل، ولهذا الشاعر نثر متكلف سخيف. يؤكد لك مرة أخرى أن إجادة الصناعتين قلما تتفق لأحد.

نموذج من شعره

قال يصف زهرة:

ومائسة تُزْهَى وقد خلع الحيا	عليها حِلَى حمراً وأردية خُضراً
يذوب لها ريق الغمائم فضة	ويجمد في أعطافها ذهباً نضراً

وقال يصف نهراً ينساب في أحد المروج قد تعرَّج مجراه وتعددت مناظره:

لله نهر سال في بطحاء!	أشهى وروداً من لَمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه	والزهر يكنفه، مجرُّ سماء
قد رقَّ حتى ظنَّ قرصاً مُفْرَغاً	من فضة بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها	هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء أسرع جريه متحدراً	متلوياً كالحية الرَّقطاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى	ذهب الأصيل عَلَى لجين الماء

وقال يصف بلاد الأندلس:

يا أهل أندلس لله درُّكمُ	ماء وظل وأنهار وأشجار!
ما جنة الخلد إلاَّ في دياركمُ	ولو تخيرت هذي كنت أختار

وقال أيضاً:

إن للجنة بالأندلس ... مجتلى عين وريا نفس
فسنا صحبتها من شنب ... وَدجا ليلتها من لعس
فإذا ما هبت الريح صبا ... صحتُ: واشوقي الأندلس!

وقال يصف طيفاً ألم به في ليلة طويلة:

ورداء ليل بات فيهِ مُعانقي ... طيف أَلمَّ لظبية الوعساء
فجمعت بينَ رُضابِه وشرابه ... وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت في ظلماء ليلة وفْرَة ... شفقاً هناك لوجنة حمراء
والليلُ مُشْمَط الذَّوائب كِبرَة ... خرِف يدبُّ عَلَى عصا الجوزاء
ثم انثنى والسكر يسحب فرعه ... وَيجرّ منْ طرَب فضول رداء
تندى بفيهِ أقحوانة أجرع ... قد غازلتهاالشمس غبَّ سماء
وتميس في أثوابِه ريحانة ... كرعت على ظمأ بجدول ماء
نَفَاحة الأنفاس إلا أنها ... حَذَرَ النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتناقاً، حسبها ... فيه بقْطر الدمع مِن أنواء
والفجر ينظر من وراء عمامة ... عن مقلة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنوره ... أغْرى بها ببنفسج الظلماء

وقال يصف موقداً هبت عليه ريح فألهبته:

لاعب تلك الريح ذاك اللهبُ ... فعاد عين الجد ذاك اللعب
وبات في مَسرى الصبا يتبعه ... فهو لها مضطرم مُضطرب
ساهرتُه أحسبه مُنتشياً ... يهزّ عطفيه هناك الطرب
لو جاءه منتقد لما درى ... ألهَبٌ متقَّد أم ذَهب
تلثم منه الرِّيح خداً خَجِلاً ... حيث الشرار أعين ترتقب
في موقد رقرق الصبح به ... ماء عليه من نجوم حبب
منقسم بين رماد أزرق ... وبين جمر خلفه ملتهب
كأنما خرت سماء فوقه ... وانكدرت ليلاً عليه شهب

وقال يصف شاباً جميلاً يَسبح:

وصقيل إفْرِنْد الشباب، بطرفه ... سقم، وللعضب الحسام ذباب
يمشي الهوينى نخوة ولربما ... أطرته طوراً نشوة وشباب
شتى المحاسن، للوضاءة ريطة ... أبداً عليه، وللحياء نقاب
وبمعطفيه للشبيبة منهل ... قد شف عنه من القميص سراب

عبـر الخليج سبـاحـة فكـأنمـا أهـوى فشق بـه السمـاء شهـاب
تـطفـو لغـرتـه هنـاك حبـابـة ويـمـوج مـن ردف ألـفٌ عبـاب

٥٥ ـ لسان الدين ابن الخطيب
١٣١٣ ـ ١٣٧٤ م
٧١٣ ـ ٧٧٦ هـ

نشأته وحياته:

هو ذو الوزارتين أبـو عبد اللّه لسـان الدين المعـروف بابن الخـطيب: ولد بغـرناطـة سنة ٧١٣ في مهد السؤدد والعلم والرياسة، وتخرج على علمائها في علوم اللسان والشريعة والفلسفة والطب والرياضة والتاريخ، وبذ في كل ذلك معاصريه ومناظريه من أدباء الأندلس. ثم وصلته مائة الشعر والأدب بأبي الحجاج يوسف سلطان غرناطة (٧٣٣ ـ ٧٥٥) فاستكتبه، ثم استوزره وأطلق يده في شئون ملكه فاتسع نفوذه وضخم أمره. وما زال في هذا المنصب وتلك الحـظوة حتى توفي أبـو الحجاج وخلفـه ابنه محمـد الخامس فـأقر لسـان الدين في الوزارة. ولكن عقارب الوشاية دبت بين الرجلين فتنكـر له السلطان، ففـر منه إلى إفـريقية فأكرمه ملوكها. ثم توالت عليه مكاره وخطوب انتهت بتسليمه إلى أعدائه، فاعتقلوه بفـاس وأغروا جماعة من الفقهاءِ فـأفتوا بـإلحاده لاشتغـاله بـالفلسفة. فتسـور عليه السجن بعض الأوشاب فقلتوه خنقاً.

منزلته في الكتابة:

لسان الدين كاتب مطبوع على السجع، سـائر في صنـاعته مـع الطبـع، يذهب إلى الإطناب في رسائله شأن كتاب الأندلس. وبما ساق الرسالة الضافية كلها على رويٍّ واحد. والنثر في الأندلس مبنى الخيال والصناعة لغلبة الشعر على أهله. وقل أن تجد فيه السـائغ المقبول لتكلفهم السجع، وعملهم التنميق، وتوخيهم الإطالة فهم شعراء بـالطبـع، وكتاب بالصنعة، على غير ما نرى في أهل الشرق.

وله شعر رقيق اللفظ رائق المعنى مقبول الصنعة. وقد انتهت إليه زعامة العلم والأدب في الأنـدلس، كما انتهت إلى ابن خلدون معـاصره في إفـريقيـة. ولْابنِ الخـطيب القـدم

٥٥ ـ انظر ترجمتـه في: جذوة المقتبس: ص ١٨٤، والاستقصـاء: ١٣٢/٢، والدرر الكـامنة: ٤٦٩/٣، ودائـرة المعارف الإسـلامية: ١٥٠/١، وابن خلدون: ٣٤١/٧، وآداب اللغـة العـربيـة: ٢١٦/٣، والفهرس التمهيدي: ص ٤١٩، وانظر الأعلام للزركلي: ٢٣٥/٦.

الراسخة في التاريخ، ومؤلفاته فيه تبلغ ستين كتاباً، أشهرها كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة، وهو معجم تاريخي لرجالات غرناطة في ثلاثة مجلدات.

نموذج من كلامه:

قال في موشحه المشهور الذي عارض به موشح ابن سهل:

جادكَ الغيثُ إذا الغيث همي ... يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلُماً ... في الكرى أو خلسة المختلس

* * *

إذ يقود الدهر أشتات المنى ... تنقل الخطوَ في ما نرسم
زُمراً بين فرادي وُثُنيَ ... مثلما يدعو الوفودَ الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا ... فثغور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً مُعْلماً ... يزدهي منه بأبهى ملبس

* * *

في ليال كتمت سر الهوى ... بالدجى لولا شموس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى ... مستقيم السير سعد الأثر
وطرٌ ما فيه من عيب سوى ... أنه مر كلمح البصر
حين لذ النوم منا، أوكما ... هاجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا، أو ربما ... أثرت فينا عيون النرجس

* * *

أي شيء لامرىء قد خلصا ... فيكون الروض قد كُنِّنَ فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا ... أمنت من مكره ما تتقيه
فإذا الماء تناجى والحصا ... وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيوراً يرما ... يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيباً فَهِماً ... يسرق السمع بأذني فرس

* * *

يا أهَيْلَ الحي من وادي الغضا ... وبقلبي سَكَنٌ أنتم به
ضاق من وجدي بكم رحب الفضا ... لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى ... تُعْتِقوا عانيكم من كربه
واتقوا الله واحيوا مغرماً ... يتلاشى نَفساً في نفس
حبس القلب عليكم كرماً ... أفترضون عفاء الحُبَّس

* * *

ويـقلبـي مـنـكـم مـقـتـرب بـأحـاديث المنى، وهـو بـعيـد
قـمـر أطلع مـنـه الـمـغـرب شقـوة المغـرى بـه وهـو سعيـد
قـد تـسـاوى محسن أو مـذنـب فـي هـواه بـيـن وعـد ووعـيـد
سـاحـر المقـلة معسـول اللمى جـال فـي النـفس مجـال النَفس
سـدد الـسـهـم وسـمـى ورمـى فـفـؤادي نـهـبـة الـمـفـتـرس
إن يـكـن جـار وخـاب الأمـل وفـؤاد الصب بـالـشـوق يـذوب
فـهـو لـلنـفس حـبـيـب أول ليس في الحب لمحبـوب ذنـوب
حكم الـلفظ نـهـا فـاحـتـكـمـا لـم يـراقب فـي ضعـاف الأنـفس
منصف المـظلوم ممـن ظلمـا ومـجـازي الـبـر منهـا والـمسي
مـا لـقلبي كـلمـا هـبت صبـا عـاده عيـد من الشـوق جـديـد
كـان في الـلوح لـه مـكـتـبـاً قـولـه: إن عـذابـي لـشـديـد
جـلب الـهـم لـه والـوصـبـا فهـو لـلأشجـان في جهـد جهيـد
لاعـج في أضلعي قـد أضـرمـا فـهـي نـار في هـشيـم الـيـبس
لـم يـدع فـي مـهـجـتـي إلا ذمـا كـبـقـاء الـصـبـح بـعـد الـغـلس

ومن قصار رسائله في الشوق إلى ابن خلدون وهي تمثل طريقته في الكتابة:

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج. وأما الصبر فسل به أية درج، بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج، لكن الشدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج. وأني بالصبر، على إبر الدبر، بل الضرب الهبر، ومطاولة اليوم الشهر، حتى حكم القهر. وهل للعين أن تسلو سلو المقصر، عن إنسانها المبصر، أو تـذهل ذهول الـزاهـد، عن سرها الـرائي والمشاهد، وفي الجسد مضغة يصلح إذا صلحت، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت؟ وإذا كان الفراق هو الحمام الأول، فعلام المعول، أعيت مراوضة الفراق على الراق، وكادت لوعة الاشتياق، أن تقضي إلى السياق.

تـركتمـوني بعـد تـشيـيعكـم أوسـع أمـر الصبـر عصيـانـا
أقـرع سـنـي نـدمـاً تـارة واستميـح الـدمـع أحيـانـا

الشعر والكتابة والعلوم والفنون في مصر على عهد الفاطميين

ذهبت ريح العباسيين بعد المتوكـل على اللّه لفساد الحكم وسـوء النظام واستبـداد الوزراء وتنافس الزعماء؛ وانتقص الـولاة دولتهم من أطرافهـا، وغلب الثوار على كثيـر من أملاكها. وكـان العلويون الفـاطميون ممن شـارك في هذا النهب المقسم، فـاقتطعـوا منها شمالي إفريقية ثم مصر والشام والحجاز.

قام خليفتهم الأول عبيد الله بن محمد بالقيروان سنة ٣٤٦ هـ ثم أرسل خليفتهم الرابع المعز لدين الله قائده وكاتبه جوهراً الصقلي إلى مصر في جيش عرمرم ففتحها بالسيف وملكها بالذهب، وحفر حيث نزل سنة ٣٥٧ هـ أساس القصر الكبير لمولاه، وأساس الجامع الأزهر لله. وأنزل طوائف الجيش حولهما في نحو العشرين خطة ضرب عليها سوراً من اللبن فكان من ذلك مدينة القاهرة التي اتخذها الفواطم منذ يومئذ قاعدة لخلافتهم تعاقب على عرشها منهم أربعة عشر خليفة من سنة ٣٥٧ إلى ٤٦٨ هـ حتى غلبهم عليه صلاح الدين.

ظفرت مصر يوم دخول المعز بالاستقلال والخلافة والأزهر، وخفق العلم الأبيض على القاهرة منافساً للعلم الأسود في بغداد، وللعلم الأخضر في قرطبة؛ ووجدت الآداب العربية والحضارة الإسلامية في ظلال هذه الأعلام الثلاثة سبيلاً إلى الانتشار، ومساعداً على الازدهار، ومعيناً على النمو. وكان الفاطميون في مصر والأمويون في الأندلس إنما يتشبهون بالعباسيين في العراق، يأتمون بهديهم، ويسترشدون بوحيهم، في السياسة والحضارة والأدب والعلم والفن، فلم يحدثوا في شيء من ذلك حدثاً يصح أن ينسب إليهم أو يعتمد فيه عليهم، إلا ما اقتضته طبيعة الإقليم وسياسة التعليم ونظام الاجتماع، ولكن المطاولة بين هذه الخلافات الثلاث كانت تستلزم المنافسة في تقريب الشعراء، وتعضيد العلماء، وتشييدالمدارس، وإنشاء المكاتب. فكما اشتهر الرشيد وابنه المأمون في آسية، اشتهر الناصر وابنه الحكم في أروبة، والعزيز بالله وابنه الحاكم في إفريقية. فقد شغف العزيز بجمع الكتب واقتنائها وإقرائها حتى بلغ ما في «خزانة الكتب» التي ابتناها في قصره زهاء ألف ألف مجلد في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والعلوم. وكان لوزيره يعقوب بن كلس اليد البيضاء والقدم السابقة في إنهاض الأدب والعلم في مصر، فقد كان يندو في داره رجال الأدب والشعر والفقه والصناعة، فيرفدهم ويرشدهم. وكان يجلس للناس في كل جمعة فيدرسهم ويقبسهم ما يؤلف في القراءات والفقه. وأنشأ الحاكم بأمر الله مكتبة على نسق بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون في بغداد سماها «دار الحكمة»، واستقدم إليها الأدباء والعلماء والفقهاء والأطباء، وأجرى عليهم الأرزاق، وأباح دخولها الناس، فكثرت فيها المناظرات وألقيت بها المحاضرات، والحاكم نفسه يحضرها وينصرها، ويُعْنَى بها كما كان يصنع المأمون. وقد بلغ من عناية الفاطميين باللغة العربية وأدبها أن راقبوها في الدواوين وجعلوا لها ديوان الإنشاء أستاذاً يصحح أخطاء الكاتبين بها، ويرشد العاجزين إلى طريق أدبها. كابن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩ هـ وابن بَرّي المتوفى سنة ٥٨٢ هـ. وأخذ الأزهر يشع نوره في خلافة العزيز بالله، إذ أمر وزيره يعقوب أن يستقدم إليه ما استطاع من فقهاء العالم الإسلامي لينصروا مذهب الشيعة، ويؤيدوا دعوى الخلافة؛ وأن يجري عليهم الوظائف ويشيد لهم المساكن، فانتقل هؤلاء الفقهاء من القراءة إلى الإقراء، ومن المدارسة

إلى الجدل والمراء حتى انتهى الأمر بالأزهر إلى أن صار المدرسة الإسلامية الكبرى.

وبلغت القاهرة المعزية في أواسط القرن الخامس أوج حضارتها، وغاية عمارتها، فغصت برجال الأدب والفنون، وزخرت بمخلفات الأمم والقرون وزهت بما افتن فيه الخلفاء والأمراء والوزراء من تشييد المناظر، وإقامة الدور، وتفخيم القصور، وعقد القباب العجيبة، وصنع المقرنصات البديعة، وتزيين ذلك كله بما عرف عن اليد المصرية الصناع من روائع النقش وبدائع الزخرف وجمال الألوان، وتوشيته بالزجاج الملون، وتبليطه بالرخام المصقول والكاشاني الجميل، ورصفه بالفسيفاء المفوفة «مما طاولت به القاهرة بغداد وقرطبة، وكان نموذجاً صادقاً لارتقاء فن العمارة والزخرفة أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن. وقلما سمع في تاريخ دولة إسلامية ما سمع عن الخلفاء الفاطميين في سرفهم وامتلاء خزائنهم بالذخائر والجواهر والأعلاق والأسلحة والكتب. ولم يقم في مملكة من الاحتفال ما كان يقوم به خلفاء القاهرة في المواسم والأعياد». وكان للشعر في تلك الحفلات رواج ونفاق، وللشعراء في ميدانه استنان واستباق، فنبغ في آخر هذه الدولة طائفة من الشعراء المصريين جرو على أساليب البغداديين في عصورهم الأخيرة من الميل إلى الصناعة البديعية والحلية اللفظية. وكذلك من نبغ فيها من الكتاب نهجوا هذه السبيل في شيىء من التوفيق والإجادة، وحسبك أن تعلم أن القاضي الفاضل إمام الطريقة الرابعة في الأدب العربي إنما تعلم الكتابة في ديوان القاضي ابن حديد في الإسكندرية، وكتب في ديوان الظافر بالقاهرة. ووزر لصلاح الدين بن أيوب بعد ذلك. فطريقته من غير شك كانت هي الطريقة الفاشية في مصر على عهده. وقد فصلنا القول فيها أثناء كلامنا عن الكتابة وعن هذا الكاتب ص ١٦٣ ص ٢٢٩ فارجع إليه.

الشعراء في مصر

نبغ من الشعراء في ربوع النيل أبو علي تميم بن الخليفة المعز لدين اللّٰه الفاطمي المتوفى سنة ٢٧٥ : وقد اشتهر بشعره الغزلي، وحواره العمري، وأسلوبه القوي، ونسجه الدقيق. روى منه صاحب اليتيمة نخبة صالحة في الجزء الأول ص ٣٤٧ وله ديوان مطبوع.

وابن وكيع الملقب بالعاطس، ولد في قرية قريبة من دمياط وتوفي بها سنة ٣٩٤ وقد عرف بابتكار معانيه وحسن تصرفه.

وأبو الفتوح نصر اللّٰه بن قلاقس الإسكندري الملقب بالقاضي الأعز، رحل في أعقاب عمره إلى اليمن ومدح بعض حكامها فأغنوه، ولكن السفينة التي كانت تحمله وهو عائد إلى مصر غرقت على مقربة من دهلك فعاد إلى اليمن صفر اليدين، ثم سافر إلى صقلية ورجع منها فمات في عيذاب سنه سنة ٥٦٧.

وهبة اللّه بن سناء الملك الملقب بالقاضي السعيد، كان من الشعراء المجدودين والرؤساء المعدودين. اتصلت أسبابه بالقاضي الفاضل والعماد الكاتب، وسمت به كفايته إلى مكان رفيع من الخطوة والثروة. وكان في مصر على عهده جماعة من الشعراء الذين ألف بينهم الأدب فكانوا يجتمعون ويتناشدون ويتسامرون، وكان هو واسطه قلادتهم ومحل رياستهم. وهو أول من سبق إلى الموشحات وأجادها من شُعراء الشرق. وله الموشحة المشهورة التي مطلعها:

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلى ... واجعلي سوارك منمطف الجدول

ثم جمال الدين بن مطروح وُلد بأسيوط ونشأ في قوص واتصل بخدمة الملك الصالح الأيوبي حتى جعله ناظراً على الخزانة ثم وزيراً لنائب دمشق، ثم تقلبت به الحال من سفر وحضر ورصاً وسخط حتى توفي بالقاهرة سنة ٦٤٩ هـ.

ثم الشاعر الغزلي الرقيق كمال الدين بن النبيه، وإليك ترجمته.

٥٦ ــ كمال الدين بن النبيه
٠٠٠ ـ ١٢٢٢ م
٠٠٠ ـ ٦١٩ هـ

نشأته وحياته:

نشأة هذا الشاعر القدير مجهولة، وحياته مرت عادية هادئة، كالجدول السلسال في الروض الأفْيح، لا تسمع غير أنغامه وخريره. فلم يلق بنفسه في غمار السياسة وهو يعج بين يديه ومن خلفه، واكتفى بمدح بني أيوب في مصر حتى اتصل بالملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة وخلاط، فكتب له في ديوان الإنشاء وأقام بنصيبين في خدمته حتى توفي بها سنة ٦١٩ هـ.

شعره:

ابن النبيه شاعر غمْرُ البديهة مليح النادرة، منسجم الأسلوب، وحسن الوشي مطبوع على البديع؛ فهو يتوخى الحلية اللفظية ويشتد في طلبها، ولكن يخيل إليك أنه لا يتلقفها ولا يتكلفها لجمال صياغته وقوة صناعته. وما رأيت شاعراً قبل هذا الشاعر يتكلفُ بالبديع

---

٥٦ ـ انظر ترجمته في: فوات الوفيات: ٧١/٢، والأعلام للزركلي: ٣٣١/٤، والنجوم الزاهرة: ٢٤٣/٦، والعبر: ٨٤/٥، وحسن المحاضرة: ٥٦٦/١.

هذا الكلف، ويسرف فيه هذا السرف، ثم يضطرك وأنت تقرأه إلى الرضا عنه والإعجاب به. ذلك لأن أسلوبه قوي الحياة، شديد الحركة، كثير التنوع، مزدهر الألوان، يستر بقوة طبعه ما يبدو من ضعف صنعته، كقوله في المدح مثلاً:

فحريق جمرة سيفه للمعتدي ... ورحيق خمرة سيبه للمعتفي
يا بدر! تزعم أن تقاس بوجهه ... وعلى جبينك كلفة المتكلف؟
يا غيم! تطمع أن تكون ككفه ... كلا وأنت من الَجهام المخلف

ولم يكد شعره يخرج عن أغراض ثلاثة أجادها كلها إجادة قل أن تظفر بمثلها في عصره. وهي المدح، وكله في بني أيوب إلا قصيدة أو قصيدتين مدح بهما الخليفة الناصر العباسي؛ والغزل والوصف، ولا يجيء بهما مستقلين، وإنما يسوقهما مقدمة لمدحه. فأما مدحه فقد سلك فيه الطريقة المألوفة من ذكر الفتح والنصر والبأس والجود. وأما غزله فمن النوع الحسي الشهواني الذي لا يتعدى جمال الشكل، من ليل الشعر، وصبح الوجه، وسحر الجفون، وسهام العيون ولؤلؤ الثغر، وياقوت الشفة الخ. أما الإحساس القلبي بالحب والإدراك النفسي للجمال فشيء لا تظفر به فيه. والراجح في الظن أنه كان يقوله عَلَى أنه باب من أبواب الشعر، لا على أنه فيض من الشعور، ونور من الإلهام. أما وصفه فأكثره في الخمر ومجالسها، وأقله في الطبيعة ومناظرها.

وعلى الجملة فابن النبيه شاعر عذب الروح، كثير الافتتان؛ مغرق في المجاز والتشبيه والبديع. مجيد للمطالع، محسن للتخلص. وله ديوان طبع في بيروت وفي مصر.

نموذج من شعره:

قال في أول قصيدة يمدح بها الملك الناصر لدين الله العباسي:

باكرُ صبوحك، أهنى العيش باكرهُ ... فقد ترنم فوق الأيك طائره
والليل تجري الدراري في مجرَّته ... كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب، على يده ... مُخَلق تملأ الدنيا بشائره
فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبَبٌ ... فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تكوَّن من صبح ومن غسق ... فابيض خداه وأسودت غدائره
مهفهف القد يندي جسمه ترفاً ... مخصر الخصر عبلِ الردف وافره
سودٌ سوالفهُ. لُعس مراشفه، ... نعْسٌ نواظره، خُرْس أساوره
تعلمتْ بانة الوادي شمائله ... وزوّت سحَر عينيه جآذره
خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما ... وأنت ناه لهذا الدهر آمره

فالعسعر كالكأس تستحلي أوائله ... لكنه ربما مُجّت أواخره

وقال في مطلع قصيدة يمدح بها الملك الأشرف:

أفديه إن حفظ الهوى أوضيعا ... ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كَظَنه ... حلواً فقد جهل المحبة وادعى
يا أيها الوجه الجميل تدارك الصـ ... ـبر الجميل فقد عفى وتضعضعا
هل في فؤادك رحمة لمتيم ... ضمت جوانحه فؤاد موجعاً؟

ومن غزله أيضاً في بعض قصائده:

أجفانه شَرَك القلوب كأنما ... هاروت أودعها فنونَ فنونه
يا قوتة متبسم عن لؤلؤ ... خجلت عقود الدر من مكنونه
ساق صحيفة خده ما سُودت ... عبثاً بلام عذراه وبنونه
جمد الذي بيمينه في خده ... وجرى الذي في خده بيمينه
طاب الربيع كأنما عجن الصبا ... كافور مُزْنته بعنبر طيبه
وتفضضت أزهاره وتذهبت ... فكأنها طاووس في تلوينه

ومن غزله أيضاً:

أماناً أيها القمر المطل! ... فمن جفنيك أسياف تُسَلُّ
يزيد جمال وجهك كل يوم ... ولي جسد يذوب ويضمحل
وما عرف السقام طريق جسمي ... ولكن دَلَّ من أهوى يَدل
يميل بطرفه التركي عني ... صدقتم. إن ضيق العين بخل
إذا نشرت ذوائبه عليه ... ترى ماء يرف عليه ظل
أيا ملك القلوب فتكت فيها ... وفتكك في الرعية لا يحل
قليل الوصل ينفعها فإن لم ... يُصِبْها وَابل منه فطل
أدر كأس المدام على الندامى ... فمن خديك لي راح ونقل
بمنظرك البديع تدل تيهاً ... ولي ملك بدولته أدل

وله قصيدة الرثاء المشهورة التي رثى بها ولد الناصر بالله ومطلعها:

الناس للموت كخيل الطراد ... فالسابل السابق منها الجواد
والله لا يدعو إلى داره ... إلا من استصلح من ذي العباد
والموت نقاد، على كفه ... جواهر يختار منها الجياد
لا تصلح الأرواح إلا إذا ... سرى إلى الأجسام هذا الفساد

٥٧ ـ ابـن الفـارض
١١٨١ ـ ١٢٣٥ م
٥٧٦ ـ ٦٣٢ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو حفص عمر بن علي المعروف بابن الفارض. أَصل آبائه من حماة ووُلد هو بالقاهرة سنة ٥٧٦، وتفقه في الدين، وتوسع في اللغة والأدب، حتى أحرز منهما قسطاً وافراً. ثم وقع في نفسه أن ينهج منهج الصوفية، فاقتفى آثارهم وعرف أسرارهم. وذهب إلى مكة فزار البقاع المقدسة ومكث بها زمانًا ثم رجع إلى مصر فقضى بها بقية عمره بين الإعظام والإكرام حتى توفي بالقاهرة ودفن بسفح المقطم سنة ٦٣٢ هـ.

صفاته:

كان ابن الفارض عَلَى تقشفه وتصوفه جميل الهيئة، حسن البزة، ظريف المحضر، محمود العشيرة، وقوراً، كثير الورع، إذا مشى في المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء. وإذا حضر مجلساً عقدت هيبته أَلْسنة أهله فلا يتكلمون. فإذا أراد النظم أخذته غيبوبة يطول أمدها أحيانًا إلى عشرة أيام كما قيل، لا يأكل أثناءها ولا يشرب ولا يتحرك، فإذا أفاق أملى شعره!.

شعره:

نشأ ابن الفارض في عصر الأيوبيين وهو عصرٌ تنازعَ النفوس فيه عاملان مختلفان: عامل التصوف والتقوى، لدوام الحروب وتوالي الكروب من المجاعات والموَتان؛ وعامل الفسوق والمجون، لانحلال الأخلاق وتحكم الشهوات، وانتشار المخدرات. واتجه الشعر في مصر وفي غير مصر إلى هاتين الوجهتين. فهو إما أن يراد به الله وإما أن يراد به الشيطان. وابن الفارض قد نشأ نشأة دينية، وربي تربية صوفية، فلم يكن له بد من سلوك طريقة القوم في شعره، ينظم إشاراتهم، ويصف مقاماتهم، ويكثر من نعت الخمر وذكر الغزل، مريداً بذلك الذات الإلهية عن اصطلاحهم. فكَان بذلك مُوجد الطريقة الرمزية في الشعر العربي Symolisme وهو أكثر الشعراء تعملاً للكلام وتكلفاً للبديع وولوعاً بالجناس والطباق، وأسبَرُ

---

٥٧ ـ انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ٣/٤٥٤ ـ ٤٥٦، وميزان الاعتدال: ٢/٢٦٦، والبداية والنهاية: ١٣/١٤٣، والنجوم الزاهرة: ٦/٢٨٨ ـ ٢٩٠، وشذرات الذهب: ٥/١٤٩ ـ ١٥٣ وانظر الأعلام للزركلي: ٥/٥٥ ـ ٥٦.

معاصريه شعراً، لرقته واشتماله على ما يرضي المتصوف الزاهد، والعاشق الماجن: ذاك بباطنه وهذا بظاهره. فالمتصوفون ينشدونه في مجالس الذكر، والخلعاء يغنونه في مجالس الخمر. وقد شرح ديوانه جماعة من العلماء واختلفوا في اغراضه، فمنهم من شرحه على ظاهر اللفظ ولم يتأول شيئًا كالبوريني (١٠٢٤) ومنهم من شرحه وأوَّله على طريقة الصوفية كالنابلسي (١١٤٣).

ومن أشهر شعره تائيتاه الكبرى والصغرى، تبلغ الأولى نحو ٦٠٠ بيت والأخرى نحو ١٠٣ بيت. وقد استوعبتا أغراض الصوفيين وأسرارهم، ولا يقرأهما إلا من رزق الصبر والجلد على حلّ هذه الرموز، يقول في مطلع الكبرى:

نعم بالصبّا قلبي صبا لأحبتي ... فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت
تذكرني العهدَ القديم لأنها ... حديثة عهد من أهْيل مودتي

أما سائر شعره فجليٌّ واضح يغلب فيه الحنين إلى الحجاز وأهله، والإكثار من ذكر جباله وقراه.

نموذج من شعره:

قال في الغزل:

لم أخْلُ من حسد عليك فلا تضع ... سهري بتشييع الخيال المرجف
وأسأل نجوم الليل هل زاري الكرى ... جفني؟ وكيف يزور من لم يعرف

وقال:

أعِدْ ذكر من أهوى ولو بملام ... فإن أحاديث الحبيب مدامي
كأن عذولي بالوصال مبشري ... وإن كنت لم أطمع برد سلامي
طريحُ جوىً صبٌّ جريح جوارح ... قتيلُ جفون بالدوام دوامي
ضحيحُ عليلٌ فاطلبوني من المنى ... ففيها كما شاء التحول مقامي

وقال في الخمر وفيها كثير من رموز الصوفية:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة ... سكرنا بها من قبل أن يُخلَق الكَرمْ
لها البدر كأس وهي شمس، يديرها ... هلال، وكم يبدو إذا طلعت نجم
ولولا شذاها ما اهتديت لحانِها ... ولولا سناها ما تصورها الوهم
يقولون لي: صفها فأنت بوصفها ... خبير، أجل عندي بأوصافها علم
صفاءٌ ولا ماء، ولطفٌ ولا هواء، ... ونور ولا نار، وروح ولا جسم
تقدَّم كل الكائنات حديثُها ... قديمًا ولا شكل هناك ولا رسم
وقالوا شربت الإثم، كلا وإنما ... شربت التي في تركها عندي الإثم

فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحياً ومن لم يمت سُكراً فاته الحزم
على نفسه فليبْكِ من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

٥٨ ـ بهاء الدين زهير
١١٨٦ ـ ١٢٥٨ م
٥٨١ ـ ٦٥٦ هـ

نشأته وحياته:

أبو الفضل زهير بن محمد المهلبي وُلد بوادي نخلة على مقربة من مكة ونقل إلى مصر فنشأ بها وتأدب. فلما بلغ أشُدَّه واستوى في العلم والجسم، وبرع في النظم والنثر والخط، اتصل بالملك الصالح ابن الملك الكامل الأيوبي ورافقه إلى الشام والجزيرة. فلما غلبه ابن عمه الملك الناصر صاحب الكرك واعتقله على أثر موقعة بينما خذله قواده، وتألبت عليه أجناده، وانضووا تحت لواء ابن عمه لم ينقُض البهاء عهد ملكه، ودعاء الوفاءِ ألا يخدم غيره. فأقام بنابلس حتى عاد الماء إلى مجراه، ونهض الجد بمولاه، فاسترد الصالح مُلك الديار المصرية فأعاد بهاء الدين إلى خدمته. وعرف له ولاءه ووفاءه، فاتخذ وزيره وموضع سره، يصدر عن رأيه ويمشي على مشورته. وقد نفع كثيراً من الناس بوساطته وشفاعته. وظل على تلك الحال حتى مات الملك الصالح فلزم داره إلى أن حدث بالقاهرة وباء فمات به سنة سقوط بغداد في أيدي التتار.

شعره:

كان بهاء الدين دمِث الأخلاق، رقيق الطباع، لين الجانب، حلو الكلام فأثرت تلك الصفات في شعره، فجاء عذبًا يطمع السامع أن يأتي بمثله لسهولته ورقته، فإذا حاول عجز. فشعره فيض قريحته، ووحي طبيعته، وصورة بيئته. لم يقلد فيه أحداً، ولم يطلب من غير شعوره مدداً، ولم يعبر عنه إلا بلغة المصريين وأساليبهم. فلا تجد كلمة غريبة، ولا جملة معقدة، وإنما تدرك فيه عذوبة النيل وتدفقه، وتلمح عليه جمال جوّه وتألقه. وقد أحسن وأجاد في الغزل والعتاب، وقصر فيما عداهما. وليس في معاني البهاء ابتداع ولا تخيل؛ وإنما هي معان عادية كساها ألفاظًا سهلة، وبث فيها من روحه الفياض قوة التأثير فسمت إلى

---

٥٨ ـ انظر ترجمته في: ذيل الروضتين: ٢٠١، ووفيات الأعيان: ٢/٣٣٢ ـ ٣٣٨، والعبر: ٥/٢٣٠، البداية والنهاية: ١٣/٢١١ ـ ٢١٢، والنجوم الزاهرة: ٧/٦٢ ـ ٦٣، وشذرات الذهب: ٥/٢٧٦ ـ ٢٧٧، وانظر معجم المؤلفين: ٤/١٨٧، والأعلام للزركلي: ٣/٥٢.

أحرار المعاني. وشعره مجموع مطبوع متداول. وقد ترجمه المستشرق الإنجليزي بَلْمَرْ إلى الإنجليزية نظماً وطبعه في كمبردج سنة ١٨٧٦ في مجلدين وعلق عليه.

نموذج من شعره:

قال يخاطب المُتَزَمِّت من صروف الدهر:

لا تعتب الدهر في خطب رماك به ... إن استرد فَقِدْماً طالما وهبا

حاسب زمانك في حاليْ تصرفه ... تجده أعطاك أضعاف الذي سلبا

والله قد جعل الأيام دائرة ... فلا ترى راحة تبقى ولا تعبا

ورأس مالك وهي الروح قد سلمت ... لا تأسفنَّ لشيء بعدها ذهبا

ما كنت أول مفدوح بحادثة ... كذا مضى الدهر لا بدعاً ولا عجبا!

فرب مال نما من بعد مرزأة ... أما ترى الشمع القطف ملتهبا؟

وله في الغزل:

خليليَّ أما هذه فديارهم ... وأما غرامي فهو ما تريان

خليليَّ هذا موقف يبعث البكا ... فماذا الذي بالدمع تنتظران؟

فإن كنتما لا تسعداني على الأسى ... قِفا وَدِّعاني ساعة ودعاني

فيا ويح قلبي بالغرام أطعته! ... فمالي أراه في السلو عصاني؟

وإني وإياه كما قال قائل: ... رفيقك قيسيٌّ وأنت يماني

ومن قوله في الغزل أيضاً:

إن شكا القلب هجركم ... مهَّد الحب عذركم

لو رأيتم محلكم ... من فؤادي لسرَّكم

قصِّروا حدة الجفا ... طوَّل الله عمركم

ومن قوله في المزاح:

لك يا صديقي بغلة ... ليست تساوي خردلة

تمشي فتحسبها العيو ... ن على الطريق مشكَّله

وتخال مدبرة إذا ... ما أقبلت مستعجلة

مقدار خطوتها الطويلـ ... ـة حين تسرع أنملة

تهتز وهي مكانها ... فكأنما هي زلزلة

أشبهتها بل أشبهتـ ... ـك كأن بينكما صله

تحكي صفاتك في الثقا ... لة والمهانة والبله

الفصل السادس

العلوم

الترجمة والتأليف

لم يكن ما وُضع في عهد بني أمية من العلوم إلا بذراً نما وأثمر في هذا العصر الذي ثابت فيه العقول من غفلتها، وهبّت الفطن من غفوتها. فلقد عنى خلفاؤه وعلماؤه بتدوين العلوم وترجمتها ونشرها. وكان أسبقهم إلى ذلك الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور، فإنه أنشأ المدارس للطب والشريعة، وآستقدم جرجيس بن بختيشوع رأس أطباء جند يسابور ونفراً من السريان والفرس والهنود، فترجموا له كتباً في النجوم والطب. وكان من ذلك كتاب السندِ هَند في الفلك، وكتاب أُقليدس في الرياضة. ونقل له ابن المقفع بعض كتب الأدب والمنطق. ثم فترت هذه النهضة أيام الهادي والمهدي حتى قوّاها الرشيد بروْح البرامكة، ونشرها في مملكته المتسعة، وضم إيوانه نوابغ العلماء، وأخذ على نفسه بأن يلحق بكل جامع للصلاة جامعة للعلم، وأن يستصحب مائة من العلماء كلما سافر وكان يحل العلماء على تباين نِحَلهم، فكان أطباؤه وتراجمته من السريان المسيحيين كآل بختيشوع وآل ماسويه وقد ترجم في زمنه منه ما وجد من كتب الطب والكيمياء والنجوم والحيَل والجبر والنبات والحيوان.

وما أفضت الخلافة إلى المأمون ـ وهو في العرب كبريكلس في اليونان؟ وأغسطس في الرومان ـ استعر أُوار هذه النهضة العلمية؟ فأتم ما بدأ به آباؤه وآتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والعجم. وتوافد إليه الحكماء والأدباء من كل حدَب ونِحْلة. وأمر سفراءه وعماله في أرمينية وسورية ومصر أن يبعثوا إليه بما يجدون من كتب في تلك الأصقاع؛ فكانت الإبل ترى من آن إلى آن دِاخلة بغداد موقرة ظهورُها بجلائل الأسفار العبرانية واليونانية والفارسية. وداخل ملوك الروم وسألِهم صلته بما لديهم من الكتب الفلسفية فبعثوا بها إليه. وجعل من شرائط صلحه مع ميخائيل الثالث ملك القسطنطينية أن يرسل إليه بمجموعة من الكتب النادرة فلما حصل كل ذلك عنده استخار له خبر التراجمة فترجم على

خير ما يمكن فلم يبق من كتب الصناعة والعلوم والفنون شيء إلا نقله إلى العربية وأقبل الخلفاء والناس على تلك العلوم درساً وفهماً حتى حلوا رموزها وفتحوا كنوزها، ورقوها بالتفصيل والتكميل أصلحوا خطأ المتقدمين من العرب حتى اليونان أنفسهم ثم بسطوا غير ذلك علوم الشريعة، وضبطوا قواعد اللسان، ووضعوا علوم البيان، ووقعوا على علمي العروض والقافية وحذا الملوك في الشرق والغرب حذو العباسيين فشادوا المدارس، وأقاموا المراصد، وشجعوا العلماء، حتى أثمرت تلك النهضة وكشف العرب وآخترعوا ما لا يجهله العالم ولا ينكره التاريخ.

ولم تزل سوق العلم نافقة حتى ضعف أمر العرب بتغلب التتر وتسلط الترك فسقطت رغبة الملوك فيه، وآنقطعت أسباب الطلب، ودرست المصنفات، وكسدت بضاعة العلم، وظن الناس أن تحصيله سعيٌ باطل، فآقتصروا على شرح الكتب وآختصارها ولم يعنوا إلا بألفاظها.

فلما رأت العلوم أن الشرق قد تجهم لها، وأن الزمان قد أضعف أهلها، لبست ثياب الحداد وسارت قاصدة أوروبا عن طريق المغرب والشام، ففتح لها الغرب صدره، وفعل ملوكه بالعلوم العربية ما فعله العرب بالعلوم اليونانية. وأخذ ظل العلوم يتقلص من الشرق ويمتد في الغرب حتى آل الأمر إلى ما نحن عليه الآن!

العلوم الأدبية

علم الأدب:

كان للأدب في عهد بني أمية ما للعلم في عهد بني العباس من سموِّ المكانة وفرط العناية لحداثة عهد القوم بالبداوة، وتمدّح رجالاتهم باللسن، وحاجتهم إلى فُصَح اللغة وطرَف الشعر في استجلاء غامض الكتاب، واستيضاح غريب السنة، والاستشهاد على ضوابط النحو، وآكتساب ملكة اللسان. وكان الأدب إذ ذاك إنما يؤخذ من الأفواه يُحفظ في الصدور وتُضرب إلى مظانّه أكباد الإبل. فلما بزغ هلال العصر العباسي وخامر العربَ داء العجمة وآستشرى فساد اللحن، وآختص بالرحلة إليه والتلمُّس له طائفة من العلماء شهروا بالرواة، كحماد الراوية (١٥٦) والخليل بن أحمد (١٧٥)، وخلف الأحمر (١٨٠)، وأبي عبيدة (٢٠٩)، وأبي زيد الأنصاري (٢١٥)، والأصمعي (٢١٦). كانوا يُرودون البادية ويداخلون الأعراب ابتغاء لخبر مستملح، أو شعر مستطرف، أو كلمة غريبة.

وظل الشأن في رواية الأدب للسماع والحفظ، حتى مست الحاجة إلى التدوين لاستعجام العرب واتساع دولتهم. فأخذ العلماء يدونون ما يسمعون. بدأ بذلك أبو عبيدة والأصمعي؛ ولكن الحافظ هو أول من ضم شتيت الأدب وآستوعب أطرافه بكتابيه البيان

والتبيين والحيوان. ثم تتابع العلماء بعده على التصنيف فيه كالمبرد صاحب الكامل، وابن قتيبة صاحب أدب الكاتب، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وأبي علي القالي صاحب الأمالي، وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني هؤلاء هم رجال الأدب ومراجعه، وكتبهم هي موارده ومشارعه.

الأدبـــاء

٥٩ ـ الأصمعـي
٧٤٠ ـ ٨٣١ م
١٢٣ ـ ٢١٦ هـ

حياته وعلمه:

وُلد أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب الأصمعي (نسبة إلى جده أصمع) سنة ١٢٣ هـ في بيت عربي عريق في الكتابة، ونشأ بالبصرة، وأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمتها. ونقل عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفدون إلى البصرة، وأكثر الخروج إلى البادية، وشافه الأعراب وساكنهم، وربما استغرقت بعض رحلاته سنوات يحج في أثنائها ويلتقي بالفصحاء في المواسم حتى آجتمع له من الأخبار النوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره وكان معاصراً لأبي عبيدة منافساً له في اللغة والرواية. وقد فاضل أبو نواس بينهما فقال «إن أبا عبيدة لو أمكنوه لقرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين. وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته. وحدث الأصمعي عن نفسه قال: «حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع فقال لي: كم كتابك في الخيل؟ فقلت مجلد واحد فسأل أبا عبيدة عن كتابه فيها فقال خمسون مجلداً؛ فقال قم إلى هذا الفرس وأمسك كل عضو منه وسمّه، فقال: لست بيطاراً، وإنما هذا شيء أخذته عن العرب. فقال لى قم يا أصمعي وآفعل أنت ذلك. فقمت وأمسكت ناصيته وجعلت أسميه عضواً عضواً، وأنشدت ما قالت العرب فيه إلى أن فرغت منه؛ فقال خذه فأخذته وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه» وهذه الحكاية مع دلالتها على فرق ما بين الرجلين تدل على قوة ذا كرة الأصمعي وشدة حافظته. فلا بدع إذ قال إنه يحفظ آثني عشر ألف أرجوزة. وكان الأصمعي مع آشتهاره بالثقة في الرواية والتضلع من اللغة مشهوراً بنقد الشعر

---

٥٩ ـ انظر ترجمته في: التاريخ الكبير: ٤٢٨/٥، والمعارف لابن قتيبة: ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤، والجرح والتعديل: ٣٦٣/٥، ومراتب النحويين: ٤٦ ـ ٦٥، وطبقات النحويين للزبيدي: ص ١٦٧ ـ ١٧٤، وتاريخ بغداد: ٤١٠/١٠ ـ ٤٢٠، والأنساب للسمعاني: ٢٩٣/١، وإنباه الرواة: ١٩٧/٢ ـ ٢٠٥، وتهذيب الأسماء واللغات: ٢٧٣/٢، وانظر الأعلام للزركلي: ١٦٢/٤.

أيضاً، أخذ ذلك عن خلف الأحمر. وله في الشعر والشعراء آراء عالية. وهو على ظَرْفه شديد الورع كثير الاحتراز في تفسير الكتاب والسنة. فإذا سئل عن شيء منهما كان يقول: العرب تقول معنى هذا كذا ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة. وما زال نديماً للخليفة الرشيد حتى توفي. فلما ولي المأمون وقامت الفتنة بخلق القرآن خاف على دينه وقبع في كسر بيته، وحرص المأمون على أن يصير إليه، فآحتج بكبر سنه وضعفه، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها. ورُئِي بعد ذلك راكباً حماراً دميماً، فقيل له: «أبعد براذين الخلفاء تركب هذا؟ فقال هذا وأملك ديني أحب إليّ من ذاك مع فقده». وهكذا رضي من العيش بالكفاف حتى توفي سنة ٢١٦، وله من العمر تسعون سنة.

مؤلفاته:

ترك الأصمعي من المصنفات ما ينيف على آثنين وأربعين مصنفاً أكثرها في اللغة، ككتاب خلق الإنسان، وكتاب الأجناس، وكتاب الخيل، وكتاب النبات، وكتاب النوادر، وكتاب معاني الشعر، وكتاب الأراجيز، وأغلبها غير مطبوع.

٦٠ ــ أبو الفرج الأصبهاني
٨٩٧ - ٩٦٧ م
٢٨٤ - ٣٥٦ هـ

نشأته وحياته:

أبو الفرج علي بن الحسين المرواني ولد بأصبهان ونشأ ببغداد وآختلف إلى العلماء والرواة، فسمع الحديث والأخبار، وروى الأنساب والأشعار، وتوسع في النجوم والسيِّر والبيطرة والطب فنُبه ذكره وظهر فضله، والشرق تتنازعه دول مختلفة، فآستطاع أن ينقلب بين هؤلاء الخصوم يفيدهم بأدبه، ويمتعهم بكتبه، ويستفيد من مالهم، ويتقوّى بنفوذهم. وما كان عطاء ملوك الشرق ليكفيه، فكان يؤلف الكتب للأمويين، بالأندلس سراً فينعمون عليه. وكان يجاهر بالتشيع وهو أموي تَقِيَّةً للشيعة ومداراة؛ لأنه في بلادهم نشأ وبفضلهم ظهر.

---

٦٠ ـ انظر ترجمته في: يتيمة الدهر: ٣/١٠٩ ـ ١١٣، وذكر أخبار أصبهان: ٢/٢٢، والفهرست: هي ١٦٦ ـ ١٦٧، والمنتظم: ٧/٤٠ ـ ٤١، ومعجم الأدباء: ١٣/٩٤ ـ ١٣٦، الكامل في التاريخ: ٨/٥٨١، ومرآة الجنان: ٢/٣٥٩ ـ ٣٦٠، وتاريخ بغداد: ١١/٣٩٨ ـ ٤٠٠، وهدية العارفين: ١/٦٨١، ومفتاح السعادة: ١/١٨٤، وانظر الأعلام للزركلي: ٤/٢٧٨.

وكان أكثر الناس حدباً عليه وإيثاراً له، الوزير المهلبي وزير معز الدولة ابن بويه. فآنقطع إليه ومدحه ونادمه حتى مات ببغداد سنة ٣٥٦ هـ وقد خولط قبل موته.

أخلاقه وعلمه:

كان هذا الرجل على ظرفه وأدبه، سليط اللسان، مخشيّ البادرة، تتقيه الملوك والأمراء لعلمه بالأنساب ومثالب البيوتات. وكان قذر الهيئة رث الثوب لا يغسله ولا يبدله. والوزير المهلبي على تنطسه وترفه كان يحتمل كل هذا منه لعلمه وحسن حديثه. فقد كان كما قدمنا ملماً بأشتات العلوم، راوياً لمختار المنثور والمنظوم، ثقة فيما يحدِّث، ناقداً لما يسمع. ولم يكن أبو الفرج شاعراً مطبوعاً وإنما كان كاتباً معدوداً، ومؤلفاً قديراً، ومصنفاً مجيداً، وراوية أميناً. وحسبه ميزة وشرفاً كتابه المسمى بالأغاني.

كتاب الأغاني:

أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف في بابه مثله، وأن كل كتاب في الأدب كلٌّ عليه، ولولاه لضاع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بني أمية؛ ألفه في خمسين سنة، وبناه على مائة الصوت التي اختيرت للرشيد وزيدت للواثق، وعلى ما تخيره هو من عيون الأغاني، فترجم بقائليها ومغنيها، وذكر ما يدخل فيها من حرب وحب وشعر وفكاهة؛ وحمله إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار وآعتذر إليه. وكان الصاحب بن عباد إذا سافر حمل كتبه على ثلاثين جملاً. فلما آقتناه آستغنى به عنها. وهو أجزاء كثيرة طبع منها عشرون جزءاً في سنة ١٢٨٥ هـ، ثم عثر أحد المستشرقين على جزء آخر في إحدى مكاتب أوروبا فكملت الأجزاء واحداً وعشرين، وضع لها الأستاذ جويدي الإيطالي فهرساً أبجدياً مطولاً بالفرنسية طبعه في ليدن سنة ١٩٠٠ م ثم نقل هذا الفهرس إلى العربية في مصر وطبع بها هو والكتاب سنة ١٣٢٢ هـ. وتقوم دار الكتب المصرية الآن بطبعه طبعة متقنة مُنَقَّحة بمعونة سَرِي من سراة المصريين ولم يتم وقد آختصره أبو الفرج في مجلد واحد فقد مع سائر كتبه.

نموذج من شعره:

قال يمدح الوزير المهلبي:

ولما انتجعنا لائذين بظله ... أعان وما عَنى ومنَّ وما منَّا
وَرَدْنا عليه مُقْتَرِينَ فَراشنا ... وَرُدْنا حماهُ مجْدِبين فأخصبنا

وقال يخاطبه من قصيدة:

فداؤك نفسيَ، هذا الشتاء ... علينا بسلطانه قد هجم
ولم يبق من نشبي درهم ... ولا من ثيابي إلا رمم
يؤثر فيها نسيم الهواء ... وتخرقها خافيات الوَهم

فأنت العماد ونحن العفاة   وأنت الرئيس ونحن الخدم

علم النحو

جاء هذا العصر والنحو علم يدرس في المساجد ويدوَّن في الكتب، وقد أُحكمت روابطه، وحُققت ضوابطه، وأشبع الكلامَ فيه علماء المصريين: البصرة والكوفة. وإلى الأولين يرجع الفضل في تكوينه وتدوينه. فمنهم أبو الأسود الدؤلي واضعه، وابن إسحق الحضرمي مُعلِّلُهُ، وهرون بن موسى ضابطه، وعيسى ابن عمر أول من أَلف فيه، وسيبويه واضع كتابه ومهذب أبوابه. ولم يشتغل به الكوفيون إلا بعد ذيوعه بالبصرة وما جاورها: أخذوه عن البصريين وجاروهم في تلقينه وتدوينه، ونافسوهم في تحصيله وتفصيله. وآشتد الحجاج واللجاج بين الفريقين حتى كان لكل منهما مذهب يؤيده ويعضده. ومنشأ الخلاف بينهما أن البصريين يقدمون السماع: فلا يرون القياس إلا في حال تضطرهم، ويتشددون في الرواية، فلا يأخذون إلا عن الفصحاء الخلّص من صميم العرب لكثرة هؤلاء بالبصرة، وقربها من عامر البادية. أما الكوفيون فلخلاطهم أهل السواد والنبط يعتمدون في أكثر المسائل على القياس، ولا يتحرجون في الأخذ عن أعراب لا يؤمن البصريون بفصاحة لغتهم. فأهل البصرة أوسع دراية، وأوثق رواية؛ ولكن العباسيين آثروا الكوفيين عليهم لالتجائهم إليهم، ولقرب الكوفة من بغداد وتشيعهم لبني هاشم. فآنتشر مذهبهم في حاضرة الخلافة. ولولا الغرض السياسي ما كان لهم شأن يذكر ولا قول يؤثر. وظل الجدل بين الفريقين على أشده حتى تخرب المصران، فجلا علماؤهم إلى بغداد، ونشأ مذهب البغداديين خليطاً من المذهبين، كما نشأ مذهب الأندلسيين حينما عبر النحو إلى الأندلس. وما ابتدأ القرن الرابع حتى انقرضت فرسان المذهبين، وضعفت أنصار الفئتين، فآنقطع النزاع، وآنحسم الجدال، وجرى المؤلفون على المذهب البصري فبسطوه وشرحوه وآقتصروا من المذهب الكوفي على ذكر الخلاف.

ثم طال الكلام بعدئذ في هذا العلم فتباعدت حدوده، وتشعبت أطرافه، حتى جاء المتأخرون فقصروا ذلك الطول وآقتصروا على المبادىء كما فعل ابن مالك في التسهيل، والزمخشري في المفصل. على أن هذا العلم مُنِي بطائفة من فلاسفة النحاة وسَّعوا الجدل فيه، فقلّبوا وجوه الألفاظ، وأحيوا مَوت اللغات، وخلطوا الشاذ بالصحيح، وجاؤا بالتعديلات الباردة والتقديرات الفاسدة والأقوال المتضاربة، حتى وصلوا بالنحو إلى حال لا يعجز فيها المخطىء عن قول يبرر به وهمه، وحجة يؤيد بها زعمه.

وها نحن أولاء نترجم بأربعة من نابهي النحاة عدا من تُرجم به منهم في غير هذا الباب، واقفين عند ذلك جرياً على ما نهجناه لأنفسنا في هذا الكتاب.

النُّحـاة

٦١ - سِيبَوَيْه

٧٦٥ - ٧٩٦ م

١٤٨ - ١٨٠ هـ

نشأته وحياته:

وُلد إمام البصريين أبو بشـر عمرو بن عثمـان الملقب بسيبويـه (رائحة التفـاح) ببلاد فارس ونشأ بالبصرة. وكان في بدء أمره يطلب الحديث والفقه، حتى كان ذات يوم يستملي على حماد بن سلمة، فأملى عليه قول النبي ﷺ: «ليس من أصحابي أحدٌ إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء»، فقال سيبويه: «ليس أبو الدرداء» فصاح به حماد: لحنت يا سيبويه؛ إنما هذا استثناء» فقال: «لا جرم لأطلبن علماً لا يلحنني معه أحد» فـطلب النحو ولازم الخليل، وأخذ عن يونس وعيسى بن عمر، حتى حذَق هذه الصناعة وأحاط بأصولها وفروعها، ووقف على شاذها ومقيسها. ثم وضع كتابه المشهور سرد فيه ما أخذه عن الخليل وأضاف إليه ما نقله عن نحاة المصرين ناسباً إلى كل منهم قوله. فجاء كتابه فريداً في فنه، سديداً في منهجه، ليس وراءه مذهب لطالب ولا مَرَاغ لمستفيد، وقد بلغ من إجلال القوم لهـذا المؤلف أن آقتصروا في تسميتـه على «الكتاب» فـإذا أطلق هذا اللفظ عنـد النحاة لا ينصرف إلا إليه. وكـان المبرر إذا أراد مـريد أن يقـرأه عليه يقـول له: «هل ركبت البحر؟» تعظيماً له واستصعاباً لما فيه. وقال أبو عثمان المازني: «من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد سيبويه فليستح» ولولا هذا الكتاب لخمل ذكر صاحبه.

ولما آنس سيبويه من نفسه التفوق في النحو وفد إلى بغداد وقصد البرامكة، والكسائي يومئذ بها يعلم الأمين ابن الرشيدفجمع بين الرجلين يحيى بن خالد. فتناظرا في مجلس أعدَّ لذلك. فكـان من أسئلة الكسائي لسيبـويه قـوله: مـا تقول في قـول العرب «كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها» فقال سيبويه «فإذا هو هي، ولا يجوز النصب»

---

٦١ - انظر ترجمته في: طبقات النحويين: ص ٦٦ - ٧٤، والفهرست: ١/٥١ - ٥٢، وبغية الوعاة: ٢/٢٢٩ وأخبـار النحـويين البصـريين: ص ١٥ - ١٦، ووفيـات الأعيـان: ١/٤٨٧ - ٤٨٨، ومـرآة الجنـان: ١/٤٤٥، والبـداية والنهـاية: ١/١٧٦ - ١٧٧، ومفتـاح السعـادة: ١/١٢٨ - ١٣٠، ونفـح الـطيب: ٢/٣٨٧، والأعلام للزركلي: ٥/٨١.

ووجد في الأصل لهذا الكتاب: أن سيبويه قد توفي سنة ١٧٧ هـ وهو خطأ، وصوبناها من كتاب: سير أعلام النبلاء: ٨/٣٥١، وكذلك من كتاب: الأعلام للزركلي: ٥/٨١: أنه توفي سنـة ١٨٠ هـ وقيل سنة ١٨٨ هـ والأول أصح ١٠ هـ.

فقال الكسائي «بل العرب ترفع ذلك وتنصبه» فلما آشتد الخلاف بينهما تحاكما إلى أعرابي خالص اللهجة، فصوّب كلام سيبويه ولكن الأمين تعصب للكسائي لأنه معلمه ولأنه كوفي وضلع الخلفاء كما علمت مع هؤلاء - فأراد الأعرابيَّ على أن يقول بمقالة الكسائي. فلما أحس سيبويه تحامل الأمراء عليه وقصدهم بالسوء إليه غادر بغداد وآرتد مغموماً إلى قرية من قرى شيراز تعرف بالبيضاء حيث توفي بالغاً من العمر أربعين سنة ونيفاً.

٦٢ ـ الكسائي
٧٣٥ ـ ٨٠٥ م
١١٩ ـ ١٨٩ هـ

نشأته وحياته:

هو إمام الكوفيين أبو الحسن علي بن حمزة الملقب بالكسائي. نشأ بالكوفة وأخذ القراءة عن حمزة الزيات، وتميز بقراءة خاصة فعدًّ من القراء السبعة ولم يكن له يد في الشعر، حتى قيل «ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر» وبلغه الكبر وهو لايدري من النحو شيئاً؛ فأقبل ذات يوم على بعض إخوانه من طلاب العربية وقال متأوهاً من مَشْيٍ طويل: «لقد عبيت!» فقالوا له تجالسنا وأنت تلحن!» فقال كيف لحنت؟ فقالوا له: «إن كنت أردت من التعب فقل أعييت. وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة فقل عبيت» فأنف من ذلك التجبيه ولازم معاذاً الهراء والرؤاسي من نحاة الكوفة حتى حصَّل ما عندهما. وزار الخليل بالبصرة فأعجب به وسأله: أنى لك هذا العلم؟ فقال الخليل: من بوادي الحجاز ونجد تهامة. فخرج الكسائي إلى البادية فطاف أحياءها، وسمع فصحاءها، حتى آستكمل حظه من الرواية، وآستوفى قسطه من اللغة. ولما رجع من البادية استقدمه المهدي واستخلصه لنفسه. ثم أقامه الرشيد مؤدباً لولده الأمين. وعظمت مكانته عنده حتى كان يجلسه هو والقاضي محمد بن الحسن على كرسيين متميزين بحضرته ويأمرهما ألا ينزعجا بقيامه ومجيئه. ومكثا معه على هذه المنزلة حتى خرج إلى الري وهما بصحبته، فماتا في يوم واحد بِرَنْبويه على مقربة من الري فبكاهما وقال: «دفنت الفقه والعربية بالري».

مؤلفاته:

انتهت إلى الكسائي الزعامة في العربية والقراءة بالكوفة وبغداد وألف فيهما نحواً من

---

٦٢ ـ انظر ترجمته في: التاريخ الصغير: ٢٤٧/٢، ومراتب النحويين: ص ٧٤، ٧٥، وطبقات النحويين: ١٣٨، ١٤٢، والفهرست: ص ٢٩، وتاريخ أبي الفداء: ١٧/٢، ودول الإسلام: ١٢٠/١، وطبقات المفسرين: ٣٩٩/١، ومعرفة القراء: ١٠٠/١ ـ ١٠٧، وتاريخ بغداد: ٤٠٣/١١، وسير أعلام النبلاء: ١٣١/٩، والأعلام للزركلي: ٢٨٣/٤.

عشرين كتاباً. منها كتاب معاني القرآن. وكتاب النحو. وكتاب النوادر، وكتاب الهجاء، ورسالة في لحن العامة.

٦٣ ــ الفـرّاء
٧٦١ - ٨٢٢ م
١٤٤ - ٢٠٧ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء بالكوفة. ولزم الكسائي حتى استمد منه وتخرج عليه. وشافه الأعراب وأخذ عنهم. ثم نظر في علوم كثيرة من الطبيعة والنجوم وأخبار العرب وأشعارها، فآمتاز بذلك من أستاذه الكسائي. وكان ميالاً إلى مذهب المعتزلة. ويحب النظر في علم الكلام عن غير أن يكون له طبع فيه، فآكتسب بذلك ملكة النظام والترتيب، وقوة الاستنباط والتعليل، ولا يعرف في الكوفيين من خدم اللغة العربية غيره. قال أبو العباس ثعلب: (لولا الفراء لما كانت اللغة العربية. لأنه حصّلها وضبطها ولولاه لسقطت) وقال أبو بكر الأنباري: (لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء لكان لهم بهذا الافتخار على جميع الناس).

ولما عظم أمره خرج إلى بغداد فمهد له الكسائي الإقامة بها وخلفه على درسه بعد موته. فلما ولي المأمون اتصل به ونفق عنده وعهد إليه بتعليم ولديْه الأدب، وآقترح عليه أن يؤلف ما يجمع أصول النحو وما سمع من العربية. وأمر أن تُفرد له حجرة من الدار ووكل به جواري وخدماً، وسير الوارقين يكتبون ما يملي حتى صنف كتاب الحدود في سنتين. ثم خرج للناس فأملى كتاب المعاني فخزنه الوراقون عن الناس ليكتسبوا بنسخة كل خمس أوراق بدرهم. فشكا الناس إليه. فلما أبوا إخراج كتابه أخذ يملي كتاباً آخر في المعاني أطول وأوسع فخاف الوراقون ورضوا أن ينسخوا كل عشر أوراق بدرهم.

وعظم قدر الفراء في الدولة حتى تسابق ولدا المأمون إلى تقديم نعليه إليه حينما يهم بالخروج، ثم آصطلحا على أن يقدم كل منهما فرداً. وبلغ المأمون ذلك فآستدعاه وقال له: «مَن أعزّ الناس؟» فقال «ما أعرف أعزّ من أمير المؤمنين» قال: «بلى، من إذا نهض تقاتل

---

٦٣ ـ انظر ترجمته في: أخبار النحويين البصريين: ص ٥١، ونزهة الألباء: ص ٩٨، والمختصر في أخبار البشر: ق/٣٠، وتذكرة الحفاظ: ١/٣٧٢، وبغية الوعاة: ٢/٣٣٣، ومفتاح السعادة: ١/١٧٨ ـ ١٨٠، ووفيات الأعيان: ٦/١٧٦ ـ ١٨٢، ومرآة الجنان: ٢/٣٨ ـ ٤١، والأعلام للزركلي: ٨/١٤٥ ـ ١٤٦.

عَلَى تقديم نعليه ولِيًّا عهد المسلمين» فقال: «يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكني خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، أو أكسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها»، فقال له المأمون: «لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً. وما وضَع ما فعلاه من شرفهما، بل رفَع من قدرهما وبيَّن من جوهرهما، وليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه ووالديه ومعلمه».

وللفراء مؤلفات كثيرة كان يمليها عَلَى تلاميذه دون كتاب لقوَّة حافظته. وكان أكثر مقامه في بغداد، فإذا كان آخر السنة خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً بين أهله يفرق عليهم ما جمع حتى توفي سنة ٢٠٧ هجرية.

٦٤ ـ ابن الحاجب

١١٧٤ ـ ١٢٤٩ م

٥٧٠ ـ ٦٤٦ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب بإسنا من صعيد مصر. وكان أبوه كردياً يتولى الحجابة للأمير عز الدين موسك الصلاحي فقدم القاهرة صغيراً وآشتغل بالقرآن حتى حفظه، وتفقه في الدين على مذهب الإمام مالك. وتلقى القراءات وشارك في سائر العلوم، وغلب عليه علم العربية. ورحل إلى دمشق فقرأ بجامعها أمالي في النحو على مواضع من المفصل والكافية ثم عاد إلى الاسكندرية فقضى بها نحبه سنة ٦٤٦ هـ.

مؤلفاته:

له من المؤلفات كتابا الكافية والشافية في النحو، وكتاب المقصد الجليل في علم الخليل في العروض، والأمالي النحوية، ومنتهى السؤال والأمل، في علم الأصول والجدل، وهو مطول على مذهب الإمام مالك اختصره في كتاب يعرف بمختصر ابن الحاجب، وكتاب جامع الأمهات في الفقه.

علم اللغة

فسدت ملكة اللسان في الحركات فآستنبط العلماء قوانين لضبطها فما أغنت عن اللغة

---

٦٤ ـ انظر ترجمته في: ذيل الروضتين: ص ١٨٢، وطبقات القراء: ٢/٥١٦ ـ ٥١٧، العبر: ٥/١٨٩، الطالع السعيد: ص ١٨٨، وشذرات الذهب: ٥/٢٣٤، والديباج المذهب: ٢/٨٦ ـ ٨٩، ووفيات الأعيان: ٣/٢٤٨ ـ ٢٥٠، وغاية النهاية: ١/٥٠٨ ـ ٥٠٩، والأعلام للزركلي: ٤/٢١١.

وما بطَّأت باللحن. بل تطرق ذلك الفساد إلى مدلولات الألفاظ وآستعمالها، ففزعوا في حفظها إلى الكتابة والتدوين خَنّاً بكتاب اللّٰه ولسان العرب على الجهالة والدروس. بدأ بذلك بعض أئمة العربية فأملوا كتباً صغيرة في الألفاظ الخاصة بخلق الإنسان أو الجمل أو الخيل أو النبات. فلما جاء الخليل بن أحمد مهد الطريق إلى ضبط اللغة وتدوينها بوضعه كتاب (العين)، فإنه أحصى ما يتركب من حروف المعجم من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي بمتوالية حسابية أبانت له عدد المهمل والمستعمل، ورتبه على مخارج الحروف من الحلق فاللسان فالأسنان فالشفتين، وبدأ بحروف العلة. وقد اختصره أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة ٢٧٩ لهشام المؤيد بالأندلس، وشاع هذا المختصر حتى فضل على أصله. ومضى على معجم الخليل أكثر من قرن لم يدوّن في اللغة غيره، حتى جاء أبو بكر ابن دريد فآستمد منه ومن غيره كتاب الجمهرة ورتبه على حروف المعجم، وتلاه الأزهري فصنف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل. ثم وضع الجوهري من المشرقيين كتاب الصحاح، وابن سيده من الأندلسيين كتاب المحكم، وابن فارس كتاب المجمل. وتلك هي أصول المعجمات وأسسها. أما غيرها من العباب والتكملة والنهاية ولسان العرب والقاموس فهي جمع لها أو اختصار.

ومما يحمل التنبيه إليه والثناء عليه كتاب فقه اللغة للثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ فقد فرق فيه بين الوضع والاستعمال، وجمع به المعاني المترادفة والمتقاربة في باب واحد، مبنياً ما بينها من فروق وما نالها من تدرج أو تفرع؛ وكتاب أساس البلاغة للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨، فإنه بيَّن فيه ما تجوزت به العرب من الألفاظ والمدلولات. وإنك لتجد في هذين الكتابين من الكشف عن خصائص اللغة، والفحص عن أسرار العربية، ما لا غُنية عنه لكاتب، ولا غاية بعده لطالب.

اللغويون

٦٥ ـ الخليل ابن أحمد

٧١٨ ـ ٧٨٦ م

١٠٠ ـ ١٧٤ هـ

نشأته وحياته:

ولد أحمد أو عبد الرحمٰن الخليل بن أحمد الفراهيدي بالبصرة ونشأ بها؛ وأخذ النحو

---

٦٥ ـ انظر ترجمته في: التاريخ الكبير: ٣/١٩٩ ـ ٢٠٠، وطبقات ابن المعتز: ص ٩٦ ـ ٩٩، وطبقات النحويين: ص ٤٧ ـ ٥١، ومعجم الأدباء: ١١/٧٢ ـ ٧٧، وإنباه الرواة: ١/٣٤١ ـ ٣٤٧، والبلغة في =

والقراءات والحديث عن أئمة العربية وعليه الرواة كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر. ثم أبْدَى فسمع الفصيح وجمع الغريب حتى نبغ في اللغة نبوغاً لا يعرفه التاريخ لغيره. وأخذ عن سيبويه وعن نفر من الأئمة كالنضر بن شميل ومؤرج السدوسي. وبقي بالبصرة مقيما طول حياته على فاقة وتقشف، نزوعاً بنفسه عن مواقف الضراعة، وتجافياً بها عن مطارح الهوان؛ حتى قيل إن سليمان بن علي وجه إليه من الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزًا قفاراً وقال له: «كلْ، فما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة بي إلى سليمان» وانكب ذلك الرجل العظيم على العلم يستنبط ويؤلف ويعلم حتى ذهبت نفسه في سبيله. فقد رُوي أنه قال: أريد أن أعلم نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البقال فلا يظلمها. فدخل المسجد وهو يُعمل فكره، فاصطدم في سارية صدمة شديدة ارتج منها مخه رجة أودت بحياته.

علمه وعمله:

كان الخليل غاية في تصحيح القياس وتعليل النحو واستنباط مسائله وأكثر كتاب سيبويه منقول عنه أو مستمد منه. وكان على معرفة بالموسيقى. وضع أول كتاب فيهاعلى غير إلمام أجنبية ولا علم بآلة موسيقية. وساعده بصره بالنغم على اختراع علم العروض لما بين الإيقاع في الأنغام والتقطيع في الأجزاء من الشبه؛ فضبط أوزان الشعر الخمسة عشر، وحصرها في دوائرها الخمس ووقعها على المقاطع والحركات. وشغل بذلك نفسه ووقته حتى كان يقضي الساعات في حجرته يوقع بأصابعه ويحركها. فاتفق أن رآه ولده على تلك الحال فظن به مساً من خيال، فقال له الخليل.

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني ... وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

والخليل أول من ضبط اللغة، وابتكر المعجمات، ووضع للخط هذا الشكل المستعمل.

مؤلفاته:

ألف كتاب العين في خراسان وسماه بأول لفظ منه كعادة السلف ووافته المنية دون إتمامه، فقصد إلى ذلك بعض تلاميذه فقصر عنه، فجاء الكتاب مضطرباً مختلاً. وله غيره كتاب النغم، وكتاب العروض، وكتاب الشواهد، وكتاب النقط والشكل. وكتاب الإيقاع.

= تاريخ أئمة اللغة: ص ٧٩، وتهذيب التهذيب: ٣/١٦٣ - ١٦٤، وخلاصة تذهيب الكمال: ص ١٠٦، والأعلام للزركلي: ٢/٣١٤.

٦٦ ـ ابن دُرَيْد
٨٣٨ ـ ٩٣٣ م
٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ

نشأته وحياته:

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ولد بالبصرة ونشأ بها وأخذ العلم عن علمائها كالرياشي والسجستاني، ثم غادرها في فتنة الزنج إلى عمان، فأقام بها اثنتي عشرة سنة يأخذ اللغة والشعر عن الأعراب. ثم عاد إلى البصرة ومنها شخص إلى بلاد فارس منتجعاً الشاه ابن ميكال وولده، وهما يومئذ على عمالة فارس، وألف لهما كتاب الجمهرة في اللغة، وامتدحهما بالمقصورة، فقلداه الديوان فكانت تصدر كتب فارس عن رأيه، ولا ينفذ أمر إلا بتوقيعه. ولما عزل ابنا ميكال عن عمالة فارس وانتقلا إلى خراسان قدم ابن دريد إلى بغداد عام ٢٨٠ فاحتفى به الوزير علي بن الفرات وأفضل عليه. وعلم الخليفة المقتدر به وبمكانهِ من العلم فأجرى عليه خمسين ديناراً في كل شهر كفته مؤونة السعي فانقطع إلى العلم والأدب، وعكف على التأليف، حتى أصيب بالفالج فمات سنة ٣٢١.

أخلاقه وعلمه:

كان ابنْ دُرَيْد مولعاً بآلات الطب. مدمناً للخمر، مفيداً للمال، مبيداً له في اللهو والهبات، حتى أن سائلاً سأله شيئاً فلم يجد ما يعطيه إياه إلا دَنَّ نبيذ. فأنكر عليه غلامه أن يتصدق به فقال: ليس عِندي سواه. وقرأ قوله تعالى: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِما تُحِبّون**﴾[1] ثم اتفق أن أُهدي إليه بعد ذلك عشرة دنان، فقال لغلامه: الحسنة بعشر أمثالها. أخرجنا دناً فجاءنا عشرة.

وقد نبغ ابن درَيد في اللغة والأدب والأنساب وقام في ذلك مقام الخليل بن أحمد. وبرع في الشعر حتى قيل فيه: إنه أفقه الشعراء وأشعر الفقهاء. وقد وضع على العرب أربعمائة حديث سلك فيها مسلك الرواية والحكاية. وتوخى فيها جمال الإنشاء، فدل بها على قوة طبعه في الكتابة. وهي منثورة في خلال كتب الأدب لا تكاد تميزها مما يروى عنه

---

٦٦ ـ انظر ترجمته في: مروج الذهب: ٥١٨/٢، ومعجم الشعراء: ٤٢٥، وغاية النهاية: ١١٦/٢، ومعجم الأدباء: ١٢٧/١٨ ـ ١٤٣، والوافي بالوفيات: ٣٣٩/٢ ـ ٣٤٣، وطبقات الشافعية: ١٣٨/٣ ـ ١٤٢، وتاريخ بغداد: ١٩٥/٢ ـ ١٩٧، ووفيات الأعيان: ٣٢٣/٤ ـ ٣٢٩، والأعلام للزركلي: ٨٠/٦.

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٩٢.

من الأخبار والنوادر. ويُظن أنها كانت الملهم الأول لابتداع فن المقامات، وله نظم جزل رقيق يدل على ملكة قوية وقريحة سخية، خيره مقصورته، وهي تسعة وعشرون ومائتا بيت، جمعت كثيراً من أخبار العرب وأمثالهم وحكمهم: وقد شرحها كثير من العلماء وعارضها غير واحد من الشعراء: يقول في مطلعها:

إمَّا ترى رأسيَ حاكى لونه ... طُرَّة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسودِّه ... مثل اشتعال النار في جزل الغضا

ومنها:

والناس كالنبت فمنه رائق ... غضٌ نصيرُ عُوده مُرُّ الجنى
ومنه ما تقتحم العين، فإن ... ذقت جناه انساغ عذباً في اللّها
والناس ألف منهُم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عني
وللفتى من ماله ما قدمت ... يداه قبل موته لا ما اقتنى
وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى
واللوم للحر مقيم رادع ... والعبد لا يردعه إلا العصا
وآفة العقل الهوى، فمن علا ... على هواه عقلهُ فقد نجا
كم من أخ مسخوطة أخلاقه ... أصفيته الود لِخُلق مرتضى
إذا بلوت السيف محموداً فلا ... تذممه يوماً أن تراه قد نبا

مؤلفاته:

له غير المقصورة كتاب الجمهرة في اللغة، وكتاب الاشتقاق في أسماء القبائل والعمائر وشعرائها وفرسانها، وكتاب السحاب والغيث، وأخبار الرواة وغير ذلك.

علوم البيان

الغالب في الظن أن أول من تكلم في علم البيان أبو عبيدة فى كتابه مجاز القرآن عقب أن سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿طلعها كأنه رءوس الشياطين﴾[1] فأجاب بأنه كقول امرىء القيس:

أيقتلني والمشرفيُّ مُضاجعي ... ومسنونةٌ زُرقٌ كأنياب أغوال

وانقضى العصر العباسي الأول ولم يدون في علم المعاني إلا ما أثر عن فحول الكتاب في حد البلاغة جوابًا لسؤال أو عرضاً في مقال، حتى جاءالجاحظ فألمَّ ببعض أغراضه في كتابه البيان والتبيين. وحذا حذوه قدامة الكاتب وأبو بكر بن دريد وأبو هلال

---

(١) سورة: الصافات، الآية: ٦٥.

العسكري؛ إلا أن هؤلاء وإن تكلموا فيه فليسوا واضعيه لقصور كتابتهم وعموم عبارتهم. وإنما يعرف الفضل في وضع هذا الفن للإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١، وللامام أبي يعقوب السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦: ذلك اخترع مباحثه وقعَّد قواعده، وهذا مخض زبدته وماز المعاني من البيان فجعلها علمين مستقلين.

أما علم البديع فأول من ألف فيه عبد الله بن المعتز. جمع منه سبعة عشر نوعاً ووقع معاصره قدامة بن جعفر على عشرين توارد معه على سبعة منها. ثم اقتفاهما الناس بالاستخراج حتى بلغت الأنواع في خزانة الأدب لابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ اثنين وأربعين ومائة نوع!.

ولا تزال هذه الفنون بعيدة عن الكمال لنشوئها عند استضعاف العرب واستعجام اللغة. والمشارقة أقوم عليها من المغاربة، لعناية العجم بها وبعد نظرهم فيها ولم يُعن المغاربة إلا بالبديع لسهولة مأخذه فألحقوه بفنون الشعر وفرعوا ألقابه وعدوا أبوابه.

التاريخ

بدأ تدوين التاريخ عند العرب في مستهل هذا العصر. وكان يومئذ مقصوراً على ما يقتضيه الدين من فروعه «كالمغازي» للوقوف على الأزمنة والأمكنة التي نزلت بها الآيات وقيلت فيها الأحاديث «والفتوح» لعلم ما فتح من البلاد صلحاً أو عنوة، فينتظم أمر الخراج والجزية. «والطبقات» للتعريف برواة الشريعة ووعاة الأدب من الصحابة والتابعين. والعرب أسبق الأمم كافة إلى هذا النوع من التاريخ «والأنساب» لتمييز أشراف القرشيين وسادات القبائل، فتعلم مراتبهم، وتقدر رواتبهم. «وأيام العرب» لتفهم أغراض الشعر بمعرفة أسبابه. وأشهر الكاتبين في هذا النوع على الترتيب ابن إسحق المتوفى سنة ١٥١، والواقدي المتوفى سنة ٢٠٧، وابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠، والكلبي المتوفى سنة ٢٠٦، والأصمعي المتوفى سنة ٢١٦

فلما وقف العرب على ما ترجم من تواريخ الأمم، وانقضت الحاجة إلى التاريخ الخاص بانقضاء أسبابه، خطوا في التاريخ خطوة واسعة، واختطفوا فيه خطة جامعة. فكتب عمدة المؤرخين محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ تاريخه العام مرتبة حوادثه على السنين. فنهج المؤرخون طريقته في التصنيف. وفضلوه بما أدخلوه في كتبهم بعدُ من المباحث العلمية والأدبية كأبي زيد البلخي. صاحب كتاب البدء والتاريخ المتوفى سنة ٢٢٢، والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفى سنة ٣٤٦، وابن النديم صاحب الفهرست المتوفى سنة ٣٨٥ وابن مسكويه صاحب تجارب الأمم المتوفى سنة ٤٢١. ثم عني المؤرخون بتذييل كتب التاريخ المدونة عن التأليف فيه. فتعاقب جماعة منهم على

الطبري بـالتذييـل والتكميل حتى مـدوه إلى سنة ٦١٦. وجـاء خاتمـة مؤرخي هذا العصـر أبو الحسن علي بن الأثير ففصَّل كتابه الكامل من الطبري وذيوله وأضفاه إلى سنة ٦٣٧ هـ.

مذهب العرب في التاريخ

للعرب في كتابة التاريخ طريقتان: إما أن يسردوا السنين وما وقع فيها من الحوادث في أي مكان مُسندة من غير اتصال ولا رابطة، كما فعل ابن جرير الطبري وابن الأثير الجزري وأبـو الفداء. وتلك الـطريقة على إضجـارها القـارىء هي الأصيلة عندهم كمـا يؤخـذ من تسميتهم هذا الفن بالتاريخ: أي التوقيت. خلافًا لتسمية اليـونان إيـاه بالحكـاية أو القصـة لروايتهم الوقائع بأسلوب شائق ونمط بديع. وإما أن يسوقوا الحوادث باعتبار الأمم والدول كما فعل المسعودي وابن الطقطقي وابن خلدون وابن العبري.

على أن أرباب الطريقتين على كثرة ما كتبوا لم يهتدوا إلى طريق الفن، ولم يوفقوا إلى إتقانه، لقلة الوسائل عندهم، وتـأثير الحـاكمين فيهم فجانبـوا سبيل النقـد محابـاة للخلفاء ومهـاواة للملوك، وكالـوا الحوادث جـزافا دون تحقق من صـوابهـا، ولا نـظر في أسبـابهـا وأعقابها، وأمسكوا عن الخوض في أحوال الأمة الاقتصادية والاجتمـاعية والأدبيـة، قانعين بأخبار الحرب والفتح والولاية والعزل والولادة والوفاة، وفاتهم أن تطوّر الأحوال وتغير الميول في طبقات الأمة له أثر عظيم في سياستها. وأعجب الأشياء أن ابن خلدون وهو أسبق علماء الأمم إلى فلسفة التاريخ لم يبرأ من أكثر هذه العيوب.

على أن لمؤرخينا العذر في هذا القصور، فإن فن التاريخ لا يَتَسَنَّى إتقانه إلا بتوفيـر وسـائله واستكمال علومـه: كعلم المسكوكـات، وعلم السجلات، وعلم العـاديـات وعلم الاقتصاد، وعلم الإحصاء، وعلم النقد، وجهل العرب بهذه العلوم كلها أو جلها ساقهم إلى الأخذ بظواهر الحوادث، وعاقهم عن وضع التاريخ بمعناه الحديث.

العلـــوم الشـرعيـــة

عـــلم الحـديـث

كان أبو جعفر المنصور بعد عمر بن عبد العزيز أول من عنى بتدوين الحديث مخافة ذهابه بموت أصحابه. فأمر مالك بن أنس بوضع المـوطأ فوضعه جامعاً بين الحديث والفقه. ثم تبـارى العلماء في تحصيـل الحديث تـوسعاً في الفقـه، وتذرعـاً إلى الفضل، فـراجت بضاعته، وانتشرت روايته، وقضى الله أن يندس بين رجاله كثير من أتبـاع الضلالـة وأشياع الفرق فتقوّلوا على الرسول وأدخلوا زور الحديث على أغفال الرواة فكثرت المفتريات وعُمِّي على الناس الحق. فشمر الأئمة للحديث بالنقد والتمحيص، وللرواة بالجرح والتعديل وكان

أسبقهم إلى ذلك إسحق ابن راهويه المتوفي سنة ٢٣٨ فماز الحديث من الفقه. وتلاه شيخ الحديث البخاري، وإمام السنة مسلم، فجمعا صحاح الأحاديث في كتابيهما ثم ظهر بعدهما أربعة كتب في عصر واحد تمت بها الستة الصحاح. وهي كتاب أبي عيسى الترمذي ٢٧٩، وكتاب أبي داود السجستاني ٢٧٥، وكتاب أبي عبد الرحمن النسائي ٣٠٣، وكتاب أبي عبد الله ابن ماجة ٢٧٣.

وقد أطبق الناس على صحة هذه الكتب فشغلوا بها ما بين جمع وشرح وتلخيص. وكلُّ كتاب بعدها كَلٌ عليها وراجع إليها.

المحدثــون

٦٧ ــ البخاري
٨١٠ - ٨٧٠ م
١٩٤ - ٢٥٦ هـ

نشأته وحياته:

وُلد أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ببخارى ونشأ بها يتيماً. فحفظ القرآن وثقف العربية وطلب الحديث في التاسعة من عمره. ولم يكد يبلغ الحلم حتى حفظ منه عشرات الألوف. وفي سنة ٢١١ خرج إلى مكة حاجاً مع أمه وأخيه. فعاد هذان وتخلف هو للتوسع في الحديث فرحل إلى معظم الممالك الشرقية وروى عن علمائها وأخذ عن فقهائها حتى ارجعه الجد العاثر إلى بلاده فٱبْتُلِيَ فيها بفتنة القول بخلق القرآن، فأفتى بأنه قديم غير مخلوق، فأُخرج من بخارى مطروداً، فلاقته المنية بقرية على ثلاثة فراسخ من سمرقند.

جمع كتابه «الجامع الصحيح» في ست عشرة سنة وضمنه تسعة آلاف حديث تنخلها من ستمائة ألف. وفيها ثلاثة آلاف مكررة بتكرر وجوهها. وقد أجمع العلماء على أنه أصح كتاب في الحديث حتى من «صحيح مسلم».

---

٦٧ ـ انظر ترجمته في: تاريخ بغداد: ٢/ ٤ ـ ٣٤، وطبقات الحنابلة: ١/ ٢٧١ ـ ٢٧٩، ووفيات الأعيان: ١/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧، واللباب: ١/ ٢٣١، وشذرات الذهب: ٢/ ١٣٤ ـ ١٣٦، والوافي بالوفيات: ٢/ ١٦٧ ـ ١٦٩، وطبقات الشافعية: ٢/ ٢ ـ ١٩، ومرآة الجنان: ٢/ ١٦٧ ـ ١٦٩، والأعلام للزركلي: ٦/ ٣٤.

٦٨ ــ مسلم بن الحجاج
٨٢٠ ـ ٨٧٥ م
٢٠٦ ـ ٢٦١ هـ

هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري. ولد سنة٢٠٦ ورحل في طلب الحديث إلى الحجاز والعراق والشام ومصر. وقدم بغداد غير مرة، وأخذ عن البخاري وصادقة ودافع عنه. وروى عن ابن حنبل وابن راهويه، وجمع صحيحه من ثلثمائة ألف حديث. وهو ثاني صحيح البخاري في الصحة والمكانة... ثم ألقى عصا الرحيل بنيسابور، وعاش بها وادعا في ظل ثروته وربح تجارته حتى لقى ربه.

علم الفقه

في صدر الإسلام كانت نشأة هذا العلم، وفي عصر بني العباس كان تحريره وتدوينه ونضجه. وكانت المدينة حينئذٍ عش الفقهاء ومقر المحدثين وكعبة طلاب الفقه ورواة الحديث. فلما استقر ملك العباسيين في العراق انتشر الفقه بين أهله، ونبغ فيه جماعة منهم نهجوا غير سبيل الحجازيين في التشريع. ففقهاء الحجاز لمكانتهم من الرواية وتوسعهم في الحديث بنوا أحكامهم على النصوص، فلا يرجعون إلى القياس الجلي أو الخفي ما وجدوا خبراً أو أثراً. وهم أهل الحديث وزعيمهم مالك بن أنس. وفقهاء العراق لتشددهم في الرواية، وقلة بضاعتهم من السنة، وتأثير الجنسية الآرية فيهم، عمدوا إلى القياس في استنباط الفقه. وهم أصحاب الرأي وزعيمهم أبو حنيفة النعمان. واقتضت سياسة المنصور أنْ يظهر العراق على الحجاز، وبغداد على المدينة، والفرس على العرب، فاستقدم أبا حنيفة إلى بغداد وأكرمه وعزز مذهبه، فانتشر بالعراق وفارس وخراسان والهند والصين والترك. واقتصر مذهب مالك على الحجاز والمغرب الأقصى والأندلس. ثم جاء محمد بن إدريس الشافعي وهو أحد أتباع مالك، فرحل إلى العراق وأخذ عن أصحاب أبي حنيفة مسائل القياس وانفرد بمذهب بين المذهبين وساعدته الرحلة إلى مصر على تنقيح مذهبه، فوضعه وضعاً جديداً ونشره بها ثم نبغ من بعده أحمد بن حنبل فقيس الحديث منه والقياس من بعض الحنفية، واختص بمذهب آخر انتشر في بلاد نجد والبحرين تقيد فيه بالسنة وتشدد في الفروع.

---

٦٨ ـ انظر ترجمته في: الفهرست لابن خير: ص ٢١٢، وتاريخ بغداد: ١٣/١٠٠ ـ ١٠٤، والوافي بالوفيات: ٢/١١٩ ـ ١٢٠ وطبقات الحنابلة: ١/٣٣٧، والتهذيب: ١٠/١٢٦ ـ ١٢٨، والنجوم الزاهرة: ٣/٣٣، وشذرات الذهب: ٢/١٤٤ ـ ١٤٥، ومرآة الجنان: ٢/١٧٤، والأعلام للزركلي: ٧/٢٢١، ومعجم المؤلفين: ١٢/٢٣٢.

وهذه هي المذاهب الأربعة التي قامت على عماد الكتاب والسنة الصحيحة ووقف عندها الاجتهاد وانتهى إليها التقليد في سائر الأمصار.

الفقهـاء

٦٩ ـ أبو حنيفة النعمان

٦٩٩ ـ ٧٦٧ م

٨٠ ـ ١٥٠هـ

نشأته وحياته:

هو النعمان بن ثابت مولى تيم الله من أهل الكوفة، وأصل أبيه من فُرس كابل. كان أول أمره خزّازاً، ثم أقبل على علوم الدين فأخذها عمن شافه الصحابة ونقل عنهم. وآشتهر بالنبوغ فيها حتى أراده المنصور على أن يلي القضاء فأبى وقال: «آتق الله ولا ترعَ في أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب؟» فقال له المنصور: كذبت! أنت تصلح. فقال له: قد حكمت لي على نفسك. كيف يحل لك أن تولى قاضياً على أمانتك وهو كذاب؟.

فلم يقتنع وألقاه في السجن فلبث فيه حتى قبضه الله إليه. والراجح أن هذا سبب مفتعل، وما سجنه المنصور إلا لميله إلى العلويين.

صفته وأخلاقه:

كان أبو حنيفة رَبعة في الرجال تعلوه سمرة، وكان من أحلى الناس نغمة وأجهرهم صوتاً وأطلقهم لساناً. وكان كثير الخشوع، طويل الصمت، قليل الدعوى، بعيداً عن الغيبة، لا يذكر أحداً بسوء ولو كان له عدواً.

علمه وأدبه:

كان راسخ القدم في علوم عصره إلا العربية، فقد كان يرتضخ لكنة أعجمية ولا يقيم لسانه لحناً. وكان قوي الحجة حتى قال عنه الإمام مالك: «إنه رجل لو كلمته في هذه

---

٦٩ ـ انظر ترجمته في: المقالات للأشعري: ١/١٣٨ ـ ١٣٩، والفهرست: ص ٢٠١، وطبقات الفقهاء: ص ٦٧ ـ ٦٨، وتاريخ بغداد: ١٣/٣٢٣ ـ ٤٥٤، والانتقاء: ص ١٢١ ـ ١٧٥، والوافي بالوفيات: ٢/٢١٥ ـ ٢١٩، واللباب: ١/٣٢٥، والجواهر: ١/٢٦ ـ ٣٢، والبداية والنهاية: ١٠/١٠٧، ومرآة الجنان: ١/٣٠٩ ـ ٣١٢.

السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته» وهو أول من بوّب الفقه وحرر فصوله ورتب قياسه وقال فيه بالرأي لكثرة الوضاعين من زنادقة العراق، وحرصه على ألا يأخذ بالشك في دينه. فلم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً. تخرج عَلَيْهِ من فقهاء العراق والكوفة القاضي أبو يوسف (١٨٢) ومحمد بن الحسن (١٨٩) وزفر بن الهذيل (١٥٨) وغيرهم. وقد ينسب إليه كتاب الفقه الأكبر في أصول الدين، وكتاب المخارج في الحيل، ووصيته لأصحابه في الأصول.

٧٠ ـ مالك بن أنس
٧١٢ ـ ٧٩٥ م
٩٥ ـ ١٧٩ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي بالمدينة ونشأ بها، وأخذ العلم عن ربيعة الرأي (١٢٦) وتعمق في علوم الدين حتى صار حجة في الحديث وإماماً في الفقه. قيل إنه أفتى بخلع المنصور ومبايعة محمد بن عبد الله من آل علي، فأحفظ ذلك جعفر بن سليمان عم الخليفة وأمير المدينة فجرَّده وضربه سبعين سوطاً فما آزداد إلا علاء وشرفاً. وما عتم المنصور أن آعتذر إليه وترضاه وقال له: «لم يبق في الناس أفقه مني ومنك. وقد شغلتني الخلافة، فضع للناس كتاباً ينتفعون به وتجنب رُخص ابن عباس وشدائد ابن عمرو وشواذ ابن مسعود ووطئه للناس توطئة» فصنف الموطأ. سمعه عليه المهدي ثم الرشيد سنة ١٧٤ وظاهرا عليه ثوب النعمة. وبقي مشرقاً لنور العلم، وقبلة لرواة الحديث، وعمدة للفتوى حتى أتاه اليقين بالمدينة.

صفته وأخلاقه:

كان مالك أشقر شديد البياض، أصلع كبير الرأس، حسن البزة وقوراً مهيباً عفيفاً لا يحدث إلا على ضوء، ولا يركب دابة في دار الهجرة على ضعفه. وكان أميناً على العلم فلا يترفع أن يقول في الشيء لا يعلمه: (لا أدري).

علمه وفضله:

كان مالك من حجج الله على خلقه. لا يحدث إلا عن صحة، ولا يروي إلا عن ثقة.

---

٧٠ ـ انظر ترجمته في: في المعارف: ص ٢٥٠، ٢٩٠، والديباج المذهب: ص ١٧ ـ ٣٠، والوفيات: ٤٣٩/١، وتهذيب التهذيب: ٥/١٠، وصفة الصفوة: ٩٩/٢، وحلية الأولياء: ٣١٦/٦، والانتقاء ص ٩ ـ ٤٧، واللباب: ٨٦/٣، وذيل المذيل: ص ١٠٦، والأعلام للزركلي: ٢٥٧/٥ ـ ٢٥٨.

قد توفر حظه من السنة فبنى مذهبه عليها وآنفسخ ذرعهٍ في الفقه فآنتهت إليه الفتوى. وهو القائل عن نفسه: «قل رجل كنت أتعلم منه مـامات حتى يجيئني ويستفتيني» وبـذلك سـار المثل. «لا يفتى ومالك في المدينة» له كتـاب الموطـا في الحديث وهـو أساس المـذهب المالكي، ورسالة في موعظة الرشيد.

٧١ ــ محمد الشـافعي

٧٦٧ ـ ٨٢٠ م

١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي الشافعي نسبة إلى جد جده. ولد بغـزة في فلسطين على مهد الفقـر، ونقل بعـد عامين إلى مكـة، فنشأ في بني هُـذَيْل ودرج بينهم، وكانت أمه الأيّم تعوله مستعينة ببر ذوي قرابته من قريش. وما كاد يناهز الإدراك حتى أنذَرَ في الذكاء والحفظ. قرأ القرآن ودرس العربية وراد البادية في طلب اللغة والأدب، وحفظ الموطأ وما أربى عمره على خمس عشرة سنة ثم رحل في هذه السن إلى مالك فقـرأ عليه المـوطأ حفظاً. فقال مالك: «إن أحد يفلح فهذا الغلام»، وفي سنة ١٩٥ وفد إلى بغداد فآلتف حوله علماؤها يأخذون عنه، وفيهم أحمد بن حنبل، ولقي محمد بن الحسن فبصَّره بالقياس. ثم دخل مصر عـام ١٩٩ فآتخـذها دار إقـامته، وسكن الفسـطاط وأملى بجامـع عمرو مـذهبه الجديد: وعكف على العبادة والإقراء والتأليف حتى آصطفاه اللّه لجواره فدفن بالقاهرة.

صفته وأخلاقه:

كـان رضي الله عنه طـويلاً نحيـلاً، خفيف العـارضين، حسن الصـوت، والسَّمْت، فصيح المنطق، راجح العقل قوي الحجة، ثقة في دينه كريماً في خلقه.

علمه وفضله:

كان أفقه الناس في كتاب الله وسنة رسوله، وأبصرهم بأصول العلم والفقه، وحجة في اللغة، وآية في الأنساب والأخبار. وقد بلغ من المكانة في الأدب والدراية في اللغة أن قرأ

---

٧١ ـ انظر ترجمته في: حلية الأوليـاء: ٩/٦٣ ـ ١٦١، الانتقاء: ص ٦٥ ـ ١٢١، والـديباج: ٦٧ ـ ٢٣٠، والأعـلام: ٦/٢٦، وطبقات الفقهـاء: ٤٨ ـ ٥٠، وتاريخ بغداد: ٢/٥٦ ـ ٧٣، ووفيـات الأعيـان: ١/٥٦٥ ـ ٥٦٨، وطبقـات الحنـابلة: ١/٢٨٠ ـ ٢٨٤، واللبـاب: ٢/٥، والـوافي بـالـوفيـات: ٢/١٧١ ـ ١٨١، والتهذيب: ٩/٢٥ ـ ٣١.

عليه الأصمعي أشعار الهذليين. وقال أحمد بن حنبل: «ما أحد يحمل محبرة إلا وللشافعي عليه منّةٌ».

توسط في مذهبه بين أهل الرأي وأهل السنة. وكثر أشياعه في الأمصار فقساموا الحنفية مناصب التدريس والفتوى. وشجر الخلاف بين أتباع المذهبين، وتعددت المناظرات، حتى نشأ من ذلك علم الخلاف والجدل والراجح أن الشافعي أول من تكلم في أصول الفقه وصنف فيه. وقد ذكر له صاحب الفهرست ما يربى على مائة مؤلف ليس في أيدي الناس منها إلا كتاب الأم في الفقه في سبعة مجلدات، والرسالة في أصول الفقه، ومسند الشافعي في الحديث.

٧٢ ــ أحمد بن حنبل
٧٦٣ ـ ٨٥٥ م
١٦٤ ـ ٢٤١ هـ

نشأته وحياته:

أبو عبد الله، ابن حنبل الشيباني وُلد ببغداد، ونشأ بها يتيماً. وطلب الحديث لست عشرة سنة، وقد كثرت رواته، وعرفت ثقاته، وتميز صحيحه، فجاب الأقطار الإسلامية في سبيل تلقيه وجمعه، حتى حفظ ألف ألف حديث تنخل منها أربعين ألفاً ونيفاً فدونها في كتابه المسند. وهو من أصحاب الشافعي وصفوة تلاميذه، وقد قال فيه وهو راحل إلى مصر: «خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل».

استنبط مذهبه من الكتاب والسنة وشابه بشيء من القياس، فقل أتباعه لبعده عن الاجتهاد وتمسكه بالرواية. وتصدى هو وشيعته لمجادلة المتكلمين ومناضلة الفلاسفة في عصر الرشيد والمأمون. ودُعي إلى القول بخلق القرآن زمن المعتصم فأبى، فضُرب تسعة وعشرين سوطاً حتى تقطر دمه وغاب رشده وآعتل جسمه. ولم ينعم باله إلا في عهد المتوكل نصير السنة. وعاش ما عاش حتى نقله الله إلى دار كرامته فشيعه ثمانمائة ألف رجل وستون ألف امرأة. وكفى بذلك شهيداً عَلَى رفعة شأنه وعظم خطره.

العلـوم العقليـة
الفلسفـة

كانت حرية الفكر في الإسلام سبباً في تعدد الفِرق وظهور المعتزلة. وهم يذهبون إلى

---

٧٢ ـ انظر ترجمته في: حلية الأولياء: ١٦١/٩ ـ ٢٣٣، وتاريخ بغداد: ٤١٢/٤ ـ ٤٢٣، والتهذيب: ٢٠/١ ـ ٢١، وطبقات الحنابلة: ٤/١ ـ ٢٠، والبداية والنهاية: ٣٢٥/١٠ ـ ٣٤٣، والنجوم الزاهرة: ٣٠٤/٢ ـ ٣٠٦، وشذرات الذهب: ٩٦/٢ ـ ٩٨، ومرآة الجنان: ١٣٢/٢ ـ ١٣٤، والأعلام للزركلي: ٢٠٣/١.

تطبيق النصوص الدينية على الأحكام العقلية. وبنو العباس كما علمت أميل إلى القياس والرأي. فآستفاض فيهم هذا المذهب. وآنضوى المأمون إلى أهله وصدع بما لم يصدعوا به فقال بخلق القرآن. وضرّم نار الجدل بين السنة والاعتزال، وزُين له أن يتذرع بمنطق اليونان لقهر خصومه، فهب بترجمة الفلسفة وأنصى الركائب في طلبها، وحدا الناس على النظر فيها والجدل بها. فنشأ من ذلك علم الكلام وكان مبدأ لظهور الفلسفة العربية.

أجل إن الفلسفة العربية طور من أطوار الفكر الإسلامي، وحادث من تاريخ التمدن العربي، فكان عدد الفلاسفة قليلاً، وأثرهم في الشرق ضئيلا، ولكنهم كانوا حلقة اتصال بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة ومناراً لأوروبا العامة يومئذ في غياهب الجهالة، التائهة في مجاهل القرون الوسطى، هداها إلى هذه الحضارة العظمى وتلك الحياة الراقية.

اتخذ المعتزلة من الفلسفة سلاحاً يقارعون به أهل السنة، وأنحى هؤلاء بالطعن عليهم وعليها، وحذروا الناس منهم ومنها، حتى أصبحت الفلسفة مرادفة للزندقة والفيلسوف غرضاً للمقت والسخرية. كان ذلك سراً في عهد المأمون والمعتصم والواثق نصراء الفلسفة وظَهَواء الحكمة، وجهراً في عهد المتوكل وأخلافه محيي السنة ومميتي البدعة فإنهم خفَّضوا من إشراف الفلاسفة وشدو من شكائمهم وألجأوهم إلى التستر وعقد المجامع خفية: فكان من ذلك جماعة (إخوان الصفا وخلان الوفا) وهي أشبه بجماعة «الماسون» في رسومها ورموزها. تألفت بالبصرة في أواسط القرن الرابع للبحث في ضروب الفلسفة، والعمل على نشرها، فكتبوا خمسين رسالة غفلا ضمنوها جملة الفلسفة العربية، وزبدة الحكمة اليونانية وقد بعثت في الفلسفة روح الحياة ومهدت لها طريق الشيوع. ووافق ذلك تغلب البويهيين على بغداد (٣٤٣)وهم شيعيون، ونصرتهم في خذلان السنيين، فأخذت الفلسفة تنفق وتذيع، حتى أصابها ما أصاب سائر العلوم من الضعف والدثور.

أما تاريخ الفلسفة في الأندلس فهو أشبه بتاريخها في الشرق انتقلت إليها زمن عبد الرحمٰن الأوسط (٢٣٨) وتشيع لها اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه. فنشط لدرسها الأندلسيون وازداد إقبالهم عليها وآنصرافهم إليها بوصول رسائل إخوان الصفا إليهم على يد أبي الحكم عمرو الكرماني سنة ٤٥٨ فنبغ منهم الفلاسفة وكثر فيهم الحكماء. ولكن اضطهاد العامة لهم كان أكثر، وزرايتهم عليهم كانت أشد فآستبد الملوك بهم مسايرة للشعب، وتحبباً إلى الدهماء، وقيدوا عليهم أنفاسهم، فإذا زل أحدهم في كلمة رجموه أو أحرقوه. وناهيك بما فعله أبو يوسف المنصور الموحدي بهم في أواخر القرن السادس من تمزيق شملهم وتحريق كتبهم.

وهكذا ظل ولاة الأندلس يسوقهم الجهل والاستبداد إلى مطاردة الفلسفة ومحاربتها

حتى فرت من وجوههم لائذة بجيرانهم الفرنجة. ولا بدع فللعوم وأهلها دول تدول وسلطان يزول.

الفلاسفــة

أول فيلسوف نعرفه من العرب يعقـوب بن إسحق الكندي المتوفى سنة (٢٤٦) وكان معاصراً للمأمون بارعاً في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والنجوم والألحان. وألف في تلك العلوم واحداً وثلاثين ومائتي كتاب حذا فيها حذو أرسطو. وكان أبرع الناس في الترجمة عن اليونانية. ويليه أبو نَصْر الفارابي المتوفى سنة (٣٣٩) الملقب بالمعلم الثاني صـاحب كتاب السيـاسة المـدنية، ومختـرع القانـون في الموسيقى. ثم أبـو علي ابن سينا وأبو حامد الغزالي. وأما الأندلس فقـد نبغ فيهـا أبو بكـر باجـه المتوفى سنة (٥٣٢) وتلميذه ابن رشد، وابن طفيل المتوفى سنة (٥٨٧) صاحب رسالة حي بن يقظان ويحسبنـا أن نترجم بثلاثة من أعلامهم.

٧٣ ــ ابـن سـيـنـا
٩٨١ - ١٠٣٧ م
٣٧٠ - ٤٢٨ هـ

نشأته وحياته:

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن سينا ويسميه الفرنج (avicenne) وُلد بقرية من قرى بخارى كان أبوه عاملاً عليها لنوح بن منصور الساماني. ثم آنتقل في طفولته إلى بخارى فحفظ القرآن والأدب وشيئاً من مبـادىء العلوم. وورد بخارى إذ ذاك أبـو عبيد الله النـاتلي فأقرأه كتاب إيساغوجي، وخرَّجه في المنطق فبرَّز عليه فيه، وبصره بمواضع منه. ثم رغب في علم الطب فتلقى أصوله على أبي سهل المسبحي، ودرس فروعه وحده حتى انتهت إليه الزعامة فيه. فقصده الأطباء من كل صوب يستشيرونه ويقتبسون منه. كل ذلك وسنه على ما قيل لم تجاوز ست عشرة سنة. ثم أبرأ الأمير نوح بن منصور الساماني من مرض برَّح بـه، فقربه إليه وأذن له في الـدخول إلى دار كتبـه، فقرأ فيهـا أثمن الكتب وأجلها. ثم آتفق أن أحرقت تلك المكتبة فتفرد أبو علي بما فيها. ويقال إنه أحرقها لذلك عمداً.

وفي الثانية والعشرين من عمره توفي أبوه فخرج إلى قصبة خوارزم وأخذ يضرب في

٧٣ ـ انـظر ترجمتـه في: تاريخ الفلسفة في الإسـلام: ص ١٦٤ ـ ١٨٨، والطبقـات السنيـة: ص ٧٦١، وروضـات الجنـات ٣/ ١٧٠ ـ ١٨٥، وإيضـاح المكنـون: ٢/٥٥٥، والـوافي بـالـوفيـات: ٣٩١/١٢ ـ ٤١٢، والشقائق النعامية: ٤٧٥/١ ـ ٤٧٨، إغاثـة اللهفان: ٢٦٦/٢، والمجـددون في الإسلام: ١٨٥ ـ ١٨٩، وتاريخ الحكماء للشهرستاني: ص ٤١٣ ـ ٤٢٦.

الأرض، فوفد على جرجان وزاول التعليم وصنف كتاب القانون في الطب. ثم آنقلب إلى همذان فتقلد الوزارة لشمس الدولة بن بويه، فما لبث غير قليل حتى ثار عليه الجند ونهبوا ماله وسألوا الأمير قتله فآكتفى بنفيه. ولم تهادنه المصائب بعد ذلك فآتّهم عند تاج الدولة بخيانة منكرة فسجنه في إحدى القلاع أربعة أشهر ولم ينجه إلا فراره متنكراً إلى علاء الدولة بأصبهان، فأقام في حماه وادع النفس أحياناً؛ ولكن تعاقب الحوادث عليه أوهن عزمه، وآستبداد الشهوة به أنهك جسمه، فأصيب بداء عياء نكَل عنه تدبيره وطبه، وتوفي بهمذان.

علمه ومصنفاته:

لابن سينا القدم الراسخة في الطب والمكانة السامية في الفلسفة. أخذ بمبادئ أرسطو ولم يُفتن عن دينه، ولم يشك بعد يقينه. إلا أنه كان أبيقورياً مستهتراً. وقد نقل الفرنج عنه أكثر ما عندهم من كتب جالينوس وأبقراط وترجموا أكثر تآليفه إلى اللاتينية وآعتمدوا عليها في بناء الفلسفة الحديثة وهي تبلغ مائة مؤلف، وأشهرها كتاب القانون في الطب، وكتاب الشفاء في الحكمة، يقع الأول في أربعة عشر مجلداً، والثاني في ثمانية عشر.

٧٤ ـ حجة الإسلام الغزالي

١٠٥٨ ـ ١١١٢ م

٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو حامد محمد بن محمد الغزالي بطوس، وتلقى دروسه الأولية بها ثم قدم نيسابور فتخرج في أمد يسير على إمام الحرمين أبي المعالي، ولازمه حتى توفي. فوفد على الوزير نظام الملك بالعسكر فآحتفى بقدومه وأعجب بعلومه. وناظر بحضرته جماعة من الأفاضل فظهر عليهم ظهوراً أطار ذكره. ففوض إليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد وأخذ نفسه بدرس الفلسفة فآشتغل بها وهو يعَلم. ثم آنقطع عن التدريس سنة ٤٨٨ ليتخصص لها ويتعمق فيها. فتبين له بعد طول البحث أن الفلسفة والدين ضدان. فناصب الفلاسفة العداء وحمل عليهم بأسلحتهم، وقارعهم بحججهم. فلقب لذلك حجة الإسلام. ثم سلك طريق التزهد، ونهج سبيل التصوف، فوطده على أساس الحكمة، وأيده بحقائق العلم. ثم غادر بغداد فورد الشام وأورشليم والحجاز والإسكندرية؛ وعزم الرحلة إلى مراكش ليلقى الأمير

---

٧٤ ـ انظر ترجمته في: تبيين كذب المفتري: ص ٢٩١ ـ ٣٠٦، وطبقات ابن الصلاح: ٢/٢١ ـ ٢/٢٣، وإتحاف السادة المتقين ١/٦ ـ ٥٣، وهدية العارفين: ٢/٧٩ ـ ٨١، ومعجم المؤلفين: ١١/٢٦٦ ـ ٢٦٩، ومرآة الزمان: ٨/٢٥ ـ ٢٦، ووفيات الأعيان: ٤/٢١٦ ـ ٢١٩، والأنس الجليل: ١/٢٦٥، وروضات الجنات: ١٨٠ ـ ١٨٥، وطبقات الإسنوي: ٢/٢٤٢ ـ ٢٤٥.

يوسف بن تاشفين، فجاءه نعيه قبل سفره فعاد إلى طوس وٱشتغل بالتعليم والتأليف. ثم ٱضطر أن يمارس التدريس ثانية بالمدرسة النظامية، ولكنه ما عتم أن رجع إلى وطنه فٱبتنى خانقاة للصوفية ومدرسة للعلوم الدينية، وعكف على العبادة والإفادة حتى مضى لسبيله.

مؤلفاته:

ألف الغزالي كتاب البسيط والوسيط والوجيز في فقه الشافعي، وكتاب إحياء علوم الدين في التصوف، وهو مرتب على أربعة أقسام: العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات. وقد قيل في فضله: «لو ذهبت كتب الإسلام وبقي (الإحياء) لأغنى عما ذهب» وله كتاب تهافت الفلاسفة في الرد على فلاسفة اليونان وأتباعهم، وقد طبع أخيراً بمصر، وكتاب مقاصد الفلاسفة في الموضوع نفسه.

٧٥ ـ ابن رشد
١١٥٦ ـ ١١٩٩ م
٥٥١ ـ ٥٩٥ هـ

نشأته وحياته:

هو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، ويسميه الفرنج averroés ولد بقرطبة من بيت عريق في المجد أصيل في القضاء، وتخرج على علماء عصره في الفقه والطب والفلسفة، وانقطع إلى النظر في الحكمة حتى توسط باحتها وشارف غايتها. وفي سنة ٥٤٨ قدَّمه ابن طفيل إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وكان محباً للفلسفة فلخص له كتب أرسطو. ثم تولى قضاء أشبيلية سنة ٥١٥ ورجع إلى موطنه بعد عامين، وشخص منه إلى مراكش بدعوة من أمير المؤمنين ليتخذه طبيباً له ولكنه ما لبث أن عاد إلى قرطبة قاضياً. ولما مات أبو يعقوب وخلفه والده يعقوب المنصور أقر ابن رشد في مقامه، وبالغ في إكرامه، ولكن الدهر أبى أن ينعم بال الحكيم فسعى به أعداؤه إلى الأمير ورموه عنده بالزندقة والمروق، فنفاه هو وسائر الفلاسفة من أرضه. ثم عاد الأمير إلى نفسه فٱستدعاه إلى مراكش وٱعتذر إليه، وظاهر نعمته عليه. ولكن ما لبث أن لقيه حمامه بمراكش.

فلسفته وكتبه:

لو صح التناسخ لقلنا إن روح أرسطو تقمصت جسم ابن رشد لتجدِّد عهود الحكمة،

---

٧٥ ـ انظر ترجمته في: الديباج المذهب: ٢٤٨ ـ ٢٥٠، وشجرة النور الزكية: ١٢٩/١، والصلة: ٥٧٦/٢ ـ ٥٧٧، وبغية الملتمس: ص ٥٠، وأزهار الرياض: ٥٩/٣، والغنية: ص ١٢٢ ـ ١٢٥، وهدية العارفين: ٨٥/٢ ووفيات ابن قنفذ: ص ٢٧٠، وكشف الظنون: ص ٣٦١، ١٤١٢.

وتفسر غموض الفلسفة. فإن حكيم العرب تعصب لحكيم اليونان، وزعم أنه وصل بالعلم إلى أبعد غاياته. فوقف نفسه على شرح فلسفته وتلخيص كتبه واهتم الأوربيون بما كتب فترجموه وتعلموه، فكان أساساً لحكمتهم ونبراساً لنهضتهم وقد قال عنه الفيلسوف الفرنسي (إرْنِسْتْ رِينان) في كتابه ابن رشد ومذهبه: «إنه أعظم فلاسفة القرون الوسطى ممن تبع أرسطو ونهج سبيل الحرية في الفكر والقول». ومذهب ابن رشد وأشياعه من تلاميذ أرسطو أقرب إلى مذهب الماديين والقائلين بالحلول: فيزعمون أن المادة أزلية، وأن الخلق حركة اضطرارية في هذه المادة، والخالق هو تلك الحركة أو المحرك. ويرون أن المخلوقات تشارك المادة في أزليتها لكونها منها. فإذا تجرد الإنسان العاقل لتحصيل العلم توصل بالتدرج إلى الاستغراق في الله؛ وأن العقول واحدة في البشر ترجع جميعها إلى العقل الأول الذي يسمونه (العقل الفاعل)، وهذا العقل العام هو وحده متصل بالله دون العقول القردية، فيترتب على هذه الفلسفة أن النفوس تموت مع أجسادها وأن لا خلود إلا للمادة فلا ثواب ولا عقاب، وأن الخالق لا يعلم إلا كليات الحوادث دون جزئياتها. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وقد فنَّد هذا المذهب حجة الإسلام الغزالي وكثير من علماء أوروبا. على أن ابن رشد كان يحرص الحرص كله على التوفيق بين الفلسفة والدين. فكتب في ذلك كتابه «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال»، وكتاب «مناهج الأدلة في عقائد الملة»، وعُني بالرد عَلى «تهافت الفلاسفة» للغزالي بكتاب سماه «تهافت التهافت» يقول في آخره: «لا شك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة، ولولا ضرورة طلب الحق مع أهله ما تكلمت في ذلك» وله غير ذلك مؤلفات كثيرة ككتاب الكليات في الطب، وفلسفة أرسطو، وقد فقدت أصول كتبه فلم تبق إلا ترجمتها اللاتينية أو العبرية.

الفصل السابع

القصص والمقامات في الأدب العربي

القَصَصُ فن من فنون الأدب الجليلة، يقصد به ترويح النفس باللهو، وتثقيف العقل بالحكمة. وله عند الفرنج مكانة مرفوعة، وقواعد موضوعة. أما عند العرب فلا خطر له ولا عناية به، لانصرافهم عما لا رجع للدين منه، ولا غناء للملك فيه؛ وللأسباب التي دعت إلى قصورهم في الشعر القصصي؛ ولأنه نوع من أنواع النثر، والفن الكتابي أو النثر الفني ظل في حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية، حين وضع ابن المقفع الفارسي مناهج النثر وفكر في تدوين شيء من القصص. فكان ما ترجمه هو وأمثاله من نحو كليلة ودمنة، وهزار أفسانه (ألف خرافة) ودارا والصنم الذهب، حُذَيًّا العرب ونموذجا لهم في وضع ما وضعوه منها.

ولما أترف العرب وحمل الأعاجم عن الخلفاء أعباء الخلافة قطعوا لياليهم بالمنادمة والمسامرة. فتنافس الندماء في حفظ الأقاصيص والأسمار، وتسابق أدباء القرنين الثالث والرابع إلى وضعها يسامرون بها الخاصة شفاها. واحتاج العامة من أهل الترف والبطالة إلى من يسامرهم كذلك في ديارهم وأملائهم وأعراسهم. واشتدت هذه الحاجة عندما توالت المصائب والمحن على العالم الإسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده من عسف المتسلطين من السلاجقة، وعنف المتغلبين من المغول، وإخلاد الشعب في مصر إلى التبطل والمجون، وتعاطيه المخدرات من الحشيش والأفيون؛ فتقدم إليهم القصاص والمحدثون، وهم للسوقة أشبه بالندمان والمهرجين للملوك فحدثوهم بما جمعوا من أقاصيص الشجعان، وأخبار الجان، وأعمال السحرة، مما تناقلته الأفواه من وراء الأجيال والأزمان، وشاهده التجار والرحالون في أطراف البلدان. ثم عملت في هذه الأحاديث المبالغة وأنماها الاختلاق حتى قيض الله لهذه السير في دونها على أسلوب الحديث من غير قاعدة ولا خطة. ثم تنوسيت أسماؤهم لطول العهد كما تنوسيت أسماء مؤلفي القصص الأفرنجية القديمة، فكان من ذلك قصص عنترة، وبني هلال، وسيف بن ذي يزن، والأميرة ذات الهمة، والظاهر بيبرس، وعلي الزيبق المصري، وفيروز شاه. وفي رأيي أن هذه

القصص كتبت كلها بمصر في القرون الخامس والسادس والسابع للهجرة، فبعضها حين نشوب الحرب الصليبية، وبعضها بعد سقوط بغداد. أما أنها كتبت بمصر فهذا واضح من مواضع وقائعها، وموضوعات حوادثها، وأسماء أشخاصها. وأما أنها كتبت في هذه العهود فذلك بيِّنٌ من لغتها المشوبة، وأساليبها المبتذلة، وخيالها الغريب القوي من أثر المخدرات: وحال الاجتماع يومئذ، ونشوب الحروب الصليبية، اقتضيا تدوين هذه القصص في وصف الوغى، ومدح البطولة، وتمجيد القادة، إثارة للنفوس وتحميساً للجند، كما كان المسلمون يفعلون في القرن الأول للهجرة.

ذلك كان مولد القصة في الأدب العربي وهو شبيه بمولدها في الأدب الغربي: فكلتاهما ولد على إثر الملاحم، وكلتاهما ابتدأ بأخبار الشجعان ومخاطر البطولة. إلا أن القصة الغربية لاحظتها عناية الأدباء، ورعاية النقد، واتساع الحضارة، وتقدم العلم، فنمت وتقدمت. أما القصة العربية بمعناها الفني المعروف فظلت في حَجر الطفولة. ومهد الخمول يلهو بها العامة، ويأنف منها الخاصة، ويصد عنها الأدباء والكتاب حتى قبروها مُدْرَجَة في لفائف الميلاد. وإنما برع العرب في الحكايات والأمثال والمقامات.

الحكايات

ألف ليلة وليلة:

فأما الحكايات فأخذوها عن الفرس. وأبدع ما أثر عن هؤلاء منها: كلستار للسعدي، وأصل ألف ليلة وليلة. وهذان الكتابان لا يزالان نموذج هذا الفن في الشرق والغرب. على أن العرب حينما اقتبسوا هذا الفن من الفرس توافروا عليه وتمكنوا منه حتى جاروهم فيه وحتى شاطروهم الشهرة وجاذبوهم الأولية. ولقد طغى ما أدخلوه في ألف ليلة وليلة على ما نقلوه عن الفرس منه فأخفاه. وأصبح الكتاب عنوانًا عريضاً من عناوين الأدب العربي وأثراً خالداً من آثار بنيه.

وأصله على الأرجح كتاب صغير للفرس دعوه (هزار أفسانه) وبنوه على حكاية الملك والوزير وابنته شهرزاد وجاريتها دنيازاد. وقد ترجمه العرب من الفهلوية إلى العربية آخر القرن الثالث للهجرة، ثم دعاهم الإعجاب به إلى توسيعه وتفريعه فأضافوا إليه ما شاكله من أساطير العرب والهنود وأخبار الخلفاء والأمراء والفرسان والأجواد في الجاهلية والإسلام. وبقي بابه مفتوحاً للزيادة عليه حتى القرن العاشر للهجرة، فتكامل نقصانه واستتم بنيانه، وتضاءل ما فيه من وضع الفرس حتى فنى فيما وضع العرب من أقاصيص الجان ومخاطر الشجعان ونجوى الهواتف وأعمال السحرة، التي تستهوي القلب، وتشحذ الخاطر، وتخصب المخيلة.

ومزية الكتاب تمثيله لأخلاق العرب والمسلمين وعاداتهم وأنظمتهم في العصور الإسلامية الوسطى بالعراق ومصر والشام مما يفيد الكاتب الاجتماعي والفيلسوف المؤرخ. ومن ثَمَّ عني به الفرنج عناية خاصة فترجموه إلى لغاتهم، وأفردوه بأبحاثهم. أما إنشاؤه فمختلف باختلاف الأعصر والأقاليم: فأخبار العرب ونوادر الخلفاء وما ترجم في الصدر الأول تغلب فيه الصحة والفصاحة. وأما ما وضعه القصاصون المتأخرون من عامة مصر والشام فركيك العبارة، عامي الألفاظ، مبتذل التراكيب، إلا أن مساق الأحاديث جيد، ورباط الحوادث متين.

الأمثال

كليلة ودمنة:

أما الأمثال فمنشأها الشرق؛ لأنه كان موطن الحكم المطلق والاستبداد العنيف. انبعث في صدور الضعفاء المستعبدين صدى خافِتاً لاحتجاج مكظوم صامت لم يجدوا له متنفسًا ولا طريقًا إلى آذان الطغاة إلا هذه النكايات والرموز يسترون وراءها ما يريدون من نصح وعظة. وقد بدأ ظهور هذا النوع في الهند ثم انتقل منها إلى الصين ثم إلى فارس فبلاد العرب فبلاد الإغريق. وأقدم ما عرف منه أمثال لقمان الحكيم، وإيزوب الرومي، وبيدبا الهندي. وأشهر من كتب فيه من أدباء العربية ابن المقفع مترجم كليلة ودمنة. وهذا الكتاب من خيرة الكتب في تقويم الأخلاق بالعظة ورياضة العقول بالحكمة: وضعه باللغة السنسكريتية بيدبا الهندي لدبشليم الملك منذ عشرين قرنًا ونيفاً على ألسنة البهائم والطيور، وعقده على اثني عشر بابًا ثم ترجم إلى الفهلوية، ونقله عنها إلى العربية عبد الله بن المقفع، وصدره بمقدمة بليغة في التعريف بالكتاب والتحريض على مطالعته، ثم فقد أصله وترجماته إلا العربية، فإنها بقيت أصلاً تفرعت عنه الترجمات القديمة والحديثة. وزاد الكتاب بتوالي الزمن بما دخله من الأبواب الفارسية والعربية، حتى بلغت أبوابه واحداً وعشرين بابًا.

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية (وهي موسوعة كبيرة يتولى تأليفها طائفة من المستشرقين وينشرونها تباعًا بالفرنسية والألمانية والإنجليزية) أن مؤلف هذا الكتاب برهمي لا يعرف اسمه. ألفه في كشمير حوالي القرن الثالث قبل الميلاد في مقدمة وخمسة أبواب وسماه (تنترة) على ما رواه هِرتال Hertal، وهرتال هذا هو الذي نقله عن السنسكريتية ووضع له مقدمة وعلق عليه حواشي وطبعه في ليبسك وبرلين في مجلدين سنة ١٩٠٩ م.

ولهذا الكتاب نسخة أخرى عنوانها (بنجة تنترة) ترجمها إلى الفهلوية برزويه طبيب أنو شروان بأمره. وأضاف إليها أبوابًا من القصص الهندي. وعن هذه الترجمة نقل

ابن المقفع ترجمته العربية وصدرها بمقدمة من وضعه. والراجح أنه أضاف إلى مقدمة برزويه ما يدل على الشك في الأديان. وأضاف إلى الكتاب باب الفحص عن أمر دمنة وباب الناسك وضيفه. وفي بعض النسخ زيدَ عَلَى الكتاب بابان لا يعرف مصدرهما، وهما باب مالك الحزين والبطة، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين. انتهى.

ومن الناس من يميل به الظن إلى أنه من وضع عبد الله بن المقفع، وما نسبه إلى علماء الهند إلا أملاً في رواجه وانتشاره؛ ولكنه في اعتقادنا ظن بعيد الاحتمال لأن حظ النقل والاحتذاء في كل ما كتب ابن المقفع أبلغ من حظ الإنشاء والابتكار. وقد نظمه كثير من شعراء العرب كأبان اللاحقي وابن الهبارية، وعاوضه سهل بن هرون بكتاب سماه (ثعلة وعفرة).

ثم اشتهر بالكتابة في الأمثال أيضاً ابن الهبارية المتَوفى سنة ٥٠٤ هـ ناظم كتاب الصادح والباغم، وهو منظومة في ألفي بيت على أسلوب كليلة ودمنة ثُمَّ ابن عرب شاه الدمشقي المتوفى سنة ٨٥٤ صاحب كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، وهو مجموعة من الأمثال والحكايات نهج فيها منهج كليلة ودمنة وجعلها في عشرة أبواب، إلا أن أمثالها يعيبها التطويل والحشو وإنشاءها يُضعِّفه التعمل والتكلف.

المقامات وكتابها

المقامة حكاية قصيرة أنيقة الأسلوب تشتمل على عظة أو ملحة. ومعنى المقامة في الأصل المقام أي موضوع القيام، ثم توسعوا فيها فاستعملوها استعمال المجلس والمكان، ثم كثرت حتى سموا الجالسين في المقام مقامة كما سموهم مجلساً إلى أن قيل لما يقام من خطبة أو عظة وما أشبهها مقامة أو مجلس، فيقال: مقامات الخطباء، ومقامات القصاص، ومقامات الزهاد: وقد نُشأ هذا النوع من القصص في أواسط الدولة العباسية وهو عهد الترف الأدبي والإنشاء الصناعي الأنيق. وقد أجاده بديع الزمان إجادة أحلته منه محل الزعيم.

وليس الغرض من المقامة جمال القصص ولا حسن الوعظ ولا إفادة العلم، وإنما هي قطعة أدبية فنية يقصد بها «الفن للفن» وتجمع شوارد اللغة ونوادر التركيب في أسلوب مسجوع أنيق الوشي يعجب أكثر مما يؤثر، ويلذ أكثر مما يفيد. ولم تُراعَ قواعد الفن القصصي فيما كتب من هذا النوع؛ فلم يعن كاتبو المقامات بتصوير الحكايات وتحليل الأشخاص، وإنما صرفوا همهم إلى تحسين اللفظ وتزيينه.

وتدور المقامة على حادث عادي يسند إلى شخص معين هو ما يسمى في اصطلاح الفن القصصي بالبطل، كأبي زيد السروجي في مقامات الحريري، وأبي الفتح الإسكندري

في مقامات البديع؛ وبين هذا البطل وبين رجل آخر صلة وثيقة ومعرفة قديمة، فهو يراه في كل حادثة، ويسمعه في كل مجلس، ويفاجأ في كل سر. ثم يروي للناس ما عليه من خير أو شر. ذلك هو الراوي، كعيسى بن هشام في مقامات البديع، والحارث بن همام في مقامات الحريري.

أما كتّابها فقد علمت أن ابن دريد اخترع أربعين حديثاً عرضها عرضاً تصويرياً دقيقاً كانت الطور لنشوء المقامة. ثم جاء بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ فأملى أربعمائة مقامة في الكدية وغيرها نحلها أبا الفتح الإسكندري على لسان عيسى بن هشام ولم يعثروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة. وقد مضى الكلام عنها في ترجمته. ثم جاء بعده الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ فكتب خمسين مقامة نسبها إلى أبي زيد السروجي على لسان الحارث بن همام، ونسجها على منوال البديع وقد تقدم القول فيها أيضاً. ثم عالج المقامات بعد هذين النابغين طائفة من الكتاب لم يدركوا شأوهما كالمقامات السُّرَقُسْطية لابن الأشتركوني المتوفى سنة ٣٥٨ هـ وهي خمسون مقامة أنشأها بقرطبة عند وقوفه على ما أنشأ الحريري بالبصرة، وقد أتعب فيها خاطره وأسهر ناظره ولزم في نثرها لزوم ما لا يلزم. حدث فيها المنذر بن حمام عن السائب بن تمام. ومقامات الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وهي مشهورة والمقامات المسيحية لأبي العباس يحيى بن سعيد ابن ماري النصراني البطري الطبيب المتوفى سنة ٥٨٦ هـ نسجها على منوال الحريري. ثم مقامات أحمد بن الأعظم الرازي وهي اثنتا عشرة مقامة كتبها سنة ٦٣٠ هـ وجعل الراوي فيها القعقاع بن زنباع وغيره. والمقامات الزينية لزين الدين بن صيقل الجزري المتوفى سنة ٧٠١ هـ وهي خمسون مقامة عارض بها المقامات الحريرية. نسبها إلى ابي نصر المصري وعزا روايتها إلى القاسم بن جريان الدمشقي. ثم مقامات السيوطي وهي بالرسائل أشبه منها بالمقامات.



الباب الرابع

العصر التركي
بعد سقوط بغداد

كيف خلفت القاهرة بغداد وقرطبة؟

انتكث قتل العباسيين كما علمت في بغداد بعد عهد المتوكل لتنافس الفرس والترك، وتحارب الشيعة والسنة، وذهاب جلال الخلافة من النفوس، فاعتورتها الأرزاء واصطلحت عليها الأعداء، حتى قوض عرشها هلاكو سنة ٦٥٦ هـ. وتضعضع أمر الأمويين في الأندلس بتغلب البربر والموالي على ملكهم، وتقسيمه بينهم إلى دويلات صغيرة سهل على الفرنج ازدرادها قطعة قطعة، حتى ابتلعوها لقمة سائغة سنة ٨٩٨ هـ. وزالت دولة الفاطميين في مصر والشام فوقعتا في أيدي الأيوبيين، ثم صارتا إلى المماليك، وظلتا تحت سلطانهم حتى دخلتا في حكم الأتراك العثمانيين ٩٢٣ هـ. فأنت ترى أن العالم الإسلامي أتى عليه ستون وخمسمائة عام لم يكن للعرب فيها لواء معقود ولا ظل ممدود، بل أصبحت ديارهم وآثارهم نهبًا مقسمًا بين المغول والترك والفرس والجركس ثم الأسبان بعد قليل. وضع هؤلاء العجم وهم وحشيون أُميون أيديهم على تراث العرب، فخربوا الديار وهتكوا الخدود، وفجعوا اللغة وآدابها وعلومها بتحريق المكاتب، وتعطيل المدارس وتقويض المراصد، وتقتيل العلماء. وناهيك بما فعله التتار ببخارى وبغداد، والصليبيون بالشام؛ والفرنج بالأندلس! فلو أن الزمان عَفى على اللغة العربية وألحقها بأخواتها السامية لما كان ذلك بِدْعًا من القول ولا حدَثًا في التاريخ ولكنها بقيت على مرغمة الحوادث لسانًا للدين والعلم، ولغة للحكومة والأمة، في بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب والجزيرة. ولولا نُعَرَةَ الترك وعصبية الفرس لكانت لغة المسلمين كافة.

والفضل في بقائها على فناء أهلها إنما كان للذكر الحكيم، وللأزهر الشريف، ولسلاطين مصر والشام من الأيوبيين والمماليك؛ فقد كانوا لها رِدءاً، ولأبنائها حرزاً، ولعلمائها وزراً، من غارة المغول حينما اكتسحوا خراسان وفارس والعراق؛ لأن الأيوبيين وإن كانوا أكراداً قد تكلموا بلغة العرب وتأدبوا بأدب العرب ونبغ فيهم الشاعر والعالم

والمؤرخ، كالملك الأفضل عليّ بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٠١ هـ وبهرام شاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨، والملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء المتوفى سنة ٧٢٢. وكذلك قل في المماليك فقد نبغ فيهم أحد السلاطين في الشعر وهو قانصوه الغوري المتوفى سنة ٩٢٢، لأنهم اتخذوا مصر وطنًا، والإسلام دينًا، والعربية لغة، وعضدوا العلماء وقربوا الأدباء، وشدوا أزر المعلمين والمؤلفين حتى نبغ في ظلهم أولئك الأعلام الذين جمعوا شتات اللغة والعلوم في المجموعات والموسوعات، وأقبلوا على علوم الأولين بالشرح والتلخيص، وهذبوا التاريخ ووضعوا فلسفته، وأقاموا للشعر وزنًا على قلة العارفين بفضله، والمستمعين إلى أهله، كابن منظور صاحب لسان العرب، والفيروزآبادي صاحب القاموس، وابن خلدون منشىء المقدمة، والقلقشندي جامع صبح الأعشى.

والشاب الظريف وصفي الدين الحلي، وابن الوردي، وابن معتوق، والصفدي، ولكن هؤلاء أفراد تقسمتهم الأعصر فلم يستطيعوا إنهاض اللغة الثكلى وقد كَبتْ ببنيها الجدود العواثر، فامَّحت من الهند وخراسان وفارس والعراق وبلاد الروم والأندلس، وبقيت في مصر والشام وبلاد العرب بقاء المريض قد ونُقت عليه المنية ولم يبق فيه إلا الذَّماء.

ولقد كان أسلوبهم في النثر والشعر كأسلوب من تقدمهم من متأخري العصر العباسي، ولكنهم في الغالب لم يحسنوا التقليد، ولم يصيبوا الغرض؛ فتبذلوا في اللفظ، وتوغلوا في الصنعة، واستجازوا الخروج عن الإعراب والعبث بالمعنى إذا حال ذلك دون تورية أو سجعة أو جناس.

فلما أذال الله بني عثمان من المماليك أصبحت الخلافة عثمانية لا عباسية، وصارت عاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة، واللغة الرسمية التركية لا العربية ففشا في اللغة الدخيل، وزاحمتها العامية والتركية في الدواوين، وذهبت أساليبها من النظم والنثر، وتمكن الذل من النفوس فخمدت القرائح، ونضب معين العلم، واطمأنت الكتب في الخزائن فلم يزعجها إلا اشتعال الأرضية في صفحاتها، وضرب الجهل على أبصار الشرقيين فعمو، وفدحتهم أعباء الذل فرزحوا، وطال عليهم الأمد فغشاهم النعاس، وخيم عليهم الظلام، فلم يستيقظوا إلا بمدافع نابليون على أبواب القاهرة!

أعلام هذه المفازة

أغطشت سماء الأدب العربي في عصر المغول فعميت البصائر وضلت القرائح، ومشى الناس في دياجير الجهل حيارى لا يرون مظاهر الحياة حتى يضيئهم شارق في سماء مصر، أو بارق في جو الشام. وذلك لأنهما البلدان اللذان حفظا وجود اللغة، ورفعا سقوط الأدب، وجمعا شمل العلم، ولولاهما لأنقطع ما بين الأدبين: القديم والحديث. وما كان

أروَحَ للنفس لو اتسع صدر هذا الكتاب لتراجم مواطنيّ وجيرتي! ولكن البحث محدود والقلم موجز. ومهما يكن من شيء فلن يفوتنا ذكر أسمائهم مُعقْبَةً بأسماء معاصريهم في العراق والمغرب، اعترافًا لهذه النفوس الكبيرة المطمئِنّة بالإحسان والفضل.

فمن النابغين في الشعر والأدب التّلّعفَرى، ولد بالموصل سنة ٥٩٣ هـ واتصل بالملك الأشرف موسى، ثم هلك سنة ٦٧٥ هـ فريسة للقمار. والشاب الظريف، ولد بمصر وتوفي بها غض الإهاب سنة ٦٨٨ هـ والبوصيري صاحب البردة في مدح الرسول، ولد وتوفي بمصر سنة ٦٩٥ هـ، وابن نباتة المصري المتوفى سنة ٧٦٨ هـ وابن حجة الحموي زعيم الأدباء في عصره وصاحب خزانة الأدب، توفي سنة ٨٢٧ هـ، والقلقشندي المصري جامع صبح الأعشى المتوفى سنة ٨٢١ هـ، ثم صفي الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ، وابن معتوق المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ وشعرهم مثْقل بقيود الصنعة، محصور في دائرة التقليد، تغلب فيه مظاهر الضعف الخلقي كالجبن والملق والشكوى والإغراق والقِحة. إلا أن في بعضه أثارة من الحسن وبقية من البيان. والنابغون في اللغة وعلومها ابن مالك صاحب الألفية المتوفى سنة ٦٧٣، وجمال الدين بن منظور صاحب لسان العرب المتوفى سنة ٧١١ هـ وجمال الدين بن هشام صاحب المغني في النحو المتوفى سنة ٧٦١ هـ والفيروزآبادي صاحب القاموس المتوفى سنة ٨١٧ هـ. وهؤلاء قد بسطوا قواعد اللغة واستوعبوا مواردها في الكتب والمعجمات. ونوابغ التاريخ والجغرافية، ابن أبي أصيبعة صاحب عيون الأنبياء في طبقات الأطباء المتوفى سنة ٦٦٨ هـ. وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان المتوفى سنة ٦٨١ هـ، وأبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ، وشمس الدين الذهبي صاحب تاريخ الإسلام المتوفى سنة ٧٤٨ هـ، والمقريزي صاحب كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ، ثم ابن الطقطقي صاحب الفخري المتوفى سنة ٧٠١ هـ، وابن خلدون منشئ المقدمة المتوفى سنة ٨٠٨ هـ، ولسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ، والمقَّرِي صاحب نفح الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ هـ، وطريقتهم في التاريخ أميل إلى استيعاب الحوادث، واستنباط العبر، والحكم بشيء من النقد، والخوض في بعض مسائل العلم والاجتماع. فكانوا بذلك خيراً من أسلافهم وأدنى منهم إلى منهج التاريخ القويم.

ونبغ من العلماء أصحاب الأسفار العامة: النويري صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب المتوفى سنة ٧٣٢ هـ، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار المتوفى سنة ٧٤٨ هـ، وجلال الدين السيوطي صاحب المؤلفات الجليلة المتوفى سنة ٩١١ هـ، وكمال الدين الدميري صاحب حياة الحيوان المتوفى سنة ٨٠٨ هـ. وهم أصحاب الفضل جميعاً في ضم شتيت العلم والأدب في أسفار أشبه بدوائر المعارف الحديثة. فأنت ترى أن الله جل شأنه لم يشأ أن يصيب لغة كتابه بالعقم حين ألحت عليها أرزاء الدهر، وتخونتها أعراض

الهرم، حِفظاً لكتابه وصوناً لدينه، فكانت تنجب حيناً بعد حين عَلماً من أولئك الأعلام يجدد منها ما اندرس، ويرأب فيها ما انصدع، وينقذها من يد البِلى والعفاء.

نجوم سماء كلما انقض كوكب ... بدأ كوكب تأوي إليه كواكبه

وها نحن أولاء نترجم بذوي الأثر البارز منهم واقفين الآن عند ذلك.

٧٦ ـ صفي الدين الحِلِّي ٦٧٧ ـ ٧٥٠ هـ

نشأته وحياته:

ولد صفي الدين أبو البركات عبد العزيز بن سرايا بالحِلَّة في العراق وبها نشأ وتأدب. ثم دعاه اضطراب السلم واختلال الأمن إلى المهاجرة إلى ماردين بالجزيرة ليلوذ بحمى الملوك من آل أرتق (٦٦٣ ـ ٧١٢)؛ فحلوا عقدة الخوف عن قلبه، ونزل منهم في جناب مَريع. فمدحهم بتسع وعشرين قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتاً، يبدأ كل بيت بحرف من حروف الهجاء ويختم به؛ وسماها (درر البحور في مدائح الملك المنصور) وهي المعروفة بالأرتقيات.

وفي سنة ٧٢٧ هـ ورد مصر فمثل بين يدي الملك الناصر بن قلاوون ومدحه فملأ يديه بجوائزه. وانقلب إلى ماردين ثم ذهب إلى بغداد فتوفي بها.

شعره:

لا خلاف في أن صفي الدين زعيم الشعراء في عصره. ولا تزال في شعره بَلَّةٌ من فصاحة اللفظ وبقية من رشاقة الأسلوب. امْتَنَّ في الصنعة ما شاء، وأجاد في القصائد الطوال والمقطوعات والموشحات والأزجال، وغالى في المجون والأحماض، ودخل في أحد عشر بابًا من أبواب الشعر وعقد عليها ديوانه. واخترع في النظم أنواعاً، منها الموشح المضمن كقوله في تضمين بائية أبي نواس:

وحق الهوى ما حُلت يوماً عن الهوى ... ولكن نجمي في المحبة قد هوى

ومَن كنت أرجو وصله قتلي نوى ... وأضنى فؤادي بالقطيعة والنوى

ليس في الهوى عجب ... إن أصابني نصب

(حامل الهوى تِعب ... يستخفه الطرب)

---

٧٦ ـ انظر ترجمته في: الدرر الكامنة: ٢/٣٦٩، وفوات الوفيات: ١/٢٧٩، وآداب اللغة: ٣/١٢٨، والنجوم الزاهرة: ١٠/٢٣٨، ونزهة الجليس: ٢/٢٠١، وشعراء الحلة: ٣/٢٧٠ ـ ٢٩١، والذريعة: ١/٣٣٧، وانظر الأعلام للزركلي: ٤/١٧ ـ ١٨.

نموذج من شعره:

قال في الحماسة:

سل الرماح العوالي عن معالينا ... وسائل البيض هل خاب الرجا فينا؟
وسائل العُربْ والأتراك ما فعلت ... في أرض قبر عُبَيْد الله أيدينا
لما سعينا فما رقت عزائمنا ... عما نروم ولا خابت مساعينا
يا يومَ وقعةِ زوراء العراق وقد ... دِنَّا الأعادي كما كانوا يَدينونا
بِضُمرٍ ما ربطناها مسوَّمة ... إلا لنغزو بها من بات يغزونا
وفِتْيَة إن نقلْ أصغوا مسامعَهم ... لقولنا أو دعوناهم أجابونا
قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة ... يومًا وإن حكّموا كانوا موازينا
تدرعوا العقل جِلْباباً فإن حميت ... نارُ الوغى خِلْتهم فيها مجانينا
إذا أدعوا جاءت الدنيا مصدّقة ... وإن دعوا قالت الأيام آمينا
إنا لقومٌ أبت أخلاقُنا شرفاً ... أن نبتدىء بالأذى من ليس يؤذينا
بيضٌ صنائعُنا، سود وقائعُنا، ... خُضر مرابعُنا، حمرٌ مواضينا
لا يظهر العجزُ منا دون نيل مُنى ... ولو رأينا المنايا في أمانينا

٧٧ ـ ابن منظور
١٢٣٢ - ١٣١١ م
٦٣٠ - ٧١٤ هـ

نشأته وحياته:

ولد جمال الدين محمد بن المكرَّم بالقاهرة في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة ٦٣٠ هـ في بيت من بيوت العلم، ودرس على شيوخ عصره كعبد الرحمن أبي الطفيل ومرتضى بن حاتم وابن المقبَّر حتى نال من العلوم والآداب قسطاً موفوراً جعله أهلاً للعمل في ديوان الإنشاء. والعمل في هذا الديوان يومئذ يقتضي مشاركة في علوم وفنون كثيرة فصلها صاحب صبح الأعشى ثم ولي قضاء طرابلس الغرب حيناً من الدهر وهو في أثناء ذلك لا يفتر عن الدرس والتأليف حتى انتقل إلى جوار ربه وله خمسمائة مجلد من تأليفه.

---

٧٧ ـ انظر ترجمته في: فوات الوفيات: ٢/٢٦٥، وبغية الوعاة: ص ١٠٦، وحسن المحاضرة: ١/٢١٩، والدرر الكامنة: ٤/٢٦٢، ونكت الهميان: ص ٢٧٥، ومفتاح السعادة: ١/١٠٦، وآداب اللغة: ٣/١٤١، وروضات الجنات: ص ٧١٢.

وكان ابن منظور صاحب جد وخلق وإرادة. وقد كان يتشبع في غير رفض كما يظهر من أسلوبه في لسان العرب كلما عرض ما يتصل بذلك. وقد توفي بالقاهرة.

مؤلفاته:

لم يكن ابن منظور من أُولي الاقتدار على الابتكار، وإنما كان كجلة العلماء في عصره أميلٍ إلى الجمع أو الاختصار. وقد قال الصفدي صلاح الدين: «ما أعرف من كتب الأدب شيئًا إلا وقد اختصر جمال الدين بن المكرم». فمن مؤلفاته:

لسان العرب:

وهو ذلك المعجم الجامع الذي حوى بين دفتيه تهذيب الأزهري ومحكم ابن سيده وصحاح الجوهري وجمهرة ابن دريد ونهاية ابن الأثير. وقد رتبه المؤلف على أواخر الكلمات ونسقه تنسيقاً بديعاً لتسهل الاستفادة منه. وتَحَرَّى صحة النقل في مادة اللغة بالمحافظة على نصوص الرواة الأولين وتأييدها بالشواهد الصحيحة من القرآن والحديث والأمثال والشعر.

وقد ذكر مترجموه ومنهم الصفدي أن النسخة الأولى التي كتبها بخطه الجميل من لسان العرب كانت في ملك المقر الأشرف الكمالي ناظر ديوان الإنشاء بمصر، وهي مجزأة إلى سبعة وعشرين جزءاً. ولكنها طبعت في مصر في عشرين مجلداً سنة ١٣٠٠ هـ. ومنها (كتاب سرور النفس بمدارك الحواس الخمس) وموضوعه كل ما يقع عليه الحس كالليل والنهار وأوصافهما، والاصطباح ومدحه، والهلال وظهوره، وانبلاج الفجر، ورقة النسيم وقت السّحر، وتغريد الطيور على الشجر، والشمس والكواكب وآراء المنجمين وأهل الفلك الخ... وله غير ذلك طائفة من الكتب بين تهذيب واختصار كمختار الأغاني، ومختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ومختصر مفردات الحيوان للجاحظ، ومختصر اليتيمة للثعالبي، ولطائف الذخيرة لابن بسام.

ولقد كان يتعاطى الشعر ويجيده، ومن ذلك قوله:

ضع كتابي إذا أتاك على الأر ... ض وقلّبه في يديك لماما
فعلى ختمه وفي جانبيه ... قبَلٌ قد وضعتهن تؤاما
كان قصدي بها مباشرة الأر ... ض وكفيك بالتثامي إذا ما..

وقوله:

بالله إن جزت بوادي الأراك ... وقبلت أغصانه الخضر فاك
فابعث إلى المملوك من بعضه ... فإنني والله مالي (سواك)

٧٨ ـ أبو الفداء

١٢٧٣ - ١٣٣١ م
٦٧٢ - ٧٣٢ هـ

نشأته وحياته:

هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن علي الأيوبي صاحب حماة. ولُد بدمشق عَلَى مهد السراوة والفضل ورُبي في حجر الرخاء والنعمة، واستكمل حظه من العلوم وتفوق في التاريخ والهيئة. وكان بطلاً مقدامًا. خدم الملك الناصر ابن قلاوون وهو بالكرك وساعده على محاربة التتر فوعده بحماة ووفى بوعده، فأقامه عليها سلطانًا مطلق الإرادة حرّ التصرف، ولقبه بالملك المؤيد وأقدمه إلى مصر وأركبه بشعار السلطنة، فمشى الأمراء والكبراء في خدمته. وكان أبو الفداء يحمل إليه في كل عام أفخر الهدايا من الخيل والرقيق والجواهر. وعاش ما عاش نصيراً للضعفاء، ظهيراً للعلماء، ولوعا بالتأليف، حتى استخار له الله ما عنده.

مؤلفاته:

لأبي الفداء كتابان في التاريخ وتقويم البلدان هما مرجع العرب والفرنج في تحقيق هذين العلمين. فالأول كتاب (المختصر في أخبار البشر) وهو تاريخ عام للأمة العربية يبلغ بها إلى سنة ٧٢٩، وقد لخصه من عشرين كتابًا ونيفًا وحذا فيه حذو ابن الأثير في ترتيبه على السنين. وتحرى في نقل الحوادث الصدق والنقد. والآخر كتاب (تقويم البلدان) جمع فيه خلاصة ما كتب الأقدمون في الجغرافية والفلك، وضبط الأسماء، وحقق الأطوال والأعراض، وعنى على الخصوص بوصف مصر وسورية وبلاد العرب وفارس. وقد اهتم به الفرنج فترجموه واعتمدوا عليه في الوقوف على الجغرافية العربية.

٧٩ ـ ابن خلدون

١٣٣٢ - ١٤٠٦ م

٧٣٣ - ٨٠٨ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون؛ ينتهي نسبه إلى وائل من

---

٧٨ ـ انظر ترجمته في: البداية والنهاية: ١٥٨/٤، وآداب اللغة: ١٨٧/٣، والنجوم الزاهرة: ٢٩٢/٩، وطبقات السبكي: ٨٤/٦، والفهرس التمهيدي: ص ٢٥٣، وفوات الوفيات: ١٦/١، وروض المناظر في حوادث سنة: ٧٣٢، والدرر الكامنة: ٣٧١/١.

٧٩ ـ انظر ترجمته في: نيل الابتهاج: ص ١٧، وتعريف الخلف: ٢١٣/٢، ونفح الطيب: ٤١٤/٤،

أقيال كندة. هاجر جده التاسع خلدون إلى الأندلس في أواخر القرن الثالث للهجرة وأقامت عشيرته في أشبيلية. ثم انتقلت إلى تونس حين الجلاء حيث وُلد هذا العالم الكبير سنة ٧٣٣ هـ. ودرج في مهد السراوة والعلم، وتأدب على أبيه ثم على غيره؛ فأتقن القرآن وضرب في كل العلوم بسهم. وبرع في الفقه والعربية وتبحر في التاريخ فاستجلى غوامضه واستقصى مباحثه، حتى أصبح فيه قريع دهره ونسيج وحده وطمحت نفسه في طفولته إلى خدمة السلاطين فاتصل بكثير من ملوك الأندلس والمغرب، وتقلد الكتابة والحجابة والقضاء؛ إلا أنه كان قليل المكث في كل منصب تقلده لعزة نفسه وصراحة قوله وكثرة حساده.

فلما كانت سنة ٧٦٤ وفد على الأندلس فاهتز له الغَنِيّ بالله صاحب غرناطة وبعث بخاصته لاستقباله وإكرام وفادته، وألزمه مجلسه وانفرد به دون وزيره. فحقد عليه هذا حقداً عرفه ابن خلدون، فغادر الملك والوزير وشأنهما وعاد إلى وطنه. ثم أخذ يجول في الأرض ويطوف في البلاد حتى بلغ مصر سنة ٧٨٤ هـ فقام بالتدريس في الجامع الأزهر، واتصل بالسلطان برقوق فعرف حقه وولاءه على تمنع منه قضاء المالكية، فأقام المَعْدلة، وحكم المَنْصفة وضر على أيدي القضاة. فثار به ثائرهم واختلقوا عليه الأكاذيب ورفعو شكواهم إلى السلطان فلم يقم لكلامهم وزناً. ولكن ابن خلدون سئم هذه الحياة المرة، وضجر من تلك المكائد المستمرة. ووافق ذلك غرق أسرته وهي قادمة إليه من تونس، فنالت منه هذه المحنة، فاستعفى من القضاء وأدى فريضة الحج واعتزل في ضيعة له بالفيوم أقطعه السلطان إياها، وانصرف إلى التدريس والتأليف. ثم عاد ثانية إلى القضاء ومعالجة الحظوظ، فما زال يولى ويعزل، وينصر ويخذل، حتى وافاه أجله بمصر سنة ٨٠٨ هـ.

أخلاقه:

قال فيه لسان الدين، ابن الخطيب: كان رجلاً فاضلاً، حسن الخلق، جم الفضائل، ظاهر الحياء، وقور المجلس، خاص الزي، عزوفًا عن الضيم، صعب المقادة، خاطباً للحظ، متقدماً في فنون عقلية ونقلية، سديد البحث، كثير الحفظ، بارع الخط، مُغْرىً بالتجلة، حسن العشرة، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تصدقها آراؤها وآثارها.

نثره وشعره:

ظهر ابن خلدون في عصر كسدت فيه العلوم ودرست الآداب وأزهقت الصناعة روح الكتابة، فهداه طبعه إلى الرجوع بالإنشاء إلى عهده والوقوف به عند حدّه. فرغب عن السجع وزهد في البديع وسار باللفظ وراء المعنى. وقد صرح بذلك في كلامه عن كتابته

وآداب زيدان: ٣/٢١٠، والضوء اللامع: ٤/١٤٥، ودائرة المعارف الإسلامية: ١/١٥٢، وانظر الأعلام للزركلي: ٣/٣٣٠، والعبر: ٧/٣٧٩.

لأبي سالم أحد ملوك الأندلس إذ يقول: «وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع لضعف انتحالها، وخفاء المعاني فيها على أكثر الناس بخلاف المرسل فانفردت به يومئذ، وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة. ثم أخذت نفسي بالشعر فانثالت عليَّ منه بحور، توسطت بين الإجادة والقصور».
وحكمه على نفسه من الحق والصراحة بحيث لا يحتاج إلى تعليق ولا تعقيب.

كتابه في التاريخ:

نظر ابن خلدون في التاريخ فحرر مباحثه، وعلل حوادثه، ووضع كتابه المشهور (بالعبر وديوان المبتدأ والخبر) وهو ثلاثة كتب في سبعة مجلدات. يمتاز بما تضمنه من المقدمات الفلسفية في صدور الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة والصراحة في القول، والسداد في الرأي، والإنصاف في الحكم.

على أن فضل الرجل وشهرته إنما هما بالكتاب الأول من هذا التاريخ وهو المعروف بالمقدمة. لاشتماله على أبحاث مبتدعة منوعة في الاجتماع والاقتصاد وفلسفة التاريخ، واستنباط الأسباب والعلل مما طالعه أو شاهده في حياته العظيمة ورحلاته العديدة وتنقسم هذه المقدمة إلى ستة فصول: الأول في النشوء والارتقاء، والثاني في الاجتماع، والثالث في السياسة العملية، والرابع في الهندسة الحربية، والخامس في الاقتصاد السياسي، والسادس في تاريخ آداب اللغة العربية، فهي خزانة علم وأدب فضلاً عن أسلوبها الرشيق المتسق.

والراجح أن ابن خلدون أول إنسان استنبط فلسفة التاريخ وسماها طبيعة العمران في الخليفة. وقد فصلها في مقدمته واستشهد على كل ما كتب بالحوادث التاريخية الصحيحة، مما دل على سداد رأيه وصدق نظره وانفساح ذرعه في الاستنباط والتعليل. على أن العلماء أخذوا عليه إخلاله بالقواعد التي وضعها لكتابة التاريخ، ولم يسلم من المآخذ التي أُخذها على سابقيه. وسبحان من تفَرَّد بالكمال!

٨٠ ـ السيدة عائشة الباعونية
٠٠٠ ـ ١٥١٦ م
٠٠٠ ـ ٩٢٢ هـ

نشأتها وحياتها:

هي السيدة الفاضلة الناسكة عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعوني، ولدت بالصالحية

---

٨٠ ـ انظر ترجمتها في: الدر المنثور: ص ٢٩٣، وشذرات الذهب: ٨/١١١، والكواكب السائرة: ١/٢٨٧، وانظر الأعلام للزركلي: ٣/٢٤١.

بدمشق في بيت عريق في العلم والورع، فقد كان أبوها وعمها وولدها وأخوها من نوابغ العلماء في الفقه والحديث والتصوف والتاريخ والأدب، فنهلت من حياضهم، وجنت من رياضهم. ثم تلقت الفقه والنحو والعروض على طائفة من شيوخ عصرها كجمال الحق والدين إسماعيل الحوارني، ومحيي الدين الأرموي ووردت بعد ذلك مصر فتلمذت للعلامة أبي العباس القسطلاني شارح البخاري. ثم عكفت على التدريس والتأليف فانتفع بعلمها وفضلها خلق كثير. ثم انتقلت إلى الدار الباقية بعد ما خلفت من الآثار كتاب الفتح المبين، في مدح الأمين، وهو شرح لقصيدتها التي نظمتها في علم البديع على منوال ابن حجة، وكتاب فيض الفضل، وهو ديوان شعر في المدائح النبوية، والمورد الأهنى في المولد الأسنى، وهو مولد النبي ﷺ اشتمل على رقائق النثر والنظم.

منزلتها في الشعر والكتابة:

يثير عاطفة الإعجاب في المرء أن يرى في هذا العصر المظلم امرأة كالباعونية تَبذُّ الرجال في العلم والأدب، ولا يعيبها أن تكلَّف بالسجع، وتتكلف البديع وتُغْرَى باللفظ، وتقصر إلهامها على المدائح النبوية فإن المرء صنيع بيئته. والشعر الحق مرآة صاحبه وصورة قلبه. وقد علمنا كيف تشبث الشعراء في هذه العصور بالصناعة اللفظية، وانصرفوا إلى المعاني الدينية، فلا بدع إذا تخلقت هي بأخلاق عصرها، ونهجت سبيله في نثرها وشعرها.

نموذج من كلامها:

قالت في مقدمة شرح البديعية:

وبعد فهذه قصيدة صادرة عن ذات قناع، شاهدة بسلامة الطباع، منقحة بحسن البيان، مبنية على أساس تقوى من الله ورضوان، سافرة عن وجوه البديع، سامية بمدح الحبيب الشفيع، مطلقة من قيود تسمية الأنواع، مشرقة الطوالع في أفق الإبداع، موسومة بين القصائد النبويات، بمقتضى الإلهام الذي هو عمدة أهل الإشارات، بالفتح المبين، في مدح الأمين.

ومطلع هذه القصيدة:

في حسن مطلع أقمار بذي سَلم ... أصبحت في زُمرة العشاق كالعلم
أقول والدمع جارٍ جارحُ مقلي ... والجارُ جارَ بعدل فيه متّهم

ومنها في الجناس:

يا سعدُ إن أبصرت عيناك كاظمة ... وجئت سَلْعًا فسل عن أَهلها القدُم
فَثمَّ أقمار تم طالعين على ... سويلع حيِّهم وانزل بحيِّهم

ومنها في الاستخدام:

واستوطنوا السر مني فهو موضعهم ... ولا أبوح به يوماً لغيرهم

ومنها في التفريق:

قالوا هو الغيث، قلت الغيث آونةً ... يهمي وغيث نداه لا يزال همي

ومنها في حسن الختام:

مدحت مجدك والإخلاص ملتزمي ... فيه وحسن امتداحي فيك مختتمي

وقالت في جسر الشريعة لما بناه الظاهر برقوق:

بنى سلطاننا برقوق جسراً ... يأمر والأنام له مطيعه
مجاز في الحقيقة للبرايا ... وأمر بالمرور على الشريعه

ومن نظمها في وصف دمشق:

نزه الطرف في دمشق ففيها ... كل ما تشتهي وما تختار
هي في الأرض جنة فتأمّل ... كيف تجري من تحتها الأنهار
كم سما في ربوعها كل قصر ... أشرقت من وجوهه الأقمار
وتناغيك بينها صادحاتٌ ... خرست عند نطقها الأوتار
كلها روضة وماء زلال ... وقصور مَشِيدة وديار

الباب الخامس

العصر الحديث

الفصل الأول

نظرة عامة

ما زال الزمن الجائر ينقص من أطراف الرقعة العربية حتى قصرها في أواخر القرن الثامن عشر على العراق العربي والشام وبلاد العرب ومصر والسودان والمغرب: وفي تلك البلاد بقي النفس الأخير من أنفاس اللغة العربية يتردد في وناء وضعف، حتى أذن اللّٰه لشمس الحضارة أن تشرق ثانية على ربوع النيل، فآرفضَّ عنها الوهنُ وَسرتْ فيها الحياة. ففي مصر كان ملاذها وغياثها، وفي مصر كان بقاؤها وآنبعاثها!

كانت مصر في ذلك العهد تحت سلطان العثمانيين حكماً، وتحت سيطرة المماليك فعلاً. وكانت الأهواء المختلفة، والقوَى المتضاربة، والأجناس المتباينة، تنخر في هيكل هذه الأمة البائسة، فكان عددها لا يبلغ ثلاثة ملايين فشتْ فيهم الأمية. وآستولى عليهم الجهل وألحَّت عليهم الأوباء والسنون. وآستغلهم الظلم وآستعبدهم الحكام. ووقفوا عن السير بأنفسهم، وتحرك الفلك، فغزاهم على هذه الحال الأليمة نابليون.

غزا نابليون مصر سنة ١٧٩٨، وليس من شأننا أن نعرض لهذه الغزوة إلا من جهتها الأدبية. فإن الجماعة العلمية التي صحبت هذا القائد العظيم لم تصدها القلاقل والحرب عن غرس بذور الحضارة في مصر، فأنشأوا مدرستين وجريدتين ومسرحاً للتمثيل، ومجمعاً علمياً، ومكتبة، ومطبعة، ومعامل كيميائية ومراصد فلكية، وسهلوا للناس النظر إليها، والوقوف عليها. فكان صنيع هذه الجماعة أشبه بالقَبس الوضّاء سطع في ذلك الغيهب الذي احلولك في سماء مصر فبدده، وآستطاع الناس أن ينظروا؛ ولكن ماذا رأوا؟ رأوا أنهم في القرن التاسع عشر، وأن الغرب واقف منهم موقف الإنسان العاقل من الحيوان الأعجم يرميهم بنظرات السخرية وهو دائب في سبيل الحياة الصحيحة، مجدٌّ في تذليل المادة، فبهتوا ودهشوا.

ولكن محمد علي رأس الأسرة الخديوية لم يدهش: بل علم أن ما في الغرب من حضارة وعمارة إنما أساسه العلم. وأكبر ما تركه الفرنسيون بمصر من الآثار الصالحة والأبحاث النافعة على آضطراب حالهم وقصر آحتلالهم، وكان في نفسه الطموح إلى الملك، والاستبداد بحكم مصر والاستعداد له. فأخذ في تعليم المصريين وقد عزّ فيهم القارىء، فأنشأ المدارس المختلفة الدرجات والغايات في المدائن والقرى وساق الناس إليها قسراً. وآستقدم طائفة من علماء فرنسا للتدريس والتأليف. كالدكتور كلوت بك مؤسس الطبية، وجومارباك مدير البعثة المصرية. وبعث بمن أنجبت تلك المدارس إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ ليستفيدوا ويستزيدوا. فلما عاد أولئك الطلبة وكانوا أربعة وأربعين أخذوا في الترجمة والتعليم. ثم توالت البعوث بعد هؤلاء إلى أوروبا وكلهم من الأزهر الشريف. وتلك يد أخرى لهذا المعهد الجليل على اللغة ساعدتها اليوم على النهوض كما حماها من قبل دون السقوط. وفتحت في القاهرة مدرسة الألسن ودار الترجمة، وأقيمت المطبعة المصرية على أنقاض المطبعة الأهلية التي جاء بها الفرنسيون إلى مصر وذهبت بذهابهم. وأنشئت الوقائع المصرية وهي أول صحيفة عربية في الشرق، فكان ذلك كله وقوداً جزلاً للقبس الذي ألقاه نابليون بمصر ونفخ فيه محمد علي فذكا وآشتعل وآمتد لهيبه إلى الشام إلى سائر بلاد العرب فأيقظ النيام وبدد الظلام. وَحَذَى الأمير بشير الشهابي في لبنان حذو محمد علي في مصر، وأعانه على ذلك دعاة النصرانية من الأمريكان والفرنسيين بإنشائهم المدارس والمطابع وتأليفهم الكتب، وإصدارهم المجلات وتعليمهم التمثيل، وآعتمادهم في كل أولئك على اللغة العربية، حتى تخرج في معاهدهم صفوة الكتاب والشعراء والمترجمين والصحفيين من أهل لبنان، فتكاتف القطران على إحياء اللغة والعلوم، فترجمت الكتب العلمية، ونشرت المؤلفات العربية، ودب في اللغة دبيب الحياة؛ إلا أن آدابها وعلومها لم تزل في يد العفاء؛ لأن محمداً علياً كان مصروف الهم إلى ما يُعْوِزُه، كالعلوم الحربية والطبية والصناعية والرياضية، قانعاً من كتّابه وعماله باللسان العامي، والأسلوب الاصطلاحي. فكانت لغة الدواوين في عهده وعهد أخلافه خليطاً مبهماً معجماً من التركية والعربية.

على أن اللغة المصرية لم تعدم في ذلك العصر أنصاراً. فقد كان لها من أمثال الشيخ حسن العطار، وبطرس كرامة، والسيد علي الدرويش، ورفاعة بك الطهطاوي، من حفظوا كيانها وجددوا بيانها.

وأخذت هذه النهضة المباركة تنمو رويداً حتى ولي الأمر عباس ثم سعيد، فحبا أوارها، ووقف تيارها، لرغبة هذين الأميرين عن العلم والتعليم.

فلما جلس إسماعيل على أريكة الخديوية سنة ١٨٦٣ م فتح ما أغلق من المعاهد وزاد

عليها. فأنشأ المدارس للعلوم والهندسة والطب والحرب، وعاد إلى إرسال البعوث إلى أوروبا، وأسس نظارة المعارف وعهد إليها أمر التعليم، وأنشأ المكتبة الخديوية، وبنى مدرسة المعلمين، وبسط يده للمؤلفين، ونشر ألوية المدنية والسكينة على ربوع البلاد، فنزح إليها الأجانب للكسب والتجارة، وفيهم العلماء والأدباء؛ فكان آختلاط هؤلاء بالمصريين، وكثرة المطابع، ووفرة المدارس، وانتشار الصحافة، وآقتباس التمثيل، وترجمة العلوم، والأندية الأدبية، والمجامع العلمية، وتعلم اللغات الأجنبية؛ ونقل الحضارة الأوروبية ،والحرية الشخصية، كان كل أولئك سبباً في خصب القرائح، وسعة المدارك، ونهوض اللغة، وحياة الأدب.

ثم دهانا الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢ م وكل شيء يتحفز للنهوض ويتوثب إلى الرقي، فكأنما ألقيت ماء على نار، أو أقمت سداً في تيار. كانت الحركة العلمية في أواخر عهد إسماعيل واسعة النطاق، والمدارس وافرة العدد، واللغة العربية لسان التعليم ولغة التأليف، فأخذ الإنجليز منذ آغتصبوا السلطان يقطعون أسباب النهضة، ويسيرون بالتعليم إلى وجهة أخرى. فأغفلوا البعوث، وأغلقوا مدرسة الألسن، وأبطلوا المجانية، وأهملوا اللغة العربية، وجعلوا التعليم كله بالإنجليزية، وقصروه على تخريج عمال للحكومة لا إعداد رجال للشعب.

ولكن الأمة المصرية قد آستطاعت أن تقف على رجليها، وأن تمسح عينيها بيديها، فلم ترض النكوص والعالم يتقدم. فهبّ رجالها يطلبون سيادة لغتهم في بلادهم. ويقومون هم بتعليم أولادهم، فعادت اللغة إلى المدارس، ورجعت البعوث إلى أوروبا، وكثرت المدارس الأهلية والأميرية. وشبت ثورة الاستقلال في وجه الاحتلال سنة ١٩١٩ م وردد العالم العربي صداها، فأيقظت ما بقي من شعور خامد، ودفعت النفوس الخانعة إلى طلب الحرية في الحكم، والرأي، والقول، والعقيدة حتى ظفرت مصر من ذلك بقسط موفور في دستورها الذي نالته سنة ١٩٢٣ م.

ثم تابعت الجهاد في سبيل حريتها واستقلالها حتى نالت قسطاً آخر بمعاهدة سنة ١٩٣٦. ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها في عام ١٩٤٥ طلبت مصر من انجلترا تغيير هذه المعاهدة فجرت بين الحكومتين المصرية والإنجليزية أحاديث طويلة لم تؤد إلى اتفاق، لأن مصر أرادت أن تبني المعاهدة الجديدة على أساسين من وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري، وجلاء الجيش الإنجليزي عن وادي النيل. وعارضت انجلترا في الأساس الأول فآلتجأت مصر إلى هيئة الأمم المتحدة وظاهرتها دول الجامعة العربية. فلما عرضت قضيتها على مجلس الأمن بأمريكا، وتولى عَرضها رئيس حكومتها، وكان يومئذ المغفور له محمود فهمي النقراشي، قطع لسان الباطل بالحق، وفند دعاوى

الإنجليز بالحجج الدامغة؛ ولكن مصانعة الدول لشيخة الاستعمار علق القضية فلم يفصل فيها حتى شبت ثورة الجيش المصري بقيادة الضباط الأحرار في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فعصفت بالفساد والاستبداد، وطهرت البلاد من فجور الملك وشرور الحكم وطغيان الغنى فطردت فاروقاً ثم أعلنت الجمهورية وحددت الملكية واضطرت الإنجليز إلى الجلاء عن القناة بعد أن اتفقت الدولتان على أن يقرر السودان مصيره بنفسه فإما أن يستقل بأمره وإما أن يتحد مع مصر، وقد اختار الاستقلال وأعلن الجمهورية.

وفي شهر فبراير عام ١٩٥٨ اندمجت مصر وسورية في وحدة تامة باسم الجمهورية العربية المتحدة. وكذلك استقل لبنان وطبق على شعبه النظام الجمهوري وفي الرابع عشر من يوليو من سنة ١٩٥٨ ثار العراق على الملكية وأعلن الجمهورية، ولا تزال فلسطين والجزائر وجنوب الجزيرة العربية يتطلبون الغاية من هذه السبيل، ويترقبون الإصباح بعد الليل المظلم الطويل:

الفصل الثاني

وسائل النهضة الحديثة

كان من آثار الاحتلال الفرنسي، ونزعة الاستقلال عند محمد علي، أن أشرقت من جانب الغرب ومضات من نور المعرفة في آفاق مصر ولبنان فهبت البلاد تسير على ضوئها وتعمل على هداها ـ تلك الومضات هي الوسائل التي تذرع بها رأس الأسرة العلوية وورّاثِهِ على عرش مصر إلى ترقية الجيش وتنشئة الحكومة وتربية الشعب من طريق غير مباشر، وأهم تلك الوسائل:

١ ـ المدارس

لم يجد محمد علي فيما يُعلَّم يومئذ بالأزهر من علوم الدين واللسان بغيته من علوم الحرب والطب والرياضة، فأنشأ المدارس العلمية المختلفة وقسمها إلى ابتدائية وتجهيزية وخاصة، ووصل بينها وبين أوروبا يجلب العلماء منها ويبعث البعوث إليها. فلما تعددت درجاتها وتنوعت أغراضها أنشأ لها إدارة خاصة في سنة ١٨٣٩ سميت ديوان المدارس كانت رياسته الأولى لمصطفى مختار بك من رجال البعثة العلمية الأولى. ومن أقوى المدارس الخاصة أثراً في النهضة العلمية والأدبية مدرسة الطب ومدرسة الألسن ومدرسة دار العلوم. فأما مدرسة الطب فقد أنشئت لخدمة الجيش سنة ١٨٣٦ في أبي زعبل وأقيم بجانبها مستشفى لتمرين الطلاب ومعالجة المرضى. استُقدم أساتذتها من فرنسا برياسة الدكتور كلوت بك، وآختير طلبتها من المصريين وغيرهم ثم نقلت في سنة ١٨٣٨ إلى قصر ابن العيني بالقاهرة وإلى هذه المدرسة يرجع أكثر الفضل في إحياء اللغة العربية ووصلها بالثقافة الحديثة؛ لأن الأساتذة كانوا يلقون دروسهم باللغة الفرنسية ثم تؤدى في الوقت نفسه إلى الطلاب باللغة العربية، وكان ذلك يضطر المترجمين من المغاربة واللبنانيين والأرمن إلى البحث عن المصطلحات في المعجمات اللغوية والكتب الفنية القديمة.

وأما مدرسة الألسن فقد أنشأها محمد علي لتخريج المترجمين حين اشتدت الحاجة إليهم في ترجمة الدروس إلى الطلاب، ونقل الكتب الطبية والعسكرية إلى العربية. وجعل

إدارتها إلى المرحوم رفاعة بك الطهطاوي. حتى إذا خرَّجت طائفة من أفاضل المترجمين تألف منهم قلم للترجمة سنة ١٨٤٢ برياسة رفاعة بك اضطلع بترجمة كثير من الكتب العلمية الأجنبية في مختلف العلوم الحديثة.

وأما دار العلوم فقد أسسها المرحوم علي مبارك في سنة ١٨٧١ م بأمر الخديو اسماعيل ليتخصص طلابها في العلوم العربية، ويشاركوا في بعض العلوم الدينية والعقلية، ويأخذوا بقسط من الثقافة الحديثة، وليعلِّموا بعد تخرجهم فيها اللغة والدين في مدارس الحكومة. وكان أساتذتها من نابغي شيوخ الأزهر، وتلاميذها من متقدمي طلابه. ولهذه المدرسة الفضل العظيم والأثر البالغ في ترقية اللغة وإنهاض الأدب وإشاعة الفصحى عَلَى ألسنة خريجيها وأقلام في التعليم والتأليف والكتابة والشعر والخطابة. وقد ظلت مستقلة منذ إنشائها تحمل أمانتها وتؤدي رسالتها حتى ألحقت بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٦ وسميت كلية دار العلوم.

٢ ـ الجامعة الأزهرية

الأزهر أول جامع في القاهرة، وأقدم مدرسة في مصر، ومن أعرق الجامعات الكبرى في العالم بناه جوهر الصقلي بعدما خط القاهرة، لإقامة الشعائر الدينية وتأييد الشيعة العلوية من طريق الدين. وحشد إليه أساطين الفقه ونوابغ العلم من أقطار الأرض، وأدر عليهم أخلاف الرزق، ورفع عنهم أكلاف الحياة، دون حساب ولا تقرير، حتى جاء يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله، وهو يهودي قد أسلم وتفقه، فرتب لهم الوظائف وابتنى لهم المساكن على مقربة من الجامع. ثم أخذ هؤلاء الفقهاء يقرأون بعد كل صلاة فقه الشيعة، ويأخذون في سبيل الوعظ، ويميلون إلى شيء من البحث، ويتكلمون في مسائل اللغة والنحو، ويعقدون فيه مجلس المناظرة، حتى زالت دولة الفاطميين، وغلب على مصر زعيم الأيوبيين صلاح الدين سنة ٥٦٧ وهو من أهل السنة فبايع العباسيين، وأحل الفقه الشافعي محل الفقه الشيعي في الأزهر. وقرر فيه كذلك فقه أبي حنيفة لأنه مذهب الخلفاء في بغداد. ورأى صلاح الدين أن يؤلف قلوب المسلمين كافة فأجاز تدريس المذاهب الأربعة فيه. وجرد ذلك إلى بسط العلوم اللغوية والأدبية، والإلمام بالعلوم الرياضية والطبيعية. وزها الأزهر في عهد المماليك بعد سقوط بغداد وانتقال الخلافة والثقافة إلى مصر، فحفظ اللغة من الزوال، وعلومها من الاضمحلال. وظل وحده يرسل أشعة العلم والدين إلى أنحاء العالم الإسلامي، لا يخرج عالم إلا منه، ولا ينبغ كاتب ولا شاعر إلا فيه. حتى أدركته الغفوة الشرقية العامة في عهد بني عثمان فتجدد العالم وتقدم العلم وارتقى التعليم وهو جامد على حاله القديم، باق عَلَى مذهبه الموروث. ومع ذلك فقد كان رجاله في صدر العصر الحديث عدة نابليون في تنظيم عمله، وساعد محمد علي في تحقيق أمله، وموئل

اللغة والدين والآداب من عصف المحن وطغيان الجهالة وتغلب الأمية. ولكن مصر هبت من رقادها، ولم تجد الأزهر كما كان كفؤاً لقيادتها وإرشادها، فولت وجهها شطر الغرب تكرع من حياضه وتقطف من رياضه، حتى آتسعت مسافة الخلف بين التعليم الجديد والتعليم القديم، وانتشرت في مصر ثقافتان مختلفتان تناهض إحداهما الأخرى. ثقافة قائمة على الكتب القديمة والطرق العقيمة، وثقافة مبنية على العلم الغربي والتعليم الحديث؛ فلم يكن بد من إصلاح الأزهر ليشارك في النهضة العامة. بدَأت الحكومة الخديوية ذلك في عهد شيخه الشيخ الإنبابي سنة ١٣٠٥هـ فأدخلت فيه بعض العلوم الحديثة بعد لأى ومشقة وفتوى شرعية ثم تصدى الإمام الكبير محمد عبده لإصلاحه، فوضع الأساس، وحال الأزهريون بينه وبين البناء. ولكن السيل جارّف والتيار قوي فلم يستطع أهله الوقوف في سبيله، فألقوا السلاح، وقبلوا الإصلاح، ولكن إصلاحه استعصى على المصلحين لعوامل سياسة وأخرى دنيوية. فآثروا العافية وفوضوا أمره إلى الزمن.

ثم قسم الأزهر الآن إلى معاهد للتعليم الابتدائي، وأخرى للتعليم الثانوي، وجعل التعليم العالي فيه فروعاً، فكلية للشريعة، وكلية للغة العربية، وكلية لأصول الدين، وقد أنشئت لهذه الكليات دور خاصة منفصلة من الأزهر. ونمت موارده حتى بلغت في العام مئات الألوف من الجنيهات، وزاد طلابه حتى نيفوا على عشرين ألف طالب يساعدهم بالمال والمسكن ومن بينهم العربي والتركي والسوداني والمغربي والإيراني والسعودي والعراقي والهندي والباكستاني والأندونيسي والشركسي والأفغاني وكلهم يتعلمون باللغة العربية ويتغذون بالثقافة الإسلامية، ولهؤلاء أقيمت مدينة على القرب من الأزهر يجد فيها الطلاب الأغراب الغذاء والمأوى.

٣ ـ الجامعة المصرية

كان من أثر سوء النية الذي بدا من المحتلين في سياسة التعليم بمصر وحصره في دائرة ضيقة من نواحي الثقافة، وقصره على تخريج الموظفين للحكومة، أن صحت عزيمة المصريين الأحرار على أن يقوموا هم بتعليم أولادهم، وأن يقيموا للعلم الصحيح وزناً في بلادهم، فآجتمعت طائفة منهم سنة ١٩٠٦ على إنشاء جامعة أهلية تقضي حاجة البلاد من التعليم. وأهابوا بأبناء مصر أن يعاونوا ببذل المال على إنجاح هذا المسعى الخطير، فلبى المحسنون النداء وفي طليعتهم الأميرة فاطمة بنت إسماعيل. وفي سنة ١٩٠٨ افتتحت الجامعة المصرية وأسندت رياسة الشرف فيها إلى الأمير أحمد فؤاد قبل أن يستوي على عرش مصر. فآستقدم إليها طائفة من علماء أوروبا، وآختار لها صفوة من أدباء مصر، فألقوا عَلَى طلبتها من الأزهريين والموظفين محاضرات قيمة في الآداب والفلسفة: وكان من بين

العلماء الأوروبيين المستشرقون جويدي ونلينو ولتمان فنهجوا لدراسة الأدب العربي وتاريخه المنهج القويم الواضح.

وفي سنة ١٩٢٥ تولتها وزارة المعارف فشادت لها الأبنية العظيمة، وآقتبست لها الأنظمة الأوروبية الحديثة، وضمت إليها كليات الحقوق والطب والهندسة والزراعة والتجارة والصيدلة وطب الأسنان، وكانت من قبل ذلك إنما تتألف من كلية العلوم وكلية الآداب، ثم سميت بجامعة القاهرة. ولما اشتدت الرغبة في التعليم وآزداد عدد الطلاب أنشئت في الإسكندرية جامعة ثانية سميث بجامعة الإسكندرية وأقيمت في القاهرة جامعة ثانية سميت بجامعة عين شمس. وفي أسيوط جامعة رابعة سميت بجامعة أسيوط. ومما لا ريب فيه أن هذه الجامعات الأربع جامعة الأزهر وجامعة دمشق قد آتينِ ثمار العلم، ونشرن أضواء الثقافة ووصلن الماضي بالحاضر، وربطن الشرق بالغرب، وقرنّ العلم بالعمل، ووجهن الحضارة العربية الوجهة الصحيحة.

٤ ـ الطباعة

اخترع الطباعة بالحروف «حنا جو تمبرج» الألماني سنة ١٤٤٠، فكان لاختراعه من الأثر في الأدب والحضارة ما كان. وما كادت تشتهر الطباعة بالحروف في أوروباحتى صيغت منها قوالب للغات الشرقية. وطبع أول كتاب باللغة العربية سنة ١٥١٤ م وأخذت المطبوعات الشرقية ولا سيما العربية تزداد شيئاً فشيئاً حتى صدرت عن أكثر العواصم الأوروبية. وكان منها المؤلفات الجليلة كالعهدين القديم والجديد، ونزهة المشتاق للإدريسي. وقانون ابن سينا، وتحرير أصول إقليدس وما زالت تطبع فيها نفائس الكتب المخطوطة إلى الآن. ثم دخلت الطباعة الشرق عن طريق الآستانة ١٤٩٠ م على يد عالم يهودي طبع بها مؤلفات دينية وعلمية؛ ولكن الحروف العربية لم تظهر فيها إلا سنة ١٧٠٨ م. ومن أشهر المطابع العربية في الآستانة «مطبعة الجوائب» لأحمد فارس الشدياق؛ طبع فيها طائفة كبيرة من عيون الكتب الأدبية. أما في البلاد العربية فكان السبق للبنان في استعمال المطبعة بفضل دعاة المسيحية؛ فقد أسس الرهبان اللبنانيون أول مطبعة ببيروت في أوائل القرن السابع عشر. ثم أسست بها المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٤٨ م، ولها الأثر الجليل والفضل الجزيل في نشر المخطوطات العربية القديمة، وطبع الكتب الأدبية والعلمية، وإتقان فن الطباعة العربية، ثم تلت مصر لبنان فدخلتها الطباعة على يد نابليون سنة ١٧٩٨ م، إذ جاء بمطبعة لطبع المنشورات والأوامر بالعربية وسماها «المطبعة الأهلية» ثم ذهبت معه. وأقام محمد علي على أنقاضها المطبعة الأهلية (مطبعة بولاق) سنة ١٨٢١. وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكي السوري، وصبت حروفها على جمل قاعدة نسخية من حجوم مختلفة. ثم صبت ثانية على قاعدة المرحوم جعفر بك كبير الخطاطين في مصر، وهي المستعملة الآن. وقد طبعت نحو

ثلثمائة كتاب في الرياضيات والطب والجراحة مما ترجم عن اللغات الأجنبية وطبعت أمهات الكتب الأدبية بفضل (القسم الأدبي) الذي فصل عنها ووصل بدار الكتب المصرية. ومنذ يومئذ اقتصرت مطبعة بولاق على طبع (الوقائع المصرية) والكتب المدرسية والأعمال الحكومية، وهي الآن أكبر مطبعة عربية في العالم. ثم انتشرت بعد ذلك المطابع في مصر فسهلت سبل الأدب وأدنت قطوف العلم، وساعدت على انتشار القراءة.

٥ ـ الصحافة

الصحف مدارس متجولة في البلدان، ليست محصورة بين جدران، ولا يختص بها مكان دون مكان. وهي أوسع دائرة للإرشاد من كل دوائر التعليم: تهذّب عقول العامة، وترتب أفكار الخاصة، وتنهض الهمم القاعدة، وتصلح الألسنة الفاسدة، وتقرب الأمم المتباعدة. وهي سجل الأخبار ووعاء التاريخ وتقويم الزمن. وأول جريدة عربية بالمعنى الفني المعروف هي الوقائع المصرية، أنشأها الأمير محمد علي سنة ١٨٢٨ بمعاونة الأستاذ رفاعة بك الطهطاوي، وكانت تصدر أولاً بالتركية والعربية، ثم حررت بالعربية وتولى تحريرها نخبة من أفاضل الكتاب كالشيخ حسن العطار، والشيخ شهاب صاحب سفينة الملك، والإمام محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، وسعد زغلول. ولا تزال تصدر عن القاهرة ثلاث مرات في الأسبوع. ثم ظهر بعد ذلك في الشام جريدة مرآة الأحوال سنة ١٨٥٥ م وهي سياسية يحررها رزق الله حسون الحلبي؛ وحديقة الأخبار سنة ١٨٥٨ م لصاحبها خليل الخوري؛ والجوائب في الآستانة سنة ١٨٦٠ لأحمد فارس الشدياق؛ وجريدة الرائد التونسي في تونس سنة ١٨٦١ م.

وفي زمن إسماعيل أصدر محمد علي باشا البقلي (اليعسوب) وهي مجلة طبية شهرية بمعونة الشيخ محمد الدسوقي وهي أول مجلة عربية ظهرت في العالم. وفي سنة ١٨٦٦ ظهرت بمصر جريدة سياسية أدبية علمية وهي وادي النيل لأبي السعود أفندي، كانت تصدر مرتين في الأسبوع بالقاهرة. وفي سنة ١٨٦٩ أصدر إبراهيم بك المويلحي ومحمد بك عثمان جلال جريدة (نزهة الأفكار) وكانت أسبوعية شديدة اللهجة فألغاها الخديو اسماعيل. وفي سنة ١٨٧٠ م صدرت مجلة روضة المدارس المصرية وهي مجلة علمية أدبية يحررها نخبة من ذوي المكانة في العلم والأدب. ثم صدرت الأهرام سنة ١٨٧٦ م وسياستها عثمانية فرنسية، ثم أصبحت بعد الحرب العالمية الأولى مصرية، والوطن سنة ١٨٧٧ م وهي جريدة طائفية احتلالية. وعلى منهاجها سارت جريدة مصر؛ والمحروسة لصاحبها أديب إسحق سنة ١٨٨٠. وبعد الاحتلال ظهرت المقطم سنة ١٨٨٨ م وهي احتلالية. والمؤيد وهي إسلامية خديوية. واللواء وهي إسلامية وطنية. والجريدة والشعب والسياسة والبلاغ والجهاد وكوكب الشرق والمصري والكتلة والزمان والجريدة المسائية. وتلك هي كبرى الصحف

اليومية والسياسية وكلها تصدر عن القاهرة، وأكثرها آنقطع عن الظهور فلم يبق منها إلا الأهرام والأخبار والجمهورية والمساء وهناك صحف أسبوعية مختلفة كالرسالة والثقافة وأخبار اليوم والمصور وآخر ساعة والتحرير، وشهرية كالمقتطف والهلال والكتاب ومجلة الأزهر في مصر، والأديب والآداب في بيروت، ومجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة ومجلة المجمع العلمي العربي في دمشق وأكثر المجلات الأدبية الأسبوعية والشهرية قد آحتجب لقلة العون من الحكومة وضعف الرغبة من القراء.

والبحث في سياسة هذه الصحف وتحريرها وتأثيرها يخرج بنا إلى التطويل. ومما لا بد من ذكره أن الفضل في تقدم الصحافة ورقي التحرير والترجمة إنما كان للبنانيين، لسبقهم إلى معرفة اللغات الأوروبية،وخلاطهم للأمم الغربية.

٦ ـ التمثيل

التمثيل بمعناه الحديث لم تعرفه اللغة العربية إلا في أواسط القرن الماضي. وكان اللبنانيون أسبق الشرقيين إلى آقتباسه؛ لتخرجهم في المدارس الأجنبية ودراستهم للآداب الإفرنجية. وأول من فعل ذلك منهم مارون النقاش المتوفى سنة ١٨٥٥ فقط مثّل أول رواية عربية سنة ١٨٤٠ م. ولما تبوأ إسماعيل عرش الخديوية شجع الأدباء، وعضد العلماء، وساعد الفنانين. وتم حفر قناة السويس في عهده فاحتفل بافتتاحها ذلك الاحتفال المشهور، ورأى من كرم الضيافة ألا يحرم ضيوفه الأوروبيين مشاهدة التمثيل أثناء إقامتهم بمصر، فآبتنى دارالأوبرا الخديوية وآستقدم لها فرقة أجنبية مثلت رواية (عايدة) بالفرنسية. وورد مصر في أثر ذلك جماعة من أدباء لبنان وفيهم سليم النقاش وأديب إسحق، فمثلوا في الاسكندرية بضع روايات على مسرح زيزنيا سنة ١٨٧١ م ففشلوا، وتخلوا عن الفرقة لأحدهم يوسف خياط، فقدم القاهرة وآتصل باسماعيل ففتح لهالأوبرا وشهد أولى رواياته، وكانت رواية (الظلوم)، فظن أنهم يعرضون به فنفاهم إلى وطنهم. وأقفلتالأوبرا في وجه التمثيل العربي فلم تفتح بعد ذلك إلا لفرقة سليمان القرداحي وزميله الشيخ سلامة حجازي.

لم يكن التمثيل في تلك الفترة الماضية شعبياً وإنما كان حكومياً أرستقراطياً لا يحضره إلا الأمراء والحكام، فلما بنى اسكندر فرح مسرحه في شارع عبد العزيز بالقاهرة وضم إليه الشيخ سلامة حجازي أصبح للجمهور. وكان التمثيل حينئذ بعيداً عن الكمال والذوق لا يرجع إلى فن ولا يعتمد عَلَى قاعدة، وإنما كان أساسه الغناء والمجون استمالة للعامة وإرضاء للدهماء، ولغة الروايات كانت سقيمة ملحونة مسجوعة. وأول خطوة خطاها هذا الفن في سبيل الكمال كانت بفضل الفرقة التي ألفها جورج أبيض بعون الخديو عباس حلمي، وضم إليها صفوة الممثلين الذين خرجهم الزمن وأرشدتهم التجارب. إلا أن هذه الفرقة انحلت بعد قليل لسوء الإدارة وقلة المال وزهادة الجمهور في التمثيل الفني. وظل

التمثيل بعد ذلك يرسب ويطفو تبعاً للحوادث والظروف. على أن حالته الآن وإن لم ترض الباحث من كل وجه لا تدعو إلى اليأس، فقد أنشأت وزارة الثقافة والإرشاد معهداً للتمثيل وألفت فرقة حكومية وفرقاً أخرى مختلفة تنفق عليها نرجو أن يكون لها أثر قوي في إنهاض المسرح بعد أن اعتدت عليه السينما وخذله الجمهور.

٧ ـ المجامع الأدبية

أ ـ المجمع العلمي العربي بدمشق:

كان إخواننا في الجمهورية العربية السورية أسبق الأمم العربية إلى إنشاء المجامع العلمية على ضيق مواردهم وغل سواعدهم، كما كان اللبنانيون أسبقها إلى الترجمة والصحافة والتمثيل فقد أنشىء المجمع العلمي العربي بدمشق في اليوم الثامن من شهر يونيو سنة ١٩١٦ م بعد دخول الأمة السورية في وصاية الدولة الفرنسية إجابة لمقترح الأستاذ محمد كرد علي وزير المعارف السورية يومئذ لأغراض كانت إذ ذاك «تدور حول مسائل تعود بأسرها على إنعاش الآداب العربية، وتلقين أصول البحث والدرس لنبهاء الدراسين. وقد عني هذا المجمع بوضع ما عرض عليه وضعه من الألفاظ في المصطلحات العلمية الحديثة، وأصلح بعض الأوضاع الإدارية، وقوَّم ما أمكن لغة الدواوين، وصحح بعض أغلاط الكتّاب والشعراء والخطباء، وعاون عدة من المؤلفين والمترجمين على ما هم بسبيله «ضم هذا المجمع صفوة العلماء والأدباء في الشام والعراق ومصر وطائفة من علماء المشرقيات في أوروبا. وأصدر مجلة لنشر دراساته ومحاضراته ومقالاته. وبعد أن اتحدت مصر وسورية في الجمهورية العربية المتحدة حيناً من الدهر أصبح مجمع دمشق ومجمع القاهرة مجمعاً واحداً ومؤتمر سنوي واحد.

ب ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة:

وفي ١٤ من شعبان سنة ١٣١٥ هـ ٣ ديسمبر ١٩٣٢ م صدر مرسوم ملكي بإنشاء مجمع ملكي للغة العربية يكون تابعاً لوزارة التربية والتعليم في القاهرة والغرض منه:

١ ـ «أن يحافظ على سلامة اللغة العربية وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر، وذلك بأن يحدد في معاجم أو تفاسير خاصة، أو بغير ذلك من الطرق ما ينبغي استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتركيب.

٢ ـ أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية، وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها.

٣ ـ أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية.

٤ ـ أن يبحث كل ما له شأن في تقدم اللغة مما يعهد إليه فيه بقرار من وزير المعارف العمومية» وهو مؤلف من «أربعين عضواً عاملاً يختارون من غير تقد بالجنسية من بين العلماء المعروفين بتبحرهم في اللغة العربية أو بأبحاثهم في فقه هذه اللغة أو لهجاتها» وخمسة وعشرين عضواً مراسلاً في مختلف البلدان الغربية. ومن بين أعضائه العاملين اليوم ثلاثون عضو مصرياً،وعضوان أوربيان فرنسي وإنجليزي، وعضو عن المغرب، وعضو عن تونس، وعضو عن المملكة العربية السعودية، وعضو عن العراق، يرأسهم الأستاذ أحمد لطفي السيد. والمجمع يتألف من هيئتين. مؤتمر المجمع ويتكون من أعضائه جميعاً ويجتمع أربعة أسابيع متوالية في كل سنة. ومجلس المجمع ويتكون من الأعضاء المصريين ويجتمع مرة في كل أسبوع وللمجمع مجلة تنشر ما يقره من البحوث اللغوية والمصطلحات العلمية صدر منها ستة عشر جزءاً، والمجمع يبذل جهوده اليوم في وضع المعجم اللغوي الكبير، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ومصطلحات العلوم الحديثة. بعد أن وضع المعجم الوسيط نحو ألف صفحة ونشره على الناس فقابلوه بالثناء وحسن التقدير.

ج ـ المجمع العلمي العراقي:

تألف في بغداد على غرار المجمع العربي بدمشق. ونشاطه مقصور على البحوث والمحاضرات، ونشر المخطوطات.

الفصل الثالث

النثر

الكتابة

كان النافق في صدر هذا العصر من كتب السَّلف كتابان يمثلان مذهبين مختلفين في الكتابة: أحدهما مقامات الحريري، والآخر مقدمة ابن خلدون. فالأول يمثل الأسلوب الصناعي الأجوف المموّه، والثاني يمثل الأسلوب الطبيعي العامر المحكم. وكانت القلوب لا تزال مأخوذة بسحر المقامات لدقة صناعتها، وذيوع طريقتها، وقصور العقول عن البحث، وعجز القرائح عن التوليد ولكن النابغين من خريجي المدارس المدنية الحديثة الذين وقفوا على آداب الفرنجة آثروا الطريقة الخلدونية على الطريقة الفاضلية، لجريانها مع الطبع، وملاءمتها لروح العصر، ومشابهتها لأساليب الفرنجة، فظهرت مهذبة فيما كتب قاسم أمين، وفتحي زغلول، ولطفي السيد، ومن جرى مجراهم. وآنفرد بالأسلوب البديعي رجال دار العلوم ومن يمت بسبب إلى الأزهر من أمثال الشيوخ حمزة فتح اللّه، وتوفيق البكري، وحفني ناصف، ومن حذا حذوهم وبدت على أساليب هؤلاء مظاهر التكلف فأسرفوا في المحاكاة، وأوغلوا في الصنعة وتشددوا في القياس، وتصعبوا في استعمال اللغة، كما بدت على أساليب أولئك مظاهر التطرف فتجوزوا في القواعد وتسامحوا في اللغة، واستخفوا بجمال الصياغة، وهبطوا إلى مستوى العامية. وفي ذلك العهد نشأت على أقلام عرب لبنان النازحين إلى الأمريكيتين طريقة ثالثة فيها الفكرة والطرافة والحركة والتنوع، ولكن فيها الركاكة والتساهل والدخيل والعجمة؛ فكان من رد الفعل الذي لا بد منه لهؤلاء الطرائق الثلاث أن تنشأ طريقة رابعة تأخذ من محاسنها وتخلو من مساوئها فترتضيها الأذواق جميعاً تلك كانت طريقة إحياء الأسلوب العربي الخالص مكمل النقص بما فاته من صور البيان لانقطاع أهله عن مسايرة التمدن الفكري الحديث. استبانت معالم هذه الطريقة في نثر المنفلوطي، كما استبانت في شعر البارودي، ثم نهجها الكتّاب الموهوبون والشعراء المطبوعون فتميزت بالرقة والدقة والسلامة والرصانة والقصد. ثم نبغت طائفة من الكتّاب

جمعوا بين ثقافة الشرق القديم وثقافة الغرب الجديد فبلغوا بالنثر الفني منزلة لم يبلغها في عصر من عصوره. فالأسلوب الذي كتب به المنفلوطي والبشري والرافعي والمازني، ويكتب به العقاد وطه حسين هو ثمرة التطور الحديث في الأدب والعلم والفن والحضارة. وهو وإن اختلف بين الكتّاب في القوة والضعف، والعمق والضحل، والدقة والتجوّز، والتركز والانتشار، يشترك في الصفات الجوهرية للغة وهي الصحة والنقاء والمرونة، وفي الخصائص الأصلية للبلاغة وفي الأصالة والوجازة والتلاؤم.

ولقد تعددت الأساليب في هذا العصر، فكان لكل طبقة أسلوب، كالأدباء والفقهاء والمحامين والصحفيين. وتنوعت الأغراض، فكتبوا فى القانون والسياسة والاجتماع، ونسجوا على منوال ما ترجموه من القصص والروايات الأوروبية.

وعلى الجملة فالمذهب الكتابي المعاصر يجمع كما قلت صفات اللغة الجوهرية وخصائص البلاغة الأصلية، إلى تأثره بالمذاهب الأوروبية والعوامل الاجتماعية والمناحي الثقافية والمعاني الحضرية. والكتاب الذين يتزعمونه اليوم أو يتبعونه نفر من الأدباء الكهول وطائفة من الأدباء الشباب، توفر حظهم جميعاً من علوم اللسان ومفردات اللغة واستنزفوا الشباب في تحصيل الأدب ومعاناته، حتى وقفوا على أطواره وكشفوا عن مخبآته. ويمتاز زعماء هذا المذهب بقسط عظيم من الثقافة الحديثة والاطلاع الواسع والبراعة العجيبة في التوفيق بين القديم المنبعث والحديث المتولد، والتأليف بين الشرق المتخلف والغرب المتطرف، حتى ليقرأهم القارىء البصير بمذاهب الكلام فلا يرجع أساليبهم إلى مذهب من مذاهب العرب ولا إلى مذهب من مذاهب الفرنجة؛ إنما هي أساليب مستقلة تتسم بالشخصية وتمتاز بالأصالة وتنفرد بمكان ظاهر بين أسلوب السلفيين الذي جمد، وأسلوب المتطرفين الذي ماع.

ولا بأس أن نشير هنا إلى أن هناك من ضَعَفَة الكتّاب قعد بهم وَهنُ السليقة وقلة الاطلاع عن مجاراة البلغاء، فأخذوا يدعون إلى العامية باسم المذهب الجديد. ليس لهؤلاء «المتكاتبين» رَأْيٌ مُوَفَّقٌ نجلهُ، ولا مذهب مؤيد نناقشه، وإنما هم يفكرون ويكتبون بأسلوب أعجمي في لفظ عربي يتعثر بين اللحن والركاكة. فحسبنا أن نسجل هذه الظاهرة دون تعليق عليها ولا بيان لها.

الفن القصصي والروائي

سبق القول في حظ العرب من هذا الفن، وقلنا إن قصورهم فيه كقصورهم في الشعر القصصي لأسباب واحدة ودواع متفقة. فلما أثمرت بواكير النهضة الحديثة اقتبس أدباؤنا فيما اقتبسوا من أدب الغرب القصة الأفرنجية بقواعدها ومناهجها وموضوعاتها. وكان أول من فعل ذلك اللبنانيون لسبقهم إلى مخالطة الأوروبيين والأخذ عنهم، كفرنسيس مراش الحلبي

المتوفى سنة ١٨٧٢، وسليم البستاني المتوفى سنة ١٨٨٤ م وجرجي زيدان المتوفى سنة ١٩١٤. ثم عالجها الكتاب المصريون بعد ذلك علاج المحاكاة لما قرأوا من تلك القصص. وكان أول ما ظهر طائفة من القصص والأقاصيص المترجمة، بعضها كان أشبه بالاقتباس لبعده عن أصله بالحذف أو بالزيادة أو بالتغيير كغصن البان لنجيب الحداد، والفضيلة لمصطفى المنفلوطي. والبؤساء لحافظ ابراهيم، وبعضها دقيق الترجمة شديد المطابقة كمرغريت للدكتور أحمد زكي، وابن الطبيعة لإبراهيم عبد القادر المازني، وآلام فرتر ورفائيل وأقاصيص من الأدب الفرنسي لصاحب هذا الكتاب. وقد كانت هذه القصص المنقولة على علاتها أساساً للنهضة القصصية الحديثة في الشرق العربي احتذاها الشباب واستوحاها الكتّاب، لأن المدرسة العربية في مصر وفي غير مصر ظلت على أساليب البلاغة القديمة فلم يدخل في برامجها الأدبية تعليم الفن القصصي والروائي على الطريقة المرسومة في المدرسة الأوروبية. فلما ارتقى الفن الكتابي في الأسلوب الذي علمته في الفصل السابق، وأخذت القصة العربية تتميز بطابعها وتستقل بموضوعها ظهرت طائفة من القصص الفنية القوية كزينب لمحمد حسين هيكل، والأيام لطه حسين. وإبراهيم الكاتب للمازني، وسارة للعقاد، وأهل الكهف لتوفيق الحكيم، وبداية ونهاية لنجيب محفوظ.

وأما المقامات فقد انقضى أمرها وذهب عصرها بذهاب الصناعة اللفظية من الأدب الحديث. وكان آخر من قلد الحريري فيها الشيخ ناصيف اليازجي، ونقولا الترك من الكتّاب اللبنانيين. أما المصريون فقد اقتبسوا الطريقة، ولكنهم وسعوا الحادث ونوعوا الموضوع، كما فعل محمد المويلحي في حديث عيسى بن هشام، وحافظ إبراهيم في ليالي سطيح، فقد احتفظا بالمنهج والأسلوب، وأسهبا في الموضوع بالاستتباع والاستطراد حتى أصبح عملهما وسطاً بين المقامة والقصة.

تلك حال الفن القصصي. وأما الفن الروائي أو المسرحي، فظل غريباً عن الأدب العربي لا يألفه ولا يعرفه حتى علمه من الأدب الغربي عن طريق المشاهدة والنقل. فهبت طائفة من الذين درسوا الآداب الغربية أو زاروا البلاد الأجنبية يزاولونه بالمحاكاة والاحتذاء دون أن يتجهزوا له بجهازه، ويستعينوا عليه بأداته، فالتوى عليهم وأعضل حتى كاد يسمهم بالعجز عنه. اللهم إلا ما كان من أمر شوقي فقد حاول أن يسد النقص الموروث في الشعر العربي فاستحدث الشعر التمثيلي وخطابه في طريق الكمال خطوة موفقة بنظمه روايات: علي بك الكبير، وكيلوبترا، ومجنون ليلى، وقمبيز، وعنترة، والست هدى. ثم توفاه الله قبل أن يبلغ به الغاية وعلى نهجه المعبد سار الشاعر عزيز أباظة في رواياته قيس ولبنى والعباسة، والناصر وشجرة الدر وقد أخذت الجمهورية العربية المتحدة تهيء للفن القصصي والروائي أسباب الوجود بمكافأة الكتاب ومساعدة الممثلين فعسى أن يسفِر أملها عن وجه النجاح فتتم بداءة الخديو إسماعيل، في إيجاد هذا الفن الأدبي الجميل.

الفصل الرابع

أساطين النهضة الحديثة

في مصر والشام والعراق والمغرب

ممن نبغ من المصريين في هذا العصر وقوّى هذه النهضة برَوحِه ورُوحه، الشيخ عبد الرحمن الجبرتي صاحب التاريخ المعروف باسمه، درس في الأزهر دراسة كاملة، ثم آتصل بالفرنسيين أيام احتلالهم مصر فاستكتبوه في الديوان ثم آنقطع للتأليف فصنف كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار ثم توفي سنة ١٨٢٥ م ثم الشيخ محمد المهدي شيخ الجامع الأزهر وأحد أعضاء الديوان الخصوصي لنابوليون، وُلد قبطياً ثم أسلم ودرس في الأزهر حتى رأسه. ألف كتاب تحفة المستيقظ الآنس، في نزهة المستنيم الناعس، وهو أشبه بألف ليلة وليلة، وكانت وفاته سنة ١٨١٥ م. ثم الشيخ حسن العطار وهو ناظم ناثر، ولد بالقاهرة ثم تعلم بالأزهر واتصل بالفرنسيين ورحل إلى الشام فأحدّ ذلك من فهمه وزاد في علمه. ثم تولى التدريس في الأزهر ورقي إلى أن صار شيخاً له، وتوفي سنة ١٨٣٣ م. ثم السيد علي الدرويش شاعر الأمير عباس الأول، نشأ في القاهرة وعاش موفور الكرامة بشعره. وقد جمع شعره أحد تلاميذه في ديوان سماه: الإشعار بحميد الأشعار. وكانت سنة ١٨٥٣ م. ثم الشيخ شهاب الدين صاحب سفينة الملك، ولد بمكة ثم وفد إلى مصر ليتعلم في الأزهر فنبغ في الأدب وألمّ بالحساب والهندسة والموسيقى، ثم اشتغل بالتحرير في الوقائع والتصحيح في مطبعة بولاق حتى توفي سنة ١٨٥٧ م. ثم رفاعة بك الطهطاوي أحد أركان النهضة العلمية، ومدير المدرسة التجهيزية، ومنشىء الوقائع المصرية، ولد بطهطا وتعلم في الأزهر، وأرسله محمد علي فيمن أرسل إلى فرنسا فأتم دراسته ثم عاد فعكف على التحرير والترجمة والتأليف والتعليم حتى وافاه حمامه سنة ١٨٧٣ م. ثم الشاعر محمود صفوت الساعاتي نشأ في القاهرة وتوفي بها سنة ١٨٨٠ م. ثم الشيخ عبد الهادي نجا الأبياري الشاعر المطبوع واللغوي الحجة والمؤلف النابه، ولد في أبيار من أعمال الغربية ثم ثقف العلم بالأزهر واتصل بإسماعيل فجعله إمامه ومفتيه. ثم أتاه اليقين سنة ١٨٨٨ م. ثم

العلامة الشيخ حسين المرصفي شيخ المعلمين وعمدة المؤلفين وصاحب الوسيلة الأدبية في العلوم العربية. تخرج في الأزهر وعلم به ورزق ما يرزُقه مكفوفو البصر من لطف الحس وذكاء الفؤاد. توفي سنة ١٨٨٩. ثم الأديب الشاعر عبد الله باشا فكري ناظر المعارف في عهد إسماعيل، ومؤلف الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية. توفي سنة ١٨٨٩ م. ثم المصلح الكبير علي مبارك باشا منظم المدارس المصرية، ومنشىء المكتبة الخديوية (دار الكتب)، ومؤلف الخطط التوفيقية، وقصة علم الدين. شارك في علوم كثيرة، وتقلب في مناصب خطيرة، منذ ولاية محمد علي إلى عهد توفيق. ثم توفي سنة ١٨٩٣ م. ثم الأديب القدير السيد عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية، وله ترجمة خاصة ثم المترجم البارع محمد عثمان بك جلال ناقل أمثال لافونتين في كتابه العيون اليواقظ، ومترجم ترتوف وبول وفرجيني إلى العامية، ومؤلف السياحة الخديوية في الأقاليم المصرية، توفي سنة ١٨٩٨ م. ثم السيدة الفاضلة عائشة التيمورية، نبغت في الشعر العربي والتركي وخلفت في كل منهما ديواناً. ولها غيرهما كتائب نتائج الأحوال في الأدب ولدت بمصر سنة ١٨٤٠ م، وتوفيت بها سنة ١٩٠٢. ثم الاجتماعي الألمعي والكاتب المفكر قاسم بك أمين محرر المرأة المصرية، وأحد رسل الإصلاح الاجتماعي، ومؤلف كتابي تحرير المرأة والمرأة الجديدة، وأثرهما في النهضة النسائية معروف. توفي سنة ١٩٠٨. ثم الخطيب المِصْدَع، والسياسي المجرب، والوطني الصادق، والصحافي البارع، مصطفى باشا كامل، وله ترجمة خاصة ثم الفقيه المحقق، والمترجم البارع، فتحي باشا زغلول، شارح القانون المدني، ومؤلف كتاب المحاماة، ومترجم كتب جوستاف لوبون، ومحرر القوانين المصرية. توفي سنة ١٩١٤ م. ثم الكاتب الرشيق السيد مصطفى لطفي المنفلوطي، وله ترجمة خاصة. ثم العبقري الفذ والمحامي المدْرَه والأصولي البارع، والخطيب المصقع، والكاتب النابغ والسياسي المحنك، سعد باشا زغلول وله ترجمة خاصة. ثم اللغوي المؤرخ المحقق أحمد باشا تيمور صاحب الخزانة التيمورية، ومعجم اللغة العامية، والمؤلفات القيمة، والمقالات الممتعة في اللغة والتاريخ. توفي سنة ١٩٣٠ م. ثم الكاتب الناقد الرقيق محمد بك المويلحي صاحب حديث عيسى بن هشام، توفي سنة ١٩٣٠ م. وله ترجمة خاصة ثم أمير الشعراء وخليفة المتنبي أحمد بك شوقي وله ترجمة خاصة. ثم شاعر النيل، وأديب الشعب، محمد حافظ بك إبراهيم وله ترجمة خاصة. ثم الأديب المطلع والمثقف النابغ أحمد زكي باشا صاحب الخزانة الزكية، ومحي المؤلفات العربية، وناشر الثقافة الإسلامية، توفي سنة ١٩٢٤.

وممن نبغ من اللبنانيين والسوريين المعلم الشاعر بطرس كرامة الحمصي مادح الأمير بشير الشهابي ومعلم ولده وموضع ثقته. جمع شعره في ثلاثة دواوين لم يطبع إلا واحد منها. توفي سنة ١٨٥١. ثم الفيلسوف الشاعر فرنسيس مراش الحلبي أقدم دعاة الحديث؛ وأول رسل التجديد، ومؤلف طائفة من الكتب المفيدة. توفي ضريراً سنة ١٧٨٣ م. ثم الصحفي

المنشىء أديب إسحق، رئيس قلم الإنشاء في نظارة المعارف المصرية على عهد توفيق، ولد بدمشق ودرس فيها ثم رحل إلى مصر فلقي جمال الدين، وكان له أثر ظاهر في النهضة الأدبية الحديثة، توفي سنة ١٨٨٥ م. ثم المصلح الاجتماعي والكاتب السياسي الشيخ عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتابي (طبائع الاستبداد) (وأم القرى)، جاب أكثر الممالك الإسلامية، ثم ألقى عصاه بمصر سنة ١٩٠٢م. ثم الكاتب الأديب جميل المدور صاحب حضارة الإسلام في دار السلام، ولد ببيروت وتوفي فيها سنة ١٩٠٧ م. ثم الأديب الكبير، والصحفي البارع، والمترجم القدير، الشيخ نجيب الحداد، امتاز بكثرة ما نقل، ووضع من الروايات التمثيلية، ثم توفي في ريعان شبابه سنة ١٨٩٩ م ثم العلامة المؤرخ الحجة اللغوي الثبت الشيخ طاهر الجزائري عالم دمشق وأديبها توفي سنة ١٩٢٥ م. ثم المؤرخ النابه، والصحفي النابغ، والقصصي المبدع، جرجي بك زيدان، منشىء الهلال، ومؤلف طائفة من الكتب القيمة في التاريخ والأدب، واللغة والاجتماع، ورائد الفن القصصي التاريخي في الشرق. توفي سنة ١٩١٤ م. ثم الفيلسوف المحقق، والصحفي المجدد، الدكتور يعقوب صروف منشىء المقتطف وأحد رسل العلم الحديث، توفي سنة ١٩٢٧ م.

وممن نبغ في العراق آل الآلوسي، وأشهرهم العلامة الفقيه شهاب الدين الآلوسي صاحب التفسير الشهير المرسوم بروح المعاني في تسعة مجلدات. توفي ببغداد سنة ١٨٥٤ م. ثم حفيده السيد محمود شكري الآلوسي أديب العراق ومؤلف كتاب بلوغ الأرب في أحوال العرب في ثلاثة مجلدات، توفي سنة ١٩٢٣ م. ثم الشاعر الرقيق عبد الغفار الأخرس المتوفى سنة ١٨٧٣ م. ثم الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي المتوفى سنة ١٩٣٧ م، وله ترجمة خاصة. ثم العلامة اللغوي الأب أنستاس ماري الكرملي عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة المتوفى سنة ١٩٤٧ م.

وممن نبغ في المغرب الكاتب السياسي المصلح محمد بيرم مؤلف الرحالة الموسومة بصفوة الاعتبار بمستودع الأمصار، في خمسة أجزاء. وفد إلى مصر فأنشأ بها جريدة «الأعلام» واتخذها مُقامه حتى توفي سنة ١٨٨٩. ثم الوزير العالم خير الدين باشا صاحب كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، وهو من خير ما كتب في بابه. سمت به كفايته إلى أن تقلد الوزارة في تونس، والصدارة العظمى في الآستانة، وتوفي سنة ١٨٩٠ م. ثم الفقيه السياسي المصلح السيد عبد الحميد بادريس الجزائري المتوفى سنة ١٩٤٠ م. ثم الشاعر الشاب الثائر الحر أبو القاسم الشابي التونسي سنة ١٩٢٤.

ثم بقيت طائفة من نابغي الكتاب والشعراء والأدباء والخطباء، آثرنا أن نخصهم بشيء من التفصيل والتحليل.

الكُتّـاب

٨١ ـ جمال الدين الأفغاني
١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م
١٢٥٣ ـ ١٣١٤ هـ

حياته وأعماله:

ولد السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر بقرية أسد آباد من أعمال كابل ببلاد الأفغان في بيت كريم الأصل يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين سؤدد الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية. ثم درج في بيئة تعتز بطباع البداوة من حرية وحمية وأريحية وأنفة. ثم تحول أبوه إلى كابل وهو في الثامنة من عمره فتلقى فيها مبادىء العلوم العربية والأدبية والشرعية والعقلية وعلى منهاج محيط شامل. ثم حذق في مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والأوردية والفارسية والتركية والفرنسية، وألمَّ بالإنجليزية والروسية، فآتصل منها بثقافة الشرق والغرب في القديم والحديث. ثم أخذ يطوِّف ما شاء اللّه أن يطوِّف في أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركية وإنجلترا وروسيا فآزداد بصراً بأحوال الدول وأخلاق الشعوب. ثم كان رضي اللّه عنه متواضع النفس لأنه عظيم، جريء الصدر لأنه حر، ندي الراحة لأنه زاهد، ذرب اللسان لأنه قرشي، أبي الضيم لأنه أمير، حادّ الطبع لأنه مرهف، صريح القول لأنه رجل. ولم يبتغ من وراء هذه الصفات ـ كما قال ـ إلا سكينة القلب. وكان يحمد اللّه على أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد ويفعل ما يقول. ومن امتزاج هذه الشمائل وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض، وآمتد أمامه الأفق، وآنصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامي كله، والشرف الإنساني كله، فجعل قصده ووكده أن يدعو إلى إنهاضهما بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر، وبالحكومة الدستورية لتقمع شرّه المستبد.

وقد آمن من هذه الدعوة إيمانه باللّه حتى رأى في سبيلها السجن رياضة والنفي سياحة والقتل شهادة!

وكان الذين يقفون من سيرة الأفغاني على الهامش يظنون أنه قصر جهده في تحقيق

---

٨١ ـ انظر ترجمته في: تاريخ الصحافة العربية: ٢/٢٩٣ ـ ٢٩٩، ودائرة المعارف الإسلامية: ٧/٩٥ ـ ١گ١، وزعماء الإصلاح: ٥٩ ـ ١٢٠، وحاضر العالم الإسلامي: ٢/٢٨٩ ـ ٣٠٣، وانظر الأعلام للزركلي: ٦/١٦٨ ـ ١٦٩.

هذه الدعوة على الكتابة والخطابة. والواقع الذي لا شك فيه أنه فكر ثم قدّر ثم دبر، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم.

تولى الوزارة وهو في ريِّق شبابه لأمير الأفغان محمد أعظم، فجمع نفسه على الاستقلال، ودار أمره على الشورى، فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة، فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة وفرّق الكلمة وطرد الأمير. وخرج السيد إلى الهند يبتغي السكينة عند تاجر صديق، فآستقبله الإنجليز على الحدود، وأنزلوه بالإكراه ضيفاً على الحكومة. فسألهم الإقامة شهرين، ولكنهم حين رأوا إقبال الناس عليه، وإصغاءهم الشديد إليه، قصَّروا هذه المدة وأمروه بالخروج. وكادت الأعصاب الهندية المخدرة تثور حين قال لزعماء الهنود وهو راحل:

«وعزة الحق وسر العدل، ولو أن ملايينكم مُسخت ذباباً لأخرجت الإنجليز بطنينها من الهند. ولو آنقلبت سلاحف وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية لجذبتها إلى القاع».

وفي الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجله، وأحله أعيان الدولة محل الكرامة. ثم عين عضواً في مجلس المعارف، فرأى في التعليم رأياً وخطب في الصناعة خطبة؛ أحفظا عليه أعوان الجهل من رجال العلم وإخوان الضلال من شيوخ الدين. وتولى قيادة الإرجاف شيخ الإسلام لحاجة في نفسه، فآعترى على الرجل الأباطيل، وبس حواليه التمائم، فلم يجد الأفغاني بداً من النزوح إلى القاهرة.

وهنا وجد الصدر الأرحب في رياض باشا، فتجلت عبقريته في التعليم والتنبيه والتوجيه. وأوفد بالزيت المقدس شعلته الوهاجة في البيت وفي القهوة. فعشا على ضوئها الهادي طلاب المعرفة وعشاق الحكمة من علماء وأدباء وساسة وقادة. ثم اتخذ من المحفل الماسوني الذي أنشأه منارة لهذه الشعلة، فقسم الاخوان العاملين فيه شعباً لكل وزارة من وزارات الدولة شعبة. فشعبة الحرية تنظر في ظلامة الضباط المصريين، وتنذر (ناظر الجهادية) أن ينصفهم من الضباط الجراكسة. وشعب الحقانية والمالية والأشغال تنذر وزراءها أن يساووا المصريين بغيرهم في العمل والمرتب، وراع أُولي الأمر ما قرأوا في تقارير الشعب، وما سمعوا من لغط الموظفين، وما رأوا من قلق المثقفين، فآستدعاه الخديوي توفيق وفاوضه في ذلك فقال له فيما قال: «إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب في حكم البلاد عن طريق الشورى». ثم ازداد جمال الدين إمعاناً في حملته، وانقلب الأدب كله أصداء لأحاديثه وأبواقاً لدعوته، حتى انتهى الأمر - بعد جهاد ثماني سنوات إلى أن ضاق الإنجليز بسعة نفوذه، فزينوا للخديو أن يخرجه من مصر فأخرجه.

وآنتقلت الشعلة إلى باريس، وسطعت في (العروة الوثقى)، وظلت ألسنتها ثمانية عشر شهراً تومض في جنبات الشرق كما تومض المنارة في ظلمات المحيط، حتى دلت

على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة، فآستقدمه شاه العجم واستوزره، فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه. واستزاره قيصر الروس واستخبره، فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه. واستدعاه خاقان الترك واستشاره، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الإمبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أمراء عثمانيون زوى عبد الحميد ما بين عينيه؛ ولكنه ألطف الجواب للحكيم الشجاع، وظل على إكرامه واحترامه أربع سنين حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج فلم يستطع، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الحر ليبلغ الاستبداد أجله المقدور فمرض بالسرطان في الآستانة وتوفى به في اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٩٧ م.

نموذج من نثره:

كتب إلى عبد اللّٰه باشا فكري يعتب عليه وقد بلغه أن رجلاً ذمه أمام الخديو عَلَى مسمع منه، فسكت ولم يدافع عنه:

مولاي! إن نسبتك إلى هوادة في الحق وأنت - تقدست جبلتك - فطرت عليه وتخوض الغمرات إليه، فقد بعت يقيني بالشك وإن توهمت فيك حيداناً على الرشد، وجوراً عن القصد وأنا موقن أنك ما زلت على السداد غير مفْرط ولا مفَرط فقد استبدلت علمي بالجهل. ولو قلت: إنك من الذين تأخذهم لا في الحق لومة لائم، وتصدهم عن الصدق خشية ظالم، وأنت تصدع به غير وان ولا ضجر، ولو ألّب الباطل الكوارث المردية، وأجرى عليك الخطوب الموبقة لكذبت نفسي وكذبني من يسمع مقالتي، لأن العالم والجاهل والفطن والغبي كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيتك، ونقاوة سريرتك واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت، والحق معك أينما كنت، لا تفارق المكارم ولو اضطررت وأنت مجبول على الخير لا يحوم حولك شر أبداً؛ ولا تصدر عنك نقيصة قصداً، ولاتهن في قضاء حق، ولا تني عن شهادة صدق - ومع ذا وهذا وذاك إنك مع علمك بواقع أمري، وعرفانك بسريرتي وسري، أراك ما ذدت عن حق كان واجباً عليك حمايته، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته، وكتمت الشهادة وأنت تعلم أني ما أضمرت للخديو ولا للمصريين شراً، ولا أسررت لأحد في خفيات ضميري ضراً. وتركتني وأنياب النذل اللئيم (فلان) حتى نهشني نهش السبع الهرم العظام، ضغينه منه على السيد إبراهيم اللقاني وإغراء من أعدائي أحزاب (فلان)! ما هكذا الظن بك، ولا المعروف من رشدك وسدادك؛ ولا يطاوعني لساني - وإن كان قلبي مذعناً بعظم منزلتك في الفضائل مِقراً بشَرف مقامك في الكمالات - أن أقول: عفا اللّٰه عما سلف، إلا أن تصدع بالحق، وتقيم الصدق، وتظهر الشهادة إزاحة للشبهة، وإدحاضاً للباطل، وإخزاء للشر وأهله. وأظنك قد فعلت أداء لفريضة الحق والعدل. ثم إني يا مولاي أذهب الآن إلى لندن ومنها إلى باريس مسلماً عليكم، وداعياً لكم - والسلام عليكم وعلى أخي الفاضل البار أمين بك.

٨٢ ـ الأستاذ الإمام محمد عبده
١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م
١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ

نشأته وحياته:

وُلد محمد عبده بن عبده بن حسن خير اللّه بمحلة نصر من إقليم البحيرة بمصر ونشأ نشأة الأوساط من القرويين، فآستظهر القرآن في كتَّاب القرية، وأُرسل في طلب العلم إلى الجامع الأحمدي فالأزهر الشريف، ولكنه مُنيَ في أول دراسته بمعلمين غير أكفاء لقّنوه المسائل من غير تفهيم فسئمها وفرّ. فلما ذاق حلاوة العلم صبر عَلَى مرارة التعليم، واستغرق وسعه في الدرس حتى نال في قليل من الزمن كثيراً من العلم. ولم يكن منهاج التعليم الأزهري في ذلك العهد كفيلاً بتخريج الطالب كما كان الإمام صحيح الحكم، وثيق الحجة، ساحر البيان، غزير العلم، كريم الخلق، ثابت البصيرة؛ ولكن السيد جمال الدين الافغاني حكيم الشرق وفيلسوف الإسلام هو الذي جمَّله بهذه الصفات وكمله بتلك العلوم. وردَ ذلك الحكيم مصر في عهد إسماعيل فورد شِرْعته أذكياء الطلاب، فكانوا دعاة النهضة الحديثة وهداتها. وكان الإمام آثرهم عنده وأوفرهم حظاً منه، حتى قال فيه وهو مفارق مصر: إني خلفت في مصر خيراً كثيراً في علم الشيخ محمد عبده».

فلما رحل عن مصر جمال الدين استأنف الأستاذ النظر في العلوم وآستقى الدين من مشارعه الصافية حتى أصبح إماماً في العلوم العقلية والنقلية واللسانية، فنال درجة العالمية سنة ١٢٩٤ هـ. ثم اختير مدرساً للأدب والتاريخ بدار العلوم ومدرسة الألسن، وأسندت إليه بعد ذلك رياسة تحرير الوقائع الرسمية وإصلاح اللغة العربية.

ثم أخذت مبادىء الأفغاني تزكو في القلوب وتهفو بالنفوس، حتى أفضت إلى الثورة العرابية، وكان الاستاذ ممن شايع وبايع وأفتى بخلع الخديو توفيق فحكم عليه بالنفي. فقصد سورية ولبث فيها ست سنين شرح في أثنائها كتابي نهج البلاغة ومقامات البديع. ثم غادرها إلى باريس حيث كان جمال الدين، فأنشآ معاً جريدة (العروة الوثقى) ونشرا بها دعوة الدين والعلم والأدب والإصلاح؛ فآهتزت لها القلوب الطيبة في العالم الإسلامي، ولكنها لم تدم طويلاً. وآستهوى الأستاذ ما رأى وسمع من حضارة الغرب وعلومه فطمعت نفسه إلى الأخذ منها بنصيب، فآبتغى الوسيلة إلى ذلك بتعلم اللسان الفرنسي فتعلمه في بضعة أشهر.

---

٨٢ ـ انظر ترجمته في: زعماء الإصلاح: ص ٢٨٠، ومذكرات عناني: ص ١٨٧، والفكر السامي: ٣٦/٤، ومشاهير الكرد: ١٥٧/٢، ومجلة الحج: ٣٢٢/٧، ومعجم المطبوعات: ١٦٧٧، والأعلام للزركلي: ٢٥٢/٦ ـ ٢٥٣.

ثم شمله العفو الخديوي فعاد إلى وطنه نير القلب غزير العلم محنك السن، وعين مستشاراً في محكمة الاستئناف، وعني بتدريس البيان وتفسير القرآن بـالأزهر. فكـان درسه مجمعـاً لرجال القانون والأدب والصحافة والتعليم. وتولى منصب الإفتاء فـظل فيه حتى تـوفاه اللّه بالسرطان في الإسكندرية ودفن بالقاهرة.

صفاته وأخلاقه:

كان الأستاذ ربع القامة، أسمر اللون، قوي البنية، حاد البصر، بليغ العبارة، فصيح اللسان، ذكي القلب، شديد العارضـة، قوي الحـافظة. وكـان أشبه بـابن خلدون في كبر نفسه، وصفاء عقله، وبعد نظره، وقوة جأشه وكرم خلقه، وصراحة قوله، حتى في خصوصية زيِّه. وقد كابد مثله في رضا الحق ومحاربة البدع سخط الخاصة وغضب العامة، شأن زعماء الإصلاح في كل أمة.

أثره في اللغة والأدب:

كانت اللغة في عهده فريسة العجمة رهينـة البلى فجاهـد في إنقاذهـا وإحيائهـا حق جهاده: كان وهو يحرر الجريدة الرسمية يراقب ما ينشر في الصحف ويكتب في الدواوين، ويـدمج الفصـول في نقـص الأسـاليب وخطأ التـراكيب، وينشر نمـاذج من تلك الكتابـات السقيمة العقيمة ويـدل على عيوبهـا، ويكتب غيرهـا في موضعهـا تعليماً للكتَّـاب وتدريبـاً للناشئة. ثم سلك في التدريس غير سبيل الأزهريين، فقرأ كتَابَيْ عبـد القاهـر في البلاغـة بأسلوب يملك الأسماع والقلوب، وفسر كتاب اللّه بلسان رسولـه. فكان في درسـه خطيبـاً جزل المنطق قوي المعارضة لا تدركه حبْسةٌ ولا يرهقه حصرٌ. فأفاد الطلاب ببيانه مثـل ما أفادهم بتبيينه. وهو الذي ساعد على إحياء الكتب العربية، وسن في الأزهر تدريس الأدب فآعتضد في الأول بالإمام محمد محمود الشنقيطي، وآعتمد في الثاني على أستاذنا سيد بن علي المرصفي.

أثره في العلم والدين:

غام أفق الدين بسحب البدع والأضاليل، فطلع الأستاذ من فكره وعلمه نيراً بدد غيوم الباطل، وجدد رسوم الحق. ورأى العلم قـد أخذ ينغِضُ إلى الـدين رأسه، فـوقف بينهما موقف المؤلف الموفق، كما فعل ابن سينا وابن رشد من قبـل، وأخذ يفسـر القرآن بلسـان العلم والعقل، وكتب رسالته في التوحيد بقلم عبد القاهر فقرب العقائد من الأفهام، وحسر عنها ظلال الإبهام. وسمع ألسنة المبشرين والمستعمرين تمتد إلى جوهر الإسلام بالإفك، فقطعها بالأدلة النواهض والحجج الملزمة. وكتاب (الإسلام والنصرانية) ورده على هانـوتو الفرنسي من تلك الأسلحة التي أجهزت عَلَى تلك الشُبه المدفوعة.

وجملة القول أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المجتهدين والعلماء المحققين

الذين يصطفيهم اللَّه من خلقه لنصرة حقه، فيجددون حبل الدين، ويشيدون أركان العلم، ويدفعون عن الأرض الفساد.

أسلوبه:

للأستاذ في الترسل أسلوب خاص كأنه قِطع الرياض، تقرأه في الردود والمقالات: وقد ينحو في رسائله نحو ابن العميد فيتكلف السجع ويكلف بالصنعة؛ ويقصد قصد الجاحظ في تأليفه، فتتساوق أغراضه، وتتراصف فِقره. فهو متصرف في أنواع الكلام يلبس كل معنى ما يلائمه من الأساليب. أما الشعر فما علمناه يقرضه. ولكن الناس رووا له أبياتاً قالها في سياق الموت وهي:

ولست أبالي أن يقال محمدٌ ... أبلّ أو اكتظت عليه المآتم

ولكن ديناً قد أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضي عليه العمائم

فيا رب إن قدرت رُجْعَى قريبة ... إلى عالم الأرواح وأنقض خاتم

فبارك على الإسلام وارزقه مرشداً ... رشيداً يضيء النهج والليل قائم

نموذج من نثره:

كتب إلى بعض علماء الشام جواباً عن كتاب هنأه فيه بمنصب الإفتاء، وقد شكا فيه الإمام ما كابده من عنت الشيوخ في سبيل الاصلاح:

أنصفني قومك إذ سُروا بنيلي الإفتاء، ولعل ذلك لشعورهم بأنني أغير الناس على دين اللَّه، وأضراهم بالدفاع عن حماه، وأدراهم بوجوه الفرص عند سنوحها، وأحذقهم في انتهازها لإبلاغ الحق أمله، أو يبلع الكتاب أجله، على أنهم مني بحيث لا يفسد نفوسهم الحسد، ولا يتقاذف بأهوائهم اللدد. وكل ذي دين يشتهي أن يرى لدينه مثل ما أحت إليه عزيمتي، وأخلص له في العمل لتحقيقه نيتي، خصوصاً إن كفى فيه القتال، ولم يكلف بشد رحال ولا بذل أموال.

أما قومي فأبعدهم عني أشدهم قرباً مني. وما أبعد الإنصاف منهم؟ يظنون بي الظنون، بل يتربصون بي ريب المنون، تسرعاً منهم في الأحكام، وذهاباً مع الأوهام، وولعاً بكثرة الكلام، وتلذذاً بلوك الملام. أقول فلا يسمعون، وأدعو فلا يستجيبون، وأعمل فلا يهتدون، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون، وأضع أيديهم عليها فلا يحسون، بل يفرون إلى حيث يهلكون شأنهم الصياح والعويل، والصخب والتهويل، حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

وأقول ولا في الخير.

وإنما مثلي فيهم أخ جهله إخوته، أو أب عقته ذريته، أو ابن لم يحن عليه أبواه

وعمومته، مع حاجة الجميع إليه، وقيام عَمَدِهِم عليه. يهدمون منافعهم بإيذائه، ولو شاؤوا لاستبقوا بآستبقائه، وهو يسعى ويدأب، ليطعم من يلهو ويلعب. على أني أحمد اللّه عَلَى الصبر، وسعة الصدر، إذا ضاق الأمر، وقوة العزم، وثبات الحلم. وإن كنت في خوف من حلول الأجلِ، قبل بلوغ الأملِ، خصوصاً عندما أرى العمل في أرض ميتة وذابت عليها السماء مطراً، لما أنبتت زرعاً ولا أطلعت شجراً. أفزع لذكرى ذلك ويجزع، ويكاد قلبي يتقطع. ثم أرجع إلى اللّه فأعلم أنه مع الصابرين، وأنه لا يضيع أجر العاملين، فيثلج صدري وأمضي في جهادي الدائم. ولعل اللّه يحدث بعد ذلك أمراً. . .

وليتني كنت أشكو إلى اللّه جهل العالمين وحمق المعلمين، في مثل هذه الجاهلية التي بعث النبي ﷺ لمحو أحكامها، وإزالة أيامها. تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيداً، ولكن كان فهم القوم حديداً لذلك عندما لاح لهم ضوء الهدى أبصروه، وعندما قرع أسماعهم صوت الداعي أجابوه. كان القرآن يصدع أفئدتهم فيلين من شدتهم ويفل من شِرتهم، ويفجر من صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة. وما كان أهل العناد فيهم إلا قليلاً عرفوا الحق فأنكروه، وطائفة كانوا يفرون منه خوف أن يعرفوه. ولو سمعوا لفهموا، ثم لم يجدوا بداً من ينصروه وإن الجحود مع الفهم كاليقين مع العلم، كلاهما قليل في بني آدم. أما اليوم فإنما أشكو من قلة الفهم، وضعف العقل، واختلال نظام الادراك، وفساد الشعور عند الخاصة، فلا تجذبهم فصاحة ولا تبلغ منهم بلاغة وغاية ما يطلبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وأن يوصفوا بالعلم وإن لم يعقلوا، وأن تُقْضَى حاجاتهم إذا سألوا، وأن ترفع مكانتهم وإن نزلوا. وإن استعداد السامع للفهم يستدرك المقال، ويسدد الفكر للنضال في الجدال، أما عيشك فيمن لا يفهم فإنه ينضب منك ينبوع الكلام، ويطمس عين الفكر، ويزهق روح العقل.

٨٣ ـ الشيخ علي يوسف
١٨٦٣ ـ ١٩١٣ م
١٢٨٠ ـ ١٣٣١ هـ

نشأته وحياته:

ولِد هذا السياسي النابه والصحفي النابغ في بلدة بلصفورة من أعمال مديرية جرجا

---

٨٣ ـ انظر ترجمته في: مرآة العصر: ص ٥٣٧، ومجلة الكتاب: ٢٣٢/٦ ـ ٢٤٩، وهدية ٧٧٧/١، وانظر الأعلام للزركلي: ٢٦٢/٤.

من أسرة زكية المغرس رقيقة الحال، ولم يكد يحول عَلَى مولده الحول حتى فجعه الموت في أبيـه، فارتحلت بـه أمه إلى أخـواله في بني عـدي من أعمال منفلوط حيث درج وشب وحفظ القرآن وشدا شيئًا من مبادىء العلوم. وفي عام ١٢٩٩ هـ بعثوا به إلى الأزهر، فطلب العلم على طائفة من صفوة الأشياخ بضع سنين ألمَّ فيها بـالفقه والنحـو والصرف والبـلاغة والمنطق والتوحيد ومبادىء الفلسفـة، إلا إنه أحسن في نفسـه السمو والـطموح، ورأى في الأزهر الجمود والخمـود، فصدف عن حيـاة الأزهريين ووصـل أسبابـه ببعض أبناء السـراة يسـاهـرهم ويقـول الشعـر فيهم، حتى هبط مصـر المـرحـوم أحمـد فـارس الشـديـاق صاحب الجوائب وأنشأ جريدة (القاهرة الحرة) فاتصل به الشيخ علي وأعانه على تحريرهـا فكسبه ذلك ملكة الذوق الكتابي، وأسرار الفن الصحافي، فأخرج صحيفة سماها (الآداب) ظلت تصدر حتى سنة ١٣٠٧ هـ. ويومئذ أراد الله لهـذه النفس الغلابـة والهمة الـوثابـة أن تحطم القيود وتتجاوز الحدود وتتعجـل القدر، فصحت عـزيمـة الشيـخ علي أن يصدر هـو والشيخ أحمد ماضي أحد رفقائه في الأزهر جريدة يومية سياسية دعاها «المؤيد».

ظهر العدد الأول من هذه الصحيفة في ربيع الآخر سنة ١٣٠٧ هـ أو في أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ م ولا عدة لهـا من مال، ولا نـاصر لهـا من حكومـة، ولا عون لهـا من حزب، ولا مشجع لها من جمهور فَلَقِيَ الرجل في سبيلها برْحًا شديداً وَجهداً باهراً حتى أسعفه الله حينئذ بصحبة المحامي المدره سعد افندي زغلول. والكاتب الألمعي إبراهيم أفندي اللقاني وأضرابهما، فأمدوه بالمال والكتابة؛ ولكن الخـلاف دب دبيبه بين الشـريكين فلم يتفقا إلا على أن يكون المؤيد خالصـاً للشيخ علي إذا أدى لشريكه مائة جنيه عيناً. فكاد يصبح الأمر فوْت يده لولا أن تلك اليد البيضـاء يد سعـد زغلول امتدت إليـه ثانيـة في أحلك ساعـات اليأس، فألقت إليه بصرَّة فيها المال كله. وسار المؤيد بعد ذلك في طـريق النجاح مسـدد الخطى مؤيد العزيمة يحدوه (رياض) رئيس الحكومة بنفوذه، ويمده أعيان البيان بالمقالات الممتعة، كسعد بك زغلول. والشيخ محمد عبده، والشيـخ عبد الكـريم سلمان، والسيـد توفيق البكري، وفتحي بك زغلول، وإبراهيم بك المويلحي؛ وقاسم بك أمين، واسماعيل باشا أباظه، ومصـطفى لطفي المنفلوطي. فـانتشر في العـالم الإسلامي انتشـاراً لم تعرفـه صحيفة قبله. وبلغ ما يطبع منه في اليوم، وعهده عهد أُمِّيَـة وجهالـة، ثمانيـة آلاف نسخة وأبلى في الدفاع عن الإسلام والذياد عن العرش بلاء أرضى عن صاحبه الخليفة والخـديو والأمة، فجملوا اسمه بالألقاب، وزينوا صدره بالأوسمة، وعطروا ذكره بالثناء، ولكن تجار الفساد أرهجوا بينه وبين الأجانب فرموه بالتعصب، واستعدَوا عليه القناصـل، فكان يتغلب على هذه العراقيل والأباطيل بصدق عزيمته وقوة حزمه.

ثم أصهر إلى آل السادات من الصوفية فكان لهذا الصهر قضية وشهرة، ولكنه انتهى على ما عوده الله بالفلج والظفر فاسترد الزوجة، واغتصب السجادة الوفائية.

وعرُف الشيخ علي بالولاء للقصر والإخلاص في خدمة العرش حتى حل من الخديو عباس محل الناصح الأمين. وآل أمر صحيفته إلى أن أصبحت من القصر سنانه المسلول ولسانه الناطق. وعاش هذا الرجل العصامي النابغ على كثرة حاسديه وقوة منافسيه وَلَدِ مخالفيه موفور الكرامة مرفوع المكانة جليل الخطر في نفوس الجميع حتى اختاره الله إلى جواره في يوم السبت ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩١٣ م.

أخلاقه وفضله:

كان للشيخ عليّ حظ عظيم من نبل الخلق وفي ذلك سر نجاحه. كان دمث الطبع، متواضع النفس، رحب الصدر، جم المروءة، شديد الوفاء، مرهف الذهن، سريع الفطنة، شديد الاتكاء على نفسه؛ وكان بعيد الحور، فرماه خصومه، بالمكر والدس، واسع الأناة في السياسة فرموه بالغلول والخيانة، وكان سباقًا إلى الفضل دعَّاءً إلى الخير لا ينسى الناس له أثره في إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية، وجعل التعليم في المدارس باللغة العربية، ولا يزالون يذكرون في ذلك قوله: «إن تعليم الأمة بلغتها ينقل العلم إليها، أما تعليمها بلغة أخرى فإنما ينقل أفراداً منها إلى العلم».

أسلوبه وعلمه:

لم يجر الشيخ في دراسته الأزهرية إلى الغاية، فلم يتعمق في علم، ولم يتبسط في أدب. ولم يبرز في فن من فنون الحياة، ولا في لغة من لغات الناس؛ ومع ذلك كان أكتب الصحفيين جميعاً! كان له أسلوب خاص لا تميزه صنعة، ولا تموهه صبغة، ولا يجمله وشي، وإنما يسحرك بلطف مدخله، وحسن ترسله، وسداد بحثه، وَوثيق حجته، وقوة أسره، وكان من الكتاب الجدليين (Polêmiste) الذين أوتوا قوة الحجاج وشدة العارضة وصدق النظر، ولكم وقف من الكُتَّابِ موقف جرير من الشعراء يجادلهم وحده حتى يقرعهم بالحق وقد عالج الشعر في صدر شبابه فلم تسترِض له قوافيه، ولم يعدُ شأو الأزهريين فيه. وقد جمع ما نظمه في ديوان سماه نسمة السحرَ نشره سنة ١٣٠٣ هـ.

نموذج من نثره:

قال من رده على خطبة اللورد كرومر عميد الدولة البريطانية في مصر على عهده وهي التي ألقاها عَلَى مسرح الأوبرا في حفلة وداعه:

تقفون والفلك المحرك دائر ... وتُقدِّرُون فتضحك الأقدار!

وقف الخطباء مساء السبت الماضي موقف الممثلين في دار التمثيل الكبرى (الأوبرا الخديوية) يحكمون على الماضي والمستقبل حكم الأقدار في الكائنات، ويبرمون

وينقضون، ويرفعون ويخفضون، والناس يسمعون مختارين أو مكرهين لأن فرسان ميدان الخطابة كانوا ثلاثة لا يزيدون ولا ينقصون، ولو أن الموقف كان حراً لكل قائل لسمعوا ما يكرهون كما قالوا ما يحبون.

قلنا إنهم وقفوا موقف الممثلين لأنهم كانوا كذلك في حقيقة الواقع. وقد مثلوا آخر فصل من رواية كثيرة الحوادث عديدة الفصول طويلة الزمان، بطل وقائعها وفارس معمعانها ذلك الذي كان آخر الخطباء في الحفلة كلامًا وأشدهم إيلامًا وأكثرهم آلامًا.

وقف ليمثل آخر سلطة له في هذه الديار ولسان حاله يقول:

«ما في وقوفك ساعة من باس»

مثّلها في مكان هو أليق ما كان عظة لقائل، ومظهراً لسلطان راحل، ومجد زائل، وأصدق ما ضرب له الأمثال: «لكل مقام مقال».

ومنها: أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لإكرام الرجل عند رحيله كما أرادوا، ولكنه انقلب بما جرى فيه مظهراً عدائيًا من اللورد لم ير الراءون ولم يروِ الراوون مثله في مقام وداع كهذا المقام!

دعنا من كون رئيس الاحتفال أخطأ في أنه لم يكن المتكلم الأول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ورئيس وزارة معاًيقدم عليه سواه في الكلام. ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيبًا من كلامه في احتفال كهذا. ودعنا من زعمه أنه يمثل مع الحكومة في موقفة السواد الأعظم من الأمة المصرية، والسواد الأعظم يخالفه في الرأي والقول. ودعنا من قول الكونت دي سريون إنه يتكلم عن فئة من الأوروبيين بما تشعر من حسنات الاحتِلال عليها، أو هو أراد إبحاح السفارة الإنكليزية بباريس في وساطة له لدى حكومة الجمهورية بعد ما حالت هذه الحكومة دون إنعام ملك أسبانيا وكل إنعام تلاه من الدول الأجنبية عليه فهو ينتظر اللجيون دي تور بصبر نافذ.

دعنا من كل هذا وانظر إلى خطبة اللورد السياسية التي جعلها بمثابة وصيته الأخيرة وخاتمة أعماله في مصر.

فبينما كانت الأمة المصرية واقفة موقف الآمل منتظرة من ذلك الراحل العظيم والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الإسلامية بما قضى عليها من الجمود الأبدي، ونحو الأمة المصرية بما وصفها به من العقم السرمدي؛ بينما هي ترجو من جنا به أن ينتهز هذه الفرصة السانحة ليأسو الجراح التي جرحها، ويضمد الكلوم التي فتحها في جسمها بما تقدم وبما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات، وجامعتها كشكولا بين الجامعات وبينما كان

سمو أمير البلاد يتعطف ويتلطف ويبالغ في إكرام الراحل عند رحيله متناسياً الحزازات السياسية التي طالما كان اللورد مهاجماً فيها غير عادل ولا متلطف، وبينما كان كل هذا إذا ببركان «البيروقراطية» التي نشأ عليهااللورد ومارسها كل حياته حتى برز فيها أكثر من كل مبرز في تواريخ الحكومات المطلقة قد انفجر بركانه وقذف بلظاه على الأحياء والأموات.

وقف اللورد خطيبًا وهو يدافع كيد السقام، ويجاذب داعي الخصام، فجال في خاطره أنه مفارق قصراً تجري من تحته الأنهار، وملكاً خضع له فيه الليل والنهار، وتارك خصومًا قد يتوهمون أنهم نازعوه فغلبوه، أو يتوهم هو أنه حالمهم فأغضبوه.

وقف اللورد وله نفسان: نفس نزاعة إلى حب البقاء، وأخرى تقول كيف البقاء بعد الاستعفاء؟

وقد ذكر أصدقاءه القليلين كما يعلم، وأعداءه الكثيرين كما يتوهم، فسر وساء، وترخص وتشدد، وعدد وندد، ووعد وتوعد، وأرغى وأزبد، وحذر وأنذر، وحكم وقدر.

ربما أخرج الحزينَ جوى الحز ... ن إلى غير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليما ... نَ فأنحى على رقاب الجياد

٨٤ ـ إبراهيم المويلحي
١٨٤٦ ـ ١٩٠٦ م
١٢٦٢ ـ ١٣٢٣ هـ

نشأته وحياته:

وُلد هذا الكاتب الكبير في بيت من بيوت التجارة الوطنية من أسرة ناعمة العيش واسعة الثروة موصولة الجاه بالأسرة الخديوية المالكة، فتدرب منذ إيقاعه على شؤون التجارة وتمرس في فنونها، إلا أن طبعه القلق اللجوج، ونفسه المتوثبة الطموح، لم يطاوعاه على الرضا بالربح المشروع فقذف بماله في وجوه (المضاربات) فما ارتدَّ إليه منه غير صفقة المغبون. فعاش عيشة الكفاف والتعفف حتى هبت عليه نفحة من وجود اسماعيل فجعله قاضياً في محكمة الاستئناف. ولكنه اختلف هو ورئيسه اختلافًا لم ينته إلا باستقالته. فقلده الخديوي عملاً آخر فناله فيه ما ناله في التجارة والقضاء. وجاءت وزارة شريف تريد أن تضع

---

٨٤ ـ انظر ترجمته في: تاريخ الصحافة العربية: ٢/٢٧٥، ومذكرات عناني: ص ١٩٥، وانظر الأعلام للزركلي: ١/٤٥.

الدستور الأول فكان المويلحي ممن اختيروا لوضع (اللائحة الوطنية)؛ ولكن آماله كانت تسفر له دائمًا عن وجوه الفشل فابتغى الوسيلة إلى الرزق في الكتابة والنشر فأنشأ (جمعية المعارف) لطبع الكتب القيمة وإذاعتها في مطبعة اشتراها لنفسه. ثم اتفق مع المغفور له محمد بك عثمان جلال مترجم مُولْيير وصاحب العيون اليواقظ، على إنشاء جريدة (نزهة الأفكار)؛ ولكن الخديوي إسماعيل خَشِيَ شرها فألغاها. فلما كانت سنة ١٢٩٦ هـ وخرج الخديوي مخلوعًا من ملكه إلى إيطاليا أرسل في طلب إبراهيم ليتخذه كاتب رسائله، فقام له بهذا العمل بضع سنين أنشأ في خلالها وهو في إيطاليا جريدتي «الاتحاد» «والأنباء» فلم تتمتعا بالحياة غير قليل. ثم رحل إلى الآستانة سنة ١٣٠٤ فأكرم عبد الحميد وفادته وجعله عضواً في مجلس المعارف فلبث فيه تسع سنين اتصلت فيها أسبابه برجال (المابين) ورؤساء الحكومة. ثم ارتد إلى مصر وقد خط الشيب في رأسه، ونالت الأيام من جسمه، فأنشأ (مصباح الشرق) وهي صحيفة أسبوعية كان يدبجها باللفظ الرشيق والأسلوب الأنيق ويرسلها بالسهام النافذة في الاجتماع والنقد والسياسة. فقضت حاجة في نفوس الأدباء، ونهجت لهم الطريق السوي في الإنشاء، ووطأت له هو أكْناف الرؤساء والكبراء واستمر عَلَى إصدارها حتى طويت سحيفة حياته.

أسلوبه:

كانت الكتابة في عهد المويلحي لا تزال ترسف في أغلال الصنعة وتكابد أعراض الوهن، فلم يستطع قلمه أن يخرج عن سلطان البديع، ولا أن يبرأ من تكلف الحلْية الظاهرة. إلا أن تصرفه في الأمور، وتقلبه في البلاد، واختلاطه بألوان الناس، واتصاله برجالات البلاد، ومغامرته في السياسة، وتمرسه في الصحافة، فتقت قريحته، وذللت معانيه، وسهلت أسلوبه وأمكنته من عنان البلاغة فصرَّفها حيث شاء ولا سيما في الرسائل، فقد تفنن في جميع ضروبها وأحسن في سائر مناحيها. والموَيْلحي على ما به من ضيق المضطرب في المعاني، وضعف السليقة في الابتكار، أشبه بالبارودي في الشعر: جدد ما درس من أساليب الكتابة؛ وبيَّن ما طمس من معالم البيان، وكان ركنًا شديداً من أركان هذه النهضة المباركة.

آثاره:

جل ما أثر عنه مقالاته السياسية والاجتماعية التي نشرها فيما أنشأ من الصحف كنزهة الأفكار والاتحاد والأنباء ومصباح الشرق، أو فيما أعان عليه منها كضياء الخافقين في إنجلترا والعروة الوثقى في فرنسا. وله غير ذلك كتاب «الفرج بعد الشدة» في وزارة رياض باشا، وكتاب «ما هنالك» وصف فيه حال الآستانة ورجال المابين قبل الدستور العثماني.

٨٥ ـ حفني ناصف
١٨٥٦ ـ ١٩١٩ م
١٢٧٢ ـ ١٣٣٧ هـ

نشأته وحياته:

ولد محمد حفني ناصف بن الشيخ إسماعيل ناصف عام ١٢٧٢ للهجرة في ضاحية من ضواحي القاهرة تدعى بركة الحج يتيماً فقيراً، فكفله خاله وجدته لأبيه. ثم دخل كتاب القرية فتعلم مبادىء القراءة والكتابة وحفظ جزءاً من القرآن. ثم فر إلى الأزهر في الحادية عشرة من عمره فمكث فيه ثلاث عشرة سنة؛ ثم سلك نفسه في الداخلين (دار العلوم) فثقف علومها وعين أستاذاً للغة العربية في المدارس الأميرية. ثم اختير للتدريس في مدرسة الحقوق فوقع في نفسه أن يشرك طلبتها في دروسهم. فدرس القانون وترك التدريس وانتخب كاتب للنائب العمومي. ثم عين قاضيًا سنة ١٨٩٢ م في المحاكم الأهلية. وبلغ من أمره في القضاء أن صار وكيلاً لمحكمة طنطا الأهلية. وفي غضون ذلك انتدب لتدريس الأدب العربي في الجامعة المصرية وهي أهلية، فألقى فيه محاضرات ممتعة جمعت في كتاب خاص. ولما أقعد الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية الأكبر في وزارة المعارف خلفه الأستاذ حفني بك، فأزهرت دولة الأدب واعتز جانب اللغة. وقضى هذه الفترة القصيرة في التنقيب والتنقيح حتى شارف الستين فأحيل على المعاش وما عمر بعد ذلك إلا ثلاث سنين. ثم وافاه أجله في أواخر نوفمبر من سنة ١٩١٩ م ودفن في مقبرة الشافعي.

أخلاقه:

كان رحمه الله فكه الحديث، مليح النادرة، حاضر البديهة، سريع الجواب، كثير الدُّعابة، رضيَّ الخلق، مشاركاً في كل علم وفن، جاريًا مع القديم والحديث.

نثره وشعره:

حفني بك ناصف ركن من أركان النهضة الأدبية الحديثة. أحياها بأبحاثه ومؤلفاته، وقواها بقصائده ومقالاته. وهو ضليع في فنون اللغة، خبير بقواعد اللسان، بصير بأسرار الكلام ونقده. وأسلوبه في الرسائل يجري على منهاج المتأخرين من كتّاب العصر العباسي في الكلف بالسجع والقصد إلى البديع. وله أسلوب مرسل في المقالات يجرده من زخرف

---

٨٥ ـ انظر ترجمته في: سبل النجاح: ٢/١٩٧، وتقويم دار العلوم: ص ٢٤١، والشعر العربي المعاصر: ص ٥١ ـ ٥٥، ومجلة مجمع اللغة العربية: ٣/٣٥٨، وانظر الأعلام للزركلي: ٢/٢٦٥.

الصناعة فيسيل رقة وسلاسة. أما شعره فنمط من الأسلوب النثري المنظوم، تكثر فيه المُلح والمحسنات اللفظية ويظهر الضعف في تراكيبه أحيانًا، إلا أنه على الجملة سلس مطبوع.

مؤلفاته:

له مع غيره سلسلة في قواعد اللغة العربية كانت تدرس في المدارس المصرية وكتاب (مميزات لغة العرب) قدمه إلى مؤتمر المستشرقين الذي أقيم في فينا سنة ١٨٨٦ م وقد كان كاتب سر الوفد الذي مثل مصر في هذا المؤتمر، وكتاب (حياة اللغة العربية) وهو مجموع محاضراته التي ألقاها في الجامعة المصرية، وكتاب القطار السريع في علم البديع، ورسالة في البحث والمناظرة، وأخرى في المنطق، وكتاب الأمثال العامية، وبديع اللغة العامية. وأكثر كتبه غير مطبوع.

نموذج من شعره:

قال يخاطب أحد الرؤساء:

أحييتَ آمالي وكنت أمتَّها ... من طول ما لاقيت من إخواني
أدلي بإخلاصي لهم وأذود عن ... أعراضهم بجوارحي ولساني
محّضتهم ودي فلما أيسروا ... كانت بداية أمرهم نسياني
حسبي من الدنيا صديق ثابت ... فردُ فكنه ولا احتياج لثان

وقال أيضاً:

أتُقضى معي إن حان حيني تجاربي ... وما نلتها إلا بطول عناء؟
ويحزنني ألا أرى لي حيلةً ... لإعطائها من يستحق عطائي
إذا ورَّث المُثرون أبناءهم غنىً ... وجاهاً، فما أشقى بني الحكماء

ومن نثره رسالة عزى بها الشيخ علي يوسف في ولده:

خفف الله لوعتك، وأرقأ دمعتك، وجنبك الجزع، ووقاك الهلع، وألهمك الصبر، وأجزل لك الأجر، ورزقك من البنين، في مستقبل السنين، ما تَقَر به عيناك، ويقوى به عناك. وأنت والحمد لله في قوة، وبقية من الفتوة، تمكنك من الأبوة، لخير البنوة. على أن لك في عالم السياسة، وضروب الكياسة، في هذه البلاد، ألواناً من الأولاد، وآثاراً كبرى، تضمن لك الذكرى، وتجعل لك على مدى السنين، لسان صدق في الآخرين. والسلام عليك ورحمة الله.

٨٦ ــ باحثة البادية
١٨٨٣ - ١٩١٨ م
١٣٠٠ - ١٣٣٦ هـ

نشأتها وحياتها:

هي السيدة الفاضلة ملك ناصف بنت الشاعر الكاتب حفني بك ناصف.

وُلدت بالقاهرة يوم الاثنين من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٣ وتلقت مبادىء العلوم في مدارس أولية مختلفة. ثم دخلت المدرسة السنية في أكتوبر من سنة ١٨٩٣ م ونالت منها الشهادة الإبتدائية سنة ١٩٠٠ م وهي أول سنة تقدمت فيها الفتيات المصريات إلى نيل هذه الشهادة. ثم انتقلت إلى قسم المعلمات من هذه المدرسة فنالت منها إجازة التدريس ومارست بعد ذلك التعليم في مدارس البنات الأميرية. وفي سنة ١٩٠٧ م بنى بها عبد الستار الباسل وهو سريٌ من سراة قبيلة الرماح بالفيوم، فتركت التدريس وعكفت عَلى الكتابة والتأليف، وعاشت مع زوجها عيشة الزوجة المخلصة البرَّة حتى توفيت بالحمى الإسبانية في أكتوبر من سنة ١٩١٨ م وهي في زهرة العمر ونضرة الشبيبة.

مكانتها في العلم والأدب:

أظهر ما تدل عليه كتابة الباحثة من أخلاقها عذوبة الروح وسراوة الخلق وذكاء الطبع وصحة الدين والرغبة في الإصلاح. تعهدها والدها الكريم منذ طفولتها فغذاها بأدبه، ونفث فيها من روحه، فأخذت تعالج القريض وهي في الحادية عشرة من عمرها. ثم توافرت على صناعة الإنشاء فبلغت منها مكانة تحسدها عليها الرجال. عنيت بإنهاض المرأة المصرية بعد قاسم أمين، فكانت أول مصرية مسلمة جاهرت بالدعوة العامة إلى هذا العمل في بيئة لا تزال رجعية. ألقت في هذا الموضوع سلسلة من المحاضرات في إدارة الجريدة التي كان يصدرها حزب الأمة ويرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد، وكتبت عنه طائفة من المقالات في هذه الصحيفة بإمضاء «باحثة البادية» فصار لقبًا غلب عليها.

جمعت هذه المقالات في كتاب عنوانه «النسائيات» ونشرت منه جزأه الأول. ثم شرعت في آخر حياتها تؤلف كتابًا مطولاً سمته «حقوق النساء» أنجزت منه ثلاث مقالات ثم حالت المنية عن إتمامه.

---

٨٦ ـ انظر ترجمتها في: مجلة المقتطف: ٥٣/٤٩٧، وبلاغة النساء: ص ٣، وانظر الأعلام للزركلي: ٧/٢٨٨.

نموذج من كلامها:

من قولها في كتاب النسائيات:

ما أنقى الهواء، وأعذب الماء، وأصفى السماء في القرى! وما أكذب الحياة وأقرب الوفاة في المدن! القرى جميلة لأنها على الفطرة. أما المدن فلا تعدم أثراً للتكلف والرياء. أين دويّ الكهرباء، من خرير الماء، والدخان المتعاقد فوق المداخن، من جو لا ترى فيه إلا تحليق الصقور وإلا رؤس النخل الباسقات! وأين وحل الشارع وعثيرُها من أرض كسيت ببساط النبات؟ وأين الرائحة المنبعثة من مقاذير المنازل وروث الدواب من شذى أزهار الحقول؟ بل ما أضل البصر يريد الجولان فيرده من هنا جدار ومن هناك سور، من نظر تسرحه حيث شئت فلا تجد إلا اللانهاية في الفضاء!

ومن قصائدها في حال المرأة قصيدة مطلعها:

أعْمَلتُ أقلامي وحيناً منطقي ... في النصح والمأمول لم يتحقق
أيسوؤكم أن تسمعوا لبناتكم ... صوتاً يهز صداه عطف المشرق؟
أيسركم أن تستمر بناتكم ... رهْن الأساور ورهن جهل مطبق؟
هل تطلبون من الفتاة سفورها؟ ... حسن، ولكن أين بينكم التقي؟
لا تتقي الفتياتُ كشف وجوهها ... لكن فساد الطبع منكم تتقي
تخشى الفتاة حبائلاً منصوبة ... غشيتموها في الكلام برونق
لا تظفروا بل أصلحوا فتياتكم ... وبناتكم وتسابقوا للألق
ودعوا النساء وشأنهن فإنما ... يدرى الخلاص من الشقاوة من شقي
ليس السفور مع العفاف بضائر ... وبدونه فَرْط التحجب لا بقي

٨٧ ـ مصطفى لطفي المنفلوطي

١٨٧٦ ـ ١٩٢٤ م

١٢٩٢ ـ ١٣٤٢ هـ

نشأته وحياته:

ولد السيد مصطفى لطفي بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط سنة ١٢٩٣ هـ ـ ١٨٧٦ م

---

٨٧ ـ انظر ترجمته في: النظرات: ص ٩ ـ ٣١، والكنز الثمين: ص ٢٦٨، ومشاهير شعراء العصر ١/٣٢٠ ـ ٣٤١، والثغر الباسم في مناقب أبي القاسم: ص ٢٩، ومعجم المطبوعات: ١٨٠٥، وجامع التصانيف الحديثة: ٢/١٣، وانظر الأعلام للزركلي: ٧/٢٣٩ ـ ٢٤٠.

ونشأ في بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة. ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة فحفظ القرآن في المكتب. وتلقى العلم بالأزهر، ولكنه كان على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يلقى باله كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب. فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد ويصوغ القريض وينشىء الرسائل، وتسير له شهرة في الأزهر بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ محمد عبده، ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة. ثم يستفيد المنفلوطي من قربه إلى الإمام صلته بسعد باشا زغلول، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين نفوقه لدى صاحب (المؤيد)، وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده، وفي أثناء طلبه في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديو عباس حلمي الثاني بقصيدة نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى في السجن مدة العقوبة. ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على رجائه وسنده، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده. ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن، فهب يبتغي في جريدة (المؤيد) الوسيلة والنجح. ثم صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف فعينه محرراً عربيًا لها. ولما تحاول إلى وزارة الحقانية (العدل) حوَّله معه وولاه فيها مثل هذا المنصب. ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله حتى إذا قام البرلمان، عَيَّنَهُ سعد باشا في وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله وهو في العقد الخامس من عمره.

أخلاقه:

كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه؛ فهو مؤتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متسق الأسلوب، منسجم الزي لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز القدامة. كان صحيح الفهم في بطء، سليم الفكر في جهد، دقيق الحس في سكون، هبوب اللسان في تحفظ وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس في مظهر الغبي الجاهل، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة، ثم هو إلى ذلك رقيق القلب عف الضمير سليم الصدر صحيح العقيدة نفاح اليد موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته.

أسلوبه وأدبه:

كان المنفلوطي أديباً موهوبًا، حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة؛ لأن الصنعة لا تخلق أديباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة. وكان النثر الفني على عهده لوناً حائلاً من أدب القاضي الفاضل، أو أثراً ماثلاً لفن ابن خلدون؛ ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين، إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره، بديعاً أنشأه الطبع القوي على غير مثال.

عالج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس وبلغ في إجادتها شأواً ما كان ينتظر ممن نشأة كنشأته في جيل كجيله. وسر الذيوع في أدب المنفلوطي أنه ظهر على فترة من الأدب اللباب، وفاجأ الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الألم ويمثل العيوب في أسلوب طليّ وبيان عذب وسياق مطرد ولفظ مختار. أما صفة الخلود فيه فيمنع من تحققها أمران: ضعف الأداة وضيق الثقافة. أما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن واسع العلم بلغته ولا قوي البصر بأدبها. لذلك تجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه. وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم الغرب. لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة. وجملة القول أن المنفلوطي في النثر كان كالبارودي في الشعر: كلاهما أحيا وجدد. ونهج وعبَّد، ونقل الأسلوب من حال إلى حال.

مؤلفاته ومترجماته:

له كتاب (النظرات) في ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره في المؤيد من الفصول في النقد والاجتماع والوصف والقصص. وكتاب (العبرات) وهو مجموعة من الأقاصيص المنقولة والموضوعة. ثم (مختارات المنفلوطي) من أشعار المتقدمين ومقالاتهم. وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية: تحت ظلال الزيزفون (مجدولين) لألفونس كار، وپول وڤرجيني (الفضيلة) لبرنار دي سنان بيير، وسيرانو دبر جراك (الشاعر) لأدمون رستان، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل، فأضافت إلى ثراء الأدب العربي ثروة، وكانت للفن القصصي الحديث قوة وقدوة.

نموذج من نثره:

الغني الفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس، فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً، فرثيت لحاله، وسألته ماله، فشكا إلَيَّ ألم الجوع، ففثأته عنه ببعض ما قدرت عليه، ثم تركته وذهبت إلى صديق لي من آرباب الثراء والنعمة فأدهشني أني رأيته واضعاً يده على بطنه، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير، فسألته عما به، فشكا إلَيَّ البطنة، فقلت «يا للعجب! لو أعطى ذلك الغني ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقماً ولا ألماً. لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ويطفىء غلته؛ ولكنه كان محباً لنفسه مغالياً بها فضم إلى مائدته ما آختلسه من صحفة الفقير، فعاقبه اللّه على قسوته بالبطنة؛ حتى لا يهنىء للظالم ظلمه، ولا يطيب له عيشه، وهكذا يصدق المثل القائل: «بطنة الغني انتقام لجوع الفقير».

ما ضنت السماء بمائها، ولا شحت الأرض بنباتها، ولكن حسد القويُّ الضعيفَ عليهما فزواهما عنه واحتجهما دونه، فأصبح فقيراً معدماً شاكياً متظلماً، غرماؤه المياسير الأغنياء، لا الأرض والسماء.

ما أظلم الأقوياء من الإنسان، وما أقسى قلوبهم! ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره، وهو يرعد برداً وقراً، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام، قديده وشوائه، حلوه وحامضه، ولا ينغص عليه شهواته علمه أن بين أقربائه وذوي رحمه من تتواثب أحشاؤه شوقاً إلى فتات تلك المائدة، ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها، بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه، ولا يعقد الحياء لسانه، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته، وربما استعان به على عدِّ ما تشتمل عليه خزائنه من الذهب، وصناديقه من الجواهر، وغرفه من الأثاث والرياش، ليكسر قلبه وينغص عليه عيشه، ويبغض إليه حياته؛ وكأنه يقول في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته: «أنا سعيد لأني غني. وأنت شقي لأنك فقير».

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسناً، لأني لا أعتمد فضلاً صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان. وإني أرى الناس ثلاثة: رجل يحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى الإحسان إلى نفسه، وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان. ورجل يحسن إلى نفسه، ولا يحسن إلى غيره، وهذا الشرِه الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً، ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره، وهذا البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه.

أما الرابع الذي يحسن إلى غيره ويحسن إلى نفسه فلا أعلم له مكاناً، ولا أجد إليه سبيلاً. وأحسب أنه هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني ديوجين الكلبي حينما سئل ما يصنع بمصباحه وكان يدور به في بياض النهار فقال: «أفتش على إنسان».

٨٨ ـ عبد العزيز شاويش

١٨٧٦ - ١٩٢٩ م

١٢٩٢ - ١٣٤٧ هـ

نشأته وحياته:

ولد عبد العزيز بن خليل شاويش في الإسكندرية من أسرة مغربية الأصل تشتغل

---

٨٨ ـ انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي: ١٧/٤، وجريدة منبر الشرق: ٢/صفر/١٣٦٣.

بالتجارة. ثم تعلم مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن في أحد الكتاتيب، ثم طلب علوم الدين والعربية في جامع الشيخ بالإسكندرية فشدا شيئاً منها أهّله إلى أن يفد إلى القاهرة ويدخل الجامع الأزهر. وكان أذكياء الأزهريين يومئذ يعدون أنفسهم إلى الدخول في (دار العلوم) لأنها كانت أقصر الطرق إلى التعليم والمحاماة، وأنجح الوسائل إلى التجدد والرفاهية، فدخلها الشيخ عبد العزيز، وآشتهر بين لداته بالجد والاستقامة، والغيرة على الدين والكرامة ولما نال إجازتها تولى التدريس في مدرسة الناصرية ردحاً من الدهر، ثم اختير في بعثة إلى انجلترا ليتخصص في التربية والآداب، فتعلم اللغة الإنجليزية وآطلع منها على الآداب الأوربية فآزداد علمه وآكتمل بيانه وتنوعت ثقافته. ثم رجع إلى مصر فعين مفتشاً بوزارة المعارف. وعاد ثانية إلى إنجلترا ليعلم اللغة العربية في جامعة (أكسفورد) ثم انتهى أمره إلى أن يعود إلى مصر ويرجع إلى التفتيش وكان بينه وبين زميله المرحوم عاطف بركات منافسة في الطلب وفي الوظيفة؛ وكان بين عاطف بركات وبين وزير المعارف وهو يومئذ سعد باشا زغلول قرابة واشجة، فظن الشيخ عبد العزيز أن لهذه القرابة أثراً في تقديم منافسه عليه فآستقال من العمل في وزارة المعارف سنة ١٩٠٨ وانضوى إلى لواء الحزب الوطني. ثم أصبح بعد موت الزعيم مصطفى باشا كامل رئيساً لتحرير (اللواء). ثم جرَّت عليه صراحته في التحرير وشجاعته في الحق وحماسته في السياسة، متاعب كثيرة منها الحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر في جريمة من جرائم الرأي. فلما خلوا سبيله رحل إلى أوروبا. وشبت الحرب العالمية الأولى فشق عليه الرجوع فظل هناك يقاسي مكاره الغربة من فراق الأهل وإلحاح الفقر وخذلان الصديق، حتى وقفت رحا الحرب فعاد إلى وطنه مضعضع الآمال خائر القوى، فتجهمت له بعض الوجوه، وانقبضت عنه أكثر الأيدي، وحاول أن يعود إلى السياسة من طريق البرلمان فلم يفلح، فآنصرف إلى اكتساب الرزق من ناحية الصحافة حتى أدركته رعاية الملك فؤاد فعين مراقباً للتعليم الوظيفة الأولى في وزارة المعارف؛ فآضطلع بأعباء هذا المنصب المرهق بضع سنين. ثم أصابته علة القلب فتوفاه اللّه في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر يناير من سنة ١٩٢٩.

أخلاقه:

كان رحمه اللّه جميل السمت حسن الشارة متواضع النفس حلو الحديث لطيف الروح شديد الحياء ندي الراحة، جريئاً في الدفاع عن دينه، شجاعاً في الذياد عن وطنه، صريحاً في الإبانة عن رأيه. سباقاً إلى كريم المساعي، فشارك في كثير من الأعمال الخيرية كتأسيس جمعية المواساة الإسلامية بالإسكندرية، وإنشاء المدرسة الإعدادية الثانوية بالقاهرة. وقد كان في طبعه حدة تظهر على قلمه أو لسانه إذا أوذي في كرامته أو وطنيته أو عقيدته.

أسلوبه:

كان أسلوبه خطابياً يؤثر بالعاطفة أكثر مما يؤثر بالمنطق. وكان يجري فيه مجرى الأسلوب المنسوب إلى الإمام علي في نهج البلاغة. وهو من الكتاب القلائل الذين اطلعوا على آداب الفرنجة وتأثروا بها. وكانوا وسطاً بين المذهبين القديم والحديث. كان من علماء العربية وفقهاء الدين وأعلام الصحافة فعالج الموضوعات الدينية والسياسية بالأسلوب الجزل والصنعة المقبولة، إلا أنه كان كأكثر معاصريه قليل العناية بآختيار اللفظة المناسبة والاقتصار على الجملة الدالة.

مؤلفاته:

من مؤلفاته التي نعرفها كتاب (غنية المؤدبين) في التربية العلمية والعملية؛ وكتاب (الإسلام دين الفطرة) في الدفاع عن الدين وبيان بعض أحكامه وكتاب (أسرار القرآن) فسر فيه بعض آي الذكر الحكيم ملائماً لروح العصر.

نموذج من نثره:

قال في فاتحة مقالاته في جريدة اللواء يوم استقال من وزارة المعارف:

«بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادُها الجبن وخور العزيمة، ومطيتها الدهان والتلبيس. في أسواقها النافقة تشتري نفسيات النفوس، بزيوف الفلوس، وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرؤس. وبيمنك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة، حياة الصراحة في القول، حياة الجهر بالرأي، حياة الإرشاد العام، حياة الاستماتة في سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة. أستقبل هذه الحياة بعد أن قضيت في سابقتها ثماني حجج، بلغت فيها ذلك المنصب الذي كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجو فيه. أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر، منبرياً في ميدانها، فإما إلى الصدر، وإما إلى القبر. موقناً بما أعد اللّٰه لعباده العاملين المخلصين، من الظفر والفتح المبين».

ومن مقاله بعنوان «مدرسو اللغة العربية المصريون في بلاد الإنجليز»:

«نصح إليَّ المستر دنلوب أيام سافرت إلى أكسفورد، أن أقتدي بما أراه من الأخلاق الفاضلة في تلك الأمة العظيمة، فماذا جرى؟ ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم فزادوني تمسكاً بديني. رأيتهم شديدي الحرص على لغتهم فزادوني حرصاً على لغتي. أبصرتهم يتفانون في الدفاع عن بلادهم ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شؤونهم أو التصرف في أموالهم ورقابهم فأخذت أحاكيهم في هذه البلاد السيئة الحظ بالاحتلال وأشياعه. رأيتهم يحبون الصراحة، ولا يخشون معتبة، ولا يتهيبون متعبة، ما دام الحق لهم فأخذت أحاكيهم في تلك الفضائل التي نصح بها إلى

عميدهم بنظارة المعارف العمومية! أبصرتهم يحبون العمل ويكـرهون الكسـل، ويحضون على الفضيلة، فعدت إلى بلادي، ثم صرت أشتغل بهمـة لا تعرف الملل ولا الانقـطاع، فكان حقاً على الإنجليز أن يرفعوا عقيرتهم، ويقوم خطباؤهم وشعراؤهم بالإفاضة والإسهاب في مـدح من نجح في تقليـدهم ومحاكـاتهم في فضائلهم، ممن يـرحلون إلى بلادهم من المصريين!».

الأدبـاء

٨٩ ــ ناصيـف اليـازجـي
١٨٠٠ ـ ١٨٧١ م
١٢١٤ ـ ١٢٨٧ هـ

نشأته وحياته:

ولد ناصيف بن عبد اللّٰه اليازجي بكفرشيما من قرى لبنان ونشـأ في بيت فضل وعلم وأدب، وبدأ بتعلم الهجاء على أحد القساوسة، ومبادىء الطب على أبيه، وصبت نفسه إلى الآداب فطفق يطلبها ويحصلها، والكتب يومئذ نادرة وتجارتها بائرة ومطلبها بعيد. فكان إذا وقع في يده مخطوط حفظه أو نسخه أو لخصه، حتى غزرت مادته، وكملت آلته، وبلغ حظه من المنثور والمنظوم، فآستكتبه الأمير بشير الشهابي وهو في أوج عزه فكتب له ولزمه اثنتي عشرة سنة حتى أخرج من بلاده سنـة ١٨٤٠، فنزل الشيـخ بأهله إلى بيـروت وآنقطع إلى المطالعة والتأليف والتدريس ومراسلة الأدباء ومسـاجلة الشعراء حتى مني في أعقـاب عمره بفالج نصفي عطل شطره الأيسر. ثم فجع في بكـر أولاده الشيخ حبيب، فضعضعت هـذه الفاجعة قواه وهدت ركنه ولم يعش بعده إلا يسيراً.

نثره وشعره:

ترسم الشيخ خطوات الحريري وآنتهج نهجه، فأولع بالبـديع، وآفتن في الصنـاعة، وكلف بالغريب. وعالج المقامات فأنشأ منها ستين مقامة أجاد فيها التقليد وأتقن الاحتـذاء وبلغ من الحلية اللفظية الغاية. وأعجب بالمتنبي في الشعر كما أعجب بالحريري في النثر،

---

(٨٩) انـظر ترجمتـه في: أعيان البيـان: ص ٦٠، وآداب اللغـة: ٢٥٩/٤، ورواد النهضـة الحـديثـة ص ٦٣ ـ ٧٧، والأعلام للزركلي: ٣٥١/٧. وانظر أيضاً معجم المطبوعات: ١٩٣٣ ـ ١٩٣٩.

ولكن تقليده لأبي الطيب كان أضعف، وتخلفه عن مجاراته كان أظهر. فجاء شعره على طول معالجته له وقوة طبعه فيه أشبه بشعر الحريري وأضرابه، وبخاصة تلك القصائد التي تكلف فيها التاريخ الشعري، فقد غالى في ذلك وأسرف حتى كان يضمن البيتين ثمانية وعشرين تاريخاً! أو ينظم القصيدة فيلتزم في كل شطرة من شطراتها تاريخاً كقصيدة في تهنئة إبراهيم باشا بفتح عكاء، أو ينظم القصيدة كلها من الحروف المهملة كقوله:

حول در حل ورد هل له للحر ورد

على أن له قصائد تهب عليك من خلال أبياتها نفحات أبي الطيب فيجزل لفظها ويقوى أسلوبها وتفيض بالمعاني المبتكرة والحكم البالغة والأمثال السائرة.

علمه ومؤلفاته:

آثار اليازجي تدل على مادة غزيرة في اللغة، وآطلاع واسع في الأدب، وإتقان عجيب لعلوم اللسان. فله كتاب مجمع البحرين وهو مجموع مقاماته الستين التي قلد بها الحريري. وله (الجمانة) (وجوف الفرا) وهما أرجوزتان أولاهما في الصرف وأخراهما في النحو، و(فصل الخطاب) وهو مختصر في النحو والصرف، (وعقد الجمان) في علم البيان، (ونقطة الدائرة) في العروض والقوافي، و(قطب الصناعة) في المنطق. ثم دواوين شعره وهي (نفحة الريحان) و(فاكهة الندماء في مراسلة الأدباء) و(ثالث القمرين). وأكثر كتبه مؤلف على نمط مدرسي ولا تزال تدرس في معظم المدارس اللبنانية المسيحية.

نموذج من كلامه:

قال من قصيدة يمدح بها أسعد باشا قائد جيش البلاد العربية:

بناء العلى بين القنا والبوارق ... على صهوات الخيل تحت البوارق
ولله سرّ في العباد وإنما ... قليل محل السر بين الخلائق
يقلب هذا الدهر أحوالنا كما ... تقلب فينا لاحقاً إثر سابق
ولولا اختيار الدولة ابن سريرها ... لما اعتمدته في المعاني الدقائق
كريم تولى الأمر يصلح أمره ... كفتق تولته أنامل راتق
أقام السرايا ينفر الموج خيلها ... بكل لواء فوق لبنان خافق
يحدث أهل الغرب في كل ليلة ... بما فعلت غاراته في المشارق
فيعجب من أفعاله كل عاقل ... ويثني على أفضاله كل ناطق
تضيق بحار الشعر عنه وتستحي ... يبحر لها في بحر كفيه غارق

٩٠ ـ أحمد فارس الشدياق
١٨٠٤ - ١٨٨٧ م
١٢١٨ - ١٣٠٤ هـ

نشأته وحياته:

ولد هذا الكاتب اللغوي في عشقوت من أعمال لبنان من أسرة مارونية. ثم دخل مدرسة عين ورقة فتلقى مبادىء القراءة، وشدا شيئاً من اللغة والنحو على أخيه أسعد. وبدأ يقرض الشعر وهو في العاشرة من عمره. وصغت نفسه منذ طفولتها إلى حفظ المفردات والمترادفات فحصل منها قسطاً وفيراً ظهر أثره بعد في خطبه وكتبه. وحدث أن أخاه أسعد وهو وليه وصفيه ترك مذهب والديه وآعتقد المذهب الإنجيلي فآضطهدته عشيرته وكهنته حتى مات مقهوراً في محبسه. فشق ذلك على فارس فخرج مغاضباً إلى مصر تحت حماية المرسلين الأمريكان ورعايتهم، فقضى بها حقبة من الدهر بين تعلم وتعليم. ثم بعث به الأمريكان سنة ١٨٣٤ إلى مالطة ليصحح ما تخرجه مطبعتهم فيها. وأرسلت في طلبه وهو هناك جمعية التوراة بلندن ليحرر ترجمتها العربية فرحل إليها وأقام بلندن ما أقام ثم آنصرف عنها إلى باريس، وكان يزورها يومئذ أحمد باشا باي تونس فآتصل به الشدياق ومدحه فنفق لديه، وظاهر الأمير نعمه عليه، حتى قال الشاعر: «ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها» ثم اعتنق الإسلام وهو في تونس وسمّى نفسه أحمد. وظل يكتب في الرائد التونسي ويتقلب في نعمة الباي، وفضله يظهر وذكره يذيع حتى طلبته الصدارة العظمى فرحل إلى الآستانة وأنشأ جريدة «الجوائب» وأودع فيها من فنون النثر وعيون الشعر وضروب السياسة ما رواه لسان الحمد، وتناقلته بُردُ الشرق والغرب. وكان في سياسة الشرق مرجعاً وحجة. فسعى إليه المجد والثراء، وخطب وده الأمراء والعلماء، وكافأته الدولة العلية بالألقاب والأوسمة. ثم تخلى عن إدارة الجوائب لولده سليم وهو في أعقاب عمره، فما زالت تصدر عن براعة ولباقة وقوة حتى عطلت سنة ١٨٨٤ على أثر الحوادث السودانية. ثم ورد الشدياق مصر وقد تنفس به العمر وخدد وجهه الكِبر، فأحسن المصريون وأميرهم لقاءه ووفادته، وأكرموا مثواه وإقامته، ثم ارتد إلى الآستانة فوافته بها منيته.

نثره وشعره:

كان الشدياق متضلعاً من فنون الأدب، متصرفاً في فنون الإنشاء من هزل ومجون

---

(٩٠) انظر ترجمته في: أعيان البيان: ص ١١١، وآداب شيخو: ٧٩/٢، وآداب اللغة: ٢٦١/٤، وأعلام اللبنانيين: ص ٧٥، وتاريخ الصحافة العربية: ٩٦/١، ودائرة المعارف الإسلامية: ٤٩٠/١، وانظر الأعلام للزركلي: ١٩٣/١.

ووعظ وأدب وسياسة. حافظاً لمفردات اللسان، بصيراً بمذاهب البيان، يجيد النظم والنثر. وكان أسلوبه منسجم التراكيب، متساوق المعاني، موفور الازدواج، شديد الإطناب، كثير الاستطراد، ظاهر المبالغة. أما شعره فأدنى رتبة وأقل جودة وأضعف ابتكاراً من نثره. فهو في النثر مجدد وفي النظم مقلد وفي كليهما بالنسبة إلى أهل عصره سابق مجيد.

مؤلفاته:

له غير الفصول التي نشرتها الجوائب في ثلاث وعشرين سنة كتب قيمة تدل على سعة اطلاعه وطول باعه. وأشهرها:

كتاب (سر الليال في القلب والإبدال) وهو كتاب لغوي تحليلي يشتمل على سرد الأفعال المتداولة والأسماء المستعملة واستدراك ما فات صاحب القاموس من لفظ أو مثل أو إيضاح عبارة أو تنسيق مادة. وقد طبع بالآستانة سنة ١٢٨٤ هـ ثم كتاب (الساق على الساق فيما هو الفارياق) والفارياق كلمة نحتها من فارس الشدياق وأطلقها على نفسه. أنشأ هذا الكتاب الضخم أثناء سياحته في أوروبافوصف فيه أسفاره وأخباره وما كابده في صدر حياته، وندد برجال الكنيسة أخذاً منهم بثأر أخيه. ثم أورد الألفاظِ المترادفة في كل موضع على حدة كأصناف المأكول والمشروب والمشموم والحلي والجواهر، وذلك أجل ما في الكتاب. وقد يؤخذ على المؤلف جرأته على الأدب وتطرفه في المجون واستعماله من الألفاظ ما لا يصدر عن مثله، ولا يليق بفضله.

ثم كتاب (الجاسوس على القاموس) جمع فيه المآخذ التي أخذها على قاموس الفيروزآبادي. ثم (كشف المخبا عن أوروبا) وهو وصف شامل لسياحته في البلاد الأوروبية. و(الواسطة في أحوال مالطة) وهو وصف لهذه الجزيرة: أراضيها وأهليها وحاضرها وماضيها.

نموذج من كلامه:

من الناس من يبالغ في مدح وطنه، ويحن إليه حنينه إلى سكنه، فيصف مروجه ورياضه، وبروجه وحياضه، ووهاده وجباله، وتلاعه وتلاله، وربوعه ودياره، ونباته وأشجاره، وبقوله وثماره، ودوحه وأطياره، وطيب هوائه، ولذة مائه، ويزعم أن فصوله كلها كالربيع حسناً، وأن جميع أقطاره تتدفق بركة ويمناً، وأن شهراً فيه خير من ألف عام في غيره، وأن كل بلد مستمد من خيره، ومحتاج إلى ميره ثم يزفر زفير الهائم الحيران، ويصرخ صراخ الولهان: ألا إن حب الوطن من الإيمان. لقد جبت السهول والحزون، وركبت الذلول والأمون، وطوفت في الأمصار، وجوَّلت الأقطار؛ وضربت في مناكب الأرض مستقصياً، واختبرت أحوال من عليها مستفتياً؛ فلم أجد عيشاً هنيئاً إلا في بلادي. هي البلاد التي تغزلت بها الشعراء، فقال فيها فلان أبياتاً، وقال فيها فلان قصيدة غراء، واسمع ما قيل

في جداولها ونواعيرها، وبلابلها وعصافيرها، وخمائلها وأزاهيرها، وصروحها وقصورها، ومصانعها ودورها، وظبائها ومراتعها، وزكائها ومواقعها، وفي أريج آفاقها، وبهيج أشفاقها، ونضرة حدائقها، وبهجة شقائقها، فإذا قلت له: كيف جارك الأدنى؟ لعله كان لك عوناً وخدناً! قال: وَيْلِي إنه شرّ جار، وهو على البلاد عار وشنار. فكيف جاره الذي يليه؟ عسى أنه ممن تؤالفه وتصافيه! قال: ويلي إنه شر من أخيه. فكيف أهل الحارة طراً؟ قال: ويلي إنهم كانوا كلهم عَلَيَّ شراً، ولم أجد منهم إلا ضرّاً. فكيف أهل المدن والأمصار! قال: وَيلي إنهم أولو غبن وغش وتغرير وإخفار، ما تعامل منهم من أحد إلا ويمنيك بالكمد والنكد والخسار. هذه حالة سكان البلاد، الحاضر منهم والباد، فلا تكثرنً من السؤال، ولا يخطرنً ببالك غير هذه الحال. فإن شئت قلت له: ولكن كيف اشتملت بلادكم على تلك المحاسن، وأهلها على هذه المساوىء الشوائن؟ قال: إن أهلها الأولين كانوا من الخيرين، فحرثوها وزرعوها، وعمروها وأمرعوها، ثم فسد الزمان فجاءت خلفاتهم فاسدة، لكن بقيت تلك المحاسن فيها فائدة. ولكن ما معنى الزمان؟ وهولم يكن صالحاً قطّ منذ خلق الإنسان، والتواريخ على ذلك شاهدة، ونصوصها عليه متساندة متعاضدة. ثم فكيف فسدت الناس وأنت بقيت من بينهم صالحاً، ترى كل من سواك صالحاً، ولو كنت من الصالحين، لما رأيت في غيرك خلقاً يشين. فإنما ينظر في عيوب الناس من كان أسوأ منهم حالاً.

ومن يك ذا فم مرٍّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا

كذلك قال الشاعر الحكيم: فما أنت في طعنك على جنسك إلا مليم. وإن أمرءاً يحسب جميع أهل بلاده دونه، لجدير بأن يشيعوا فتونه ويذيعوا جنونه.

٩١ ــ بطرس البستاني
١٨١٩ - ١٨٨٣ م
١٢٣٤ - ١٣٠٠ هـ

نشأته وحياته:

ولد العالم الضليع واللغوي المحقق بطرس بن بولس البستاني الماروني بقرية من قرى لبنان تسمى الدبية على عهد الأمير بشير. ثم أدخل مدرسة عين ورقة فلبث فيها عشر سنين تعلم أثنائها العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية، وتفقه في الفلسفة واللاهوت

---

(٩١) انظر ترجمته في: الجامع المفصل في تاريخ الموارنة: ص ٥٣١، وآداب زيدان: ٤/٢٩٧، وأعيان البيان: ص ٢٠٥، وأعلام اللبنانيين: ص ١٠٥، وانظر الأعلام للزركلي: ٢/٥٨.

والفقه، وتبحر في التاريخ والجغرافية والحساب؛ ووقع في نفسه أن يخدم الكنيسة، ولكن بدا له فأحجم وآنصرف إلى التعليم. ثم وفد إلى بيروت وآتصل بدعاة المذهب الإنجيلي من الأمريكان فدرس على بعض أساتذتهم الإنجليزية والعبرية واليونانية وبعض العلوم الحديثة، ثم دخل في نحلتهم ودعا بدعوتهم وساعدهم على ترجمة التوراة. ثم أنشأ في سنة ١٨٦٣ مدرسة عالية سماها (المدرسة الوطنية) نالت بحسن إدارته وعظيم عنايته شهرة مستفيضة، فتقاطر إليها الناس من الشام ومصر والآستانة واليونان والعراق. ثم تخلى عن رياستها لابنه سليم البستاني وتفرغ هو للمطالعة والكتابة والتأليف، ففرغ في عام ١٨٦٩ من تأليف معجمه المحيط. وفي سنة ١٨٨٠ أنشأ مجلة علمية أدبية سياسية دعاها الجنان وعهد بإدارتها وكتابتها إلى ابنه سليم؛ ثم عززها بعد بصحيفة الجنة وجريدة الجنينة. وشرع بعد ذلك في وضع (دائرة المعارف) وهو عمل خطير يُعجز الفرد وينوء بالجماعة في قبيل كقبيلة وجيل كجيله. ولكن حذقه لأشهر اللغات، وآعتصامه بالصبر والثبات، ذللا له العقاب وسهلا عليه الصعاب، فأصدر منها ستة مجلدات. ونزل به موت الفجاءة وهو يعمل في السابع فقام به من بعده بنوه وفقد الشرق بموته ركناً من أركان نهضته وعلماً من أعلام هداه.

علمه وفضله:

نبغ البستاني في عصر فشت فيه الجهالة وغشى الناس الظلام فحمل المصباح وأنار الطريق، ونصب نفسه للهداية والدعاية فألف الكتب، وأصدر الصحف، وأنشأ المدارس، وملأ حياته النافعة بجليل الآثار وخطير الأعمال، وفي ذلك دليل على نفس عبقرية وعزيمة فتية وإرادة قوية. فمن تلك الآثار الخالدة: محيط المحيط وهو معجم لغوي على النمط الحديث آستوعب فيه قاموس الفيروزآبادي وصحاح الجوهري ورتبه على حروف المعجم بآعتبار الحرف الأول من الثلاثي المجرد، وجمع فيه كثيراً من الكلمات العامية وما يقابلها من اللغة الفصيحة، وكشف عن أصول كثيرة من الكلمات الأعجمية التي لم تعرف من قبل، ووضع طائفة من المصطلحات للعلوم الحديثة. وقد آستخرج منه لطلاب المدارس مختصراً سماه قطر المحيط. ومنها دائرة المعارف، وقد أصدر منها كما علمت ستة مجلدات وأتم ابنه سليم السابع والثامن وقضى نحبه في التاسع، فأتمه بنوه الباقون بمعونة ابن عمهم سليمان البستاني مترجم الألياذة، ثم وقف عملهم عند ذلك. فلما وفد إلى القاهرة سليمان البستاني أراد أن يتم هذا العمل الجليل فأصدر هو ورجلان من بني عمومته الجزأين العاشر والحادي عشر، ثم حال نقص الأداة دون التمام.

وللبستاني غير هذين الأثرين العظيمين كشف الحجاب في علم الحساب، ومفتاح المصباح في الصرف والنحو، وعدد عديد من المقالات والرسائل.

٩٢ ـ إبراهيم اليازجي
١٨٤٧ ـ ١٩٠٦ م
١٢٦٢ ـ ١٣٢٣ هـ

نشأته وحياته :

وُلد العلامة اللغوي الناقد الكاتب الشيخ إبراهيم بن ناصيف اليازجي ببيروت عام ١٨٤٧ م في بيت معمور بالفضل، مشهور بالأدب، وتلقى العلم عن أبيه الشيخ ناصيف عميد الأسرة اليازجية. ثم عكف على كتب اللغة والأدب، فأتقن علوم اللسان، وعرف مطارح الإساءة والإحسان، وحفظ كثيراً من جيد المنثور والمنظوم. ثم قام بتدريس اللغة العربية في المدرسة البطريركية. حتى إذا قام الآباء اليسوعيون على ترجمة التوراة منافسة للترجمة الأمريكية التي قام بها المرسلون الأمريكيون عهدوا إليه بضبط ألفاظها وتنقيح عباراتها فقضى في هذا العمل تسع سنين كان في أثنائها يعالج النظم والنثر والبحث والنقد، وينشر ما يريد من ذلك في المجلات التي شارك في تحريرها كالمصباح والطبيب في بيروت. ثم هاجر إلى القاهرة في عام ١٨٩٤ م، وأنشأ مجلة البيان سنة ١٨٩٧ مع الدكتور بشارة زلزل. ثم استقل بمجلة أخرى دعاها (الضياء) وظل يصدرها إلى أن انتقل إلى دار القرار سنة ١٩٠٦.

أدبه وعلمه :

كان الشيخ إبراهيم عليماً بأسرار العربية، عارفاً بمفرداتها وفرائدها، حافظاً لنوادرها وشواردها، واقفاً على صحيحها وفاسدها. فكان يتعقب الكتاب والشعراء في مجلتيه البيان والضياء، يدلهم على الخطأ ويرشدهم إلى الصواب، وكثيراً ما كان يحتدم الجدل بينه في الضياء وبين الشنقيطي في مصباح الشرق، لتحرير لفظة، أو تصحيح رواية، أو تنقيح نص: وبفضل هذا التعقب شعر الأدباء بمراقبة النقد فأخذوا أنفسهم بالتدقيق والتروية والمراجعة. واستفاد المعلمون مما أحصاه من الأخطاء الشائعة في لغة الصحف والكتب، فأشاعوا تصويبها في مؤلفات الأساتذة وكراسات التلاميذ. ورأى اليازجي محصول المنشئين والصحفيين من اللغة قليلاً فأختار لهم طائفة من التعابير البليغة المأثورة في كتاب سماه (نجعة الرائد في المترادف والمتوارد) كما جمع ما أحصاه من الأغاليط المتداولة على ألسنة

---

(٩٢) انظر ترجمته في: أعلام اللبنانيين: ص ١٢١، وتاريخ الصحافة العربية: ٢/٨٨، ومعجم المطبوعات سنة ١٩٢٧، ونبذة تاريخية: ص ٥٥، والأعلام للزركلي: ١/٧٦ ـ ٧٧.

الأدباء في كتاب سماه (لغة الجرائد). والشيخ إبراهيم بعد ذلك طويل الباع في الصناعتين، له شعر جزل محكم، ونثر مطبوع رائق.

نموذج من كلامه:

كتب يعزي بعض أصدقائه:

من علم أن القضاء واقع، وأن الأعمار رهائن المصارع، فلم يصحب دهره على غرة، ولم يفتر من الأقدار بفترة؛ لم تكبر عليه الرزيئة إذا اغتالت، ولم يطمئن إلى السلامة وإن طالت، فإن للدهر رقدة وهبَّة، وإن الليالي كمنة ووثبة. ومثلك من أدرك مبادىء الأمور ومصايرها، وعرف موارد الحياة ومصادرها، وإنما الموت طور من أطوار الوجود، وآخر أعمال الحياة في الوجود. ولا أزيدك علماً بالكون وشرائعه؛ والكائن وطبائعه، إنما هي ذكرى لمن فجأه الرزء فشغله، وحل بساحته القضاء فأذهله. وحسبي من التعزية علمي بما عندك من موارد العلم المتاح، ومن التأسية ما تعلمه من حال مخاطبك وهو سائل الجراح. وما أخلقني بأن أقول: إن رزءك هذا قد زادني شجناً على أشجاني، ونكأ ما تماثل من فرحة أحزاني. ولكني قد صيرني الدهر إلى حال، لا تعمل فيها حال، ولا أبالي معها بسلم ولا قتال، فكأنما إياي عنى أبو الطيب حيث قال:

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غَشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال عَلَى النصال

٩٣ ـ حمزة فتح الله
١٨٤٩ ـ ١٩١٨ م
١٢٦٥ ـ ١٣٣٦ هـ

نشأته وحياته:

ولد الأستاذ اللغوي الشيخ حمزة فتح الله بالاسكندرية عام ١٨٤٩ ونشأ بها نشأة الأوساط، فحفظ القرآن ودرس العلوم الشرعية واللسانية، ثم عزم الرحلة إلى تونس فلبث فيها بضع سنين حرر في أثنائها جريدة الرائد التونسي. ثم عاد إلى الإسكندرية وأتصل بالخديو توفيق، فأوحى إليه أن يحرر جريدة الاعتدال عام الثورة العرابية ذياداً عن عرشه وتأييداً لسياسته، فما حال عليها الحول.

---

(٩٣) انظر ترجمته في: الوجيز في تاريخ الأدب العربي: ص ١٤٥، والكنز الثمين: ١/١٦٥، والأعلام للزركلي: ٢/٢٨٠.

وفي سنة ١٨٨٦ مثل الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في فينا كما مثلها مرة أخرى في هذا المؤتمر نفسه حين اجتمع في استوكهولهم سنة١٨٨٩ .ثم رأى أن يزاول التعليم بعد الصحافة فعيّن عام ١٨٨٨ مدرساً بمدرسة الألسن فدار العلوم. ثم آنتقل إلى التفتيش فمكث به إلى أن أحيل على المعاش سنة ١٩١٢ م فعكف على البحث والقراءة حتى وافاه أجله في إبريل من سنة ١٩١٨ م وقد كف بصره.

أخلاقه وعلمه:

كان رحمه اللّه سليم الصدر، كريم الخلق، غيوراً على اللغة، ولوعاً بالأدب مُغْرى بالبحث، فسرت هذه الصفات إلى أكثر تلاميذه، فرفعوا شأن اللغة، وأحيوا موات الأدب. ألّف كتاب (المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية) أثناء تدريسه بدار العلوم. ثم كانت له اليد الطولى في تنقيح كتب الدراسة بالمعارف.

عالج النظم على طريقة المتقدمين، والنثر على طريقة المتأخرين، فكان وسطاً في الحالين، كما يتضح لك ذلك من هذين النموذجين:

نموذج من كلامه:

خير ما أثر عنه من الشعر قصيدة أنشدها في مؤتمر المستشرقين يقول في مطلعها:

حَمْد السُّرى يا أخيَّ العود والناب ... أنساك وعثاء إغباب وإخباب

ومنها في الحكم:

ومن يُرد نيل مجد وهو في دعة ... فقد بغى من صفاة دَرَّ أحلاب
والمرء في موطن كالدر في صدف ... والتبر في معدن والنبع في غاب
والسيف مثل العصا إن كان مغتمداً ... وزامر الحي لا يحظى بإطراب
وأزهد الناس في علم وصاحبه ... أدنى الأحبة من أهل وأصحاب

وكتب إلى السيد عبد الحميد البكري معتذراً:

مولاي: أما الشوق إلى رؤيتك فشديد، وسل فؤادك عن صديق حميم، وود صميم، وخُلّة لا يزيدها تعاقب المَلَوَين، وتألّق النَّيرين، إلاّ ونوقاً في العُرا، وإحكاماً في البنا، ونماء في الغراس، وتشييداً في الدعائم. ولا يظنن سيدي أن عدم ازدياري ساحته الشريفة، وآجتلائي طلعته المنيفة، لتقاعس أو تقصير، فإن لي في ذلك معذرة آقتضت التأخير والسيد أطال اللّه بقاءه أجدر من قبل معذرة صديقه، وأغضى عن ريث استدعته الضرورة. وبعد فرجائي من مقامكم السامي ألا تكون معذرتي هذه عائقاً لكم عن زيارتي فكم مِنةٍ طوقتمونيها، ولكم فيها قول البداءة وعليَّ دوام الشكران والسلام.

الخطــابــة والخطبــاء

ظلت الخطابة في أول هـذا العصر على مـا كانت عليـه في آخر العصـر العباسي لا تتعدى الجوامع والبِيَع، ولا يقوم بها إلا فئة جاهلة نـاقلة. فلما دعـا داعي الثورة العـرابية ظهرت الخطابة السياسية على ألسنة زعمائها، وأشهرهـم السيد عبد اللّه نديم والشيخ محمد عبـده وأديب إسحق واللقاني. ثم مـرَن عليها كثيـر من الوعـاظ والأدباء وأقـاموا المجـامع الأسبوعية للخطابة في الأخلاق والدين والاجتماع والسياسة. ولكن الخطابة لم تجلُ عنهـا أعقـاب العلة المزمنـة إلا في عهد الـزعيم الوطني الكبيـر مصطفى بـاشـا كـامـل المتـوفى سنة ١٩٠٨ م، فقد كانت له أمضى سلاح في جهاده. وأقوى معين في إيقاظ بـلاده. ومنذ قيامه بالدعوة الوطنية، ونهوضه بالحركة الاستقلالية، أخذ شبابنا ولا سيما المحامين يتدربون عليها حتى نبغ منهم الآن طائفة صالحة. ولعل الشرق لم يشهد في عصر من عصوره خطيباً حافل القريحة، قوي العارضة، جهوري الصوت، قبل المغفور له سعد باشـا زغلول. وإنا لنتوقع للخطابة في عهد نظامنا الدستوري رقياً سريعاً؛ فإن الحرية السياسية، والمنافسـات الحزبية، والمناقشات البرلمانية، من أبلغ العوامل أثراً في رقي الخطابة. ولـولاها مـا كان ديمُستين في اليونان، ولا شيشرون في الرومان، ولا عليٌّ في العرب.

٩٤ ــ عبد اللّه نديم
١٨٤٥ - ١٨٩٦ م
١٢٦٠ - ١٣١٣ هـ

نشأته وحياته:

ولد السيد عبد اللّه بن مصباح بن إبراهيم في الاسكندريـة، ونشأ بهـا نشأة الأوسـاط فتعلم مبـادىء القراءة والكتـابة وحفظ القـرآن في الكتابـة وهويـومئذٍ في المـدرسة الأولى لأبنـاء الشعب. ولما أيفع دخل معهد الاسكندرية في جامع الشيخ فأدرك قسطاً موفوراً من علوم الدين واللسان. وطغى ميله الأدبي عَلَى ميوله الأخرى فحفظ الأشعار وروى الأخبار وعالج النظم والنثر. ثم داخل العلماء وطارح الأدباء حتى شغله عن العكوف على الدرس. وأعجله طلب الرزق عن متابعة الطلب في المعهـد فآنصـرف عنه إلى تعلم فن البـرق (التلغراف) فتعلمه وتكسب عن طريقه حيناً من الدهر في (تلغرافات الحكومة)؛ ثم فصل عن هذا العمل

---

(٩٤) انظر ترجمته في: أدب الشعب: ص ١١٣، وزعماء الإصلاح: ص ٢٠٢، ونزهة الألباب: ص ١٧٩، والكافي لشاروبيم: ٤/ ٢٣٩ و ٤٨٦، وانظر الأعلام للزركلي: ٤/ ١٣٨.

فتعاطى التجارة في مدينة المنصورة فلم تربح تجارته ولم يسلم رأس مَاله فعاد إلى الاسكندرية وكان أولو الفضل قد أسسوا في ذلك الحين جمعية إسلامية خيرية لإنشاء المدارس للبنين والبنات فشارك النديم في هذا العمل وتولى نظارة المدرسة الأولى لهذه الجمعية. وأمدته الحكومة بالمكان والمال عَلَى ألا تكون مقصورة على المسلمين؛ ثم جعلها الخديو توفيق تحت رعايته. وكانت هذه الجمعية من المحاريب السياسية والاجتماعية يجتمع فيها الناس ليلاً ليسمعوا الخطب في مختلف الشؤون من أمثال عبد اللّه نديم، وأحمد سمير، وأديب إسحق، وإبراهيم اللقاني.

ثم ألف السيد عبد اللّه رواية تمثيلية عنوانها (مصر وطالع التوفيق) مثلها طلاب هذه المدرسة، كان مغزاها الأسى على تقهقر مصر وتحكم الأجنبي بها. ثم أخذت آراء الأفغاني تهفو بالنفوس وتعصف بالرؤوس، فشغل النديم عن الجمعية والمدرسة وأنشأ جريدة (التنكيت والتبكيت) وهي أسبوعية كانت تلبس الجد ثوب الهزل. ثم آستبدل بها (الطائف) فكانت بوقاً من أبواق الثورة العرابية، وميداناً من ميادين الحركة الوطنية وكان هو خطيب الثورة الصارم اللسان الجريء الجنان القوي الأثر. ولما خبت نارُها وقُبض مشعلوها اختفى عبد اللّه نديم عشر سنين قضاها متنكراً في كل زي، متنقلاً في كل بلد، حتى قبض عليه فحبس أياماً وعفا عنه الخديو على أن يخرج من مصر إلى حيث شاء. فأقام في فلسطين حقبة من الزمن عاد بعدها إلى القاهرة مطلق السراح، فأنشأ بها مجلة أدبية سماها (الأستاذ) انتشرت في مختلف البيئات والجهات انتشاراً عجيباً أقض مضاجع الحكومة فنفته مرة أخرى من البلاد. فرحل إلى الآستانة ونفق عند السلطان فعين مفتشاً للمطبوعات في الباب العالي وظل في منصبه إلى أن قبضه اللّه إليه.

أخلاقه ومواهبه:

كان السيد عبد اللّه نديم خطيباً موهوباً ذلق اللسان، فصيح العبارة، حاضر البديهة، سريع النكتة، شديد التهكم، عاضه اللّه من قلة العلم وضيق الاطلاع سلامة الطبع في الأدب وسماحة القريحة في الكتابة وغزارة البحر في الخطابة ثم تقلبت به الأحوال السياسية والاجتماعية فآتصلت أسبابه برجال الحكم، وطال اختلاطه بقادة الشعب، وكثر اضطرابه في مختلف الأرض. وتخلل طبقات الناس فبلا أخلاقهم وسبر أهواءهم. وكان لذلك كله أثر بالغ في علمه بمخبآت الضمائر، ومقتضيات الأحوال، وأخذه بأعنة الكلام يصرفه في أي معنى شاء، حتى قال فيه السيد جمال الدين الأفغاني: «ما رأيت طول حياتي مثل النديم في توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إذا خطب أو كتب».

نموذج من كلامه:

قال من رسالة له عمد فيها أن يقتبس الفاصلة الثانية من القرآن:

لا حول ولا قوة إلا بالله، اشتبه المراقب باللاه، واستبدل الحلو بالمر، وقدم الرقيق على الحر، وبيع الدر بالخزف والخز بالخشف، وأظهر كل لئيم كبره، إن في ذلك لعبرة. سمعاً سمعاً، فالوشاة إن سعوا لا يعقلوا، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فكيف تشترون منهم القار في صفة العنبر، و **﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾**. عجيب لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون. فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون. وأنا يا عزيز العليا، ووحيد الدنيا، قد بينت لك فعلهم، **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾** ولكنهم طمعوا في عميم طولك، **﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾**.

٩٥ ـ مصطفى كامل

١٨٧٤ ـ ١٩٠٨ م

١٢٩٠ ـ ١٣٢٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد زعيم النهضة المصرية وموقظ الروح الوطنية، مصطفى كامل بالقاهرة سنة ١٨٧٤ م في بيت اشتهر بكرم الأصل وعفة النفس وصحة الدين، ثم تلقى دروسه الابتدائية والثانوية في المدارس المصرية، ثم دخل مدرسة الحقوق فنال إجازتها وسنّه لم تتجاوز التاسعة عشرة. وكان في أثناء الطلب قد اشتهر بين الطلاب والكتّاب بقوته في الكتابة وقدرته على الخطابة، فنشر كثيراً من المقالات السياسية في صحيفتي الأهرام والمؤيد، وأصدر مجلة أدبية شهرية سماها (مجلة المدرسة) أشرقت فيها نفسه الكريمة إشراق النفس الزعيمة، فتهافت على ضوئه طلاب المدارس العليا يؤيدون دعوته ويرددون كلمته ويترسمون خطاه. ولما نال شهادة الحقوق لم يتجه إلى العمل في القضاء ولا في المحاماة، وإنما اتجه إلى خدمة وطنه من طريق السياسة والصحافة، فسافر إلى أوروبا مراراً يدعو إلى مصر بالكتابة في صحفها والخطابة في محافلها. وداخل رجال السياسة في فرنسا وانجلترا يستمد منهم التوجيه والعون، ومن هؤلاء أمه الروحية السيدة جولييت آدم الفرنسية التي يقول لها في بعض رسائله: «إنني لا أزال صغيراً، ولكن لي أملاً كبيراً. أريد أن أوقظ في مصر الشيخة

---

(٩٥) انظر ترجمته في: الأعلام الشرقية: ١/١٦٧، وتراجم مشاهير الشرق: ١/٣١٠، ورواد النهضة الحديثة: ص ٢٠٦، ومعجم المطبوعات: ١٧٥٤، وانظر الأعلام للزركلي: ٧/٢٣٨ ـ ٢٣٩.

مصر الفتاة. هم يقولون إن وطني لا وجود له، وأنا أقول إنه موجود بدليل ما أشعر له في نفسي من الحب الشديد الذي سيتغلب على كل حب سواه».

ثم أنشأ (اللواء) في ثلاث نسخ: بالعربية والإنجليزية والفرنسية، فدافع بها عن بلاده، وجاهد في سبيل حريتها حق جهاده، حتى أدرك، هو في طراءة الشباب زعامة الأمة وثقة العرش ورضا الخلافة وخصومة المحتل. وكان في مقدوره إذا شاء أن يستغل هذه القوى العظيمة في سبيل الثراء والحكم، ولكنه زهد في ذلك كله زهادة الحكيم، فعاش للمبدأ والفكرة، ومات للقدوة والعبرة. ولما بلغ هذا الجهاد المتصل وهذا الجهد المرهق من جسده الناحل ألَّف (الحزب الوطني) ليحمل عنه الأمانة ويبلغ بعده الرسالة؛ ولكن المنية لم تمهله بعد ذلك إلا أياماً فآخترمته رضي اللّه عنه وهو دون السابعة والثلاثين من عمره.

مصطفى كامل الخطيب:

كان مصطفى كامل خطيباً طلق البديهة، رائق المنطق. نديّ الصوت، عذب النبرة، أنيق اللهجة، لا يتلكأ ولا يلحن ولا يتلعثم. وكان كاتباً حلو اللفظ رقيق الأسلوب، قوي الروح، صادق الفكرة، نبيل الغرض، وبهذه المزايا الموهوبة والمكسوبة، استطاع أن يحيي الموات، ويجمع الشتات، وينعش خمود الشعب بالآمال المطمعة، ويقارع طغيان المحتل بالحجج الملزمة.

نموذج من خطبه:

قال في خطبة له ألقاها بالإسكندرية في ٢٢ أكتوبر من سنة ١٩٠١:

بلادي! بلادي! لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي! لك عقلي ولساني، لك لبي وجناني، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر! يقول الجهلاء والفقراء في الإدراك إني متهوّر في حبها! وهل يستطيع مصري ألا يتهور في حب مصر؟ إنه مهما أحبها، فلا يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها.

ألا أيها اللائمون! انظروها وتأملوها، وطوفوها، واقرأ صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض: هل خلق اللّه وطنا أعلى مقاماً، وأسمى شأناً، وأجمل طبيعة، وأجل آثاراً، وأغنى تربة، وأصفى سماء، وأعذب ماء، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟

اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد: إن مصر جنة الدنيا، وإن شعبها الذي يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها، وسلم أزمتها للأجنبي:

إني لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً!

٩٦ ـ سعد زغلول
١٨٥٧ ـ ١٩٢٧ م
١٢٧٣ ـ ١٣٤٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد سعد زغلول في (إبيانة) من أعمال مديرية الغربية وتلقى في كتاب القرية مبادىء الثقافة العامة وأولها حفظ القرآن الكريم؛ ثم أرسله أبوه إلى الأزهر فدرس علوم الدين واللغة والمنطق ثم صارت له في الجدل والمناظرة شهرة. واتصل بالسيد جمال الدين الأفغاني حين هبط مصر فلزمه وأخذ عنه وتأثر به. وكان سعد بفطرته مجبولاً على مناصرة الحق ومجاهدة الباطل ومحاربة النقص. عين بعد أن ترك الأزهر محرراً في الوقائع المصرية مع أستاذه الإمام فكان يكتب في الاستبداد والشورى والأخلاق، وينتقد الأحكام التي كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملغاة) ثم عين ناظراً لقلم قضايا الجيزة، وكان حكمه حكم القاضي الجزئي فنزل الحق من عدله وعقله في حمى أمين. ثم أصغى لقضية الحق في الثورة العرابية ففصل من وظيفته وسجن في (الضبطية) سبعة أشهر. ولما أطلق من سجنه زاول المحاماة، ولم يكن يشترط في مزاولتها حينئذ إلا أداة امتحان في المحكمة فكان أول محام أقرته المحاكم الأهلية في مصر.

ثم اختير نائب قاض في محكمة الاستئناف. ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق، فبرع القضاة الأوروبيين بالذهن الغواص والدرس المحيط والاستنباط الدقيق والحكم الموفق. وفي سنة ١٩٠٦ م عين ناظراً للمعارف العمومية وكانت العلوم كلها تدرس في اللغة الإنجليزية فجعلها تدرس في اللغة العربية، وكان من ذلك أن ترجمت العلوم وألفت الكتب وانتعشت الثقافة. ثم عين ناظراً (للحقانية) فجد في إصلاح نظم القضاء وتنقيح مواد القوانين لتلائم العصر وتسد الحاجة. ثم أقيل من الوزارة فانتخبته الأمة نائباً عنها في (الجمعية التشريعية) فكان بحججه الملزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء ودهشة النواب ومتّجه الأفئدة.

ولما أعلنت الهدنة في الحرب العالمية الأولى ووضعت قضية العالم كله على مكاتب الغالبين في (ڤرساي) تحركت مصر للمطالبة بحقها في تقرير مصيرها ووكلت عنها وفداً يقدم مطالبها ويحقق رغائبها برياسة سعد باشا زغلول، فنفته السلطة العسكرية الإنجليزية في نفر

---

(٩٦) انظر ترجمته في: المجمل في التاريخ المصري: ص ٤٢١ ـ ٤٢٦، ومرآة العصر: ٢/١٠٠، والأعلام الشرقية: ١/١٣٩، وانظر الأعلام للزركلي: ٣/٨٣.

من صحبه إلى جزيرة مالطة، فثار الشعب المصري ثورته المعروفة سنة ١٩١٩. وكان من آثارها أن أطلق المعتقلون وخلى بينهم وبين مؤتمر الصلح في باريس.

وفي سنة ١٩٢٠ دعته الحكومة البريطانية إلى لندن لتفاوضه الرأي في المطالب المصرية فشخص إليها مع بعض أعضاء الوفد. ولكن المفاوضة لم تسفر عن تحقيق الأماني القومية فقطعها وعاد إلى مصر فقابلته الأمة مقابلة الفاتح الظافر. وآستأنف الجهاد على الخطة التي رسمها فأقض مضاجع الانجليز فنفوه مرة أخرى إلى جزيرة سيشل مع نفر من أصحابه فلبثوا فيها مدة، ثم نقل هو إلى جبل طارق. وأطلق سراحهم جميعاً بعد ذلك، فشخص سعد باشا إلى فرنسا من فوره فظل فيها حيناً ثم ارتد إلى مصر. وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت من جانبها تصريح ٢٨ فبراير من سنة ١٩٢٢ بتحفظاته الأربعة، فأعلن الملك فؤاد الأول استقلال البلاد وأصدر الدستور في سنة ١٩٢٣. وأسفر الانتخاب عن فوز الوفد بالكثرة فتولى سعد رياسة الوزارة في أوائل سنة ١٩٢٤ م، ثم اعتزلها من السنة نفسها وتولى رياسة مجلس النواب وظل فيها حتى اختار الله له ما عنده.

منزلته في الخطابة:

لم ير التاريخ المصري، بل الشرقي، قبل سعد خطيباً، بلبل اللسان، رفيع الصوت، حافل البديهة، دامغ الحجة، أنيق اللهجة، رائع البيان، حسن السمت، يزاوج بين المنطق والشعر، ويعاقب بين الإقناع والإمتاع، ويراوح بين الجد والهزل، ويتصرف في فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب، والفيلسوف بدقة الفكر، والموسيقى بجمال الإيقاع.

ذلك لأن سعداً كان رجل جلاد وجدل. تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاره العمل، وراض نفسه منذ الدراسة على أدَبَي اللسان والقلم، وتنفس به العمر في ميادين الحق. فتكملت عبقريته الموهوبة بالمعرفة، وتثقفت بالتجربة، وتقوت بالمرانة، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذي يهضب بالكلام أربع ساعات متواليات، لا يتلكأ، ولا يتلجلج، ولا يتكثر باللغو، ولا يستعين بالتكرار، ولا يطرد نشاط السامع. وكان مع ذلك يخطب كما يكتب، ويكتب كما يخطب، متوخياً في الأمرين براعة التفكير، وبلاغة الأداء، وجمال الأخيلة وابتكار التعابير، وصحة الأقيسة، وقوة الأدلة.

نموذج من شعره:

وجه رحمه الله هذا النداء إلى الأمة المصرية عقب عودته إلى مصر في صدر سنة ١٩٢١ م:

رحبت الأمة بعودة نوابها ترحيباً فاق كل ترحيب، وأعجز وصف كل كاتب وخطيب، فقد أتى أفرادها من كل ناحية بدافع من ضمائرهم النيرة، وباعث من شعورهم الحي،

ترتعش أعصابهم حماسة، وتخفق قلوبهم بالوطنية الصادقة، للالتفاف حول من اتخذوهم رمز أمانيهم، وعنوان مبادئهم. ولقد رأيت آيات الحكمة والكرامة والثبات تتجلى فيما استقبلنا من مظاهر الفرح الباهر ـ تلك الصفات التي تضمن للشعوب تقدمها وللأمم سعادتها، وشعرت من قبلات الترحيب التي غمرونا بها بحرارة قلب يخفق في جسم شعب عظيم. وقد اشترك الأموات والأحياء في أن يملوا على المجموع وكل فرد واجبه نحو الوطن العزيز، وأجمع الكل على مطالبتنا بمواصلة السير في الطريق الذي سَنّه الحق القويم. وإن الشرف والكرامة والإخلاص لوطننا المقدس لمًا يوجب علينا طاعة هذا الأمر الكريم، والتزام هذا الطريق المستقيم.

إننا نشكر البلاد جميعها، قريبها وبعيدها، على حلة الثقة التي زينتنا بها، ونقسم بالوطن وشعائره المقدسة ـ ويشاركنا في هذا القسم العظيم أصحابنا المخلصون في جهادهم ـ إننا لا ندخر شيئاً من وسعنا لتحقيق هذه الثقة الغالية، ولا نتحول لحظة واحدة عن الغرض الذي وضعناه نصب عيوننا حتى نصل إليه.

إننا لم نعد إلا لنقوي بعزائم مواطنينا الكرام عزائمنا، ونشد أزرنا بآتحادهم المتين، ونتمتع بمرآهم بعد طول هذه الغيبة، ونتأكد من أن الاشتراك في المفاوضات الرسمية التي دعتنا الوزارة الجديدة له متفق مع المبادىء التي وضعتها الأمة، وعاهدناها على احترامها، ومع الخطة التي رسمتها وتعهدنا بمتابعتها. ولا شيء أحب إلى قلوبنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع كل هيئة مستعدة لأن تسترشد بإرادة الأمة، وعاملة على تحقيق غايتها السامية.

لم يبق علينا إلا أن يعود كل منا إلى عمله، ويقبل على شأنه، فالتلميذ إلى مدرسته، والفلاح إلى مزرعته، والصانع إلى مصنعه، والتاجر إلى متجره، والكاتب إلى مكتبه، والمرأة إلى إدارتها بيتها. وعلى الكل من غني وفقير أن يباشر عمله، مراقباً أعمالنا، واضعاً نصب عينيه المقصد الأسمى، وأن يعتقد أنه يزيد بما يعمل في كنوز الوطن كنزاً، ويضم إلى قواه قوة.

إلى العمل جميعاً، لنرفع منار الوطن، ونعلي كلمته، ولتحيَى مصر!

الفصل الخامس

الشعر

لم ينل الأدب من عناية الأمراء العلويين ما نال العلم. فظل الشعر ـ على ندرته ـ كما كان في العصر الماضي أسيرَ التقليد والصنعة. ثم أدركته نفحة من الهبَّة العامة في عهد الخديو اسماعيل، فتردد ذكره على ألسنة شعرائه وندمائه، كالسيد علي أبي النصر والشيخ علي الليثي. وأخذت هذه الحركة تطرد بالإقبال على أمهات كتب الأدب الباقية، والرجوع إلى منابع الشعر الصافية. وكان البارودي أول من أقام عمود الشعر وجدد دارس القريض، فترسم خطى الفحول من شعراء العباسيين، وحاكاه الناشئون من شعراء العصر، وابتغوا الوسيلة إلى ذلك بحفظ المختار من أشعار الجاهليين والإسلاميين، فأخصبت القرائح، وأدركت السلائق، وصحت الأذواق، وجرى الشعر جزل اللفظ، محكم النسج، متين القافية، مشرق المعاني، متخففاً من أثقال البديع وأوزار الصنعة ثم نزع الشعراء إلى الاستقلال والحرية والتجديد بتأثير الحضارة الأوروبية، وتعلم اللغات الأجنبية، ونشاط الحركة العلمية. وقصدوا إلى اكتناه النفوس وتحليل الأشخاص، وتعليل الأشياء، ومناجاة الطبيعة. وحاد أكثرهم عن الأساليب العتيقة كالاستهلال بمقدمة خارجة عن الموضوع في الغزل أو غيره تحتاج إلى تخلص؛ ونظروا إلى القصيدة كلها كأنها كائن حي تتساعد أجزاؤه على غرض معين؛ ونفروا من الأغراض القديمة كالمدح والفخر والهجاء والمجون، لتغير البيئة واختلاف التربية. وجرت ألسنتهم بالمعاني العامة، كرثاء مجد مفقود، وانقاد عيب موجود، وطلب استقلال منشود. ولكن تقدم الشعر في الجملة كان أبطأ من تقدم النثر، لأن الثقافة العلمية في مصر أسبق من الثقافة الأدبية، ولأن الشعر لا يزال من ضروب الكمال التي لا تعد في وسائل الكسب ولا في صميم الحياة.

ومما يملأ النفس أسفاً ودهشة أن شعراء اليوم مُنُوا بالجمود والأذهان ثائرة، وأصيبوا بالأصغاء وأسباب القول وافرة؛ فالشعب مضطرم الشعور ثائرٍ الفكر يجاهد في سبيل وجوده وحريته بدمه وماله، وهم قاعدون تحت الجُدْرِ يتثاءبون ويتمطّون على دفء الشمس تاركين الجيش من غير موسيقى! اللهم إلاّ صدحات من أمير الشعراء شوقي وشاعر النيل حافظ،

يرسلانها الحين بعد الحين فتجلو صدأ الخواطر، وتحيي مَوات القلوب. فلما توفى الله في سنة ١٩٢٢ حافظاً وشوقي، وكان اسماهما علمين على الشعر في العهد الأخير، تسابقت القرائح الشابة إلى ملء مكانيهما، فنشط في مصر القريض، وتجاوبت الأفراخ النواهض بالأغاريد، وشرقت الصحف والمجلات بفيض هذه القرائح، ولكن أصواتها الناعمة الرخوة لم تملأ الأسماع ولم تطرد الوحشة. ولاحت في لبنان المهاجرة مواهب النبوغ ودلائل القيادة؛ ولكن البعد يبدد الصوت القوي، ولاغتراب يوهن الجهد الجهيد. والزمن الذي يمحص الأشياء فينفي البهرج الزائف، ويثبت الحق الصريح، هو الذي يعرف مكان هذه الجهود، من عالم الفناء أو من عالم الخلود.

الشعراء

٩٧ ـ محمود سامي البارودي

١٨٣٩ - ١٩٠٤ م

١٢٥٤ - ١٣٢١ هـ

نشأته وحياته:

هو ابن حسن بك حسني مدير دنقله وبربر عَلَى عهد محمد علي باشا. وُلد بالقاهرة وشُبلَ في نعمة أبيه. ولم يكد يحبو للسابعة حتى فجعه الموت فيه بدنقلة فعُني بتأديبه بعض أهله. وأدخلوه المدرسة الحربية فتعلم الفنون العسكرية وخرج منها ضابطاً. وكان وهو غض الحداثة مولعاً بحفظ الشعر وإنشاده. ولا نعلم مصدر هذا الميل فيه. فأخذ نفسه بدرس دواوين الفحول من شعراء العرب حتى شب فصيح اللسان، مطبوعاً على الإعراب دون علم بالنحو. ثم فاض ما حفظ على لسانه فانطلق برائق الشعر في الأغراض المختلفة وسافر إلى الآستانة فدرس اللغتين التركية والفارسية، وتضلع من آدابها حتى عدًّ من شعرائهما. واتصل هناك بالخديو إسماعيل عام ١٢٧٩ هـ، فألحقه بحاشيته وعاد به إلى مصر، فتدرَّج في الرتب الحربية حتى سما سنة ١٢٩٤ هـ إلى (لواء). ورحل في أثناء ذلك إلى فرنسا وإنجلترا، فازداد قوة في أدبه، وخبرة في فنه. وكان أحد ضباط الحملة المصرية التي ساعدت الدولة العلية أثناء ثورة البلقان وإقريطش، فأبلى فيها بلاء حسناً. فلما عاد إلى مصر نقل إلى المناصب الإدارية فوُليَ مديراً للشرقية ثم رئيساً للضبطية. وفي عهد توفيق تقلد نظارة الأوقاف ووصل إلى رتبة (فريق) وتولى نظارة الجهادية قبيل الثورة العرابية. ورأس النظارة

---

(٩٧) انظر ترجمته في: تراجم مشاهير الشرق: ٢/٣٣٣، وشعراؤنا الضباط: ص ١٧، وأعلام الجيش والبحرية: ١/١٨١، وتاريخ دولة المماليك بمصر لوليم موير: ص ١٩٧، وانظر الأعلام للزركلي: ٧/١٧١.

بعد شريف باشا، فما لبث غير قليل حتى ثار نقع الثورة واستطار شرر الفتنة، وأكثرُ الناس على أن البارودي أول من فتح بابها وتدرَّع جلبابها، ولكن شعره يبرئه من ذلك كما سيجيء.

وسكتت الثورة باحتلال الإنجليز وادي النيل وقُبِضَ على مثيري الفتنة وَحُكِم عليهم بالنفي إلى جزيرة سرنديب (سيلان) وفيهم الشاعر. فلبث في منفاه سبعة عشر عامًا وبعض عام تعلم في أثنائها اللغة الإنجليزية، ونظم بدائع شعره في العربية. ثم وسعته رحمة الخديو عباس الثاني فعفا عنه سنة ١٣٢٧ هـ ومنحه التمتع بالحقوق المدنية فلم يعش بعدها إلا خمس سنين قضاها في سكون الشيخوخة وادعاً قانعاً بين مطالعة الكتب، ومحادثة الصحب، ومعالجة القريض. وقد كف بصره قبيل موته.

شعره:

إن كان لإمرىء القيس فضل في تمهيد الشعر وتقصيده ولبشار في ترقيته وتجويده، فللبارودي كل الفضل في إحيائه وتجديده. وكان الشعر في عهده صورة مشوهة من آثار القرون الأخيرة المظلمة؛ نظمٌ مرتبك، وتكلف بادٍ، وصناعة فاشية، ومعنى سقيم، فجلاه في خاطره وصقله على لسانه، فجاء منضد اللفظ نقيَّ المستشف. نقص البارودي شعر ابن المعتز وأبي فراس والرضيّ والطغرائي وأمثالهم من الفحول، فارتسم شعرهم على لوح قلبه، وانتقش في صفحة ذهنه؛ وصادف ذلك منه شعوراً فياضاً وذوقاً سليمًا، فاستخرج من مجموع تلك الأساليب أسلوبه الرائق الفخم. لذلك تحس وأنت تقرأ قصيدة من نظمة أن أرواح أولئك الفحول تحوم حول روحه، وتحلق فوق أبياته.

ما كان البارودي مبتكر معان ولا مبتدع أساليب، ولكنه كان رائض فواف وصائغ قريض: قد كلِفَ بالنغمة؛ وانصرف إلى الصنعة، فآثر المعنى الضئيل في اللفظ الجزل، على المعنى في اللفظ الغث، وقد أجاد وأبدع في الفخر والحماسة والوصف.

مؤلفاته:

له كتاب (مختارات البارودي) في أربعة أجزاء وهو مجموع ما اختاره لثلاثين شاعراً من شعراء العباسي في أغراض مختلفة. وقد نهج في اختياره طريقته في نظمه، فآثر حسن اللفظ والمعنى، وحسن اللفظ، على حسن المعنى وقح المبنى، وله (ديوان شعر) في جزأين قد طبع في مصر.

نموذج من شعره:

قال في الحماسة والفخر:

ونقعٍ كلُجِّ البحر خضت غِماره ... ولا معقلٌ إلا المناصلُ والجُردُ

صبرت له والموت يحمر تارةً ... وينغلُ طوراً في العَجاج فيسوَدُّ
فما كنت إلا الليث أنهضه الطَّوي ... وما كنت إلا السيف فارقه الغمِد
صؤول وللأبطال هَمْسٌ من الوَني ... ضروب وقلبُ القرنِ في صدره يعدو
فما مهجة إلا ورمحي ضميرُها ... ولا لبَّة إلا وسيفي لها عقد

وقال يرثي زوجته:

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي ... تقوى على ردِّ الحبيب الغادي
يا دهرُ فيمَ فجعتني بحليلة ... كانت خلاصة عدَّتي وعتادي؟
إن كنت لم ترحم ضناي لبُعدها ... أفلا رحمتَ من الأسى أولادي؟
ومن البلية أن يُسامَ أخو الأسى ... رَعْيَ التجلُّد وهو غيرُ جماد
هيهات بعدك أن تقر جوانحي ... أسفاً لبُعدك أو يلين مِهادي
وَلهِي عليك مُصاحب لمسيرتي ... والدمع فيك مُلازم لوسادي
فإذا انتهيت فأنتِ أول ذِكرتي ... وإذا أويتُ فأنتِ آخرُ زادي

وقال من قصيدة أخرى يتشوق:

ردوا عليّ الصِّبى من عصري الخالي ... هل يعود سوادُ اللِّمةِ البالي!
من يدْرِ من بات مسروراً بلذته ... أني بنار الأسى من هجره صالي
يا غاضبين علينا هل إلى عِدَّة ... بالوصل يوم أناغى فيه إقبالي؟
غبتم فأظلم يومي بعد فُرقتكم ... وساء صنعُ الليالي بعد إجمالي
فاليومَ لارَسني طوعُ القياد ولا ... قلبي إلى زهرة الدنيا بميال
أبيتُ منفرداً في رأس شاهقة ... مثل القَطاميِّ فوق المِرْبأ العالي

وقال يخاطب مؤججي الثورة العرابية:

نصحت قومي: قلت الحرب مفجعة ... وربما تاج أمر غير مظنون
فخالفوني وشبوها مكابرة ... وكان أولى بقومي لو أطاعون
تأتي الأمور على ما ليس في خَلَدٍ ... ويخطىء الظن في بعض الأحايين
حتى إذا لم يعد في الأمر منزعة ... وأصبح الشر أمراً غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمي ومن شيمي ... صدق الولاء وتحقيق الأظانين

وقال من قصيدة بعد عودته من المنفى، ومروره بقصر الجزيرة فتذكر عهد إسماعيل:

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع ... هيهات قد ذهب المتبوع والتبع
هذي الجزيرة فانظر هل ترى أحداً ... ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة ... للملك منها لو فد العز مرتبع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ ... ولا سميع إذا ناديت يستمع

ومنها:

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ... ولا تعطلت الأعياد والجمع
والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر ... وإنما صفوه بين الورى لمع
لو كان للمرء فكر في عواقبه ... ما شاب أخلاقه حرص ولا طمع

٩٨ ـ إسماعيل صبري
١٨٥٤ ـ ١٩٢٣ م
١٢٧٠ ـ ١٣٤١ هـ

نشأته وحياته:

ولد هذا الشاعر الفنان ودَرج على ضفاف النيل، وشب في عهد إسماعيل عهد الحضارة والعمارة والأدب، فأدخل المدارس النظامية الحديثة، وتنقل في مدارجها من (المبتديان) إلى (التجهيزية) إلى (مدرسة الإدارة) حتى شارف الثامنة عشرة من عمره، وكانت بواكير النهضة الأدبية قد بدت في (روضة المدارس) وهي مجلة للطلاب ينشئها صفوة الكتاب في ذلك العهد كرفاعة بك، والشيخ حسين المرصفي أستاذ البارودي، وعبد الله فكري، وصالح مجدي؛ وكانت تصدر مرتين في الشهر حافلة بمختلف الموضوعات والمنتخبات من نثر ونظم، فكان صبري يديم النظر فيها، ويحاول الاقتباس منها والاقتداء بها، وله من ذات نفسه ملكة قوية تدفعه؟ وقريحة سخية ترفده، وذوق سليم يرشده، فنظم بعض القصائد تهنئة للخديو نشرها في هذه المجلة وعمره إذ ذاك ستة عشر عاماً. ثم رحل إلى فرنسا مع البعثة المصرية يستكمل حظه من العلوم في جامعة «إكس» فنال منها إجازة الحقوق سنة ١٨٧٨ م، لابس أثناء ذلك الحضارة الأوروبية، وتذوق الآداب الفرنسية، وصادفت مواهبه الغريزية هناك رِيّاً من الجمال والعلم والفن فازدادت نمواً وخصبًا. فلما رجع إلى مصر انسلك في طريق القضاء فقطع مراحله واحدة فواحدة حتى أشرف منه على الغاية. فخرج إلى الإدارة فتولى محافظة الاسكندرية ثم نقل إلى وكالة الحقانية فشغلها حينا من الدهر، ثم نفض يده جملة من خدمة الحكومة سنة ١٩٠٧ لبلوغه سن التقاعد. ولزم داره يدارس أصحابه الأدب ويساجلهم القريض، ويرسل عواطف قلبه وخواطر فكره أنغاماً موقعة على قيثارة شعره. وكانت داره منتدى للشعراء ومثابة للأدباء يفدون إليها للسمر فينشدونه

---

(٩٨) انظر ترجمته في: مشاهير شعراء العصر: ١/١٨٥، والمنتخب من أدب الغرب: ١/٩٢، وكتاب في الأدب الحديث: ٢/٢٥٦، وانظر أيضاً في مقدمة «ديوان صبري» لأحمد الزين: ص ٢٧ ـ ٤٣، وانظر الأعلام للزركلي: ١/٣١٥.

أشعارهم فينقدها نقد الصيرف، ويهذبها تهذيب المعلم، حتى نعتوه بالأستاذية، وأقروا له بالأولية. وظل على هذه الحال إلى أن مُني بداء القلب، فغالبه بضع سنين ثم صرعه سنة ١٩٢٣ وهو في التاسعة والستين من عمره.

شعره:

عَهِدْنا بالشعراء الوجدانيين ينبغون في زهرة الشباب وربيع العمر حين تكون العواطف مشبوبة، والمشاعر مضطرمة، والآمال موفورة، والحياة منضورة؛ ولكن صبري وهو شاعر وجداني محض لم ينبغ إلا وهو آخذ بمخنَّق الأربعين. فلم تتدفق قريحته في صباه كالبارودي، وإنما حفلت على مرور الزمان وطول المرانة وإدمان النظر. لم يكن شعره في الشباب إلا تقليداً لم يُحكم، وتفكيراً لم ينضج، ومحاولة لم تتم. ولكن الله قد رزقه أذناً موسيقية وَذوقًا سليماً وطبيعة ناقدة، فصاغه من الألفاظ المتخيرة، والمعاني المبتكرة، وسار وراء البحتري ينشد الحب والموت، والجمال والصداقة، ويهزج بتلك المقطوعات الغنائية التي شفَّت عن روحة، وكشفت عن طبعه، وأحلته من أنداده محل الزعيم. كان صبري كما قال مطران أكثر ما ينظم لخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها، أو خبر ذي بال يسمعه، أو كتاب يطالعه وكان شديد النقد لشعره، كثير التبديل والتحويل فيه، حتى إذا استقام على ما يريد ذوقه السليم من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه. وكان ينظم المعنى الذي يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة. وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصِّد قصيدته وهو نادر.

نموذج من شعره:

قال في الغزل ويقال إنه في الآنسة (مي):

يا لواء الحسن، أحزاب الهوى	أيقظوا الفتنة في ظل اللواء
فرقتهم في الهوى ثاراتهم	فاجمعي الأمر وصوني الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذي	فيه للأنفس ري وشفاء
لا تذودي بعضنا عن ورده	دون بعض، واعدلي بين الظماء
أنت يمَ الحسن فيه ازدحمت	سفن الآمال يزجيها الرجاء
يقذف الشوق بها في مائج	بين لجين: عناء وشقاء
شدة تمضي وتأتي شدة	تقتفيها شدة، هل من رجاء
ساعفي آمال أنضاء الهوى	بقبول من سجاياك رخاء
وتجلي واجعلي قوم الهوى	تحت عرش الشمس بالحكم سواء
أقبلي نستقبل الدنيا وما	ضمنته من معدات الهناء
واسفري، تلك حُلى ما خلقت	لتواري بلثام أو خباء

واخطري بين الندامى يحلفوا — أن روضاً راح في النادي وجاء
وانطقي، ينثر إذا حدثتِنا — ناثر الدر علينا ما نشاء
وابسمي، من كان هذا ثغره — يملأ الدنيا ابتساماً وازدهاء
لا تخافي شططاً من أنفس — تعثر الصبوة فيها بالحياءَ
راضَت النخوة من أخلاقنا — وارتضى آدابنا صدق الولاء
فلو امتدت أمانينا إلى — ملك ما كدرت ذاك الصفاء
أنت روحانية، لا تدعي — أن هذا الشكل من طين وماء
وانزعي عن جسمك الثوب بين — للملا تكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناحيْ ملك — خلف تمثال مصوغ من ضياء

وقال في ساعة الوداع:

أترى أنت خاذلي ساعة التو — ديع يا قلب في غد أم نصيري
ويك! قل لي متى أراك بجنبي — راضياً عن مكانك المهجور
ساعة البين قطعة أنت قدَّت — للمحبين من عذاب السعير
لا تحيني، روحي الفداء لما حيـ — ـك غداً من صحيفة المقدور

وقال:

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة — ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمناً — حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

وقال:

تمسي تذكرنا الشباب وعهده — هيفاء مرهفة القوام فتذكر
تثب القلوب إلى الرءوس إذا بدت — وتطل من حدق العيون وتنظر

وقال في الصداقة:

إذا خانني خِل قديم وعقني — وفوقتُ يوماً في مقاتله سهمي
تعرض طيف الود بيني وبينه — فكسر سهمي فانثنيت ولم أرم

وقال:

يا موت خذ ما أبقيت الـ — أيام والساعات مني
بيني وبينك خطوة — إن تخطها فرَّجت عني

وقال يناجي الله:

يا رب أين تُرى تقام جهنم — للظالمين غداً وللأشرار
لم يُبق عفوك في السموات العلى — والأرض شبراً خالياً للنار

يـا رب أهـلـني لـفـضـلك واكـفـني	شـطط الـعـقـول وفـتـنـة الأفـكـار
ومُـر الـوجـود يشف عـنـك لكـي أرى	غـضب الـلطيف ورحـمـة الـجـبـار
يـا عـالـم الأسـرار حسبـي مـحـنـة	عـلمـي بـأنـك عـالـم الأسـرار
أخـلق بـرحمـتـك التـي تسـع الـورى	ألا تـضـيـق بـأعـظم الأوزار

٩٩ ـ أحمد شوقي
١٨٦٨ ـ ١٩٣٢ م
١٢٨٤ ـ ١٣٥٠ هـ

نشأته وحياته:

ولد أحمد شوقي بن أحمد شوقي بالقاهرة ونشأ بها. أما أصله فقد سمع أباه يرده إلى الأكراد فالعرب ويقول إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والي مصر محمد علي باشا فأدخله في معيَّته، وظل يتقلب في المناصب السامية حتى أقامه سعيد باشا أمينًا للجمارك المصرية».

ولقد كان أبوه متلافاً فأهلك ما ورث عن أبيه فكفلته في المهد جدته لأمه وكانت إحدى وصائف القصر في عهد إسماعيل ولما بلغ الرابعة من عمره، أدخل في مكتب الشيخ صالح في حي الحنفي، ثم تلقى بعد ذلك دروسه الابتدائية والثانوية وتقدم إلى مدرسة الحقوق في سن باكرة فقضى بها عامين. ثم عدل إلى قسم الترجمة الذي أنشىء فيها فقضى به عامين آخرين نال بعدهما شهادتها النهائية. ثم ضمه الخديو توفيق إلى معيتـه وأشخصه إلى فـرنسا على نفقته ليدرس الحقوق والآداب فدرس عامين في (مونبيليه) وعامين في باريس. ثم عاد إلى منصبه في المعية الخديوية. وظل يتدرج في المناصب حتى تولى رياسة القلم الأفرنجي في عهد الخديو عباس الثاني. ونفق لدى هذا الأمير حتى كانت شفاعتـه عند ذوي الحكم لا ترد وإشارته لا تخالف. ولما شبت الحرب العالمية الأولى خلعت انجلترا بقوة الاحتلال الخديو عن عرش مصر. ورأى أولو الأمر يومئذ أن يغادر شوقي البلاد، فاختار برشلونـه من أعمال أسبانيا مقراً له ولأسرته ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن عاد السلام إلى العـالم. ولكن صلته الوثيقة بالنظام القديم، ومدائحه المروية في الخديو المنفـي ما زلت توهي بينه وبين القصر أسباب الثقة والتقريب. فـانصرف الشـاعر بـإلهامـه وأنغامـه إلى الشعب، يذود عن

(٩٩) انظر ترجمته في: مرآة العصر: ٣/١١٣، وصفوة العصر: ص ٦٣٦، والمنهج الجـديد: ص ٣٧، ومشاهير الكرد: ١/ ٨٤، ومعجم المطبوعات: ١١٥٨، والمنتخب من أدب العرب: ١/ ١٠٨، ومناهل الأدب العربي: ٦/ ٣٧، وأعلام الشرق والغرب: ص ٩٥ ـ ١٠٧، وانظر الأعلام للزركلي: ١/ ١٣٧.

حـوضه،ويهتف بمجـده، ويعرب عن شعـوره، وينقل عن طبعـه، ويتغنى بجهـاده، حتى حمدت له مصر والعرب هذه اليد، فأقاموا له في دار الأوبرا الملكية مهرجانا عاماً لتكريمـه اشترك فيه رجالات مصر وأقطاب الدول العربية برعاية صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول. ولم يزل شوقي مهبط الوحي والإلهام، وموضوع الإكبار والإكرام، حتى انتقل إلى جوار الله في سنة ١٩٣٢، فأقامت له وزارة المعارف وطائفـة من أعيان الفضـل والأدب، حفلة تأبين بدار الأوبرا الملكية دعت إليها أقطاب العلم والأدب في الأقطار العربية ورعاها الملك بنائب عنه.

شوقي الشاعر:

يكاد النقاد يجمعون على أن شوقي كان تعويضاً عادلاً عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب بعد المتنبي لم يظهر فيها شاعـر موهـوب يصل مـا انقطع من وحي الشعـر، ويجدد ما اندرس من نهج الأدب.

كان شوقي ينقـل شعره عن طبـع دقيق، وحس صادق، وذوق سليم، وروح قـوي، فيـأتي به مـطرد السلك محكم السبك لا يشـوبـه ضعف ولا لغـو ولا تجـوز ولا قلق. وهـو كالمتنبي في أنه تصرف بين الناس فلابس أولياءهم، وخـالط دهماءهم، حتى عـرف كيف يصف طبـائعهم، ويصور منـازعهم. وهو مثله في إرسـال البيت النادر، والمثـل السـائـر، والحكمة العالية، مستخْلصاً ذلك مما يسوق من المعاني المدح أو الوصف أو الرثاء، دون أن يتوخاه أو يقصد إليه ـ وهو كذلك مثله في أن بيته يفيض بالمعنى البعيد المبتكر فيضانـاً يغرق فيه الذهن أحيانـاً، فلا يصـل إلى قاع، ولا يـرسى إلى سـاحـل. أما معـانيه فكثيـرها مخلوق وقليلهـا مطروق. وأمـا ألفاظـه فأنمـاط من القول تختلف مـادة وصنعًـا بـاختـلاف المواقف، وأكثرها عليه رونق طبعه، وسمة ظرفه، وعذوبة روحه. وقد يعفى طبعـه أحيانـاً فيرسل شعره كما يجيء فيأتي بمالا يتفق مع فضله.

وشوقي محافظ في دينه ولغته وفنـه، يكثر الـترديد لأسمـاء الأنبياء والخلفـاء والكتب المنزلة، والأمـاكن المقدسـة، ويؤثر النسج عَلَى منوال الفحـول من شعراء بني العبـاس، والنظم في البحور الطويلة. وقلما ينظم في الأوزان المستحدثة أو ينوع القافية في القصيدة. على أن هذه المحافظة لم تمنعه من تكميل نقص الشعر العربي، فقد ظل شعرنا إلى عهده غنائيًا(lyrique) يستمده الشاعر من طبعه، وينقله عن قلبه، حتى جاء هو فنظم ما يشبه الشعر القصصي(Eptique) في طول النفس ووطنية الموضوع وعمومية الحـادث، كأرجـوزته (دول العرب) وقصيدته في (وادي النيل).

ثم عالج الشعر التمثيلي، فنظم رواياته المعروفة: مصرع كليوبترا، ومجنون ليلى،

وقمبيز، وعلي الكبير، وعنترة، والست هدى، فكان بهذا التجديد الشاعر العربي الكامل. وقد جمع شعره في ديوان يقع في أربعة أجزاء. وله غيره في الشعر كتاب (عظماء الإسلام) وجملة من القصائد للأطفال والأغاني.

ولشوقي نثر مسجوع لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن، جمع طائفة كبيرة منه في كتاب سماه (أسواق الذهب). وله من النثر المرسل قصص منها. لا ياس، وورقة الآس، ومذكرات بتثاءور، وأميرة الأندلس:

نموذج من شعره:

قال من قصيدة يصف فيها دمشق:

آمنت بالله واستثنيت جنته ... دمشق روح وجنات وريحان

قال الرفاق وقد هبت خمائلها ... الأرض دار لها (الفيحاء) بستان

جرى وصفق يلقانا بها (بَرَدَى) ... كما تلقاك دون الخلد رضوان

دخلتها وحواشيها زمردة ... والشمس فوق لجين الماء عقيان

والحور في (دمر) أو حول (هامتها) ... حور كواشف عن ساق وولدان

و (ربوة) الواد في جلباب راقصة ... الساق كاسية والنحر عريان

والطير تصدح من خلف العيون بها ... وللعيون كما للطير ألحان

وأقبلت بالنبات الأرض مختلفاً ... أفوافه فهو أصباغ وألوان

وقد صغى (بردى) للريح فابتردت ... لدى ستور حواشيهن أفنان

ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا ... جفت من الماء أذيال وأردان

وقال يصف رحلته إلى الأندلس من قصيدة طويلة:

اختلاف النهار والليل ينسي ... اذكرا لي الصبا وأيام أُنْسِي

وصفا لي ملاوة من شباب ... صورت من تصورات ومس

عصفت كالصبا اللعوب ومرت ... سِنَة حلوة ولذة خلس

وسلا مصر: هل سلا القلب عنها ... أو أسا جرحه الزمان المؤسي

كلما مرت الليالي عليه ... رق والعهد في الليالي تقسي

مستطار إذا البواخر رنَّت ... أول الليل أو عوت بعد جرس

أحرام على بلابله الدو ... ح حلال للطير من كل جنس

ومنها:

كل دار أحق بالأهل إلا ... في خبيث من المذاهب رجس

ومنها:

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

شهد الله لم يغب عن جفوني ... شخصه ساعةً ولم يخلُ حسي

١٠٠ ـ محمد حافظ إبراهيم

١٨٧٠ ـ ١٩٣٢ م

١٢٨٦ ـ ١٣٥٠ هـ

نشأته وحياته:

ولد محمد حافظ إبراهيم في ديروط من أعمال مديرية أسيوط حوالي سنة ١٨٧٠ إذ كان أبوه إبراهيم فهمي من المهندسين المشرفين على بناء قناطرها. ولما كان عمره سنتين توفي أبوه فقيراً في ديروط فانتقلت به أمه إلى القاهرة فكفله خاله وأدخله (المدرسة الخيرية) فمدرسة المبتديان فالمدرسة الخديوية. ثم انتقل خاله إلى طنطا فنقله معه؛ فقضى فيها بضع سنين متبطلاً يزجي فراغه بالقراءة، ويدفع ملاله بالقريض.

ولم يستطع خاله لسببٍ ما أن يجلو عنه غمة اليأس وذلة اليتم، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش، متأففاً بالناس، مُتَجنِّياً علي القدر، لا ينشىء الشعر إلا في ذاك. ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين فتبلغ بالعمل فيها حيناً، حتى أسعفته الفرص فدخل المدرسة الحربية، وخرج منها ضابطاً بالجيش. ثم نقل إلى الشرطة، ثم أعيد إلى الجيش، وأشخص إلى السودان في الحملة المصرية بقيادة كتشنر فبقي هناك زمناً كان لا ينفك فيه متبرماً متمرداً، يلح في العودة إلى مصر. فلما أخفق مسعاه ثار مع فئة من الضباط سنة ١٨٩٩، فحوكم وأحيل إلى الاستيداع، ومنه إلى المعاش.

عاد حافظ كما كان يضطرب في الحياة المبهمة، لا يستريض لعمل، ولا يستقر على أمر، ولا يتشوف إلى غاية، وإنما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس، ويفيء إلى ظل الإمام محمد عبده فينتفع بجاهه ويعيش على رفده، ويغشى مع ذلك أبهاء النعمة، يسامر أهلها بعذب حديثه، وينادمهم برقيق شعره. وفي سنة ١٩١١ عينه أحمد حشمت باشا وزير المعارف يومئذ للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية، ثم وكيلاً

---

(١٠٠) انظر ترجمته في: مشاهير شعراء العصر: القسم الأول، شعراء مصر: ١٨١ ـ ٢٠٦، وصفوة العصر: ص ٦٤٣، والمنتخب من أدب العرب: ١/١٠٠، وآداب العصر: ص ٢٣٢، وشعراؤنا الضباط: ص ٥٣ ـ ٩٥، وأعلام من الشرق والغرب: ص ١٠٨ ـ ١١٢، ومعجم المطبوعات: ٧٣٦، وانظر الأعلام للزركلي: ٦/٧٦.

للدار، وظل في هذا المنصب حتى خرج إلى التقاعد في صدر سنة ١٩٣٢ وتوفي صيف السنة نفسها.

حافظ الأديب:

عاش حافظ بحكم طفولته الشاردة المهملة عيش الكسل والتبطل، لا يميل إلى علم، ولا ينشط إلى عمل كدأب الناس قديماً من أضراب مسلم بن الوليد، وأبي نواس، ممن عاشوا صنائع للملوك، وحمائل عَلَى الجوائز، ووسائل اللهو، كان مبدأه الأدبي مبدأ اليوم، كما كانت حياته المادية حياة الساعة. رأى الآمال تتهافت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية في مصر وعرش الخلافة في الآستانة، فجرى لسانه بالشعر المطبوع، في مدح عباس وتمجيد عبد الحميد. ثم اتصل بالإمام محمد عبده وشيعته من سراة البلاد وشيوخ الأمة، ولهم يومئذ في الإنجليز رجاء موصول وظن حسن، فصدرت عنه في هذه الفترة قصائد في رثاء الملكة فكتوريا، وتتويج الملك إدوارد السابع، ووداع اللورد كرومر، عبر بها عن الرأي الأرستقراطي في ذلك الحين. ثم خلص للشعب. فلابس دهماءه، وخالط زعماءه، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء مصطفى كامل فمزج شكواه بشكوى البلاد، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد، ونظم أماني الشباب من حبات قلبه، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره.

عكف منذ شب على دواوين الشعر، وأجزاء (الأغاني) ينتحلها ويتمثلها ويعاود النظر فيها. حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده. ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى ينتف من المسائل الأولية ينقلها عن السماع ويأخذها من الصحف إذا ظن أنها تدخل بوجه من الوجوه فيما يمنيه من ابتكار الأسمار وصوغ القريض.

حافظ الشاعر:

صياغة حافظ هي موهبته الأولى ومزيته الظاهرة. وهو في ذلك ثاني الخمسة الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر، وتجددت عَلَى صنعتهم بلاغة القصيد. ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق في تعبيره عن هموم قلبه، وتفسيره لأماني شعبه، وتصويره لمساوىء عصره. أما الروح والموضوع فأصداء منبعثة من الماضي في فردياته. وآراء مقتبسة من الحاضر في اجتماعياته. كان إذا تهيأ للشعر عمد إلى الآراء التي تختلج حينئذ في النفوس، وتستفيض في المجامع، وتتردد في الصحف، فيجمعها في باله، ويديرها في خاطره، ثم يكون همه بعد ذلك أن يصوغها فيحسن الصوغ، ويسبكها فيجيد السبك، وتقرأ بعد ذلك أو تسمع فإذا نسق مطرد وأسلوب سائغ، وشيء كأنك سمعته من قبل ولكن عليه طابع حافظ ووسمه.

نموذج من شعره:

قالَ على لسان اللغة العربية تنعي حظها بين أهلها.

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... وناديت قومي فآحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي ... رجالاً وأكفاء وأدت بناتي
وسعت كتاب اللّه لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ... ومنكم وإن عز الدواء أساتي
فلا تكلوني للزمان فإنني ... أخاف عليكم أن تحين وفاتي
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة ... وكم عزّ أقوام بعزّ لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات

ومن خمرياته:

أوشك الديك أن يصيح ونفسي ... بين هم وبين ظن وحدس
يا غلام! المدام والكاس والطا ... س وهيىء لنا مكاناً كأمس
أطلق الشمس من غياهب هذا الـ ... دن وآملأ من ذلك النور كأسي
وأذن الصبح أن يلوح لعيني ... من سناها، فذاك وقت التحسي
وادع ندمان خلوتي وائتناسي ... وتعجل وأسبل ستور الدمقس
وآسقنا يا غلام حتى ترانا ... لا نطيق الكلام إلا بهمس
خمرة قيل إنهم عصروها ... من خدود الملاح في يوم عرس

وقال من قصيدة (غادة اليابان):

لا تلم كفي إذا السيف نبا ... صح مني العزم والدهر أبى
رب ساعٍ مبصر في سعيه ... أخطأ التوفيق فيما طلبا
مرحباً بالخطب يبلوني إذا ... كانت العلياء فيه السببا
عقني الدهر ولولا أنني ... أوثر الحسنى عققت الأدبا
إيه يا دنيا اعبسي أو فآبسمي ... لا أرمي برقك إلا خلبا
أنا لولا أن لي من أمتي ... خاذلاً ما بتّ أشكو النوبا
أمة قد فت في ساعدها ... بغضها الأهل وحب الغربا
تعشق الألقاب في غير العلا ... وتفدي بالنفوس الرّتبا
وهي والأحداث تستهدفها ... تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالي لعب القوم بها ... أم بها صرف الليالي لعبا

١٠١ ـ جميل صدقي الزهاوي
١٨٦٣ ـ ١٩٣٦ م
١٢٧٩ ـ ١٣٥٤ هـ

نشأته وحياته :

ولد جميل صدقي الزهاوي في يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر يونيو سنة ١٨٦٣ م ببغداد لأبويين كرديين كريمين، ثم نشأ في أسرة تميزت بالدين والفقه والأدب. فقد كان أبوه محمد فيضي الزهاوي مفتياً لدار السلام وأخوه فقيهاً من فقهائها. وكان أخوه ـ كما حدثني جميل ـ لا يتذوق الأدب، فكان يذوده عن رواية الشعر، ويصده عن دراسة اللغة، ويأبى عناده هو، وتسامح أبيه، إلا أن يديم النظر في الأدب ويروض القريحة على القريض. كان هم أخيه وأمل أبيه أن يستقيم على عمود أسرته فيكون صاحب قضاء وفقه، ولكنه استقام على محتوم طريقته فكان صاحب شعر وفلسفة. وكان العراق أيام الزهاوي تركي السلطان سُني الحكومة، فالتعليم المدني فيه كان تابعاً في لغته وطريقته وغايته لسياسة الأجنبي وهواه؛ فلم يخرج إلا رجال جيش أو رجال إدارة. أما التعليم الديني فظل في صحون الجوامع، عربي اللسان، حر النزعة، طليق الفكرة، فتثقف الزهاوي بهذه الثقافة. تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد البوادي الملهمة. ثم نزعه عرق العم والخال من الكردية فجاهد وجالد وغامر. ثم ٱبْتُلِيَ وهو في الخامسة والعشرين من عمره بداء في النخاع الشوكي لازمه بقية حياته. ورُمِيَ بعد ذلك بالشلل في رجله فبرم وآكتأب وتشاءم! ثم مني في عصره بفساد السلطان وآستطالة الجهل، وآنحلال الخلق، فدفعته هذه العوامل كلها إلى مواقف المصلحين من الإنذار والنصيحة.

لم يخلد الزهاوي إلى التبطل كأكثر أهل الشعر، وإنما غامر في خطير الأمور، فعين في بغداد عضواً في مجلس المعارف، ثم مديراً لمطبعة الحكومة، ثم محرراً بالجريدة الرسمية، ثم انتخب عضواً في محكمة الاستئناف. ودعاه الخليفة حين نبه ذكره إلى الآستانة فحرك فيها لسان النقد وأفض بها مضاجع التجسس، فآنتفض أمره وساء مقامه. ولما أعلن الدستور العثماني عين رئيساً لقسم الفلسفة الإسلامية في (المكتب المكي) ثم مدرساً للآداب العربية في (دار الفنون) ثم عاد إلى بغداد فعين أستاذاً للشريعة في مدرسة الحقوق. ثم انتخب نائباً عن العراق في (مجلس المبعوثان) وهو في خلال ذلك كله لا يفتر ليلة عن

---

(١٠١) انظر ترجمته في: الأدب العصري: ١/٥، ومشاهير الكرد: ١/١٦٣، وملوك العرب للريحاني: ٢/٣٨١ ـ ٣٨٧، وانظر الأعلام للزركلي: ٢/١٣٨.

الشعر والقراءة، ولا يكل نهاره عن الحديث والكتابة. حتى غُلب الترك في الحرب العالمية الأولى وقام عرش فيصل في العراق فكان الشأن لأصحاب الجيش وأقطاب السياسة أما الزهاوي وأمثاله من رجال الفكر والشعر فآتخذوا طريقهم على الهامش. اللهم إلا زمناً يسيراً عيَّنه فيه الملك فيصل الأول عضواً بمجلس الأعيان العراقي، ثم تخلى عنه لجرأة شعره وصراحة رأيه، فكان لا ينفك شاكياً ذلك الحرمان متحاملاً على نفسه مع انسراق القوى واستحكام العلل، حتى توفاه اللّه ببغداد في أواخر فبراير من عام ١٩٣٦.

الزهاوي العالم:

كان الزهاوي في صدر شبابه ينظر في العلوم الطبيعية والفلسفية، ووسيلته إلى ذلك ما تُرجم من المقالات في الكتب والمجلات، لأنه لم يعرف من اللغات إلا العربية والفارسية والتركية والكردية، وكلها لا تصل فكر الإنسان بالثقافة الحديثة. ومع ذلك استبطن دخائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى ألف كتاب (الكائنات) في الفلسفة، وكتاب (الجاذبية وتعليلها) في الطبيعة ذهب فيهما مذهباً خاصاً خالف به أقطاب العلم وجهابذة النظر كقوله: إن علة الجاذبية ليست جذب المادة للمادة، وإنما هي دفعها إياها بسبب ما تشعه من الالكترونات وسواء أنهض دليله أم دحض فإنه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل.

الزهاوي الشاعر:

الزهاوي شاعر من شعراء الفكرة، له البصيرة الناقدة، والفطنة النافذة، وليس له الأذن التي تموسق، ولا القريحة التي تصنع. فاللفظ قد لا يختار، والوزن قد لا يتسق، والأسلوب قد لا ينسجم، ولكن الفكرة الحية الجريئة تعج بين الأبيات المتخاذلة عجيج الأمواج المزيدة بين الشواطىء المنهارة. وكان الزهاوي كشوقي حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور. ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد، وحس مرهف يأنف التخلف. ويزيد الزهاوي أن الفخر يزهاه والتيه يذهب به فيحب الثناء ويبغض النقد، فهو لفرقه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد، ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأي إلى التطرف، ولطمعه في نباهة الذكر يجاري ميول الخاصة ويعارض هوى العامة. ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم، وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة بعنوان الجهل والعلم:

يريد أناس فرقة الشعب جهدهم ... فلا عطست باليمن تلك المعاطس

ونحن الألى ما فرق الدين بيننا ... وإن كثرت بعض الأوان الدسائس

فعشنا وعاشت من عصور كثيرة ... جوامعنا في جنبهن الكنائس
ولا يعدم الإنسان طول حياته ... صديقاً يواسي أو عدواً يعاكس
ولكننا عشنا جميعين أعصراً ... كلانا أخو صدق كِلانا مؤانس
وإنا سنحيا والعمائم عندنا ... لها حرمة محمودة والقلانس
سنحيا نعم في وحدة عربية ... لها العلم نظام لها العدل سائس
وتغرس في قلب الشبيبة جرأة ... على الصدق حباً أن تطيب الغرائس
ساعدنا فيما نحاول دولة ... معظمة ترعى علاها أشاوس
قول لشعري أيها الشعر صل وجل ... فأنت بميدان الفصاحة فارس
أغاظك أن الجهل في الناس جاهر ... يقول وأن العلم في الأذن هامس
يمارس شعري اليوم إصلاح أمة ... فللّه شعري اليوم ماذا يمارس
ستحميك يا شعري فأنذر حكومة ... تجل ربوع العلم وهي المدارس
حكومة عدل مهد الأرض حكمها ... فلا البر موتور ولا البحر خانس
وليس لها في المغربين معارض ... وليس لها في المشرقين مشاكس

ومن خطراته:

إن الصراحة تغني ... ما ليس تغني الرموز
أخو الحجا قبل أن يجـ ... ـمل الاد،ة يروز
وعند من هو غر ... يجوز ما لا يجوز
كم جامع لكنوز ... يفنى وتبقى الكنوز
وقد تموت فتاة ... ولا تموت عجوز
لا تجبنن فليس الـ ... ـجبان شيئاً يجوز
إنا نعيش بعصر ... فيه الجسور يفوز

***

لقد مشيت بليل ... داج بغير دليلِ
فما بعدت كثيراً ... حتى ضللت سبيلي
من لي بماء براد ... به أبل غليلي
طلبت شيئاً قليلاً ... فلم أفز بالقليل
وكم صحبت خليلاً ... فكان غير خليل
كل الأحبة أعدا ... ئي عند خطب جليل
لا خير لي من بلادي ... وأسرتي وقبيلي

خاتمة

في الاستشراق والمستشرقين

يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره؛ ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم؛ إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغموراً بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدينة والعلم؛ كان الغرب من بحره إلى محيطه يعمّه في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموح. وكان حظه من الثقافة يومئذ ما تضمنه حصون الأمراء المتوحشين من الكتب، وما يعلمه بعض الرهبان المساكين من قشور العلم. وانقضى القرنان التاسع والعاشر للميلاد وأولئك الأمراء في قصورهم يتبجحون بالأمية ويرتعون في الدماء، وهؤلاء الرهبان في دورهم يمحون الكتابة من روائع الكتب لينسخوا على صفحاتها الممحوّة كتب الدين. حتى أزال اللّه الغشاوة عن بعض العيون، فرأوا من وراء هذا الظلام الداخي بقعة من المغرب تسطح فيها شمس المشرق. فلما تبينوا أن البقعة هي جزء من إسبانيا، وأن النور قبس من نور بغداد، استيقظ في نفوسهم طموح الكمال الإنساني، فطلبوا العلم فلم يجدوه إلا عند العرب.

ففي سنة ١١٣٠ م أنشئت في طليطلة مدرسة للترجمة تولّاها الأسقف ريموند، أخذت تنقل جلائل الأسفار العربية إلى اللاتينية، وعانهم على ذلك اليهود. فبعثت هذه الترجمة في أوروبا الخامدة شعوراً لطيفاً، وروحاً طيبة. وتضافرت عَلَى هذا المجهود النبيل قواعد أخرى للترجمة طوال القرون الثاني والثالث عشر والرابع عشر حتى بلغ ما ترجموه من العربية يومئذ ثلاثمائة كتاب كما أحصاها الدكتور (لكلارك) في كتابه تاريخ الطب العربي، وأحصاها غيره أربعمائة. وكان أكثر ما ترجم في هذه العهود كتب الرازي وأبي القاسم الزهراوي وابن رشد وابن سينا، وما نقل إلى العربية من اليونانية لجالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس

الخ . وظلت هذه الكتب المنقولة منهاجاً للتعليم في جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة، واحتفظ بعضها بقوته وقيمته حتى القرن التاسع عشر.

قال المؤرخ الإنجليزي ملر في كتابه فلسفة التاريخ: «إن مدارس العرب في إسبانيا كانت هي مصادر العلوم، وكان الطلاب الأوروبيون يُهرعون إليها من كل قطر يتلقون فيها العلوم الطبيعية والرياضية وما وراء الطبيعة. وكذلك أصبح جنوبي إيطاليا منذ احتله العرب، واسطة لنقل الثقافة إلى أوروبا. وممن ورد تلك المناهل الراهب (جربرت الفرنسي)، فإنه بعد أن ثقف علوم اللاهوت في (أورياق) مسقط رأسه جاب عقاب البرانس والوادي الكبير حتى ورد أشبيلية، فدرس فيها وفي قرطبة الرياضيات والفلك ثلاث سنين. ثم ارتد إلى قومه ينشر فيهم نور الشرق وثقافة العرب فرموه بالسحر والكفر، ولكنه ارتقى إلى سدة البابوية سنة ٩٩٩ م بآسم سلفستر الثاني. كذلك تخرج على علماء قرطبة (شانجه) ملك ليون وأستوريا، وأولع بعض علماء إيطاليا بالعربية، وعدوها لغة الأدب العالي، وأوصى قومه الراهب روجر بيكون الإنجليزي بتعلم اللغة العربية وقال: «إن الله يؤتي الحكمة من يشاء ولم يشأ أن يؤتيها اللاتين، وإنما آتاها اليهود والإغريق والعرب».

على أن الاستشراق لم يبق محصوراً في دائرة الانتفاع بعلوم العرب ومَدَنيَّة الشرق. وإنما خرج عنها إلى أغراض تجارية أو استعمارية أو دينية، فأقبلت الأمم الأوروبية القوية بحكم هذه الدوافع تتنافس في التعرّف على الشرق وارتياد أقطاره، وكشف آثاره، وفتح كنوزه، وإحياء أدبه، وطبع كتبه، وإبراز فنه، ثم صار الاستشراق فناً قائماً بنفسه، يطلب به الوقوف على لغات الشرق ميتها وحيها، والاطلاع المباشر على آدابها وفنونها. وفي سبيل ذلك أسسوا المطابع وأنشأوا المكتبات وألفوا الجمعيات وأقاموا المؤتمرات وأصدروا المجلات، وجمعوا المخطوطات، ونشروا نفائس الكتب، وعلقوا عليها الحواشي وذيلوها بالفهارس المختلفة للأسماء والموضوعات والأمكنة، ثم كتبوا البحوث القيمة في تحقيق الألفاظ، وتحرير الأصول وتصحيح الأخطاء، وكشف المجهول على الأسلوب العلمي الصحيح، والمنهاج المنطقي الحديث، فكانوا في ذلك قدوة لمعلمي اللغة ومؤرخي الأدب من العرب، في تحضير المادة، وتنظيم البحث، وتوخي الدقة، وتحرِّي الصواب، وتَقَصِّي الفروع.

أشهر المستشرقين

اشتهر من المستشرقين الفرنسيين فيتيه Veter المتوفى ١٦٦٧، وهو طبيب الدوق دورليان، نقل إلى الفرنسية تاريخ ابن المكين، وتيمورلنك لابن عربشاه، وعلم المنطق، والأمراض العقلية لابن سينا، واللامية للطغرائي. وهربلو Herblot المتوفى سنة ١٦٩٦،

كان أميناً لسر لويس الرابع عشر وأستاذاً للعربية في معهد فرنسا، ألف (المكتبة الشرقية) وهو معجم جامع لما في الشرق من فلسفة وأدب واجتماع. وسديو Sédillot. المتوفى ١٨٣٢ كان متخصصاً في علم الفلك عند العرب وقد نشر نبذة في الهندسة لابن الهيثم ١٨٣٤ و(علم الرياضيات وجامع المساوىء والغايات) في الآداب الفلكية لأبي الحسن علي وكوسين دي برسفال deparcéval المتوفى ١٨٣٥ نقل تاريخ صقلية تحت حكم المسلمين، ونشر المعلقات السبع وأمثال لقمان. وطبع الجداول الفلكية من الربح الحاكمي، ومقامات الحريري، وترجم الجزء الناقص من ترجمة جلان لألف ليلة وليلة. وسلفستر دساسي المتوفى سنة ١٨٣٨، برع في اللغتين العربية والفارسية وتخرج عليه فيهما طائفة من أعلام الاستشراق في الغرب. ألف في العربية كتاباً سماه (الأنيس المفيد للطالب المستفيد) اختار فيه صفوة من المنظوم والمنثور، وكتب شرحاً وجيزاً على مقامات الحريري، ونشر كليلة ودمنة وألفية ابن ملك ورحلة عبد اللطيف البغدادي. ثم ألف ثلاث مذكرات قدمها إلى المجامع عن مصر الإسلامية إلى الاحتلال الفرنسي. ومارسل: المتوفى سنة ١٨٥٤ كان مترجم الحملة الفرنسية في مصر، ألف كتاباً في وصف مصر واختار طائفة من الشعر العربي، وله مقالات قيمة عن ابن ميمون، وابن سيناء، والضامري، والقزويني. نشرها في المجلة الآسيوية، وكترمبر المتوفى سنة ١٨٥٧ أخذ العربية عن دساسي، وانتخب عضواً في المجمع اللغوي الفرنسي ثم محرراً في المجلة الآسيوية. نقل إلى الفرنسية بعض كتاب السلوك للمقريزي، ونشر مقدمة ابن خلدون في ستة أقسام فرنسية عربية ومنتخبات من أمثال الميداني، وكتاب الروضتين لابن شامة. وله أبحاث في المجلة الآسيوية عن النبطيين والعباسيين والفاطميين. وكتاب الأغاني، وذوق الشرقيين في الكتب، وحياة المسعودي وآثاره.

ومن أشهر المستشرقين الألمانيين فريتاغ المتوفى سنة ١٨٦١ تلقى العربية عن دساسي، وعين أستاذاً لها في كلية بونه. نقل ديوان الحماسة لأبي تمام بشرح التبريزي. وزبدة الطلب في تاريخ حلب لابن النديم، وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه. وقد وضع معجماً عربياً لاتينياً في أربعة أجزاء. وجوستاف فلوجل المتوفى سنة ١٨٧٠ نشر كشف الظنون، والفهرست لابن النديم، ومؤنس الوحيد للثعالبي، وطبقات الحنفية لقطلوبغا، والقرآن. وفلبشرو المتوفى سنة ١٨٨٨، ألف في الآداب الشرقية كتباً كثيرة، ونشر تفسير البيضاوي والمفَصَّل للزمخشري. وفردنان وستفيلد المتوفى سنة ١٨٩٠، نشر طبقات الحفاظ للذهبي، وسيرة ابن هشام، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ومعجم البلدان لياقوت. ونلدكي المتوفى سنة ١٩٣١ ألف في الألمانية تاريخ القرآن، وتاريخ عروة بن الورد، وبحثاً في الشعر الجاهلي، وبحثاً في المعلقات السبع وغير ذلك.

وممن اشتهر من الإنجليز أدوردلين المتوفى سنة ١٨٧٤ عاش بمصدر صدر شبابه ثم وضع كتاباً في وصف مصر، وكتاباً آخر في عادات المصريين وشمائلهم ترجم أكثره في مجلة الرسالة وطبع مجموعاً في مطبعتها سنة ١٩٤٩، ومعجماً عربياً إنجليزياً، ثم ترجم ألف ليلة ولية إلى الإنجليزية. ووليم موبر المتوفى سنة ١٩٠٥ ومن مؤلفاته حياة النبي، والتاريخ الإسلامي، وتاريخ الخلافة؛ وهي من المراجع المعتمدة في الجامعات الإنجليزية والهندية.

وممن اشتهر من الإيطاليين دافيد سنتالانا المتوفى سنة ١٩٣١ ولد في تونس ودرس في روما، وكان له بالمذهب المالكي والشافعي علم واسع. عين في سنة ١٩١٠ أستاذاً للفلسفة بالجامعة المصرية، فألقى بها محاضرات قيمة. وتلينو المتوفى سنة ١٩٣٨، وقد دعي في سنة ١٩٠٩ لإلقاء محاضرات في تاريخ أدب اللغة العربية فأفاد بخبرته وطريقته كثيراً من الناس. وقد عني بالمسائل الجغرافية والفلكية عند العرب. واغناطيوس جويدي المتوفى سنة ١٩٢٥ وقد انتدبته الجامعة المصرية كذلك سنة ١٩٠٨ للتدريس فيها فألقى دروسه باللغة الفصحى.

وإذا أردت استقصاء هذا الموضوع فاقرأ كتاب (المستشرقين) للأستاذ نجيب العقيقي فقد ألم بتاريخ الاستشراق إلماماً ينفع الغلة ويغني عن المزيد.



ذيـــل

في تفسـير ما ورد في الكتـاب من الألفاظ الغريبة والتركيب الغامضة

٧ كنف الله: حرزه ورحمته. عرك الخطوب: شدتها وأذاها. النحلة: المذهب والديانة. اللسن الفصاحة.

١٠ النفـر بالسكـون: لجمـاعـة يتقـدمـون في الأمر.

١١ القـطر: المـطر. يسيمـونهـا. يـرعـونهـا. أخلفت السمــاء: أطمعت في الغيث ولم تمـطر. القـرابـة الـواشجـة: المشتبكـة. الظعينة: الزوجة. البنـاء بالمـرأة: التزوج منها.

١٢ أنصر أخاك ظـالمـاً أو مـظلومـاً: والمقصـود بأنها كلمـة جاهليـة أنها كـانت في العصر الجاهلي قبل الإسلام. ولكن وجه رسـول الله ﷺ هـذا الكلام إلى وجهـه الصحيـح فقال عندما سئل كيف ننصره إذا كان ظالماً قـال: «أن تمنعه من الـظلم». الاستقراء: تتبع الحوادث بـالمـلاحـظة لتكـون منهـا حكماً. الأنواء: جمع نوء وهو سقوط نجم في الغرب وطلوع نجم بحياله من ساعتـه في الشـرق كل ثـلاثة عشـر يومـاً، وكانـوا يضيفون أفاعيل الطبيعة من المطر والرياح إلى الساقط منها فيقولون مطرنا بنوء كذا.

١٦ العـرم: السـدود تبنى في الـوادي لحبس المياه خلفها وهي الخزانات. وسيل العرم سيل عظيم هـدم عرمـاً كان أهـل سبأ في اليمن قد بنوه فأغرقهم ومزقهم في البلاد.

١٧ المنافرة: المحاكمة في الحسب والنسب.

١٨ شن: اسم رجل، وطبقة: اسم امرأة اتفقا في الذكاء والـدهاء فضـرب بهما المثـل. لأمر ما جدع قصير أنفه: يضرب لمن يظهر شيئاً ويضمر خـلافه: يـداك أوكتـا وفـوك نفـخ. أوكى السقـاء: ربـطه. وأصله أن رجـلاً نفخ سقـاء وربطه ليعبـر عليه النهـر سابحاً، فلما توسطه انحل السقاء وأوشك الرجل على الغرق، فاستغاث برجل على الشاطىء فقال له هذا المثل، يضرب لمن يجني على نفسه بإهماله. الجدد: الأرض الغليـظة المستـويـة. العي: العجـز عن الكلام.

١٩ اللحمة: ما نسج عرضاً، والسدي: مـا مد من خيـوط الثوب طـولاً. القدح المعلى: أكبـر الأنصبة في الميسـر. الـذمـار: ما يلزمك حمايته والدفاع عنه. ذات البين: العـداوة والبـغضــاء عـلى رأي والنـسب والصداقة على رأي آخر. الأقيال: جمـع قيـل وهو الملك الصغيـر. يشـد أزرهـا: يقويها ويؤيدها والأزر الظهر. المخـاصر: العصبي. والصفـاح: السيوف. والنشـز:

المرتفع من الأرض. حسن الشارة. جميل الهيئة.

٢٠ صدف عن الدنيا: زهد فيها. داج: مظلم. وساج: ساكن والأبراج اثنا عشر برجاً تقابلها الشمس في طريقها طوال السنة، المدحاة المدحوة على خلاف القياس وهي المبسوطة. البصائر: جمع بصيرة وهي العلم والخبرة. ورد الماء: أتاه ليشرب، وصدر عنه: رجع، ومعناه هنا الموت وعدم الرجوع منه، الغابر: المقيم. العيلة: الفقر. أجدكما منصوب على نوع الباء، ومعناه أيجد منكما هذا؟ أو منصوب على المصدر ومعناه مالكما؟ أجد منكما هكذا؟ الكرى: النوم.

٢١ الصدى: صوت والعقار. الخمر. العولة: البكاء. الأشلاء: الأعضاء بعد البلى والتفرق. والصهاء: الخمر. وآستهتر في اللهو: أمعن فيه وآسترسل. النجمة: طلب الكلأ في موضعه. الارتياد: البحث عن المكان المناسب للانتجاع. وعفو الرأي: عاجله. وآكتظم بإدرتنا أغفر زلتنا، والبادرة ما يبدو منك عند الغضب. الوقص: الكسر. والصفاة: الحجر، والقضم. كسر الشيء بأطراف الأسنان. والهضم: الظلم.

٢٢ المقلص: الفرس المشرف الطويل القوائم. والعاتق الكاهل. والنجاد: حمالة السيف. السابغة: الدرع. وعداء علندى: فرس طويل شديد. والنهد: الفرس الجميل الجسيم المشرف. والشطب: جمع شطبة: وهي طريقة السيف في متنه. الجلة: جمع جليل وهي العظام من الإبل. والنيب: جمع ناب وهي الناقة المسنة. تجشأ: تكلف الجشاء وهو إخراج صوت مع ريح من فمه عند الشبع «تكرع».

٢٣ الحشف: أردأ التمر. راش السهم: ألزق عليه الريش. الريث: البطء. الحوبة: الذنب. سدنة بيته: خزانه والقائمون عليه. الحرص: الدهر.

٢٤ الخور: الضعف. التواكل: أن يتكل كل على الآخر. أحداث الدهر: نوائبه. الغرض: الهدف. تعاوره. تتداوله.

٢٦ يزدهيهم: يستخفهم. عفو البديهة وفيض الخاطر: ارتجالاً من غير روية. المنآد: المعوج. أصادي، أداجي وأخاتل.

٢٧ وعوثة الصحراء: صعوبتها وتوعرها. السمة: العلامة. الحلبة: ميدان السباق. القباطي هي الستور والأثواب والطنافس التي اشتهرت مصر بصنعها قبل الإسلام وبعده، مفردها قبطية وقد وردت بهذا اللفظ في قول زهير بن أبي سلمى:

ليأتينك مني منطق قذع
باق كما دنس القبطية الودك

٢٨ الغيث هنا: البقل والمرعى والوسمي: أول مطر الربيع. والرائد: من يبعثه أهله في طلب المرعى. الأسحم هنا: السحاب الأسود اللون. العجلزة: الفرس الشديد العضل. أترز الجري لحمها: أيبسه وأضمره. الأكرع، جمع كراع: أطراف القوائم. الحال: الثوب الناعم من ثياب اليمن. الصوار: القطيع من بقر الوحش. الجمزى: نوع من العدو. الأجلال، جمع جل: وهو ما يوضع فوق ظهر الفرس سائراً له. القرهب: الطويل الضخم من الثيران. القرا: الظهر. الروق: القرن. الأخنس: منخفض قصبة الأنف، الذيال: طويل الذيل. فعاديت منه: عادى بين الصيدين

تـابع العـدو في طلق واحـد. فتخـاء الجنـاحين: لينتهمـا في طـول. اللقـوة: السريعة التي تخطف كل شيء. طـأطـأ فرسه: وخز. وحركه للعدو. الشمـلال: السريعة الخفيفة.

٢٩ الأنيعم وأورال: موضعان. الخزان: جمع خـزن بـالضم والفتـح: ذكـر الأرانب. حجـرت: اختفت في أحجارهـا. أبيت اللعن: كلمـة يـدعى بهـا للملوك، أي حفـظت ممـا تلعن بـه. تستـك: تضيق. الأقارع: بنو قريع بن عوف وكانوا قد وشوا به إلى النعمان، تجادع ـ تشاتم: الجوامع جمع جامعة، وهي الغل في اليد. الأمة: الـدين والاستقامـة. لصاف وثبـرة: ماءان على طريق مكة؛ والألال: جبل. السمام: طـائر أكبـر من الخطاف سـريع الـطيران. خصوصاً عيونها: ضيقـات. رذايا: جمـع رذيـة، وهي المطروح المتـروك من الإبل الهالك في أثنـاء الطريق. الحني: جمـع حنيـة؛ وهي القـوس. العـر: داء جلدي يصيب الإبـل في مشـافرهـا وقـوائمهـا. الضـالـع: الحـائـر المـذنب. السيب: العـطاء. التصريـد: الشرب دون الـري. كنع المسك بـالشيء: تراكم ولـزق. رث الحبـل: بلي، والمـراد العهـد. متـع الضحى: بلغ آخـر غايتـه. العصبة بفتـح فسكـون: الشجـرة تعلق في شيء عـال فتكون كالخيمة عليه، وهو الشجر المتسلق كاللباب مثلاً. مذود. اسم جبل.

٣٠ الأنأب: شجرة. العم: العظيم. المحرم: الممنوع قطع سـوقه. كـابة: مـوضـع. لم تخبط: لم تعصب فروعه وتضرب بالعصي فتكسر. لم يتعضد. لم يقـطع. عارض: اسم أخ للشـاعـر. رهط بني الـسـوداء أصحـاب أخيـه عبـد الله. الأحـاليف: المتحـالفون على نصـرة بعضهم لبعض. قبلًا: عيانـاً ومقابلة. غـرية: حي من بني حشم. القعـدد: الجبـان يقعـد عن نصـر قـومه. الصيـاصي جمع صيصـاة: شوكـة يسوي بها الحائك نسجه. البو: ولد الناقة أو البقرة يحشي جلده تبناً فتجد رائحته فيه فتـدر اللبن له. البـرم. من لا يدخـل مـع القـوم في الميسر ضنـاً بالجـزور، وكانـوا يطعمون لحومها للفقراء. تناوحت الريح: هبت من كل ناحيـة، وذلك زمن الشتـاء. العضاه: الشجر الشائك. الضريع: نبـات خبيث لا تقـربـه الـدواب. المعضـد: المقـطع. كميش الأزارء قصيره، وذلـك كنـاية عن العفـة والنجدة. طـلاع أنجـد: كناية عن اقتحام الصعاب. السيد العمرد: الذئب الشرس في عسلانه، يريد به فرسه. الشظي: العظم اللازق بالساعد أو الساق. العبـل: الضخم. الشوى: الأطـراف. النسا: عصيب يجري في الفخذ والساق. والشنق: المقبض، المنقبض. المقلـد: العنق. المصدر: الأسد. الجبيل فثهمد: مـوضعان. طحـا به قلبـه: ذهب بـه كـل مذهب. شط وليها: بعد وصالها.

٣١ المغمـر من الـرجـال: المحمق الـذي يستجهله الناس. ما أنت أم ما ذكرهـا؟ ما استفهامية للتعجب، وأم للإضراب بمعنى بل أي ما شأنك، بـل ما الـداعي لذكـرها إيـاك وهي من ربيعـة وأنت من تـميـم. القليب. البئـر: الجسرة: الناقة القـوية: الرادف: كل شيء يكـون خلف الراكب. الخبيب: السير السريع. الوجيب: خفقان القلب. النهـدة: الفرس الحسن الجسم. البواء: السواء والكفـء. شعصها: ضربها ونخسها. العاديـة: القوم يعـدون وكذلـك الخيـل. سوم الجـراد: انتشاره في طلب

المرعى. وزعتها: كففتها ومنعتها. سبأ الخمر: اشتراها. الأيسار: الذين يضربون القداح في المقامرة. أقلبه: أبغضه.

٣٢ شالت نعامتنا: تفرقنا واختلفنا. الهامة: فيما يزعم العرب طائر كالبوم يخرج من قبر القتيل إذ لم يأخذ بثأره فلا يزال يصيح ويقول اسقوني حتى يثأر له. لاه ابن عمك: أصله لله ابن عمك فحذفت اللام الخافضة في لحن الكلام. الديان: القائم بالأمر، المسغبة: المجاعة. العزاء: الضيق والشدة. زيد على مائة: زيادة عليها. سفوان: اسم مكان. والكماة الفرسان جمع كمي. الحدثان. الحوادث. المقاديم: جمع مقدام. والمرار بالروع هنا الحرب.

٣٣ أبيض فياض: نقي من العيوب كريم والمعتفون طالبو المعروف. ما تغب فواضله: ما تنقطع عطاياه. المقامات: جمع مقامة وهي الجماعة في مجلس واحد. والانتياب. القصد إلى الموضع. المكثرون: الأغنياء. ومن يعتريهم: يقصدهم من الفقراء. لم يليموا: لم يقعوا في اللوم. ولم يألوا لم يقصروا. الخطي: الرمح نسبة إلى الخط وهي جزيرة في البحرين شهرت بعمل الرماح والوشيج شجر الرماح، ومعنى المثل لا يلد الكريم إلا الكريم. لاح الشيء: لمحه وأبصره. واليفاع. التلال. والمقرر: من أصابه البرد. يصطليانها يستدفئان بها. والأسحم الداجي: الليل الشديد السواد. وكف مبيدة: متلفة. الهجان: البيض الكرام من الإبل، يستوي فيه المذكر والمؤنث والجمع. الأوارك: جمع آركة، وهي التي رعت الأراك. الموماة: المفازة. جحيشاً: فريداً. والمنخرق: السريع. الشد: العد.

حاص عينيه الكرى: خاطها على الاستعارة. الشيحان: الغيور على حرمه. الربيئة: الطليعة. تاج: اسم مكان. وما تمر وما تحلي: أي لا تنفع ولا تضر.

٣٤ أحساب نيتن مع البقل: أحساب غير أثيلة أحدثها الغنى. والواسل. الطالب الراغب من اللّه. تصفر منها الأنامل: كناية عن الموت. الحصائل جمع حصيلة: وهي ما كسبه المرء من حسنات وسيئات. يقسم أمره: يديره. هبلته أمه: ثكلته وفقدته. والوائل: الناجي. والموائل: المنجي. تزعك العوازل: تكفك الحوادث. الخابور: نهر بين رأس عين والفرات. والكلس ما يبنى به من النورة وأخلاطها. الخورنق والسدير: قصران عربيان جاهليان: والصبا: الريح الشرقية. الدبور: الريح الغربية. وألوت به. ذهبت به. الكلكل: الصدر. انجل: انكشف. الإصباح: الصبح. وأمثل: أفضل. مغار القتل: محكمه. ويذبل جبل في نجد.

٣٥ الوكنات: الأعشاش. والمنجرد: القصير الشعر. والأوابد. الوحوش ومعنى قيد الأوابد أنه يلحقها فيمنعها من الفرار فكأنه قيدها. والهيكل: الضخم. والمكر: كثير الكر. والمفر: شديد الفر. الأيطلان: الخاصرتان. والإرخاء: الجري. والسرحان: الذئب. والتقريب: العدو والتتفل: الثعلب. الحدوج: جمع حدج وهو مركب النساء كالمحفة. والخلايا: السفن العظام. والنواصب: مسايل الماء ومجاريه في الجبال. وود: اسم مكان. عدولية: نسبة إلى عدول، رجل كان مشهوراً بصنع السفن. وابن يامن: رجل ملاح كان يتخذ السفن الكبار. الحباب: الموج. والحيزوم: الصدر والمفايل:

لاعب الفيال وهي لعبة كان يلعبها صبيان الأعراب، يخبئون الشيء في التراب ثم يقسمونه بأيديهم ويقولون: أين هو؟. النطفة: الماء النقي لا كدورة فيه. والمزن السحاب. والجودي: اسم جبل. ودامس: مظلم. اللصاب جمع لصب، وهي شقوق في الجبل. والقارس. البارد. الكواكب ما طال من النبات، والنبات العميم: المكتهل التام. والأصل جمع أصيل آخر النهار. صعر خده: تاه وتكبر. والعرانين: الأنوف. الميسم: أثر الوسم وهو الكي. استقاد: آقتص. الشجاع: الحية. صمم: عض ونيب.

٣٦ ينضحون عنهم: يدافعون، عهد الثقافة: عهد التلمذة والتدرج.

٣٧ شام البرق: نظره. والقلل: الجبال والجلل هنا: الحقير.

٣٨ فصل بالجنود: رحل بها. تهرأ لحمه: تقطع وسقط. وجفنة مثعفجرة: قصعة ملأى. وطعنة مسحنفرة: سريعة. مساجلة الشعراء: أن يتناشد الشاعران بيتاً فبيتاً أو شطراً فشطراً يبدأ الأول ويكمل الثاني. المها: بقر الوحش. سقط اللوى: منقطع الرمل. والدخول وحومل: موضعان في بلاد العرب.

٣٩ أزمعت: نويت. أجملي: ترفقي، أعشار القلب: أجزاؤه مقسمة إلى عشرة. الخليقة: الطبع. وسلي ثيابك الخ كناية عن المفارقة. كذلك حدى: حظي. جمل وأعفر: موضعان بالشام. وحوران: كورة من أعمال دمشق. والآل: السراب، واللبانات: الحاجات المعنوية. وحماة وشيزر: بلدان بالشام. والدرب: باب السكة الواسع وكل مدخل إلى بلاد الروم. درب الماء النابع الذي لا ينقطع. السراة

وذوو المثالة: أشراف القوم وكبارهم: طأطأ من إشرافه: خفض تعاليه.

٤٠ طلال الخفض: السعة والنعيم. درج بالنميمة بينهما: سعى بها. كليني: دعيني. وهم ناصب. متعب. وبطء الكواكب: كناية عن طول الليل. أراح: رد. وعازب: بعيد.

٤١ الأشائب: الأخلاط من الناس. البيض: السيوف. الغلول: الثلوم. القراع: المجالدة. الأحلام: العقول. غير عوازب. غير ذاهلة ولا غائبة. رقاق النعال: كناية عن الترف والحجزات جمع حجزة: وهي معقد الأزار.طيب الحجزة: كناية عن العفة، ويوم السباسب عيد الشعانين، وكان من عادة العسانيين أن يحيوا ملوكهم فيه برفع أغصان الريحان. ضربة لازب. أي شيء ثابت لازم. الجدة: المعنى، ورحب الأناة: حليم وراجح الحصاة. وافر العقل.

٤٢ اللفظ الحوشي: ما يتحاشاه الكاتب لغرابته أو ثقله وهجر الحديث فاحشه وتعمل الشعر تكلفه.

٤٣ السحيل. المفتول فتلاً واحداً، والمبرم المفتول على قوتين، وهما مستعاران للضعيف والقوي. منشم اسم امرأة عطارة اشترى منها قوم عطراً وتحالفوا على قتال عدوهم: وجعلوا آية الحلف غمس الأيدي في ذلك العطر وقاتلوا حتى فنوا. فضرب المثل في الشؤم بعطر منشم. التلاد: المال الموروث. والأفال والمزنم المشروط الأذن. خبط عشواء: تسير على غير هدى كالناقة التي لا تبصر أمامها. يفره: يحفظه.

٤٤ ثقف الشعر: تعلمه وأتقنه. آبيضت عيناه: كناية عن العمى. الفرق: الخوف.

٤٥ المألكة: الرسالة. وتأتكل: تحترق من الغضب. الأثلة: واحدة الآثل، شجر عظيم صلب وتحت الأثلة: كناية عن القذف والغيبة. وأطت الإبل: أنت وحنت. الوعل: تيس الجبل. فتل جمع فتول: وهو الكثير الفتل. الأرمد: من به رمد في عينه والسليم: الملدوغ، سمي بذلك تفاؤلاً يبرئه. والمسهد، الساهر. الخلة: الصداقة. ومهدد: اسم امرأة: تردد الدهر: تغير وتقلب. الكلالة: التعب؛ والضمير في لها يعود على ناقته. والوجي: وجع الخف ورقته من كثرة السير.

٤٦ تراجي: تستريحين ـ والفواضل: العطايا. ما تغب ما تنقطع. أغربة العرب: سودانها. مسعر حرب: مضرمها ومشعلها. الضر: شد ضرع الناقة حتى لا يرضعها ابنها. ترين على القلوب: تشغيها. يتذامرون: يحض بعضهم بعضاً على القتال.

٤٧ الأشطان: الحبال التي يرفع بها الماء من البئر. واللبان. الصدر. والأدهم الفرس الأسود. بثغرة نحره: أعلاه. أزور: مال. التحمحم: حنين الفرس ليرق له صاحبه. ويك: اسم فعل مضارع بمعنى أتعجب والكاف للخطاب. الشيظمة: الفرس الطويل والأجرد قصير الشعر. الحتف: الموت. أقني حياءك: الزميه. لا أبا لك: جملة يراد بها التنبيه لا التعنيف. تلاحظوا: نظر بعضهم بعضاً بمؤخر عينه من شدة الهول. معم مخول: كريم الأعمال والأخوال. ساهمة الوجود عابسة. والطوى: والجوع.

٤٨ الحباء. العطاء. أخذ وجهه: سار في طريقه. حاد البادرة: سريع الغضب. خولة: اسم امرأة. هوجاء مرقال: ناقة شديدة السرعة. العتاق: الجوارح من الطير والنجائب من الخيل. الوظيف: مستدق الذراع والسلق من الخيل والإبل وغيرها. المورد المعبد: الطريق الموطوء المستوي. العثنون: شعرات طوال عند مذبح البعير. وصهابية: نسبة إلى صهاب وهو فحل مشهور. موجدة القرا: قوية الظهر. الوخد: سعة الخطو. موارة اليد سهلة السير سريعته.

٤٩ الأتلع: العنق الطويل. التلاع: مجاري المياه من رؤوس الجبال إلى الأودية. استرفد: طلب الرفد وهو المعونة. الحانوت: حانة الخمار. الطريف: المال المكسوب والمتلد: المال الموروث. البعير المعبد: المطلي بالقطران. بنو غبراء: كناية عن الفقراء. الطراف: القبة من الجلد. الدجن: إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء. البهكنة: المرأة الغضة. المحنب من الخيل: المنعطف العظام، وذلك مدح له. سيد الغضى: الذئب. يعتام الكرام: يصطفيهم، والعقيلة: كرام المال. الطول: الحبل الذي يطول للدابة فترعى فيه، والثنيان: طرفاه، الموت أعداد النفوس: أي بعددها، فلكل نفس موتة.

٥٠ طريقة قومه: كبيرهم ورئيسهم.

٥١ غمر البديهة: فياض القريحة. انظرنا: أمهلنا. المخاريق: جمع مخراق وهو سيف من خشب يلعب به الصبيان والجهل: معناه الشدة والسفه. لين القناة: كناية عن الذل، الخسف: الظلم والهوان.

٥٢ ارتجلها عفو الساعة: أنشدها ارتجالاً. ينصح عن قومه: يدافع عنهم. ليقيد منها: ليقتص منها. استل من قلبه السخيمة: أخرج الضغن منه.

٥٣ الأراقم: بطون من تغلب. ويغلون: يبالغون. وإحفاء: إلحاح. رقش الكلام: زوّره وزخرفه. لا تخلنا على غرائك: أي لا تظن أنا نحفل بإغرائك. ملك مقسط: عادل. الخطة: الأمر. والأملاء: الجماعات والمفرد ملأ. الطيخ: التكبير، والتعاشي: التعامي. الحلف: المحالفة. والكفلاء: جمع كافل وهو الضامن. الجناح: الذنب. وكندة: قبيلة. الرغاء: صوت البعير. والنجاء: الإسراع في السير. والموائل: الهارب الفزع. والحرة: الأرض ذات الحجارة السود: والرجلاء الغليظة الشديدة. والطود: الجبل. المعترين: الفقراء.

٥٤ مشيع القلب: شجاع. اللزاز: من يلزم الشيء ويعتمد عليه فيه والجشام: المتكلف للأمور، والمغذمر: الغضوب في همه. لا يطبعون: فلان يطبع إذا لم يكن له نفاذ في مكارم الأمور: والبوار. الفساد.

٥٥ أفظعت العشيرة: أصيبت بأمر فظيع.

٥٦ لا تلبق مما تملك شيئاً: لا تبقى. آليت: حلفت. استقروه: طلبوا منه القرى وهو طعام الضيف، صرف الحديث: المختلق المزور. السنة: المجاعة. اقشعرت الأرض: تقبضت من عدم المطر. حدبا جدابير. ناقة حدباء. وحدبار: بدت حراقفها من الهزال. ليلة صنير: باردة. تهورت النجوم: أي ولى أكثر الليل. كسرت البيت: جافيه. وجأ ليته: نحو عنقه.

٥٧ ينهنهه الزجر: يكفه. الصدى: الجسد من الإنسان بعد موته.

٥٨ ترق. تعوذ. الأنى: الحلم، العوراء: الكلمة أو الفعلة القبيحة، الأود: الاعوجاج. المسوح: ثياب الرهبان. سقط في يده: ندم. أوهاق المنية: حبالها.

٥٩ نابى القافية: قلقها. اليافع: الغلام إذا نزعرع وشارف البلوغ. وتعل: تسقى المرة بعد المرة. وتنهل: تشرب أول الشرب. المطروق: المصاب.

٦٠ الحميم المكظوم: الماء الحار المحبوس. الإيلاف: رحلتان تجاريتان لقريش في الشتاء لليمن وفي الصيف لحوران.

٦٣ يؤرثون النار: يشعلونها.

٦٨ الجزع بالفتح: الخرز اليماني والصيني فيه بياض وسواد. منجماً: مفرقاً مجزءاً على حسب الحوادث.

٦٩ المصادع جمع مصدع: وهو البليغ القومي. السكات والحصر: العي والعجز.

٧٠ أحلاماً طافية عقولاً طائشة.

٧١ العسب جمع عسيب. وهو جريدة النخل قد نزع خوصها: واللخاف: حجارة بيض رقاق.

٧٥ المنبت: المنقطع عن أصحابه في السفر. الظهر: الدابة. الجمل لأنف: لمخزوم: تشدق الرجل: لوى شدقه للتفصح. تفيهق في كلامه: توسع وتنطع. الفرس الشموس: الذي لا يمكن أحداً من ظهره، وضده الذلول.

٧٦ الصفق في الأسواق: البيع والشراء. أنغض رأسه إليه. حركه تعجباً واستهزاءً.

٨٣ الغرزمة. أول عهد الشاعر يصنع الشعر. أشفى على الخطر: أشرف عليه.

٨٦ المزاء (بالضم): اسم للخمر اللذيذة الطعم. السكر (بفتح السين والكاف): نبيذ يتخذ من التمر والتوت.

٨٧ القطين جمع القاطن. وهم أهل الدرا. الغوارب: جمع غارب، وهو الكاهل. المسطار: الخمرة الصارعة لشاربها.

٨٨ الفتاة الخفرة: الحيية. الأتن: جمع أتان. أنثى الحمار. الأعيار: جمع عير، وهو الحمار.

٨٩ رجلي ترعية: يجيد وعارية الإبل الهراش: الخصام والقتال، وهو مستعار من هراش الكلاب. القلف: عدم الاختتان.

٩١ القرمل: شجر ضعيف لا شوك له وينفضخ إذا وطىء. الفياش: فخر الرجل بما ليس عنده. صغى البعيث: مال وخضع. اللأمة: الدرع.

٩٢ ابن اللبون: ولد الناقة إذا استكمل العام الثاني. لز في قرن: شد في حبل. البزل: جمع بازل وهو البعير انشق نابه بدحوله في السنة التاسعة. القناعيس جمع قنعاس: وهو العظيم من الإبل.

٩٤ كسعه: ضرب دبره بصدر قدمه وطرده. النفل (بالفتح): الغنيمة. كاس الذيفان: السم.

١٠١ طارت نفسه شعاعاً: تبددت من الخوف أو نحوه. لن تراعي: لن تفزعي. والخنع: الذل. واليراع: الجبان.

١٠٢ يعتبط. يموت من غير علة. سقط المتاع: رديئه. الشليل: الدرع. أجم المعروف: كرهه. والعوراء: الكلمة القبيحة. وكره: تتابعه. للندى والسدى: رطوبة الجو، والمراد بهما المعروف. والخود: المرأة الناعمة. وعقبة القدر: ما بقي فيها من المرق وذلك كناية عن الحدب. الفنن: الغصن. الورقاء: الحمامة.

١٠٣ تخرموا: هلكوا. المروة الحجر. يفغمني: يسد خياشيمي. فشاول بقيس: دافع بهم ومارس.

١٠٥ ميعة الحب: أوله وأصله. والغماء: الشدة. المنادح: المفاوز.

١٠٦ لا طباخ لهم: لا فائدة ولا قوة. والدندن: أصل الصليان وهو من البقول.

١٠٧ البوادر: الشدة. منوا بداء السياسة: أصيبوا به.

١٠٨ كأساً روية: ملأى. ويب غيرك، الويب كالويل وزناً ومعنى، لعاً لك: دعاء للعاثر لينهض. فوز: مات.

١٠٩ الآلة الحدباء: النعش. تنهنه دموعها: تكفكفها.

١١٠ الجرس هنا بمعنى النغم. أمثل قومه: أشرفهم. تعرقني الدهر: من قولهم تعرق العظم أخذ ما عليه من اللحم نهشاً بأسنانه.

١١١ الخز: الحرير. والبز: الكتان.

١١٢ مغلغلة: رسالة. عبد الدار: قبيلة. لا يطبعون: لا يفسدون.

١١٣ جلق: اسم دمشق. وشم الأنوف: كناية عن الشهامة.

١١٤ الجنب. الغريب. متحي وأمراسي المتح: إخراج الماء من البئر. وأمرس البكرة. أعاد حبلها إلى مجراه. الآسي: الطبيب. الأرماس: القبور. هرته الكلاب: نبحته. العرف: المعروف.

١١٥ الحفيظة: الغضب، خلا ذرعه: فرغ باله. العواتق: الأرانس.

١١٦ نوطة: تعلق. تبع نساء: يزور النساء ويتبعهن. يخصر: يبرد.

١١٧ توألت: طلبت النجاة: أريتك: بمعنى خبرني. تغور النجم: أفل. الكاعب: الفتاة الناهد. والمعصر من بلغت شبابها. المشاش: رؤوس العظام.

١١٨ سليط اللسان: بذيئه.

١١٩ العارم: الشد. والذكرد: الشديد القتال. حشد على الحق: سراع الإجابة عند النداء. عيافو الخنا: كارهون للفحش. أنف: أباة الضيم. شمس العداوة: ألداء

الخصام. مجلله: عامة. المساحي: الفؤوس.

١٢١ مقذع: مفحش. نكباء حرجف: ريح باردة شديدة الهبوب. الصقيع: الثلج. سروات النيب: ظهور الجمال: ونطف الرجل: اتهم بريبة. والعبيط اللحم. القعساء: العزة. المصير، واحد المصران: الأمعاء. والألق: الجنون أو شبهه. بحمراء الفروع: نار القرى.

١٢٢ ينجاب: ينكشف. والقتم: الغبار. صعر خده: أماله عن الناس كبراً. الأخادع. جمع أخدع وهو شعبة في العنق من الوريد.

١٢٣ يرامي قرنه عن كثب: ينازل خصمه من قرب. اللقحة: الناقة. والرعاء: جمع راع. أرث النار أو الحرب: أضرمها.

١٢٥ المقرف: النذل ومن أبوه غير عربي. والوزار: كثير الإثم. كبش الجحفل: قائد الجيش. نقض مرة: وهن قوة. التطين: الخدم والحشم والأتباع. السمت: هيئة أهل الخير.

١٢٦ الضراعة: الذل. الكرابيس: جمع كرباس وهو الثوب الخشن الغليظ من القطن. رغيب العين: طماع.

١٢٧ العنجهية: الجفوة والخشونة. الاعتراض: صعوبة المراس. ريق الغرة: رونق الشباب. والبياض الشيب. تنوص: تتحرك. صيدحي الضحى: الصياح الرفيع الصوت. الأباس: القيد. السبنتاة: الحريثة من كل شيء وغرضه الناقة. أمارت: أسالت، الكراض بالكسر: الفحل، القوداء: طويلة الظهر والعنق. أنفجت بالبناء للمجهول: رفعت. الزحاليف: جمع زحلوفة وهي المكان المنحدر المملس. الصفصف: المستوي من الأرض. الدخاص جمع دخص وهو المزلق. الأحفاص: جمع حفص وهو البعير الضعيف: استعاره هنا للجبان. الثأي: الصدع.

١٢٨ ورأيه: أصلحه. العين: الماء الجاري. لوث العمامة: لفها وتكويرها.

١٢٩ ظمء حياته. من يوم ولادته إلى يوم وفاته. يحبو للسادسة: يقاربها. أخلى ذرعه: أفرغ باله.

١٣٠ الكل: العبء. المربوع والربعة: الرجل بين الطول والقصر، المشذب: الشديد الطول في نحافة لشعر الرجل: الذي كأنه مشط فتكسر قليلاً ليس بسيط ولا جعده. القيقة: شعر الرأس والمراد إن انفرقت من ذات نفسها فرقها وإلا تركها معقوصة. الحاجب الأزج: المقوس الطويل الوافر الشعر. القرن: اتصال شعر الحاجبين وضده البلج. أقنى العرفين: سائل الأنف مرتفع الوسط.

١٣١ الأدعج: الشديد سواد الحدقة: كث اللحية: كثيفها. ضليع الفم: واسعه. الأشنب ذو الشنب وهو رونق الأسنان وماؤها. والفلج: فرق بين الثنايا، المسربة: خيط الشعر الذي بين الصدر والسرة. الدمية: المصورة من العاج. البادن: ذو اللحم المماسك الذي يمسك بعضه بعضاً. الكراديس رؤوس العظام. شثن الكفين والقدمين: غليظهما ولحيمهما، سائل الأطراف: طويل الأصابع. خمصان الأخمصين: متجافي أخمص القدم والأخمص هو الموضع الذي لا تناله الأرض من وسط القدم. مسيح القدمين: أملسهما. التقلع: رفع الرجل بقوة. التسكفؤ: الميل إلى سنن المشي وقصده. الهون. الرفق والوقار.

ذريع المشية: واسع الخطو. من صبب: من علو. بختمه بأشداقه: يستعمل جميع فمه للتكلم لا يقتصر على تحريك الشفتين. يند: ينفرد ويشرد.

١٣٢ مات حتف أنفه. مات على فراشه لأن العرب يزعمون أن روح المريض تخرج من أنفه فإن جرح خرجت من جرحه. حمي الوطيس. اشتدت الحرب، والوطيس: التنور أو المعركة. هدنة على دخن: سكون لعلة لا لصلح والدخن: الحقد. رفقاً بالقوارير: جمع قارورة. وهي المرأة تشبيهاً لها بالزجاج لضعفها. الختن: زوج البنت أو زوج الأخت. لحنه أخته: لامته.

١٣٣ شاهت الوجوه: قبحت. الدهماء: عامة الناس. الغلس: ظلام الليل. السبال. جمع سبلة وهي طرف الشارب.

١٣٤ آس بين الناس: ساو بينهم. الغلق: الضجر والغضب. أقدعوا النفوس: كفوها وأردعوها.

١٣٥ ناوس الحرة ثم سالمها: الحرة خشبة في رأسها كفة تصاد بها الظباء، وناوصها الظبي. حابذها ومارسها. يضرب هذا المثل لمن يخالف القوم عن رأيهم ثم يرجع إلى قولهم ويضطر إلى الوفاق. استوثق الأمر: أمكن وانتظم.

١٣٦ الداء الدوي: الدفين الذي لا يطب له. والنزعة: جمع نازع وهو رافع الماء من البئر. الأشطان الحبال. والركي: بئر غير مطوية. اللقاح: النياق. مرهت عينه: ابيضت حماليقها. عض الأيدي: كناية عن الندم. يسني لكم طرقه: يمهدها. خيل شمس: جمع شموس وهو الذي يمنع ظهره ولا يكاد يستقر. والذلل جمع ذلول وهو المروض الطيع.

١٣٧ ركلها: رفسها برجله.

١٣٨ ضربت فيه بعرق أشب: أي ذي التباس فنسبه غير صريح. الرأي الجميع: الحازم. واللسان الدرب: الحاد.

١٣٩ لم الشعث: جمع المتفرق. دلج الليل: سير آخر الليل للغارة. كنس كنوساً: تغيب واستتر. ومكانس الريب: محال المنكر. جعلت ذلك دبر أذني: لم أصغ إليه ولم أعرج عليه.

١٤١ تنكب قوسه: حملها على منكبه. ذيم: اسم فرس أو ناقة. لفها. جمعها. حطم: مسرع. الوضم: خشبة يقطع عليها اللحم. العصلى: الشديد. الأروع: الذكي. الدوي: الصحراء. والخروج منها كناية عن الخبرة والصبر والجلادة كقولهم: طلاع الثنايا. العرد: الشديد. البكر: الفتي من الإبل. الشنان: جمع شن وهو الجلد اليابس يعلق في الخباء فإذا دنت الإبل منه حرك فنفرت من صوته (أي لا يخاف مما لا يخيف) فررت: أي اختبرت فوجدت ذكياً. الكنانة: جعبة السهام. عجم عيدانها: عضها لينظر أيها أصلب. أمرها: أقواها. الإيضاع: نوع من السير.

١٤٢ السلمة: شجرة القرظ تعصب ثم تخبط بالأرض أو بالعصي ليسقط ثمرها. ومعنى الجملة أنهم كهذه الشجرة لا ينتفع منها إلا بالشدة. غرائب الإبل تضرب أشد الضرب عند الهرب. وعند الخلاط لا أخلق: لا أقدر ولا أفصل. فريت: قطعت.

١٤٣ الألوية السود: أعلام العباسيين.

١٤٤ تحور: ترجع. الأفاويق: جمع فيقة وهي اللبن. رمحتنا: رفستنا الطير. بارحة: كناية عن سوء الحال. الأسار: القيد.

١٤٥ أوسطهم داراً: كناية عن السؤدد والشرف.

١٤٦ لا تنفسوا: نفس عليه خبراً: حسده عليه

ولم يره له أهلاً. تتسللون لواذاً: تهربون خفية. الظليم: ذكر النعام.

١٤٧ أحمرها وأسودها: عجمها وغربتها. تعنو: تخضع. وتحب القلوب: تخفق. داخرين له: أذلاء. الجريرة. الذنب: فسودوا كباركم: اجعلوهم سادة لكم. المسألة: سؤال الناس استجداء.

١٤٨ ضم نشرهم: جمع متفرقهم.

١٥٣ ينمون: ينتسبون. وقسراً: غضباً وقهراً. ثل: هدم. آرية نسبة إلى الآريين وهم قدماء الجنس الهندي الأوربي.

١٥٥ الفلج: النصر الكبث. الإذلال. الجنة: طائفة من الجن.

١٥٦ قمع: قهر وذلل.

١٥٧ تلكأ: أبطأ وتوقف. المزاوجة: اتفاق الكلمات وزناً لا روياً. الملح جمع ملحة وهي ما حسن من الأحاديث.

١٥٩ العظائم: الشدائد. والسخائم: الضغائن. أشكيناك: أزلنا شكايتك وأعتبناك: قبلنا عتابك. الحفيظة: الغضب والموجدة.

١٦٠ عروة هذا القميص. يريد الخلافة. خبىء الغمد: السيف. العرفج: شجر سهل وهو القتاد. الهلوك المرأة التي لا تملك نفسها عن زوجها. الآن: ظرف متعلق بأمن أي الآن أمن الأحمر والأسود.

١٦٢ باب الأبواب: ثغر من ثغور بحر قزوين وكانت مدينة شهيرة تعرف الآن بدربند. الغارب: الموج. تحوذ: تسوق. وملكنا البحر: توسطناه. البحرين: البحر والمطر. الثمال: من يعول عليه. وسروات: جمع الجمع لسري وهو السخي ذو المروءة وسريات جمع: سرية وهي الرفيعة القدر. القلب. العسكر. والظهر: الدابة. واليد: النعمة. والأعضاء: الأعوان. والجوارح: الأعضاء. والحاجب: الخادم. والعين: الذهب. والراحة ضد التعب. صلد الزند: كناية عن الخيبة. اليمن: القوة: واليسار: الغنى. المرافق ما يرتفق به. الثنية: الفتية من النوق. والناب: الناقة المسنة. العيش الأخضر: كناية عن المعيشة الطيبة والمحبوب الأصفر: الذهب. فودي: جانب رأسي. والعدو الأزرق: الشديد العداوة. الموت الأحمر: القتل بالسيف.

١٦٣ احتجن المال: ضمه إلى نفسه. تقفعت: تقبضت. الحلة: الحاجة النقص.

١٦٥ الأساود جمع أسود: وهو العظيم من الحيات. الفادح: الثقيل. والعياء الذي لا يبرأ منه. يماري: يجادل. وينازع. وبذ: غلب. وعادياً: واثباً. ويدلي: يحضر ويحتج.

١٦٦ أثيراً: مقرباً. الفالج: داء يحدث في أحد شقي البدن فيبطل إحساسه. تبلغت به العلة: اشتدت. مجانة: مزاح وهزل.

١٦٧ فل: ثلم. وشباة: حد، على رسلي برفق وتؤدة.

١٦٨ لساجلتك. باريتك وعارضتك. المصارمة: المقاطعة. يديل: أدال الله فلاناً من فلان جعل له الكرة عليه. القلى: البغض. الجادة: وسط الطريق. البنيات: الطرق الصغار تتشعب من الجادة. الجهارة: حسن القد والمنظر. يتنيل: يتشبه بالنبلاء.

١٦٩ المدارج: الطرق. يتوقل: يتصعد. اضطلع بكذا: احتمله ونهض به. عشارها: جمع العشراء للناقة متى مضى على حملها عشرة أشهر. القولنج: مرض مؤلم من أمراض المعدة. النقرس داء يأخذ في أصبع الرجل.

١٧٠ الديباجة هنا حسن الأسلوب. الوشي: نقش الثوب من كل لون. الغرار: المثال

الذي تضرب عليه النصال لتصلح. يمت: مت إلى فلان بكذا وصل إليه وتوسل. غلول: خيانة. استئصالك: اصطلامك. حلبت شطريها: مر بك خيرها وشرها. ظل ذو ثلاث شعب: دخان جهنم على وجه التشبيه.

١٧١ حلي بصدرك: أعجبك سريج: مسجل. الحشاشة والذماء: بقية الروح في جسم المريض: البرحاء: شدة الأذى والمشقة. أعضلنهن: عضل المرأة حبسها عن الزواج.

١٧٣ الغلواء: السرعة والذهاب إلى الغاية. مني: أصيب.

١٧٤ شام البرق: نظره. الإيماض: البريق.

١٧٥ عوارف: جمع عارفة وهي الصنيع والجميل. ألقى عصاه: كناية عن الإقامة بعد الظعن.

١٧٦ عفو الساعة: بسرعة من غير كلفة. ابن بجدتها: العالم بالشيء المتقن له. والبجدة باطن الشيء. الكدية: التسول. السماط: الشيء المصطف وما يوضع عليه الطعام. الأشراط: العلامات.

١٧٧ المقة: المحبة. دخلة الرجل نيته ومذهبه. النحلة: النوع أو المذهب. الأزر: الظهر والقوة. التولب: الخنزير: أقني حياءك: الزميه. خزاً وبزاً: حريراً وكتاناً. مطارف: جمع مطرف وهو رداء مربع من الخز في طرفيه علمان. تعزى: تنسب. العافون. جمع عاف وهو طالب الرزق.

١٧٨ خضرة الدمن: ما نبت في المزبلة من العشب. المعيدي: رجل من معد يضرب به المثل في حسن الصيت وقبح المرأى. الغلائل: جمع غلالة وهي الثوب الرقيق، الأحاجي: جمع أحجية وهي الكلمة المغلقة يتحاجى الناس بها.

١٧٩ التنويل: العطاء. الاعتمار: القصد والزيارة.

١٨٠ المسغبة: الجوع.

١٨٢ مؤاتاة: مساعدة. الأخبية المطنبة: الخيام المضروبة.

١٨٣ يتقيلون: يتشبهون، تجرم: نقضي. عييت: عجزت. مهلهلة النسج: سخيفته.

١٨٤ أشرع الرمح. شهره. البنود: الأعلام. الكماة: الأبطال.

١٨٥ حسبة: إدخاراً عند ٱللَّه.

١٨٦ الأطمار: الثياب البالية. الآبق: الهارب. النواطير: جمع ناطور وهو حافظ الكرم والنخل. يشمن: امتلأت بطونهن. الصيد: جمع صيد، وهو الشريف العزيز. جدا كل جبس: أعطاه كل بخيل دنيء: بلغ. جمع بلغة وهي ما يتبلغ به من المعيش: صبابة العيش: بقيته وآخرته. طفقتها: نقصتها.

١٨٧ الرحل هنا: المنزل. وحضرت الهموم رحلي: طرقتني. المدائن: مدائن كسرى وهي إلى جنب بغداد. الأبيض: إيوان كسرى: والعنس: الناقة الصلبة. درس: قفر. خافضون في ظل عال: منعمون في قصر مشيد. يحسر العيون ويخسي: يردها حاسرة خاسئة لارتفاعه. خلاط ومكس: مكانان. حلل: جمع حلة، وهي مكان النزول والقرية. البسابس: القفار. عنس قبيلة من اليمن: والبحتري طائي يمني. غدون أفضاء ليس: صرن باليات. الدرفس: راية الفرس. إغماض جرس: سكوت. المشيح: البطل. يغتلي ارتيابي: يزداد. وتنقراهم: تفحصهم، أبو الغوث: ابن البحتري. ولم يصرد: أي لم يسق دون الري. والعسكران: مكان. اللخس: أخذ الشيء في نهزة ومخاتلة. أضوأ

الليل: أضاءه. الجوب: الكانون والمكان الوطيء وأرعن جلس: جبل شاهق. يتظنى الخ . . . يظنه القادم عليه إنساناً مزعجاً بفراق حبه أو بتطليق زوجه.

١٨٨ الدمقس: الحرير. ورضوى وقدس: جبلان. البرس: القطن. النكس: الوضيع. ووقوف: جمع واقف. وخنس: مستترون. القيان: المغنيات. يرجعن: يغنين وحو ولعس: جمع حواء ولعساء لسوداء الشفة، وكانت صفة مستحسنة. غير نعمى لأهلها عند أهلي: يشير إلى قصة سيف بن ذي يزن وآستعانته بكسرى في طرد أرباط ملك الحبشة من اليمن بعد أن ملكها، والبحتري كما نعلم يمني. السنح: الأصل. حالية العذارى، لابسة الحلي منهن. الجديدان: الليل والنهار.

١٨٩ الشملال: الناقة السريعة. لم أعتمد أي لم أتعمده.

١٩١ قد حال في: تغير. الطرق: الماء خوضته الإبل وبولت فيه.

١٩٢ اللكنة: العجمة والعي. الزق (بالضم): الخمر. النقع: الغبار.

١٩٣ الرجعة: الرجوع إلى الدنيا بعد الموت. نافقة: رائجة.

١٩٤ نفسي: فرجي وخففي. صعر خده. أماله عن الناس من كبر. السليقة: الطبيعة. الأتون: أخدود الجيار والجصاص.

١٩٦ الوظيفة: المرتب من مال أو طعام. وفرة جعدة: الوفرة ما سال على الأذنين من الشعر، والجعدة ما كان فيها التواء وتقبض.

١٩٧ اليم: البحر. الآل: السراب. تحيف: تظلم. مخايل: دلائل على النجم.

١٩٨ نفق عنده: حظي لديه. دالة: جرأة.

١٩٩ ضرب على وتره: جرى على طريقه. الدن: وعاء الخمر الكبير. اللطف (بالفتح): الرفق. المعتقة: الخمر القديمة. المزاج: مزج الخمر بالماء.

٢٠٠ الصهباء: الخمر. الاصطباح: شرب الخمر صباحاً: المها: جمع مهاة، وهي البقرة الوحشية. تدربها: تختلها. القلانس: جمع قلنسوة وهي من أغطية الرأس كالقبعة. تهز بالدلو: ضرب بها في الماء لتمتلىء. أسمت: أرعيت.

٢٠١ السراج: الماشية السائمة. السراة: جمع سري وهو الشريف السخي. الطيرة: ما يتشاءم به من الفأل الرديء. المهرجان: عيد الفرس. القيان: جمع قينة وهي المغنية، النكتة: النقطة البيضاء في الأسود. الخلصان: الخالص من الأخذان بستوي فيه الواحد والجماعة. يلحون: يلومون.

٢٠٣ الأذريون: زهر أصفر في وسطه خمل أسود وهو عباد الشمس. الغالية: أخلاط من الطيب. الدكن: جمع أدكن، وهو المائل إلى السواد. الخود: المرأة الشابة. يدحو: يبسط. قوراء: متسعة. الرشاء: الحبل.

٢٠٤ رنتث، مستعار من رنق الطائر إذا خفق بجناحيه ولم يطر.الورس: نبات كالسمسم أصفر يزرع باليمن ويصبغ به. مزعزع، محرك. شول: نقص. تشعشع العمر: تقضى إلا أقله. صور: جمع صوراء؛ وهي المائلة الملتفتة. روان: نواظر، بين هنا: بمعنى تبين أي ظهر. ومنه المثل (قد بين الصبح لذي عينين) مشعشع: مخلوط بعضه ببعض. أذكى: عطر. ريعان ظله: وارف ظله. ربعي: نسبة إلى الربيع. حثحث: حرك. الصنج: صفيحة مدورة من الصفر يضرب بها على أخرى للطرب. شدوات: تغريد.

٢٠٥ الغلالة: الثوب الرقيق.

٢٠٦ الحندس: الظلام. المنجل: آلة الحصاد. حلئت: منعت.

٢٠٩ أسرار الوجه. الخطوط التي في الجبهة. الجادي: الزعفران. نسبة إلى الجادية قرية بالشام. أنماط: جمع نمط وهو ضرب من البسط. الاستبرق: غليظ الديباج. النشزات الأمكنة المرتفعة. الفيصل: اللسان مجازاً. أعنق: طويل شامخ.

٢١٠ مالأه عليه: ساعده: العطل: الخلو من الزينة. شرع: سواء. رأد الضحى: أوله. الطفل: قبيل الغروب. الرسيم: نوع من سير الإبل. الأنيق: جمع ناقة. المحتد: الأصل. المحتدي: طالب العطاء. أكبت: أذل. الغضاضة المنقصة.

٢١١ فكأن قد: كأنها قد زالت.

٢١٢ الأربع الأدراس: المنازل المقفرة. المشكاة: الكوة غير النافذة.

٢١٣ النبراس: المصباح. حصف عقله: قوي. الكلف: شيء يعلو الوجه كالسمسم. أجياد الكواعب: رقاب الحسان. القتاد: شجر شائك.

٢١٤ الوفر: المال الكثير. مخلق لديباجتيه: ميل لصفحتي وجهه، وذلك كناية عن الابتذال. سرمد: دائم. يفدح: يثقل. فجاج: جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين.

٢١٥ يتزاور: يعوج ويميل.

٢١٦ الغث من الكلام. التافه. الحبك: الطرق، جمع حبكة. الجواشن: الدروع. ريق الغبث: أوله. لجب: ذو لجيب وهو الصوت. تدعى: تنتسب. العثير: الغبار. الحدود: الأحكام الشرعية.

٢١٨ عقود عمره: عقد العدد عشرة. يتجشم: يتكلف الصعب. الرواض: مذللو الخيل ومعلمو ركوبها. أفعم وطابه: ملأ وعاءه. أخلاف: جمع خلف وهو حلمة ضرع الناقة. أشلى عليه الكلب: أعراه به. لم يقم له وزناً: لم يحفل به. يطيش سهمه. يخيب. الإحالة: التكلم بالمحال. الثقلان: الإنس والجن. تتيمه: تذلله وتخضعه. كميت الخمر: ما فيها سواد وحمرة. يسبيه: يفتنه: قرن الشمس: قرصها. لصطنعه لنفسه: اختص به. لواعج: جمع لاعج وهو الهوى المحرق. المرار: آخر الشهر وهو المحاق. الإسار: القيد. الإهاب: الجلد. الحسو: الشرب شيئاً بعد شيء. الطنبور: آلة للطرب ذات عنق طويل وستة أوتار من نحاس. لا يزكو به: لا يليق به. يزمصون شعره: يبتذله.

٢٢٣ العراء: الفضاء. العباب: معظم الماء.

٢٢٤ معصفر: مصبوغ بالعصفر وهو نبت أصفر يصبغ به. عاج: مال.

٢٢٦ العير حمار الوحش. ساف: شم. الخزامى: نبت طيب الرائحة. العود المسن من الإبل. أديم الأرض: سطحها. الرفات: ما يلي من العظام. الفرقدان: كوكبان متلازمان. المدلج: السائر آخر الليل.

٢٢٧ الشرى: مأسدة جانب الفرات. الصلال: جمع صل وهو الحية الخبيثة. المسودة: هم العباسيون لاتخاذهم السواد علماً وشعاراً.

٢٢٩ الفلق: الصباح. الأرق: السهاد والسهر.

٢٣٠ السدف: شدة الظلام. تمر بها: تستدرها. القيان: المغنيات. اللهوات: جمع لهاة وهي أقصى سقف الفم. ذو النون: يونس عليه السلام. والنون الحوت. الجداء جمع جدي. السراحين: جمع سرحان وهو الذئب. مبغوم النداء: لم يفصح عما

يريد. يأسو الجرح: يضمده. أخياف: مختلفون. خاسوا: نكسوا وعذروا، انتهاس: نهش. انبجاس: انفجار. همع الدمع: سكب.

٢٣٣ الريم: الغزال.

٢٣٥ الجمانة: حبة من فضة على شكل اللؤلؤة.

٢٣٦ الرشأ: الغزال الأبيض. الرديني: رمح منسوب إلى ردينة، وهي امرأة كانت تثقف الرماح. الشطب: خطوط السيف. الصوادي: العطاش. يطي: يستهوي.

٢٣٩ شوازياً: مرتفعات. خزراً: جمع أخزر وهو ضيق العين. حشرة آذانها لطيفة صغيرة. قب الأباطل: ضامرات البطون والخصور. الأنسر جمع نسر وهي لحمة في باطن حافر الفرس من أعلاه. الخلوق: الطيب.

٢٤٠ الشلو: بقية الجسم المأكول. القسور: الأسد.

٢٤١ ذات بينهما: الصلة والقربة. ضافية الذيل: طويلته.

٢٤٢ التأسي: التجلد. أنبت: انقطع. النسرين: ورد أبيض عطر قوي الرائحة. الزقوم: شجرة في النار يطعم منها أهلها. والغسلين: ما يسبل من جلود أهل النار.

٢٤٣ السناء: الرفعة والسنى الضوء. القذال: مؤخر الرأس. العلاوة: أعلى الرأس أو العنق.

٢٤٤ يمتاح فضله: أتاه يطلبه. الفنك: دابة يفترى جلدها أي يلبس فرواً.

٢٤٦ مسجور: ملآن. سرجت أغصانها: امتدت وطالت. تفري: تكشف.

٢٤٧ الخضارم: البحار.

٢٤٨ اللمى: الريق. المجرة: نجوم كثيرة لا ترى بمجرد البصر، وإنما ينتشر ضوؤها فيرى كأنه خط أبيض.

٢٤٩ الشنب: بريق الأسنان. واللعس: سمرة في الشفة. الوعساء: رابية من رمل لينة. الرضاب: الريق. الليل مشمط الذوائب: لاح فجره. الجوزاء: برج من أبراج السماء. انكدرت الشهب: هوت وتساقطت. الافرند: جوهر السيف ووشيه. الربطة: الملاءة.

٢٥٠ همى الغيث: سقط. الحيا: المطر. الثوب المعلم: المنقوش، كنن فيه: ستر. برماً: ضجراً. العفاء: الهلاك والبلي.

٢٥٢ الدبر: جماعة النحل. الضرب الهبر أن ينقطع منه اللحم لشدته. السياق: النزع والاحتضار. الاستنان: من استنان الفرس وهو قمصه وعدوه ونشاطه.

٢٥٦ الصبوح: الشراب صباحاً. الأيك: الشجر الملتف الكثير. المخلق: المعطر بالخلوق. الجآذر: جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية.

٢٥٧ الظلم (بالفتح): الريق. الشذا: الرائحة. الإثم: الخمر مجازاً.

٢٦٢ المرزأة: المصيبة. الغفوة: النومة. الروح (بالفتح) المساعدة. الإيوان: الصفة العظيمة. الأوار: اللهب. موقرة: محملة.

٢٦٣ تجهم لها: اسقبلها بوجه كريه. يتقلص: ينزوي ويتراجع. اللسن: الفصاحة. خامره الداء: خالط جوفه. استشرى الفساد: تفاقم وعظم. المشارع. موارد الشاربين.

٢٦٥ قبع في كسر بيته: انزوى وآحتبس. براذين: جمع برذون وهو دابة دون الفرس وفوق الحمار.

٢٦٦ حباء: عطاء. تقية: مداراة. حدباً عليه. عطفاً عليه. سليط اللسان: طويله وحديده. التنطس: التأنق في كل شيء. عني: كلف العناء. من مليه: عدد له ما أعطاه. راش: أغنى: النشب. المال.

٢٦٧ السواد: ما بين البصرة والكوفة وما حولهما من القرى، النبط: جيل من العجم ينزلون بالبطائح من العراقين وقيل إنهم عرب. يتحرجون: لا يرون فيه حرجاً ولا بأساً.

٢٦٨ لأخذت عليه: آخذته. مراغ: مذهب.

٢٦٩ أراده على كذا: حمله عليه. التجبيه: المقابلة المكروه.

٢٧٣ الخبز القفار: غير المأدوم. السارية: العمود.

٢٧٥ الغضا: شجر عظيم من الأثل. غض: طري. الجنى: الثمر. تقتحمه العين: تزدريه: انساغ: سهل دخوله في الحلق. اللها: جمع لهاة لما بين مقطع أصل اللسان إلى أقصى الحلق.

٢٧٧ أصفاه: أسبغه وأطاله. مهاواة للملوك: مسايرة لهم. المسكوكات: النقود. والسجلات: الأوراق الرسمية. العاديات. الأشياء القديمة نسبة إلى عاد. أغفال الرواة: جمع غفل لغير المجرب. المفتريات: مختلفات الأحاديث. الجرح والتعديل في الحديث: تنقص الراوي أو تزكيته.

٢٧٨ كل عليها: عبء. الجد العاثر: الحظ السيىء.

٢٨٠ الربعة: لا بالطويل ولا بالقصير. يرتضخ: ينزع إلى العجم في ألفاظ من ألفاظهم.

٢٨١ أحفظ: أغضب. ما عتم: ما لبث. اليقين: الموت. حسن البزة: حسن الهيئة.

٢٨٢ انفسح درعه: طال باعه، أندر: أتى بالنادر. السمت: هيئة أهل الخير.

٢٨٤ انضوى إليه. انضم. صدع. جاهر. أمضى الركائب في طلبها: أطال السفر في البحث عنها. حداه إلى كذا: دعاه إليه. العامهة: الحائرة. ظهراء: نصراء. إشراف: تعالي. بشكائم: الشكيمة الحديدة المعترضة في فم الفرس. غفلا: لم يسم واضعوها. الدثور: الدروس. الدهماء: جماعة الناس.

٢٨٥ ولا بدع: لا غرابة.

٢٨٦ نكل عنه: نكص وجبن: أبيقوري: شهواتي نسبة إلى أبيقور أحد فلاسفة اليونان. مستهتر: لا يبالي بما فعل.

٢٨٧ خانقاه: مكان الصوفية. توسط باحتها وشارف غايتها: كنايتان عن التضلع منها. شخص: ذهب. التناسخ: انتقال النفس الناطقة من بدن إلى بدن آخر، تقمصت: انتقلت أو لبست.

٢٨٨ الحلولية: فرقة من المتصوفة تقول إن اللّه حال في كل شيء متحد بكل جزء وتجوز أن يطلق على كل شيء أنه اللّه.

انتكث فعله: انتقض أمره. الأرزاء: المصائب، عفى على اللغة: محاها.

٢٩٥ النعرة: الخيلاء والكبر. الردء: العون، الوزر: الملجأ.

٢٩٦ رنقت عليه المنية: رفرفت عليه كالطائر، والذماء: بقية الروح. الأرضة. دويبة تأكل الخشب والكتب. وزحوا: هلكوا من الإعياء. أغطشت. أظلمت، دياجير: جمع ديجور وهو الظلام. شارق: كوكب. بارق: برق.

٢٩٧ ما كان أروح: ما كان أسر. تخونتها: تنقصتها.

٢٩٨ بلة الفصاحة: قليل منها. الإحماض: الانتقال من الجد إلى الهزل.

٣٠١ السراوة: المروءة والسخاء.

٣٠٢ أقيال: جمع قيل وهو الملك من ملوك حمير.

٣٠٣ انثالت على: تتابعت وكثرت.

٣٠٧ ارفض عنها الوهن: زال الضعف.

٣٠٨ ذكا: اشتعل. العفاء: البلي. خبا: خمد.

الأريكة: سرير منجد مزين. خبا أوراهـا: ضعف شأنها.

٣٠٩ الخانعة: الذليلة.

٣١٩ النافق: الرائح. تجلو عنها أعقـاب العلة: تبرأ من بقاياها. ديمستين: أخـطب الناس في اليونان ولد سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٣٢٢ قبـل الميلاد. شيشـرون: أفصح خـطبـاء الرومان ولد سنة ١٠٦ وتوفي سنة ٤٣ قبل الميلاد. الاصفاء، أصفى الشاعر: انقطع شعـره. شبل في نعمـة أبيـه: ربي يحبـو للسابعة: يناهزها. أضراهم أجرأهم. يبلغ الكتـاب أجله: يبلغ الحكم أمده. اللدد: الخصومة الشديدة. رجال المايين: موظفو البلاط العثماني أيام الخلافة.



الفهرس

مقدمة

الباب الأول ــ العصر الجاهلي

الباب الثاني ـ عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

الباب الثالث ـ العصر العباسي

الباب الرابع ـ العصر التركي

الباب الخامس ـ العصر الحديث



